والدأب: العادة والعمل الذي يدأب عليه عامله، أي يلازمه ويكرره، وتقدم في قوله تعالى)كدأب آل فرعون(في أول آل عمران وانتصب)مثل دأب قوم نوح(على عطف البيان من)مثل يوم الأحزاب(ولما كان بيانا له كان ما يضافان إليه متحدا لا محالة فصار الأحزاب و الدأب في معنى واحد وإنما يتم ذلك بتقدير مضاف متحد فيهما، فالتقدير: مثل يوم جزاء الأحزاب. مثل يوم جزاء دأب قوم نوح وعاد وثمود، أي جزاء عملهم. ودأبهم الذي اشتركوا فيه هو الإشراك بالله.

وهذا يقتضي أن القبط كانوا على علم بما حل بقوم نوح وعاد وثمود، فأما قوم نوح فكان طوفانهم مشهورا، وأما عاد وثمود فلقرب بلادهم من البلاد المصرية وكان عظيما لا يخفى على مجاوريهم.

وجملة)وما الله يريد ظلما للعباد(معترضة، والواو اعتراضية وهي اعتراض بين كلامية المتعاطفين، أي أخاف عليكم جزاء عادلا من الله وهو جزاء الإشراك.

والظلم يطلق على الشرك)إن الشرك لظلم عظيم(، ويطلق على المعاملة بغير الحق، وقد جمع قوله)وما الله يريد ظلما للعباد(نفي الظلم بمعنييه على طريقة استعمال المشترك في معنييه.

وكذلك فعل يريد يطلق بمعنى المشيئة كقوله)ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج(، ويطلق بمعنى المحبة كقوله)ما أريد منهم من رزق(، فلما وقع فعل الإرادة في حيز النفي اقتضى عموم نفي الإرادة بمعنييها على طريقة استعمال المشترك في معنييه، فالله تعالى لا يحب صدور ظلم من عباده ولا يشاء أن يظلم عباده. وأول المعنيين في الإرادة وفي الظلم أعلق بمقام الإنذار، والمعنى الثاني تابع للأول لأنه يدل على أن الله تعالى لا يترك عقاب أهل الشرك لأنه عدل، لأن التوعد بالعقاب على الشرك والظلم أقوى الأسباب في إقلاع الناس عنه، وصدق الوعيد من متممات ذلك مع كونه مقتضى الحكمة لإقامة العدل.

وتقديم اسم)الله(على الخبر الفعلي لإفادة قصر مدلول المسند على المسند إليه، وإذ كان المسند واقعا في سياق النفي كان المعنى: قصر نفي إرادة الظلم على الله تعالى قصر قلب، أي الله لا يريد ظلما للعباد بل غيره يريدونه لهم وهم قادة الشرك وأئمته إذ يدعونهم إليه ويزعمون أن الله أمرهم به قال تعالى)وإذا فعلوا

فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء(.
هذا على المعنى الأول للظلم، وأما على المعنى الثاني فالمعنى: ما الله يريد أن يظلم عباده ولكنهم يظلمون أنفسهم باتباع أئمتهم على غير بصيرة كقوله تعالى)إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون(وبظلمهم دعاتهم وأئمتهم كما قال تعالى)وما زادوهم غير تتبيب(، فلم يخرج تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في سياق النفي في هذه الآية عن مهيع استعماله في إفادة قصر المسند على المسند إليه فتأمله.
)ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد[32]يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد[33](أعقب تخويفهم بعقاب الدنيا الذي حل مثله بقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم بأن خوفهم وأنذرهم عذاب الآخرة عاطفا جملته على جملة عذاب الدنيا.
وأقحم بين حرف العطف والمعطوف نداء قومه للغرض الذي تقدم آنفا.
و)يوم التنادي(يوم الحساب والحشر، سمي)يوم التنادي(لأن الخلق يتنادون يومئذ: فمن مستشفع، ومن متضرع، ومن مسلم ومهنئ، ومن موبخ، ومن معتذر، ومن آمر، ومن معلن بالطاعة، قال تعالى)يوم يناديهم(،)أولئك ينادون من مكان بعيد(،)ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار(،)ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة(،)يوم ندعوا كل أناس بإمامهم(،)دعوا هنالك ثبورا(،)يوم يدعوا الداعي إلى شيء نكر(ونحو ذلك.
ومن بديع البلاغة ذكر هذا الوصف لليوم في هذا المقام ليذكرهم أنه في موقفه بينهم يناديهم ب)يا قوم(ناصحا ومريدا خلاصهم من كل نداء مفزع يوم القيامة، وتأهيلهم لكل نداء سار فيه.

صفحة : 3751

وقرأ الجمهور)يوم التناد(بدون ياء في الوصل والوقف وهو غير منون ولكن عومل معاملة المنون لقصد الرعاية على الفواصل، كقول التاسعة من نساء حديث أم زرع زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، كثير الرماد، قريب البيت من الناد فحذفت الياء من كلمة الناد وهي معرفة.
وقرأ ابن كثير)يوم التنادي(بإثبات الياء على الأصل اعتبارا بأن الفاصلة هي قوله)فما له من هاد(.

و)يوم تولون(بدل من)يوم التناد(، والتوالي: الرجوع، والإدبار: أن يرجع من الطريق التي وراءه، أي من حيث أتى هربا من الجهة التي ورد إليها لأنه وجد فيها ما يكره، أي يوم تفرون من هول ما تجدونه. و)مدبرين(حال مؤكدة لعاملها وهو)تولون(.

وجملة)ما لكم من الله من عاصم(في موضع الحال. والمعنى: حالة لا ينفعكم التولي.

والعاصم: المانع والحافظ. و)من الله(متعلق ب)عاصم(، و)من(المتعلقة به للابتداء، تقول: عصمة من الظالم، أي جعله في منعة مبتدأة من الظالم. وضمن فعل عصم معنى: أنقذ وانتزع، ومعنى)من الله(من عذابه وعقابه لأن المنع إنما تتعلق به المعاني لا الذوات.

و)من(الداخلة على)عاصم(مزيدة لتأكيد النفي.

وأغنى الكلام على تعدية فعل)أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب(عن إعادته هنا.

وجملة)ومن يضلل الله فما له من هاد(عطف على جملة)إني أخاف عليكم يوم التناد(لتضمنها معنى: إني أرشدكم إلى الحذر من يوم التنادي.

وفي الكلام إيجاز بحذف جمل تدل عليها الجملة المعطوفة.

والتقدير: هذا إرشاد لكم فإن هداكم الله عملتم به وإن أعرضتم عنه فذلك لأن الله أضلكم ومن يضلل الله فما له من هاد، وفي هذه الجملة معنى التذليل.

ومعنى إسناد الإضلال والإغواء ونحوهما إلى الله أن يكون قد خلق نفس الشخص وعقله خلقا غير قابل لمعاني الحق والصواب، ولا ينفعل لدلائل الاعتقاد الصحيح.

وأراد من هذه الصلة العموم الشامل لكل من حرمه الله التوفيق، وفيه تعريض بتوقعه أن يكون فرعون وقومه من جملة هذا العموم، وآثر لهم هذا دون أن يقول)ومن يهد الله فما له من مضل(لأنه أحس منهم الإعراض ولم يتوسم فيهم مخائل الانتفاع بنصحه وموعظته.

)ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا(توسم فيهم قلة جدوى النصح لهم وأنهم مصممون على تكذيب موسى فارتقى في موعظتهم إلى اللوم على ما مضى، ولتذكيرهم بأنهم من ذرية قوم كذبوا يوسف لما جاءهم بالبينات فتكذيب المرشدين إلى الحق شنشنة معروفة في أسلافهم فتكون سجية فيهم.

وتأكيد الخبر ب)قد(ولام القسم لتحقيقه لأنهم مظنة أن ينكروه لبعد عهدهم به.

فالمجيء في قوله)جاءكم(مستعار للحصول والظهور والباء للملابسة، أي ولقد ظهر لكم يوسف ببينات. ولا يلزم أن يكون إظهار البينات مقارنا دعوة إلى شرع لأنه لما أظهر البينات وتحققوا مكانته كان عليهم بحكم العقل السليم أن يتبينوا آياته ويستهدوا طريق الهدى والنجاة، فإن الله لم يأمر يوسف بأن يدعو فرعون وقومه، لحكمة لعلها هي انتظار الوقت والحال المناسب الذي ادخره الله لموسى عليه السلام.

والبينات: الدلائل البينة المظهرة أنه مصطفى من الله للإرشاد إلى الخير، فكان على كل عاقل أن يتبع خطاه ويترسم آثاره ويسأله عما وراء هذا العالم المادي، بناء على أن معرفة الوحدانية واجبة في أزمان الفترات: إما بالعقل، أو بما تواتر بين البشر من تعاليم الرسل السابقين على الخلاف بين المتكلمين.

والبينات: إخباره بما هو مغيب عنهم من أحوالهم بطريق الوحي في تعبير الرؤى، وكذلك آية العصمة التي انفرد بها من بينهم وشهدت له بها امرأة العزيز وشاهد أهلها حتى قال الملك)ائتوني به استخلصه لنفسي(، فكانت دلائل نبوءة يوسف واضحة ولكنهم لم يستخلصوا منها استدلالا يقتفون به أثره في صلاح آخرتهم، وحرصوا على الانتفاع به في تدبير أمور دنياهم فأودعوه خزائن أموالهم وتدبير مملكتهم، فقال له الملك)إنك اليوم لدينا مكين أمين(.

ولم يخطر ببالهم أن يسترشدوا به سلوكهم الديني.

صفحة : 3752

فإن قلت: إذا لم يهتدوا إلى الاسترشاد بيوسف في أمور دينهم وألهاهم الاعتناء بتدبير الدنيا عن تدبير الدين فلماذا لم يدعهم يوسف إلى الاعتقاد بالحق واقتصر على أن سأل من الملك)اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم(.

قلت: لأن الله لم يأمره بالدعوة للإرشاد إلا إذا سئل منه ذلك لحكمة كما علمت آنفا، فأقامه اله مقام المفتي والمرشد لمن استرشد لا مقام المحتسب المغير للمنكر، و)الله أعلم حيث يجعل رسالاته(، فلما أقامه الله كذلك وعلم يوسف من قول الملك)إنك اليوم لدينا مكين أمين(أن الملك لا يريد إلا تدبير مملكته وأمواله، لم يسأله أكثر مما يفي له بذلك. وأما وجوب طلبهم المعرفة والاسترشاد منه فذلك حق عليهم، فمعنى)فما زلتم في شك مما جاءكم به(الإنحاء على أسلافهم في قلة الاهتمام بالبحث عن الكمال الأعلى وهو الكمال النفساني باتباع الدين القويم، أي فما زال

أسلافكم يشعرون بأن يوسف على أمر عظيم من الهدى غير مألوف لهم ويهرعون إليه في مهماتهم ثم لا تعزم نفوسهم على أن يطلبوا منه الإرشاد في أمور الدين. فهم من أمره في حالة شك، أي كان حاصل ما بلغوا إليه في شأنه أنهم في شك مما يكشف لهم عن واجبهم نحوه فانقضت مدة حياة يوسف بينهم وهم في شك من الأمر.

فالملام متوجه عليهم لتقصيرهم في طلب ما ينجيهم بعد الموت قال تعالى)من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها(الآيتين.

و)حتى(للغاية وغايتها هو مضمون الجملة التي بعدها وهي جملة) إذا هلك(،)وإذا(هنا اسم لزمان المضي مجرورة ب)حتى(وليست بظرف، أي حتى زمن هلاك يوسف قلتم: لن يبعث الله بعده رسولا، أي قال أسلافكم في وقت وفاة يوسف: لا يبعث الله في المستقبل أبدا رسولا بعد يوسف، يعنون: أنا كنا مترددين في الإيمان بيوسف فقد استرحنا من التردد فإنه لا يجئ من يدعي الرسالة عن الله من بعده، وهذا قول جرى منهم على عادة المعاندين والمقاومين لأهل الإصلاح والفضل أن يعترفوا بفضلهم بعد الموت تندما على ما فاتهم من خير كانوا يدعونهم إليه.

وفيه ضرب من المبالغة في الكمال في عصره كما يقال: خاتمة المحققين، وبقية الصالحين، ومن لا يأتي الزمان بمثله، وحاصله أنهم كانوا في شك من بعثه رسول واحد، وأنهم أيقنوا أن يدعي الرسالة بعده كاذب فلذلك كذبوا موسى.

ومقالتهم هذه لا تقتضي أنهم كانوا يؤمنون بأنه رسول ضرورة أنهم كانوا في شك من ذلك وإنما أرادوا بها قطع هذا الاحتمال في المستقبل وكشف الشك عن نفوسهم وظاهر هذه الآية أن يوسف كان رسولا لظاهر قوله)قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا(أن رسولا حال من ضمير من بعده . والوجه أن يكون قوله) رسولا(مفعول)يبعث(وأنه لا يقتضي وصف يوسف به فإنه لم يرد في الأخبار عده في الرسل ولا أنه دعا إلى دين في مصر وكيف والله يقول)ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله(ولا شك في أنه نبي إذا وجد مساغا للإرشاد أظهر كقوله)يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان(وقوله)إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء(.

وعدي فعل)جاءكم(إلى ضمير المخاطبين. وأسند)فما زلتم(و)قلتم(إلى ضميرهم أيضا، وهو ما كانوا موجودين حينئذ قصدا

لحمل تبعة أسلافهم عليهم وتسجيلا عليهم بأن التكذيب للناصحين واضطراب عقولهم في الانتفاع بدلائل الصدق قد ورثوه عن أسلافهم في جبلتهم وتقرر في نفوسهم فانتقاله إليهم جيلا بعد جيل كما تقدم في خطاب بني إسرائيل في سورة البقرة)وإذ نجيناكم من آل فرعون(ونحوه.

)كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب[34] الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار[35](

صفحة : 3753

جرى أكثر المفسرين على أن هذه الجمل حكاية لبقية كلام المؤمن وبعضهم جعل بعضها من حكاية كلام المؤمن وبعضها كلاما من الله تعالى، وذلك من تجويز أن يكون قوله)الذين يجادلون(الخ بدلا أو مبتدأ، وسكت بعضهم عن ذلك مقتصرا على بيان المعنى دون تصد لبيان اتصالها بما قبلها.

والذي يظهر أن قوله)كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب(إلى قوله)جبار(كله من كلام الله تعالى معترض بين كلام المؤمن وكلام فرعون فإن هذا من المعاني الإسلامية قصد منه العبرة بحال المكذبين بموسى تعريضا بمشركي قريش، أي كضلال قوم فرعون يضل الله من هو مسرف مرتاب أمثالكم، فكذلك يكون جزاؤكم، ويؤيد هذا الوجه قوله في آخرها)وعند الذين آمنوا(فإن مؤمن آل فرعون لم يكن معه مؤمن موسى وهارون غيره، وهذا من باب تذكر الشيء بضده. ومم يزيد يقينا بهذا أن وصف)الذين يجادلون في آيات الله(تكرر أربع مرات من أول السورة، ثم كان هنا وسطا في قوله)إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه(، ثم كان خاتمة في قوله)ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون.

والإشارة في قوله كذلك)إلى الضلال المأخوذ من قوله)يضل الله(أي مثل ذلك الضلال يضل الله المسرفين المرتابين، أي أن ضلال المشركين في تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم مثل ضلال قوم فرعون في تكذيبهم موسى عليه السلام.

والخطاب بالكاف المقترنة باسم الإشارة خطاب للمسلمين.

والمسرف: المفرط في فعل لا خير فيه. والمرتاب: شديد الريب، أي الشك.

وإسناد الإضلال إلى الله كإسناد نفي الهداية إليه في قوله)إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب(، وتقدم آنفا.

وقوله)الذين يجادلون في آيات الله(يجوز أن يكون مبتدأ خبره) كبر مقتا(ويجوز أن يكون بدلا من من في قوله)من هو مسرف مرتاب(فبين أن ما صدق)من(جماعة لا واحد، فروعي في)من هو مسرف مرتاب(لفظ من فأخبر عنه بالإفراد وروعي في البدل معنى)من(فأبدل منه موصول الجمع. وصلة)الذين(عرف بها المشركين قال تعالى)إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا(وقال في هذه السورة)ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد(.

واختيار المضارع في)يجادلون(لإفادة تجدد مجادلتهم وتكررها وأنهم لا ينفكون عنها. وهذا صريح في ذمهم وكناية عن ذم جدالهم الذي أوجب ضلالهم.

وفي الموصلية إيماء إلى علة إضلالهم، أي سبب خلق الضلال في قلوبهم الإسراف بالباطل تكرر مجادلتهم قصدا للباطل.

والمجادلة تكرير الاحتجاج لإثبات مطلوب المجادل وإبطال مطلوب من يخالفه قال تعالى)وجادلهم بالتي هي أحسن(، فمن المجادلة في آيات الله المحاجة لإبطال دلالتها، ومنها المكابرة فيها كما قالوا)قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب(، ومنها قطع الاستماع لها، كما قال عبد الله بن أبي بن سلول في وقت صراحة كفره للنبي صلى الله عليه وسلم وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم مجلسا فيه ابن سلول فقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله بن سلول لا أحسن مما تقول أيها المرء ولا تغشنا به في مجلسنا واجلس في رحلك فمن جاءك فاقرأ عليه.

و)بغير سلطان(متعلق ب)يجادلون(، والباء للاستعانة، والسلطان: الحجة. والمعنى: أنهم يجادلون بما ليس بحجة ولكن باللجاج والاستهزاء.

و)أتاهم(صفة ل)سلطان(. والإتيان مستعار للظهور والحصول.

وحصول الحجة هو اعتقادها ولوحها في العقل، أي يجادلون جدلا ليس مما تثيره العقول والنظر الفكري ولكنه تمويه وإسكات.

وجملة)كبر مقتا عند الله(خبر)إن(من باب الإخبار بالإنشاء، وهي إنشاء ذم جدالهم المقصود منه كم فم الحق، أي كبر جدالهم مقتا عند الله، ففاعل)كبر(ضمير الجدال المأخوذ من)يجادلون(على طريقة قوله)اعدلوا هو أقرب للتقوى(.

و)مقتا(تمييز للكبر وهو تمييز نسبة محلول عن الفاعل، والتقدير: كبر مقت جدالهم.

وفعل)كبر(هنا ملحق بأفعال الذم مثل: ساء، لأن وزن فعل بضم العين يجيء بمعنى: نعم وبئس، ولو كانت ضمة عينه أصيلة وبهذا تفطيع بالصراحة بعد أن استفيد من صلة الموصول أن جدالهم هو سبب إضلالهم ذلك الإضلال المكين، فحصل بهذا الاستئناف تقرير فظاعة جدالهم بطريقي الكناية والتصريح.

واكبر: مستعار للشدة، أي مقت جدالهم مقتا شديدا.

والمقت: شدة البغض، وهو كناية عن شدة العقاب على ذلك من الله. وكونه مقتا عند الله تشنيع له وتفظيع.

أما عطف)وعند الذين آمنوا(فلم أر في التفاسير الكثيرة التي بين يدي من عرج على فائدة عطف)وعند الذين آمنوا(ما عدا المهائمي في تبصرة الرحمان إذ قال)كبر مقتا عند الله(وهو موجب للإضلال ويدل على أنه كبر مقتا أنه عند الذين آمنوا وهم المظاهر التي يظهر فيها ظهور الحق اه. وكلمة المهائمي كلمة حسنة يعني أن كونه مقتا عند الله لا يحصل في علم الناس إلا بالخبر فزيد الخبر تأييدا بالمشاهدة فإن الذين آمنوا على قلتهم يومئذ يظهر بينهم بغض مجادلة المشركين وعندي: أن أظهر من هذا أن الله أراد التنويه بالمؤمنين ولم يرد إقناع المشركين فإنهم لا يعبأون ببغض المؤمنين ولا يصدقون ببغض الله إياهم، فالمقصود الثناء على المؤمنين بأنهم يكرهون الباطل، كما قال)والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر(مع الإشارة إلى تبجيل مكانتهم بأن ضمت عنديتهم إلى عندية الله تعالى على نحو قوله تعالى)شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم(وقوله)يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين(وقوله)هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين(ونحو قول النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر حديث كلام الذئب فتعجب بعض من حضر فقال آمنت بذلك وأبو بكر ولم يكن أبو بكر في المجلس.

وفي إسناد كراهية الجدال في آيات الله بغير سلطان للمؤمنين تلقين للمؤمنين بالإعراض عن مجادلة المشركين على نحو ما في قوله تعالى)وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه(، وقوله)وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما(وقوله)وإذا مروا باللغو مروا كراما(.

والقول في)كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار(كالقول في)كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب(.

والطبع: الختم، وتقدم في قوله تعالى)ختم الله على قلوبهم(في سورة البقرة.

والختم والطبع والأكنة: خلق الضلالة في القلب، أي النفس.

والمتكبر: ذو الكبر المبالغ فيه ولذلك استعيرت صيغة التكلف.

والجبار: مثال مبالغة من الجبر، وهو الإكراه، فالجبار: الذي يكره الناس على ما لا يحبون عمله لظلمه.
وقرأ الجمهور)على كل قلب متكبر(بإضافة قلب إلى المتكبر . وقرأ أبو عمر وحده وابن ذكوان عن عامر بتنوين قلب على أن يكون متكبر و جبار صفتين ل)قلب(، ووصف القلب بالتكبر والجبر مجاز عقلي. والمقصود وصف صاحبه كقوله تعالى)فإنه آثم قلبه(لأنه سبب الإثم كما يقال: رأت عيني وسمعت أذني.
)وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب[36] أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا(هذه مقالة أخرى لفرعون في مجلس آخر غير المجلس الذي حاجه فيه موسى ولذلك عطف قوله بالواو كما أشرنا إليه فيما عطف من الأقوال السابقة آنفا، وكما أشرن إليه في سورة القصص، وتقدم الكلام هنالك مستوفي على نظيره معنى هذه الآية على حسب ظاهرها، وتقدم ذكر)هامان(والصرح هنالك.

صفحة : 3755

وقد لاح لي هنا محمل آخر أقرب أن يكون المقصود من الآية ينتظم مع ما ذكرناه هنالك في الغاية ويخالفه في الدلالة، وذلك أن يكون فرعون أمر ببناء صرح لا لقصد الارتقاء إلى السماوات بل ليخلو بنفسه رياضة ليستمد الوحي من الرب الذي ادعى موسى أنه أوحى إليه إذ قال)إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى(فإن الارتياض في مكان منعزل عن الناس كان من شعار الاستحياء الكهنوتي عندهم، وكان فرعون يحسب نفسه أهلا لذلك لزعمه أنه ابن الآلهة وحامي الكهنة والهياكل. وإنما كان يشغله تدبير أمر المملكة فكان يكل شؤون الديانة إلى الكهنة في معابدهم، فأراد قي هذه الأزمة الجدلية أن يتصدى لذلك بنفسه ليكون قوله الفصل في نفي وجود إله آخر تضليلا لدهماء أمته، لأنه أراد التوطئة للإخبار بنفي إله آخر غير آلهتهم فأراد أن يتولى وسائل النفي بنفسه كما كانت لليهود محاريب للخلوة للعبادة كما تقدم عند قوله تعالى)فخرج على قومه من المحراب(وقوله)كلما دخل عليها زكريا المحراب(ومن اتخاذ الرهبان النصارى صوامع في أعالي الجبال للخلوة للتعبد، ووجودها عند هذه الممم يدل على إنها موجودة عند الأمم المعاصرة لهم والسابقة عليهم.

والأسباب: جمع سبب، والسبب ما يوصل إلى مكان بعيد، فيطلق السبب على الطريق، ويطلق على الحبل لأنهم كانوا يتوصلون به إلى أعلى النخيل، والمراد هنا: طرق السماوات، كما في قول زهير.

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن
يرق أسباب السماء بسلم وانتصب أسباب السماوات على البدل المطابق لقوله)الأسباب(. وجئ بهذا الأسلوب من الإجمال ثم التفصيل للتشويق إلى المراد بالأسباب تفخيما لشأنها وشأن عمله لأنه أمر عجيب ليورد على نفس متشوقة إلى معرفته وهي نفس) هامان(.

والاطلاع بتشديد الطاء مبالغة في الطلوع، والطلوع: الظهور. والأكثر أن يكون ظهورا من ارتفاع، ويعرف ذلك أو عدمه بتعدية الفعل فإن عدي بحرف على فهو الظهور من ارتفاع، وأن عدي بحرف)إلى(فهو ظهور مطلق.

وقرأ الجمهور)فأطلع(بالرفع تفريعا على)أبلغ(كأنه قيل: أبلغ ثم اطلع، وقرأه حفص عن عاصم بالنصب على جواب الترجي لمعاملة الترجي معاملة التمني وإن كان ذلك غير مشهور، والبصريون ينكرونه كأنه قيل: متى بلغت اطلعت، وقد تكون له ههنا نكتة وهي استعارة حرف الرجاء إلى معنى التمني على وجه الاستعارة التبعية إشارة إلى بعد ما ترجاه، وجعل نصب الفعل بعده قرينه على الاستعارة.

وبين)إلى(و)إله(الجناس الناقص بحرف كما ورد مرتين في قول أبي تمام:

يمدون من أيد عواص عواصم تصول
بأسياف قواض قواضب وجملة)وإني لأظنه كاذبا(معترضة للاحتراس من أن يظن هامان وقومه أن دعوة موسى أوهنت منه يقينه بدينه وآلهته وأنه يروم أن يبحث بحث متأمل ناظر في أدلة المعرفة فحقق لهم أنه ما أراد بذلك إلا نفي ما ادعاه موسى بدليل الحس.

وجئ بحرف التوكيد المعزز بلام الابتداء لينفي عن نفسه اتهام وزيره إياه بتزلزل اعتقاده في دينه. والمعنى: إني أفعل ذلك ليظهر كذب موسى.

والظن هنا مستعمل في معنى اليقين والقطع، ولذلك سمى الله عزمه هذا كيدا في قوله)وما كيد فرعون إلا في تباب(.

)وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب[37](جملة)وكذلك زين لفرعون(عطف على جملة) وقال فرعون(لبيان حال اعتقاده وعمله بعد أن بين حال أقواله، والمعنى: أنه قال قولا منبعثا عن ضلال اعتقاد ومغريا فساد الأعمال.

ولهذا الاعتبار اعتبار جميع أحوال فرعون لم تفصل هذه الجملة عن التي قبلها إذ لم يقصد بها ابتداء قصة أخرى، وهذا مما سموه بالتوسط بين كمالي الاتصال والانقطاع في باب الفصل والوصل من علم المعاني.
وافتتاحها ب)كذلك(كافتتاح قوله تعالى)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(في عمله سورة البقرة، أي مثل ذلك التزيين عمل فرعون زين له سوء عمله مبالغة في أن تزيين عمله له بلغ من القوة في نوعه ما لا يوجد له شبه يشبه به فمن أراد تشبيهه فليشبهه بعينه.

صفحة : 3756

وبني فعل)زين(إلى المجهول لأن المقصود معرفة مفعول التزيين لا معرفة فاعله، أي حصل له تزيين سوء عمله في نفسه فحسب الباطل حقا والضلال اهتداء.
وقرأ الجمهور)وصد(بفتح الصاد وهو يجوز اعتباره قاصرا الذي مضارعه يصد بكسر الصاد، ويجوز اعتباره متعديا الذي مضارعه يصد بضم الصاد، أي أعرض عن السبيل ومنع قومه اتباع السبيل. وقرأه حمزة الكسائي وعاصم بضم الصاد.
والقول فيه كالقول في)زين لفرعون سوء عمله(.
وتعريف)السبيل(للعهد، أي سبيل الله، أو سبيل الخير، أو سبيل الهدى، ويجوز أن يكون التعريف للدلالة على الكمال في النوع، أي صد عن السبيل الكامل الصالح.
وجملة)وما كيد فرعون إلا في تباب(عطف على جملة)وكذلك زين لفرعون سوء عمله(، والمراد بكيده ما أمر به من بناء الصرح والغاية منه، وسمي كيدا لأنه عمل ليس المراد به ظاهرة بل أريد به الإفضاء إلى إيهام قومه كذب موسى عليه السلام.
والتباب: الخسران والهلاك، ومنه)تبت يدا أبي لهب وتب(، وحرف الظرفية استعارة تبعية لمعنى شدة الملابسة كأنه قيل: وما كيد فرعون إلا في تباب شديد. والاستثناء من أحوال مقدرة.
)وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد[38] يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار[39] من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب[40](هذا مقال في مقام آخر قاله مؤمن آل فرعون، فهذه المقالات المعطوفة بالواو مقالات متفرقة..

فابتدأ موعظته بندائهم ليلفت إليه أذهانهم ويستصغي أسماعهم، وبعنوان أنهم قومه لتصغى إليه أفئدتهم.
ورتب خطبته على أسلوب تقديم الإجمال ثم تعقيبه بالتفصيل، فابتدأ بقوله)اتبعون أهدكم سبيل الرشاد(، وسبيل الرشاد مجمل وهو على إجماله مما تتوق إليه النفوس، فربط حصوله باتباعهم إياه مما يقبل بهم على تلقي ما يفسر هذا السبيل، ويسترعي أسماعهم إلى ما يقوله إذ لعله سيأتيهم بما ترغبه أنفسهم إذ قد يظنون أنه نقح رأيه ونخل مقاله وأنه سيأتي بما هو الحق الملائم لهم. وتقدم ذكر)سبيل الرشاد(آنفا.
وأعاد النداء تأكيدا لإقبالهم إذ لاحت بوارقه فأكمل مقدمته بتفصيل ما أجمله يذكرهم بأن الحياة الدنيا محدودة بأجل غير طويل، وأن وراءها حياة أبدية، لأنه علم أن اشد دفاعهم عن دينهم منبعث عن محبة السيادة والرفاهية، وذلك من متاع الدنيا الزائل وأن الخير لهم هو العمل للسعادة الأبدية.
وقد بني هذه المقدمة على ما كانوا عليه من معرفة أن وراء هذه الحياة حياة أبدية فيها حقيقة السعادة والشقاء، وفيها الجزاء على الحسنات والسيئات بالنعيم أو العذاب، إذ كانت ديانتهم تثبت حياة أخرى بعد الحياة الدنيا ولكنها حرفت معظم وسائل السعادة والشقاوة، فهذه حقائق مسلمة عندهم على إجمالها وهي من نوع الأصول الموضوعة في صناعة الجدل، وبذلك تمت مقدمة خطبته وتهيأت نفوسهم لبيان مقصده المفسر لإجمال مقدمته.
فجملة)إنما هذه الحياة الدنيا متاع(مبينة لجملة)أهدكم سبيل الرشاد(. والمتاع: ما ينتفع به انتفاعا مؤجلا. والقرار: الدوام في المكان. والقصر المستفاد من قوله)إنما هذه الحياة الدنيا متاع(قصر موصوف على صفة، أي لا صفة للدنيا منزلة من يحسبها منافع خالدة.
وجملتا)من عمل سيئة(إلى آخرهما بيان لجملة)وإن الآخرة هي دار القرار(.
والقصر المستفاد من ضمير الفصل في قوله)وإن الآخرة هي دار القرار(قصر قلب نظير القصر في قوله)إنما هذه الحياة الدنيا متاع(، وهو مؤكد للقصر في قوله)إنما هذه الحياة الدنيا متاع(من تأكيد إثبات ضد الحكم لضد المحكوم عليه، وهو قصر قلب، أي لا الدنيا.

و)من(من قوله)من عمل سيئة(شرطية. ومعنى)إلا مثلها(المماثلة في الوصف الذي دل عليه اسم السيئة وهو الجزاء السيء، أي لا يجزي عن عمل السوء بجزاء الخير، أي لا يطمعوا أن يعملوا السيئات وأنهم يجازون عليها جزاء خير. وفي صحيح البخاري عن وهب بن منبه وكان كثير الوعظ للناس والله له، إنك بوعظك تقنط الناس فقال أأنا أقدر أن أقنط الناس والله يقول)يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله(ولكنكم تحبون أن تبشروا بالجنة على مساوي أعمالكم . وكأن المؤمن خص الجزء بالأعمال لأنهم كانوا متهاونين بالأعمال وكان قصارى ما يهتمون به هو حسن الاعتقاد في الآلهة، ولذلك توجد على جدر المعابد المصرية صورة الحساب في هيئة وضع قلب الميت في الميزان ليكون جزاؤه على ما يفسر عنه ميزان قلبه.

ولذلك ترى مؤمن آل فرعون لم يهمل ذكر الإيمان بعد أن اهتم بتقديم الأعمال فتراه يقول)ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن(، فالإيمان هو أس هيكل النجاة، ولذلك كان الكفر أس الشقاء الأبدي فإن كل عمل سيء فإن سوءه وفساده جزئي منقض فكان العقاب عليه غير لأبدي، وأما الكفر فهو سيئة دائمة مع صاحبها لأن مقرها قلبه واعتقاده وهو ملازم له فلذلك كان عقابه أبديا، لأن الحكمة تقتضي المناسبة بين الأسباب وآثارها فدل قوله) فلا يجزى إلا مثلها(أن جزاء الكفر شقاء أبدي لأنه مثل الكفر في كونه ملازما للكافر إن مات كافرا.

وبهذا البيان أبطلنا قول المعتزلة والخوارج بمساواة مرتكب الكبائر للكافر في الخلود في العذاب، بأنه قول يفضي إلى مزية الإيمان وذلك تنافيه أدلة الشريعة البالغة مبلغ القطع، ونظير هذا المعنى قوله تعالى)فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا(.

وترتيبه دخول الجنة على عمل الصالحات معناه: من عمل صالحا ولم يعمل سيئة بقرينة مقابلته بقوله)من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها(، فإن خلط المؤمن عملا صالحا وسيئا فالمقاصة، وبيانه في تفاصيل الشريعة.

وقوله)بغير حساب(كناية على سعة الرزق ووفرته كما تقدم عند قوله تعالى)إن الله يرزق من يشاء بغير حساب(في سورة آل عمران.

و)من(في قوله)ومن عمل صالحا(الخ شرطية، وجوابها)فأولئك يدخلون الجنة(.

وجئ باسم الإشارة للتنبيه على أن المشار إليه يستحق ما سيذكر بعد اسم الإشارة من أجل ما ذكر قبل اسم الإشارة من الأوصاف،

وهي عمل الصالحات مع الإيمان زيادة على استفادة ذلك من تعليقه على الجملة الشرطية. وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في جملة جواب الشرط لإفادة الحصر. والمعنى: أنكم إن متم على الشرك والعمل السيئ لا تدخلونها.

وقوله)من ذكر أو أنثى(بيان لما في)من(من الإبهام من جانب احتمال التعميم فلفظ)ذكر أو أنثى(مراد به إفادة مساواة الأنثى للذكر في الجزاء على الأعمال إذ لا مناسبة له في هذا المقام، وتعريضا بفرعون وخاصته أنهم غير مفلتين من الجزاء.

وقرأ الجمهور)يدخلون الجنة(بفتح الياء. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بضمها وفتح الخاء، والمعنى واحد.

)ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار[41] وتدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار[42] لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار[43](

صفحة : 3758

أعاد نداءهم وعطفت حكايته بواو العطف للإشارة إلى أن نداءه اشتمل على ما يقتضي في لغتهم أن الكلام قد تخطي من غرض إلى غرض وأنه سيطرق ما يغاير أول كلامه مغايرة ما تشبه مغايرة المتعاطفين في لغة العرب، وأنه سيرتقى باستدراجهم في درج الاستدلال إلى المقصود بعد المقدمات، فانتقل هنا إلى أن أنكر عليهم شيئا جرى منهم نحوه وهو أنهم أعقبوا موعظته إياهم بدعوته للإقلاع عن ذلك وأن يتمسك بدينهم وهذا شيء مطوي في خلال القصة دلت عليه حكاية إنكاره عليم، وهو كلام آيس من إستجابتهم لقوله فيه)فستذكرون ما أقول لكم(، ومتوقع أذاهم لقوله)وأفوض أمري إلى الله(، ولقوله تعالى آخر القصة)فوقاه الله سيئات ما مكروا(. فصرح هنا وبين بأنه لم يزل يدعوهم إلى اتباع ما جاء به موسى وفي اتباعه النجاة من عذاب الآخرة فهو يدعوهم إلى النجاة حقيقة، وليس إطلاق النجاة على ما يدعوهم إليه بمجاز مرسل بل يدعوهم إلى حقيقة النجاة بوسائط.

والاستفهام في)ما لي أدعوكم إلى النجاة(استفهام تعجبي باعتبار تقييده بجملة الحال وهي)وتدعونني إلى النار(فجملة)وتدعوني إلى النار(في موضع الحال بتقدير مبتدأ، أي وأنتم تدعونني إلى النار وليست بعطف لأن أصل استعمال: ما لي أفعل، وما لي لا أفعل ونحوه، أن يكون استفهاما عن عل أو حال ثبت للمجرور باللام

وهي لام الاختصاص ، ومعنى لام الاختصاص يكسب مدخولها حالة خفيا سببها الذي علق بمدخول اللام نحو قوله تعالى)ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض( )ما لي لا أرى الهدهد(وقولك لمن يستوقفك: ما لك؟ فتكون الجملة التي بعد اسم الاستفهام وخبره جملة فعلية.

وتركيب: ما لي ونحوه، هو كتركيب: هل لك ونحوه في قوله تعالى)فقل هل لك إلى أن تزكى(وقول كعب بن زهير:

ألا بلغا عني بجيرا رسـالة فهل لك

فيما ويحك هل لك فإذا قامت القرينة على انتفاء إرادة الاستفهام الحقيقي انصرف ذلك إلى التعجب من الحالة، أو إلى الإنكار أو نحو ذلك. فالمعنى هنا على التعجب يعني أنه يعجب من دعوتهم إياه لدينهم مع ما رأوا من حرصه على نصحهم ودعوتهم إلى النجاة وما أتاهم به من الدلائل على صحة دعوته وبطلان دعوتهم.

وجملة)تدعونني لأكفر بالله(بيان لجملة)وتدعونني إلى النار(لأن الدعوة إلى النار أمر مجمل مستغرب فبينه ببيان أنهم يدعونه إلى التلبس بالأسباب الموجبة عذاب النار. والمعنى: تدعونني للكفر بالله وإشراك ما لا أعلم مع الله في الإلهية.

ومعنى)ما ليس لي به علم(ما ليس لي بصحته أو بوجوده علم، والكلام كناية عن كونه بعلم أنها ليست آلهة بطريق الكناية بنفي اللازم عن نفي الملزوم.

وعطف عليه)وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار(فكان بيانا لمجمل جملة)أدعوكم إلى النجاة(. وإبراز ضمير المتكلم في قوله)وأنا أدعوكم(لإفادة تقوي الخبر بتقديم المسند إليه على خبره الفعلي.

وفعل الدعوة إذا ربط بمتعلق غير مفعوله يعدى تارة باللام وهو الأكثر في الكلام، ويعدى بحرف)إلى(وهو الأكثر في القرآن لما يشتمل عليه من الاعتبارات ولذلك علق به معمول في هذه الآية أربع مرات ب)إلى(ومرة باللام مع ما في ربط فعل الدعوة بمتعلقة الذي هو من المعنويات من مناسبة لام التعليل مثل)تدعونني لأكفر بالله وأشرك به(، وربطه بما هو ذات بحرف إلى في قوله) أدعوكم إلى النجاة(فأن النجاة هي نجاة من النار فهي نجاة من أمر محسوس، وقوله)تدعونني إلى النار(وقوله)وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا(الخ، لأن حرف)إلى(دال على الانتهاء لأن الذي يدعو أحدا إلى شيء إنما يدعوه إلى أن ينتهي إليه، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى توحيده بالربوبية فشبه بشيء محسوس تشبيه المعقول بالمحسوس، وشبه اعتقاده صحته بالوصول إلى الشيء المسعي

إليه، وشبهت استعارة مكنية وتخييلة وتبعية، وفي)العزيز الغفار(استعارة مكنية، وفي)أدعوكم(استعارة تبعية وتخييلية.

صفحة : 3759

وعدل عن اسم الجلالة إلى الصفتين)العزيز الغفار(لإدماج الاستدلال على استحقاقه الإفراد بالإلهية والعبادة، بوصفه) العزيز(لأنه لا تناله الناس بخلاف أصنامهم فإنها ذليلة توضع على الأرض ويلتصق بها القتام وتلوثها الطيور بذرقها، ولإدماج ترغيبهم في الإقلاع عن الشرك بأن الموحد بالإلهية يغفر لهم ما سلف من شركهم حتى لا ييأسوا من عفوه بعد أن أساءوا إليه.
وجملة)لا جرم أن ما تدعونني(بيان لجملة)تدعونني لأكفر بالله(.
وكلمة)لا جرم(بفتحتين في الأفصح من لغات ثلاث فيها، كلمة يراد بها معنى لا يثبت أو لابد، فمعنى ثبوته لأن الشيء الذي لا ينقطع هو باق وكل لك يؤول إلى معنى حق وقد يقولون: لا ذا جرم، ولا أن ذا جرم، ولا عن ذا جرم، ولا جر بدون ميم ترخيما للتخفيف.
والأظهر أن)جرم(اسم لا فعل لأنه لو كان فعلا لكان ماضيا بحسب صيغته فيكون دخول)لا(عليه من خصائص استعمال الفعل في الدعاء.
والأكثر أن يقع بعدها)أن(المفتوحة المشددة فيقدر معها حرف) في(ملتزما حذفه غالبا. والتقدير: لا شك في أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة.
وتقدم بيان معنى)لا جرم(وأن جرم فعل أو اسم عند قوله تعالى)لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون(في سورة هود.
وما صدق)ما(الأصنام، وأعيد الضمير عليها مفردا في قوله)ليس له(مراعاة لإفراد لفظ)ما(.
وقوله)لا جرم أن ما تدعونني إليه(إلى قوله)أصحاب النار(واقع موقع التعليل لجملتي)ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار(لأنه إذا تحقق أن لا دعوة للأصنام في الدنيا بدليل ولا يفيدهم دعاؤها ولا نداؤها. وتحقق إذن أن المرجو للإنعام في الدنيا والآخرة هو الرب الذي يدعوهم هو إليه. وهذا دليل إقناعي غير قاطع للمنازع في إلهية رب هذا المؤمن ولكنه أراد إقناعهم واستحفظهم دليله لأنهم سيظهر لهم قريبا أن رب موسى له دعوة في الدنيا ثقة منه بأنهم سيرون انتصار موسى على فرعون ويرون صرف

فرعون عن قتل موسى بعد عزمه عليه فيعلمون أن الذي دعا إليه موسى هو المتصرف في الدنيا فيعلمون أنه المتصرف في الآخرة.
ومعنى)ليس له دعوة(انتفاء أن يكون الدعاء إليه بالعبادة أو الالتجاء نافعا لا نفي وقوع الدعوة لأن وقوعها مشاهد. فهذا من باب لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب وقولهم: ليس ذلك بشيء، نافع، وبهذا تعلم أن دعوة مصدر متحمل معنى ضمير فاعل، أي ليست دعوة داع، وأن ضمير له عائد إلى ما الموصولة، أي لا يملك دعوة الداعين، أي لا يملك إجابتهم.
وعطفت على هذه الجملة جملة)وأن مردنا إلى الله(عطف اللازم على ملزومه لأنه إذ تبين أن رب موسى المسمى)الله(هو الذي له الدعوة، تبين أن المرد، أي المصير إلى الله في الدنيا بالالتجاء والاستنصار وفي الآخرة بالحكم والجزاء.
ولو عطفت مضمون هذه الجملة بالفاء المفيدة للتفريع لكانت حقيقة بها، ولكن عدل عن ذلك إلى عطفها بالواو اهتماما بشأنها لتكون مستقلة الدلالة بنفسها غير باحث سامعها على ما ترتبط به، لأن الشيء المتفرغ على شيء يعتبر تابعا له، كما قال الأصوليون في أن جواب السائل غير المستقل بنفسه تابع لعموم السؤال.
وكذلك جملة)وأن المسرفين هم أصحاب النار(بالنسبة إلى تفرع مضمونها على مضمون جملة)وأن مردنا إلى الله لأنه إذا كان المصير إليه كان الحكم والجزاء بين الصائرين إليه من مثاب ومعاقب فيتعين أن المعاقب هم الكافرون بالله.
فالإسراف هنا: إفراط الكفر، ويشمل ما قيل: إنه أريد هنا سفك الدم بغير حق ليصرف فرعون عن قتل موسى عليه السلام. والوجه أن يعم أصحاب الجرائم والآثام. والتعريف فيه تعريف الجنس المفيد للاستغراق وهو تعريض بالذين يخاطبهم إذ هم مسرفون على كل تقدير فهم مسرفون في إفراط كفرهم بالرب الذي دعا إليه موسى، ومسرفون فيما يستتبعه ذلك من المعاصي والجرائم فضمير الفصل في قوله)هم أصحاب النار(يفيد قصرا ادعائيا لأنهم المتناهون في صحبة النار بسبب الخلود بخلاف عصاة المؤمنين، وهذا لحمل كلام المؤمن على موافقة الواقع لأن المظنون به أنه نبيء أو ملهم وإلا فإن المقام مقام تمييز حال المؤمنين من حال المشركين، وليس مقام تفصيل درجات الجزاء في الآخرة.

)فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد[44](هذا الكلام متاركة لقومه وتنهية لخطابه إياهم ولعله استشعر من ملامحهم أو من مقاطعتهم كلامه بعبارات الإنكار، ما أيأسه من تأثرهم بكلامه، فتحداهم بأنهم إن أعرضوا عن الانتصاح لنصحه سيندمون حين يرون العذاب إما في الدنيا كما اقتضاه قوله)إني أخاف عليكم يوم التناد(، فالفاء تفريع على جملة)ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار(.

وفعل)ستذكرون(مشتق من الذكر بضم الذال وهو ضد النسيان، أي ستذكرون في عقولكم، أي ما أقول لكم الآن يحضر نصب بصائركم يوم تحققه، فشبه الإعراض بالنسيان ورمز إلى النسيان بما هو من لوازمه في العقل ملازمة الضد لضده وهو التذكر على طريقة المكنية وفي قرينتها استعارة تبعية.

والمعنى سيحل بكم من العذاب ما يذكركم ما أقوله: إنه سيحل بكم.

وجملة)وأفوض أمري إلى الله(عطف على جملة)ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار(، ومساق هذه الجملة مساق الانتصاف منهم لما أظهروه له من الشر، يعني: أني أكل شأني وشأنكم معي إلى الله فهو يجزي كل فاعل بما فعل، وهذا كلام منصف فالمراد ب)أمري(شأني ومهمي.

ويدل لمعنى الانتصاف تعقيبه بقوله)إن الله بصير بالعباد(معللا تفويض أمره معهم إلى الله عليم بأحوال جميع العباد فعموم العباد شمله وشمل خصومه.

وقال في الكشاف قوله)وأفوض أمري إلى الله(لأنهم تواعدوه اه. يعني أن فيه إشعار بذلك بمعونة ما بعده.

و)العباد(الناس يطلق على جماعتهم اسم العباد، ولم أر إطلاق العبد على الإنسان الواحد ولا إطلاق العبيد على الناس.

والبصير: المطلع الذي لا يخفى عليه الأمر. والباء للتعدية كما في قوله تعالى)فبصرت به عن جنب(، فإذا أرادو تعدية فعل البصر بنفسه قالوا: أبصره.

)فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب[45] النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب[46](تفريع)فوقاه الله(مؤذن بأنهم أضمروا مكرا به. وتسميته مكرا مؤذن بأنهم لم يشعروه به وأن يكون فر من فرعون ولم يعثروا عليه.

و)ما(مصدرية. والمعنى: سيئات مكرهم. وإضافة)سيئات(إلى)مكر(إضافة بيانية، وهي هنا في قوة إضافة الصفة إلى الموصوف

لأن المكر سيء. وإنما جمع السيئات باعتبار تعدد أنواع مكرهم التي بيتوها.
وحاق: أحاط. والعذاب: الغرق. والتعريف للعهد لنه مشهور معلوم.
وتقدم له ذكر في السور النازلة قبل هذه السورة.
ومناسبة فعل حاق لذلك العذاب أنه مما يحيق على الحقيقة، وإنما كان الغرق سوء عذاب لأن الغرق يعذب باحتباس النفس مدة وهو يطفو على الماء ويغوص فيه ويرعبه هول الأمواج وهو موقن بالهلاك ثم يكون عرضه لأكل الحيتان حيا وميتا وذلك ألم في الحياة وخزي بعد الممات يذكرون به بين الناس.
وقوله)النار يعرضون عليها غدوا وعشيا(يجوز أن يكون جملة وقعت بدلا من جملة)وحاق بآل فرعون سوء العذاب(، فيجعل) النار(مبتدأ ويجعل جملة)يعرضون عليها(خبرا عنه ويكون مجموع الجملة من المبتدأ وخبره بدل اشتمال من جملة)وحاق بآل فرعون سوء العذاب(لأن سوء العذاب إذا أريد به الغرق كان مشتملا على موتهم وموتهم يشتمل على عرضهم على النار غدوا وعشيا، فالمذكور عذابان: عذاب الدنيا عذاب الغرق وما يلحق به من عذاب قبل عذاب يوم القيامة.
ويجوز أن يكون)النار(بدلا مفردا من)سوء العذاب(بدلا مطابقا وجملة)يعرضون عليها(حالا من)النار(فيكون المذكور في الآية عذابا واحدا ولم يذكر عذاب الغرق.
وعلى كلا الوجهين فالمذكور ي الآية عذاب قبل عذاب يوم القيامة فذلك هو المذكور بعده بقوله)ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب(.

صفحة : 3761

والعرض حقيقته: إظهار شيء لمن يراه لترغيب أو تحذير وهو يتعدى إلى الشيء المظهر بنفسه وإلى من يظهر لأجله بحرف) على(، وهذا يقتضي أن المعروض عليه لا يكون إلا من يعقل ومنزلا منزلة من يعقل، وقد يقلب هذا الاستعمال لقصد المبالغة كقول العرب عرضت الناقة على الحوض ، وحقه: عرضت الحوض على الناقة، وهو الاستعمال الذي في هذه الآية وقوله في سورة الأحقاف)ويوم يعرض الذين كفروا على النار(. وقد عد علماء المعاني القلب من أنواع تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ومثلوا له بقول العرب: عرضت الناقة على الحوض. واختلفوا في عدة من أفانين

لكلام البليغ فعدة منها أبو عبيدة والفارسي والسكاكي ولم يقبله الجمهور، وقال القزويني: إن تضمن اعتبار لطيفا قبل وإلا رد.
وعندي أن الاستعمالين على مقتضى الظاهر وأن العرض قد كثر في معنى الإمرار دون قصد الترغيب كما يقال: عرض الجيش على أميره واستعرضه الأمير. ولعل أصله مجاز ساوى الحقيقة فليس في الآيتين قلب ولا في قول العرب: عرضت الناقة على الحوض، قلب، ويقال: عرض بنو فلان على السيف، إذا قتلوا به. وخرج في الكشف آية الأحقاف على قولهم: عرض على السيف.
ومعنى عرضهم على النار أن أرواحهم تشاهد المواضع التي أعدت لها في جهنم، وهو ما يبينه حديث إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة .
وقوله)غدوا وعشيا(ناية عن الدوام لأن الزمان لا يخلو من هاذين الوقتين.
وقوله)ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب(هذا ذكر عذاب الآخرة الخالد، أي يقال: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، وعلم من عذاب آل فرعون أن فرعون داخل في ذلك العذاب بدلالة الفحوى.
وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص وأبو جعفر ويعقوب) أدخلوا(بهمزة قطع وكسر الخاء. وقرأ الباقون بهمزة وصل وضم الخاء على معنى أن القول موجه إلى آل فرعون وأن آل فرعون منادى بحذف الحرف.
)وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار[47] قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد[48](يجوز أن يكون) إذ(معمولا ل)اذكر(محذوف فيكون عطفا على جملة)وأنذرهم يوم الآزفة(، والضمير عائدا إلى)الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان(وما بين هذا وذاك اعتراض واستطراد لأنها قصد منها عظة المشركين بمن سبقهم من الأمم المكذبين فلما استوفي ذلك عاد الكلام إليهم. ويفيد ذلك صريح الوعيد للمشركين بعد أن ضربت لهم الأمثال كما قال تعالى)وللكافرين أمثالها(، وقد تكرر في القرآن موعظة المشركين بمثل هذا كقوله تعالى)إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا(الآية في سورة البقرة، وقوله)قالت أولاهم لأخراهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار(الآية في سورة الأعراف.

ويجوز أن تكون)وإذ يتحاجون(عطفا على جملة)ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب(لأن)إذ(و)يوم(كليهما ظرف بمعنى حين ، فيكون المعنى: وحين تقوم الساعة يقال: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، وحين يتحاج أهل النار فيقول الضعفاء الخ.
وقرن)فيقول الضعفاء(بالفاء لإفادة كون هذا القول ناشئا عن تحاجهم في النار مع كون ذلك دالا على أنه في معنى متعلق)إذ(، وهذا استعمال من استعمالات الفاء التي يسميها النحاة زائدة، وأثبت زيادتها جماعة منهم الأخفش والفراء والأعلم وابن برهان، وحكاه عن أصحابه البصريين. وضمير)يتحاجون(على هذا الوجه عائد إلى)آل فرعون(لأن ذلك يأبه قوله)وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم(وقوله)أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات(ولم يأت آل فرعون إلا رسول واحد هو موسى عليه السلام فيعود ضمير)يتحاجون(إلى معلوم من المقام وهم أهل النار.
والتحاج: الاحتجاج من جانبين فأكثر، أي إقامة كل فريق حجته وهو يقتضي وقوع خلاف بين المتحاجين إذ الحجة تأييد لدعوى لدفع الشك في صحتها.

صفحة : 3762

والضعفاء: عامة الناس الذين لا تصرف لهم في أمور الأمة. والذين استكبروا: سادة القوم، أي الذين تكبروا كبرا شديدا، فالسين والتاء فيه للمبالغة.
وقول الضعفاء للكبراء هذا الكلام يحتمل أنه على حقيقته فهو ناشئ عما اعتادوه من اللجإ إليهم في مهمهم حين كانوا في الدنيا فخالوا أنهم يتولون تدبير أمورهم في ذلك المكان ولهذا أجاب الذين استكبروا بما يفيد أنهم اليوم سواء في العجز وعدم الحيلة فقالوا) إنا كل فيها(أي لو أغنينا عنكم لأغنينا عن أنفسنا.
وتقديم قولهم)إنا كنا لكم تبعا(على طلب التخفيف عنهم من النار، مقدمة للطلب لقصد توجيهه وتعليله وتذكيرهم بالولاء الذي بينهم في الدنيا، يلهمهم الله هذا القول لافتضاح عجز المستكبرين أن ينفعوا أتباعهم تحقيرا لهم جزاء على تعاظمهم الذي كانوا يتعاظمون به في الدنيا.
ويحتمل أن قول الضعفاء ليس مستعملا في حقيقة الحث على التخفيف عنهم ولكنه مستعمل في التوبيخ، أي كنتم تدعوننا إلى دين الشرك فكانت عاقبة ذلك أن صرنا في هذا العذاب فهل تستطيعون الدفع عنا.

وتأكيدا)إنا كنا لكم تبعا(ب)إن(للاهتمام بالخبر وليس لرد إنكار.
والتبع: اسم لمن يتبع غيره، يستوي فيه الواحد والجمع، وهو مثل خدم وحشم لأن أصله مصدر، فلذلك استوى فيه الواحد والجمع، وقيل التبع: جمع لا يجري على الواحد، فهو إذن من الجموع النادرة.
والاستفهام في قوله)فهل أنتم مغنون(مستعمل في الحث واللوم على خذلانهم وترك الاهتمام بما هم فيه من عذاب.
وجيء بالجملة الاسمية الدالة على الثبات، أي هل من شأنكم أنكم مغنون عنا.
و)مغنو(اسم فاعل من أغنى غناء بفتح الغين والمد، أي فائدة وإجزاء.
والنصيب: الحظ والحصة من الشيء، قال تعالى)للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون(إلى قوله)نصيبا مفروضا(.
وقد ضمن)مغنون(معنى دافعون ورادون، فلذلك عدي إلى مفعول وهو)نصيبا(، أي جزاءا من حر النار غير محدد المقدار من قوتها، و)من النار(بيان ل)نصيبا(كقوله تعالى)فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء(فهم قانعون بكل ما يخفف عنهم من شدة حر النار وغير طامعين في الخروج منها. ويجوز أن يكون) مغنون(على معناه دون تضمين ويكون)نصيبا(منصوبا على المفعول المطلق لمغنون والتقدير غناء نصيبا، أي غناء ما ولو قليلا. و)من النار(متعلقا ب)مغنون(كقوله تعالى)وما أغني عنكم من الله من شيء(.
ويجوز أن يكون النصيب الجزء من أزمنة العذاب فيكون على حذف مضاف تقديره: من مدة النار.
ولما كان جواب الذين استكبروا للذين استضعفوا جاريا في مجرى المحاورة جرد فعل)قال(من حرف العطف على طريقة المحاورة كما تقدم غير مرة.
ومعنى قولهم)إنا كل فيها(نحن وأنتم مستوون في الكون في النار فكيف تطمعون أن ندفع عنكم شيئا من العذاب.
وعلى وجه أن يكون قول الضعفاء)إنا كنا لكم تبعا(إلى آخره توبيخا ولوما لزعمائهم يكون قول الزعماء)إنا كل فيها(اعترافا بالغلط، أي دعوا لومنا وتوبيخنا فقد كفانا أنا معكم في النار. وتأكيد الكلام ب)إن(للاهتمام بتحقيقه أو لتنزيل من طالبوهم بالغناء عنهم من عذاب النار مع مشاهدتهم أنهم في العذاب مثلهم، منزلة من يحسبهم غير واقعين في النار، وفي هذا التنزيل ضرب من التوبيخ يقولون: ألستم ترونا في النار مثلكم فكيف نغني عنكم.
و)كل(مرفوع بالابتداء وخبره)فيها(والجملة من المبتدأ وخبره خبر إن وتنوين عوض عن المضاف إليه، إذ التقدير: إنا كلنا في النار.

وجملة)إن الله حكم بين العباد(تتنزل منزلة بدل الاشتمال من جملة)إنا كل فيها(فكلتا الجملتين جواب لهم مؤيس من حصول التخفيف عنهم.
والمعنى: نحن مستوون في العذاب وهو حكم الله فلا مطمع في التقصي من حكمه فقد جوزي كل فريق بما يستحق.
وما في هذه الجملة الثانية من عموم تعلق فعل الحكم بين العباد ما يجعل هذا البدل بمنزلة التذييل، أي أن الله حكم بين العباد كلهم بجزاء أعمالهم فكان قسطنا من الحكم هذا العذاب.

صفحة : 3763

فكلمة)بين(هنا مستعملة في معناها الحقيقي وهو المكان المتوسط، أي وقع حكمه وقضاؤه في مجمعهم الذي حضره من حكم عليه ومن حكم له ومن لم يتعرض للحكومة لأنه من أهل الكرامة بالجنة، فليست كلمة)بين(هنا بمنزلة)بين(في قوله تعالى)فاحكم بينهم بما أنزل الله(فإنها في ذلك مستعملة مجازا في التفرقة بين المحق والمبطل.
وفي هذه الآية عبرة لزعماء الأمم وقادتهم أن يحذروا الارتماء بأنفسهم في مهاوي الخسران فيوقعوا المقتدين بهم في تلك المهاوي فإن كان إقدامهم ومغامرتهم بأنفسهم وأممهم على علم بعواقب ذلك كانوا أحرياء بالمذمة والخزي في الدنيا ومضاعفة العذاب في الآخرة، إذ ما كان لهم أن يغروا بأقوام وكلوا أمورهم بقادتهم عن حسن ظن فيهم، أن يخونوا أمانتهم فيهم كما قال تعالى)وليحملن جهل بعواقب قصورهم وتقصيرهم فإنهم ملومون على عدم التوثيق من كفاءتهم لتدبير الأمة فيخبطوا بها خبط عشواء حتى يزلوا بها فيهووا بها من شواهق بعيدة فيصيروا رميما، ويلقوا في الآخرة جحيما.
)وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب[49] قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال[50](لما لم يجدوا مساغا للتخفيف من العذاب في جانب كبرائهم، وتنصل كبراؤهم من ذلك أو اعترفوا بغلطهم وتوريطهم قومهم وأنفسهم تمالأ الجميع على محاولة طلب تخفيف العذاب بدعوة من خزنة جهنم، فلذلك أسند القول إلى الذين في النار، أي جميعهم من الضعفاء والذين استكبروا.
وخزنة: جمع خازن، وهو الحافظ لما في المكان من مال أو عروض. و)خزنة جهنم(هم الملائكة الموكلون بما تحويه من النار

ووقودها والمعذبين فيها وموكلون بتسيير ما تحتوي عليه دار العذاب وأهلها ولذلك يقال لهم: خزنة النار، لأن الخزن لا يتعلق بالنار بل بما يحويها فليس قوله هنا)جهنم(إظهارا في مقام الإضمار إذ لا يحسن إضافة خزنة إلى النار ولو تقدم لفظ)جهنم(لقال: لخزنتها، كما في قوله في سورة الملك)وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير(إلى قوله)سألهم خزنتها(فإن الضمير ل)جهنم(لا ل)النار(.

وفي الكشاف أنه من الإظهار في مقام الإضمار للتهويل بلفظ) جهنم(، والمسلك الذي سلكناه أوضح.

وفي إضافة)رب(إلى ضمير المخاطبين ضرب من الإغراء بالدعاء، أي لأنكم أقرب إلى استجابته لكم.

ولما ظنوهم أرجى للاستجابة سألوا التخفيف يوما من أزمنة العذاب وهو أنفع لهم من تخفيف قوة النار الذي سألوه من مستكبريهم.

وجزم)يخفف(بعد الأمر بالدعاء، ولعله بتقدير لام الأمر لكثرة الاستعمال، ومن أهل العربية من يجعله جزما في جواب الطلب لتحقيق التسبب. فيكون فيه إيذان بأن الذين في النار واثقون بأن خزنة جهنم إذا دعوا الله استجاب لهم. وهذا الجزم شائع بعد الأمر بالقول وما في معناه لهذه النكتة وحقه الرفع أو إظهار لام الأمر. وتقدم الكلام عليه عند قوله تعالى)قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة(في سورة إبراهيم.

وضمن)يخفف(معنى ينقص فنصب)يوما(، أو هو على تقدير مضاف، أي عذاب يوم، أي مقدار يوم، وانتصب)يوما(على المفعول به ل)يخفف(.

واليوم كناية عن القلة، أي يخفف عنا ولو زمنا قليلا.

و)من العذاب(بيان ل)يوما(لأنه أريد به المقدار فاحتاج إلى البيان على نحو التمييز. ويجوز تعلقه ب)يخفف(.

واليوم كناية عن القلة، أي يخفف عنا ولو زمنا قليلا.

و)من العذاب(بيان ل)يوما(لأنه أريد به المقدار فاحتاج إلى البيان على نحو التميز. ويجوز تعلقه ب)يخفف(.

وجواب خزنة جهنم لهم بطريق الاستفهام التقريري المراد به: إظهار سوء صنيعهم بأنفسهم إذ لم يتبعوا الرسل حتى وقعوا في هذا العذاب، وتنديمهم على ما أضاعوه في حياتهم الدنيا من وسائل النجاة من العقاب. وهو كلام جامع يتضمن التوبيخ، والتنديم، والتحسير، وبيان سبب تجنب الدعاء لهم، وتذكيرهم بأن الرسل كانت تحذرهم من الخلود في العذاب.

والواو في قوله)أو لم تك تأتيكم رسلكم(لم يعرج المفسرون على موقعها. وهي واو العطف عطف بها)خزنة جهنم(كلامهم على كلام الذين في النار من قبيل طريقة عطف المتكلم كلاما على كلام صدر من المخاطب إيماء إلى أن حقه أن يكون من بقية كلامه وأن لا يغفله، وهو ما يلقب بعطف التلقين كقوله تعالى)قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي(فإن أهل النار إذا تذكروا ذلك عملوا وجاهة تنصل خزنة جهنم من الشفاعة لهم، وتفريغ) فادعوا(على ذلك ظاهر على كلا التقديرين.

وهمزة الاستفهام مقدمة من التأخير على التقديرين، لوجوب صدارتها.

وجملة)وما دعاء الكافرين إلا في ضلال(يجوز أن تكون من كلام خزنة جهنم تذييلا لكلامهم يبين أن قولهم فادعوا مستعمل في التنبيه على الخطأ، أي دعاؤكم لم ينفعكم لأن دعاء الكافرين في ضلال والواو اعتراضية، ويجوز أن تكون من كلام الله تعالى تذييلا واعتراضا.

والبينات: الحجج الواضحة والدعوات الصريحة إلى اتباع الهدى. فلم يسعهم إلا الاعتراف بمجيء السل إليهم بالبينات فقالوا: بلى، فرد عليهم خزنة جهنم بالتنصل من أن يدعوا الله بذلك، إلى إيكال أمرهم إلى أنفسهم بقواهم)فادعوا(تفريعا على اعترافهم بمجيء الرسل إليهم بالبينات.

ومعنى تفريعه عليه هو أنه مفرع عليه باعتبار معناه الكنائي الذي هو التنصل من أن يدعوا لهم، أي كما توليتم الأعراض عن الرسل استبداد بآرائهم فتولوا اليوم أمر أنفسكم فادعوا أنتم، فإن من تولى قرها يتولى حرها ، فالأمر في قوله)فادعوا(مستعمل في الإباحة أو في التسوية، وفيه تنبيه على خطأ السائلين في سؤالهم.

وزيادة فعل الكون في)أو لم تك تأتيكم(للدلالة على أن مجيء الرسل إلى الأمم أمر متقرر محقق، لما يدل عليه فعل الكون من الوجود بمعنى التحقق، وأما الدلالة على أن فعل الإتيان كان في الزمن الماضي فهو مستفاد من)لم(النافية في الماضي.

والضلال: الضياع، وأصله: خطأ الطريق، كما في قوله تعالى)أإذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد(.

والمعنى: أن دعاءهم لا ينفعهم ولا يقبل منهم، وسواء كان قوله) وما دعاء الكافرين إلا في ضلال(من كلام الملائكة أو من كلام الله تعالى فهو مقتض عموم دعائهم لأن المصدر المضاف من صيغ العموم الذوات يستلزم عموم الأزمنة والأمكنة.

وأما ما يوهم استجابة دعاء الكافرين نحو قوله تعالى)قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجيتنا من هذه لنكون من الشاكرين قل الله ينجيكم منها(وقوله)دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجبتنا من هذه لنكون من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق(، فظاهر أن هذه لا تدل على استجابة كرامة ولكنها لتسجيل كفرهم ونكرانهم، وقد يتوهم في بعض الأحوال أن يدعو الكافر فيقطع ما طلبه وإنما ذلك لمصادفة دعائه وقت إجابة دعاء غيره من الصالحين، وكيف يستجاب دعاء الكافر وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم استبعاد استجابة دعاء المؤمن الذي يأكل الحرام ويلبس الحرام في حديث مسلم عن أبي هريرة ذكر رسول الله رجلا يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له . ولهذا لم يقل الله: فلما استجاب دعاءهم، وإنما قال: فلما نجاهم، أي لأنه قدر نجاتهم من قبل أن يدعوا أو لأن دعاءهم صادف دعاء بعض المؤمنين.
)إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد[51] يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار[52] (

صفحة : 3765

كلام مستأنف وهو استخلاص للعبرة من القصص الماضية مسوق لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ووعده بحسن العاقبة، وتسلية المؤمنين ووعدهم بالنصر وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة. وذلك أن الكلام من ابتداء السورة كان بذكر مجادلة المشركين في القرآن بقوله تعالى)ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا(وأومأ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأن شيعهم آيلة إلى خسار بقوله) فلا يغررك تقلبهم في البلاد(، وامتد الكلام في الرد على المجادلين وتمثيل حالهم بحال أمثالهم من الأمم التي آل أمرها إلى خيبة واضمحلال في الدنيا وإلى عذاب دائم في الآخرة ولما استوفى الغرض مقتضاه من إطناب البيان بين الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عقبه أنه ينصر رسله والذين آمنوا في الدنيا كما دل عليه قوله في آخر الكلام)فاصبروا ن وعد الله حق(.
وقد علم من فعل النصر أن هنالك فريقا منصورا المعاند للرسل وللمؤمنين، فنصر الرسل والمؤمنين عليهم في الدنيا بإظهارهم عليهم وإبادتهم، وفي الآخرة بنعيم الجنة لهم وعذاب النار لأعدائهم.

والتعبير بالمضارع في قوله)لننصر(لما فيه من استحضار حالات النصر العجيبة التي وصف بعضها في السورة ووصف بعض آخر في سور أخرى تقدم نزولها، وإلا فإن نصر الرسل الذين سبقوا محمدا صلى الله عليه وسلم قد مضى ونصر محمد صلى الله عليه وسلم مترقب غير حاصل حين نزول الآية.

وتأكيد الخبر ب)إن(وبجعل المسند فعليا في قوله)لننصر(مراعي فيه حال المعرض بهم بأن الله ينصر رسله عليهم وهم المشركون لأنهم كانوا يكذبون بذلك.

وهذا وعد للمؤمنين بأن الله ناصرهم على من ظلمهم في الحياة الدنيا بان يوقع الظالم في سوء عاقبة أو بأن يسلط عليه من ينتقم منه بنحو أو أشد مما ظلم به مؤمنا.

والأشهاد: جمع شاهد. والقيام: الوقوف في الموقف. والأشهاد: الرسل، والملائكة الحفظة والمؤمنون من هذه الأمة، كما أشار إليه قوله) لتكونوا شهداء على الناس(، وذلك اليوم هو يوم الحشر، وشهادة الرسل على الذين كفروا بهم من جملة نصرهم عليهم وكذلك شهادة المؤمنين.

و)يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم(بدل من)يوم يقوم الأشهاد(وهو منصوب على البدلية من الظرف.

والمراد بالظالمين: المشركون. والمعذرة اسم مصدر اعتذر، وتقدم عند قوله تعالى)قالوا معذرة إلى ربكم(في سورة الأعراف.

وظاهر إضافة المعذرة إلى ضميرهم أنهم تصدر منهم يومئذ معذرة يعتذرون بها عن الأسباب التي أوجبت لهم العذاب مثل قولهم)ربنا هؤلاء أضلونا(وهذا لا ينافي قوله تعالى)ولا يؤذن لهم فيعتذرون(الذي هو في انتفاء الاعتذار من أصله لأن ذلك الاعتذار هو الاعتذار المأذون فيه، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى)فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم(في سورة روم.

وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف)لا ينفع(بالياء التحتية لأن الفاعل وهو)معذرة(غير حقيقي التأنيث وللفصل بين الفعل وفاعله بالمفعول وقرأ الباقون بالتاء الفوقية على اعتبار التأنيث اللفظي.

)ولهم اللعنة(عطف على الجملة)لا ينفع الظالمين معذرتهم(أي ويوم لهم اللعنة.

واللعنة: البعد والطرد، أي من رحمة الله،)ولهم سوء الدار(هي جهنم. وتقديم لهم في هاتين الجملتين للاهتمام بالانتقام منهم.

)ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب[53] هدى وذكرى لأولي الألباب[54](هذا من أوضح مثل نصر الله ورسوله والذين آمنوا بهم وه أشبه الأمثال بالنصر الذي قدره الله تعالى

للنبي صلى الله عليه وسلم فإن نصر موسى على قوم فرعون كون الله به أمة عظيمة لم تكن يؤبه بها وأوتيت شريعة عظيمة وملكا عظيما، وكذلك كان نصر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كان أعظم من ذلك واكمل واشرف.
فجملة)ولقد آتينا موسى الهدى(الخ معترضة بين)إنا لننصر رسلنا(وبين التفريع عليه في قوله)فاصبر إن وعد الله حق(، وأي نصر أعظم من الخلاص من العبودية والقلة والتبع لأمة أخرى في أحكام تلائم أحوال الأمة التابعة، إلى مصير الأمة مالكة أمر نفسها ذات مثل المسلمين مع النبي صلى الله عليه وسلم وبعده وهو إيماء إلى الوعد بأن القرآن الذي كذب به المشركون باق موروث في الأمة الإسلامية.

صفحة : 3766

والهدى الذي أوتيه موسى هو ما أوحي إليه من المر بالدعوة إلى الدين الحق، أي الرسالة وما أنزل إليه من الشريعة وهي المراد بالكتاب، أي التوراة، وهو الذي أورثه الله بني إسرائيل، أي أخذوه منه في حياته وأبقاه الله لهم بعد وفاته، فإطلاق الإيراث استعارة. وفي ذلك إيذان بأن الكتاب من جملة الهدى الذي أوتيه موسى، قال تعالى)إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور(، ففي الكلام إيجاز حذف تقديره: ولقد آتينا موسى الهدى والكتاب وأورثنا بني إسرائيل الكتاب، فإن موسى أتي من الهدى ما لم يرثه بنو إسرائيل وهو الرسالة وأوتي من الهدى ما أورثه بنو إسرائيل وهو الشريعة التي في التوراة.
و)هدى وذكرى(حالان من)الكتاب(، أي هدى لبني إسرائيل وذكرى لهم، ففيه علم ما لم يعلمه المتعلمون، وفيه ذكرى لما علمه أهل العلم منهم، وتشمل الذكرى استنباط الأحكام من نصوص الكتاب وهو الذي يختص بالعلماء منهم من أنبيائهم وقضاتهم وأحبارهم، فيكون)لألي الألباب(متعلقا ب)ذكرى(.
وأولو الألباب: أولو العقول الراجحة القادرة على الاستنباط.
)فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار[55](تفريع على قوله)إنا لننصر رسلنا(أي فاعلم أنا ناصروك والذين آمنوا واصبر على ما تلاقيه من قومك ولا تهن.
وجملة)إن وعد الله حق(تعليل للأمر بالصبر.

و)إن(للاهتمام بالخبر وهي في مثل هذا المقام تغني غناء فاء التعليل فكأنه قيل: فوعد الله حق ويفاد بأن التأكيد الذي هو للاهتمام والتحقيق.

هو وعد رسوله بالنصر في الآية السابقة وفي غير ما آية.

والمعنى لا تستبطئ النصر فإنه واقع، وذلك ما نصر به النبي صلى الله عليه وسلم في أيامه على المشركين يوم بدر ويوم الفتح ويوم حنين وفي أيام الغزوات الأخرى. وما عرض من الهزيمة يوم أحد كان امتحانا وتنبيها على سوء مغبة عدم الحفاظ على وصية الرسول صلى الله عليه وسلم أن لا يبرحوا من مكانهم ثم كانت العاقبة للمؤمنين.

وعطف على الأمر بالصبر الأمر بالاستغفار والتسبيح فكانا داخلين في سياق التفريع على الوعد بالنصر رمز إلى تحقيق الوعد لأنه أمر عقبه بما هو من آثار الشكر كناية عن كون نعمة النصر حاصلة لا محالة، وهذه كناية رمزية.

والأمر بالاستغفار أمر بأن يطلب من الله تعالى المغفرة التي اقتضتها النبوءة، أي اسأل الله دوام العصمة لتدوم المغفرة، وهذا مقام التخلية عن الأكدار النفسية، وفيه تعريض بان أمته مطلوبون بذلك بالأحرى كقوله)ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك(وأيضا فالنبي صلى الله عليه وسلم مأمور بالاستغفار تعبدا وتأدبا.

وأمر بتسبيح الله تعالى وتنزيهه بالعشي والإبكار، أي الأوقات كلها فاقتصر على طرفي أوقات العمل.

والعشي: آخر النهار إلى ابتداء ظلمة الليل، ولذلك سمي طعام الليل عشاء، وسميت الصلاة الأخير بالليل عشاء. والإبكار: اسم لبكرة النهار كالإصباح اسم للصباح، والبكرة أول النهار، وتقدمت في قوله)أن سبحوا بكرة وعشيا(في سورة مريم. وتقدم العشي في قوله) ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي(في سورة الأنعام. وهذا مقام التحلي بالكمالات النفسية وبذلك يتم الشكر ظاهرا وباطنا.

وجعل الأمران معطوفين على الأمر بالصبر لأن الصبر هنا لانتظار النصر الموعود، ولذلك لم يؤمر بالصبر لما حصل النصر في قوله) إذا جاء نصر اله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره(فإن ذلك مقام محض الشكر دون الصبر.

وقد أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كما في أول سورة الفتح، فتعين أن أمره بالاستغفار في سورة غافر قبل أن يخبره بذلك، لطلب دوام المغفرة، وكان أمره به في سورة النصر بعد أن أخبره بغفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر، للإرشاد إلى شكر نعمة النصر، وقد قال بعض الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم في شأن عبادته إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال: أفلا أكون عبدا شكوا . وكان يكثر أن يقول في سجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي . بعد نزول سورة)إذا جاء نصر الله(قالت عائشة رضي الله عنها يتأول القرآن. وبحكم السياق تعلم أن الآية لا علاقة لها بفرض الصلاة ولا بأوقاتها وإنما هي على نحو قوله تعالى)فسبح بحمد ربك واستغفره(في سورة النصر.

)إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه(جرى الكلام من أول السورة إلى هنا في ميدان الرد على مجادلة المشركين في آيات الله ودحض شبههم وتوعدهم على كفرهم وضرب الأمثال لهم بأمثالهم من أهل العناد ابتداء من قوله)ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا(وقوله)أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم(، كما ذكرت أمثال أضدادهم من أهل الإيمان من حضر منهم ومن غبر من قوله)ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون(ثم قوله)وقال رجل مؤمن من آل فرعون(، وختم ذلك بوعد النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالنصر كما نصر النبيون من قبله والذين آمنوا بهم، وأمر بالصبر على عناد قومه والتوجه إلى عبادة ربه، فكان ذكر الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان عقب ذلك من باب المثل المشهور الشيء بالشيء يذكر .

وبهذه المناسبة انتقل هنا إلى كشف ما تكنه صدور المجادلين من أسباب جدالهم بغير حق، ليعلم الرسول صلى الله عليه وسلم دخيلتهم فلا يحسب أنهم يكذبونه تنقصا له ولا تجويزا للكذب عليه، ولكن الذي يدفعهم إلى التكذيب هو التكبر عن أن يكونوا تبعا للرسول صلى الله عليه وسلم ووراء الذين سبقوهم بالإيمان ممن كانوا لا يعبأون بهم.

وهذا نحو قوله تعالى)قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون(.

فقوله)إن الذين يجادلون في آيات الله(الآية استئناف ابتدائي وهو كالتكرير لجملة)الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم

كبر مقتا عند الله(تكرير تعداد للتوبيخ عند تنهية غرض الاستدلال كما يوقف الموبخ المرة بعد المرة.
و)الذين يجادلون(هم مشركو أهل مكة وهم المخبر عنهم في قوله أول السورة)وما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد(.
ومعنى المجادلة في آيات تقدم هناك.
ويتعلق قوله)بغير سلطان(ب)يجادلون(. والباء للمصاحبة، أي مصاحب لهم غير سلطان، أي غير حجة، أي أنهم يجادلون مجادلة عناد وغصب.
وفائدة هذا القيد تشنيع مجادلتهم وإلا فإن المجادلة في آيات الله لا تكون إلا بغير سلطان لأن آيات الله لا تكون مخالفة للواقع فهذا القيد نظير القيد في قوله)ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله(، وكذلك وصف)سلطان(بجملة)أتاهم(لزيادة تفظيع مجادلتهم بأنها عرية عن حجة لديهم فهم يجادلون بما ليس لهم به علم، وتقدم نظير أول هذه الآية في أثناء قصة موسى وفرعون في هذه السورة.
و)إن(في قوله)إن في صدورهم إلا كبر(نافية والجار والمجرور خبر مقدم، والاستثناء مفرغ، و)كبر(مبتدأ مؤخر، والجملة كلها خبر عن)الذين يجادلون(. وأطلق الصدور على القلوب مجازا بعلاقة الحلول، والمراد ضمائر أنفسهم، والعرب يطلقون القلب على العقل لأن القلب هو الذي يحس الإنسان بحركته عند الانفعالات النفسية من الفرح وضده والاهتمام بالشيء.
والكبر من الانفعالات النفسية، وهو: إدراك الإنسان خواطر تشعره بأنه أعظم من غيره فلا يرضى بمساواته بله متابعته، وتقدم في تفسير قوله تعالى)إلا إبليس أبى واستكبر(في سورة البقرة.
والمعنى: ما يحملهم على المجادلة في آيات الله إلا الكبر على الذي جاءهم بها وليست مجادلتهم لدليل لاح لهم.

صفحة : 3768

وقد أثبت لهم الكبر الباعث على المجادلة بطريق القصر لينفي أن يكون داعيهم إلى المجادلة شيء آخر غير الكبر على وجه مؤكد، فإن القصر تأكيد على تأكيد لما يتضمنه من إثبات الشيء بوجه مخصوص مؤكد، ومن نفي ما عداه فتضمن جملتين.
وجملة)ما هم ببالغيه(يجوز أن تكون معترضة، ويجوز أن تكون في موضع الصفة ل)كبر(. وحقيقة البلوغ: الوصول، قال تعالى)إلى

بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس(ويطلق على نوال الشيء وتحصيله مجازا مرسلا كما في قوله تعالى)وما بلغوا معشار ما آتيناهم(وهو هنا محمول على المعنى المجازي لا محالة، أي ما هم ببالغي الكبر.

وإذ قد كان الكبر مثبتا حصوله في نفوسهم إثباتا مؤكدا بقوله)إن في صدورهم إلا كبر(، تعين إن نفي بلوغهم الكبر منصرف إلى حالت الكبر: فإما أن يراد نفي أهليتهم للكبر إذ هم أقل من أن يكون لهم الكبر كقوله تعالى)ليخرجن الأعز منه الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين(أي لا عزة حقا لهم، فالمعنى هنا: كبر زيف؛ وإما أن يراد نفي نوالهم شيئا من آثار كبرهم مثل تحقير الذين يتكبرون عليهم مثل احتقار المتكبر عليهم ومخالفتهم إياهم فيما يدعونهم إليه فضلا عن الانتظام في سلك اتباعهم، وإذلالهم، وإفحام حجتهم، فالمعنى: ما هم ببالغين مرادهم الذي يأملونه منك في نفوسهم الدالة عليه أقوالهم مثل قولهم)نتربص به ريب المنون(وقولهم)لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون(ونحو ذلك من أقوالهم لكاشفة لآمالهم.

فتنكير)كبر(للتعظيم، أي كبر شديد بتعدد أنواعه، وتمكنه من نفوسهم، فالضمير البارز في)ببالغيه(عائد إلى الكبر على وجه المجاز بعلاقة السببية أو المسببية، والداعي إلى هذا المجاز طلب الإيجاز لأن تعليق نفي البلوغ باسم ذات الكبر يشمل جميع الأحوال التي يثيرها الكبر، وهذا من مقاصد إسناد الأحكام إلى الذوات إن لم تقم قرينة على إرادة حالة مخصوصة، كما في قوله تعالى)نحن قسمنا بينهم معيشتهم(أي جميع أحوال معيشتهم. فشمل قوله)ما هم ببالغيه(عدم بلوغهم شيئا مما ينطوي عليه كبرهم، فما بلغوا الفضل على غيرهم حتى يتكبروا، ولا مطمع لهم في حصول آثارهم كبرهم، كما قال تعالى)لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا(.

وقد نفي أن يبلغوا مرادهم بصوغه في قالب الجملة الاسمية لإفادتها ثبات مدلولها ودوامة، فالمعنى: أنهم محرومون من بلوغه حرمانا مستمرا، فاشتمل تشويه حالهم إثباتا ونفيا على خصوصيات بلاغية كثيرة.

ومن المفسرين من جعل ما صدق)الذين يجادلون في آيات الله(هنا اليهود، وجعله في معنى قوله تعالى)أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله(، وارتقى بذلك إلى القول بأن هذه الآية مدنية ألحقت بالسورة المكية كما تقدم في مقدمة تفسير السورة، وأيدوا تفسيرهم هذا بآثارهم لو صحت لم تكن فيها دلالة

على أكثر من صلوحية الآية لأن تضرب مثلا لكل فريق يجادلون في آيات الله بغير سلطان جدالا يدفعهم إليه الكبر.
)فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير[56](لما ضمن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم إن الذين يجادلونه فيما جاءهم به يحدوهم إلى الجدال كبرهم المنطوي على كيدهم وأنهم لا يبلغون ما أضمروه وما يضمرونه، فرع على ذلك أن أمره بأن يجعل الله معاذه منهم، أي لا يعبأ بما يبيتونه، أي قدم على طلب العوذ بالله.
وحذف متعلق)استعذ(لقصد تعميم الاستعاذة من كل ما يخاف منه.
وجملة)إنه هو السميع البصير(تعليل للأمر بالدوام على الاستعاذة، أي لأنه المطلع على أقوالهم وأعمالهم وأنت لا تحيط علما بتصاريف مكرهم وكيدهم.
والتوكيد بحرف)إن(، والحصر بضمير الفصل مراعى فيه التعريض بالمتحدث عنهم وهم الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان.
والمعنى: أنه هو القادر على إبطال ما يصنعونه لأ أنت فكيف يتم لهم ما أضمروه لك.
)لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون[57](

صفحة : 3769

مناسبة اتصال هذا الكلام بما قبله أن أهم ما جادلوا فيه من آيات الله هي الآيات المثبتة للبعث وجدالهم في إثبات البعث هو أكبر شبهة لهم ضللت أنفسهم وروجوها في عامتهم فقالوا)أإذا كنا ترابا إنا لفي خلق جديد(. فكانوا يسخرون من النبي صلى الله عليه وسلم لأجل ذلك)وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد افترى على الله كذبا أم به جنة(، ولما كانوا مقرين بأن الله هو خالق السماوات والأرض أقيمت عليهم الحجة على إثبات البعث بأن بعث الأموات لا يبلغ أمره خلق السماوات والأرض بالنسبة إلى قدرة الله تعالى.
والكلام مؤذن بقسم مقدر لأن اللام لام جواب القسم، والمقصود: تأكيد الخبر.
ومعنى)أكبر(أنه أعظم وأهم وأكثر متعلقات قدرة بالقادر عليه لا يعجز عن خلق ناس يبعثهم للحساب.
فالمراد بالناس في قوله)من خلق الناس(الذين يعيد الله خلقتهم كما بدأهم أول مرة ويودع فيهم أرواحهم كما أودعها فيهم أول مرة. والخبر مستعمل في غير معناه لأن كون خلقها أكبر هو أمر

معلوم وإنما أريد التذكير والتنبيه عليه لعدم جريهم على موجب علمهم به.

وموقع الاستدراك في قوله)ولكن أكثر الناس لا يعلمون(ما اقتضاه التوكيد بالقسم من اتضاح أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

فالمعنى: أن حجة إمكان البعث واضحة ولكن الذين ينكرونها لا يعلمون، أي لا يعلمون الدليل لأنهم متلاهون عن النظر في الأدلة مقتنعون ببادئ الخواطر التي تبدو لهم فيتخذونها عقيدة دون بحث عن معارضها، فلما جروا على حالة انتقاء العلم نزلوا منزلة من لا علم لهم فلذلك نزل فعل)يعلمون(منزلة اللازم ولم يذكر له مفعول.

فالمراد ب)أكثر الناس(هم الذين يجادلون في آيات البعث وهم المشركون، وأما الذين علموا ذلك فهم المؤمنون وهم أقل منهم عددا.

وإظهار لفظ)الناس(في قوله)ولكن أكثر الناس لا يعلمون(مع أن مقتضى الظاهر الإضمار، لتكون الجملة مستقلة بالدلالة فتصلح لأن تسير مسير الأمثال، فالمعنى أنهم أنكروا البعث لاستبعادهم خلق الأجسام مع أن في خلق السماوات ولأرض ما لا يبقى معه استبعاد مثل ذلك.

)وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما يتذكرون[58](لما نزلهم منزلة من لا يعلم ضرب مثلا لهم وللمؤمنين، فمثل الذين يجادلون في أمر البعث مع وضوح إمكانه مثل الأعمى، ومثل المؤمنين الذين آمنوا به حال البصير، وقد علم حال المؤمنين من مفهوم صفة)أكثر الناس(لأن الأكثرين من الذين لا يعلمون يقابلهم أقلون يعلمون.

والمعنى: لا يستوي الذين اهتدوا والذين هم في ضلال، فإطلاق الأعمى والبصير استعارة للفريقين اللذين تضمنهما قوله)ولكن أكثر الناس لا يعلمون(.

ونفي الاستواء بينهما يقتضي تفضيل أحدهما على الآخر كما قدمنا في قوله تعالى)لا يستوي القاعدون من المؤمنين(الآية في سورة النساء، ومن المتبادر أن الأفضل هو صاحب الحال الأفضل وهو البصير إذ لا يختلف الناس في أن البصر أشرف من العمى في شخص واحد، ونفي الاستواء بدون متعلق يقتضي العموم في متعلقاته، لكنه يخص بالمتعلقات التي يدل عليها سياق الكلام وهي آيات الله ودلائل صفاته، ويسمى مثل هذا العموم العموم العرفي، وتقدم نظيرها في سورة فاطر.

وقوله)والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء(زيادة بيان لفضيلة أهل الإيمان بذكر فضيلتهم في أعمالهم بعد ذكر فضلهم في إدراك أدلة إمكان البعث ونحوه من أدلة الإيمان.

والمعنى: وما يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيئون، أي في أعمالهم كما يؤذن بذلك قوله)وعملوا الصالحات ولا المسيء(، وفيه إيماء إلى اختلاف جز الفريقين وهذا الإيماء إدماج للتنبيه على الثواب والعقاب.

والواو في قوله)والذين آمنوا(عاطفة الجملة على الجملة بتقدير: وما يستوي الذين آمنوا.

والواو في قوله)ولا المسيء(عاطفة)المسيء(على)الذين آمنوا(عطف المفرد على المفرد، فالعطف الأول عطف المجموع مثل قوله تعالى)هو الأول والآخر والظاهر والباطن(.

صفحة : 3770

وإنما قدم ذكر الأعمى على ذكر البصير مع أن البصر أشرف من العمى بالنسبة لذات واحدة، والمشبه بالبصير أشرف من المشبه بالأعمى إذ المشبه بالبصير المؤمنون، فقد ذكر تشبيه الكافرين مراعاة لكون الأهم في المقام بيان حال الذين يجادلون في الآيات إذ هم المقصود بالموعظة.

وأما قوله)والذين(آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء(فإنما رتب فيه ذكر الفريقين على عكس ترتيبه في التشبيه بالأعمى والبصير اهتماما بشرف المؤمنين.

وأعيدت)لا(النافية بعد واو العطف على النفي، وكان العطف مغنيا عنها فإعادتها لإفادتها تأكيد نفي المساواة ومقام التوبيخ يقتضي الإطناب، ولذلك تعد)لا(في مثله زائدة كما في مغني اللبيب، وكان الظاهر أن تقع)لا(قبل)الذين آمنوا(، فعدل عن ذلك للتنبيه على أن المقصود عدم مساواة المسيء لمن عمل الصالحات، وأن ذكر الذين آمنوا قبل المسيء للاهتمام بالذين آمنوا ولا مقتضي للعدول عنه بعد أن قضي حق الاهتمام بالذين سبق الكلام لأجل تمثيلهم، فحصل في الكلام اهتمامان.

وقريب منه ما في سورة فاطر في أربع جمل: اثنتين قدم فيهما جانب تشبيه الكافرين، واثنتين قدم فيهما تشبيه جانب المؤمنين، وذلك قوله تعالى)وما يستوي الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات(.

و)قليلا(حال من)أكثر الناس(في قوله تعالى قبله)ولكن أكثر الناس لا يعلمون(، و)ما(في قوله)ما يتذكرون(مصدرية وهي في محل رفع على الفاعلية.

وهذا مؤكد لمعنى قوله)ولكن أكثر الناس لا يعلمون(لأن قلة التذكر تؤول إلى عدم العلم، والقلة هنا كناية عن العدم وهو استعمال كثير، كقوله تعالى)فقليلا ما يؤمنون(، ويجوز أن تكون على صريح معناها ويكون المراد بالقلة عدم التمام، أي لا يعلمون فإذا تذكروا تذكروا تذكرا لا يتمنونه فينقطعون في أثنائه عن التعمق إلى استنباط الدلالة منه فهو كالعدم في عدم ترتب أثره عليه.

وقرأ الجمهور)يتذكرون(بياء الغيبة جريا على مقتضى ظاهر الكلام، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف)تتذكرون(بتاء الخطاب على الالتفاف، والخطاب للذين يجادلون في آيات الله.

وكون الخطاب لجميع الأمة من مؤمنين ومشركين وأن التذكر القليل هو تذكر المؤمنين فهو قليل بالنسبة لعدم تذكر المشركين بعيد عن سياق الرد ولا يلاقي الالتفاف.

)إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون[59](لما أعطي إثبات البعث ما يحق من الحجاج والاستدلال، تهيأ المقام لاستخلاص تحقيقه كما تستخلص النتيجة من القياس، فأعلن بتحقيق مجيء)الساعة(وهي ساعة البعث إذ)الساعة(في اصطلاح الإسلام علم بالغلبة على ساعة البعث، فالساعة والبعث مترادفان في المال، فكأنه قيل: إن الذي جادل فيه المجادلون سيقع لا محالة إذ انكشفت عنه شبه الضالين وتمويهاتهم فصار بينا لا ريب فيه.

وتأكيد الخبر ب)إن(ولام الابتداء لزيادة التحقيق، وللإشارة إلى أن الخبر تحقق بالأدلة السابقة. وذلك أن الكلام موجه للذين أنكروا البعث، ولهذا لم يؤت بلام الابتداء في قوله في سورة طه)إن الساعة آتية(لأن الخطاب لموسى عليه السلام.

وجيء باسم الفاعل في)آتية(الذي هو حقيقة في الحال، للإيماء إلى أنها لما تحققت فقد صارت كالشيء الحاضر المشاهد. والمراد تحقيق وقوعها لا الإخبار عن وقوعها.

وجملة)لا ريب فيها(مؤكدة لجملة)إن الساعة لآتية(، ونفي الريب عن نفس الساعة، والمراد نفيه عن إتيانها لدلالة قوله)آتية(على ذلك.

ومعنى نفي الريب في وقوعها: أن دلائلها واضحة بحيث لا يعتد بريب المرتابين فيها لأنهم ارتابوا فيها لعدم الروية والتفكر، وهذا قريب من قوله تعالى)ذلك الكتاب لا ريب فيه(.

فموقع الاستدراك الذي في قوله)ولكن أكثر الناس لا يؤمنون(هو ما يثيره نفي الريب عن وقوعها من أن يتساءل متسائل

كيف ينفي الريب عنها والريب حاصل لكثير من الناس، فكان الاستدراك بقوله)ولكن أكثر الناس لا يؤمنون(جوابا لذلك السؤال.

صفحة : 3771

والمعنى: ولكن أكثر الناس يمرون بالأدلة والآيات وهم معرضون عن دلالتها فيبقون غير مؤمنين بمدلولاتها ولو تأملوا واستنبطوا بعقولهم لظهر لهم من الأدلة ما يؤمنون بعده، فلذلك نفي عنهم هنا وصف الإيمان.
وهذا الاستدراك استئناف بياني، ولولا أن)لكن(يكثر أن تقع بعد واو العطف لكانت الجملة جديرة بالفصل دون عطف، فهذا العطف تحلية لفظية.
و)أكثر الناس(هم المشركون، وهم يومئذ أكثر من المؤمنين جدا.
)وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين[60](لما كانت المجادلة في آيات الله تشمل مجادلتهم في وحدانية الإلهية كما دل عليه قوله الآتي،)ثم قليل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا(، فجعل)لم نكن ندعوا(نقيض ما قيل لهم)أين ما كنتم تعبدون(، وتشمل المجادلة في وقوع البعث كما دل عليه قوله بعد هذه)ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون(إلى قوله)إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل(الآية، أعقب ذكر المجادلة أولا بقوله)لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس(وذلك استدلال على إمكان البعث، ثم عطف عليه قوله)وقال ربكم ادعوني أستجب لكم(الآية تحذيرا من الإشراك به، وأيضا لما ذكر أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بدعاء الله وحده أمرا مفرغا على توبيخ المشركين بقوله)وأنذرهم يوم الآزفة(الخ، وتتابعت الأغراض حتى استوفت مقتضاها، عاد الكلام الآن إلى ما يشمل عبادة المؤمنين الخالصة لله تعالى وهو أيضا متصل بقوله)وما دعاء الكافرين إلا في ضلال(. فلما تقدم ذكر الدعاء بمعنييه: معنى العبادة، ومعنى سؤال المطلوب، أردف بهذا المر الجامع لكلا المعنيين.
والقول المخبر عنه بفعل)قال ربكم(يجوز أن يراد به كلام الله النفسي، أي ما تعلقت إرادة الله تعلقا صلاحيا، بأن يقوله عند إرادة تكوينه، ويجوز أن يراد القول اللفظي ويكون التعبير ب)قال(الماضي إخبار عن أقوال مضت في آيات قبل نزول هذه الآية مثل قوله) فادعوا الله مخلصين له الدين بخلاف قوله)أجيب دعوة الداعي إذا

دعان(فإنه نزل بعد هذه الآية، ويجوز أن يكون الماضي مستعملا في الحال مجازا، أي يقول ربكم: ادعوني.
والدعاء يطلق بمعنى النداء المستلزم للاعتراف بالمنادى، ويطلق على الطلب وقد جاء من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ما فيه صلاحية معنى الدعاء الذي في هذه الآية لما يلائم المعنيين في حديث النعمان بن بشير قال: سمعت النبي ص يقول الدعاء هو العبادة ثم قرأ)وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين(رواه الترمذي. وقال: هذا حديث حسن صحيح، فإن قوله الدعاء هو العبادة يقتضي اتحاد الحقيقتين فإذا كان الدعاء هو العبادة كانت العبادة هي الدعاء لا محالة.
فالدعاء يطلق على سؤال العبد من الله حاجته وهو معناه في اللغة، ويطلق على عبادة الله على طريق الكناية لأن العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتضرع إليه، وهذا إطلاق أقل شيوعا من الأول، ويراد بالعبادة في اصطلاح القرآن إفراد الله بالعبادة، أي الاعتراف بوحدانيته.
والاستجابة تطلق على إعطاء المسؤول لمن سأله وهو أشهر إطلاقا وتطلق على أثر قبول العبادة بمغفرة الشرك السابق وبحصول الثواب على أعمال الإيمان فإفادة الآية على مشيئة الله أو على استيفاء شروط قبول الطلب، وإعطاء خير منه في الدنيا، أو إعطاء عوض منه في الآخرة.وإفادتها على معنى إفراد الله بالعبادة، أي بأن يتوبوا عن الشرك، فترتب الاستجابة هو قبول ذلك، فإن قبول التوبة من الشرك مقطوع به.
فلما جمعت الآية بين الفعلين على تفاوت بين شيوع الإطلاق في كليهما علمنا أن في المعنى بقوله)إن الذين يستكبرون عن عبادتي(، فعلمنا أن المراد الدعاء والعبادة، وأن الاستجابة أريد بها قبول الدعاء وحصول أثر العبادة. ففعل)ادعوني(مستعمل في معنييه بطريقة عموم المشترك.
وفعل)أستجب(مستعمل في حقيقته ومجازه، والقرينة ما علمت وذلك من الإيجاز والكلام الجامع.

صفحة : 3772

وتعريف الله بوصف الرب مضافا إلى ضمير المخاطبين لما في هذا الوصف وإضافته من الإيماء إلى وجوب امتثال أمره لأن من حق الربوبية امتثال ما يأمر به موصوفها لأن المربوب محقوق

بالطاعة لربه، ولهذا لم يعرج مع هذا الوصف على تذكير بنعمته ولا إشارة إلى كمالات ذاته.

وجملة)إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم(تعليل للأمر بادعاء تعليلا يفيد التحذير من إباية دعاء الله حين الإقبال على دعاء الأصنام، كما قال تعالى)ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا(وكان المشركون لا يضرعون إلى الله إلا إذا لم يتوسموا استجابة شركائهم، كما قال تعالى)فلما نجاكم إلى البر أعرضتم(. ومعنى التعليل للأمر بالدعاء بهذا التحذير: أن الله لا يحب لعباده ما يفضي بهم إلى العذاب، قال تعالى)ولا يرضى لعباده الكفر(ففي الآية دليل على طلب الله من عباده أن يدعوه في حاجاتهم. ومشروعية الدعاء لا خلاف فيها بين المسلمين وإنما الخلاف في أنه ينفع في رد القدر أو لا وهو خلاف بيننا وبين المعتزلة. وليس في الآية حجة عليهم لأنهم تأولوا معنى)أستجب لكم(، وتقدم قوله تعالى)وإذا سألك عني فإني قريب(الآية في سورة البقرة، وفي الإتيان بالموصول إيماء إلى التعليل.

و)داخرين(حال من ضمير)سيدخلون(أي أذلة، دخر كمنع وفرح: صغر وذل، وتقدم قوله)سجدا لله وهم داخرون(في سورة النحل.

وقرأ الجمهور)سيدخلون(بفتح التحتية وضم الخاء. وقرأه أبو جعفر ورويس عن يعقوب بضم التحتية وفتح الخاء على البناء للنائب، أي سيدخلهم ملائكة العذاب جهنم.

)الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون[61](يجوز أن يكون اسم الجلالة بدلا من)ربكم(في)وقال ربكم(اتبع)ربكم(بالاسم العلم ليقضى بذلك حقان: حق استحقاقه أن يطاع بمقتضى الربوبية والعبودية، وحق استحقاقه الطاعة لصفات كماله التي يجمعها اسم الذات. ولذلك لم يؤت مع وصف الرب المتقدم بشيء من ذكر نعمه وإفضاله ثم وصف الاسم بالموصول وصلته إشارة إلى بعض صفاته، وإيماء إلى وجه الأمر بعبادته، وتكون الجملة استئنافا بيانيا ناشئا عن تقوية الأمر بدعائه.

ويجوز أن يكون اسم الجلالة مبتدأ والموصول صفة له ويكون الخبر قوله)ذلكم الله ربكم(ويكون جملة)إن الله لذو فضل(معترضة، أو أن يكون اسم الجلالة مبتدأ والموصول خبرا.

واعتبار الجملة مستأنفة أحسن من اعتبار اسم الجلالة بدلا لأنه انسب بالتوقيف على سوء شكرهم، وبمقام تعداد الدلائل وأسعد بقوله)الله الذي جعل لكم الأرض قرارا(، فتكون الجملة واقعة موقع التعليل لجملة)إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون

جهنم داخرين(، أي تسببوا لأنفسهم بذلك العقاب لأنهم كفروا نعمة الله إذ جعل لهم الليل والنهار.
وعلى هذه الاعتبارات كلها فقد سجلت هذه الآية على الناس تقسيمهم إلى: شاكر نعمة، وكفورها، كما سجلت عليهم الآية السابقة تقسيمهم إلى: مؤمن بوحدانية الله، وكافر بها.
وهذه الآية للتذكير بنعمة الله تعالى على الخلق كما اقتضاه لام التعليل في قوله)لكم(واقتضاه التذييل بقوله)إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون(.
وأدمج في التذكير بالنعمة استدلال على انفراده تعالى بالتصرف بالخلق، والتدبير الذي هو ملازم حقيقة الإلهية.

صفحة : 3773

وابتدئ الاستدلال بدلائل الأكوان العلوية وآثارها الواصلة إلى الأكوان السفلية، وهي مظهر النعمة بالليل والنهار فهما تكوينان عظيمان دالان على عظيم قدرة مكونهما ومنظمهما وجاعلهما متعاقبين، فنيطت بهما أكثر مصالح هذا العالم ومصالح أهله، فمن مصالح العالم حصول التعادل بين الضياء والظلمة، والحرارة والبرودة لتكون الأرض لائقة بمصالح من عليها فتنبت الكلأ وتنضج الثمار، ومن مصالح سكان العالم سكون الإنسان والحيوان في الليل لاسترداد النشاط العصبي الذي يعييه عمل الحواس والجسد في النهار، فيعود النشاط إلى المجموع العصبي في الجسد كله وإلى الحواس، ولولا ظلمة الليل لكان النوم غير كامل فكان عود النشاط بطيئا وواهنا ولعاد على القوة العصبية بالانحطاط والاضمحلال في أقرب وقت فلم يتمتع الإنسان بعمر طويل.
ومنها انتشار الناس ولحيوان في النهار وتبين الذوات بالضياء، وبذلك تتم المساعي للناس في أعمالهم التي بها انتظام أمر المجتمع من المدن والبوادي، والحضر والسفر، فإن الإنسان مدني بالطبع، وكادح للعمل والاكتساب، فحاجته للضياء ضرورية ولولا الضياء لكانت تصرفات الناس مضطربة مختبطة.
وللتنويه بشأن إبصار الناس في الضياء وكثرة الفوائد الحاصلة لهم من ذلك أسند الإبصار إلى النهار على طريقة المجاز العقلي لقوة الملابسة بين الأفعال وزمانها، فأسند إبصار الناس إلى نفس النهار لأنه سبب بعضه وسبب كمال بعض آخر.
فأما نعمة السكون في الليل فهي نعمة واحدة هي رجوع النشاط.

وفي ذكرى الليل تذكير بآية عظيمة من المخلوقات وهي الشمس التي ينشأ الليل من احتجاب أشعتها عن نصف الكرة الأرضية وينشأ النهار من انتشار شعاعها على النصف المقابل من الكرة الأرضية، ولكن لما كان المقصد الأول من هذه الآية الامتنان ذكر الليل والنهار دون الشمس، وقد ذكرت الشمس في آيات أخرى كان الغرض الأهم منها الدلالة على عظيم القدرة والوحدانية كقوله) الشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم(.

ودلت مقابلة تعليل إيجاد الليل بعلة سكون الناس فيه، بإسناد الإبصار إلى ذات النهار على طريقة المجاز العقلي وإنما المبصرون الناس في النهار، على احتباك إذ يفهم من كليهما أن الليل ساكن أيضا، وأن النهار خلق ليبصر الناس فيه إذ المنة بهما سواء، فهذا من بديع الإيجاز مع ما فيه من تفنن أسلوبي الحقيقة والمجاز العقلي. ولم يعكس فيقل: جعل لكم الليل ساكنا والنهار لتبصروا فيه، لئلا تفوت صراحة المراد من السكون كيلا يتوهم أن سكون الليل هو شدة الظلام فيه كما يقال: ليل ساج، لقلة الأصوات فيه.

وتقدم الكلام على الليل والنهار في سورة البقرة عند قوله تعالى)إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار(، وفي مواضع أخرى.

وجملة)إن الله لذو فضل على الناس(اعتراض هو كالتذليل لجملة)الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه(لأن الفضل يشمل جعل الليل والنهار وغير ذلك من النعم، ولأن)الناس(يعم المخاطبين بقوله)جعل لكم(وغيرهم من الناس.

وتنكير)فضل(للتعظيم لأن نعم الله تعالى عظيمة جليلة ولذلك قال)لذو فضل(ولم يقل: لمتفضل، ولا لمفضل، فعدل إلى إضافة) ذو(إلى)فضل(لتأتي التنكير المشعر بالتعظيم.

وعدل عن نحو: له فضل، إلى)لذو فضل(لما يدل عليه)ذو(من شرف ما يضاف هو إليه.

والاستدراك ب)لكن(ناشئ عن لازم)ذو فضل على الناس(لأن الشأن أن يشكر الناس ربهم على فضله فكان أكثرهم كافرا بنعمه، وأي كفر للنعمة أعظم من أن يتركوا عبادة خالقهم المتفضل عليهم ويعبدوا ما لا يملك لهم نفعا ولا ضرا.

وخرج ب)أكثر الناس(الأقل وهم المؤمنون فإنهم أقل)ولو أعجبك كثرة الخبيث(.

والعدول عن ضمير الناس في قوله)ولكن أكثر الناس لا يشكرون(إلى الاسم الظاهر ليتكرر لفظ)الناس(عند ذكر عدم الشكر كما ذكر عند التفضل عليهم فيسجل عليهم الكفران بوجه أصرح.

وقد علمت مما تقدم وجه اختلاف المنفيات في قوله)ولكن أكثر الناس لا يعلمون(وقوله)ولكن أكثر الناس لا يؤمنون(وقوله)ولكن أكثر الناس لا يشكرون(، فقد أتبع كل غرض أريد إثباته بما يناسب حال منكريه.

)ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون[62](

اتصل الكلام على دلائل التفرد بالإلهية من قوله)ذلكم الله ربكم خالق كل شيء(إلى قوله)مخلصين له الدين(اتصال الأدلة بالمستدل عليه.

والإشارة ب)ذلكم(إلى اسم الجلالة في قوله)الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه(. وعدل عن الضمير إلى اسم الإشارة لإفادة أنه تعالى معلوم متميز بأفعاله المنفرد بها بحيث إذا ذكرت أفعاله تميز عما سواه فصار كالمشاهد المشار إليه، فكيف تلتبس إلهيته بإلهية مزعومة للأصنام فليست للذين أشركوا به شبهة تلبس عليهم ما لا يفعل مثل فعله، أي ذلكم ربكم لا غيره وفي اسم الإشارة هذا تعريض بغباوة المخاطبين الذين لبست عليهم حقيقة إلهيته.

وقوله)الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو(أخبار أربعة عن اسم الإشارة، ابتدئ فيها بالاسم الجامع لصفات الإلهية إجمالا، وأردف ب)ربكم(أي الذي دبر خلق ما هو خلق خاص بالبشر بأنه خالق الأشياء كلها كما خلقهم، وأردف بنفي الإلهية عن غيره فجاءت مضامين هذه الأخبار الأربعة مترتبة بطريقة الترقي، وكان رابعها نتيجة لها، ثم فرع عليها استفهام تعجيبي من انصرافهم عن عبادته إلى جانب عبادة غيره مع وضوح فساد إعراضهم عن عبادته.

و)أنى(اسم استفهام عن كيفية، وأصله استفهام عن المكان فإذا جعلوا الحالة في معنى الجانب ومثار الشيء استفهموا ب)أنى(عن الحالة ويشعر بذلك قوله تعالى)أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة(في سورة الأنعام.

و)تؤفكون(تصرفون، وتقدم في قوله تعالى)قاتلهم الله أنى يؤفكون(في سورة براءة، وبناؤه للمجهول لإجمال بسبب إعراضهم إذ سيبين بحاصل الجملة بعده.

)كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون[63](هذه الجملة معترضة بمنزلة التعليل لمضمون الجملة التي قبلها وهو التعجيب من انصرافهم عن عبادة ربهم خالقهم وخالق كل شيء فإن في تعليل ذلك ما يبين سبب التعجيب فجيء في جانب المأفوكين بالموصول

لأن الصلة تومئ إلى وجه بناء الخبر وعلته، أي أن استمرارهم على الانصراف عن العلم بوجوب الوحدانية له تعالى.
فالإشارة بذلك إلى الإفك المأخوذ من فعل)تؤفكون(أي مثل إفككم ذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون.
فيجوز أن يكون المراد ب)الذين كانوا بآيات الله يجحدون(المخاطبين بقوله)ذلكم الله ربكم(، ويكون الموصول وصلته إظهارا في مقام الإضمار، والمعنى: كذلك تؤفكون، أي مثل أفككم تؤفكون، ويكون التشبيه مبالغة في أن إفكهم بلغ في كنه الإفك النهاية بحيث لو أراد المقرب أن يقربه للسامعين بشيه له لم يجد شبيها له أوضح منه وأجلي في ماهيته فلا يسعه إلا أن يشبهه بنفسه على الطريقة المألوفة المبينة في قوله تعالى)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(، وبذلك تكون صلة الموصول من قوله)الذين كانوا بآيات الله يجحدون(إيماء إلى علة إفكهم تعليلا صريحا.
ويجوز أن يكون المراد ب)الذين كانوا بآيات الله يجحدون(كل من جحد بآيات الله من مشركي العرب ومن غيرهم من المشركين والمكذبين فيصير التعليل المومئ إليه بالصلة تعليلا تعريضيا لأنه إذا كان الإفك شأن الذين يجحدون بآيات الله كلهم فقد شمل ذلك هؤلاء بحكم المماثلة.
وصيغة المضارع لاستحضار الحالة، وذكر فعل الكون للدلالة على أن الجحد بآيات الله شأنهم وهجيراهم.
وهذا أصل عظيم في الأخلاق العلمية، فإن العقول التي تتخلق بالإنكار والمكابرة قبل التأمل في المعلومات ولا تميز بين الصحيح والفاسد.
)الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء(

صفحة : 3775

استئناف ثان بناء على أحسن الوجوه التي فسرنا بها موقع قوله)الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه(كما تقدم فلذلك لم تعطف على التي قبلها لأن المقام مقام تعداد دلائل انفراده تعالى بالتصرف وبالإنعام عليهم حتى بفتضح خطلهم في الإشراك به وكفران نعمه، فذكرهم في الآية السابقة بآثار قدرته في إيجاد الأعراض القائمة بجواهر هذا العالم وهما عرضا الظلمة والنور، وفي كليهما نعم عظيمة على الناس، وذكرهم في هذه الآية بآثار خلق الجواهر في هذا العالم على كيفيات هي نعمة لهم، وفي خلق أنفسهم على صور صالحة بهم، فأما إن جعلت اسم الجلالة في قوله)الله الذي

جعل(الخ بدلا من)ربكم(في)وقال ربكم ادعوني(، فإن جملة الله الذي جعل لكم الأرض قرارا(تكون مستأنفة استئنافا ابتدائيا.
والموصول وصلته يجوز أن يكون صفة لاسم الجلالة فيكون الخبر قوله)ذلكم الله ربكم(وهو أولى لأن المقصود إثبات إلهيته وحده بدليل ما هو مشاهد من إتقان صنعه الممزوج بنعمته.
ويجوز أن يكون الموصول خبرا فيكون الخبر مستعملا في الامتنان والاعتبار. ولما كان المقصود الأول من هذه الآية الامتنان كما دل عليه قوله)لكم(قدمت الأرض على السماء لأن الانتفاع بها محسوس وذكرت السماء بعدها كما يستحضر الشيء بضده مع قصد إيداع دلائل علم الهيئة لمن فيهم استعداد للنظر فيها وتتبع أحوالها على تفاوت المدارك وتعاقب الأجيال واتساع العلوم.
والقرار أصله، مصدر قر، إذا سكن. وهو هنا من صفات الأرض لأنه في حكم الخبر عن الأرض، فالمعنى يحتمل: أنه جعلها قارة غير مائدة ولا مضطربة فلم تكن مثل كرة الهواء مضطربة متحركة ولو لم تكن قارة لكان الناس في عناء من اضطرابها وتزلزلها، وقد يفضي ذلك بأكثرهم إلى الهلاك وهذا في معنى قوله)وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم(في سورة الأنبياء.
ويحتمل أن المعنى جعل الأرض ذات قرار، أي قرار لكم، أي جعلها مستقرا لكم كقوله تعالى)وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين(أي خلقها على كيفية تلائم الاستقرار عليها بأن جعلها يابسة غير سائلة ولو شاء لجعل سطح الأرض سيالا كالزئبق أو كالعجل فلا يزال الإنسان سائخا فيها يطفو تارة ويسيخ أخرى فلا يكاد يبقى على تلك الحالة، وذلك كوسط سبخة التكمرت المسماة شط الجريد الفاصل بين نفطة ونفزاوة من الجنوب التونسي فإن فيها مسافات إذا مشت فيها القوافل ساخت في الأرض فلا يعثر عليها ولذلك لا تسير فيها القوافل إلا بهداة عارفين بمسالك السير في علامات منصوبة، فكانت خلقه الأرض دالة على عظيم قدرة الله وعلى دقيق حكمته وعلى رحمته بالإنسان والحيوان المعمور بهما وجه الأرض.
والبناء: ما يرفع سمكه على الأرض للاتقاء من الحر والبرد والمطر والدواب. ووصف السماء بالبناء جار على طريقة التشبيه البليغ، وتقدم الكلام مستوفي عند قوله تعالى)الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء(في سورة البقرة.
)وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات(لا جرم أن حكمة الله تعالى التي تعلقت بإيجاد ما يحف بالإنسان من العوالم على كيفية ملائمة له مدة بقاء نوعه على الأرض وتحت أديم السماء

ولذلك أعقب التذكير بما مهد له من خلق الأرض والسماء، بالتذكير بأنه خلقه مستوفيا مصلحته وراحته.
وعبر عن هذا الخلق بفعل)صوركم(لأن التصوير خلق على صورة مراده تشعر بالعناية، ألا ترى إلى قوله تعالى)ولقد خلقناكم ثم صورناكم(فاقتضى حسن الصور فلذلك عدل في جانب خلق الإنسان عن فعل الجعل إلى فعل التصوير بقوله)وصوركم(فهو كقوله تعالى)الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة(ثم صرح بما اقتضاه فعل التصوير من الإتقان والتحسين بقوله)فأحسن صوركم(.
والفاء في قوله)فأحسن صوركم(عاطفة جملة على جملة ودالة على التعقيب أي أوجد صورة الإنسان فجاءت حسنة.

صفحة : 3776

وعطف على هذه العبرة والمنة منة أخرى فيها عبرة، أي خلقكم في أحسن صورة ثم أمدكم بأحسن رزق فجمع لكم بين الإيجاد والإمداد، ولما كان الرزق شهوة في ظاهره وكان مشتملا على حكمة إمداد الجسم بوسائل تجديد قواه الحيوية وكان في قوله) رزقكم(إيماء إلى نعمة طول الوجود فلم يكن الإنسان من الموجودات التي تظهر على الأرض ثم تضمحل في زمن قريب وجمع له بين حسن الإيجاد وبين حسن الإمداد فجعل ما به مدد الحياة وهو الرزق من أحسن الطيبات على خلاف رزق بقية أنواع الحيوان.
)ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين[64](موقع)ذلكم الله ربكم(كموقع نظيره المتقدم آنفا. وإعدة هذا تكرير للتوقيف على خطل رأيهم في عبادة غيره على طريقة التعريض، بقرينة ما تقدم في نظيره من قوله)لا إله إلا هو فأنى تؤفكون(، وقرينة قوله هنا)لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين(.
وفرع على ما ذكر من بدائع صنعه وجزيل منه، أن أنشئ الثناء عليه بما يفيد اتصافه بعظيم صفات الكمال فقال)فتبارك الله(، وفعل)تبارك(صيغة مفاعلة مستعملة مجازا في قوة ما اشتق منه الفعل. وهو مشتق من اسم جامد وهو البركة، والبركة: اسم يدل على تزايد الخير. وإظهار اسم الجلالة مع فعل)تبارك(دون الإتيان بضمير مع تقدم اسمه، فالإظهار لتكون الجملة كلمة ثناء مستقلة.
و)رب العالمين(خالق أجناس العقلاء من الناس والملائكة والجن. وهذا الوصف من تمام الإنشاء لأن في ذكر ربوبيته للعالمين وهم

أشرف أجناس الموجودات استحضار لما أفاضه عليهم من خيرات الإيجاد والإمداد.

)هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين(استئناف ثالث للارتقاء في إثبات إلهيته الحق بإثبات ما يناسبها وهو الحياة الكاملة، فهذه الجملة مقدمة لجملة)لا إله إلا هو(فإثبات الحياة الواجبة لذاته فإن الذي رب العالمين وأوجدهم على أكمل الأحوال وأمدهم بما به قوامهم على ممر الأزمان لا جرم أنه موصوف بالحياة الحق لأن مدبر المخلوقات على طول العصور يجب أن يكون موصوفا بالحياة، إذ الحياة مع ما عرض من عسر في تعريفها عند الحكماء والمتكلمين هي صفة وجودية تصحح لمن قامت به الإدراك والإرادة والفعل، وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى)كنتم أمواتا فأحياكم(في سورة البقرة.

فإن كان اتصاف موصوفها بها مسبوقا بعدم فهي حياة ممكنة عارضة مثل حياة الملائكة وحياة الأرواح وحياة الإنسان وحياة الحيوان وحياة الأساريع، فتكون متفاوتة في موصوفاتها بتفاوت قوتها فيها ومتفاوتة في موصوفها الواحد بتفاوت أزمانها مثل تفاوت حياة الشخص الواحد في وقت شبابه، وحياته في وقت هرمه ومثل حياة الشخص وقت نشاطه وحياته وقت نومه، وبذلك التفاوت تصير إلى الخفوت ثم الزوال، ويظهر أثر تفاوتها في تفاوت آثارها من الإدراك والإرادة والفعل.

وإن كان اتصاف موصوفها بها أزليا غير مسبوق بعدم فهي حياة واجب الوجود سبحانه وهي حياة واجبة ذاتية. وهي الحياة الحقيقة لأنها غير معرضة للنقص ولا للزوال، فلذلك كان الحي حقيقة هو الله تعالى كما أنبأت عنه صيغة الحصر في قوله)هو الحي(وهو قصر ادعائي لعدم الاعتداد بحياة ما سواه من الأحياء لأنها عارضة ومعرضة للفناء والزوال.

فموقع قوله)لا إله إلا هو(موقع النتيجة من الدليل لأن كل من سواه لا حياة له واجبة، فهو معرض للزوال فكيف يكون إلها مدبرا للعالم. وجميع ما عبد من دون الله هو بين ما لم يتصف بالحياة تماما كالأصنام من الحجارة أو الخشب أو المعادن. ومثل الكواكب الشمس والقمر والشجر، وبين ما اتصف بحياة عارضة غير زائلة كاملائكة، وبين ما اتصف بحياة عارضة زائلة من معبودات البشر مثل بوذة و برهما بله المعبودات من البقر والثعابين. قال تعالى)والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون(أي لا يستطيع أحدهم التصرف بالإيجاد والإحياء وهو مخلوق، أي معرض للحياة)أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون(فجعل نفي الحياة عنهم في الحال أو في المآل دلالة على

انتفاء إلهيتهم وجعل نفي إدراك بعض المدركات عنهم دلالة على انتفاء إلهيتهم.

صفحة : 3777

وبعد اتضاح الدلالة على انفراده تعالى بالإلهية فرع عليه المر بعبادته وحده غير مشركين غيره في العبادة لنهوض انفراده باستحقاق أن يعبد.
والدعاء: العبادة لأنها يلازمها السؤال والنداء في أولها وفي أثنائها غالبا، لأن الدعاء عنوان انكسار النفس وخضوعها كما تقدم آنفا عند قوله تعالى)وقال ربكم ادعوني أستجب لكم(الآية وكما في قوله الآتي)بل لم نكن ندعو من قبل شيئا(.
والإخلاص: الإفراد وتصفية الشيء مما ينافيه أو يفسده.
والدين: المعاملة. وأطلق على الطاعة وهو المراد هنا لأنها أشد أنواع المعاملة بين المطيع والمطاع. والمعنى: فإذ كان هو الحي دون الأصنام وكان لا إله غيره فاعبدوه غير مشركين معه غيره في عبادته.
ويدخل في ماهية الإخلاص دخولا أوليا ترك الرياء في العبادة لأن الرياء وهو أن يقصد المتعبد من عبادته أن يراه الناس سواء كان قصدا مجردا أو مخلوطا مع قصد التقرب إلى الله. كل ذلك لا يخلو من حصول حظ في تلك العبادة لغير الله وإن لم يكن ذلك الحظ في جوهرها. وهذا معنى في الحديث إن الرياء الشرك الأصغر .
وتقديم)له(المتعلق بمخلصين على مفعول)مخلصين(لأنه الأهم في هذا المقام به لأنه أشد تعلقا بمتعلقه من تعلق المفعول بعامله.
)الحمد لله رب العالمين[65](يجوز أن تكون إنشاء للثناء على الله كما هو شأن أمثالها في غالب مواقع استعمالها كما تقدم في سورة الفاتحة، فيجوز أن تكون متصلة بفعل)فادعوه(على تقدير قول محذوف، أي قائلين، الحمد لله رب العالمين، أو قولوا: الحمد لله رب العالمين، وقرينه المحذوف هو أن مثل هذه الجملة مما يجري على ألسنة الناس كثيرا فصارت كالمثل في إنشاء الثناء على الله. والمعنى: فاعبدوه بالعمل وبالثناء عليه وشكره.
ويجوز أن تكون كلاما مستأنفا أريد به إنشاء الثناء على الله من نفسه تعليما للناس كيف يحمدونه، كما تقدم في وجوه نظيرها في سورة الفاتحة.
أو جاريا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم على نحو قوله تعالى)فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب

العالمين(عقب قوله)قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين(الآيات من سورة الأنعام.
وعندي: أنه يجوز أن يكون)الحمد(مصدرا جيء به بدلا من فعله على معنى الأمر، أي أحمدوا الله رب العالمين. وعدل به عن النصب إلى الرفع لقصد الدلالة على الدوام والثبات كما تقدم في أول الفاتحة.
وفصل الجملة عن الكلام الذي قبلها أسعد بالاحتمالين الأول والرابع)قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين[66](جملة معترضة بين أدلة الوحدانية بدلالة الآيات الكونية والنفسية ليجروا على مقتضاها في أنفسهم بأن يعبدوا الله وحده، فانتقل إلى تقرير دليل الوحدانية بخبر الوحي الإلهي بإبطال عبادة غير الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ليعمل بذلك في نفسه ويبلغ ذلك إليهم فيعلموا أنه حكم الله فيهم، وأنهم لا عذر لهم في الغفلة عنها أو عدم إتقان النظر فيها أو قصور الاستنتاج منها بعد أن جاءهم رسول من الله يبين لهم أنواعا بمختلف البيان من أدلة برهانية وتقريبية إقناعية.
وأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يدعوهم إلى ما يريده لنفسه فهو ممحض لهم النصيحة، وهاديهم إلى الحجة لتتظاهر الأدلة النظرية بأدلة الأمر الإلهي بحيث يقوى إبطال مذهبهم في الشرك، فإن ما نزل من الوحي تضمن أدلة عقلية وإقناعية وأوامر إلهية وزواجر وترغيبات، وكل ذلك يحوم حول إثبات تفرد الله تعالى بالإلهية والربوبية تفردا مطلقا لا تشوبه شائبة مشاركة ولو في ظاهر الحال كما تشوب المشاركة في كثير من الصفات الأخرى في مثل الملك والملك والحمد، والنفع والضر، والكرم والإعانة وذلك كثير.
فكان قوله تعالى)قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي(إبطالا لعبادة غير الله بالقول الدال على التحذير والتخويف بعد أن أبطل ذلك بدلالة الحجة على المقصود. وهذه دلالة كنائية لأن النهي يستلزم التحذير.

وذكر مجيء البينات في أثناء هذا الخبر إشارة إلى طرق أخرى من الأدلة على تفرد الله بالإلهية تكررت قبل نزول هذه الآية. وكان تقديم المسند إليه وهو ضمير)إني(على الخبر الفعلي لتقوية الحكم

نحو: هو يعطي الجزيل، وكان تخصيص ذاته بهذا النهي دون تشريكهم في ذلك الغرض الذي تقدم مع العلم بأنهم منهيون عن ذلك وإلا فلا فائدة لهم في إبلاغ هذا القول فكان الرسول صلى اله عليه وسلم من حين نشأته لم يسجد لصنم قط وكان ذلك مصرفة من الله تعالى إياه عن ذلك إلهاما إلهيا إرهاصا لنبوءته.

و)لما(حرف أو ظرف على خلاف بينهم، وأيا ما كان فهي كلمة تفيد اقتران مضمون جملتين تليانها تشبهان جملتي الشرط والجزاء، ولذلك يدعونها)لما(التوقيتية، وحصول ذلك في الزمن الماضي، فقوله)لما جاءني البينات من ربي(توقيت لنهيه عن عبادة غير الله بوقت مجيء البينات، أي بينات الوحي فيما مضى وهو يقتضي أن النهي لم يكن قبل وقت مجيء البينات.

والمقصود من إسناد المنهية إلى الرسول صلى اله عليه وسلم التعريض بنهي المشركين، فإن الأمر بأن يقول ذلك لا قصد منه إلا التبليغ لهم وإلا فلا فائدة لهم في الأخبار بأن الرسول عليه الصلاة والسلام منهي عن أن يعبد الذين يدعونه من دون الله، يعني: فإذا كنت أنا منهيا عن ذلك فتأملوا في شأنكم واستعملوا أنظاركم فيه، ليسوقهم إلى النظر في الأدلة سوقا لينا خفيا لاتباعه فيما نهى عنه، كما جاء ذلك صريحا لا تعريضا في قول إبراهيم عليه السلام لأبيه) يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا(وبني الفعل للنائب لظهور أن الناهي هو الله تعالى بقرينة مقام التبليغ والرسالة.

ومعنى الدعاء في قوله)الذين تدعون(يجوز أن يكون على ظاهر الدعاء، وهو القول الذي تسأل به حاجة، ويجوز أن يكون بمعنى تعبدون كما تقدم في قوله تعالى)وقال ربكم ادعوني أستجب لكم(فيكون العدول عن أن يقول: أن اعبد الذين تعبدون، تفننا.

و)من(في قوله)من ربي(ابتدائية، وجعل المجرور ب)من(وصف) رب(مضافا إلى ضمير المتكلم دون أن يجعل مجرورها ضميرا يعود على اسم الجلالة إظهارا في مقام الإضمار على خلاف مقتضى الظاهر لتربية المهابة في نفوس المعرض بهم ليعلموا أن هذا النهي ومجيء البينات هو من جانب سيده وسيدهم فما يسعهم إلا أن يطيعوه ولذلك عززه بإضافة الرب إلى الجميع في قوله)وأمرت أن أسلم لرب العالمين(أي ربكم ورب غيركم فلا منصرف لكم عن طاعته.

والإسلام: الانقياد بالقول والعمل، وفعله متعد، وكثر حذف مفعوله فنزل منزلة اللازم، فأصله: أسلم نفسه أو ذاته أو وجهه كما صرح به في نحو قوله تعالى)فقل أسلمت وجهي لله(، ومن استعماله

كاللازم قوله تعالى)فقل أسلمت وجهي لله(في سورة آل عمران وقوله تعالى)إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين(في سورة البقرة، وكذلك هو هنا.
)هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون[67](استئناف رابع بعد استئناف جملة)هو الحي(وما تفرع عليها، وكلها ناشئ بعضه عن بغض. وهذا الامتنان بنعمة الإيجاد وهو نعمة لأن الموجود شرف والمعدوم لا عناية به.
وأدمج فيه الاستدلال على الإبداع.
وتقدم الكلام على أطوار خلق الإنسان في سورة الحج، وتقدم الكلام على بعضه في سورة فاطر.
والطفل: اسم يصدق على الواحد والاثنين والجمع، للمذكر والمؤنث قال تعالى)أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء(وقد يطابق فيقال: طفل وطفلان وأطفال.
واللامات في قوله)ثم لتبلغوا أشدكم(وما عطف عليه ب)ثم(متعلقات بمحذوف تقديره: ثم يبقيكم، أو ثم ينشئكم لتبلغوا أشدكم، وهي لامات التعليل مستعملة في معنى إلى لأن الغاية المقدرة من الله تشبه العلة فيما يفضي إليها، وتقدم نظيره في سورة الحج.

صفحة : 3779

وقوله)ولتبلغوا أجلا مسمى(عطف على)لتكونوا شيوخا(أي للشيخوخة غاية وهي الأجل المسمى أي الموت فلا طور بعد الشيخوخة. وأما الأجل المقدر للذين يهلكون قيل أن يبلغوا الشيخوخة فقد استفيد من قوله)ومنكم من يتوفى من قبل(أن من قبل بعض هذه الأطوار، أي يتوفى قبل أن يخرج طفلا وهو السقط أو قبل أن يبلغ الأشد، أو يتوفى قبل أن يكون شيخا.
ولتعلقه بما يليه خاصة عطف عليه بالواو ولم يعطف ب)ثم(كما عطفت المجرورات الأخرى، والمعنى: أن الله قدر انقراض الأجيال وخلقها بأجيال أخرى، فالحي غايته الفناء وإن طالت حياته، ولما خلقه على حالة تؤول إلى الفناء لا محالة كان عالما بأن من جملة الغايات في ذلك الخلق أن يبلغوا أجلا.

وبني)قبل(على الضم على نية معنى المضاف إليه، أي من قبل ما ذكر. والأشد: القوة في البدن، وهو ما بين ثمان عشرة إلى الثلاثين وتقدم في سورة يوسف.
وشيوخ: جمع شيخ، وهو من بلغ سن الخمسين إلى الثمانين، وتقدم عند قوله تعالى)وهذا بعلي شيخا(في سورة هود.
ويجوز في)شيوخ(ضم الشين. وبه قرأ نافع وأبو عمر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب وخلف. ويجوز كسر الشين وبه قرأ ابن كثير وحمزة، والكسائي.
وقوله)ولعلكم تعقلون(عطف على)ولتبلغوا أجلا مسمى(أي أن من جملة ما أراده الله من خلق الإنسان على الحالة المبينة، أن تكون في تلك الخلقة دلالة لآحاده على وجود هذا الخالق الخلق البديع، وعلى انفراده بالإلهية، وعلى أن ما عداه لا يستحق وصف الإلهية، فمن عقل ذلك من الناس فقد اهتدى إلى ما أريد منه ومن لم يعقل ذلك فهو بمنزلة عديم العقل. ولأجل هذه النكتة لم يؤت لفعل)تعقلون(بمفعول ولا بمجرور لأنه نزل منزلة اللازم، أي رجاء أن يكون لكم عقول فهو مراد لله من ذلك الخلق فمن حكمته أن جعل الخلق العجيب علة لأمور كثيرة.
)هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون[68](استئناف خامس ومناسبة موقعه من قوله)هو الذي خلقكم من تراب(إلى قوله)ثم يخرجكم طفلا(إلى)ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون(فإن من أول ما يرجى أن يعقلوه هو ذلك التصرف البديع بخلق الحياة في الإنسان عند تكوينه بعد أن كان جثة لا حياة فيها، وخلق الموت فيه عند انتهاء أجله بعد أن كان حيا متصرفا بقوته وتدبيره.
فمعنى)يحيي(يوجد المخلوق حيا. ومعنى)يميت(أنه يعدم الحياة عن الذي كان حيا، وهذا هو محل العبرة.
وأما إمكان الإحياء بعد الإماتة فمدلول بدلالة قياس التمثيل العقلي وليس هو صريح الآية. والمقصود: الامتنان بالحياة تبعا لقوله قبل هذا)هو الذي خلقكم من تراب(إلى قوله)ثم يخرجكم طفلا(.
وفي قوله)يحيى ويميت(المحسن البديعي المسمى الطباق.
وفرع على هذا الخبر إخبار بأنه إذا أراد أمرا من أمور التكوين من إحياء أو إماتة أو غيرهما فإنه يقدر على فعله دون تردد ولا معالجة، بل بمجرد تعلق قدرته بالمقدور وذلك التعلق هو توجيه قدرته للإيجاد أو الإعدام. فالفاء من قوله)فإذا قضى(فاء تفريغ الإخبار بما بعدها على الإخبار بما قبلها.
وقول)كن(تمثيل لتعلق القدرة بالمقدور بلا تأخير ولا عدة ولا معاناة وعلاج بحال من يريد إذن غيره بعمل فلا يزيد على أن يوجه

إليه أمرا فإن صدور القول عن القائل أسرع أعمال الإنسان وأيسر وقد اختير لتقريب وقد اختير لتقريب ذلك أخصر فعل وهو)كن(المركب من حرفين متحرك وساكن.
)ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون[69] الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون[70] إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون[71] في الحميم ثم في النار يسجرون[72](

صفحة : 3780

بنيت هذه السورة على إبطال جدل الذين يجادلون في آيات الله جدال التكذيب والتورك كما تقدم في أول السورة إذ كان من أولها قوله)ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا(وتكرر ذلك خمس مرات فيها، فنبه على إبطال جدالهم في مناسبات الإبطال كلها إذ ابتدئ بإبطاله على الإجمال عقب الآيات الثلاث من أولها بقوله)ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا(ثم بإبطاله بقوله)الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله(، ثم بقوله)إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم في صدورهم إلا كبر(ثم بقوله)ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون(.
وذلك كله إيماء إلى أن الباعث لهم على المجادلة في آيات اله هو ما اشتمل عليه القرآن من إبطال الشرك فلذلك أعقب كل طريقة من طرائق إبطال شركهم بالإنحاء على جدالهم في آيات الله، فجملة)ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات اله(مستأنفة للتعجيب من حال انصرافهم عن التصديق بعد تلك الدلائل البينة.
والاستفهام مستعمل في التقرير وهو منفي لفظا، والمراد به: التقرير على الإثبات، كما تقدم غير مرة، منها عند قوله)قال أو لم تؤمن(في سورة البقرة.
والرؤية علمية، وفعلها معلق عن العمل بالاستفهام ب)أنى يصرفون(، و)أنى(بمعنى)كيف(، وهي مستعملة في التعجيب مثل قوله)أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر(أي أرأيت عجيب انصرافهم عن التصديق بالقرآن بصارف غير بين منشؤه، ولذلك بني فعل)يصرفون(للنائب لأن سبب صرفهم عن الآيات ليس غير أنفسهم.
ويجوز أن تكون)أنى(بمعنى)أين(، أي ألا تعجب من أين يصرفهم صارف عن الإيمان حتى جادلوا في آيات الله مع أ، شبه انصرافهم عن الإيمان منتفية بما تكرر من دلائل الآفاق وأنفسهم وبما شاهدوا

من عاقبة الذين جادلوا في آيات الله ممن سبقهم، وهذا كما يقول المتعجب من فعل أحد أين يذهب بك .

وبناء فعل)يصرفون(للمجهول على هذا الوجه للتعجب من الصارف الذي يصرفهم وهو غير كائن في مكان غير نفوسهم.

وأبدل)الذين كذبوا بالكتاب(من)الذين يجادلون(لأن صلتي الموصولين صادقتان على شيء واحد، فالتكذيب هو ما صدق لجدال، والكتاب: القرآن.

وعطف)وبما أرسلنا به رسلنا(يجوز أن يكون على أصل العطف مقتضيا المغايرة، فيكون المراد: وبما أرسلنا به رسلنا من الكتب قبل نزول القرآن، فيكون تكذيبهم ما أرسلت به الرسل مرادا به تكذيبهم جميع الأديان كقوله تعالى)وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل على بشر من شيء(، ويحتمل أنه أريد به التكذيب بالبعث فلعلهم لما جاءهم محمد صلى اله عليه وسلم بإثبات البعث سألوا عنه أهل الكتاب فأثبتوه فأنكر المشركون جميع الشرائع لذلك.

ويجوز أن يكون عطف مرادف فائدته التوكيد، والمراد ب)رسلنا(محمد صلى اله عليه وسلم كقوله)كذبت قوم نوح المرسلين(يعني الرسول نوحا على أن في العطف فائدة زائدة على ما في المعطوف عليه وهي أن مما جاء به الرسول صلى اله عليه وسلم مواعظ وإرشاد كثيرا ليس من القرآن.

وتفرع على تكذيبهم وعيدهم بما سيلقونه يوم القيامة فقيل فسوف يعلمون، أي سوف يجدون العذاب الذي كانوا يجادلون فيه فيعلمونه. وعبر عن وجدانهم العذاب بالعلم به بمناسبة استمرارهم على جهلهم بالبعث وتظاهرهم بعد فهم ما يقوله الرسول صلى اله عليه وسلم فأنذروا بأن ما جهلوه سيتحققونه يومئذ كقول الناس: ستعرف منه ما تجهل، قال أبو علي البصير:

فتذم رأيك في الذين خصصتهم دوني

وتعرف منهم ما تجهل وحذف مفعول)يعلمون(لدلالة)كذبوا بالكتاب(عليه، أي يتحققون ما كذبوا به.

والظرف الذي في قوله)إذ الأغلال في أعناقهم(متعلق ب)يعلمون(أي يعلمون في ذلك الزمن. وشأن)إذ(أن تكون اسما للزمن الماضي واستعملت هنا للزمن المستقبل بقرينة)سوف(فهو إما استعمال المجاز بعلاقة الإطلاق، وإما استعارة تبعية للزمن المستقبل المحقق الوقوع تشبيها بالزمن الماضي وقد تكرر ذلك. ومنه اقترانها ب)يوم(في نحو قوله)يومئذ تحدث أخبارها(، وقوله)يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله(. وأول ما يعلمونه حين تكون الأغلال في أعناقهم أنهم يتحققون وقوع البعث.

والأغلال: جمع غل، بضم العين، وهو حلقة من قد أو حديد تحيط بالعنق تناط بها سلسلة من حديد، أو سير من قد يمسك بها المجرم والأسير.
والسلاسل: جمع سلسلة بكسر السينين وهي مجموع حلق غليظة من حديد متصل بعضها ببعض.
ومن المسائل ما رأيته أن الشيخ ابن عرفة كان يوما في درسه في التفسير سئل: هل تكون هذه الآية سندا لما يفعله أمراء المغرب أصلحهم الله من وضع الجناة بالأغلال والسلاسل جريا على حكم القياس على فعل الله في العقوبات كما استنبطوا بعض صور عقاب من عمل قوم لوط من الرجم بالحجارة، أو الإلقاء من شاهق. فأجاب بالمنع لأن وضع الغل في العنق ضرب من التمثيل وإنما يوثق الجاني من يده، قال: لأنهم إنما قاسوا على فعل الله في الدنيا ولا يقاس على تصرفه في الآخرة لنهي النبي صلى اله عليه وسلم عن الإحراق بالنار، وقوله إنما يعذب بها رب العزة .
وجملة)يسحبون في الحميم(حال من ضمير)أعناقهم(أو من ضمير)يعلمون(.
والسحب: الجر، وهو يجمع بين الإيلام والإهانة. والحميم: أشد الحر.
و)ثم(عاطفة جملة)في النار يسجرون(على جملة)يسحبون في الجميم(. وشأن)ثم(إذا عطفت الجمل أن تكون للتراخي الرتبي وذلك أن احتراقهم بالنار أشد في تعذيبهم من سحبهم على النار، فهو ارتقاء في وصف التعذيب الذي أجمل بقوله)فسوف يعلمون(واسجر بالنار حاصل عقب السحب سواء كان بتراخ أم بدونه.
والسجر: ملء التنور بالوقود لتقوية النار فيه، فإسناد فعل) يسجرون(إلى ضميرهم إسناد مجازي لأن الذي يسجر هو مكانهم من جهنم، فأريد بإسناد المسجور إليهم المبالغة في تعلق السجر بهم، أ, هو استعارة تبعية بتشبيههم بالتنور في استقرار النار بباطنهم كما قال تعالى)يصهر به ما في بطونهم والجلود(.
)ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون[73] من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين[74] ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون[75] ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين[76]( )
ثم(هذه للتراخي الرتبي لا محالة لأن هذا القول يقال لهم قبل دخول النار، بدليل أن مما وقع في آخر القول)ادخلوا أبواب جهنم(،

ودخول أبواب جهنم قبل السحب في حميمها والسجر في نارها. وهذا القيل ارتقاء في تقريعهم وإعلان خطل آرائهم بين أهل المحشر وهو أشد على النفس من ألم الجسم، ولأن هذا القول مقدمة لتسليط العذاب عليهم لاشتماله على بيان سبب العذاب من عبادة الأصنام وازدهائهم في الأرض بكفرهم ومرحهم، وهو أيضا ارتقاء في وصف أحوالهم الدالة على نكالهم إذ ارتقى من صفة جزائهم على إشراكهم وهو شيء غير مستغرب ترتبه على الشرك إلى وصف تحقيرهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها وذلك غريب من أحوالهم وأشد دلالة على بطلان إلهية أصنامهم وهو المقصد المهم من القوارع التي سلطت عليهم في هذه السورة. فموقع المعطوف ب)ثم(هنا كموقع المعطوف بها في قول أبي نواس:

قل إن ساد ثم ساد أبـوه قبله ثم

ساد من قبل جده من حيث كانت سيادة جده أرسخت له سيادة أبيه وأعقبت سيادة نفسه، وهذا استعمال موجود بكثرة.

وصيغ)قيل(بصيغة المضي لأنه محقق الوقوع فكأنه وقع ومضى وكذلك فعل)قالوا ضلوا(.

صفحة : 3782

والقائل لهم: ناطق بإذن الله. و)أين(للاستفهام عن مكان الشيء المجهول المكان، والاستفهام هنا مستعمل في التنبيه على الغلط والفضيحة في الموقف فإنهم كانوا يزعمون أنهم يعبدون الأصنام ليكونوا شفعاء لهم من غضب الله فلما حق عليهم العذاب فلم يجدوا شفعاء ذكروا بما كانوا يزعمونه فقيل لهم)أين ما كنتم تشركون من دون الله(، فابتدروا بالجواب قبل انتهاء القول الذي قيل لهم، ومعنى)ضلوا(غابوا كقوله)أإذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد(أي غيبنا في التراب، ثم عرض لهم فعملوا أن الأصنام لا تفيدهم. فأضربوا عن قولهم)ضلوا عنا(وقالوا)بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا(أي لم نكن في الدنيا ندعو شيئا يغني عنا، فنفي دعاء شيء هنا راجع إلى نفي دعاء شيء يعتد به، كما تقول: حسبت أن فلانا شيء فإذا هو ليس بشيء، إن كنت خبرته فلم تر عنده خيرا. وفي الحديث سئل النبي)ص(عن الكهان فقال ليسوا بشيء أي ليسوا بشيء معتد به فيما يقصدهم الناس لأجله، وقال عباس بن مرداس:

وقد كنت في الحرب ذا تدراء فلم

أعط شيئا ولـم أمـنع وتقدم عند قوله تعالى)ليتم على شيء حتى

تقيموا التوراة والإنجيل(في سورة العقود، إذ ليس المعنى على إنكار أن يكونوا عبدوا شيئا لمنافاته لقولهم)ضلوا عنا(المقتضي الاعتراف الضمني بعبادتهم.

وفسر كثير من المفسرين قولهم)بل لم نكن ندعو من قبل شيئا(أنه إنكار لعبادة الأصنام بعد الاعتراف بها لاضطرابهم من الرعب فيكون من نحو قوله تعالى)ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا و الله ربنا ما كنا مشركين(.

ويجوز أن يكون لهم في ذلك الموقف مقالان، وهذا كله قبل أن يحشروا في النار هم و أصنامهم فإنهم يكونون متماثلين حينئذ كما قال تعالى)إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم(.

وجملة)كذلك يضل الله الكافرين(تذييل معترض بين أجزاء القول الذي يقال لهم. ومعنى الإشارة تعجيب من ضلالهم، أي مثل ضلالهم ذلك يضل الله الكافرين. والمراد بالكافرين: عموم الكافرين، فليس هذا من الإظهار في مقام الإضمار.

والتشبيه في قوله)كذلك يضل الله الكافرين(يفيد تسبيه إضلال جميع الكافرين بإضلاله هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله، فتكون جملة)كذلك يضل الله الكافرين(تذييلا، أي مثل إضلال الذين يجادلون في آيات الله يضل الله جميع الكافرين، فيكون إضلال هؤلاء الذين يجادلون مشبها به إضلال الكافرين كلهم، والتشبيه كناية عن كون إضلال الذين يجادلون في آيات الله بلغ قوة نوعه بحيث ينظر به كل ما خفي من أصناف الضلال، وهو كناية عن كون مجادلة هؤلاء في آيات الله أشد الكفر.

والتشبيه جار على أصله وهو إلحاق ناقص بكامل في وصف ولا يكون من قبيل)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(ولا هو نظير قوله المتقدم)كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون(.

وقوله)ذلكم بما كنتم تفرحون(تكملة القيل الذي يقال لهم حين إذ الأغلال في أعناقهم. والإشارة إلى ما هم فيه من العذاب.

و)ما(في الموضعين مصدرية، أي ذلكم مسبب على فرحكم ومرحكم اللذين كانا لكم في الدنيا، والأرض: مطلقة على الدنيا.

والفرح: المسرة ورضي الإنسان على أحواله، فهو انفعال نفساني. والمرح ما يظهر على الفارح من الحركات في مشيه ونظره ومعاملته مع الناس وكلامه وتكبره فهو هيئة ظاهرية.

و)بغير الحق(يتنازعه كل من)تفرحون(و)تمرحون(أي تفرحون بما يسركم من الباطل وتزدهون بالباطل فمن آثار فرحهم بالباطل تطاولهم على الرسول)ص(، ومن المرح بالباطل استهزاؤهم بالرسول)ص(والمؤمنين، قال تعالى و)إذ مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا فاكهين(. فالفرح كلما جاء منهيا عنه في القرآن فالمراد به

هذا الصنف منه، كقوله تعالى)إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين(لا كل فرح فإن الله امتن على المؤمنين بالفرح في قوله)ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله(.
وبين)تفرحون(و)تمرحون(الجناس المحرف.

صفحة : 3783

وجملة)ادخلوا أبواب جهنم(يجوز أن تكون استئنافا بيانيا لأنهم لما سمعوا التقريع والتوبيخ وأيقنوا بانتفاء الشفيع ترقبوا ماذا سيؤمر به في حقهم فقيل لهم)ادخلوا أبوا جهنم(، ويجوز أن تكون بدل اشتمال من جملة)ذلكم بما كنتم تفرحون(الخ، فإن مدلول اسم الإشارة العذاب المشاهد لهم وهو يشتمل على إدخالهم أبواب جهنم والخلود فيها.
ودخول الأبواب كناية عن الكون في جهنم لأن الأبواب إنما جعلت ليسلك منها إلى البيت ونحوه.
و)خالدين(حال مقدرة، أي مقدارا خلودكم.
وفرع عليه)فبئس مثوى المتكبرين(، والمخصوص بالذم محذوف لأنه يدل عليه ذكر جهنم أي فبئس مثوى المتكبرين جهنم، ولم يتصل فعل)بئس(بتاء التأنيث لأن فاعله في الظاهر هو)مثوى(لأن العبرة بإسناد فعل الذم والمدح إلى الاسم المذكور بعدهما، وأما اسم المخصوص فهو بمنزلة البيان بعد الإجمال فهو مبتدأ خبره محذوف أو خبر مبتدأ محذوف ولذلك عد باب نعم وبئس من طرق الإطناب.
والمثوى: محل الثواء، والثواء: الإقامة الدائمة، وأوثر لفظ) مثوى(دون)مدخل(المناسب ل)ادخلوا(لأن المثوى أدل على الخلود فهو أولى بمساءتهم.
والمراد بالمتكبرين: المخاطبون ابتداء لأنهم جادلوا في آيات الله عن كبر في صدورهم كما قال تعالى)إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه(ولأن تكبرهم من فرحهم.
وإنما عدل عن ضميرهم إلى الاسم الظاهر وهو)المتكبرين(للإشارة إلى أن من أسباب وقوعهم في النار تكبرهم على الرسل. وليكون لكل موصوف بالكبر حظ من استحقاق العقاب إذا لم يتب ولم تغلب حسناته على سيئاته إن كان من أهل الإيمان.
)فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون)77((قد كان فيما سبق من السورة ما فيه تسلية

للنبي)ص(على ما تلقاه به المشركون من الإساءة والتصميم على الإعراض ابتداء من قوله في أول السورة)فلا يغررك تقلبهم في البلاد(ثم قوله)أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم(، ثم قوله)إنا لننصر رسلنا(ثم قوله)فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك(الآية، ففرع هنا على جميع ما سبق وما تخلله من تصريح وتعريض أن أمر الله النبي)ص(بالصبر على ما يلاقيه منهم، وهذا كالتكرير لقوله فيما تقدم)فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك(. وذلك أن نظيره المتقدم ورد بعد الوعد بالنصر في قوله)إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد(ثم قوله) لقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب(الآية، فلما تم الكلام على ما أخذ الله به المكذبين من عذاب الدنيا انتقل الكلام إلى ذكر ما يلقونه في الآخرة بقوله)الذين كذبوا في الكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسيوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلال(الآيات، ثم أعقبه بقوله) فأصبر أن وعد الله حق(عودا إلى بدء إذ الأمر بالصبر مفرع على ما اقتضاء قوله)فلا يغرنك تقلبهم في البلاد كذب قبلهم قوم نوح(الآيات، ثم قوله)وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر(ثم قوله)أو لم يسيروا في الأرض فينظروا(وما بعده، فلما حصل الوعد بالانتصاف من مكذبي النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة، أعقب بقوله)فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم(فإن مناسبة الأمر بالصبر عقب ذلك أن يكون تعريضا بالانتصار له ولذلك فرع على الأمر بالصبر الشرط المردد بين أن يريه بعض ما توعدهم الله به وبين أن لا يراه، فإن جواب الشرط حاصل على كلتا الحالتين وهو مضمون)فإلينا يرجعون(أي أنهم غير مفلتين من العقاب، فلا شك أن أحد الترديدين هو أن، يرى النبي صلي الله عليه وسلم عذابهم في الدنيا.

ولهذا كان للتأكيد ب)إن(في قوله)إن وعد الله حق(موقعه، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين استبطأوا النصر كما قال تعالى)وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله(فنزلوا منزلة المتردد فيه فأكد وعده بحرف التوكيد.

والتعبير بالمضارع في قوله)يرجعون(لإفادته التجدد فيشعر بأنه رجوع إلى الله في الدنيا.

وقوله)فإما نرينك(شرط، اقترن حرف)إن(الشرطية بحرف)ما(الزائدة للتأكيد ولذلك لحقت نون التوكيد بفعل الشرط. وعطف عليه)أو نتوفينك(وهو فعل شرط ثان.

وجملة)فإلينا يرجعون(جواب لفعل الشرط الثاني لأن المعنى على أنه جواب له. وأما فعل الشرط الأول فجوابه محذوف دل عليه أول الكلام وهو قوله)إن وعد الله حق(وتقدير جوابه: فإما نرينك بعض الذي نعدهم فذاك، أو نتوفينك فإلينا يرجعون، أي فهم غير مفلتين مما نعدهم.

وتقدم نظير هذين الشرطين في سورة يونس إلا أن في سورة يونس)فإلينا مرجعهم(وفي سورة غافر)فإلينا يرجعون(، والمخالفة بين الآيتين تفنن، ولأن ما في يونس اقتضى تهديدهم بأن الله شهيد على ما يفعلون، أي على ما بفعله الفريقان من قوله)ومنهم من يستمعون إليك(وقوله)ومنهم من ينظر إليك(فكانت الفاصلة حاصلة بقوله)على ما يفعلون(، وأما هنا فالفاصلة معاقبة للشرط فاقتضت صوغ الرجوع بصيغة المضارع المختتم بواو ونون، على أن)مرجعهم(معرف بالإضافة فهو مشعر بالمرجع المعهود وهو مرجعهم في الآخرة بخلاف قوله)يرجعون(المشعر برجوع متجدد كما علمت.

والمعنى: أنهم واقعون في قبضة قدرتنا في الدنيا سواء كان ذلك في حياتك مثل عذاب يوم بدر أو بعد وفاتك مثل قتلهم يوم اليمامة، وأما عذاب الآخرة فذلك مقرر لهم بطريق الأولى، وهذا كقوله)أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون(.

وتقديم المجرور في قوله)فإلينا يرجعون(للرعاية على الفاصلة وللاهتمام.

)ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسل أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون[78](ذكرنا عند قوله تعالى)ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا(في أول هذه السورة أن من صور مجادلتهم في الآيات إظهارها عدم الاقتناع بمعجزة القرآن فكانوا يقترحون آيات كما يريدون لقصدهم إفحام الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما انقضى تفصيل الإبطال لضلالهم بالأدلة البينة والتذكير بالنعمة والإنذار بالترهيب والترغيب وضرب الأمثال بأحوال الأمم الكذبة ثم بوعد الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالنصر وتحقيق الوعد، أعقب ذلك بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ما كان شأنه إلا شن الرسل من قبله أن لا يأتوا بالآيات من تلقاء أنفسهم ولا استجابة لرغائب معانديهم ولكنها الآيات عند الله يظهر ما شاء منها بمقتضى إرادته الجارية على وفق علمه وحكمته، وفي ذلك تعريض بالرد على المجادلين في

آيات الله، ونبيه لهم على خطأ ظنهم أن الرسل تنتصب لمناقشة المعاندين.فالمقصود الأهم من هذه الآية هو قوله)وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله(وأما قوله)ولقد أرسلنا رسلا من قبلك(الخ فهو كمقدمة للمقصود لتأكيد العموم من قوله)وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله(، وهو مع ذلك يفيد بتقديمه معنى مستقلا من رد مجاملتهم فإنهم كانوا يقولون)ما أنزل الله على بشر من شيء(ويقولون)لولا أنزل عليه ملك(فدمغت مزاعمهم بما هو معلوم بالتواتر من تكرر بعثة الرسل في العصور والأمم الكثيرة.

وقد بعث الله رسلا وأنبياء لا يعلم عددهم إلا الله تعالى لأن منهم من أعلم الله بهم نبيه صلى الله عليه وسلم ومنهم من لم يعلمه بهم إذ لا كمال في الإعلام بمن لم يعلمه بهم، والذين أعلمه بهم منهم من قصه في القرآن، ومنهم من أعلمه بهم بوحي غير القرآن فورد ذكر بعضهم في الآثار الصحيحة بتعيين أو بدون تعيين، ففي الحديث أن الله بعث نبيا اسمه عبود عبدا أسود وفي الحديث ذكر: ذكر حنظلة بن صفوان نبي أهل الرس، وذكر خالد بن سنان بني عبس، وفي الحديث أن نبيا لسعته نملة فأحرق قريتها فعوتب في ذلك . ولا يكاد الناس يحصون عددهم لتباعد أزمانهم وتكاثر أممهم وتقاصي أقطارهم مما لا تحيط به علوم الناس ولا تستطيع إحصاءه أقلام المؤرخين وأخبار القصاصين وقد حصل من العلم ببعضهم وبعض أممهم ما فيه كفاية لتحصيل العبرة في الخير والشر، والترغيب والترهيب.

صفحة : 3785

وقد جاء في القرآن تسمية خمسة عشر رسولا وهم: نوح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى، وهارون، وعيسى، ويونس، ومحمد صلى الله عليه وسلم واثنا عشر نبيا وهم: داود وسليمان وأيوب وزكريا ويحيى وإلياس واليسع وإدريس وآدم وذو الكفل، وذو القرنين، ولقمان، ونبيئة وهي مريم. وورد بالإجمال دون تسمية صاحب موسى المسمى في السنة خضراء ونبي بني إسرائيل وهو صمويل، وتبع.

وليس المسلمون مطالبين بأن يعلموا غير محمد صلى الله عليه وسلم ولكن الأنبياء ذكروا في القرآن بصريح وصف النبوة يجب الإيمان بنبوتهم لمن قرأ الآيات التي ذكروا فيها وعدتهم خمس وعشرون بين رسول ونبي، وقد اشتمل قوله تعالى)وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه(إلى قوله)ولوطا(على أسماء ثمانية عشر

منهم وذكر أسماء سبعة آخرين في آيات أخرى وقد جمعها من قال:

حتم على كل ذي التكليف معرفة
بأنبياء على التفصيل قد علمـوا
في تلك حجتنا منهم ثـمـانـية من
بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس هود شعيب صالح وكـذا ذو
الكفل آدم بالمختار قد ختموا واعلم أن في كون يوسف رسولا ترددا بينته عند قوله)ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات(في هذه السورة، وأن في نبوة الخضر ولقمان وذي القرنين ومريم ترددا. واخترت إثبات نبوتهم لأن الله ذكر في بعضهم أنه خاطبهم، وذكر في بعضهم أنه أوتى الحكمة وقد اشتهرت في النبوة،وفي بعضهم أنه كلمته الملائكة. ولا يجب الإيمان إلا بوقوع الرسالة والنبوة على الإجمال.

ولا يجب على الأمة الإيمان بنبوة رسالة معين إلا محمد صلى الله عليه وسلم، أو من بلغ العلم بنبوته بين المسلمين مبلغ اليقين لتوتره مثل موسى وعيسى وإبراهيم ونوح.

ولكن من اطلع على ذكر نبوة نبي بوصفه ذلك في القرآن صريحا وجيء عليه الإيمان بما علمه.

وما ثبت بأخبار الآحاد لا يجب الإيمان به لأن الاعتقادات لا تجب بالظن ولكن ذلك تعليم لا وجوب اعتقاد. وتنكير)رسلا(مفيد للتعظيم والتكثير، أي أرسلنا رسلا عددهم كثير وشأنهم عظيم.

وعطف)وما كان لرسول(الخ بالواو دون الفاء يفيد استقلال هذه الجملة بنفسها لما فيها من معنى عظيم حقيق بأن لا يكون تابعا لغيره،ويكتفي في الدلالة على ارتباط الجملتين بموقع إحداهما متن الأخرى.

والآية: المعجزة، وإذن الله: هو أمر التكوين الذي يخلق الله به خارق العادة ليجعله علامة على صدق الرسول.

ومعنى إتيان الرسول بآية: هو تحديه إلى قومه بأن الله سيؤيده بآية يعينها مثل قول صالح عليه السلام)هذه ناقة الله لكم آية(وقول موسى عليه السلام لفرعون)أو لو جئتك بشيء مبين(الآية.

وقول عيسى عليه السلام)إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيها فيكون طائر بإذن الله(وقوله محمد صلى الله عليه وسلم)فأتوا بسورة من مثله(.

فالباء في ب)آية(باء التعدية لفعل)أن يأتي(وأما الباء في ب)إذن الله(فهي باء السببية دخلت على مستثنى من أسباب محذوفة في

الاستثناء المفرغ، أي ما كان له أن يأتي بآية بسبب من الأسباب إذن الله تعالى.
وهذا إبطال لما يتوركون به من المقترحات والتعلات.
وفرع عليه قول)فإذا جاء أمر الله قضي بالحق(أي فإذا جاء أمر الله بإظهار الرسول آية ظهر صدق الرسول وكان ذلك قضاء من الله تعالى لرسوله بالحق على مكذبيه، فإذن الله هو أمره التكويني بخلق آية وظهورها.
وقوله)فإذا جاء أمر الله(الأمر: القضاء والتقدير، كقوله تعالى)أتى أمر الله فلا تستعجلوه(وقوله)أو أمر من عنده(وهو الحدث القاهر للناس كما في قول عمر لما قال له أبو قتادة يوم حنين)ما شأن الناس(حين انهزموا وفروا قال عمر)أمر الله(.
وفي العدول عن: إذن الله، إلى)أمر الله(تعريض بأن ما سيظهره الله

من الإذن لمحمد صلى الله عليه وسلم هي آيات عقاب لمعانديه، فمنها: آية الجوع سبع سنين حتى أكلوا الميتة، وآية السيف يوم بدر إذ استأصل صناديد المكذبين من أهل الطائف، وآية الأحزاب التي قال عنها)يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها(ثم قال)ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيز(.
)وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا(.
وفي إيثار)قضي بالحق(بالذكر دون غيره من نحو: ظهر الحق، أو تبين الصدق، ترشيح لما في قوله)أمر الله(من التعريض بأنه أمر انتصاف من المكذبين. ولذلك عطف عليه)وخسر هنالك المبطلون(أي خسر الذين جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.
والخسران : مستعار لحصول الضر لمن أراد النافع، كخسارة التاجر الذي أراد الربح فذهب رأس ماله، وقد تقدم معناه غير مرة، منها قول تعالى)فما ربحت تجارتهم(في أوائل سورة البقر.
و)هنالك(أصله اسم إشارة إلى المكان، واستعير هنا للإشارة إلي الزمان المعبر عنه ب)إذا(في قوله)فإذا جاء أمر الله(.
وفي هذه الاستعارة نكتة بديعية وهي الإيماء إلى أن المبطلين من قريش ستأتيهم الآية في مكان من الأرض وهو مكان بدر وغيره من

مواقع إعمال السيف فيهم فكانت آيات محمد صلى الله عليه وسلم حجة على معانديه أقوى من الآيات السماوية نحو الصواعق أو الريح، وعن الآيات الأرضية نحو الغرق والخسف لأنها كانت مع مشاركتهم ومداخلتهم حتى يكون انغلابهم أقطع لحجتهم وأخزى لهم نظير آية عصا موسى مع عصي السحرة.

)الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون[79] ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون[80](انتقال من الامتنان على الناس بما سخر لأجلهم من نظام العوالم العليا والسفلى، وبما منحهم من الإيجاد وتطوره وما في ذلك من الألطاف بهم وما أدمج فيه من الاستدلال على انفراده تعالى بالتصرف فكيف ينصرف عن عبادته الذين أشركوا به آلهة أخرى، إلى الامتنان بما سخر لهم من الإبل لمنافعهم الجمة خاصة وعامة، فالجملة استئناف سادس.

والقول في افتتاحها كالقول في افتتاح نظائرها السابقة باسم الجلالة أو بضميره.

والأنعام: الإبل، والغنم، والمعز، والبقر. والمراد هنا: الإبل خاصة لقوله)ولتبلغوا عليها حاجة(وقوله)وعليها وعلى الفلك تحملون(وكانت الإبل غالب مكاسبهم.

والجعل: الوضع والتكمين والتهيئة، فيحمل في كل مقام على ما يناسبه وفائدة الامتنان استدلال على دقيق الصنع وبليغ الحكمة كما دل عليه قوله)ويريكم آياته(أي في ذلك كله.

واللام في)لكم(لام التعليل، أي لأجلكم وهو امتنان مجمل يشمل بالتأمل كل ما في الإبل لهم من منافع وهم يعلمونها إذا تذكروها وعدوها.

ثم فصل ذلك الإجمال بعض التفصيل بذكر المهم من النعم التي في الإبل بقوله)لتركبوا منها(إلى)تحملون(.

فاللام في)لتكبوا منها(لام كي وهي متعلقة ب)جعل(أي لركوبكم.

و)من(في الموضعين هنا للتبعيض وهي صفة لمحذوف يدل عليه) من أي بعضا منها، وهو ما أ'د للأسفار من الرواحل. ويتعلق حرف) من(ب)تركبوا(،وتعلق)من(التبعيضية بالفعل تعلق ضعيف وهو الذي دعا التفتزاني إلى القول بأن)من(في مثله اسم بمعنى بعض، وتقدم ذلك عند قوله تعالى)ومن الناس من يقول آمنا بالله(في سورة البقرة.

وأريد بالركوب هنا الركوب للراحة من تعب الرجلين في الحاجة القريبة بقرينة مقابلته بقوله)ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم(.

وجملة)منها تأكلون(في موضع الحال من)الأنعام(، أو عطف على المعنى من جملة)لتكبوا منها(لأنها في قوة أن يقال: تكبون منها،

على وجه الاستئناف لبيان الإجمال الذي في)جعل لكم الأنعام(، وعلى الاعتبارين فهي في حيز ما دخلت عليه لام كي فمعناها: ولتأكلوا منها.

صفحة : 3787

وجملة)ولكم فيها منافع(عطف على جملة)ومنها تأكلون(، والمعنى أيضا على اعتبار التعليل كأنه قيل: ولتجتنبوا منافعها المجعولة لكم وإنما غير أسلوب التعليل تفننا في الكلام وتنشيطا للسامع لئلا يتكرر حرف التعليل تكرارات كثيرة.

والمنافع: جمع منفعة، وهي مفعلة من النفع، وهي: الشيء الذي ينتفع به، أي يستصلح به.

فالمنافع في هذه الآية أريد بها ما قابل منافع أكل لحومها في قوله)ومنها تأكلون(مثل الانتفاع بأورباها وألبانها وأثمانها وأعواضها في الديات والمهور، وكذلك الانتفاع بجلودها باتخاذها وغيرها وبالجلوس عليها، وكذلك الانتفاع بجمال مرآها في العيون في المسرح والمراح، والمنافع شاملة للركوب الذي في قوله)لتركبوا منها(، فذكر المنافع بعد)لتكبوا منها(تعميم بعد تخصيص كقوله تعالى)ولي فيها مآرب أخرى(بعد قوله)وهي عصاي أتوكأ عليها(، فذكر هنا الشائع المطروق عندهم ثم ذكر مثيلة في الشيوع وهو الأكل منها، ثم عاد إلى عموم المنافع، ثم خص من المنافع الأسفار فإن اشتداد الحاجة إلى الأنعام فيها تجعل الانتفاع بركوبها للسفر في محل الاهتمام.

ولما كانت المنافع ليست منحصرة في أجزاء الأنعام جيء في متعلقها بحرف)في(دون)من(لأن)في(للظرفية المجازية بقرينة السياق فتشمل كل ما يعد كالشيء المحوي في الأنعام، كقوله سبرة بن عمرو الفقعسي من شعراء الحماسة يذكر ما أخذه من الإبل في دية قريب:

نحابي بها أكفاءنا ونهينها ونشرب

في أثمانها ونقامر وأنبأ فعل)لتبلغوا(أن الحاجة التي في الصدور حاجة في مكان بعيد يطلبها صاحبها.

والحاجة: النية والعزيمة.

والصدور أطلق على العقول اتباعا للمتعارف الشائع كما يطلق القلوب على العقول.

وأعقب الامتنان بالأنعام بالامتنان بالفلك لمناسبة قوله)ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم(فقال)وعليها وعلى الفلك تحملون(، وهو

انتقال من الامتنان بجعل الأنعام، إلى الامتنان بنعمة الركوب في الفلك في البحار والأنهار فالمقصود هو قوله)وعلى الفلك تحملون(. وأما قوله)وعليها(فهو تمهيد له وهو اعتراض بالواو الاعتراضية تكريرا للمنة، على أنه قد يشمل حمل الأثقال على الإبل كقوله تعالى)وتحمل أثقالكم(فيكون إسناد الحمل إلى ضمير الناس تغليبا.

ووجه الامتنان بالفلك أنه امتنان بما ركب الله في الإنسان من تدبير والذكاء الذي توصل به إلى المخترعات النافعة بحسب مختلف العصور والأجيال، كما تقدم في سورة البقرة عند قوله تعالى) والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس لآيات(، وبينا هنالك أن العرب كانوا يركبون البحر الأحمر في التجارة ويركبون الأنهار أيضا قال النابغة يصف الفرات:

يظل من خوفه الملاح معتصما

بالخيزرانة بعد الأين والنجـد والجمع بين السفر بالإبل والسفر بالفلك جمع لطيف، فإن الإبل سفائن البر، وقديما سموها بذلك، قاله الزمخسري في تفسير سورة المؤمن.

وإنما قال)وعلى الفلك(ولم يقل: وفي الفلك، كما قال)فإذا ركبوا في الفلك(لمزاوجة والمشاكلة مع)وعليها(، وإنما أعيد حرف) على(في الفلك لأنها هي المقصودة بالذكر وكان ذكر) وعليها(كالتوطئة لها فجاءت على مثالها.

وتقديم المجرورات في قوله)ومنها يأكلون(وقوله)وعليها وعلى الفلك(لرعاية على الفاصلة مع الاهتمام بما هو المقصود في السياق. ب وتقديم)لكم(على)الأنعام(مع أن المفعول أشد اتصالا بفعله من المجرور لقصد الاهتمام بالمنعم عليهم.

وأما تقديم المجرورين في قوله)ولكم فيها منافع(فللاهتمام بالمنعم عليهم والمنعم بها لأنه الغرض الأول من قوله)الله الذي جعل لكم الأنعام(.

)ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون[81](عطف على جملة)لكم الأنعام(أي الله الذي يريكم آياته. وهذا انتقال من متعدد الامتنان بما تقدم من قوله)الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه( )الله الذي جعل لكم الأرض قرارا( )هو الذي خلقكم من تراب( )الله الذي جعل لكم الأنعام(، فإن تلك ذكرت في معرض الامتنان تذكيرا بالشكر، فنبه هنا على أن في تلك المنن آيات دالة على ما يجب لله من الوحدانية والقدرة والحكمة.

ولذلك كان قوله)ويريكم آياته(مفيدا مفاد التذليل لما في قوله)آياته(من العموم لأن الجمع المعرف بالإضافة من صيغ العموم، أي يريكم آياته في النعم المذكورات وغيرها من كل ما يدل على وجوب توحيده وتصديق رسله ونبذ المكابرة فيما يأتونهم به من آيات صدقهم.

وقد جيء في جانب إراءة الآيات بالفعل المضارع لدلالته على التجدد لأن الإنسان كلما انتفع بشيء من النعم علم ما في ذلك من دلالة على وحدانية خالقها وقدرته وحكمته.

والإراءة هنا بصرية، عبر بها عن العلم بصفات الله إذ كان طريق ذلك العلم هو مشاهدة تلك الأحوال المختلفة فمن تلك المشاهدة ينتقل العقل إلى الاستدلال، وفيه إشارة إلى أن دلالة وجود الخالق ووحدانيته وقدرته برهانية تنتهي إلى اليقين والضرورة.

وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة لزيادة التنويه بها، والإرشاد إلى إجادة النظر العقلي في دلائلها، وأما كونها جائية من لدن الله وكون إضافتها من الإضافة إلى ما هو في معنى الفاعل، فذلك أمر مستفاد من إسناد فعل)يريكم(إلى ضميره تعالى.

وفرع على إراءة الآيات استفهام إنكاري عليهم من أجل إنكارهم ما دلت عليه تلك الآيات.

و)أي(اسم استفهام يطلب به تمييز شيء عن مشاركة فيما يضاف إليه)أي(، وهو هنا مستعمل في إنكار أن يكون شيء من آيات الله يمكن أن ينكر دون غيره من الآيات فيفيد أن جميع الآيات صالح للدالة على وحدانية الله وقدرته لا مساغ لادعاء خفائه وأنهم لا عذر لهم في عدم الاستفادة من إحدى الآيات.

والأكثر في استعمال)أي(إذا أضيف إلى اسم مؤنث اللفظ أن لا تلحقها هاء التأنيث اكتفاء بتأنيث ما تضاف إليه لأن الغالب في الأسماء التي ليست بصفات أن لا يفرق بين مذكرها ومؤنثها بالهاء نحو حمار فلا يقال للمؤنث حمارة. و)أي(اسم ويزيد بما فيه من الإبهام فلا يفسره إلا المضاف إليه فلذلك قال هنا)فأي آيات الله(دون: فأية آيات الله، لأن إلحاق علامة التأنيث ب)أي(في مثل هذا قليل، ومن غير الغالب تأنيث)أي(في قول الكميت:

بأي كـتـاب أم بـأية سـنة ترى حبهم

عارا علي وتحسب)أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون[82] فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون[83] (تفريغ هذا الاستفهام عقب قوله)ويريكم آياته(، يقتضي أنه مساوق للتفريغ الذي قبله وهو)فأي آيات الله تنكرون(فيقتضي أن السير

المستفهم عنه بالإنكار على تركه هو سير تحصل فيه آيات ودلائل على وجود الله ووحدانيته وكلا التفريعين متصل بقوله)ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون(، فذلك هو مناسبة الانتقال إلى التذكير بعبرة آثار الأمم التي استأصلها الله تعالى لما كذبت رسله وجحدت آياته ونعمه.

وحصل بذلك تكرير الإنكار الذي في قوله قبل هذا)أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة(الآية، فكان ما تقدم انتقالا عقب آيات الإنذار والتهديد، وكان هذا انتقالا عقب آيات الامتنان والاستدلال، وفي كلا الانتقالين تذكير وتهديد ووعيد. وهو يشير إلى أنهم إن لم يكونوا ممن تزعهم النعم عن كفران مسديها كشأن أهل النفوس الكريمة فليكونوا ممن يرعهم الخوف من البطش كشأن أهل النفوس اللئيمة فليضعوا أنفسهم حيث يختارون من إحدى الخطتين.

والقول في قوله)أفلم يسيروا في الأرض(إلى قوله)وآثارا في الأرض(مثل القول في نظيره السابق في هذه السورة، وخولف في عطف جملة)أفلم يسيروا(بين هذه الآية فعطفت بالفاء للتفريغ لوقوعها بعدما يصلح لأن يفرع عنه إنكار عدم النظر في عاقبة الذين من قبلهم بخلاف نظيرها الذي قبلها فقد وقع بعد إنذارهم بيوم الآزفة.

وجملة)فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون(معترضة والفاء للتفريغ على قوله)كانوا أكثر منهم(وهو كقوله تعالى)هذا فليذوقوه حميم وغساق(وقول عنترة:

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني

بمنزلة المحب المكرم وفائدة هذا الاعتراض التعجيل بإفادة أن كثرتهم وقوتهم وحصونهم وجناتهم لم تغن عنهم من بأس الله شيئا.

وجملة)فلما جاءتهم رسلهم بالبينات(الآية مفرعة على جملة)كانوا أكثر منهم(أي كانوا كذلك إلى أن جاءتهم رسل الله إليهم بالبينات فلم يصدقوهم فرأوا بأسنا. وجعلنا في الكشاف جارية مجرى البيان ولتفسير لقوله)فما أغنى عنهم(، وما سلكته أنا أحسن وموقع الفاء يؤيده.

وأما في)لما(من معنى التوقيت أفادت معنى أن الله لم يغير ما بهم من النعم العظمى حتى كذبوا رسله.

وجواب)لما(جملة)فرحوا بما عندهم من العلم(وما عطف عليها.

واعلم أن المفسرين ذهبوا في تفسير هذه الآية طرائق قددا ذكر بعضها الطبري عن بعض سلف المفسرين. وأنهاها صاحب الكشاف إلى ست، ومال صاحب الكشف إلى إحداها، وأبو حيان إلى أخرى ولا حاجة إلى جلب ذلك.

والطريقة التي يرجح سلوكها هي أن هنا ضمائر عشرة هي ضمائر جمع الغائبين وأن بعضها عائد لا محالة على)الذين من قبلهم(وأن وجه النظم أن تكون الضمائر متناسقة غير مفككة فلذا يتعين أن تكون عائدة إلى معاد واحد، فالذين)فرحوا بما عندهم من العلم(هم الذين جاءتهم رسلهم بالبينات، وهم الذين حاق بهم ما كانوا به يستهزئون، والذين رأوا بأس الله، فما بنا إلا أن نبين معنى)فرحوا بما عندهم من العلم(.

فالفرح هنا مكنى به آثاره وهي الازدهاء كما في قوله تعالى)إذ قال قومه لا تفرح(أي بما أنت فيه مكنى به هنا عن تمسكهم بما هم عليه، فالمعنى: أنهم جادلوا الرسل وكابروا الأدلة وأعرضوا عن النظر. وما عندهم من العلم هو معتقداتهم الموروثة عن أهل الضلالة من أسلافهم.

قال مجاهد: قالوا لرسلهم: نحن أعلم منكم لن نبعث ولن نعذب اه. وإطلاق العلم على اعتقادهم تهكم وجري على حسب معتقدهم وإلا فهو جهل.

وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهلهم يعني فهو من قبيل قوله تعالى)قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون(.

وحاق بهم: أحاط، بقال: حاق يحيق حيقا، إذا أحاط، وهو هنا مستعار للشدة التي لا تنفيس بها لأن المحيط بشيء لا يدع له مفرجا.

و)ما كانوا به يستهزئون(هو الاستئصال والعذاب. والمعنى: أن رسلهم أوعدوهم بالعذاب فاستهزؤوا بالعذاب، أي بوقوعه وفي ذكر فعل الكون تنبيه على أن الاستهزاء بوعيد الرسل كان شنشنة لهم، وفي الإتيان ب)يستهزئون(مضارعا إفادة لتكرر استهزائهم.

)فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين[84] فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا(موقع جملة)فلما رأوا بأسنا(من قوله)فلما جاءتهم رسلهم بالبينات(كموقع جملة)فلما جاءتهم رسلهم(من قوله)كانوا أكثر منهم(لأن إفادة)لما(معنى التوقيت يثير معنى توقيت انتهاء ما قبلها، أي دام دعاء الرسل إياهم ودام تكذيبهم واستهزاؤهم إلى رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده.

والبأس: الشدة في المكروه، وهو جامع لأصناف العذاب كقوله تعالى)إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا(فذلك البأس بمعنى البأساء، ألا ترى إلى قوله)تضرعوا(وهو هنا يقول)فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا(.
فالبأس هنا العذاب الخارق للعادة المنذر بالفناء فإنهم لما رأوه علموا أنه العذاب الذي أنذروه.
وفرع عليه قوله)فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا(، أي حين شاهدوا العذاب لم ينعهم الإيمان لأن الله لا يقبل الإيمان عند نزول عذابه.
وعدل عن أن يقال: فلم ينفعهم، إلى قوله)فلم يك ينفعهم(لدلالة فعل الكون على أن خبره مقرر الثبوت لاسمه، فلما أريد نفي ثبوت النفع إياهم بعد فوات وقته اجتلب لذلك نفي فعل الكون الذي خبره)ينفعهم(.
والمعنى أن الإيمان بعد رؤية بوارق العذاب لا يفيد صاحبه مثل الإيمان عند الغرغرة ومثل الإيمان عند طلوع الشمس من مغربها كما جاء في الحديث الصحيح وسيأتي بيان هذا عقبه.
)سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون[85](

صفحة : 3790

انتصب)سنة الله(على النيابة عن المفعول المطلق لأن) سنة(اسم مصدر السن، وهو آت بدلالة من فعله، والتقدير: سن الله ذلك سنة، فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا لسؤال من يسأل لماذا لم ينفعهم الإيمان وقد آمنوا، فالجواب أن ذلك تقديره قدره الله للأمم السالفة أعلمهم به وشرطه عليهم فهي قديمة في عبادة لا ينفع الكافر الإيمان إلا قبل ظهور البأس ولم يستثن من ذلك إلا قوم يونس قال تعالى)فلولا كانت قرية آمنت إيمانا إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم ذاب الخزي في الحياة الدنيا(.
وهذا حكم الله في البأس بمعنى العقاب الخارق للعادة والذي هو آية بينة، فأما البأس الذي هو معتاد والذي هو آية خفية مثل عذاب بأس السيف الذي نصر الله به رسوله يوم بدر ويوم فتح مكة، فإن من يؤمن عند رؤيته مثل أبي سفيان بن حرب حين رأى جيش الفتح، أو بعد أن ينجو منه مثل إيمان قريش يوم الفتح بعد رفع السيف عنهم، فإيمانه كامل خالد بن الوليد، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح بعد ارتداده.
ووجه عدم قبول الإيمان عند حلول عذاب الاستئصال وقبول الإيمان عند نزول بأس السيف أن عذاب الاستئصال مشارفة للهلاك

والخروج من عالم الدنيا فإيقاع الإيمان عنده لا يحصل المقصد من إيجاب الإيمان وهو أن يكون المؤمنون حزبا وأنصارا لدينه وأنصار لرسله، وماذا يغني إيمان قوم لم يبق فيهم إلا رمق ضعيف من حياة، فإيمانهم حينئذ بمنزلة اعتراف أهل الحشر بذنوبهم وليست ساعة عمل، قال تعالى في شأن فرعون)فلما أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين(، أي فلم يبق وقت لاستدراك عصيانه وإفساده، وقال تعالى)يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا(فأشار قوله)أو كسبت في إيمانها خيرا(إلى حكمة عدم انتفاع أحد بإيمانه ساعتئذ. وإنما كان ما حل بقوم يونس حالا وسيطا بين ظهور البأس وبين الشعور به عند ظهور علاقاته كما بيناه في سورة يونس.

وجملة)وخسر هنالك الكافرون(كالفذلكة لقوله)فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا(، وبذلك آذنت بانتهاء الغرض من السورة.

و)هنالك(اسم إشارة إلى مكان، استعير للإشارة إلى الزمان، أي خسروا وقت رؤيتهم بأسنا إذ انقضت حياتهم وسلطانهم وصاروا إلى ترقب عذاب خالد مستقبل.

والعدول عن ضمير)الذين كانوا من قبلهم كانوا أشد منهم قوة(إلى الاسم الظاهر وهو)الكافرون(إيماء إلى أن سبب خسرانهم هو الكفر بالله وذلك إعذار للمشركين من قريش.

أسلوب سورة غافر

أسلوبها أسلوب المحاجة والاستدلال على صدق القرآن وأنه منزل من عند الله، وإبطال ضلالة المكذبين وضرب مثلهم بالأمم المكذبة، وترهيبهم من التمادي في ضلالهم وترغيبهم في التبصر ليهتدوا.

وافتتحت بالحرفين المقطعين من حروف الهجاء لأن أول أغراضها أن القرآن من عند الله ففي حرفي الهجاء رمز إلى عجزهم عن معارضته بعد أن تحداهم، لذلك فلم يفعلوا، كما تقدم في فاتحة سورة البقرة.

وفي ذلك الافتتاح تشويق إلى تطلع ما يأتي بعده للاهتمام به.

وكان في الصفات التي أجريت على اسم منزل القرآن إيماء إلى أنه لا يشبه كلام البشر لأنه كلام العزيز العليم، وإيماء إلى تيسير إقلاعهم الاستهلال.

ثم تخلص من الإماء والرمز إلى صريح وصف ضلال المعاندين وتنظيرهم بسابقيهم من الأمم التي استأصلها الله.

وخص بالذكر أعظم الرسل السالفين وهو موسى مع أمة من أعظم الأمم السالفة وهم أهل مصر وأطيل ذلك لشدة مماثلة حالهم لحال المشركين من العرب في الاعتزاز بأنفسهم، وفي قلة المؤمنين منهم آل فرعون، وتخلل ذلك ثبات موسى وثبات مؤمن آل فرعون إيماء إلى التنظير بثبات محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، ثم انتقل إلى الاستدلال على الوحدانية وسعة القدرة على إعادة الأموات.

صفحة : 3791

وختمت بذكر أهل الضلال من الأمم السالفة الذين أوبقهم الإعجاب برأيهم وثقتهم بجهلهم فصمت آذانهم عن سماع حجج الحق، وأعمالهم عن النظر في دلائل الكون فحسبوا أنهم على كمال لا ينقصهم ما به حاجة إلى الكمال، فحاق بهم العذاب، وفي هذا رد العجز على الصدر. وخوف الله المشركين من الانزلاق في مهواة الأولين بأن سنة الله في عبادة الإمهال ثم المؤاخذة، فكان ذلك كلمة جامعة للغرض أذنت بانتهاء الكلام فكانت محسن الختام.

وتخلل في ذلك كله من المستطردات والانتقالات بذكر ثناء الملأ الأعلى عل المؤمنين وثنائهم على الكافرين، وذكر ما هم صائرون إليه من العذاب والندامة، وتمثيل الفارق بين المؤمنين والكافرين، وتشويه حال الكافرين في الآخرة، وتثبيت المؤمنين على إيمانهم وأن الله نصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة، وأمرهم بالصبر والتوكل، وأن شأن الرسول صلى الله عليه وسلم كشأن الرسل من قبله في لقيان التكذيب وفي أنه يأتي بالآيات التي أجراها الله على يديه دون مقترحات المعاندين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فصلت

تسمى)حم السجدة(بإضافة)حم(إلى)السجدة(كما قدمناه في أول سورة المؤمن، وبذلك ترجمت في صحيح البخاري وفي جامع الترمذي لأنها تميزت عن السور المفتتحة بحروف)حم(بأن فيها سجدة القرآن. وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن خليل بن مرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ: تبارك، وحم السجدة .

وسميت هذه السورة في كثير من التفاسير)سورة السجدة(، وهو اختصار قولهم)حم السجدة(وليس تمييزا لها بذات السجدة.

وسميت هذه السور في كثير من التفاسير)سورة فصلت(.

واشتهرت تسميتها في تونس والمغرب)سورة فصلت(لوقوع كلمة)فصلت آياته(في أولها فعرفت بها تمييزا لها من السور المفتتحة بحروف)حم(. كما تميزت)سورة المؤمن(باسم)سورة غافر(عن بقية السور المفتتحة بحروف)حم(.

وقال الكواشي: وتسمى)سورة المصابيح(لقوله تعالى فيها)ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح(، وتسمى)سورة الأقوات(لقوله تعالى) وقدر فيها أقواتها(.

وقال الكواشي في التبصيرة: تسمى)سجدة المؤمن(ووجه هذه التسمية قصد تمييزها عن سورة)الم السجدة(المسماة)سورة المضاجع(فأضافوا هذه إلى السورة التي قبلها وهي)سورة المؤمن(، كما ميزوا)سورة المضاجع(باسم)سجدة لقمان(لأنها واقعة بعد)سورة لقمان(.

وهي مكية بالاتفاق نزلت بعد)سورة غافر(وقبل)سورة الزخرف(، وعدت الحادية والستين في ترتيب نزول السور.

وعدت آيها عند المدينة وأهل مكة ثلاثا وخمسين، وعند أهل الشام والبصرة اثنتين وخمسين، وعند أهل الكوفة أربع وخمسين.

أغراضها

التنويه بالقرآن والإشارة إلى عجزهم عن معارضته.

وذكر هديه، وأنه معصوم من أن يتطرقه الباطل، وتأييده بما أنول إلى الرسل من قبل الإسلام.

وتلقى المشركين له بالإعراض وصم الآذان.

وإبطال مطاعن المشركين فيه وتذكيرهم بأن القرآن نزل بلغتهم فلا عذر لهم أصلا في عدم انتفاعهم بهديه.

وزجر المشركين وتوبيخهم على كفرهم بخالق السماوات والأرض مع بيان ما في خلقها من الدلائل على تفرده بالإلهية.

وإنذارهم بما حل بالأمم المكذبة من عذاب الدنيا.

ووعيدهم بعذاب الآخرة وشهادة سمعهم وأبصارهم وأجسادهم عليهم.

وتحذيرهم من القرناء المزينين لهم الكفر من الشياطين والناس وأنهم سيندمون يوم القيامة على اتباعهم في الدنيا.

وقوبل ذلك بما للموحدين من الكرامة عند الله.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بدفعهم بالتي هي أحسن وبالصبر على جفوتهم وأن يستعيذ بالله من الشيطان.

وذكرت دلائل تفرد الله بخلق المخلوقات العظيمة كالشمس والقمر.

ودلائل إمكان البعث وأنه واقع لا محالة ولا يعلم وقته إلا الله تعالى.
وتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتأييد الله إياهم بتنزل الملائكة بالوحي، وبالبشارة للمؤمنين.
وتخلل ذلك أمثال مختلفة في ابتداء خلق العوالم وعبر في تقلبات أهل الشرك. والتنويه بإيتاء الزكاة.
)حم[1](القول في الحروف الواقعة فاتحة هذه السورة كالقول في)ألم(.

صفحة : 3792

)تنزيل من الرحمن الرحيم[2] كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون[3] بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون[4](افتتح الكلام باسم نكرة لما في التنكير من التعظيم. والوجه أن يكون)تنزيل(مبتدأ سوغ الابتداء به ما في التنكير من معنى التعظيم فكانت بذلك كالموصوفة وقوله)من الرحمان الرحيم(خبر عنه. وقوله)كتاب(بدل من)تنزيل(فحصل من المعنى: أن التنزيل من الله كتاب، وأن صفته فصلت آياته، موسوما بكونه قرآنا عربيا، فحصل من هذا الأسلوب أن القرآن منزل من الرحمان الرحيم مفصلا عربيا.
ولك أن تجعل قوله)من الرحمان الرحيم(في موضع الصفة للمبتدأ وتجعل قوله)كتاب(خبر المبتدأ، وعلى التقديرين هو أسلوب فخم وقد مضى مثله في قوله تعالى)ا ل م ص كتاب أنزل إليك(.
والمراد: أنه منزل، فالمصدر بمعنى المفعول كقوله)وأنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين(وهو مبالغة في كونه فعل الله تنزيله، تحقيقا لكونه موحى به وليس منقولا من صحف الأولين.
وتنكير)تنزيل(و)كتاب(لإفادة التعظيم.
والكتاب: اسم لمجموع حروف دالة على ألفاظ مفيدة وسمي القرآن كتابا لأن الله أوحى بألفاظه وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يكتب ما أحي إليه، ولذلك اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا يكتبون له كل ما ينزل عليه من القرآن.
وإيثار الصفتين)الرحمان الرحيم(على غيرهما من الصفات العلية للإيماء إلى أن هذا التنزيل رحمة من الله بعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور كقوله تعالى)فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة(وقوله تعالى)وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين(وقوله)أو لم

يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون(.

والجمع بين صفتي)الرحمان الرحيم(للإيماء إلى أن الرحمة صفة ذاتية لله تعالى، وأن متعلقها منتشر في المخلوقات كما تقدم في أول سورة الفاتحة والبسملة.

وفي ذلك إيماء إلى استحماق الذين أعرضوا عن الاهتداء بهذا الكتاب بأنهم أعرضوا عن رحمة، وأن الذين اهتدوا به هم أهل المرحمة لقوله بعد ذلك)قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى(.

ومعنى)فصلت آياته(بينت، والتفصيل: التبيين والإخلاء من الالتباس.

والمراد: أن آيات القرآن واضحة الأغراض لا تلتبس إلا على مكابر في دلالة كل آية على المقصود منها، وفي مواقعها وتمييز بعضها عن بعض في المعنى باختلاف فنون المعاني التي تشتمل عليها، وقد تقدم في طالعة سورة هود.

ومن كمال تفصيله أنه كان بلغة كثيرة المعاني، واسعة الأفنان، فصيحة الألفاظ، فكانت سالمة من الالتباس الدلالة، وانغلاق الألفاظ، مع وفرة المعاني غير المتنافية في قلة التراكيب، فكان وصفه بأنه عربي من مكملات الإخبار عنه بالتفصيل. وقد تكرر التنويه بالقرآن من هذه الجهة كقوله)بلسان عربي مبين(ولهذا فرع عليه ذم الذين أعرضوا عنه بقوله هنا)فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون(وقوله هنالك)كذلك سلكناه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم(.

والقرآن: الكلام المقروء المتلو. وكونه قرآنا من صفات كماله، وهو أنه سهل الحفظ، سهل التلاوة، كما قال تعالى)ولقد يسرنا القرآن للذكر(ولذلك كان شأن الرسول صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن عن ظهر قلب، وكان شأن المسلمين اقتداء به في ذلك على حسب الهمم والمكنات، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يشير إلى تفضيل المؤمنين بما عندهم من القرآن.

وكان يوم أحد يقدم في لحد شهدائه من كان أكثرهم أخذا للقرآن تنبيها على فضل حفظ القرآن زيادة على فضل تلك الشهادة.

وانتصب)قرآنا(على النعت المقطوع للاختصاص بالمدح وإلا لكان مرفوعا على أنه خبر ثالث أو صفة للخبر الثاني، فقوله)
قرآنا(مقصود بالذكر للإشارة إلى هذه الخصوصية التي اختص بها من بين سائر الكتب الدينية، ولولا ذلك لقال: كتاب فصلت آياته عربي كما قال في سورة الشعراء)بلسان عربي مبين(.

ولك أن تجعله منصوبا على حال.

وقوله)لقوم يعلمون(صفة ل)قرآنا(ظرف مستقر، أي كائنا لقوم يعلمون باعتبار ما أفاده قوله)قرآنا عربيا(من معنى وضوح الدلالة وسطوع الحجة، أو يتعلق)لقوم يعلمون(بقوله)تنزيل(أو بقوله) فصلت آياته(على معنى أ، فوائد تزيله وتفصيله لقوم يعلمون دون غيرهم فكأنه لم ينزل إلا لهم،أي فلا بدع إذا أعرض عن فهمه المعاندون فإنهم قوم لا يعلمون، وهذا كقوله تعالى)وما تعني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون(وقوله)وما يعقلها إلا العالمون(وقوله)إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون(وقوله)بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم(.

والبشير: اسم للمبشر وهو المخبر بخبر يسر المخبر. والنذير: المخبر بأمر مخوف، شبه القرآن بالبشير فيما اشتمل عليه من الآيات المبشرة للمؤمنين الصالحين، وبالنذير فيما فيه من الوعيد للكافرين وأهل المعاصي، فالكلام تشبيه بليغ. وليس)بشيرا(أو)نذيرا(اسمي فاعل لأنه لو أريد ذلك لقيل: مبشرا ومنذرا.

والجمع بين)بشيرا(على أنه حال ثانية من)كتاب(أو صفة ل)قرآنا(، وصفة الحال في معنى الحال، فالأولى كونه حالا ثانية.

وجيء بقوله)نذيرا(معطوفا بالواو للتنبيه على اختلاف موقع كل من الحالين فهو بشير لقوم وهم الذين اتبعوه ونذير لآخرين، وهم المعرضون عنه، وليس هو جامعا بين البشارة والنذارة لطائفة واحدة فالواو هنا كالواو في قوله)ثيبات وأبكارا(بعد قوله)مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات(.

وتفريغ)فأعرض أكثرهم(على ما ذكر من صفات القرآن. وضمير) أكثرهم(عائد إلى معلوم من المقام وهم المشركون كما هي عادة القرآن في غير موضع.

والمعنى: فأعرض أكثر هؤلاء عما في القرآن من الهدى فلم يهتدوا، ومن البشارة فلم يعنوا بها، ومن النذارة فلم يحذروها، فكانوا في أشد الحماقة، إذ لم يعنوا بخير، ولا حذروا الشر، فلم يأخذوا بالحيطة لأنفسهم وليس عائدا ل)قوم يعلمون(لأن الذين يعلمون لا يعرض أحد منهم.

والفاء في قوله)فهم لا يسمعون(للتفريغ على الإعراض، أي فهم لا يلقون أسماعهم للقرآن فضلا عن تدبره، وهذا إجمال لإعراضهم.

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في)فهم لا يسمعون(دون أن يقول: فلا يسمعون لإفادة تقوي الحم وتأكيده.

)وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون[5](عطف)وقالوا(على)فأعرض(، أو حال من)أكثرهم(، أو عطف على)لا يسمعون(، أو حال من ضميره، والمعنى: أنهم أعرضوا مصرحين بقلة الاكتراث وبالانتصاب للجفاء والعداء.

وهذا تفصيل للأعراض عما وصف به القرآن من الصفات التي شأنها أن تقربهم إلى تلقيه لا أن يبعدوا ويعرضوا وقد جاء بالتفصيل بأقوالهم التي حرمتهم من الانتفاع بالقرآن واحدا واحدا كما ستعلمه.

والمراد بالقلوب: العقول، حكي بمصطلح كلامهم قولهم إذ يطلقون القلب على العقل.

والأكنة: جمع كنان مثل: غطاء وأغطية وزنا ومعنى، أثبتت لقلوبهم أغطية على طريقة التخييل، وشبهت القلوب بالأشياء المغطاة على طريقة الاستعارة المكنية. ووجه الشبه حيلولة وصول الدعوة إلى عقولهم كما يحول الغطاء والغلاف دون تناول ما تحته.

وما يدعوهم إليه يعم كل ما دعاهم إليه من المدلولات وأدلتها، ومنها دلالة معجزة القرآن وما تتضمنه من دلالة أمية الرسول صلى الله عليه وسلم من نحو قوله تعالى)وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك(.

وجعلت القلوب في أكنة لإفادة حرف)في(معنى إحاطة الظرف بالمظروف. وكذلك جعل الوقر في القلوب لإفادة تغلغله في إدراكهم.

و)من(في قوله)مما تدعونا إليه(بمعنى)عن(مثل قوله تعالى) فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله(وقوله)قد كنا في غفلة من هذا(، والمعنى: قلوبنا في أكنة فهي بعيدة عما تدعونا إليه لا ينفذ إليها.

صفحة : 3794

والوقر بفتح الواو: ثقل السمع وهو الصم، وكأن اللغة أخذته من الوقر بكسر الواو، وهو الحمل لأنه يثقل الدابة عن التحرك، فأطلقوه على عدم تحرك السمع عند قرع الصوت المسموع، وشاع ذلك حتى ساوى الحقيقة ففتحوا له الواو تفرقة بين الحقيقة والمجاز، كما فرقوا بين العض الحقيقي وعظ الدهر بأن صيروا ضاده ظاء.

وقد تقدم ذكر الأكنة والوقر في قوله)وجعلنا على قلوبهن أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا(في الأنعام وفي سورة الإسراء.

والحجاب: الساتر للمرئي من حائط أو ثوب. أطلقوا اسم الحجاب على ما يمنع نفوسهم أن يأخذوا بالدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من كراهية دينه وتجافي تقلده بجامع أن الحجاب يحول بين الرائي والمرئي فلا ينظر أحدهما الآخر ولا يصل إليه، ومرادهم البراءة منه.

مثل نبو قلوبهم عن تقبل الإسلام واعتقاده بحال ما هو في أكنة، وعدم تأثر أسماعهم بدعوته بصم الآذان. وعدم التقارب بين ما هم عليه وما هو عليه بالحجاب الممدود بينه وبينهم فلا تلاقي ولا ترائي.

وقد جمعوا بين الحالات الثلاث في التمثيل للمبالغة في أنهم لا يقبلون ما يدعوهم إليه.

واجتلاب حرف)من(في قوله)ومن بيننا وبينك حجاب(لتقوية معنى الحجب بين الطرفين وتمكن لازمة الذي هو بعد المسافة التي بين الطرفين لأن)من(هذه زائدة لتأكيد مضمون الجملة.

وضمير)بيننا(عائد إلى ما عاد إليه ضميره)أكثرهم(.

وعطف)وبينك(تأكيد لأن واو العطف مغنية عنه وأكثر استعمال) بين(أن يكون معطوفا عليه مثله كقوله تعالى)قال يا ليت بيني وبينك بع المشرقين(.

وقد جعل ابن مالك)من(الداخلة على)قبل(و)بعد(زائدة فيكون) بين(مقيسا على)قبل(و)بعد(لأن الجميع ظروف. وهذا القول المحكي عنهم في القرآن ب)قالوا(يحتمل أن يكون القرآن حكاه عنهم بالمعنى، فجمع القرآن بإيجازه وبلاغته ما أطالوا به الجدال وأطنبوا في اللجاج، ويحتمل بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا ظاهر ما في سيرة ابن إسحاق، وزعم أنهم قالوه استهزاء وأن الله حكاه في سورة الكهف..

ويحتمل أن يكونوا تلقفوه مما سمعوه في القرآن من وصف قلوبهم وسمعهم وتباعدهم كقوله)وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا(في سورة الإسراء، فإن يورة الإسراء معدودة في النزول قبل سورة فصلت.

وكذلك قوله تعال)وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا(في سورة الإسراء أيضا، فجمعوا ذلك وجادلوا به الرسول. فيكون ما في هذه الآية من البلاغة قد اقتبسوه من آيات أخرى.

قيل: إن قائلة أبو جهل في مجمع من قريش فلذلك أسند القول إليهم جميع لأنهم مشائعون له.

وقد جاء في حكاية أقوالهم ما فيه تفصيل ما يقابل ما ذكر قبله من صفات القرآن وهي)تنزيل من الرحمان الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا(، فإن كونه تنزيلا من الرحمان الرحيم يستدعي

تفهمه والانتفاع بما فيه، فقوبل بقولهم)قلوبنا في أكنة ما تدعونا إليه(وكونه فصلت آياته يستدعي تلقيها والاستماع إليها فقوبل بقولهم)في آذاننا وقر(، أي فلا نسمع تفصيليه، وكونه قرآنا عربيا أشد إلزاما لهم بفهمه فقوبل ذلك بما يقطع هذه الحجة وهو)من بيننا وبينك حجاب(أي يصل كلامه إليهم ولا يتطرق جانبهم، فهذه تفاصيل إعراضهم عن صفات القرآن.

وقولهم)فاعمل إننا عاملون(تفريع على تأييسهم الرسول من قبولهم دعوته وجعل قولهم هذا مقابل وصف القرآن بأنه بشير ونذير لظهور أنه تعين كونه نذيرا لهم بعذاب عظيم لأنهم أعرضوا فحكي ما فيه تصريحهم بأنهم لا يعبأون بنذارته فإن كان له أذى فليؤذهم به وهذا كقول فرعون)ذروني أقتل موسى وليدع ربه(.

وحذف مفعولا)اعمل(و)عاملون(ليعم كل ما يمكن عمله كل مع الآخر ما يناسبه.

والأمر في قوله)فاعمل(مستعمل في التسوية كقول عنترة بن الأخرس المعني:

أطل حمل الشناءة لي وبغضـي

وعش ما شئت فانظر من تضير وكقوله تعالى)اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير(.

والخبر في قولهم)إننا عاملون(مستعمل في التهديد.

)قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه(

صفحة : 3795

استئناف ابتدائي هو تلقين الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجيب قولهم)فاعمل إننا عاملون(المفرع على قولهم)قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه(إلى آخره جواب المتبرئ من أن يكون له حول وقوة ليعمل في إلجائهم إلى الإيمان لما أبوه إذ ما هو إلا بشر مثلهم في البشرية لا حول له على تقليب القلوب الضالة، إلى الهدى، وما عليه إلا أن يبلغهم ما أوحى الله إليه. وهذا الخبر يفيد كناية عن تفويض المر في العمل بجزائهم إلى الله تعالى كأنه يقول: وماذا أستطيع أن أعمل معكم فإني رسول من الله فحسابكم على الله.

فصيغة القصر في)إنما أنا بشر مثلكم(تفيد قصرا إضافيا، أي أنا مقصور على البشرية دون التصرف في قلوب الناس.

وبين ما تميز به عنهم على وجه الاحتراس من أن يتلقفوا قوله) إنما أنا بشر مثلكم(تلقف من حصل على اعتراف خصمه بنهوض

حجته بما يثبت الفارق بينه وبينهم في البشرية، وهو مضمون جملة)يوحى إلي(وذلك للتسجيل عليهم إبطال زعمهم المشهور المكرر أن كونه بشرا مانع من إرساله عن الله تعالى لقولهم)ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا(، ونحوه مما تكرر في القرآن. ومثل هذا الاحتراس ما حكاه الله عن قول الكفار لرسلهم)إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده(.

وحرصا على إبلاغ الإرشاد إليهم بين له ما يوحى إليه بقوله)أنما إلهكم إله واحد(إعادة لما أبلغهم إياه غير مرة، شأن القائم بهدي الناس أن لا يغادر فرصة لإبلاغهم الحق إلا انتهزها. ونظيره ما جاء في محاورة موسى وفرعون)قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون(.

و)أنما(مفتوحة الهمزة، وهي أخت)إنما المكسورة وإنما تفتح همزتها إذا وقعت معمولة لما قبلها ولم تكن في الابتداء كما تفتح همزة)أن(وتكسر همزة)إن(لأن)إنما(أو)أنما(مركبان من)إن(أو)أن(مع)ما(الكافة الزائدة للدلالة على معنى)ما(و)إلا(حتى ذهب وهل بعضهم أن)ما(التي معها هي النافية اغترارا بأن معنى القصر إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه مثل)ما(و)إلا(ولا ينبغي التردد في كون)أنما(المفتوحة الهمزة مفيدة القصر مثل أختها المكسورة الهمزة وبذلك جزم الزمخشري في تفسير سورة الأنبياء، وما رده أبو حيان عليه إنما هو مجازفة، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى)قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل انتم مسلمون(في سورة الأنبياء.

فقوله)أنما إلهكم واحد(إدماج للدعوة إلى الحق في خلال الجواب حرصا على الهدي.

وكذلك التفريع بقوله)فاستقيموا إليه واستغفروه(فإنه إتمام لذلك الإدماج بتفريع فائدته عليه لأن إثبات أن الله إله واحد إنما يقصد منه إفراده بالعبادة ونبذ الشرك. هذا هو الوجه في توجيه ارتباط) قل إنما أنا بشر(بقولهم)قلوبنا في أكنة(الخ.

وموقع)أنما إلهكم إله واحد(أنه نائب فاعل)يوحى إلي(، أي يوحى إلي معنى المصدر المنسبك من)أنما إلهكم إله واحد(وهو حصر صفة الله تعالى في أنه واحد، أي دون شريك.

ومماثلته لهم: المماثلة في البشرية فتفيد تأكيد كونه بشرا.

والاستقامة: كون الشيء قويما، أي غير ذي عوج وتطلق مجازا على كون الشيء حقا خالصا ليست فيه شائبة تمويه ولا باطل.

صفحة : 3796

وعلى كون الشخص صادقا في معاملته أو عهده غير خالط به شيئا من الحيلة أو الخيانة، فيقال: فلان رجل مستقيم، أي صادق الخلق، وإن أريد صدقة مع غيره يقال: استقام له، أي استقام لأجله، أي لأجل معاملته منه. ومنه قوله تعالى)فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم(والاستقامة هنا بهذا المعنى، وغنما عدي بحرف)إلى(لأنها كثيرا ما تعاقب اللام، يقال: ذهبت له وذهبت إليه، والأحسن أن إيثار)إلى(هنا لتضمين)استقيموا(معنى: توجهوا، لأن التوحيد توجه، أي صرف الوجه إلى الله دون غيره، كما حكى عن إبراهيم)إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين(، أو ضمن)استقيموا(معنى: أنيبوا، أي توبوا من الشرك كما دل عليه عطف)واستغفروه(.

والاستغفار: طلب العفو عما فرط من ذنب أو عصيان وهو مشتق من الغفر وهو الستر.

والمعنى: فاخلصوا إلى الله في عبادته ولا تشركوا به غيره واسألوا منه الصفح عما فرط منكم من الشرك والعناد.

)وويل للمشركين[6] الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون[7](وعيد للمشركين بسوء الحال والشقاء في الآخرة يجوز أن يكون من جملة القول الذي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقوله فهو معطوف على جملة)إنما أنا بشر(.

ويجوز أن يكون كلاما معترضا من جانب الله تعالى فتكون الواو اعتراضية بين جملة)قل إنما أنا بشر(وجملة)قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض(أي أجبهم بقولك: أنا بشر مثلكم يوحي إلي ونحن أعتدنا لهم الويل والشقاء إن لم يقبلوا ما تدعوهم إليه، فيكون هذا إخبارا من الله تعالى.

وذكر المشركين إظهار في مقام الإضمار ويستفاد تعليق الوعيد على استمرارهم على الكفر من الإخبار عن الويل بكونه ثابتا للمشركين والموصوفين بالذين لا يؤتون الزكاة وبأنهم كافرون بالبعث لأن تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق، ولأن الموصول يؤذن بالإيماء إلى وجه بناء الخبر.

فأما كون الشرك وإنكار البعث موجبين للويل فظاهر، وأما كون عدم إيتاء الزكاة موجبا للويل فذلك لأنه حمل عليهم ما قارن

الإشراك وإنكار البعث من عدم الانتفاع بالأعمال التي جاء بها الإسلام، فذكر ذلك هنا لتشويه كفرهم وتفظيع شركهم وكفرانهم بالبعث بأنهما يدعوانهم إلى منع الزكاة، أي إلى القسوة على الفقراء الضعفاء وإلى الشح بالمال وكفى بذلك تشويها في حكم الأخلاق وحكم العرف فيهم لأنهم يتعيرون باللؤم، ولكنهم يبذلون المال في غير وجهه ويحرمون منه مستحقيه.

ويعلم من هذا أن مانع الزكاة من المسامين له حظ من الويل الذي استحقه المشركون لمنعهم الزكاة في ضمن شركهم، ولذلك رأي أبو بكر قتال ما نعي الزكاة ممن لم يرتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة مع المرتدين، ووافقه جميع أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم.

ف)الزكاة(في الآية هي الصدقة لوقوعها مفعول)يؤتون(، ولم تكن يومئذ زكاة مفروضة في الإسلام غير الصدقة دون تعيين نصب ولا أصناف الأرزاق المزكاة، وكانت الصدقة مفروضة على الجملة، ولبعض الصدقة ميقات وهي الصدقة قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم قال تعالى)يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة(.

وجملة)وهم بالآخرة هم كافرون(إما حال من ضمير)يؤتون(وإما معطوفة على الصلة.

وضمير)هم كافرون(ضمير فصل لا يفيد هنا إلا توكيد الحكم ويشبه أن يكون هنا توكيدا لفظيا لا ضمير فصل ومثله قوله)وهم بالآخرة هم كافرون(في سورة يوسف، وقوله)إنني أنا الله(في سورة طه.

وتقديم ب)الآخرة(على متعلقة وهو)كافرون(لإفادة الاهتمام.

)إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون[8](استئناف بياني نشأ عن الوعيد الذي توعد به المشركون بعد أن أمروا بالاستقامة إلى الله واستغفاره عما فرط منهم، كأن سائلا يقول: فإن اتعظوا وارتدعوا فماذا يكون جزاؤهم، فأفيد ذلك وهو أنهم حينئذ يكونون من زمرة الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون، وفي هذا تنويه بشأن المؤمنين.

وتقديم)لهم(للاهتمام بهم.

والأجر: الجزاء النافع، عن العمل الصالح، أو هو ما يعطونه من نعيم الجنة.

والممنون: مفعول من المن، وهو ذكر النعمة للمنعم عليه بها، والتقدير غير ممنون به عليهم، وذلك كناية عن كونهم أعطوه شكرا لهم على ما أسلفوه من عمل صالح فإن الله غفور شكور، يعني: أن الأنعام عليهم في الجنة ترافقه الكرامة والثناء فلا يحسون بخجل العطاء، وهو من قبيل قوله تعالى)لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى(فأجرهم بمنزلة الشيء المملوك لهم الذي لم يعطيه إياهم أحد وذلك تفضل من الله، وقريب منه قول لبيد:

غضف كواسب لا يمن طعامها أي تأخذ طعامها بأنفسها فلا منة لأحد عليها.

)قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين[9](بعد أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب المشركين بأنه بشر يوحى إليه فما يملك إلجاءهم إلى الإيمان أمره عقب ذلك بمعاودة إرشادهم إلى الحق على طريقة الاستفهام عن كفرهم بالله، مدمجا في ذلك تذكيرهم بالأدلة الدالة على أن الله واحد، بطريقة التوبيخ على إشراكهم به في حين وضوح الدلائل على انفراده بالخلق واتصافه بتمام القدرة والعلم.

فجملة)قل أئنكم لتكفرون(إلى آخرها استئناف ابتدائي ثان هو جواب ثان عن مضمون ولهم)إننا عاملون(.

وهمزة الاستفهام المفتتح بها الكلام مستعملة في التوبيخ فقوله) أئنكم لتكفرون(كقوله في سورة البقرة)كيف تكفرون بالله(.

وفي الافتتاح بالاستفهام وحرفي التوكيد تشويق لتلقي ما بعد ذلك لدلالة ذلك على أن أمرا مهما سيلقى إليهم، وتوكيد الخبر ب)إن(ولام الابتداء بعد الاستفهام التوبيخي أو التعجيبي استعمال وارد كثيرا في الكلام الفصيح، ليكون الإنكار لأمر محقق، وهو هنا مبني على أنهم يحسبون أنهم مهتدون وعلى تجاهلهم الملازمة بين الانفراد بالخلق وبين استحقاق الإفراد بالعبادة فأعلموا بتوكيد أنهم يكفرون، وبتوبيخهم على ذلك، فالتوبيخ المفاد من الاستفهام مسلط على تحقيق كفرهم بالله، وذلك من البلاغة بالمكانة العليا، واحتمال أن يكون التوكيد مسلطا على التوبيخ والإنكار قلب لنظام الكلام.

ومجيء فعل)تكفرون(بصيغة المضارع لإفادة أن تجدد كفرهم يوما فيوما مع سطوع الأدلة التي تقتضي الإقلاع عنه أمر أحق بالتوبيخ.

ومعنى الكفر به الكفر بانفراد بالإلهية، فلما أشركوا معه آلهة كانوا واقعين في إبطال إلهيته لأن التعدد ينافي حقيقة الإلهية فكأنهم أنكروا وجوده لأنهم لما أنكروا صفات ذاته فقد تصوره على غير كنهة.

وأدمج في هذا الاستدلال بيان خلق هذه العوالم، فمحل الاستدلال هو صلة الموصول، وأما ما تعلق بها إدماج.

والأرض: هي الكرة الأرضية بما فيها من يابس وبحار، أي خلق جرمها.
واليومان: تثنية يوم، وهو الحصة التي بين طلوع الشمس من المشرق وطلوعها ثانية. والمراد: في مدة تساوي يومين مما عرفه الناس بعد خلق الأرض لأن النور والظلمة اللذان يقدر اليوم بظهورهما على الأرض لم يظهرا إلا بعد خلق الأرض، وقد تقدم ذلك في سورة الأعراف.
وإنما ابتدئ بذكر خلق الأرض لأن آثاره أظهر للعيان وهي في متناول الإنسان، فلا جرم أن كانت الحجة عليهم بخلق الأرض أسبق نهوضا. ولأن النعمة بما تحتوي عليه الأرض أقوى وعم فيظهر قبح الكفران بخالقها أوضح وأشنع.
وعطف)وتجعلون له أندادا(على)لتكفرون(تفسير لكفرهم بالله. وكان مقتضى الظاهر أن في التفسير لا يعطف فعدل إلى عطفه ليكون مضمونة مستقلا بذاته.
والأنداد: جمع ند بكسر النون وهو المثل. والمراد: أنداد في الإلهية.
والتعبير عن الجلالة بالموصول دون الاسم العلم لما تؤذن به الصلة من تعليل التوبيخ، لأن الذي خلق الأرض هو المستحق للعبادة.
والإشارة ب)ذلك رب العالمين(إلى)الذي خلق الأرض في يومين(وفي الإشارة نداء على بلادة رأيهم إذ لم يتفطنوا إلى أن الذي خلق الأرض هو رب العالمين لأنه خالق الأرض وما فيها، ولا إلى أن ربوبيته تقتضي انتفاء الند والشريك، وإذا كان هو رب العالمين فهو ري ما دون العالمين من الأجناس التي هي أحط من العقلاء كالحجارة والأخشاب التي منها صنع أصنامهم.
وجملة)ذلك رب العالمين(معترضة بين المعطوفات على الصلة.

صفحة : 3798

)وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين[10](عطف على فعل الصلة لا على معمول الفعل، فجملة)وجعل فيها رواسي(الخ صلة ثانية في المعنى، ولذلك جيء بفعل آخر غير فعل)خلق(لأن هذا الجعل تكوين آخر حصل بعد خلق الأرض وهو خلق أجزاء تتصل بها إما من جنسها كالجبال وإما من غير جنسها كالأقوات ولذلك أعقب بقوله)في أربعة أيام(بعد قوله)في يومين(.

والرواسي: الثوابت، وهو صفة للجبال لأن الجبال حجارة لا تنتقل بخلاف الرمال والكثبان، وهي كثيرة في بلاد العرب. وحذف الموصوف لدلالة الصفة عليه كقوله تعالى)ومن آياته الجواري في البحر(أي السفن الجواري. وقد تقدم تفسيره عند قوله تعالى) وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم(في سورة الأنبياء.

ووصف الرواسي ب)من فوقها(لاستحضار الصورة الرائعة لمناظر الجبال، فمنها الجميل المنظر المجلل بالخضرة أو المكسو بالثلوج، ومنها الرهيب المرأى مثل جبال النار البراكين ، والجبال المعدنية السود.

و)بارك فيها(جعل فيها البركة. والبركة: الخير النافع، وفي الأرض خيرات كثيرة فيها رزق الإنسان وماشيته، وفيها التراب والحجارة والمعادن، وكلها بركات.

و)قدر(جعل قدرا، أي مقدارا، قال تعالى)قد جعل الله لكل شيء قدرا(. والمقدار: النصاب المحدود بالنوع أو الكمية، فمعنى)قدر فيها أقواتها(أنه خلق في الأرض القوى التي تنشأ منها الأقوات وخلق أصول أجناس الأقوات وأنواعها من الحب للحبوب، والكلأ والكمأة، والنوى للثمار، والحرارة التي يتأثر بها تولد الحيوان من الدواب والطير، وما يتولد منه الحيتان ودواب البحار والأنهار.

ومن التقدير: تقدير كل نوع بما يصلح له من الأوقات من حر أو برد أو اعتدال. وأشار إلى ذلك قوله)والله أنبتكم من الأرض نباتا(ويأتي القول فيه، وقوله)وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر(وقوله)وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا(الآية.

وجمع الأقوات مضافا إلى ضمير الأرض يفيد العموم، أي جميع أقواتها وعمومه باعتبار تعدد المقتاتين، فللدواب أقوات، وللطير أقوات، وللوحوش أقوات، وللزواحف أقوات، وللحشرات أقوات، وجعل للإنسان جميع تلك الأقوات مما استطاب منها كما أفاده قوله تعالى)هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا(ومضى الكلام عليه في سورة البقرة.

وقوله)في أربعة أيام(فذلكة لمجموع مدة خلق الأرض جرمها، وما عليها من رواسي، وما قيها من القوى، فدخل في هذه الأربعة الأيام اليومان اللذان في قوله)في يومين(فكأنه قيل: في يومين آخرين فتلك أربعة أيام، فقوله في)أربعة أيام(فذلكة، وعدل عن ذلك إلى ما في نسج الآية لقصد الإيجاز واعتمادا على ما يأتي بعده من قوله)فقضاهن سبع سماوات في يومين(، فلو كان اليومان اللذان قضى فيهما خلق السماوات زائدين على ستة أيام انقضت في خلق الأرض وما عليها لصار مجموع الأيام ثمانية، وذلك ينافي الإشارة

إلى عدة أيام الأسبوع، فإن اليوم السابع يوم فراغ من التكوين. وحكمة التمديد للخلق أن يقع على صفة كاملة متناسبة.
و)سواء(قرأه الجمهور بالنصب على الحال من)أيام(أي كاملة لا نقص فيها ولا زيادة. وقرأه أبو جعفر مرفوعا على الابتداء بتقدير: هي سواء. وقرأه يعقوب مجرورا على الوصف ل)أيام(.
و)للسائلين(يتنازعه كل من أفعال)جعل، وبارك، وقدر(فيكون) للسائلين(جمع سائل بمعنى الطالب للمعرفة، ويجوز أن يتعلق بمحذوف، أي بينا ذلك للسائلين ويجوز أن يكون ل)السائلين(متعلقا بفعل)قدر فيها أقواتها(فيكون المراد بالسائلين الطالبين للقوت.
)ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين[11](

صفحة : 3799

)ثم(للترتيب الرتبي، وهي تدل على أن مضمون الجملة المعطوفة أهم مرتبة من مضمون الجملة المعطوف عليها، فأن خلق السماوات أعظم من خلق الأرض، وعوالمها أكثر وأعظم، فجيء بحرف الترتيب الرتبي بعد أن قضي حق الاهتمام بذكر خلق الأرض حتى يوفى المقتضيان حقهما. وليس هذا بمقتض أن الإرادة تعلقت بخلق السماء بعد تمام خلق الأرض ولا مقتضيا أن خلق السماء وقع بعد خلق الأرض كما سيأتي.
والاستواء: القصد إلى الشيء توا لا يعترضه شيء آخر. وهو تمثيل لتعلق إرادة الله تعالى بإيجاد السماوات، وقد تقدم في قوله تعالى)هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء(في سورة البقرة. وربما كان في قوله)فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها(إشارة إلى أنه تعالى توجهت إرادته لخلق السماوات والأرض توجها واحدا ثم اختلف زمن الإرادة التنجيزي بتحقيق ذلك فتعلقت إرادته تنجيزا بخلق السماء ثم بخلق الأرض، فعبر عن تعلق الإرادة تنجيزا لخلق السماء بتوجه الإرادة إلى السماء، وذلك التوجه عبر عنه بالاستواء. ويدل لذلك قوله)فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين(ففعل)ائتيا(أمر للتكوين.
والدخان: ما يتصاعد من الوقود عند التهاب النار فيه.
وقوله)وهي دخان(تشبيه بليغ، أي وهي مثل الدخان، وقد ورد في الحديث)أنها كانت عماء(.
وقيل: أراد بالدخان هنا شيئا مظلما، وهو الموافق لما في سفر التكوين من قولها)وعلى وجه الغمر ظلمة(وهو بعيد عن قول النبي

صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن في الوجود من الحوادث إلا العماء، والعماء: سحاب رقيق، أي رطوبة دقيقة وهو تقريب للعنصر الأصلي الذي خلق الله منه الموجودات، وهو الذي يناسب كون السماء مخلوقة قبل الأرض.

ومعنى)وهي دخان(أن أصل السماء هو ذلك الكائن المشبه بالدخان، أي أن السماء كونت من ذلك الدخان كما تقول: عمدت إلى هاته النخلة وهي نواة فاخترت لها أخصب تربة، فتكون مادة السماء موجودة قبل وجود الأرض.

وقوله)فقال لها وللأرض(تفريع على فعل)استوى إلى السماء وهي دخان(فيكون القول موجها إلى السماء والأرض حينئذ، أي قبل خلق السماء لا محالة وقبل خلق الأرض، لأنه جعل القول لها مقارنا القول للسماء، وهو قول تكوين. أي تعلق القدرة بالسماء والأرض، أي بمادة تكوينهما وهي الدخان لأن السماء تكونت من العماء بجمود شيء منه سمي جلدا فكانت منه السماء وتكون مع السماء الماء وتكونت الأرض بيبس ظهر في ذلك الماء كما جاء الإصحاح الأول من سفر التكوين من التوراة.

والإتيان في قوله)ائتيا(أصله: المجيء والإقبال ولما كان معناه الحقيقي غير مراد لأن السماء والأرض لا يتصور أن يأتيا، ولا يتصور منهما طواعية أو كراهية إذ ليستا من أهل العقول والادراكات، ولا يتصور أن الله يكرهما على ذلك لأنه يقتضي خروجهما عن قدرته بادئ ذي بدء تعين الصرف عن المعنى الحقيقي وذلك بأحد وجهين لهما من البلاغة المكانة العليا: الوجه الأول: أن يكون الإتيان مستعارا لقبول التكوين كما استعير للعصيان الإدبار في قوله تعالى)ثم أدبر يسعى(، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لمسيلمة حين امتنع من الإيمان والطاعة في وفد قومه بني حنيفة لئن أدبرت ليعقرنك الله ، وكما يستعار النفور والفرار للعصيان.

فمعنى)ائتيا(امتثلا أمر التكوين. وهذا الامتثال مستعار للقبول وهو من بناء المجاز على المجاز وله مكانة في البلاغة، والقول على هذا الوجه مستعار لتعلق القدرة بالمقدور كما في قوله)أن يقول له كن فيكون(.

وقوله)طوعا أو كرها(كناية عن عدم البد من قبول الأمر وهو تمثيل لتمكن القدرة من إيجادهما على وفق إرادة الله تعالى فكلمة)طوعا أو كرها(جارية مجرى الأمثال.

و)طوعا أو كرها(مصدران وقعا حالين من ضمير)ائتيا(أي طائعين أو كارهين.

والوجه الثاني: أن تكون جملة)فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها(مستعملة تمثيلا لهيئة تعلق قدرة الله تعالى لتكوين السماء والأرض لعظمة خالقهما بهيئة صدور الأمر من آمر مطاع للعبد المأذون بالحضور لعمل شاق أن يقول له: ائت لهذا العمل طوعا أو كرها، لتوقع إبائه من الإقدام على ذلك العمل، وهذا من دون مراعاة مشابهة أجزاء الهيئة المركبة المشبهة لأجزاء الهيئة المشبه بها، فلا قول ولا مقول، وإنما هو تمثيل، ويكون)طوعا أو كرها(على هذا من تمتم الهيئة المشبهة.

والمقصود على كلا الاعتبارين تصوير عظمة القدرة الإلهية ونفوذها في المقدورات دقت أو جلت.

وأما قوله)قالتا أتينا طائعين(فيجوز أن يكون قول السماء والأرض مستعارا لدلالة سرعة تكونهما لشبههما بسرعة امتثال المأمور المطيع عن طواعية فإنه لا يتردد ولا يتلكأ على طريقة المكنية والتخييل من باب قول الراجز الذي لا يعرف تعيينه:

امتلأ الحوض وقال: قطني وهو كثير، ويجوز أن يكون تمثيلا لهيئة تكون السماء والأرض عند تعلق قدرة الله تعالى بتكوينهما بهيئة المأمور بعمل تقلبه عن طواعية. وهما اعتباران متقاربان، إلا أن القول، والإتيان، والطوع، على الاعتبار الأول تكون مجازات، وعلى الاعتبار الثاني تكون حقائق وإنما المجاز في التركيب على ما هو معلوم من الفرق بين المجاز المفرد والمجاز المركب في فن البيان.

وإنما جاء قوله)طائعين(بصيغة الجمع لأن لفظ السماء يشتمل على سبع سماوات كما قال تعالى إثر هذا)فقضاهن سبع سماوات(فالامتثال صادر عن جمع، وأما كونه بصيغة جمع المذكر فلأن السماء والأرض ليس لهما تأنيث حقيقي.

وأما كونه بصيغة جمع العقلاء فذلك ترشيح للمكنية المتقدمة مثل قوله تعالى)إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين(.

)فقضاهن سبع سماوات في يومين(تفريع على قوله)فقال لها وللأرض ائتيا(.

والقضاء: الإيجاد الإبداعي لأن فيه معنى الإتمام والحكم، فهو يقتضي الابتكار والإسراع، كقول أبي ذؤيب الهذلي:

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السابغ تبع وضمير)فقضاهن(عائد إلى السماوات على اعتبار تأنيث لفظها، وهذا تفنن.

وانتصب 0سبع سماوات(على أنه حال من ضمير)قضاهن(أو عطف بيان له، وجوز أن يكون مفعولا ثانيا ل)قضاهن(لتضمين) قضاهن(معنى صيرهن، وهذا كقوله في سورة البقرة)فسواهن سبع سماوات(.

وكان خلق السماوات في يومين قبل أربعة الأيام التي خلقت فيها الأرض وما فيها. وقد بينا في سورة البقرة أن الأظهر أن خلق السماء كان قبل خلق الأرض وهو المناسب لقواعد علم الهيئة. وليس في هذه الآية ما يقتضي ذلك.

وإنما كانت مدة خلق السماوات السبع أقصر من مدة خلق الأرض مع أن عوالم السماوات أعظم وأكثر لأن الله خلق السماوات بكيفية أسرع فلعل خلق السماوات كان بانفصال بعضها عن بعض وتفرقع أحجامها بعضها عن خروج بعض آخر منه، وهو الذي قربه حكماء اليونان الأقدمون بما سموه صدور العقول مناسبة لما تركبت به من الجواهر.

وأما خلق الأرض فالأشبه أنه بطريقة التولد المبطئ لأنها تكونت من العناصر الطبيعية فكان تولد بعضها عن بعض أيضا.)وما يعلم جنود ربك إلا هو(.

وهذه الأيام كانت هي مبدأ الاصطلاح على ترتيب أيام الأسبوع وقد خاض المفسرون في تعيين مبدأ هذه الأيام، فأما كتب اليهود ففيها أن مبدأ هذه الأيام هو الأحد وأن سادسها هو يوم الجمعة وأن يوم السبت جعله الله خلوا من الخلق ليوافق طقوس دينهم الجاعلة يوم السبت يوم راحة للناس ودوابهم اقتداء بإنهاء خلق العالمين.

وعلى هذا الاعتبار جرى العرب في تسمية الأيام ابتداء من الأحد الذي هو بمعنى أول أو واحد، واسمه في العربية القديمة أول وذلك سرى إليهم من تعاليم اليهود أو من تعاليم أسبق كانت هي الأصل الأصيل لاصطلاح الأمتين.

صفحة : 3800

والوجه الثاني: أن تكون جملة)فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها(مستعملة تمثيلا لهيئة تعلق قدرة الله تعالى لتكوين السماء والأرض لعظمة خالقهما بهيئة صدور الأمر من آمر مطاع للعبد المأذون بالحضور لعمل شاق أن يقول له: ائت لهذا العمل طوعا أو كرها، لتوقع إبائه من الإقدام على ذلك العمل، وهذا من دون مراعاة مشابهة أجزاء الهيئة المركبة المشبهة لأجزاء الهيئة المشبه

بها، فلا قول ولا مقول، وإنما هو تمثيل، ويكون)طوعا أو كرها(على هذا من تمتم الهيئة المشبهة.
والمقصود على كلا الاعتبارين تصوير عظمة القدرة الإلهية ونفوذها في المقدورات دقت أو جلت.
وأما قوله)قالتا أتينا طائعين(فيجوز أن يكون قول السماء والأرض مستعارا لدلالة سرعة تكونهما لشبههما بسرعة امتثال المأمور المطيع عن طواعية فإنه لا يتردد ولا يتلكأ على طريقة المكنية والتخييل من باب قول الراجز الذي لا يعرف تعيينه:
امتلأ الحوض وقال: قطني وهو كثير، ويجوز أن يكون تمثيلا لهيئة تكون السماء والأرض عند تعلق قدرة الله تعالى بتكوينهما بهيئة المأمور بعمل تقلبه عن طواعية. وهما اعتباران متقاربان، إلا أن القول، والإتيان، والطوع، على الاعتبار الأول تكون مجازات، وعلى الاعتبار الثاني تكون حقائق وإنما المجاز في التركيب على ما هو معلوم من الفرق بين المجاز المفرد والمجاز المركب في فن البيان.
وإنما جاء قوله)طائعين(بصيغة الجمع لأن لفظ السماء يشتمل على سبع سماوات كما قال تعالى إثر هذا)فقضاهن سبع سماوات(فالامتثال صادر عن جمع، وأما كونه بصيغة جمع المذكر فلأن السماء والأرض ليس لهما تأنيث حقيقي.
وأما كونه بصيغة جمع العقلاء فذلك ترشيح للمكنية المتقدمة مثل قوله تعالى)إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين(.
)فقضاهن سبع سماوات في يومين(تفريع على قوله)فقال لها وللأرض ائتيا(.
والقضاء: الإيجاد الإبداعي لأن فيه معنى الإتمام والحكم، فهو يقتضي الابتكار والإسراع، كقول أبي ذؤيب الهذلي:
وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السابغ تبع وضمير)فقضاهن(عائد إلى السماوات على اعتبار تأنيث لفظها، وهذا تفنن.
وانتصب 0سبع سماوات(على أنه حال من ضمير)قضاهن(أو عطف بيان له، وجوز أن يكون مفعولا ثانيا ل)قضاهن(لتضمين) قضاهن(معنى صيرهن، وهذا كقوله في سورة البقرة)فسواهن سبع سماوات(.
وكان خلق السماوات في يومين قبل أربعة الأيام التي خلقت فيها الأرض وما فيها. وقد بينا في سورة البقرة أن الأظهر أن خلق السماء كان قبل خلق الأرض وهو المناسب لقواعد علم الهيئة. وليس في هذه الآية ما يقتضي ذلك.

وإنما كانت مدة خلق السماوات السبع أقصر من مدة خلق الأرض مع أن عوالم السماوات أعظم وأكثر لأن الله خلق السماوات بكيفية أسرع فلعل خلق السماوات كان بانفصال بعضها عن بعض وتفرقع أحجامها بعضها عن خروج بعض آخر منه، وهو الذي قربه حكماء اليونان الأقدمون بما سموه صدور العقول مناسبة لما تركبت به من الجواهر.

وأما خلق الأرض فالأشبه أنه بطريقة التولد المبطئ لأنها تكونت من العناصر الطبيعية فكان تولد بعضها عن بعض أيضا.)وما يعلم جنود ربك إلا هو(.

وهذه الأيام كانت هي مبدأ الاصطلاح على ترتيب أيام الأسبوع وقد خاض المفسرون في تعيين مبدأ هذه الأيام، فأما كتب اليهود ففيها أن مبدأ هذه الأيام هو الأحد وأن سادسها هو يوم الجمعة وأن يوم السبت جعله الله خلوا من الخلق ليوافق طقوس دينهم الجاعلة يوم السبت يوم راحة للناس ودوابهم اقتداء بإنهاء خلق العالمين.

وعلى هذا الاعتبار جرى العرب في تسمية الأيام ابتداء من الأحد الذي هو بمعنى أول أو واحد، واسمه في العربية القديمة أول وذلك سرى إليهم من تعاليم اليهود أو من تعاليم أسبق كانت هي الأصل الأصيل لاصطلاح الأمتين.

صفحة : 3801

والذي تشهد له الأخبار من السنة أن خلق آدم يوم الجمعة وأنه آخر أيام الأسبوع، وأنه خير أيام الأسبوع وأفضلها، وأن اليهود والنصارى اختلفوا في تعيين اليوم الأفضل من الأسبوع، وأن الله هدى إليه المسلمين. قال النبي صلى الله عليه وسلم فهذا اليوم أي الجمعة هو اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله إليه فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد . ولا خلاف في أن الله خلق آدم بعد تمام خلق السماء والأرض فتعين أن يكون يوم خلقه هو اليوم السابع. وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم :أن الله ابتدأ الخلق يوم السبت . وقد ضعفه البخاري وابن المديني بأنه من كلام كعب الأحبار حدث به أبا هريرة وإنما اشتبه على بعض رواة سنده فظنه مرفوعا.

ولهذه تفصيلات ليس وراءها طائل وإنما ألممنا به هنا لئلا يعرو التفسير عنها فيقع من يراها في غيرة في حيرة وإنما مقصد القرآن العبرة.

)وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا( )
وأوحى(عطف على)فقضاهن(.
والوحي: الكلام الخفي، ويطلق الوحي على حصول المعرفة في نفس من يراد حصولها عنده دون قول، ومنه قوله تعالى حكاية عن زكريا)فأوحى إليهم(أي أومأ إليهم بما دل على معنى: سبحوا بكرة وعشيا. وقول أبي دؤاد:
يرمون بالخطب الطول وتارة وحي
الملاحظ خيفة الرقباء ثم يتوسع فيه فيطلق على إلهام الله تعالى المخلوقات لما تتطلبه مما فيه صلاحها كقوله)وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا(أي جبلها على إدراك ذلك وتطلبه، ويطلق على تسخير الله تعالى بعض مخلوقاته لقبول أثر قدرته كقوله)إذا زلزلت الأرض زلزالها(إلى قوله)بأن ربك أوحى لها(.
والوحي في السماء يقع على جميع هذه المعاني من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازاته، فهو أوحى في السماوات بتقدير نظم جاذبيتها، وتقادير سير كواكبها، وأوحى فيها بخلق الملائكة فيها، وأوحى إلى الملائكة بما يتلقونه من الأمر بما يعلمون، قال تعالى) وهم بأمره يعلمون(وقال)يسبحون الليل والنهار لا يفترون(.
و)أمرها(بمعنى شأنها، وهو يصدق بكل ما هو من ملابساتها من سكانها وكواكبها وتماسك جرمها والجاذبية بينها وبين ما يجاورها. وذلك مقابل قوله في خلق الأرض)وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها(.
وانتصب)أمرها(على نزع الخافض، أي بأمرها أو على تضمين أوحى معنى قدر أو أودع.
ووقع الالتفات من طريق الغيبة إلى طريق التكلم في قوله) وزينا السماء الدنيا بمصابيح(تجديدا لنشاط السامعين لطول استعمال طريق الغيبة ابتداء من قوله)بالذي خلق الأرض في يومين(مع إظهار العناية بتخصيص هذا الصنع الذي ينفع الناس دينا ودنيا وهو خلق النجوم الدقيقة والشهب بتخصيصه بالذكر من بين عموم) وأوحى في كل سماء أمرها(، فما السماء الدنيا إلا من جملة السماوات، وما النجوم، استعير لها المصابيح لما يبدو من نورها.
وانتصب)حفظا(على أنه مفعول لأجله لفعل محذوف دل عليه فعل)زينا(. والتقدير: وجعلناها حفظا. والمراد: حفظا للسماء من الشياطين المسترقة للسمع. وتقدم الكلام على نظيره في سورة الصافات.
)ذلك تقدير العزيز العليم[12](الإشارة إلى المذكور من قوله) وجعل فيها رواسي من فوقها(إلى قوله)وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا(.

والتقدير: وضع الشيء على مقدار معين، وتقدم نظيره في سورة يس. وتقدم وجه إيثار وصفي)العزيز العليم(بالذكر.
)فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود[13] إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله(

بعد أن قرعتهم الحجة لتي لا تترك للشك مسربا إلى النفوس بعدها في أن الله منفرد بالإلهية لأنه منفرد بإيجاد العوالم كلها. وكان ثبوت الوحدانية من شأنه أن يزيل الريبة في أن القرآن منزل من عند الله لأنهم ما كفروا به إلا لأجل إعلانه بنفي الشريك عن الله تعالى، فلما استبان ذلك كان الشأن أن يفيئوا إلى تصديق الرسول والإيمان بالقرآن، وأن يقلعوا عن إعراضهم المحكي عنهم بقوله في أول السورة)فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون(الخ، فلذلك جعل استمرارهم على الإعراض بعد تلك الحجج أمرا مفروضا كما يفرض المحال، فجيء في جانبه بحرف)إن(الذي الأصل فيه أن يقع في الموقع الذي لا جزم فيه بحصول الشرط كقوله تعالى)أفنضرب عنكم الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين(في قراءة من قرأ بكسر همزة)إن(.
فمعنى)فإن أعرضوا(إن استمروا على إعراضهم بعد ما هديتهم بالدلائل البينة وكابروا فيها، فالفعل مستعمل في معنى الاستمرار كقوله)يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله(.
والإنذار: التخويف، وهو هنا تخويف بتوقع عقاب مثل عقاب الذين شابهوهم في الإعراض خشية أن يحل بهم ما حل بأولئك، بناء على أن المعروف أن تجري أفعال الله على سنن واحد، وليس هو وعيدا لأن قريشا لم تصبهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، وإن كانوا قد ساووهما في التكذيب والإعراض عن الرسل وفي التعللات التي تعللوا بها من قولهم)لو شاء ربنا لأنزل ملائكة، وأمهل الله قريشا حتى آمن كثير منهم واستأصل كفارهم بعذاب خاص.
وحقيقة الصاعقة: نار تخرج مع البرق تحرق ما تصيبه، وتقدم ذكرها في قوله تعالى)يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق(في سورة البقرة. وتطلق على الحادثة المبيرة السريعة الإهلاك، ولما أضيفت صاعقة هنا إلى عاد وثمود، وعاد لم تهلكهم الصاعقة وإنما أهلكهم الريح وثمود أهلكوا بالصاعقة فقد استعمل الصاعقة هنا في حقيقته ومجازه، أو هو من عموم المجاوز والمقتضي لذلك على الاعتبارين قصد الإيجاز، وليقع الإجمال ثم التفصيل بعد بقوله)فأما عاد(إلى قوله)بما كانوا يكسبون(.

و)إذ(ظرف للماضي، والمعنى مثل صاعقتهم حين جاءتهم الرسل إلى آخر الآيات. روى ابن إسحاق في سيرته أن عتبة بن ربيعة كلم النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من خلاف قومه فتلا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم)حم تنزيل من الرحمان الرحيم(حتى بلغ)فقل أنذرتهم صاعقة(الآية، فأمسك عتبة على فم النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: ناشدتك الله والرحم .

وضمير)جاءتهم(عائد إلى عاد وثمود باعتبار عدد كل قبيلة منهما.

وجمع الرسل هنا من باب إطلاق صيغة الجمع على الاثنين مثل قوله تعالى)فقد صغت قلوبكما(، والقرينة واضحة وهو استعمال غير عزيز، وإنما جاءهم رسولان هود وصالح.

وقوله)من بين أيديهم ومن خلفهم(تمثيل لحرص رسول كل منهم على هداهم بحيث لا يترك وسيلة يتوسل بها إلى إبلاغهم الدين إلا توسل بها. فمثل ذلك بالمجيء إلى كل منهم تارة من أمامه وتارة من خلفه لا يترك له جهة، كما يفعل الحريص على تحصيل أمر أن يتطلبه ويعيد تطلبه ويستوعب مظان وجوده أو مظان سماعه، وهذا التمثيل نظير الذي في قوله تعالى حكاية الشيطان)ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم(.

وإنما اقتصر في هذه الآية على جهتين ولم تستوعب الجهات الأربع كما مثل حال الشيطان في وسوسته لأن المقصود هنا تمثيل الحرص فقط وقد حصل، والمقصود في الحكاية عن الشيطان تمثيل الحرص مع التلهف تحذيرا منه وإثارة لبغضه في نفوس الناس.

و)أن لا تعبدوا إلا الله(تفسير لجملة)جاءتهم الرسل(لتضمن المجيء معنى الإبلاغ بقرينة كون فاعل المجيء متصفا بأنهم رسل، فتكون)أن(تفسيرية ل)جاءتهم(بهذا التأويل كقول الشاعر:

إن تحملا لي خف محملـهـا تستوجبا منة عندي بـهـا ويدا

أن تقرآن على أسماء ويحكمـا مني السلام وأن لا تشعرا أحدا

إذ فسر الحاجة بأن يقرأ السلام على أسماء لأنه أراد بالحاجة الرسالة، وهذا جري على رأي الزمخشري والمحققين من عدم اشتراط تقدم جملة فيها معنى القول دون حروفه بل الاكتفاء بتقدم ما أريد به معنى القول ولو لم يكن جملة خلافا لما أطال به

صاحب مغني اللبيب من أبحاث لا يرضاها الأريب، أو لما يتضمنه عنوان)الرسل(من إبلاغ رسالة.

)قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون[14] (حكاية جواب عاد وثمود لرسوليهم فقد كان جوابا متماثلا لأنه ناشئ عن تفكير متماثل وهو أن تفكير الأذهان القاصرة من شأنه أن يبنى على تصورات وهمية وأقيسة تخييلية وسفسطائية، فإنهم يتصورون صفات الله تعالى وأفعاله على غير كنهها ويقيسونها على أحوال المخلوقات، ولذلك يتماثل في هذا حال أهل الجهالة كما قال تعالى)كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون(، أي بل هم متماثلون في الطغيان، أي الكفر الشديد فتملي عليهم أوهامهم قضايا متماثلة.

ولكون جوابهم جرى في سياق المحاورة أتت حكاية قولهم غير معطوفة بأسلوب المقاولة، كما تقدم عند قوله تعالى)وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة(فإن قول الرسل لهم: لا تعبدوا إلا الله قد حكي بفعل فيه دلالة على القول، وهو فعل) جاءتهم(كما تقدم آنفا.

فقولهم)لو شاء ربنا لأنزل ملائكة(يتضمن إبطال رسالة البشر عن الله تعالى.

ومفعول)شاء(محذوف دل عليه السياق، أي لو شاء ربنا أن يرسل إلينا لأنزل ملائكة من السماء مرسلين إلينا، وهذا حذف خاص هو غير حذف مفعول فعل المشيئة الشائع في الكلام لأن ذلك فيما إذا كان المحذوف مدلولا عليه بجواب)لو(كقوله تعالى)فلو شاء لهداكم أجمعين(، ونكتته الإبهام ثم البيان، وأما الحذف في الآية فهو للاعتماد على قرينة السياق والإيجاز وهو حذف عزيز لمفعول فعل المشيئة، ونظيره قول المعري:

وإن شئت فازعم أن من فوق ظهرها
عبيدك واستشهد إلـهـك يشـهـد وتضمن كلامهم قياسا استثنائيا تركيبه: لو شاء ربنا أن يرسل رسولا لأرسل ملائكة ينزلهم من السماء لكنه لم ينزل إلينا ملائكة فهو لم يشأ أن يرسل إلينا رسولا. وهذا إيماء إلى تكذيبهم الرسل ولهذا فرعوا عليه قولهم)فإنا بما أرسلتم به كافرون(أي جاحدون رسالتكم وهو أيضا كناية عن التكذيب.

)فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون[15] فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرن[16](بعد ن حكي عن عاد وثمود ما اشترك فيه الامتنان من

المكابرة والإصرار على الكفر فصل هنا بعض ما اختصت به كل أمة منهما من صورة الكفر، وذكر من ذلك ما له مناسبة لما حل بكل أمة منهما من العذاب.
والفاء تفريع على جملة)قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة(المقتضية أنهم رفضوا دعوة رسوليهم ولم يقبلوا إرشادهما واستدلالهما.
و)أما(حرف شرط وتفصيل، وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى)فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم(في سورة البقرة.
والمعنى: فأما عاد فمنعهم في الكبر، أي التعاظم واحتقار الناس، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل: استجاب، والتعريف في)الأرض(للعهد، أي أرضهم المعهودة. وإنما ذكر من مساويهم الاستكبار لأن تكبرهم هو الذي صرفهم عن اتباع رسولهم وعن توقع عقاب الله.

صفحة : 3804

وقوله)بغير الحق(زيادة تشنيع لاستكبارهم، فإن الاستكبار لا يكون بحق إذ لا مبرر للكبر بوجه من الوجوه لأن جميع الأمور المغريات بالكبر من العلم والمال والسلطان والقوة وغير ذلك لا تبلغ الإنسان مبلغ الخلو عن النقص وليس للضعيف الناقص حق في الكبر ولذلك كان الكبر من خصائص الله تعالى. وهم قد اغتروا بقوة أجسامهم وعزة أمتهم وادعوا أنهم لا يغلبهم أحد، وهو معنى قولهم)من أشد منا قوة(فقولهم ذلك هو سبب استكبارهم لأنه أورثهم الاستخفاف بمن عداهم، فلما جاءهم هود بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظم عليهم ذلك لأنهم اعتادوا العجب بأنفسهم وأحوالهم فكذبوا رسولهم.
فلما كان اغترارهم بقوتهم هو باعثهم على الكفر قولهم)من أشد من قوة(دليلا عليه خص بالذكر.
وإنما عطفت بالواو مع أنه كالبيان لقوله)فاستكبروا في الأرض بغير الحق(إشارة إلى استقلاله بكونه موجب الإنكار عليهم، لأن قولهم ذلك هو بمفرده منكر من القول فذكر بالعطف على فعل)استكبروا(لأن شأن العطف أن يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، ويعلم أنه باعثهم على الاستكبار بالسياق.
وجملة)أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة(جملة معترضة، والواو اعتراضية. والرؤية علمية، والاستفهام إنكاري، والمعنى: إنكار عدم علمهم بأن الله أشد منهم قوة حيث أعرضوا عن رسول ربهم وعن إنذاره إياهم إعراض من لا يكترث بعظمة

الله تعالى لأنهم لو حسبوا لذلك حسابه لتوقعوا عذابه فلأقبلوا على دلائل صدق رسوله.

وإجراء وصف)الذي خلقهم(على اسم الجلالة لما في الصلة من الإيماء إلى وجه الإنكار عليهم لجهلهم بأن الله أقوى منهم فإن كونهم مخلوقين معلوم لهم بالضرورة، فكان العلم به كافيا في الدلالة على أنه أشد منهم قوة، وأنه حقيق بأن يحسبوا لغضبه حسابه فينظروا في أدلة صدق رسوله إليهم.

وضمير)هو أشد منهم(ضمير فصل، وهو مفيد تقوية الحكم بمعنى وضوحه، وإذا كان ذلك الحكم محققا كان عدم علمهم بمقتضاه أشنع وعذرهم في جهله منتفيا.

والقوة حقيقتها: حالة في الجسم يتأتى بها أن يعمل الأعمال الشاقة، وتطلق على لازم ذلك من القدرة ووسائل الأعمال، وقد تقدم بيان إطلاقها في قوله تعالى)فخذها بقوة(في سورة الأعراف، والمراد بها هنا معناها الحقيقي والكنائي والمجازي، فهو مستعمل في حقيقته تصريحا وكناية، ومجازه لما عندهم من وسائل تذليل صعاب الأمور لقوة أجسامهم وقوة عقولهم. والعرب تضرب المثل بعاد في أصالة آرائهم فيقولون)أحلام عاد(قال النابغة:

أحلام عاد وأجسام مطهرة من

المعقة الآفات والإثم ويقولون في وصف الأشياء التي يقل صنع أمثالها)عادية(يقولون: بئر عادية، وبناء عادي.

ولما كانت القوة تستلزم سعة القدرة أسند القوة إلى الله تعالى بمعنى أن قدرته تعالى لا يستعصي عليها شيء تتعلق به إرادته تعالى، وهذا المراد هنا في قوله)أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة(أي هو أوسع قدرة من قدرتهم فإطلاق القوة على قدرة الله تعالى بمعنى كمال القدرة، أي عموم تأثيرها وتعلقها بالممكنات على وفق الإرادة لا يستعصي على تعلق قدرته شيء ممكن، وكمال غناه عن التأثير للغير، وتقدم عند قوله تعالى)إن الله قوي شديد العقاب(في سورة الأنفال.

وجملة)أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة(معترضة بين الجمل المتعاطفة، والواو فيها اعتراضية.

وقوله)وكانوا بآياتنا يجحدون(يحتمل أن المراد بالآيات معجزات رسولهم هود فلم يؤمنوا بها وأصروا على العناد ولم يذكر القرآن لهود آيات سوى أنه أنذرهم عذابا يأتيهم من السماء، قال تعالى) فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم(فذلك من تكذيبهم بأوائل الآيات.

ويحتمل أن المراد بالآيات دلائل الوحدانية التي في دعوة رسولهم وتذكيرهم بنعم الله عليهم كقوله)واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة(، وقوله)واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون(.
ودل فعل)كانوا(على أن التكذيب بالآيات متأصل فيهم. ودلت صيغة المضارع في قوله)يجحدون(أن الجحد متكرر فيهم متجدد.

صفحة : 3805

ورتب على ذلك وصف عقابهم بأن الله أرسل عليهم ريحا فأشارت الفاء إلى أن عقابهم كان مسببا على حالة كفرهم بصفتها فإن باعث كفرهم كان اغترارهم بقوتهم، فأهلكهم الله بما لا يترقب الناس الهلاك به فإن الناس يقولون للشيء الذي لا يؤبه به: هو ريح، ليريهم أن الله شديد القوة وأنه يضع القوة في الشيء الهين مثل الريح ليكون عذابا وخزيا، أي تحقيرا كما قال)لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا(، وأي خزي أشد من أن تتراماهم الريح في الجو كالريش، وأن تلقيهم هلكى على التراب عن بكرة أبيهم فيشاهدهم المارون بديارهم جثثا صرعى قد تقلصت جلودهم وبليت أجسامهم كأنهم أعجاز نخل خاوية.
والريح: تموج في الهواء يحدث من تعاكس الحرارة والبرودة، وتنتقل موجاته كما تنتقل أمواج البحر والريح الذي أصاب عادا هو الريح الدبور، وهو الذي يهب من جهة دبر الكعبة قال النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالصبا وأهلكت عد بالدبور(.
وإنما كانت الريح التي أصابت عادا بهذه القوة بسبب قوة انضغاط في الهواء غير معتاد فإن الانضغاط يصير الشيء الضعيف قويا، كما شوهد في عصرنا أن الأجسام الدقيقة من أجزاء كيمياوية تسمى الذرة تصير بالانضغاط قادرة على نسف مدينة كاملة، وتسمى الطاقة الذرية، وقد نسف بها جزء عظيم من بلاد اليابان في الحرب العامة.
والصرصر: الريح العاصفة التي يكون لها صرصرة، أي دوي في هبوبها من شدة سرعة تنقلها. وتضعيف عينة للمبالغة في شدتها بين أفراد نوعها كتضعيف كبكب للمبالغة في كب. وأصله صر، أي صاح، وهو وصف لا يؤنث لفظه لأنه لا يجري إلا على الريح وهي مقدرة التأنيث.
والنحسات بفتح النون وسكون الحاء: جمع نحس بدون تأنيث لأنه مصدر لفعل نحس كعلم، كقوله تعالى)في يوم نحس مستمر(.

وقرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بسكون الحاء. ويجوز كسر الحاء وبه قرأ البقية على أنه صفة مشبهة من)نحس(إذا أصابه النحس إصابة سوء أو ضر شديد.

وضده البخت في أوهام العامة. ولا حقيقة للنحس ولا للبخت ولكنهما عارضان للإنسان، فالنحس يعرض له من سوء خلقه مزاجه أو من تفريطة أو من فساد بيئته أو قومه، والبخت يعرض من جراء عكس ذلك. وبعض النوعين أمور اتفاقية وربما كان بعضها جزاء من الله على عمل خير أو شر من عباده أو في دينه كما حل بعاد وأهل الجاهلية. وعامة الأمم يتوهمون النحس والبخت من نوع الطيرة ومن التشاؤم والتيمن، ومنه الزجر والعيافة عند العرب في الجاهلية ومنه تطلع الحدثان من طوالع الكواكب والأيام عند معظم الأمم الجاهلة أو المختلة العقيدة. وكل ذلك أبطله الإسلام، أي كشف بطلانه، بما لم يسبقه تعليم من الأديان التي ظهرت قبل الإسلام.

فمعنى وصف الأيام بالنحسات: أنها أيام سوء شديد أصابهم وهو عذاب الريح، وهي ثمانية أيام كما جاء في قوله تعالى)سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما(، فالمراد: أن تلك الأيام بخصوصها كانت نحسا وأن نحسها عليهم دون غيرهم من أهل الأرض لأن عادا هم المقصودون بالعذاب. وليس المراد أن تلك الأيام من كل عام هي أيام نحس على البشر لأن ذلك لا يستقيم لاقتضائه أن تكون جميع الأمم حل بها سوء في تلك الأيام.

ووصفت تلك الأيام بأنها)نحسات(لأنها لم يحدث فيها إلا السوء لهم من إصابة آلام الهشم المحقق إفضاؤه إلى الموت، ومشاهدة الأموات من ذويهم، وموت أنعامهم، واقتلاع نخيلهم.

وقد اخترع أهل القصص تسمية ثمانية نصفها آخر شهر شباط ونصفها شهر آذار تكثر فيها الرياح غالبا دعوها أيام الحسوم ثم ركبوا على ذلك أنها الموصوفة بحسوم في قوله تعالى في سورة الحاقة)سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما(، فزعموا أنها الأيام الموافقة لأيام الريح التي أصابت عادا، ثم ركبوا على ذلك أنها أيام نحس من كل عام وكذبوا على بعض السلف مثل ابن عباس أكاذيب في ذلك وذلك ضغث على إبالة، وتفنن في أوهام الضلالة.

وجمع نحسات بالألف والتاء لأنه صفة لجمع غير العاقل وهو) أيام(.

واللام في)لنذيقهم(للتعليل وهي متعلقة ب)أرسلنا(. والإذاقة تخييل لمكنية، شبه العذاب بطعام هيئ لهم على وجه التهكم كما سمى عمرو بن كلثوم الغرة قرى في قوله:

قريناكم فعجلنا قـراكـم قبيل الصبح
مرداة طحونا والإذاقة: تخييل من ملائمات الطعام المشبه به.
والخزي: الذل. وإضافة)عذاب(إلى)الخزي(من إضافة الموصوف إلى الصفة بدليل مقابلته بقوله)ولعذاب الآخرة أخزى(، أي أشد إخزاء من إخزاء عذاب الدنيا، وذلك باعتبار أن الخزي وصف للعذاب من باب الوصف بالمصدر أو اسم المصدر للمبالغة في كون ذلك العذاب مخزيا للذي يعذب به.
ومعنى كون العذاب مخزيا: أنه سبب خزي فوصف العذاب بأنه خزي بمعنى مخز من باب المجاز العقلي، ويقدر قبل الإضافة: لنذيقهم عذابا خزيا، أي مخزيا، فلما أريدت إضافة الموصوف إلى صفته قيل: عذاب الخزي، للمبالغة أيضا لأن إضافة الموصوف إلى الصفة مبالغة في الاتصاف حتى جعلت الصفة بمنزلة شخص آخر يضاف إليه الموصوف وهو قريب من محسن التجريد فحصلت مبالغتان في قوله)عذاب الخزي(مبالغة الوصف بالمصدر، ومبالغة إضافة الموصوف إلى الصفة.
وجملة)ولعذاب الآخرة أخزى(احتراس لئلا يحسب السامعون أ، حظ أولئك من العقاب هو عذاب الإهلاك بالريح فعئف عليه الإخبار بأن عذاب الآخرة أخزى، أي لهم ولكل من عذب عذابا في الدنيا لغضب الله عليه.
وأخزى: اسم تفضيل جرى على غير قياس، وقياسه أن يقال: أشد إخزاء، لأنه لا يقال: خزاه، بمعنى أخزاه، أي أهانه، ومثل هذا في صوغ اسم التفضيل كثير في الاستعمال.
وجملة)وهم لا ينصرون(تذييل، أي لا ينصرهم من يدافع العذاب عنهم، ولا من يشفع لهم، ولا من يخرجهم منه بعد مهلة.
)وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون[17](بقية التفصيل الذي في قوله) فأما عاد فاستكبروا(.
ولما كان الأمتين واحدا في عدم قبول الإرشاد من جانب الله تعالى كما أشار إليه قوله تعالى)قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة(كان الإخبار عن ثمود بأن الله هداهم مقتضيا أنه هدى عادا مثل ما هدى ثمود وأن عادا استحبوا العمى على الهدى مثل ما استحبت ثمود.
والمعنى: وأما ثمود فهديناهم هداية إرشاد برسولنا إليهم وتأييده بآية الناقة التي أخرجها لهم من الأرض.

فالمراد بالهداية هنا: الإرشاد التكليفي، وهي غير ما في قوله)ومن يهد الله فما له من مضل(فإن تلك الهداية التكوينية لمقابلته بقوله)ومن يضلل الله فما له من هاد(.

واستحبوا العمى معناها: أحبوا، فالسين والتاء للمبالغة مثلهما في قوله)فاستكبروا في الأرض بغير الحق(، أي كان العمى محبوبا لهم.

والعمى: هنا مستعار للضلال في الرأي، أي اختاروا الضلال بكسبهم.

وضمن)استحبوا(معنى: فضلوا، وهيأ لهذا التضمين اقترانه بالسين والتاء للمبالغة لأن المبالغة في المحبة تستلزم التفضيل على بقية المحبوبات فلذلك عدي)استحبوا(بحرف)على(، أي رجحوا باختيارهم. وتعليق)على الهدى(بفعل)استحبوا(لتضمينه معنى: فضلوا وآثروا.

وفرع عليه)فأخذتهم صاعقة العذاب الهون(، وكان العقاب مناسبا للجرم لأنهم استحبوا الضلال الذي هو مثل العمى، فمن يستحبه فشأنه أن يحب العمى، فكان جزاؤهم بالصاعقة لأنها تعمي أبصارهم في حين تهلكهم قال تعالى)يكاد البرق يخطف أبصارهم(.

والأخذ: مستعار للإصابة المهلكة لأنها اتصال بالمهلك يزيله من الحياة فكأنه أخذ باليد.

والصاعقة: الصيحة التي تنشأ في كهربائية السحاب الحامل للماء فتنقدح منها نار تهلك ما تصيبه. وإضافة)صاعقة(إلى)العذاب(لدلالة على أنها صاعقة تعرف بطريق الإضافة إذ لا يعرف بها إلا ما تضاف إليه، أي صاعقة خارقة لمعتاد الصواعق، فهي صاعقة مسخرة من الله لعذاب ثمود، فإن أصل معنى الإضافة أنها بتقدير لام الاختصاص فتعريف المضاف لا طريق له إلا بيان اختصاصه بالمضاف إليه.

والعذاب هو: الإهلاك بالصعق، ووصف ب)الهون(كما وصف العذاب بالخزي في قوله)لنذيقهم عذاب الخزي(، أي العذاب الذي هو سبب الهون. والهون: الهوان وهو الذل، ووجه كونه هونا أنه إهلاك فيه مذلة بيناه في مهلك عاد.

أي أخذتهم الصاعقة بسبب كسبهم في اختيارهم البقاء على الضلال بإعراضهم عن دعوة رسولهم وعن دلالة آياته.

صفحة : 3807

ويعلم من قوله في شأن عاد)ولعذاب الآخرة أخزى(أن ثمود عذابا في الآخرة لأن المتين تماثلتا في الكفر فلم يذكر ذلك هنا

اكتفاء بذكره فيما تقدم. وهذا محسن الاكتفاء، وهو محسن يرجع إلى الإيجاز.
)ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون[18](الأظهر أنه عطف على التفصيل في قوله)فأما عاد فاستكبروا(وما عطف عليه من قوله) وأما ثمود فهديناهم(لأن موقع هاته الجملة المتضمنة إنجاء المؤمنين من العذاب بعد أن ذكر عذاب عاد وعذاب ثمود يشير إلى أن المعنى إنجاء الذين آمنوا من قوم عاد وقوم ثمود، فمضمون هذه الجملة فيه معنى استثناء من عموم أمتي عاد وثمود فيكون لها حم الاستثناء الوارد بعد جمل متعاقبة أنه يعود إلى جميعها فإن جملتي التفصيل هما المقصود، قال تعالى)فلما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا(وقال)فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا(. وقد بينا في سورة هود كيف أنجى الله هودا والذين آمنوا معه، وصالحا والذين آمنوا معه.
وقوله)وكانوا يتقون(، أي كان سنتهم اتقاء الله والنظر فيما ينجي من غضبه وعقابه، وهو أبلغ في الوصف من أن يقال: والمتقين.
)ويوم نحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون[19] حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون[20] وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء(لما فرغ من موعظة المشركين بحال الأمم المكذبة من قبلهم وإنذارهم بعذاب يحل بهم في الدنيا كما حل بأولئك ليكون لهم ذلك عبرة فإن لاستحضار المثل والنظائر أثرا في النفس تعتبر به ما لا تعتبر بتوصف المعني العقلية، انتقل إلى إنذارهم بما سيحل بهم في الآخرة فجملة)ويوم نحشر أعداء الله(الآيات، معطوفة على جملة)فقل أنذرتكم صاعقة(الآيات. والتقدير: وأنذرهم يوم نحشر أعداء الله إلى النار. ودل على هذا المقدر قوله)أنذرتكم صاعقة(الخ، أي وأنذرهم يوم عقاب الآخرة.
وأعداء الله: هم مشركو قريش لأنهم أعداء رسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء(يعني المشركين لقوله بعده)يخرجون الرسول وإياكم(، ولأنها نزلت في قضية كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يعلمهم بتهيؤ النبي صلى الله عليه وسلم لغزو مكة ولقوله في آخر هذه الآيات) ذلك جزاء أعداء الله(بعد قوله)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون(.
ولا يجوز أن يكون المراد ب)أعداء الله(جميع الكفار من الأمم بحيث يدخل المشركون من قريش دخول البعض في العموم لأن ذلك المحمل لا يكون له موقع رشيق في المقام لأن الغرض من ذكر ما أصاب عادا وثمود هو تهديد مشركي مكة بحلول عذاب مثله

في الدنيا لأنهم قد علموه ورأوا آثاره فللتهديد بمثله موقع لا يسعهم التغافل عنه، وأما عذاب عاد وثمود في الآخرة فهو موعود به في المستقبل وهم لا يؤمنون به فلا يناسب أن يجعل موعظة لقريش بل الأجدر أن يقع إنذار قريش رأسا بعذاب يعذبونه في الآخرة، ولذلك أطيل وصفه لتهويله ما لم يطل بمثله حين التعرض لعذاب عاد في الآخرة بقوله)ولعذاب الآخرة أخزى(المكتفي به عن ذكر عذاب ثمود. ولهذا فليس في قوله)أعداء الله(إظهار في مقام الإضمار من ضمير عاد وثمود.

ويجوز أن يكون)ويوم نحشر أعداء الله(مفعولا لفعل) واذكر(محذوفا مثل نظائره الكثيرة.

والحشر: جمع الناس في مكان لمقصد.

ويتعلق قوله)إلى النار(ب)نحشر(لتضمين)نحشر(معنى: نرسل، أي نرسلهم إلى النار.

والفاء في قوله)فهم يوزعون(عطف وتفريع على)نحشر(لأن الحشر يقتضي الوزع إذ هو من لوازمه عرفا، إذ الحشر يستلزم كثرة عدد المحشورين وكثرة العدد تستلزم الاختلاط وتداخل بعضهم في بعض فلا غنى لهم عن الوزع لتصفيفهم ورد بعضهم عن بعض.

والوزع: كف بعضهم عن بعض ومنعهم من الفوضى، وتقدم في سورة النمل، وهو كناية عن كثرة المحشورين.

وقرأ نافع ويعقوب)نحشر(بنون العظمة مبنيا للفاعل ونصب) أعداء(. وقرأه الباقون بياء الغائب مبنيا للنائب.

صفحة : 3808

و)حتى(ابتدائية وهي مفيدة لمعنى الغاية فهي حرف انتهاء في المعنى وحرف ابتداء في اللفظ، أي أن ما بعدها جملة مستأنفة.

و)إذا(ظرف لمستقبل متضمن معنى الشرط وهو متعلق بجوابه، و)ما(زائدة للتوكيد بعد)إذا(تفيد توكيد معنى)إذا(من الارتباط بالفعل الذي بعد)إذا(سواء كانت شرطية كما في هذه الآية أم كانت لمجرد الظرفية كقوله تعالى)وإذ ما غضبوا هم يغفرون(. ويظهر أن ورود)ما(بعد)إذا(يقوي معنى الشرط في)إذا(، ولعله يكون معنى الشرط حينئذ نصا احتمالا.

وضمير المؤنث الغائب في)جاءوها(عائد إلى)النار(، أي إذا وصلوا إلى جهنم.

وجملة)شهد عليهم سمعهم وأبصارهم(الخ يقتضي كلام المفسرين أنها جواب)إذا(، فاقتضى الارتباط بين شرطها وجوابها وتعليقها بفعل

الجواب. واستشعروا أ، الشهادة عليهم تكون قبل أن يوجهوا إلى النار، فقدروا فعلا محذوفا تقديره: وسئلوا عما كانوا يفعلون فأنكروا فشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، يعني: سألهم خزنة النار.
وأحسن من ذلك أن نقول: إن جواب)إذا(محذوف للتهويل وحذف مثله كثير في القرآن، ويكون جملة)شهد عليهم سمعهم(إلى آخرها مستأنفة استئنافا بيانيا نشأ عن مفاد)حتى(من الغية لأن السائل يتطلب ماذا حصل بين حشرهم إلي النار وبين حضورهم عند النار فأجيب بأن)سهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم(إلى قوله) الذي أنطق كل شيء(ويتضمن ذلك أنهم حوسبوا على أعمالهم وأنكروها فشهدت عليهم جوارحهم وأجسادهم.
أو أ، يكون جواب)إذا(قوله)فإن يصبروا فالنار مثوى لهم(الخ.
وجملة)شهد عليهم سمعهم وأبصارهم(وما عطف عليها معترضة بين الشرط وجوابه.
وشهادة جوارحهم وجلودهم عليهم: شهادة تكذيب وافتضاح لأن كون ذلك شهادة يقتضي أنهم لما رأوا النار اعتذروا بإنكار بعض ذنوبهم طمعا في تخفيف العذاب وإلا فقد علم الله ما كانوا يصنعون وشهدت به الحفظة وقرئ عليهم كتابهم، وما أحضروا للنار إلا وقد تحققت إدانتهم، فما كانت شهادة جوارحهم إلا زيادة خزي لهم وتحسيرا وتنديما على سوء اعتقادهم في سعة علم الله.
وتخصيص السمع والأبصار والجلود بالشهادة على هؤلاء دون بقية الجوارح لأن للسمع اختصاصا بتلقي دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وتلقي آيات القرآن، فسمعهم يشهد عليهم بأنهم كانوا يصرفونه عن سماع ذلك كما حكى الله عنهم بقوله)وفي آذاننا وقر(، ولأن للأبصار اختصاصا بمشاهدة دلائل المصنوعات الدالة على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير فذلك دليل وحدانيته في إلهيته، وشهادة الجلود لأن الجلد يحوي جميع الجسد لتكون شهادة الجلود عليهم شهادة على أنفسها فيظهر استحقاقها للحرق بالنار لبقية الأجساد دون اقتصار على حرق موضع السمع والبصر.
ولذلك اقتصروا في توجيه الملامة على جلودهم لأنها حاوية لجميع الحواس والجوارح، وبهذا يظهر وجه الاقتصار على شهادة السمع والأبصار والجلود هنا بخلف آية سورة النور)يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعلمون(، لأن آية النور تصف الذين يرمون المحصنات وهم الذين اختلقوا تهمة الإفك ومشوا في المجامع يشيعونها بين الناس ويشيرون بأيديهم إلى من اتهموه إفكا.
وغنما قالوا لجلودهم)لم شهدتم علينا(دون أن يقلوه لسمعهم وأبصارهم لأن الجلود مواجهة لهم يتوجهون إليها بالملامة.

وإجراء ضمائر السمع والبصر والجلود بصيغتي ضمير جمع العقلاء لأن التحاور معها صيرها بحالة العقلاء يومئذ. ومن غريب التفسير قول من زعموا أن الجلود أريد بها الفروج ونسب هذا للسدى والفراء، وهو تعنت في محمل الآية لا داعي إليه بحال، وعلى هذا التفسير بنى أحمد الجرجاني في كتاب كنايات الأدباء فعد الجلود من الكنايات عن الفروج وعزاه لأهل التفسير فجازف في التعبير.

والاستفهام في قولهم)لم شهدتم علينا(مستعمل في الملامة وهم يحسبون أن جلودهم لكونها جزءا منهم لا يحق لهم شهادتها عليهم لأنها تجر العذاب إليها.

واستعمال الاستفهام عن العلة في معرض التوبيخ كثير كقوله تعالى)فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم(.

وقول الجلود)أنطقنا الله(اعتذار بأن الشهادة جرت منها بغير اختيار.

صفحة : 3809

وهذا النطق من خوارق العادات كما هو شأن العالم الأخروي.

وقولهم)الذي أنطق كل شيء(تمجيد لله تعالى ولا علاقة له بالاعتذار، والمعنى: الذي أنطق كل شيء له نطق من الحيوان واختلاف دلالة أصواتها على وجدانها، فعموم)كل شيء(مخصوص بالعرف.

)وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون[21](يجوز أن تكون هذه الجملة والتي عطفت عليها من تمام ما أنطق الله به جلودهم قتفي على مقالتها تشهيرا بخطئهم في إنكارهم البعث والمصير إلى الله لزيادة التنديم والتحسير، وهذا ظاهر كون الواو في أول الجملة واو العطف فيكون التعبير بالفعل المضارع في قوله)وإليه ترجعون(لاستحضار حالتهم فإنهم ساعتئذ في قبضة تصرف الله مباشرة. وأما رجوعهم بمعنى البعث فإنه قد مضى بالنسبة لوقت إحضارهم عند جهنم، أو يكون المراد بالرجوع الرجوع إلى ما ينتظرهم من العذاب.

ويجوز أن تكون هذه الجملة وما بعدها اعتراضا بين جملة)ويوم نحشر أعداء الله إلى النار(وجملة)فإن يصبروا فالنار مثوى لهم(موجها من جانب الله تعالى إلى المشركين الأحياء لتذكيرهم بالبعث عقب ذكر حالهم في القيامة انتهازا لفرصة الموعظة السابقة عند تأثير بسماعها.

ويكون فعل)ترجعون(مستعملا في الاستقبال على أصله، والكلام استدلال على إمكان البعث.
قال تعالى)أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد(.
وتقديم متعلق)ترجون(عليه للاهتمام ورعاية الفاصلة.
)وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون[22] وذلكم ظنكم الذي بربكم أردكم فأصبحتم من الخاسرين[23](قل من تصدى من المفسرين لبيان اتصال هذه الآيات الثلاث بما قبلها، ومن تصدى منهم لذلك لم يأت بما مقنع، وأولى كلام في ذلك كلام ابن عطية ولكنه وجيز وغير محرر وهو وبعض المفسرين ذكروا سببا لنزولها فزادوا بذلك إشكالا وما أبانوا انفصالا. ولنبدأ بما يقتضيه نظم الكلام، ثم نأتي على ما روي في سبب نزولها بما لا يفضي إلى الانفصام.
فيجوز أن تكون جملة)وما كنتم تستترون(بتمامها معطوفة على جملة)وهو خلقكم أول مرة(الخ فتكون مشمولة للاعتراض متصلة بالتي قبلها على كلا التأويلين السابقين في التي قبلها.
ويجوز أن تكون مستقلة عنها: إما معطوفة على جملة)ويوم نحشر أعداء الله إلى النار(الآيات، وإما معترضة بين تلك الجملة وجملة) فإن يصبروا فالنار مثوى لهم(، وتكون الواو اعتراضيه، ومناسبة الاعتراض ما جرى من ذكر شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم. فيكون الخطاب لجميع المشركين الأحياء في الدنيا، أو للمشركين في يوم القيامة.
وعلى هذه الوجوه فالمعنى: ما كنتم في الدنيا تخفون شرككم وتسترون منه بل كنتم تجهرون به وتفخرون باتباعه فماذا لومكم على جوارحكم وأجسادكم أن شهدت عليكم بذلك فإنه كان أمرا مشهورا فالاستتار مستعمل في الإخبار مجازا لأن حقيقة الاستتار إخفاء الذوات والذي شهدت به جوارحهم هو اعتقاد الشرك والأقوال الداعية إليه. وحرف)ما(نفي بقرينة قوله بعده)ولكن ظننتم أن الله لا يعلم(الخ، ولابد من تقدير حرف جر يتعدى به فعل)تسترون(إلى)أن يشهد(وهو محذوف على الطريقة المشهورة في حذف حرف الجر مع)أن(. وتقديره: بحسب ما يدل عليه الكلام وهو هنا يقدر حرف)من(، أي ما كنتم تستترون من شهادة سمعكم وأبصاركم وجلودكم، أي ما كنتم تسترون من تلك الشهود، وما كنتك تتقون شهادتها، إذ لا تحسبون أن ما أنتم عليه ضائر إذ أنتم لا تؤمنون بوقوع يوم الحساب.

فأما ما ورد في سبب نزول الآية فهو حديث الصحيحين وجامع الترمذي بأسانيد يزيد بعضها على بعض إلى عبد الله بن مسعود قال كنت مستترا بأستار شحم بطونهم فتكلموا بكلام لم أفهمه، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول، فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، قال عبد الله: فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى)وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم(إلى قوله)فأصبحتم من الخاسرين(. وهذا بظاهره يقتضي أن المخاطب به نفر معين في قضية خاصة مع الصلاحية لشمول من عسى أن يكون صدر منهم مثل هذا العمل للتساوي في التفكير.

ويجعل موقعها بين الآيات التي قبلها وبعدها غريبا، فيجوز أن يكون نزولها صادف الوقت الموالي لنزول التي قبلها، ويجوز أن تكون نزلت في وقت آخر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوضعها في موضعها هذا لمناسبة ما في الآية التي قبلها من شهادة سمعهم وأبصارهم.

ومع هذا فهي آية مكية إذ لم يختلف المفسرون في أ، السورة كلها مكية. وقال ابن عطية: يشبه أن يكون هذا بعد فتح مكة فالآية مدنية، ويشبه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ الآية متمثلا بها عند إخبار عبد الله إياه اه. وفي كلامه الأول مخالفة لما جزم به هو وغيره من المفسرين أن السورة كلها مكية، وكيف يصح كلامه ذلك وقد ذكر غيره أن النفر الثلاثة هم: عبديالیل الثقفي وصفوان وربيعة ابنا أمية بن خلف، فأما عبديليل فأسلم وله صحبة عند ابن إسحاق وجماعة، وكذلك صفوان بن أمية، وأما ربيعة بن أمية فلا يعرف له إسلام فلا يلاقي ذلك أن تكون الآية نزلت بعد فتح مكة. وأحسن ما في كلام ابن عطية طرفة الثاني وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الآية متمثلا بها فإن ذلك يؤول قول ابن مسعود فأنزل الله تعالى الآية، ويبين وجه قراءة النبي صلى الله عليه وسلم إياها عندما أخبره ابن مسعود: بأنه قرأها تحقيقا لمثال من صور معنى الآية، وهو أن مثل هذا النفر ممن يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، وذلك قاض بأن هؤلاء النفر كانوا مشركين يومئذ، والآية تحق على من مات منهم كافرا مثل ربيعة بن أمية بن خلف.

وعلى بعض احتمالات فيما ذكر يكون فعل)تستترون(مستعملا في حقيقته ومجازه، ولا يعوزك توزيع أصناف هذه الاحتمالات بعضها مع بعض في كل تقدير تفرضه.

وحاصل معنى الآية على جميع الاحتمالات: أن الله عليم بأعمالكم ونياتكم لا يخفى عليه شيء منها إن جهرتم أو سترتم وليس الله بحاجة إلى شهادة جوار حكم عليكم وما أوقعكم في هذا الضر إلا سوء ظنكم بجلال الله.

)وذلكم ظنكم(الإشارة إلى الظن المأخوذ من فعل)ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعلمون(، ويستفاد من الإشارة إليه تمييزه أكمل تمييز وتشهير شناعته للنداء على ضلالهم.

وأتبع اسم الإشارة بالبدل بقوله)ظنكم(لزيادة بيانه ليتمكن ما يعقبه من الخبر، والخبر هو فعل)أرداكم(وما تفرع عليه.

و)الذي ظننتم بربكم(صفة ل)ظنكم(. والإتيان بالموصول لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر وه)أرداكم(وما تفرع عليه، أي الذي ظننتم بربكم ظنا باطلا.

والعدول عن اسم الله العلم إلى)بربكم(للتنبيه على ضلال ظنهم، إذ ظنوا خفاء بعض أعمالهم عن علمه مع أنه ربهم وخلقهم فكيف يخلقهم وتخفى عنه أعمالهم، وهو يشير إلى قوله)ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير(، ففي وصف)بربكم(إيماء إلى هنا المعنى.

والإرادء: الإهلاك، يقال: ردي كرضي، إذا هلك، أي مات، والإرداء مستعار للإيقاع في سوء الحالة وفي الإتيان بالمسند فعلا إفادة قصر، أي ما أرداكم إلا ظنكم ذلك، وهو قصر إضافي، أي لم تردكم شهادة جوارحكم حتى تلوموها بل أرداكم ظنكم أن الله لا يعلم أعمالكم فلم تحذروا عقابه.

وقوله)فأصبحتم من الخاسرين(تمثيل لحالهم إذ يحسبون أنهم وصلوا إلى معرفة ما يحق أن يعرفوه من شؤون الله ووثقوا من تحصيل سعادتهم، وهم ما عرفوا الله حق معرفته فعاملوا الله بما لا يرضاه فاستحقوا العذاب من حيث ظنوا النجاة، فشبه حالهم بحال التاجر الذي استعد للربح فوقع في الخسارة.

صفحة : 3811

والمعنى: أنه نعي عليهم سوء استدلالهم وفساد قياسهم في الأمور الإلهية، وقياسهم الغائب على الشاهد، تلك الأصول التي استدرجتهم في الضلالة فأحالوا رسالة البشر عن الله ونفوا البعث،

ثم أثبتوا شركاء لله في الإلهية، وتفرع لهم من ذلك كله قطع نظرهم عما وراء الحياة الدنيا وأمنهم من التبعات في الحياة الدنيا، فذلك جماع قوله تعالى)وذلكم الذي ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين(.

وأعلم أن أسباب الضلال في العقائد كلها إنما تأتي على الناس من فساد التأمل وسرعة الإيقان وعدم التمييز بين الدلائل الصائبة والدلائل المشابهة وكل ذلك بفضي إلى الوهم المعبر عنه بالظن السيئ، أو الباطل.

وقد ذكر الله مثله في المنافقين وأن ظنهم هو ظن أهل الجاهلية فقال)يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية(، فليحذر المؤمنون من الوقوع في مثل هذه الأوهام فيبوءوا ببعض ما نعي على عبدة الأصنام.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث يريد الظن الذي لا دليل عليه.

و)أصبحتم(بمعنى: صرتم، لأن أصبح يكثر أن تأتي بمعنى: صار.

)فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين[24](تفريع على جواب)إذا(على كلا الوجهين المتقدمين، أو تفريع على جملة)وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا(، أو هو جواب)إذا(، وما بينهما اعتراض على حسب ما يناسب الوجوه المتقدمة.

والمعنى على جميع الوجوه: أن حاصل أمرهم أنهم قد زج بهم في النار فإن صبروا واستسلموا فهم باقون في النار، وإن اعتذروا لم ينفعهم العذر ولم يقبل منهم تنصل.

وقوله)فالنار مثوى لهم(دليل جواب الشرط لأن كون النار مثوى لهم ليس مسببا على حصول صبرهم وإنما هو من باب قولهم: إن قبل ذلك فذاك، أي فهو على ذلك الحال، فالتقدير: فإن يصبروا فلا يسعهم إلا الصبر لأن النار مثوى لهم.

ومعنى)وإن يستعتبوا(إن يسألوا العتبى بضم العين وفتح الموحدة مقصورا اسم مصدر الإعتاب وهي رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب.

وفي المثل ما مسيء من أعتب أي من رجع عما أساء به فكأنه لم يسيء. وقلما استعملوا المصدر الأصلي بمعنى الرجوع استغناء عنه باسم المصدر وهو العتبى. والعاتب هو اللائم، والسين والتاء فيه للطلب لأن المرء لا يسأل أحدا أن يعاتبه وإنما يسأله ترك المعاتبة، أي يسأله الصفح عنه فإذا قبل منه ذلك قيل: أعتبه أيضا، وهذا من غريب تصاريف هذه المادة في للغة ولهذا كادوا أن يميتوا مصدر: أعتب بمعنى رجع وأبقوه في معنى قبل العتبى، وهو

المراد في قوله تعالى)فما هم من المعتبين(أي أن الله لا يعتبهم، أي لا يقبل منهم.
)وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين[25](عطف على جملة)ويوم نحشر أعداء الله(، وذلك أنه حكي قولهم المقتضي إعراضهم عن التدبر في دعوة الإيمان ثم ذكر كفرهم بخالق الأكوان بقوله)قل أينكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين(.
ثم ذكر مصيرهم في الآخرة بقوله)ويوم نحشر أعداء الله(، ثم عقب ذلك بذكر سبب ضلالهم الذي نشأت عنه أحوالهم بقوله) وقيضنا لهم قرناء(. وتخلل بين ما هنالك وما هنا أفانين من المواعظ والدلائل والمنن والتعاليم والقوارع والإيقاظ.
وقيض: أتاح وهيأ شيئا للعمل في شيء. والقرناء جمع: قرين، وهو الصاحب الملازم، والقرناء هنا: هم الملازمون لهم في الضلالة: إما في الظاهر مثل دعاة الكفر وأئمته، وإما في باطن النفوس مثل شياطين الوسواس الذين قال الله فيهم)ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين(ويأتي في سورة الزخرف.

صفحة : 3812

ومعنى تقييضهم لهم: تقديرهم لهم، أي خلق المناسبات التي يتسبب عليها تقارن بعضهم مع بعض لتناسب أفكار الدعاة والقابلين كما يقول الحكماء استفادة القابل من المبدأ تتوقف على المناسبة بينهما . فالتقييض بمعنى التقدير عبارة جامعة لمختلف المؤثرات والتجمعات التي توجب التآلف والتحاب بين الجماعات، ولمختلف الطبائع المكونة في نفوس بعض الناس فيقتضي بعضها جاذبية الشياطين إليها وحدوث الخواطر السيئة فيها. والإحاطة بهذا المقصود أوثر التعبير هنا ب)قيضنا(دون غيره من نحوه: بعثنا، وأرسلنا.
والتزيين: التحسين، وهو يشعر بأن المزين غير حسن في ذاته. و)ما بين أيديهم(يستعار للأمور المشاهدة، وما خلفهم يستعار للأمور المغيبة.
والمراد ب)ما بين أيديهم(أمور الدنيا، أي زينوا لهم ما يعملونه في الدنيا من الفساد مثل عبادة الأصنام، وقتل النفس بلا حق، وأكل الأموال، والعدول على الناس باليد واللسان، والميسر، وارتكاب الفواحش، والوأد. فعودوهم باستحسان ذلك كله لما فيه من موافقة

الشهوات والرغبات العارضة القصيرة المدى، وصرفوهم عن النظر فيما يحيط بأفعالهم تلك من المفاسد الذاتية الدائمة.

والمراد ب)ما خلفهم(الأمور المغيبة عن الحس من صفات الله، وأمور الآخرة من البعث والجزاء مثل لشرك بالله ونسبة الولد إليه، وظنهم أنه يخفى عليه مستور أعمالهم، وإحالتهم بعثة الرسل، وإحالتهم البعث والجزاء.

ومعنى تزيينهم هذا لهم تلقينهم تلك العقائد بالأدلة السفسطائية مثل قياس الغائب على الشاهد، ونفي الحقائق التي لا تدخل تحت المدركات الحسية كقولهم)أإذا كنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون(.

و)حق عليهم(أي تحقق فيهم القول وهو وعيد الله إياهم بالنار على الكفر، فالتعريف في)القول(للعهد. وفي هذا العهد إجمال لأنه وإن كان قد ورد في القرآن ما يعهد منه هذا القول مثل قوله) أفمن حق عليه كلمة العذاب(وقوله)فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون(، فإنه يمكن أن لا تكون الآيات المذكورة قد سبقت هذه الآية.

وقوله)في أمم(حال من ضمير)عليهم(، أي حق عليهم حالة كونهم في أمم أمثالهم قد سبقوهم.

والظرفية هنا مجازية، وهي بمعنى التبعيض، أي هم من أمم قد خلت من قبلهم حق عليهم القول. ومثل هذا الاستعمال قول عمرو بن أذينة:

إن تك عن أحسن الصنيعة مأفو كا

ففي آخرين قـد أفـكـوا أي فأنت من جملة آخرين قد صرفوا عن أحسن الصنيعة.

و)من(في قوله)من الجن والإنس(بيانية، فيجوز أن يكون بيانا ل)أمم(، أي من أمم من البسر ومن الشياطين فيكون مثل قوله تعالى)قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين(، وقوله)قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار(ويجوز أن يكون بيانا ل)قرناء(أي ملازمين لهم ملازمة خفية وهي ملازمة الشياطين لهم بالوسوسة وملازمة أئمة الكفر لهم بالتشريع لهم ما لم يأذن به الله.

وجملة)إنهم كانوا خاسرين(يجوز أن تكون بيانا للقول مثل نظيرتها)فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون(في سورة الصافات، ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن جملة)وحق عليهم القول في أمم(والمعنيان متقاربان.

)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون[26](عطف على الجملة.)وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا

إليه(عطف القصة على القصة، ومناسبة التخلص إليه أن هذا القول مما ينشأ عن تزيين قرنائهم من الإنس، أو هو عطف على جملة) فزينوا لهم(.

وهذا حكاية لحال أخرى من أحوال إعراضهم عن الدعوة المحمدية بعد أن وصف إعراضهم في أنفسهم انتقل إلى وصف تلقينهم الناس أساليب الإعراض، فالذين كفروا هنا هم أئمة الكفر يقولون لعامتهم: لا تسمعوا لهذا القرآن، فإنهم علموا أن القرآن كلام هو أكمل الكلام شريف معان وبلاغة تراكيب وفصاحة ألفاظ، وأيقنوا أن كل من يسمعه وتداخل نفسه جزالة ألفاظه وسمو أغراضه قضى له فهمه أنه حق إتباعه، وقد أدركوا ذلك بأنفسهم ولكنهم غالبتهم محبة الدوام على سيادة قومهم فتمالؤوا ودبروا تدبير لمنع الناس من استماعه، وذلك خشية من أن ترق قلوبهم عند سماع القرآن فصرفوهم عن سماعه.

صفحة : 3813

وهذا من شأن دعاة الضلال والباطل أن يكموا أفواه الناطقين بالحق والجة، بما يستطيعون من تخويف وتسويل، وترهيب وترغيب ولا يدعوا الناس يتجادلون بالحجة ويتراجعون بالأدلة لأنهم يوقنون أن حجة خصومهم أنهض، فهم يسترونها ويدافعونها لا بمثلها ولكن بأساليب من البهتان والتضليل، فإذا أعيتهم الحيل ورأوا بوارق الحق تخفق خشوا أن يعم نورها الناس الذين فيهم بقية من خير ورشد عدلوا إلى لغو الكلام ونفخوا في أبواق اللغو والجعجعة لعلهم يغلبون بذلك على حجج الحق ويغمرون الكلام القول الصالح باللغو، وكذلك شأن هؤلاء.

فقولهم)لا تسمعوا لهذا القرآن(تحذيرا واستهزاء بالقرآن، فاسم الإشارة مستعمل في التحقير كما فيما حكي عنهم)أهذا الذي يذكر آلهتكم(.

وتسميتهم إياه بالقرآن حكاية لما يجري على ألسنة المسلمين من تسمية بذلك.

وتعدية فعل)تسمعوا(باللام لتضمينه معنى: تطمئنوا أو تركنوا.

واللغو: القول الذي لا فائدة فيه، ويسمى الكلام الذي لا جدوى له لغوا، وهو واوي اللام، فأصل)والغوا(: والغووا استثقلت الضمة على الواو فحذفت والتقى ساكنان فحذف أولهما وسكنت الواو الثانية سكونا حيا، والواو علامة الجمع. وهذا الجاري على ظاهر كلام

الصحاح والقاموس وفي الكشاف أنه يقال: لغي يلغى، كما يقال: لغا يلغو فهو إذن واوي ويائي.
فمعنى)والغوا فيه(قولوا أقوالا لا معنى لها أو تكلموا كلاما غير مراد منه إفادة أو المقصود إحداث أصوات تغمر صوت النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن. ولما كان المقصود بتخلل أصواتهم صوت القارئ حتى لا يفقهه السامعون عدي اللغو بحرف)في(الظرفية لإفادة إيقاع لغوهم في خلال صوت القارئ وقوع المظروف في الظرف على وجه المجاز.
وأدخل حرف الظرفية على اسم القرآن دون اسم شيء من أحواله مثل صوت أو كلام ليشمل كل ما يخفى ألفاظ القرآن أو يشكك في معانيها أو نحو ذلك. وهذا نظم له مكانة من البلاغة.
قال ابن عباس كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته فكان أبو جهل وغيره يطردون الناس عنه ويقولون لهم: لا تسمعوا له والغوا فيه، فكانوا يأتون بالمكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأراجيز وما يحضرهم من الأقوال لما استمعوا إلى قراءة أبي بكر وكان رقيق القراءة: إنا نخاف أن يفتن أبناءنا ونساءنا .
ومعنى)لعلكم تغلبون(رجاء أن تغلبوا محمدا بصرف من يتوقع أن يتبعه إذا سمع قراءته. وهذا مشعر بأنهم كانوا يجدون القرآن غالبهم إذ كان الذين يسمعونه يداخل قلوبهم فيؤمنون، أي فإن لم تفعلوا فهو غالبكم.
)فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون[27] ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون[28](دلت الفاء على أن ما بعدها مفرع عما قبلها: فإما أن يكون تفريغا على آخر ما تقدم وهو قوله)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن(الآية، وإما أن يكون مفرعا على جميع ما تقدم ابتداء من قوله)وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه(الآية وقوله)فإن أعرضوا(الآية وقوله)ويوم نحشر أعداء الله إلى النار(الآية وقوله)وقيضنا لهم قرناء(الآية وقوله)وقال الذين كفروا لا تسمعوا(الخ. وعلى كلا الوجهين يتعين أن يكون المراد ب)الذين كفروا(هنا: المشركين الذين الكلام عنهم.
ف)الذين كفروا(إظهار في مقام الإضمار لقصد ما في الموصول من الإيماء إلى عل إذاقة العذاب، أي لكفرهم المحكي بعضه فيما تقدم.
وإذاقة العذاب: تعذيبهم، استعير له الإذاقة على طريق المكنية والتخييلة. والعذاب الشديد عن ابن عباس: أنه عذاب يوم بدر فهو عذاب الدنيا.

وعطف)ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون(عن ابن عباس: لنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون في الآخرة.
و)أسوأ الذي كانوا يعملون(منصوب على نزع الخافض. والتقدير: على أسوأ ما كانوا يعملون، ولك أن تجعله منصوبا على النيابة عن المفعول المطلق تقديره: جراء مماثلا أسوأ الذي كانوا يعملون.

صفحة : 3814

وأسوأ: اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، وإنما أريد به السيئ، فصيغ بصيغة التفضيل للمبالغة في سوءه. وإضافته إلى)الذي كانوا يعملون(من إضافة البعض إلى الكل وليس من إضافة اسم التفضيل إلى المفضل عليه.
والإشارة ب)ذلك جزاء أعداء الله(إلى ما تقدم وهو الجزاء والعذاب الشديد على أسوا أعمالهم. وأعداء الله: هم المشركون الذين تقدم ذكرهم بقوله تعالى)ويوم نحشر أعداء الله(.
والنار عطف بيان من)جزاء أعداء الله(.
و)دار الخلد(: النار. فقوله)لهم فيها دار الخلد(جاء بالظرفية بتنزيل النار منزلة ظرف لدار الخلد وما دار الخلد إلا عين النار. وهذا من أسلوب التجريد ليفيد مبالغة معنى الخلد في النار. وهو معدود من المحسنات البديعية، ومنه قوله تعالى)لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة(وقول أبي حامد العتابي:
وفي الرحمان للضعفاء كافي أي والرحمان كاف للضعفاء.
والخلد: طول البقاء، وأطلق في اصطلاح القرآن على البقاء المؤبد الذي لا نهاية له.
وانتصب)جزاء(على الحال من)دار الخلد(. والباء للسببية.
و)ما(مصدرية، أي جزء بسبب كونهم يجحدون بآياتنا.
وصيغة المضارع في)يجحدون(دالة على تجدد الجحود حينا فحينا وتكرره. وعدي فعل)يجحدون(بالباء لتضمينه معنى: يكذبون. وتقديم) بآياتنا(للاهتمام وللرعاية على الفاصلة.
)وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين[29](عطف على الجملة)لهم فيها دار الخلد(، أي ويقولون في جهنم، فعدل عن صيغة الاستقبال إلى صيغة المضي للدلالة على تحقيق وقوع هذا القول وهو في معنى قوله تعالى)حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فأتهم عذابا ضعفا من النار(،فالقائلون)ربنا أرنا الذين أضلانا(: هم عامة المشركين، كما يدل عليه قوله)اللذين أضلانا(.

ومعنى)أرنا(عين لنا، وهو كناية عن إرادة انتقامهم منهم ولذلك جزم)نجعلهما(في جواب الطلب على تقدير: إن ترناهما نجعلهما تحت أقدامنا.

والجعل تحت الأقدام: الوطء بالأقدام والرفس، أي نجعل آحادهم تحت أقدام آحاد جماعتنا، فإن الدهماء أكثر من القادة فلا يعوزهم الانتقام منهم. وكان الوطء بالأرجل من كيفيات الانتقام والامتهان، قال ابن وعلة الجرمي:

ووطئنا وطأ على حنق وطأ المقيد نابت الهرم

وإنما طلبوا أن يروهما لأن المضلين كانوا في دركات من النار أسفل من دركات أتباعهم فلذلك لم يعرفوا أين هم.

والتعليل)ليكونا من الأسفلين(توطئة لاستجابة الله تعالى لهم أن يريهموهما لأنهم علموا من غضب الله عليهم أنه أشد غضبا على الفريقين المضلين فتوسلوا بعزمهم على الانتقام منهم إلى تيسير تمكينهم من الانتقام منهم.

والأسفلون: الذين هم أشد حقارة من حقارة هؤلاء الذين كفروا، أي ليكونوا أحقر منا جزاء لهم، فالسفالة مستعارة للإهانة والحقارة.

وقرأ الجمهور)أرنا(بكسر الراء. وقرأه ابن كثير وابن عامر والسوسي عن أبي عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بسكون الراء للتخفيف من ثقل الكسرة، كما قالوا: فخذ في فخذ. وعن الخليل إذا قلت: أرني ثوبك بكسر الراء، فالمعنى: رصرنيه، وإذا قلته بسكون الراء فهو استعطاء، معناه: أعطنيه. وعلى هذا يكون معنى قراءة ابن كثير وابن عامر ومن وافقهما: مكنا من الذين أضلانا كي نجعلهما تحت أقدامنا، أي ائذن لنا بإهانتهما وخزيهما.

وقرأ ابن كثير)اللذين(بتشديد النون من اسم الموصول وهي لغة، وتقدم في قوله تعالى)واللذان يأتيانها منكم(في سورة النساء.

)إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون [30] نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون [31] نزلا من غفور رحيم [32](

صفحة : 3815

بعد استيفاء الكلام على متا أصاب الأمم الماضية المشركين المكذبين من عذاب الدنيا وما أعد لهم من عذاب الآخرة مما فيه عبرة للمشركين الذين كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم بطريق التعريض، ثم أنذروا بالتصليح بما سيحل بهم في الآخرة، ووصف بعض أهواله، تشوف السامع إلى معرفة حظ المؤمنين ووصف

حالهم فجاء قوله)إن الذين قالوا ربنا الله(الخ، بيانا للمترقب وبشرى للمتطلب، فالجملة استئناف بياني ناشئ عما تقدم من قوله)ويم نحشر أعداء الله إلى النار(إلى قوله)من الأسفلين(.

وافتتاح الجملة بحرف التوكيد منظور فيه إلى إنكار المشركين ذلك، ففي توكيد الخبر زيادة قمع لهم.

ومعنى)قالوا ربنا الله(أنهم صدعوا بذلك ولم يخشوا أحدا بإعلانهم التوحيد، فقولهم تصريح بما في اعتقادهم لأن المراد بهم قالوا ذلك عن اعتقاد، فإن الأصل في الكلام الصدق وهو مطابقة الخبر وما في الوجود الخارجي.

وقوله)ربنا الله(يفيد الحصر بتعريف المسند إليه والمسند، أي لا رب لنا إلا الله، وذلك جامع لأصل الاعتقاد الحق لأن الإقرار بالتوحيد يزيل المانع من تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به إذ لم يصد المشركين عن الإيمان بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه أمرهم بنبذ عبادة غير الله، ولأن التكذيب بالبعث تلقوه من دعاة الشرك.

والاستقامة حقيقتها: عدم الاعوجاج والميل، والسين والتاء فيها للمبالغة في التقويم، فحقيقة استقام: استقل غير مائل ولا منحن. وتطلق الاستقامة بوجه الاستعارة على ما يجمع معنى حسن العمل والسيرة على الحق والصدق قال تعالى)فاستقيموا إليه واستغفروه(وقال)فاستقم كما أمرت(، ويقال: استقامت البلاد للملك، أي أطاعت، ومنه قوله تعالى)فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم(.

ف)استقاموا(هنا يشمل معنى الوفاء بما كلفوا به وأول ما يشمل من ذلك أن يثبتوا على أصل التوحيد، أي لا يغيروا ولا يرجعوا عنه.

ومن معنى هذه الآية ما روي في صحيح مسلم عن سفيان الثقفي قال قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال: قل آمنت بالله ثم استقيم .

وعن أبي بكر)ثم استقاموا(: لم يشركوا بالله شيئا. وعن عمر: استقاموا على الطريقة لطاعته ثم لم يروغوا روغان الثعالب. وقال عثمان: ثم أخلصوا العمل لله. وعن علي ثم أدوا الفرائض. فقد تولى تفسير هذه الآية الخلفاء الربعة رضي لله عنهم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى معنى الاستقامة في الإيمان وآثاره، وعناية هؤلاء الأربعة أقطاب الإسلام ببيان الاستقامة مشير إلى أهميتها في الدين.

وتعريب المسند إليه بالموصولية دون أن يقال: إن المؤمنين ونحوه لما في الصلة من الإيمان إلى أنها سبب ثبوت المسند للمسند إليه فيفيد أن تنزل الملائكة عليهم بتلك الكرامة مسبب على قولهم)ربنا الله(واستقامتهم فإن الاعتقاد الحق والإقبال على العمل الصالح هما سبب الفوز.

و)ثم(التراخي الرتبي لأن الاستقامة زائدة في المرتبة على الإقرار بالتوحيد لأنها تشمله وتشمل الثبات عليه والعمل بما يستدعيه، ولأن الاستقامة دليل على أن قولهم)ربنا الله(كان قولا منبعثا عن اعتقاد الضمير والمعرفة الحقيقة.

وجمع قوله)قالوا ربنا الله ثم استقاموا(أصلي الكمال الإسلامي، فقوله)قالوا ربنا الله(مشير إلى الكمال النفساني وهو معرفة الحق للاهتداء به، ومعرفة الخير لأجل العمل به، فالكمال علم يقيني وعمل صالح، فمعرفة الله بالإلهية هي أساس العلم اليقيني.

وأشار قوله)استقاموا(إلى أساس الأعمال الصالحة وهو الاستقامة على الحق، أي أن يكون وسطا غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط قال تعالى)اهدنا الصراط المستقيم(وقال)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(على أن كمال الاعتقاد راجع إلى الاستقامة، فالاعتقاد الحق أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل، ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه والتمثيل بل يمشي على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل، ويستمر كذلك فاصلا بين الجبري والقدري، وبين الرجاء والقنوط، وفي الأعمال بين الغلو والتفريط.

صفحة : 3816

وتنزل الملائكة على المؤمنين يحتمل أن يكون في وقت الحشر كما دل عليه قولهم)التي كنتم توعدون(، وكما يقتضيه كلامهم لهم لأن ظاهر الخطاب أنه حقيقة، فذلك مقابل قوله)ويوم نحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون(، فأولئك تلاقيهم الملائكة بالوزع، والمؤمنون تتنزل عليهم الملائكة بالأمن.

وذكر التنزل هنا للتنويه بشأن المؤمنين أن الملائكة ينزلون من علوياتهم لأجلهم فأما أعداء الله فهم يجدون الملائكة حضرا في المحشر يزعونهم وليسوا يتنزلون لأجلهم فثبت للمؤمنين بهذا كرامة ككرامة الأنبياء والمرسلين إذ ينزل الله عليهم الملائكة. والمعنى: أنه يتنزل على كل مؤمن ملكان هما الحافظان اللذان كانا يكتبان أعماله في الدنيا. ولتضمن)تتنزل(معنى القول وردت بعده) أن(التفسيرية. والتقدير: يقولون لا تخافوا ول تحزنوا.

ويجوز أن يكون تنزل الملائكة عليهم في الدنيا، وهو تنزل خفي يعرف بحصول آثاره في نفوس المؤمنين ويكون الخطاب ب)لا تخافوا ولا تحزنوا(بمعنى إلقائهم في روعهم عكس وسوسة الشياطين القرناء بالتزيين، أي يلقون في أنفس المؤمنين ما

يصرفهم عن الخوف والحزن ويذكرهم بالجنة فتحل فيهم السكينة فتنشرح صدورهم بالثقة بحلولها، ويلقون في نفوسهم نبذ ولاية من ليسوا من حزب الله، فذلك مقابل قوله)وقيضنا لهم قرناء(الآية فإنه تقييض في الدنيا. وهذا يقتضي أن المؤمنين الكاملين لا يخافون غير الله، ولا يحزنون على ما يصيبهم، ويوقنون أن كل شيء بقدر، وهم فرحون بما يترقبون من فضل الله.

وعلى هذا المعنى فقوله)التي كنتم(تعتبر)كان(فيه مزيدة للتأكيد، ويكون المضارع في)توعدون(على أصل استعماله للحال والاستقبال، ويكون قولهم)نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة(أيبدأ لهم في الدنيا ووعدا بنفعهم في الآخرة.

و)لا(ناهية، والمقصود من النهي عن الخوف: النهي عن سببه، وهو توقع الضر، أي لا تحسبوا أن الله معاقبكم، فالنهي كناية عن التأمين من جانب الله تعالى لأنهم إذا تحققوا الأمن زال خوفهم، وهذا تطمين من الملائكة لأنفس المؤمنين.

والخوف: غم في النفس ينشأ عن ظن حصول مكروه شديد.

والحزن: غم في النفس ينشأ عن وقوع مكروه بفوات نفع أو حصول ضر.

وألحقوا بتأمينهم بشارتهم، لأن وقع النعيم في النفس موقع المسرة إذا لم يخالطه توقع المكروه.

ووصف الجنة ب)التي كنتم توعدون(تذكير لهم بأعمالهم التي وعدوا عليها بالجنة، وتعجيل لهم بمسرة الفوز برضى الله، وتحقيق وعده، أي التي كنتم توعدونها في الدنيا.

وفي ذكر فعل الكون تنبيه على أنهم متأصلون في الوعد بالجنة وذلك من سابق إيمانهم وأعمالهم.

وفي التعبير بالمضارع في)توعدون(إفادة أنهم قد تكرر وعدهم بها، وذلك بتكرر الأعمال الموعود لأجلها وبتكرر الوعد في مواقع التذكير والتبشير.

وقول الملائكة)نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة(تعريف بأنفسهم للمؤمنين تأنيسا لهم.

فإن العلم بأن المتلقي صاحب قديم يزيد نفس القادم انشراحا وأنسا ويزيل عنه دهشة القدوم، يخفف عنه من حشمة الضيافة، ويزيل عنه وحشة الاغتراب، أي نحن الذي كنا في صحبتكم في الدنيا، إذ كانوا يكتبون حسناتهم ويشهدون عند الله بصلاتهم كما في حديث)يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناه وهم يصلون(. وقد حفظوا العهد فكانوا أولياء المؤمنين في الآخرة، وقد جيء بهذا القول معترضا بين صفات الجنة ليتحقق

المؤمنون أن بشارتهم بالجنة بشارة محب يفرح لحبيبه بالخير ويسعى ليزيده.
واعلم أن قوله)في الحياة الدنيا(إشارة إلى مقابلة قوله في المشركين)وقيضنا لهم قرناء(فكما قيض للكفار قرناء في الدنيا قيض للمؤمنين ملائكة بالثناء على المؤمنين.

صفحة : 3817

وهذه الآية تقتضي أن هذا الصنف من الملائكة خاص برفقة المؤمنين وولائهم ولا حظ للكافرين فيهم، فإن كان الحفظة من خصائص المؤمنين ظاهر، وإن كان الحفظة موكلين على المؤمنين والكافرين كما مشى عليه الجمهور وهو ظاهر قوله تعالى)كلا بل تكذبون بالدين وإن عليك لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون(فهذا صنف من الملائكة موكل بحفظ المؤمنين في الدنيا، وهم غير الحفظة، وقد يكون هذا الصنف من الملائكة هو المسمى بالمعقبات في قوله تعالى)له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله(حسب ما تقدم في سورة الرعد.
وقد دلت عدة آثار متفاوتة في القبول على أن الملائكة الذين لهم علاقة بالناس عموما أو بالمؤمنين خاصة أصناف كثيرة. وعن عثمان)أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم : كم من ملك على الإنسان، فذكر له عشرين ملكا(. ولعل وصف الملائكة المتنزلين بأنهم أولياء يقتضي أن عملهم مع المؤمن عمل صلاح وتأييد مثل إلهام الطاعات ومحاربة الشياطين ونحو ذلك، وبذلك تتم مقابلة تنزلهم على المؤمنين بذكر تقييض القرناء للكافرين، وهذا أحسن.
وجملة)ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم(عطف على)التي كنتم توعدون(وما بينهما جملة كما بينته آنفا.
ومعنى)ما تدعون(: ما تتمنون. يقال: ادعى، أي تمنى، وقد تقدم عند قوله تعالى)ولهم ما يدعون(في سورة يس.
والمعنى: لكم فيها ما تشتهونه مما يقع تحت الحس وما تتمنونه في نفوسكم من كل ما يخطر بالبال مما يجول في الخيال، فما يدعون غير ما تشتهيه أنفسهم.
ولهذه المغايرة أعيد)لكم(ليؤذن باستقلال هذا الوعد عن سابقه، فلا يتوهم أن العطف عطف تفسير أو عطف عام على خاص.
والنزل بضم النون وضم الزاي: ما يهيأ للضيف من القرى، وهو مشتق من النزول لأنه كرامة النزيل، وهو هنا مستعار لما يعطونه

من الرغائب سواء كانت رزقا أم غيره. ووجه الشبه سرعة إحضاره كأنه مهيأ من قبل أن يشتهوه أو يتمنوه.
ومن)غفور رحيم(صفة)نزلا(، و)من(ابتدائية.
وانتصب)نزلا(على الحال من)ما تشتهي أنفسكم(. و)ما تدعون(حال كونه كالنزل المهيأ للضيف، أي تعطونه كما يعطي النزل للضيف.
وأوثرت صفتا)الغفور الرحيم(هنا للإشارة إلى أن الله غفر لهم أو لأكثرهم اللمم وما تابوا منه، وأنه رحيم بهم لأنهم كانوا يحبونه ويخافونه ويناصرون دينه.
)ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين[33](ليس هذا من حكاية خطاب الملائكة للمؤمنين في الآخرة وإنما هو موجه من الله فالأظهر أنه تكملة للثناء على الذين قالوا: ربنا الله، واستقاموا، وتوجيه لاستحقاقهم تلك المعاملة الشريفة، وقمع للمشركين إذ تقرع أسماعهم، أي كيف لا يكونون بتلك المثابة وقد قالوا أحسن القول وعملوا أحسن العمل. وذكر هذا الثناء عليهم بحسن قولهم عقب ذكر مذمة المشركين ووعيدهم على سوء قولهم: لا تسمعوا لهذا القرآن، مشعر لا محالة بان بين الفريقين بونا بعيدا، طرفاه: الحسن المصرح به، والأسوأ المفهوم بالمقابلة، أي فلا يستوي الذين قالوا أحسن القول وعملوا أصلح العمل مع الذين قالوا أسوأ القول وعملوا أسوأ العمل، ولهذا عقب بقوله)ولا تستوي الحسنة ولا السيئة(.
والواو إما عاطفة على جملة)إن الذين قالوا ربنا الله(، أو حالية من)الذين قالوا(. والمعنى: أنهم نالوا ذلك إذ أحسن منهم قولا وعملا.
و)من(استفهام مستعمل في النفي، أي لا أحد أحسن قولا من هذا الفريق كقوله)ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله(الآية في سورة النساء.
ومن دعا إلى الله: كل أحد ثبت له مضمون هذه الصلة. والدعاء إلى شيء: أمر غيرك بالإقبال على شيء، ومنه قولهم: الدعوة العباسية والدعوة العلوية، وتسمية الواعظ عند بني عبيد بالداعي لأنه يدعو إلى التشيع لآل علي بن أبي طالب. فالدعاء إلى الله: تمثيل لحال الآمر بإفراد الله بالعبادة ونبذ الشرك بحال من يدعو أحدا بالإقبال إلى شخص، وهذا حال المؤمنين حين أعلنوا التوحيد وهو ما وصفوا به آنفا في قوله)إن الذين قالوا ربنا الله(كما علمت وقد كان المؤمنون يدعون المشركين إلى توحيد الله، وسيد الداعين إلى الله هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله)من دعا إلى الله( )من(فيه تفضيلية لاسم)أحسن(، والكلام على حذف مضاف تقديره: من قول من دعا إلى الله. وهذا الحذف كالذي في قول النابغة:

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتـي

على وعل في ذي المطارة عاقل أي لا تزيد مخافتي على مخافة وعل، ومنه قوله تعالى)ولكن البر من آمن بالله(الآية في سورة البقرة.

والعمل الصالح: هو العمل الذي يصلح عامله في دينه ودنياه صلاحا لا يشوبه فساد، وذلك العمل الجاري على وفق ما جاء به الدين، فالعمل الصالح: هو ما وصف به المؤمنون آنفا في قوله)ثم استقاموا(.

وأما)وقال إنني من المسلمين(فهو ثناء على المسلمين بأنهم افتخروا بالإسلام واعتزوا به بين المشركين ولم يتستروا بالإسلام.

والاعتزاز بالدين عمل صالح ولكنه خص بالذكر لأنه أريد به غيظ الكافرين. ومثال هذا ما وقع يوم أحد حين صاح أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم قولوا)الله أعلى وأجل(فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم قولوا الله مولانا ولا مولى لكم .

وإنما لم يذكر نظير هذا القول في الصلة المشيرة إلى سبب تنزل الملائكة على المؤمنين بالكرامة وهي)الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا(لأن المقصود من ذكرها هنا الثناء عليهم بتفاخرهم على المشركين بعزة الإسلام، وذلك من آثار تلك الصلة فلا حاجة إلى ذكره هنالك بخلاف موقعه هنا.

وفي هذه الآية منزع عظيم لفضيلة علماء الدين الذين بينوا السنن ووضحوا أحكام الشريعة واجتهدوا في التوصل إلى مراد الله تعالى من دينه ومن خلقه.

وفيها أيضا منزع لطيف لتأييد قول الماتريدي وطائفة من علماء القيروان وعلى رأسهم محمد بن سحنون: أن المسلم يقول: أنا مؤمن ولا يقول إن شاء الله، خلافا لقول الأشعري وطائفة من علماء القيروان وعلى رأسهم محمد بن عبدوس فنقل أنه كان يقول: أنا مؤمن إن شاء الله. وقد تطاير شرر هذا الخلاف بين علماء القيروان مدة قرن. والحق أنه خلاف لفظي كما بينه الشيخ أبو محمد بن أبي زيد ونقله عياض في المدارك ووافقه. وذكرنا لمسألة مفصلة عند قوله تعالى)وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أ،

يشاء الله ربنا(في سورة العراف وبذلك فلا حجة في هذه الآية لأحد الفريقين وإنما الحجة في آية سورة العراف على الماتريدي ومحمد بن سحنون.
والقول في قوله)وقال إنني من المسمين(كالقول في)إن الذين قالوا ربنا الله(.
)ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم[34](عطف هذه الجملة له موقع عجيب، فإنه يجوز أن يكون عطفا على جملة)ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله(الخ تكملة لها فإن المعطوف عليها تضمنت الثناء على المؤمنين إثر وعيد المشركين وذمهم، وهذه الجملة فيها بيان التفاوت بين مرتبة المؤمنين وحال المشركين، فإن الحسنة اسم منقول من الصفة فتلمح الصفة مقارن له، فالحسنة حالة المؤمنين والسيئة حالة المشركين، فيكون المعنى كمعنى آيات كثيرة من هذا القبيل مثل قوله تعالى)وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء(، فعطف هذه الجملة على التي قبلها على هذا الاعتبار يكون من عطف الجمل التي يجمعها غرض واحد وليس من عطف غرض على غرض.
ويجوز أن تكون عطفا على جملة)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون(الواقعة بعد جملة)وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه(إلى قوله)فاعمل إننا عاملون(فإن ذلك مثير في نفس النبي صلى الله عليه وسلم الضجر من إصرار الكافرين على كفرهم وعدم التأثر بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحق فهو بحل من تضيق طاقة صبره على سفاهة أولئك الكافرين، فأردف الله ما تقدم بما يدفع هذا الضيق عن نفسه بقوله)ولا تستوي الحسنة ولا السيئة(الآية.
فالحسنة تعم جميع أفراد جنسها وأولاها تبادرا إلى الأذهان حسنة الدعوة إلى الإسلام لما فيها من جم المنافع في الآخرة والدنيا، وتشمل صفة الصفح عن الجفاء الذي يلقى به المشركون دعوة الإسلام لأن الصفح من الإحسان، وفيه ترك ما يثير حميتهم لدينهم ويقرب لين نفوس ذوي النفوس اللينة.

صفحة : 3819

فالعطف على هذا من عطف غرض على غرض، وهو الذي عنه بعطف القصة على القصة، وهي تمهيد وتوطئة لقوله عقبها)ادفع بالتي هي أحسن(الآية.

وقد علمت غير مرة أن نفي الاستواء ونحوه بين شيئين يراد به غالبا تفضيل أحدهما على مقابلة بحسب دلالة السياق كقوله تعالى) أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون(. وقول الأعشى:

ما يجعل الجد الضنون الذي جنب صوب اللجب الماطر

مثل الفراتي إذا ما طـمـا يقذف بالبوصي والماهـر فكان مقتضى الظاهر أن يقال: ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، دون إعادة)لا(النافية بعد الواو الثانية كما قال تعالى) وما يستوي الأعمى والبصير(، فإعادة)لا(النافية تأكيد لأختها السابقة. وأحسن من اعتبار التأكيد أن يكون في الكلام إيجاز حذف مؤذن باحتباك في الكلام، تقديره: وما تستوي الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة. فالمراد بالأول نفي أن تلتحق فضائل الحسنة مساوي السيئة، والمراد الثاني نفي أن تلتحق السيئة بشرف الحسنة. وذلك هو الاستواء في الخصائص، وفي ذلك تأكيد وتقوية لنفي المساواة ليدل على أنه نفي تام بين الجنسين: جنس الحسنة وجنس السيئة لا مبالغة فيه ولا مجاز، وقد تقدم الكلام على نظيره في سورة فاطر.

وفي التعبير بالحسنة والسيئة دون المحسن والمسيء إشارة إلى أن كل فريق من هذين قد بلغ الغاية في جنس وصفه من إحسان وإساءة على طريقة الوصف بالمصدر، وليتأتى الانتقال إلى موعظة تهذيب الخلاق في قوله)ادفع بالتي هي أحسن(، فيشبه أن يكون إيثار نفي المساواة بين الحسنة والسيئة توطئة للانتقال إلى قوله) ادفع بالتي هي أحسن(.

وقوله)ادفع بالتي هي أحسن(يجري موقعه على الوجهين المتقدمين في عطف جملة)ولا تستوي الحسنة ولا السيئة(.

فالجملة على الوجه الأول من وجهي موقع جملة)ولا تستوي الحسنة ولا السيئة(تخلص من غرض تفضيل الحسنة على السيئة إلى الأمر بخلق الدفع بالتي هي أحسن لمناسبة أن ذلك الدفع من آثار تفضيل الحسنة على السيئة إرشاد من الله لرسوله وأمته بالتخلق بخلق الدفع بالحسنى.

وهي على الوجه الثاني من وجهي موقع جملة)ولا تستوي الحسنة ولا السيئة(واقعة موقع النتيجة من الدليل والمقصد من المقدمة، فمضمونها ناشئ عن مضمون التي قبلها.

وكلا الاعتبارين في الجملة الأولى مقتض أن تكون جملة)ادفع بالتي هي أحسن(مفصولة غير معطوفة.

وإنما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك لأن منتهى الكمال البشري خلقه كما قال)إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق(وقالت عائشة لما سئلت عن خلقه)كان خلقه القرآن(لأنه أفضل الحكماء.

والإحسان كما ذاتي ولكنه قد يكون تركه محمودا في الحدود ونحوها فذلك معنى خاص. والكمال مطلوب لذاته فلا يعدل عنه ما استطاع ما لم يخش فوات كمال أعظم، ولذلك قالت عائشة)ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله فيغضب لله(. وتخلق الأمة بهذا الخلق مرغوب فيه قال تعالى)وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله(.

وروى عياض في الشفاء وهو مما رواه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله وابن جرير في تفسيره لما نزل قوله تعالى)خذ العفو(سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عن تأويلها فقال له: حتى أسأل العلم، فأتاه فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك .

ومفعول)ادفع(محذوف دل عليه انحصار المعنى بين السيئة والحسنة، فلما أمر بأن تكون الحسنة مدفوعا به تعين أن المدفوع هو السيئة، فالتقدير: ادفع السيئة بالتي هي أحسن كقوله)ويدرءون بالحسنة السيئة(في سورة الرعد وقوله)ادفع بالتي هي أحسن السيئة(في سورة المؤمنين، و)التي هي أحسن(هي الحسنة، وإنما صيغت بصيغة التفضيل ترغيبا في دفع السيئة بها لأن ذلك يشق على النفس فإن الغضب من سوء المعاملة من طباع النفس وهو يبعث على حب الانتقام من المسيء فلما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يجازي السيئة بالتي هي بالحسنة أشير إلى فضل ذلك. وقد ورد في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح . وقد قيل: إن ذلك وصفه في التوراة.

صفحة : 3820

وفرع على هذا الأمر قوله)فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأن ولي حميم(لبيان ما في ذلك الأمر من الصلاح ترويضا على التخلق بذلك الخلق الكريم، وهو أن تكون النفس مصدرا للإحسان. ولما كانت الآثار الصالحة تدل على صلاح مثارها. وأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالدفع بالتي هي أحسن أردفة بذكر بعض محاسنه وهو أن يصير العدو كالصديق، وحسن ذلك ظاهر مقبول فلا جرم أن يدل حسنه على حسن سببه.

ولذكر المثل والنتائج عقب الإرشاد شان ظاهر في تقرير الحقائب وخاصة التي قد لا تقبلها النفوس لأنها شاقة عليها، والعداوة مكروهة والصداقة والولاية مرغوبة، فلما كان الإحسان لمن أساء يدينه من الصداقة أو يكسبه إياها كان ذلك من شواهد مصلحة الأمر بالدفع بالتي هي أحسن.

و)إذا(للمفاجأة، وهي كناية عن سرعة ظهور أثر الدفع بالتي هي أحسن في انقلاب العدو صديقا.

وعدل ذكر العدو معرفا بلام الجنس إلى ذكر باسم الموصول ليتأتى تنكير عداوة للنوعية وهو أصل التنكير فيصدق بالعداوة القوية ودونها، كما أن ظرف)بينك وبينه(يصدق بالبين القريب والبين البعيد، أعني ملازمة العداوة أو طروها.

وهذا تركيب من أعلى طرف البلاغة لأنه يجمع أحوال العداوات فيعلم أن الإحسان ناجح في اقتلاع عداوة المحسن إليه للمحسن على تفاوت مراتب العداوة قوة وضعفا، وتمكنا وبعدا، ويعلم أنه ينبغي أن يكون الإحسان للعدو قويا بقدر تمكن عداوته ليكون أنجع في اقتلاعها. ومن الأقوال المشهورة: النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.

والتشبيه في قوله)كأنه ولي حميم(، تشبيه في زوال العداوة ومخالطة شوائب المحبة، فوجه الشبه هو المصافاة والمقاربة وهو معنى متفاوت الأحوال، أي مقول على جنسه بالتشكيك على اختلاف تأثر النفس بالإحسان وتفاوت قوة العداوة قبل الإحسان، ولا يبلغ مبلغ المشبه به إذ من النادر أن يصير العدو وليا حميما، فإن صاره فهو لعوارض غير داخلة تحت معنى الإسراع الذي آذنت به) إذا(الفجائية.

والعداوة التي بين المشركين وبين النبي صلى الله عليه وسلم عداوة في الدين، فالمعنى: فإذا الذي بينك وبينه عداوة لكفره، فلذلك لا تشمل الآية من آمنوا بعد الكفر فزالت عدواتهم للنبي صلى الله عليه وسلم لأجل إيمانهم كما زالت عداوة عمر رضي الله عنه بعد إسلامه حتى قال يوما للنبي صلى الله عليه وسلم : لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي، وكما زالت عداوة هند بنت عتبة زوج أبي سفيان إذ قالت للنبي صلى الله عليه وسلم ما كان أهل خباء أحب إلي من أن يذلوا من أهل خبائك واليوم ما أهل خباء أحب إلي من أن يعزوا من أهل خبائك فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم وأيضا، أي وستزيدين حبا.

وعن مقاتل: أنه قال: هذه الآية نزلت في أبي سفيان كان عدوا للنبي صلى الله عليه وسلم في لجاهلية فصار بعد إسلامه وليا

مصافيا. وهو وإن كان كما قالوا فلا أحسب أن الآية نزلت في ذلك لأنها نزلت في اكتساب المودة بالإحسان.
والولي: اسم مشتق من الولاية بفتح الواو، والولاء، وهو: الحليف والناصر، وهو ضد العدو، وتقدم في غير آية من القرآن.
والحميم: القريب والصديق. ووجه الجمع بين)ولي حميم(أنه جمع خصلتين كلتاهما لا تجتمع مع العداوة وهما خصلتا الولاية والقرابة.
)وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم[35]
(عطف على جملة)ادفع بالتي هي أحسن(، أو حال من)التي هي أحسن(، وضمير)يلقاها(عائد إلى)التي هي أحسن(باعتبار تعلقها بفعل)ادفع(، أي بالمعاملة والمدافعة التي هي أحسن، فأما مطلق الحسنة فقد يحصل لغير الذين صبروا.
وهذا تحريض على الارتياض بهذه الخصلة بإظهار احتياجها إلى قوة عزم وشدة مراس للصبر على ترك هوى النفس في حب الانتقام، وفي ذلك تنويه بفضلها بأنها تلازمها خصلة الصبر وهي في ذاتها خصلة حميدة وثوابها جزيل كما علم من عدة آيات في القرآن، وحسبك قوله تعالى)إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر(.
فالصابر مرتاض بتحميل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ فيهون عليه ترك الانتقام.

صفحة : 3821

و)يلقاها(يجعل لاقيا لها، أي كقوله تعالى)ولقاهم نضرة وسرورا(، وهو مستعار للسعي لتحصيلها لأن التحصيل على الشيء بعد المعالجة والتخلق يشبه السعي لملاقاة أحد فيلقاه.
وجيء في)يلقاها(بالمضارع في الموضعين باعتبار أن المأمور بالدفع بالتي هي أحسن مأمور بتحصيل هذا الخلق في المستقبل، وجيء في الصلة وهي)الذين صبروا(بالماضي للدلالة على أن الصبر خلق سابق فيهم هو العون على معاملة المسيء بالحسنى، ولهذه النكتة عدل عن أن يقال: إلا الصابرون، لنكتة كون الصبر سجية فيهم متأصلة.
ثم زيد في التنويه بها بأنها ما تحصل إلا لذي حظ عظيم.
والحظ: النصيب من الشيء مطلقا، وقيل: خاص بالنصيب من خير، والمراد هنا: نصيب الخير، بالقرينة أو بدلالة الوضع، أي ما يحصل دفع السيئة بالحسنة إلا لصاحب نصيب عظيم من الفضائل، أي من الخلق الحسن والاهتداء والتقوى.

فتحصل من هذين أن التخلق بالصبر شرط في الاضطلاع بفضيلة دفع السيئة بالتي هي أحسن، وأنه ليس وحده شرطا فيها بل وراءه شروط أخر يجمعها قوله)حظ عظيم(، أي من الأخلاق الفاضلة، والصبر من جملة الحظ العظيم لأن الحظ العظيم أعم من الصبر، وإنما خص الصبر بالذكر لأنه أصلها ورأس أمرها وعمودها.

وفي إعادة فعل)وما يلقاها(دون اكتفاء بحرف العطف إظهار لمزيد الاهتمام بهذا الخبر بحيث لا يستتر من صريحة شيء تحت العطف.

وأفاد)ذ حظ عظيم(الحظ العظيم من الخبر سجيته وملكته كما اقتضته إضافة)ذو(.

وحاصل ما أشار إليه الجملتان أن مثلك من يتلقى هذه الوصية وما هي بالأمر الهين لكل أحد.

)وإما ينزغنك من الشيطان نزع فاستعذ بلله إنه هو السميع العليم[36](عطف على جملة)وما يلقاها إلا الذين صبروا(، فبعد أن أرشد إلى ما هو عون على تحصيل هذا الخلق المأمور به وهو دفع السيئة بالتي هي أحسن، وبعد أن شرحت فائدة العمل بها بقوله) فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم(صرف العنان هنا إلى التحذير من عوائقها التي تجتمع كثرتها في حقيقة نزغ الشيطان، فأمر بأنه إن وجد في نفسه خواطر تصرفه عن ذلك وتدعوه إلى دفع السيئة بمثلها فإن ذلك نزع من الشيطان دواؤه أن تستعيذ بالله منه فقد ضمن الله له أن يعيذه إذا استعاذة لأنه أمره بذلك، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم.

وفائدة هذه الاستعاذة تجديد داعية العصمة المركوزة في نفس النبي صلى الله عليه وسلم لأن الاستعاذة بالله من الشيطان استمداد للعصمة وصقل لزكاء النفس مما قد يقترب منها من الكدرات. وهذا سر من الاتصال بين النبي صلى الله عليه وسلم وربه وقد أشار إليه قول النبي صلى الله عليه وسلم إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة ، فبذلك تسلم نفسه من أن يغشاها شيء من الكدرات ويلحق به في ذلك صالحو المؤمنين.

وفي الحديث القدسي عند الترمذي ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببت كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه .

ثم يلتحق بذلك بقية المؤمنين على تفاوتهم كما دل عليه حديث ابن مسعود عند الترمذي قال النبي صلى الله عليه وسلم إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر

وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان .

والنزغ: النخس، وحقيقته: مس شديد للجلد بطرف عود أو إصبع، فهو مصدر، وهو هنا مستعار لاتصال القوة الشيطانية بخواطر الإنسان تأمره بالشر وتصرفه عن الخير، وتقدم في قوله تعالى) وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم (في سورة الأعراف وإسناد)ينزغنك(إلى)نزع(مجاز عقلي من باب: جد جده، و)من(ابتدائية.

ويجوز أن يكون المراد بالنزغ هنا: النازغ، وهو الشيطان، وصف بالمصدر للمبالغة، و)من(بيانية، أي ينزغنك النازغ الذي هو الشيطان. والمبالغة حاصلة على التقديرين مع اختلاف جهتها.

صفحة : 3822

وجيء في هذا الشرط ب)إن(التي الأصل فيها عدم الجزم بوقوع الشرط ترفيعا لقدر النبي صلى الله عليه وسلم فإن نزغ الشيطان له إنما يفرض كما يفرض المحال، ألا ترى إلى قوله تعالى)إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون(فجاء في ذلك الشرط بحرف)إذا(التي الأصل فيها الجزم بوقوع الشرط أو بغلبة وقوعه.

و)ما(زائدة بعد حرف الشرط لتوكيد الربط بين الشرط وجوابه وليست لتحقيق حصول الشرط فإنها تزداد كثيرا بعد)إن(دون أن تكون دالة على الجزم بوقوع فعل الشرط.

وضمير الفصل في قوله)إنه هو السميع العليم(لتقوية الحكم وهو هنا حكم كنائي لأن المقصود لازم وصف السميع العليم وهو مؤاخذة من تصدر منهم أقوال وأعمال في أذى النبي صلى الله عليه وسلم والكيد له ممن أمر بأن يدفع سيئاتهم بالتي هي أحسن.

والمعنى: فإن سول لك الشيطان أن لا تعامل أعداءك بالحسنة وزين لك الانتقام وقال لك: كيف تحسن إلى أعداء الدين، وفي الانتقام منهم قطع كيدهم للدين، فلا تأخذ بنزغه وخذ بما أمرناك واستعذ بالله من أن يزلك الشيطان فإن الله لا يخفى عليه أمر أعدائك وهو يتولى جزاءهم.

)ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون[37](عطف على جملة)قل أينكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين(الآية

عطف القصة فإن المقصود من ذكر خلق العوالم أنها دلائل على انفراد الله بالإلهية، فلذلك أخبر هنا عن المذكورات في هذه الجملة بأنها من آيات الله انتقالا في أفانين الاستدلال فإنه انتقال من الاستدلال بذوات من مخلوقاته إلى الاستدلال بأحوال من أحوال تلك المخلوقات، فابتدئ ببعض الأحوال السماوية وهي حال الليل والنهار، وحال طلوع الشمس وطلوع القمر، ثم ذكر بعده بعض الأحوال الأرضية بقوله)ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة(.

ويدل لهذا الانتقال أنه من أسلوب الغيبة من قوله)فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة(إلى قوله)ولا تستوي الحسنة ولا السيئة(إلى أسلوب خطابهم رجوعا إلى خطابهم الذي في قوله)أينكم لتكفرون بالذي خلق الأرض(.

والآيات: الدلائل، وإضافتها إلى ضمير الله لأنها دليل على وحدانيته وعلى وجوده.

واختلاف الليل والنهار آية من آيات القدرة التي لا يفعلها غير الله تعالى، فلا جرم كانت دليلا على انفراده بالصنع فهو منفرد بالإلهية. وتقدم الكلام على الليل والنهار عند قوله تعالى في سورة البقرة) إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار(.

والمراد بالشمس والقمر ابتداء هنا حركتهما المنتظمة المستمرة، وأما خلقهما فقد علم من خلق السماوات والأرض كما تقدم آنفا في قوله)فقضاهن سبع سماوات(، فإن الشمس إحدى السماوات السبع والقمر تابع للشمس، ولم يذكر ما يدل على بعض أحوال الشمس والقمر مثل طلوع أو غروب أو فلك أو نحو ذلك ليكون صالحا للاستدلال بأحوالهما وهو المقصود الأول، ولخلقهما تأكيد لما استفيد من قوله)فقضاهن سبع سماوات(توفيرا للمعاني.

ولما جرى الاعتبار بالشمس والقمر وكان في الناس أقوام عبدوا الشمس والقمر وهم الصابئة ومنبعهم من العراق من زمن إبراهيم عليه السلام، وقد قص الله خبرهم في سورة الأنعام في قوله) فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي(الآيات، ثم ظهر هذا الدين في سبأ، عبدوا الشمس كما قصه الله في سورة النمل.

ولم أقف على أن العرب في زمن نزول القرآن كان منهم من يعبد الشمس والقمر، ويظهر من كلام الزمخشري أنه لم يقف على ذلك لقوله هنا لعل ناسا منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر اه. ولكن وجود عبادة الشمس في اليمن أيام سبأ قبل أن يتهودوا يقتضي بقاء آثاره من عبادة الشمس في بعض بلاد العرب. وقد ذكر من أصنام العرب صنم اسمه شمس وبه سموا عبد شمس ، وكذلك جعلهم من أسماء الشمس الإلهة، قالت مية بنت أم عتبة:

تروحنا من العباء عصرا فاعجلنا
الإلهة أن تؤوبا وكان الصنم الذي اسمه شمس يعبده بنو تميم وضبة وتميم وعكل واد. وكنت وقفت على أن بعض كنانة عبدوا القمر.

صفحة : 3823

وفي تلخيص التفسير للكواشي وكان الناس يسجدون للشمس والقمر يزعمون أنهم يقصدون بذلك السجود لله كالصابئين فنهوا عن ذلك وأمروا أن يخصوه تعالى بالعبادة وليس فيه أن هؤلاء الناس من العرب، على أن هدي القرآن لا يختص بالعرب بل شيوع دين الصائبة في البلاد المجاورة لهم كاف في التحذير من السجود للشمس والقمر.
وقد كان العرب يحسبون دين الإسلام دين الصابئة فكانوا يقولون لمن أسلم: صبأ، وكانوا يصفون النبي صلى الله عليه وسلم بالصابئ، فإذا لم يكن النهي في قوله)لا تسجدوا للشمس ولا للقمر(نهي إقلاع بالنسبة للذين يسجدون للشمس والقمر، فهو نهي تحذير لمن لم يسجد لهما أن لا يتبعوا من يعبدونهما.
ووقوع قوله)واسجدوا لله الذي خلقهن(بعد النهي عن السجود للشمس والقمر يفيد مفاد الحصر لأن النهي بمنزلة النفي، ووقوع الإثبات بعده بمنزلة مقابلة النفي بالإيجاب، فإنه بمنزلة النفي والاستثناء في إفادة الحصر كما تراه في قول السموأل أو عبد الملك الحارثي:
تسيل على حد الظبات نفوسنا
وليست على غير الظبات تسيل فكأنه قيل: لا تسجدوا إلا لله، أي دون الشمس والقمر.
فجملة)لا تسجدوا للشمس(إلى قوله)تعبدون(معترضة بين جملة)ومن آياته الليل والنهار(، وبين جملة)فإن استكبروا(.
وفي هذه الآية موضع سجود من سجود التلاوة، فقال مالك وأصحابه عدا ابن وهب: السجود عند قوله تعالى)إن كنتم إياه تعبدون(وهو قول علي بن أبي طالب وابن مسعود، وروي عن الشافعي. وقال أبو حنيفة والشافعي في المشهور عنه وابن وهب: هي عند قوله)وهم لا يسأمون(، وهو عن ابن عمر وابن عباس وسعيد بن المسيب.

)فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون[38](الفاء للتفريع على نهيهم عن السجود للشمس والقمر وأمرهم بالسجود لله وحده، أي فإن استكبروا أن يتبعوك وصمموا على السجود للشمس والقمر، أو فإن استكبروا عن الاعتراف بدلالة الليل والنهار والشمس والقمر على تفرد الله بالإلهية فيعم ضمير)استكبروا(جميع المشركين فالله غني عن عبادتهم إياه.

والاستكبار: قوة التكبر، فالسين والتاء للمبالغة وأصل السين والتاء المستعملين للمبالغة هما السين والتاء للحسبان، أي عدوا أنفسهم ذوي كبر شديد من فرط تكبرهم.

وجملة)فالذين عند ربك(دليل جواب الشرط. والتقدير: فإن تكبروا عن السجود لله فهو غني عن سجودهم، لأن له عبيدا أفضل منهم لا يفترون عن التسبيح له بإقبال دون سآمة.

والمراد بالتسبيح: كل ما يدل على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به بإثبات أضداد ما لا يليق به أو نفي ما لا يليق، وذلك بالأقوال قال تعالى)والملائكة يسبحون بحمد ربهم(، أو بالأعمال قال)ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون(وذلك ما يقتضيه قوله)وهم لا يسأمون(من كون ذلك التسبيح قولا وملا وليس مجرد اعتقاد.

والعندية في قوله)عند ربك(عندية تشريف وكرامة كقوله في سورة الأعراف)إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون(. وهؤلاء الملائكة هم العامرون للعوالم العليا التي جعلها الله مشرفة بأنها لا يقع فيها إلا الفضيلة فكانت بذلك أشد اختصاصا به تعالى من أماكن غيرها قصدا لتشريفها.

والسآمة: الضجر والملل من الإعياء. وذكر الليل والنهار هنا لقصد استيعاب الزمان، أي يسبحون له الزمان كله.

وجملة)وهم لا يسأمون(في موضع الحال وهو أوقع من محمل العطف لأن كون الإخبار عنهم مقيدا بهذه الحال أشد في إظهار عجيب حالهم إذ شأن العمل الدائم أن يسلم منه عامله.

)ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت(عطف على جملة)ومن آياته الليل والنهار(، وهذا استدلال بهذا الصنع العظيم على أنه تعالى منفرد بفعله فهو دليل إلهيته دون غيره لأن من يفعل ما لا يفعله غيره هو الإله الحق وإذا كان كذلك لم يجز أن يتعدد لكون من لا يفعل مثل فعله ناقص القدرة، والنقص ينافي الإلهية كما قال)أفمن يخلق كمن لا يخلق(.

والخطاب في قوله)أنك(لغير معين ليصلح لكل سامع.

والخشوع: التذلل، وهو مستعار لحال الأرض إذا كانت مقحطة لا نبات عليها لأن حالها في تلك الخصاصة كحال المتذلل، وهذا من تشبيه المحسوس بالمعقول باعتبار ما يتخيله الناس من مشابهة اختلاف حالي القحولة والخصب بحالي التذلل والازدهاء.
والاهتزاز حقيقته: مطاوعة هزه، إذا حركه بعد سكونه فتحرك. وهو هنا مستعار لربو وجه الأرض بالنبات، شبه حال إنباتها وارتفاعها بالماء والنبات بعد أن كانت منخفضة خامدة بالاهتزاز.
ويؤخذ من مجموع ذلك أن هذا التركيب تمثيل، شبه حال قحولة الأرض ثم إنزال الماء عليها وانقلابها من الجدوبة إلى الخصب والإنبات البهيج بحال شخص كان كاسف البال رث اللباس فأصابه شيء من الغنى فلبس الزينة واختال في مشيته زهوا، ولذا يقال: هز عطفيه، إذا اختال في مشيته.
وفي قوله)خاشعة(و)اهتزت(مكنية بأن شبهت بشخص كان ذليلا ثم صار مهتزا لعطفيه ورمز إلى المشبه بهما بذكر رديفيهما. فهذا من أحسن التمثيل وهو الذي يقبل تفريق أجزائه في أجزاء التشبيه.
وعطف)وربت(على)اهتزت(لأن المقصود من الاهتزاز هو ظهور النبات عليها وتحركه. والمقصود بالربو: انتفاخها بالماء واعتلاؤها.
وقرأ أبو جعفر)وربأت(بهمزة بعد الموحدة من)ربأ(بالهمز، إذا ارتفع.
.
وقرأ أبو جعفر)وربأت(بهمزة بعد الموحدة من)ربأ(بالهمز، إذا ارتفع.
)إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير[39](إدماج لإثبات البعث في أثناء الاستدلال على تفرده تعالى بالخلق والتدبير، ووقوعه على عادة القرآن في التفنن وانتهاز فرص الهدى إلى الحق.
والجملة استئناف ابتدائي والمناسبة مشابهة الإحياءين، وحرف التوكيد لمراعاة إنكار المخاطبين إحياء الموتى.
وتعريف المسند إليه بالموصولية لما في الموصول من تعليل الخبر، وشبه إمداد الأرض بماء المطر الذي هو سبب انبثاق البزور التي في باطنها التي تصير نباتا بإحياء الميت، فأطلق على ذلك) أحياها(على طريق الاستعارة التبعية، ثم ارتقي من ذلك إلى جعل ذلك الذي سمي إحياء لأنه شبيه الإحياء دليلا على إمكان إحياء الموتى بطريقة قياس الشبه، وهو المسمى في المنطق قياس

التمثيل بحجة قطعية، بل هو إقناعي ولكنه هنا يصير حجة لأن المقيس عليه وإن كان أضعف من المقيس إذ المشبه لا يبلغ قوة المشبه به، فالمشبه به حيث كان لا يقدر على فعله إلا الخالق الذي اتصف بالقدرة التامة لذاته فقد تساوى فيه قويه وضعيفه، وهم كانوا يحيلون إحياء الأموات استنادا للاستبعاد العادي، فلما نظر إحياء الأموات بإحياء الأرض المشبه تم الدليل الاقناعي المناسب لشبهتهم الإقناعية. وقد أشار إلى هذا تذييله بقوله)إنه على كل شيء قدير(.

)إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا(استئناف ابتدائي قصد به تهديد الذين أهملوا الاستدلال بآيات الله على توحيده.

وقوله)لا يخفون علينا(مراد به الكناية عن الوعيد تذكيرا لهم بإحاطة علم الله بكل كائن، وهو متصل المعنى بقوله آنفا)وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم(الآية.

والإلحاد حقيقته: الميل عن الاستقامة، والآيات تشمل الدلائل الكونية المتقدمة في قوله)قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين(وقوله)ومن آياته الليل والنهار(الخ. وتشمل الآيات القولية المتقدمة في قوله)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه(.

فالإلحاد في الآيات مستعار للعدول والانصراف عن دلالة الآيات الكونية على ما دلت عليه. والإلحاد في الآيات القولية مستعار للعدول عن سماعها وللطعن في صحتها وصرف الناس عن سماعها.

وحرف)في(من قوله تعالى)في آيتنا(للظرفية المجازية لإفادة تمكن إلحادهم حتى كأنه مظروف في آيات الله حيثما كانت أو كلما سمعوها.

ومعنى نفي خفائهم: نفي خفاء إلحادهم لا خفاء ذواتهم إذ لا غرض في العلم بذواتهم.

)أفمن يلقى في النار أم من يأتي آمنا يوم القيامة(تفريع على الوعيد في قوله)لا يخفون علينا(لبيان أن الوعيد بنار جهنم تعريض بالمشركين بأنهم صائرون إلى النار، وبالمؤمنين بأنهم آمنون من ذلك. والاستفهام تفريع مستعمل في التنبيه على تفاوت المرتبتين.

صفحة : 3825

وكني بقوله)يأتي آمنا(أن ذلك الفريق مصيره الجنة إذ لا غاية للآمن إلا أنه في نعيم. وهذه كناية تعريضية بالذين يلحدون في آيات الله.

وفي الآية محسن الاحتباك، إذ حذف مقابل)من يلقى في النار(وهو: من يدخل الجنة، وحذف مقابل)من يأتي آمنا(وهو: من يأتي خائفا، وهم أهل النار.

)اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير[40](الجملة تذييل لجملة) إن الذين يلحدون في آياتنا(الخ، كما دل عليه قوله عقبه)إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم(الآية، أي لا يخفى علينا إلحادهم ولا غيره من سيئ أعمالهم. وإنما خص الإلحاد بالذكر ابتداء لأنه أشنع أعمالهم ومصدر أسوئها.

والأمر في قوله)إنه بما تعملون بصير(وعيد بالعقاب على أعمالهم على وجه الكناية.

وتوكيده ب)إن(لتحقيق معنييه الكنائي والصريح، وهو تحقيق إحاطة علم الله بأعمالهم لأنهم كانوا شاكين في ذلك كما تقدم في قصة الثلاثة الذين نزل فيهم قوله تعالى)وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم(الآية.

ولبصير: العليم بالمبصرات.

)إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز[41] لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[42] (أعقب تهديدهم على الإلحاد في آيات الله على وجه العموم بالتعرض إلى إلحادهم في آيات القرآن وهو من ذكر الخاص بعد العام للتنويه بخصال القرآن وأنه ليس بعرضة لأن يكفر به بل هو جدير بأن يتقبل بالاقتداء والاهتداء بهديه، فلهذه الجملة اتصال في المعنى بجملة)إن الذين يلحدون في آياتنا(واتصال في الموقع بجملة)اعملوا ما شئتم(.

وتحديد هذين الاتصالين اختلفت فيه آراء المفسرين، وعلى اختلافهم فيهما جرى اختلافهم في موقعها من الإعراب وفي موقع أجزائها من تصريح وتقدير.

فجعل صاحب الكشاف قوله)إن الذين كفروا بالذكر(بدلا من قوله)إن الذين يلحدون في آياتنا(، وهو يريد أنه إبدال المفرد من المفرد بدلا مطابقا أو بدل اشتمال، وأنه بتكرير العامل وهو حرف)إن(وأن كانت إعادة العامل مع البدل غير مشهور إلا في حرف الجر كما قال الرضي، فكلام الزمخشري في المفصل يقتضي الإطلاق، وإن كان أتى بمثالين عاملهما حرف جر.

وعلى هذا لقول لا يقدر خبر لأن الخبر عن المبدل منه خبر عن البدل وهو قوله)لا يخفون علينا(.

وعن أبي عمرو بن العلاء والكسائي وعمرو بن عبيد ما يقتضي إنهم يجعلون جملة)إن الذين كفروا بالذكر(جملة مستقلة لأنهم

جعلوا ل)إن(خبرا. فأما أبو عمرو فقال: خبر)إن(قوله)أولئك ينادون من مكان بعيد(.
حكي أن بلال بن أبي بردة سئل في مجلس أبي عمرو بن العلاء عن خبر)إن(فقال: لم أجد لها نفاذا، فقال له أبو عمرو: إنه منك لقريب)أولئك ينادون من مكان بعيد(. وهو يقتضي جعل الجمل التي بين اسم)إن(وخبرها جملا معترضة وهي نحو سبع. وأما الكسائي وعمرو بن عبيد فقدروا خبرا لاسم)إن(فقال الكسائي: الخبر محذوف دل عليه قوله قبله)أفمن يلقى في النار خير(، فنقدر الخبر: يلقون في النار، مثلا. وسأل عيسى بن عمر عمرو بن عبيد عن الخبر، فقال عيسى: أجدت يا أبا عثمان. ويجئ على قول هؤلاء أن تكون الجملة بدلا من جملة)إن الذين يلحدون في آياتنا(بدل اشتمال إن أريد بالآيات في قوله)في آياتنا(مطلق الآيات، أو بدلا مطابقا إن أريد بالآيات آيات القرآن.
وقيل الخبر قوله)ما يقال لك إلا ما قيل للرسل من قبلك(، أي ما يقال لك فيهم إلا ما قد قلنا للرسل من قبلك في مكذبيهم، أو ما يقولون إلا كما قاله الأمم للرسل من قبلك، وما بينهما اعتراض.
والكفر بالقرآن يشمل إنكار كل ما يوصف به القرآن من دلائل كونه من عند الله وما اشتمل عليه مما خالف معتقدهم ودين شركهم وذلك بالاختلافات التي يختلفونها كقولهم: سحر، وشعر، وقول كاهن، وقول جنون ولو نشاء لقلنا مثل هذا، وأساطير الأولين، وقلوبنا في أكنة، وفي آذاننا وقر.
والأظهر أن تكون جملة)إن الذين كفروا بالذكر(الخ واقعة موقع التعليل للتهديد بالوعيد في قوله)لا يخفون علينا(. والمعنى: لأنهم ما أوصي إلى الرسل ن قوله.
وموقع)إن(موقع فاء التعليل. وخبر)إن(محذوف دل عليه سياق الكلام.

صفحة : 3826

والأحسن أن يكون تقديره بما يدل عليه جملة الحال من جلالة الذكر ونفاسته، فيكون التقدير: خسروا الدنيا والآخرة، أو استفهموا أنفسهم أو نحو ذلك مما تذهب إليه نفس السامع البليغ، ففي هذا الحذف توفير للمعاني وإيجاز في اللفظ يقوم مقام عدة جمل، وحذف خبر)إن(إذا دل عليه دليل وارد في الكلام. وأجازه سيبويه في باب ما يحسن السكوت عليه من هذه الحرف الخمسة، وتبعه الجمهور، وخالفه الفراء فشرطه بتكرر)إن(. ومن الحذف قوله تعالى

)إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام(الآية في سورة الحج، وأنشد سيبويه:

يا ليت أيام الصبا رواجعا إذ روي بنصب رواجعا على الحال

فلم يذكر خبر ليت وذكر أن العرب بقولون)إن مالا وإن ولدا(أي إن لهم، وقول الأعشى:

إن محلا وإن مرتحلا أي أن لنا في الدنيا حلولا ولنا عنها مرتحلا، إذ ليس بقية البيت وهو قوله:

وإن في السفر إذ مضوا مهلا. ما يصح وقوعه خبرا عن) إن(الأولى. وقال جميل:

وقالوا نراها يا جميل تنكرت وغيرها الواشي فقلت لعلها وقال الجاحظ في البيان في باب من الكلام المحذوف: عن الحسن أن المهاجرين قالوا)يا رسول الله إن الأنصار آوونا ونصرونا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: تعرفون ذلك لهم، قالوا: نعم، قال فإن ذلك ليس في الحديث غير هذا يريد فإن ذلك شكر ومكافأة اه. وفي المقامة الثالثة والأربعين حسبك يا شيخ فقد عرفت فنك، واستبنت أنك أي أنك أبو زيد. وقد مثل في شرح التسهيل لحذف خبر)إن(بهذه الآية.

وجملة)وإنه لكتاب(الخ في موضع الحال من الذكر، أي كفروا به في حاله هذا، ويجوز أن تكون الجملة عطفا على جملة)إن الذين كفروا بالذكر(على تقدير خبر)إن(المحذوف.

وقد أجري على القرآن ستة أوصاف ما منها واحد إلا وهو كمال عظيم: الوصف الأول: نه ذكر، أي يذكر الناس كلهم بما يغفلون عنه مما في الغفلة عنه فوات فوزهم.

الوصف الثاني من معنى الذكر: إنه ذكر للعرب وسمعة حسنة لهم بين الأمم يخلد لهم مفخرة عظيمة وهو كونه بلغتهم ونزل بينهم كما قال تعالى)وإنه لذكر لك ولقومك(وفي قوله)لما جاءهم(إشارة إلى هذا المعنى الثاني.

الوصف الثالث: أنه كتاب عزيز، والعزيز النفيس، وأصله من العزة وهي المنعة لأن الشيء النفيس يدافع عنه ويحمى عن النبذ فإنه بين الإتقان وعلو المعاني ووضوح الحجة ومثل ذلك يكون عزيزا، والعزيز أيضا: الذي يغلب ولا يغلب، وكذلك حجج القرآن.

الوصف الرابع: أنه لا يتطرقه الباطل ولا يخالطه صريحه ولا ضمنيه، أي لا يشتمل على الباطل بحال. فمثل ذلك ب) من بين يديه ومن خلفه(. والمقصود استيعاب الجهات تمثيلا لحال انتفاء الباطل عنه في ظاهره وفي تأويله بحال طرد المهاجم ليضر بشخص يأتيه من بين يديه فإن صده خاتله فأتاه من خلفه، وقد تقدم في قوله تعالى)ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم(.

فمعنى)لا يأتيه الباطل(لا يوجد فيه ولا يداخله، وليس المراد أنه لا يدعى عليه الباطل.
الوصف الخامس: أنه مشتمل على الحكمة وهي المعرفة الحقيقة لأنه تنزيل من حكيم، ولا يصدر عن الحكيم إلا الحكمة)ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا(فإن كلام الحكيم يأتي محكما متقنا رصينا لا يشوبه الباطل.
الوصف السادس: أنه تنزيل من حميد، والحميد هو المحمود حمدا كثيرا، أي مستحق الحمد الكثير، فالكلام المنزل منه يستحق الحمد وإنما يحمد الكلام إذ يكون دليلا للخيرات وسائقا إليها لا مطعن في لفظه ولا في معناه، فيحمده سامعه كثيرا لأنه يجده مجبلة للخير الكثير، ويحمد قائله لا محالة خلافا للمشركين. ب وفي إجراء هذه الوصاف إيماء إلى حماقة الذين كفروا بهذا القرآن وسفاهة آرائهم إذ فرطوا فيه ففرطوا في أسباب فوزهم في الدنيا وفي الآخرة ولذلك جيء بجملة الحال من الكتاب عقب ذكر تكذيبهم إياه فقال) وإنه لكتاب عزيز(الآيات.
)ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك(

صفحة : 3827

استئناف بياني جواب لسؤال يثيره قوله إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا(، وقوله)إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم(وما تخلل ذلك من الوصاف فيقول سائل: فما بال هؤلاء طعنوا فيه؟ فأجيب بان هذه سنة الأنبياء مع أممهم لا يعدمون معاندين جاحدين يكفرون بما جاءوا به. وإذا بنيت على ما جوزته سابقا أن يكون جملة)ما يقال(خبر)إن(كانت خبرا وليست استئنافا.
وهذا تسلية لنبي صلى الله عليه وسلم بطريق الكناية وأمر له بالصبر على ذلك كما صبر من قبله من الرسل بطريق التعريض.
ولهذا الكلام تفسيران: أحدهما: أن ما يقوله المشركون في القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم هو دأب أمثاله المعاندين من قبلهم فما صدق)ما قد قيل للرسل(هو مقالات الذين كذبوهم، أي تشابهت قلوب المكذبين فكانت مقالاتهم متماثلة قال تعالى)أتواصوا به(.
التفسير الثاني: ما قلنا لك إلا ما قلناه للرسل من قبلك، فأنت لم تكن بدعا من الرسل فيكون لقومك بعض العذر في التكذيب ولكنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم، فما صدق)ما قد قيل للرسل(هو الدين والوحي فيكون من طريقة قوله تعالى)إن هذا لفي الصحف الأولى(. وكلا المعنيين وارد في القرآن فيحمل الكلام على كليهما.

وفي التعبير ب)ما(الموصولة وفي حذف فاعل القولين في قوله) ما يقال(وقوله)ما قد قيل(نظم متين حمل الكلام هذين المعنيين العظيمين، وفي قوله)إلا ما قد قيل للرسل(تشبيه بليغ. والمعنى: إلا مثل ما قد قيل للرسل.

واجتلاب المضارع في)ما يقال(لإفادة تجدد هذا القول منهم وعدم ارعوائهم عنه مع ظهور ما شأنه أن يصدهم عن ذلك.

واقتران الفعل ب)قد(لتحقيق أنه قد قيل للرسل مثل ما قالت المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم فهو تأكيد للازم الخبر وهو لزوم الصبر على قولهم. وهو منظور فيه إلى حال المردود عليهم إذ حسبوا أنهم جابهوا الرسول بما لم يخطر ببال غيرهم، وهذا على حد قوله تعالى)كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم طاغون(.

)إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم[43](تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ووعد بأن الله يغفر له. ووقوع هذا الخبر عقب قوله)ما يقال لك ما قد قيل للرسل من قبلك(يومئ إلى أن هذا الوعد جزاء على ما لقيه من الأذى في ذات الله وأن الوعيد للذين آذوه، فالخبر مستعمل في لازمه.

ومعنى المغفرة له: التجاوز عما يلحقه من الحزن بما يسمع من المشركين من أذى كثير. وحرف)إن(فيه لإفادة التعليل والتسبب لا للتأكد.

وكلمة)ذو(مؤذنة بأن المغفرة والعقاب كليهما من شأنه تعالى وهو يضعهما بحكمته في المواضع المستحقة لكل منهما.

ووصف العقاب ب)أليم(دون وصف آخر للإشارة إلى أنه مناسب لما عوقبوا لأجله فإنهم آلموا نفس النبي صلى الله عليه وسلم بما عصوا وآذوا.

وفي جملة)إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم(محسن الجمع ثم التقسيم، فقوله)ما يقال لك(يجمع قائلا ومقولا له فكان الإيماء بوصف)ذو مغفرة(إلى المقول له، ووصف)ذو عقاب أليم(إلى القائلين، وهو جار على طرقة اللف والنشر المعكوس وقرينة ترد كلا إلى مناسبه.

)ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي(اتصال نظم الكلام من أول السورة إلى هنا وتناسب تنقلاته بالتفريع والبيان والاعتراض والاستطراد يقتضي أن قوله)ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا(إلى آخره تنقل في درج إثبات أن قصدهم العناد فيما يتعللون به ليوجهوا إعراضهم عن القرآن والانتفاع بهديه بما يختلفونه عليه من الطعن فيه والتكذيب به، وتكلف الأعذار الباطلة ليتستروا بذلك من الظهور في مظهر المنهزم المحجوج، فأخذ ينقض

دعاويهم عروة عروة، إذ ابتدئت السورة بتحديهم بمعجزة القرآن بقوله)حم تنزيل من الرحمان الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا(إلى قوله)فهم لا يسمعون(فهذا تحد لهم ووصف للقرآن بصفة الإعجاز.

صفحة : 3828

ثم أخذ في لإبطال معاذيرهم ومطاعنهم بقوله)وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه(، فإن قولهم ذلك قصدوا به أن حجة القرآن غير مقنعة لهم إغاظة منهم للنبي صلى الله عليه وسلم، ثم تمالئهم على الإعراض بقوله)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون(وهو عجز مكشوف بقوله)إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا (وبقوله)إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم (الآيات. فأعقبها بأوصاف كمال القرآن التي لا يجدون مطعنا فيها بقوله)وإنه لكتاب عزيز(الآية.

وإذ قد كانت هذه المجادلات من أول السورة إلى هنا إبطالا لتعللاتهم، وكان عماده على أن القرآن عربي مفصل الدلالة المعروفة في لغتهم حسبما ابتدئ الكلام بقوله)كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون (، وانتهي هنا بقوله)وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه(، فقد نهضت الحجة عليهم بدلالته على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الجهة فانتقل إلى حجة أخرى عمادها الفرض والتقدير أن يكون قد جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقرآن من لغة أخرى غير لغة العرب.

ولذلك فجملة)ولو جعلناه قرآنا أعجميا(معطوفة على جملة)وإنه لكتاب عزيز(على الاعتبارين المتقدمين آنفا في موقع تلك الجملة.

ومعنى الآية متفرع على ما يتضمنه قوله)كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون(وقوله)قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي(من التحدي بصفة الأمية كما علمت آنفا، أي لو جئناهم بلون آخر من معجزة الأمية فأنزلنا على الرسول قرآنا أعجميا، وليس للرسول صلى الله عليه وسلم علم بتلك اللغة من قبل، لقلبوا معاذيرهم فقالوا: لولا بينت آياته بلغة نفهمها وكيف يخاطبنا بكلام أعجمي.

فالكلام جار على طريقة الفرض كما هو مقتضى حرف) لو(الامتناعية. وهذا إبانه على أن هؤلاء القوم لا تجدي معهم الحجة ولا ينقطعون عن المعاذير لأن جدالهم لا يريدون به تطلب الحق وما هو إلا تعنت لترويج هواهم.

ومن هذا النوع في الاحتجاج قوله تعالى)ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين(، أي لو نزلناه بلغة العرب على بعض الأعجمين فقرأه عليهم بالعربية، لاشتراك الحجتين في صفة الأمية في اللغة المفروض إنزال الكتاب بها، إلا أن تلك الآية بينت على فرض أن ينزل هذا القرآن على رسول لا يعرف العربية، وهذه الآية بنيت على فرض أن ينزل القرآن على الرسول العربي صلى الله عليه وسلم بلغة غير العربية.

وفي هذه الآية إشارة إلى عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم للعرب والعجم فلم يكن عجبا أن يكون الكتاب المنزل عليه بلغة غير العرب لولا أن في إنزاله بالعربية حكمة علمها الله، فإن الله لما اصطفى الرسول صلى الله عليه وسلم عربيا وبعثه بين أمة عربية كان أحق اللغات بأن ينزل بها كتابه إليه العربية، إذ لو نزل كتابة بغير العربية لاستوت لغات الأمم كلها في استحقاق نزول الكتاب بها فأوقع ذلك تحاسد بينها بخلاف العرب إذ كانوا في عزلة عن الأمم، فلا جرم رجحت العربية لأنها لغة الرسول صلى الله عليه وسلم ولغة القوم المرسل بينهم فلا يستقيم أن يبقى القوم الذين يدعوهم لا يفقهون الكتاب المنزل إليهم.

ولو تعددت الكتب بعدد اللغات لفاتت معجزة البلاغة الخاصة بالعربية لأن العربية أشرف اللغات وأعلاها خصائص وفصاحة وحسن أداء للمعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة. ثم العرب هم الذين يتولون نشر هذا الدين بين الأمم وتبيين معاني القرآن لهم.

ووقع في تفسير الطبري عن سعيد بن جبير أنه قال: قالت قريش: لولا أنزل هذا القرآن أعجميا وعربيا؟ فأنزل الله)لولا فصلت آياته أعجمي وعربي(بهمزة واحدة على غير مذهب الاستفهام اه. ولا أحسب هذا تأويلا لسعيد ابن جبير لأنه لم يسنده إلى راو، ولم يرو عن غير فرأى أن الآية تنبئ عن جواب كلام صدر عن المشركين المعبر عنهم بضمير)لقالوا(.

وسياق الآية ولفظها ينبو عن هذا المعنى، وكيف و)لو(الامتناعية تمتنع من تحمل هذا التأويل وتدفعه.

صفحة : 3829

وأما ما ذكره في الكشاف)أنهم كانوا لتعنتهم يقولون: هلا نزل القرآن بلغة العجم؟ فقيا: لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت، وقالوا:)لولا فصلت آياته(الخ. فلم نقف على من ذكر مثله من المفسرين وأصحاب أسباب النزول وما هو إلا من صنف ما

روى عن سعيد. ولو كلن كذلك لكان نظم الآية: وقالوا لولا فصلت آياته، ولم يكن على طريقة)لو(وجوابها. ولا يظن بقريش أن يقولوا ذلك إلا إذا كان على سبيل التهكم والاستهزاء.

وضمير)جعلناه(عائد إلى)الذكر(في قوله)إن الذين كفروا بالذكر(.

وقوله)أأعجمي وعربي(بقية ما يقولونه على فرض أن يجعل القرآن أعجميا، أي أنهم لا يخلون من الطعن في القرآن على كل تقدير.

و)لولا(حرف تحضيض.

ومعنى)فصلت(هنا: بينت ووضحت، أي لولا جعلت آياته عربية نفهمها.

والواو في قوله)وعربي(للعطف بمعنى المعية. والمعنى: وكيف يلتقي أعجمي وعربي، أي كيف يكون اللفظ أعجميا والمخاطب به عربيا كأنهم يقولون: أيلقى لفظ أعجمي إلى مخاطب عربي.

ومعنى)قرآنا(كتابا مقروءا. وورد في الحديث تسمية كتاب داود عليه السلام قرآنا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن داود يسر له القرآن فكان يقرأ القرآن كله في حين يسرج له فرسه)أو كما قال(.

والأعجمي: المنسوب إلى أعجم، والأعجم مشتق من العجمة وهي الإفصاح، فالأعجم: الذي لا يفصح باللغة العربية، وزيادة الياء فيه للوصف نحو: أحمري ودواري. فالأعجمي من صفات الكلام.

وأفرد)وعربي(على تأويله بجنس السامع، والمعنى: أكتاب عربي لسامعين عرب فكان حق)عربي(أن يجمع ولكنه أفرد لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمرسل إليهم، فاعتبر فيه الجنس دون أن ينظر إلى إفراد، أو جمع.

وحاصل معنى الآية: أنها تؤذن بكلام مقدر داخل في صفات الذكر، وهو أنه بلسان عربي بلغتكم إتماما لهديكم فلم تؤمنوا به وكفرتم وتعللتم بالتعللات الباطلة فلو جعلناه أعجميا لقلتم: هلا بينت لنا حتى نفهمه.

)قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد[44](هذا جواب تضمنه قوله)ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك(، أي ما يقال من الطعن في القرآن، فجوابه: أن ذلك الذكر أو الكتاب للذين آمنوا هدى وشفاء، أي أن تلك الخصال العظيمة للقرآن حرمهم كفرهم الانتفاع بها وانتفع بها المؤمنون فكان لهم هديا وشفاء. وهذا ناظر إلى ما حكاه عنهم من قولهم)قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر(، فهو إلزام لهم بحكم على أنفسهم.

وحقيقة الشفاء: زوال المرض وهو مستعار هنا للبصارة بالحقائق وانكشاف الالتباس من النفس كما يزول المرض عند حصول الشفاء، يقال: شفيت نفسه، إذا زال حرجه، قال قيس بن زهير:

شفيت النفس من حمل بن بدر

وسيفي من حذيفة قد شفاني ونظيره قولهم: شفي غليله، وبرد غليله، فإن الكفر كالداء في النفس لأنه يوقع في العذاب ويبعث على السيئات.

وجملة)والذين لا يؤمنون(الخ معطوفة على جملة)هو للذين آمنوا هدى(فهي مستأنفة استئنافا ابتدائيا، أي وأما الذين لا يؤمنون فلا تتخلل آياته نفوسهم لأنهم كمن في آذانهم وقر دون سماعه، وهو ما تقدم في حكاية قولهم)وفي آذاننا وقر(، ولهذا الاعتبار كان معنى الجملة متعلقا بأحوال القرآن مع الفريق غير المؤمن من غير تكلف لتقدير جعل الجملة خبرا عن القرآن.

ويجوز أن تكون الجملة خبرا ثانيا عن ضمير الذكر، أي القرآن، فتكون من مقول وكذلك جملة)وهو عليهم عمى(. والإخبار عنه ب) وقر(و)عمي(تشبيه بليغ ووجه الشبه هو عدم الانتفاع به مع سماع ألفاظه، والوقر: داء فمقابلته بالشفاء من محسن الطباق.

وضمير)هو عليهم عمى(يتبادر أنه عائد إلى الذكر أو الكتاب كما عاد ضمير)هو( )للذين آمنوا هدى(. والعمى: عدم البصر، وهو مستعار هن لضد الاهتداء فمقابلته بالهدى فيها محسن الطباق.

صفحة : 3830

والإسناد إلى القرآن على هذا الوجه في معاد الضمير بأنه عليهم عمى من الإسناد المجازي لأن عنادهم في قبوله كان سببا لضلالهم فكان القرآن سبب سبب، كقوله تعالى)وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم(.

ويجوز أن يكون ضمير)وهو(ضمير شأن تنبيها على فظاعة ضلالهم.

وجملة)عليهم عمى(خبر ضمير الشأن، أي وأعظم من الوقر أن عليهم عمى، أي على أبصارهم عمى كقوله)وعلى أبصارهم غشاوة(.

وإنما علق العمى بالكون على ذواتهم لأنه لما كان عمى مجازيا تعين أن مصيبته علة أنفسهم كلها لا على أبصارهم خاصة البصائر أشد ضرا من عمى الأبصار كقوله تعالى)فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور(.

وجملة)أولئك ينادون من مكان بعيد(خبر ثالث عن)الذين لا يؤمنون(. والكلام تمثيل لحال إعراضهم عن الدعوة عند سماعها بحال من ينادى من مكان بعيد لا يبلغ إليه في مثله صوت المنادي على نحو قوله تعالى)ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع(كما تقدم في سورة البقرة. وتقول العرب لمن لا يفهم: أنت تنادى من مكان بعيد.

والإشارة ب)أولئك(إلى الذين لا يؤمنون(لقصد التنبيه على أن المشار إليهم بعد تلك الوصاف أحرياء بما سيذكر بعدها من الحكم من أجلها نظير)أولئك على هدى من ربهم(.

ويتعلق)من مكان بعيد(ب)ينادون(. وإذا كان النداء من مكان بعيد كان المنادى بالفتح في مكان بعيد لا محالة كما تقدم في تعلق)من لأرض(بقوله)ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض(أي دعاكم من مكانكم في الأرض، وبذلك يجوز أن يكون)من مكان بعيد(ظرفا مستقرا في موضع الحال من ضمير)ينادون(وذلك غير متأت في قوله)إذا دعاكم دعوة من الأرض(.

)ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه(اعتراض بتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على تكذيب المشركين وكفرهم بالقرآن بأنه ليس بأوحد في ذلك فقد أوتي موسى فاختلف الذين دعاهم في ذلك، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر.

والمقصود الاعتبار بالاختلاف في التوراة فإنه أشد من الاختلاف في القرآن فالاختلاف في التوراة كان على نوعين: اختلاف فيها بين مؤمن بها وكافر، فقد كفر بدعوة موسى فرعون وقومه وبعض بني إسرائيل مثل قارون ومثل الذين عبدوا العجل في مغيب موسى للمناجاة، واختلاف بين المؤمنين بها اختلافا عطلوا به بعض أحكامها كما قال تعالى)ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر(، وكلا الاختلافين موضع عبرة وأسوة لاختلاف المشركين في القرآن. وهذا ما عصم الله القرآن من مثله إذ قال)وإنا له لحافظون(فالتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم بهذا أوقع، وهذا ناظر إلى قوله آنفا)ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك(على الوجه الثاني من معنييه بذكر فرد من أفراد ذلك العموم وهو الأعظم الأهم.

)ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب[45](هذا متعلق بالذين كذبوا بالقرآن من العرب لأن قوله) لقضي بينهم(يقتضي أن اله أخر القضاء بينهم وبين المؤمنين إلى أجل اقتضته حكمته، فأما قوم موسى فقد قضى بينهم باستئصال قوم فرعون، وبتمثيل الآشوريين باليهود بعد موسى، وبخراب بيت المقدس، وزوال ملك إسرائيل آخرا. وهذا الكلام داخل في إتمام

التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في استبطاء النصر.
والكلمة هي كلمة الإمهال إلى يوم القيامة بالنسبة لبعض المكذبين، والإمهال إلى يوم بدر بالنسبة لمن صرعوا ببدر.
والتعبير عن الجلالة بلفظ)ربك(لما في معنى الرب من الرأفة به والانتصار له، ولما في الإضافة إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم من التشريف. وكلا الأمرين تعزيز للتسلية.
ولك أن تجعل كلمة)بين(دالة على أخرى مقدرة على سبيل إيجاز الحذف. والتقدير: بينهم وبين المؤمنين، أي بما يظهر به انتصار المؤمنين،فإنه يكثر أن يقال: بين كذا وبين كذا، قال تعالى)وحيل بينهم وبين ما يشتهون(.
ومعنى)سبقت(أي تقدمت في علمه على مقتضى حكمته وإرادته.
والأجل المسمى: جنس يصدق بكل ما أجل به عقابهم في علم الله. وأما ضمير)وإنهم لفي شك منه مريب(فهو خاص بالمشركين الشاكين في البعث والشاكين في أن الله ينصر رسوله والمؤمنين.

صفحة : 3831

والريب: الشك، فوصف)شك(ب)مريب(من قبيل الإسناد المجازي لقصد المبالغة بأن اشتق له من اسمه وصف كقولهم: ليل أليل وشعر شاعر.
)من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد[46](هذا من مكملات التسلية ومن مناسبات ذكر الأجل المسمى.
وفيه معنى التذييل لأن)من(في الموضعين مفيدة للعموم سواء اعتبرت شرطية أو موصولة. ووجود الفاء في الموضعين: إما لأنهما جوابان للشرط، وإما لمعاملة الموصول معاملة الشرط وهو استعمال كثير.
والمعنى: أن الإمهال إعذار لهم ليتداركوا أمرهم.
وتقدم قريب من هذه الآية في سورة الزمر، كما تقدم نظير)وما ربك بظلام للعبيد(لفظا في سورة غافر.
وحرف)على(مؤذن بمؤاخذة وتحمل أعباء كما أن اللام في قوله)فلنفسه(مؤذن بالعطاء.
والخطاب في)ربك(للرسول صلى الله عليه وسلم، وفيه ما تقدم من تعزيز تسليته عند قوله آنفا)ولولا كلمة سبقت من ربك(من العدول إلى لفظ الرب المضاف إلى ضمير المخاطب.

والمراد بنفي الظلم عن الله تعالى لعبيده: أنه لا يعاقب من ليس منهم بمجرم، لأن الله لا وضع للناس شرائع وبين الحسنات والسيئات، ووعد وأوعد فقد جعل ذلك قانونا، فصار العدول عنه إلى عقاب من ليس بمجرم ظلما إذا الظلم هو الاعتداء على حق الغير في القوانين المتلقاة من الشرائع الإلهية أو القوانين الوضعية المستخرجة من العقول الحكيمة.

وأما صيغة)ظلام(المقتضية المبالغة في الظلم فهي معتبرة قبل دخول النفي على الجملة التي وقعت هي فيها كأنه قيل: ليعذب الله المسيء لكان ظلاما له وما هو بظلام، وهذا معنى قول علماء المعاني: إن النفي إذا توجه إلى كلام مقيد قد يكون النفي نفيا للقيد وقد يكون القيد قيدا في النفي ومثلوه بهذه الآية. وهذا استعمال دقيق في الكلام البليغ في نفي الوصف المصوغ بصيغة المبالغة من تمام عدل الله تعالى أن جعل كل درجات الظلم في رتبة الظلم الشديد.

)إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه(كانوا إذا أنذروا بالبعث وساعته استهزأوا فسألوا عن وقتها، وكان ذلك مما يتكرر منهم، قال تعالى)يسألونك عن الساعة أيان مرساها(فلما جرى ذكر دليل إحياء الموتى وذكر إلحاد المشركين في دلالته بسؤالهم عنها استهزاء انتقل الكلام إلى حكاية سؤالهم تمهيدا للجواب عن ظاهره وتقديم المجرور على متعلقه لإفادة الحصر، أي إلى الله يفوض علم الساعة لا إلي، فهو قصر قلب. ورد عليهم بطريق الأسلوب الحكيم، أي الأجدر أن تعلموا أن لا يعلم أحد متى الساعة وأن تؤمنوا بها وتستعدوا لها. ومثله قول النبي صلى الله عليه وسلم وسأله رجل من المسلمين: متى الساعة؟ فقال له: ماذا أعددت لها ، أي استعدادك لها أولى بالاعتناء من أن تسأل عن وقتها.

والرد: الإرجاع وهو مستعمل لتفويض علم ذلك إلى الله والتبرؤ من أن يكون للمسؤول علم به، فكأنه جيء بالسؤال إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فرده إلى الله. وفي حديث موسى مع الخضر في الصحيح فعاتب الله موسى أن لم يرد العلم إليه وقال تعالى) ولو ردوه إلى الرسول(الآية.

وعطف جملة)وما تخرج من ثمرات من أكمامها(وما بعدها توجيه لصرف العلم بوقت الساعة إلى الله بذكر نظائر لا يعلمها الناس، وليس علم الساعة بأقرب منها فإنها أمور مشاهدة ولا يعلم تفصيل حالها إلا الله، أي فليس في عدم العلم بوقت الساعة حجة على تكذيب من أنذر بها، لأنهم قالوا)متى هذا الوعد إن كنتم صادقين(، أي أن لم تبين لنا وقته فلست بصادق. فهذا وجه

ذكر تلك النظائر، وهي ثلاثة أشياء: أولها: علم ما تخرجه أكمام النخيل من الثمر بقدره، وجودته، وثباته أو سقوطه، وضمير) أكمامها(راجع إلى الثمرات. والأكمام: جمع كم بكسر الكاف وتشديد الميم وهو وعاء الثمر وهو الجف الذي يخرج من النخلة محتويا على طلع الثمر.

ثانيها: حمل الأنثى من الناس والحيوان، ولا يعلم التي تلقح من التي لا تلقح إلا الله.

ثالثها: وقت وضع الأجنة فإن الإناث تكون حوامل مثقلة ولا يعلم وقت وضعها باليوم والساعة إلا الله.

صفحة : 3832

وعدل عن إعادة حرف)ما(مرة أخرى للتفادي من ذكر حرف واحد ثلاث مرات لأن تساوي هذه المنفيات الثلاثة في علم الله تعالى. وفي كون أزمان حصولها سواء بالنسبة للحال وللاستقبال يسد علينا باب ادعاء الجمهور الفرق بين)ما(و)لا(في تخليص المضارع لزمان الحال مع حرف)ما(وتخليصه للاستقبال مع حرف)لا(. ويؤيد رد ابن مالك عليهم فإن الحق في جانب قول ابن مالك.

وحرف)من(بعد مدخولي)ما(في الموضعين لإفادة عموم النفي ويسمى حرفا زائدا.

والباء في)بعلمه(للملابسة. وتقدم نظيره في سورة فاطر.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم)ثمرات(بالجمع. وقرأه الباقون)ثمرة(واحدة الثمرات.

)ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد[48] وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص[49]

(عطف على الجملة قبلها فإنه لما تضمن قوله)إليه يرد علم الساعة(إبطال شبهتهم بأن عدم بيان وقتها يدل على انتفاء حصولها، وأتبع ذلك بنظائر لوقت الساعة مما هو جار في الدنيا دوما عاد الكلام إلى شأن الساعة على وجه الإنذار مقتضيا إثبات وقوع الساعة بذكر بعض ما يلقونه في يومها.

و)يوم(متعلق بمحذوف شائع حذفه في القرآن، تقديره: واذكر يوم يناديهم.

والضمير في)ينادي(عائد إلى)ربك(في قوله)وما ربك بظلام للعبيد(، والنداء كناية عن الخطاب العلني كقوله)ينادونهم ألم نكن معكم(. وقد تقدم الكلام على النداء عند قوله تعالى)ربنا إننا سمعنا

مناديا ينادي للإيمان(في آل عمران، وقوله)ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها(في سورة الأعراف.
وجملة)أين شركائي(يصح أن يكون مقول قول محذوف كما صرح به في آية أخرى)ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون( )ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين(. وحذف القول ليس بعزيز.
ويصح أن تكون مبينة لما تضمنه)يناديهم(من معنى الكلام المعلن به. وجاءت جملة)قالوا آذناك(غير معطوفة لأنها جارية على طريقة حكاية المحاورات كما تقدم عند قوله تعالى)وإذ قال ربك للملائكة(إلى قوله)ما لا تعلمون(.
و)آذناك(أخبرناك وأعلمناك. وأصل هذا لا فعل مشتق من الاسم الجامد وهو الأذن بضم الهمزة وسكون الذال وقال تعالى)فقل آذنتكم على سواء(، وقال الحارث بن حلزة:
آذنتنا ببينها أسماء وصيغة الماضي في)آذناك(إنشاء فهو بمعنى الحال مثل: بعت وطلقت، أي نأذنك ونقر بأنه ما منا من شهيد.
والشهيد يجوز أن يكون بمعنى المشاهد، أي المبصر، أي ما أحد منا يرى الذين كنا ندعوهم شركاءك الآن، أي لا نرى واحدا من الأصنام التي كنا نعبدها فتكون جملة)وضل عنهم ما كانوا يدعون(في موضع الحال، والواو واو الحال. ويجوز أن يكون الشهيد بمعنى الشاهد، أي ما منا أحد يشهد أنهم شركاؤك، فيكون ذلك اعترافا بكذبهم فيما مضى، وتكون جملة)وضل عنهم(معطوفة على جملة)قالوا آذناك(، أي قالوا ذلك ولم يجدوا واحدا من أصنامهم.
وفعل)آذناك(معلق عن العمل لورود النفي بعده.
وضل: حقيقته غاب عنهم، أي لم يجدوا ما كانوا يدعونهم من قبل في الدنيا، قال تعالى)بل ضلوا عنهم(. فالمراد هنا: غيبة أصنامهم عنهم وعدم وجودها في تلك الحضرة بقطع النظر عن كونها ملقاة في جهنم أو بقيت في العالم الدنيوي حين فنائه.
وإذ لم يجدوا ما كانوا يزعمونه فقد علموا أنهم لا محيص لهم، أي لا ملجأ لهم من العذاب الذي شاهدوا إعداده، فالظن هنا بمعنى اليقين.
والمحيص مصدر ميمي أو اسم مكان من: حاص يحيص، إذا هرب، أي ما لهم مفر من النار.
)لا يسئم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط[49] ولئن أذقنه رحمة من بعد ضراء ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى(اعتراض بين أجزاء الوعيد. والمعنى: وعلموا ما لهم من محيص. وقد كانوا إذا أصابتهم نعماء كذبوا بقيام الساعة فجملة)لا يسأم الإنسان من

دعاء الخير(إلى قوله)قنوط(تمهيد لجملة)ولئن أذقناه رحمة منا(إلخ...

صفحة : 3833

وموقع هذه الآيات عقب قوله)ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك(إلخ يقتضي مناسبة في النظم داعية إلى هذا الاعتراض فتلك قاضية بأن الإنسان المخبر عنه بأنه لا يسأم من دعاء الخير وما عطف عليه هو من صنف الناس الذين جرى ذكر قصصهم قبل هذه الآية وهم المشركون، فإما أن يكون المراد فريقا من نوع الإنسان، فيكون تعريف)الإنسان(تعريف الجنس العام لكن عمومه عرفي بالقرينة وهو الممثل له في علم المعاني بقولك: جمع الأمير الصاغة. وإما أن يكون المراد إنسانا معينا من هذا الصنف فيكون التعريف تعريف العهد. كما أن الإخبار عن الإنسان بأنه يقول: ما أظن الساعة قائمة، صريح أن المخبر عنه من المشركين معينا كان أو عاما عموما عرفيا. فقيل المراد بالإنسان: المشركون كلهم، وقيل أريد به مشرك معين، قيل هو الوليد بن المغيرة، وقيل عتبة بن ربيعة.

وأيا ما كان فالإخبار عن الإنسان كافر.

ومحمل الكلام البليغ يرشد إلى أن إناطة هذه الأخبار بصنف من المشركين أو بمشرك معين بعنوان إنسان يومئ بأن للجبلة الإنسانية أثرا قويا في الخلق الذي منه هذه العقيدة إلا من عصمه الله بوازع الإيمان. فأصل هذا الخلق أمر مرتكز في نفس الإنسان، وهو التوجه إلى طلب الملائم والنافع ونسيان ما عسى أن يحل به من المؤلم والضار، فبذلك يأنس بالخير إذا حصل له فيزداد من السعي لتحصيله ويحسبه كالملازم الذاتي فلا يتدبر في معطيه حتى يشكره ويسأله المزيد تخضعا، وينسى ما عسى أن يطرأ عليه من الضر فلا يستعد لدفعه عن نفسه بسؤال الفاعل المختار أن يدفعه عنه ويعيذه منه.

فأما أن الإنسان لا يسأم من دعاء الخير فمعناه: أنه لا يكتفي، فأطلق على الاكتفاء والاقتناع السآمة. وهي الملل على وجه الاستعارة بتشبيه استرسال الإنسان في طلب الخير على الدوام بالعمل الدائم الذي شأنه أن يسأم منه عامله فنفي السآمة عنه رمز للاستعارة.

وفي الحديث لو أن لابن آدم واديين من ذهب لأحب لهما ثالثا، ولو أن له ثلاثة لأحب لهما رابعا، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، وقال تعالى)وإنه لحب الخير لشديد(.

والدعاء: أصله الطلب بالقول، وهو هنا مجاز في الطلب مطلقا فتكون إضافته إلى الخير من إضافة المصدر إلى ما في معنى المفعول، أي الدعاء بالخير أو طلب الخير.

ويجوز أن يكون الدعاء استعارة مكنية، شبه الخير بعاقل يسأله الإنسان أن يقبل عليه، فإضافة الدعاء من إضافة المصدر إلى مفعوله.

وأما أن الإنسان يئوس قنوط إن مسه الشر فذلك من خلق قلة صبر الإنسان على ما يتعبه ويشق عليه فيضجر إن لحقه شر ولا يوازي بين ما كان فيه من خير فيقول: لئن مسني الشر زمنا لقد حل بي الخير أزمانا، فمن الحق أن أتحمل ما أصابني كما نعمت بما كان لي من خير، ثم لا ينتظر إلى حين انفراج الشر عنه وينسى الإقبال على سؤال الله أن يكشف عنه الضر بل ييأس ويقنط غضبا وكبرا ولا ينتظر معاودة الخير ظاهرا عليه أثر اليأس بانكسار وحزن.

واليأس فعل قلبي هو: اعتقاد عدم حصوله المأيوس منه.

والقنوط: انفعال يدني من أثر اليأس وهو انكسار وتضاؤل. ولم يذكر هنا أنه ذو دعاء لله كما ذكر في قوله الآتي:)وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض(لأن المقصود أهل الشرك وهم إنما ينصرفون إلى أصنامهم.

وقد جاءت تربية الشريعة للأمة على ذم القنوط، قال تعالى حكاية عن إبراهيم)قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون(، وفي الحديث انتظار الفرج بعد الشدة عبادة .

فالآية وصفت خلقين ذميمين: أحدهما خلق البطر بالنعمة والغفلة عن شكر الله عليها. وثانيهما اليأس من رجوع النعمة عند فقدها.

وفي نظم الآية لطائف من البلاغة.

الأولى: التعبير عن دوام طلب النعمة بعدم السآمة كما علمته.

الثانية: التعبير عن محبة الخير بدعاء الخير.

الثالثة: التعبير عن إضافة الضر بالمس الذي هو أضعف إحساس الإصابة قال تعالى)لا يمسهم السوء(.

الرابعة: اقتران شرط مس الشر ب)إن(التي من شأنها أن تدخل على النادر وقوعه فإن إصابة الشر الإنسان نادرة بالنسبة لما هو مغمور به من النعم.

الخامسة: صيغة المبالغة في)يئوس(.

السادسة: إتباع)يئوس(ب)قنوط(الذي هو تجاوز إحساس اليأس إلى ظاهر البدن بالانكسار، وهو من شدة يأسه، فحصلت مبالغتان في التعبير عن يأسه بأنه اعتقاد في ضميره وانفعال في سحناته.

فالمشرك يتأصل فيه هذا الخلق ويتزايد باستمرار الزمان: والمؤمن لا تزال تربية الإيمان تكفه عن هذا الخلق حتى يزول منه أو يكاد.

ثم بينت الآية خلقا آخر في الإنسان وهو أنه إذا زال عنه كربه وعادت إليه النعمة نسي ما كان فيه من الشدة ولم يتفكر في لطف الله به فبطر النعمة، وقال: قد استرجعت خيراتي بحيلتي وتدبيري، وهذا الخير حق لي حصلت عليه، ثم إذا كان من أهل الشرك وهم المتحدث عنهم تراه إذا سمع إنذار النبي صلى الله عليه وسلم بقيام الساعة أو هجس في نفسه هاجس عاقبة هذه الحياة قال لمن يدعوه إلى العمل ليوم الحساب أو قال في نفسه)ما أظن الساعة قائمة(ولئن فرضت قيام الساعة على احتمال ضعيف فإني سأجد عند الله المعاملة بالحسنى لأني من أهل الثراء والرفاهية في الدنيا فكذلك سأكون يوم القيامة. وهذا من سوء اعتقادهم أن يحسيوا أحوال الدنيا مقارنة لهم في الآخرة، كما حكى الله تعالى عن العاصي بن وائل حين اقتضاه خباب بن الأرث مالا له عنده من أجر صناعة سيف فقال له: حتى تكفر بمحمد؟ فقال خباب: لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ويبعثك، فقال: أو إني لميت فمبعوث؟ قال: نعم. فقال: لئن بعثني الله فسيكون لي مالي فأقضيك، فأنزل الله تعالى)أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا(الآيات في سورة مريم.

ولعل قوله)ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى(إنما هو على سبيل الاستهزاء كما في مقاله العاصي بن وائل.

وذكر إنكار البعث هنا إدماج بذكر أحوال الإنسان المشترك في عموم أحوال الإنسان.

وجيء في حكاية قوله)ولئن رجعت(بحرف)إن(الشرطية التي يغلب وقوعها في الشرط المشكوك وقوعه لأنه جعل رجوعه إلى الله أمرا مفروضا ضعيف الاحتمال.

وأما دخول اللام الموطئة للقسم عليه فمورد التحقيق بالقسم هو حصول الجواب لو حصل الشرط.

وكذلك التأكيد ب)إن(ولام الابتداء مورده هو جواب الشرط، وكذلك تقديم)لي(و)عنده(على اسم)إن(هو لتقوي ترتب الجواب على الشرط.

والحسنى: صفة لموصوف محذوف، أي الحالة الحسنى، أو المعاملة الحسنى. والأظهر أن الحسنى صارت اسما للإحسان الكثير أخذا من صيغة التفضيل.

واعلم أن الإنسان متفاوتة أفراده في هذا الخلق المعزو إليه هنا على تفاوت أفراده في الغرور، ولما كان أكثر الناس يومئذ المشركين كان هذا الخلق فاشيا فيهم يقتضيه دين الشرك. ولا نظر في الآية لمن كان يومئذ من المسلمين لأنهم النادر، على أن المسلم قد يخامره بعض هذا الخلق وترتسم فيه شيات منه ولكن إيمانه يصرفه عنه انصرافا بقدر قوة إيمانه، ومعلوم أنه لا يبلغ به إلى الحد الذي يقول)وما أظن الساعة قائمة(ولكنه قد تجري أعمال بعض المسلمين على صورة أعمال من لا يظن أن الساعة قائمة مثل أولئك الذين يأتون السيئات ثم يقولون: إن الله غفور رحيم والله غني عن عذابنا، وإذا ذكر لهم يوم الجزاء قالوا: ما ثم إلا الخير ونحو ذلك، فجعل الله في هذه الآية مذمة للمشركين وموعظة للمؤمنين كمدا للأولين وانتشالا للآخرين.

)فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ[50] (تفريع على جملة)ويوم يناديهم أين شركائي(وما اتصل بها أي فلنعلمنهم بما عملوا علنا يعلمون به أنا لا يخفى علينا شيء مما عملوه وتقريعا لهم.

وقول)الذين كفروا(إظهار في مقام الإضمار، ومقتضى الظاهر أن يقال: ولننبئنهم بما عملوا، فعل إلى الموصول وصلته لما تؤذن به الصلة من علة استحقاقهم الإذاقة بما عملوا وإذاقة العذاب. وقوله) ولنذيقنهم من عذاب غليظ(هو المقصود من التفريع.

والغليظ حقيقته: الصلب، قال تعالى)فاستغلظ فاستوى على سوقه(، وهو هنا مستعار للقوي في نوعه، أي عذاب شديد الإيلام والتعذيب، كما استعير للقساوة في المعاملة في قوله)واغلظ عليهم(وقوله)وليجدوا فيكم غلظة(.

صفحة : 3835

والإذاقة: مجاز في مطلق الإصابة في الحس لإطماعهم أنها إصابة خفيفة كإصابة الذوق باللسان. وهذا تجريد للمجاز كما أن وصفه بالغليظ تجريد ثان فحصل من ذلك ابتداء مطمع وانتهاء مؤيس.

)وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونئا بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض[51](هذا وصف وتذكير بضرب آخر من طغيان النفس الإنسانية غير خاص بأهل الشرك بل هو منبث في جميع الناس على تفاوت، إلا من عصم الله. وهو توصيف لنزق النفس الإنساني وقلة ثباته فإذا أصابته السراء طغا وتكبر ونسي شكر ربه نسيانا قليلا أو كثيرا وشغل بلذاته، وإذا أصابته الضراء لم يصبر وجزع ولجأ إلى

ربه يلح بسؤال كشف الضر عنه سريعا. وفي ذكر هذا الضرب تعرض لفعل الله وتقديره الخلتين السراء والضراء.
وهو نقد لسلوك الإنسان في الحالتين وتعجيب من شأنه. ومحل النقد والتعجيب من إعراضه ونأيه بجانبه واضح، وأما محل الانتقاد والتعجيب من أنه ذو دعاء عريض عندما يمسه الشر فهو من حيث لم يتذكر الإقبال على دعاء ربه إلا عندما يمسه الشر وكان الشأن أن لا يغفل عن ذلك في حال النعمة فيدعو بدوامها ويشكر ربه عليها وقبول شكره لأن تلك الحالة أولى بالعناية من حالة مس الضر.
وأما ما تقدم من قوله)لا يسأم الإنسان من دعاء الخير(إلى قوله)للحسنى(فهو وصف لضرب آخر أشد، وهو خاص بأهل الشرك لما وقع فيه من قوله)وما أظن الساعة قائمة(، فليس قوله)وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه(إلخ تكريرا مع قوله)لا يسأم الإنسان(الآية.
فهذا التفنن في وصف أحوال الإنسان مع ربه هو الذي دعا إلى ما اشتمل عليه قوله)وإذا أنعمنا(من بعض التكرير لما ذكر في الضرب المتقدم لزيادة تقريره، وللإشارة إلى اختلاف الحالتين باعتبار الشرك وعدمه مع اتحادهما في مثار الجملة الإنسانية، وباعتبار ما قدره الله للإنسان.
والإعراض: الانصراف عن شيء، وهو مستعار هنا للغفلة عن شكر المنعم أو التعمد لترك الشكر.
ومتعلق فعل)أعرض(محذوف لدلالة السياق عليه، والتقدير: أعرض عن دعائنا.
والنأي: البعد، وهو هنا مستعار لعدم التفكر في المنعم عليه، فشبه عدم اشتغاله بذلك بالبعد.
والجانب للإنسان: منتهى جسمه من إحدى الجهتين اللتين ليستا قبالة وجهه وظهره، ويسمى الشق، والعطف بكسر العين، والباء للتعدية. والمعنى: أبعد جانبه، كناية عن إبعاد نفسه، أي ولى معرضا غير ملتفت بوجهه إلى الشيء الذي ابتعد هو عنه.
ومعنى)مسه الشر(أصابه شر بسبب عادي. وعدل عن إسناد إصابة الشر إلى الله تعليما للأدب مع الله كما قال إبراهيم)الذي خلقني فهو يهدين(إلخ. ثم قال)وإذا مرضت فهو يشفين(فلم يقل: وإذا أمرضني، وفي ذلك سر وهو أن النعم والخير مسخران للإنسان في أصل وضع خلقته فهما الغالبان عليه لأنهما من مظاهر ناموس بقاء النوع. وأما الشرور والأضرار فإن معظمها ينجر إلى الإنسان بسوء تصرفه وبتعرضه إلى ما حذرته منه الشرائع والحكماء الملهمون فقلما يقع فيهما الإنسان إلا بعمله وجرأته.

والدعاء: الدعاء لله بكشف الشر عنه. ووصفه بالعريض استعارة لأن العرض بفتح العين ضد الطول، والشيء العريض هو المتسع مساحة العرض، فشبه الدعاء المتكرر الملح فيه بالثوب أو المكان العريض.

وعدل عن أن يقال: فداع، إلى)ذو دعاء(لما تشعر به كلمة) ذو(من ملازمة الدعاء له وتملكه منه.

والدعاء إلى الله من شيم المؤمنين وهم متفاوتون في الإكثار منه والإقلال على تفاوت ملاحظة الحقائق الإلهية.

وتوجه المشركين إلى الله بالدعاء هو أقوال تجري على ألسنتهم توارثوها من عادات سالفة من أزمان تدينهم بالحنيفية قبل أن تدخل عليهم عبادة الأصنام وتتأصل فيهم فإذا دعوا الله غفلوا عن منافاة أقوالهم لعقائد شركهم.

)قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد[52](استئناف ابتدائي متصل بقوله)إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم(إلى قوله)لفي شك منه مريب(فهذا انتقال إلى المجادلة في شأن القرآن رجع به إلى الغرض الأصلي من هذه السورة وهو بيان حقية القرآن وصدقه وصدق من جاء به.

صفحة : 3836

وهذا استدعاء ليعملوا النظر في دلائل صدق القرآن مثل إعجازه وانتساقه وتأييد بعضه بعضا وكونه مؤيدا للكتب قبله، وكون تلك الكتب مؤيدة له.

والمعنى: ما أنتم عليه من إنكار صدق القرآن ليس صادرا عن نظر وتمحيص يحصل اليقين وإنما جازفتم به قبل النظر فلو تأملتم لاحتمل أن ينتج لكم التأمل أنه من عند الله وأن لا يكون من عنده، فإذا فرض الاحتمال الأول فقد أقحمتم أنفسكم في شقاق قوي. وهذا من الكلام المنصف واقتصر فيه على ذكر الحالة المنطبقة على صفاتهم تعريضا بأن ذلك هو الطرف الراجح في هذا الإجمال كأنه يقول: كما أنكم قضيتم بأنه ليس من عند الله وليس ذلك معلوما بالضرورة فكذلك كونه من عند الله فتعالوا فتأملوا في الدلائل، فهم لما أنكروا أن يكون من عند الله وصدوا أنفسهم وعامتهم عن الاستماع إليه والتدبير فيه فقد أعملوا شهوات أنفسهم وأهملوا الأخذ بالحيطة لهم بأن يتدبروه حتى يكونوا على بينة من أمرهم في شأنه، وهو إذا تدبروه لا يلبثون أن يعلموا صدقه، فاستدعاهم الله إلى النظر بطريق تجويز أن يكون من عند الله

فإنه إذا جاز ذلك وكانوا قد كفروا به دون تأمل كانوا قد قضوا على أنفسهم بالضلال الشديد، وإذا كانوا كذلك فقد حقت عليهم كلمات الوعيد.

و)إن(الشرطية شأنها أن تدخل على الشرط المشكوك فيه، فالإتيان بها إرخاء للعنان معهم لاستنزال طائر إنكارهم حتى يقبلوا على التأمل في دلائل صدق القرآن.

ويشبه أن يكون المقصود بهذا الخطاب والتشكيك أولا دهماء المشركين الذين لم ينظروا في دلالة القرآن أو لم يطيلوا النظر ولم يبلغوا به حد الاستدلال.

وأما قادتهم وكبراؤهم وأهل العقول منهم فهم يعلمون أنه من عند الله ولكنهم غلب عليهم حب الرئاسة على أنهم متفاوتون في هذا العلم إلى أن يبلغ بعضهم إلى حد قريب من حالة الدهماء ولكن القرآن ألقى بينهم هذا التشكيك تغليبا ومراعاة لاختلاف درجات المعاندين ومجاراة لهم ادعاءهم أنهم لم يهتدوا نظرا لقولهم)قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر(.

و)ثم(في قوله)ثم كفرتم(للتراخي الرتبي لأن الكفر بما هو من عند الله أمره أخطر من كون القرآن من عند الله.

و)من(الأولى للاستفهام وهو مستعمل في معنى النفي، أي لا أضل ممن هو في شقاق بعيد إذا تحقق الشرط.

و)من(الثانية موصولة وما صدقها المخاطبون بقوله)كفرتم به(فعدل عن الإضمار إلى طريق الموصول لما تأذن به الصلة من تعليل أنهم أضل الضالين بكونهم شديدي الشقاق، وذلك كناية عن كونهم أشد الخلق عقوبة لما هو معلوم من أن الضلال سبب للخسران.

والشقاق: العصيان. والمراد: عصيان أمر الله لظهور أن القرآن من عنده على هذا الفرض بيننا.

والبعيد: الواسع المسافة، واستعير هنا للتشديد في جنسه، ومناسبة هذه الاستعارة للضلال لأن الضلال أصله عدم الاهتداء إلى الطريق، وأن البعد مناسب للشقاق لأن المنشق قد فارق المنشق عنه فكان فراقه بعيدا لا رجاء معه للدنو، وتقدم في قوله)وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد(في سورة البقرة.

وفعل)أرأيتم(معلق عن العمل لوجود الاستفهام بعده، والرؤية علمية.

)سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق(أعقب الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين ما فيه تخويفهم من عواقب الشقاق على تقدير أن يكون القرآن من عند الله وهم قد كفروا به إلى آخر ما قرر آنفا، بأن

وعد رسوله صلى الله عليه وسلم على سبيل التسلية والبشارة بأن الله سيغمر المشركين بطائفة من آياته ما يتبينون به أن القرآن من عند الله حقا فلا يسعهم إلا الإيمان به، أي أن القرآن حق بين غير محتاج إلى اعترافهم بحقيته، وستظهر دلائل حقيته في الآفاق البعيدة عنهم وفي قبيلتهم وأنفسهم فتتظاهر الدلائل على أنه الحق فلا يجدوا إلى إنكارها سبيلا، والمراد: أنهم يؤمنون به يومئذ مع جمع من يؤمن به.

وفي هذا الوعد للرسول صلى الله عليه وسلم تعريض بهم إذ يسمعونه على طريقة: فاسمعي يا جارة.

صفحة : 3837

فموقع هذه الجملة بصريحها وتعريضها من الجملة التي قبلها موقع التعليل لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما أمر به، والتعليل راجع إلى إحالتهم على تشكيكهم في موقفهم للطعن في القرآن.

وقد سكت عما يترتب على ظهور الآيات في الآفاق وفي أنفسهم المبينة أن القرآن حق لأن ما قبله من قوله)أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد(ينبئ عن تقديره، أي لا يسمعهم إلا الإيمان بأنه حق فمن كان منهم شاكا من قبل عن قلة تبصر حصل له العلم بعد ذلك، ومن كان إنما يكفر عنادا واحتفاظا بالسيادة افتضح بهتانه وسفهه جيرانه. وكلاهما قد أفات بتأخير الإيمان خيرا عظيما من خير الآخرة بما أضاعه من تزود ثواب في مدة كفره ومن خير الدنيا بما فاته من شرف السبق بالإيمان والهجرة كما قال تعالى)لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى(.

وفي هذه الآية طرف من الإعجاز بالإخبار عن الغيب إذ أخبرت بالوعد بحصول النصر له ولدينه وذلك بما يسر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ولخلفائه من بعده في آفاق الدنيا والمشرق والمغرب عامة وفي باحة العرب خاصة من الفتوح وثباتها وانطباع الأمم بها ما لم تتيسر أمثالها لأحد من ملوك الأرض والقياصرة والأكاسرة على قلة المسلمين إن نسب عددهم إلى عدد الأمم التي فتحوا آفاقها بنشر دعوة الإسلام في أقطار الأرض، والتاريخ شاهد بأن ما تهيأ للمسلمين من عجائب الانتشار والسلطان على الأمم أمر خارق للعادة، فيتبين أن دين الإسلام هو الحق وأن المسلمين

كلما تمسكوا بعرى الإسلام لقوا من نصر الله أمرا عجيبا يشهد بذلك السابق واللاحق، وقد تحداهم الله بذلك في قوله)أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب(ثم قال)ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم(.

ولم يقف ظهور الإسلام عند فتح الممالك والغلب على الملوك والجبابرة، بل تجاوز ذلك إلى التغلغل في نفوس الأمم المختلفة فتقلدوه دينا وانبثت آدابه وأخلاقه فيهم فأصلحت عوائدهم ونظمهم المدنية المختلفة التي كانوا عليها فأصبحوا على حضارة متماثلة متناسقة وأوجدوا حضارة جديدة سالمة من الرعونة وتفشت لغة القرآن فتخاطبت بها الأمم المختلفة الألسن وتعارفت بواسطتها. ونبغت فيهم فطاحل من علماء الدين وعلماء العربية وأئمة الأدب العربي وفحول الشعراء ومشاهير الملوك الذين نشروا الإسلام في الممالك بفتوحهم.

فالمراد بالآيات في قوله)سنريهم آياتنا(ما يشمل الدلائل الخارجة عن القرآن وما يشمل آيات القرآن فإن من جملة معنى رؤيتها رؤية ما يصدق أخبارها ويبين نصحها إياهم بدعتها إلى خير الدنيا والآخرة.

والآفاق: جمع أفق بضمتين وتسكن فاؤه أيضا هو: الناحية من الأرض المتميزة عن غيرها، والناحية من قبة السماء.

وعطف)وفي أنفسهم(يجوز أن يكون من عطف الخاص على العام، أي وفي أفق أنفسهم، أي مكة وما حولها على حذف مضاف.

والأحسن أن يكون في الآفاق على عمومه الشامل لأفقهم، ويكون معنى)وفي أنفسهم(أنهم يرون آيات صدقه في أحوال تصيب أنفسهم، أي ذواتهم مثل الجوع الذي دعا عليهم به النبي صلى الله عليه وسلم ونزل فيه قوله تعالى)فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين(، ومثل ما شاهدوه من مصارع كبرائهم يوم بدر وقد توعدهم به القرآن بقوله يوم)نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون(. وأية عبرة أعظم من مقتل أبي جهل يوم بدر رماه غلامان من الأنصار وتولى عبد الله بن مسعود ذبحه وثلاثتهم من ضعفاء المسلمين وهو ذلك الجبار العنيد. وقد قال عند موته: لو غير أكار قتلني، ومن مقتل أبي بن خلف يومئذ بيد النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان قال له بمكة: أنا أقتلك وقد أيقن بذلك فقال لزوجه ليلة خروجه إلى بدر: والله لو بصق علي لقتلني.

)أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد(

عطف على إعلام الرسول بما سيظهر من دلائل صدق القرآن وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم زيادة لتثبيت الرسول وشرح صدره بأن الله تكفل له بظهور دينه ووضوح صدقه في سائر أقطار الأرض وفي أرض قومه، على طريقة الاستفهام التقريري تحقيقا لتيقن النبي صلى الله عليه وسلم بكفالة ربه بحيث كانت مما يقرر عليها كناية عن اليقين بها، فالاستفهام تقريري.

والمعنى: تكفيك شهادة ربك بصدقك فلا تلتفت لتكذيبهم، وهذا على حد قوله:)لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا(وقوله)وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا(فهذا وجه في موقع هذه الآية.

وهنالك وجه آخر أن يكون مساقها مساق تلقين النبي صلى الله عليه وسلم أن يستشهد بالله على أن القرآن من عند الله، فيكون موقعها موقع القسم بإشهاد الله، وهو قسم غليظ فيه معنى نسبة المقسم عليه إلى أنه مما يشهد الله به فيكون الاستفهام إنكاريا إنكارا لعدم الاكتفاء بالقسم بالله، وهو كناية عن القسم، وعن عدم تصديقهم بالقسم، فيكون معنى الآية قريبا من معنى قوله تعالى) قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم(وقوله تعالى)قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا(.

وليس معنى الآية إنكارا على المشركين أنهم لم يكتفوا بشهادة الله على صدق القرآن ولا على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم غير معترفين بأن الله شهد بذلك فلا يظهر توجه الإنكار إليهم.

ولقد دلت كلمات المفسرين في تفسير هذه الآية على تردد في استخراج معناها من لفظها.

وقوله)أنه على كل شيء شهيد(بدل اشتمال من)بربك(والتقدير: أو لم يكفهم ربك علمه بكل شيء، أي فهو يحقق ما وعدك من دمغهم بالحجة الدالة على صدقك، أو فمن استشهد به فقد صدق لأن الله لا يقر من استشهد به كاذبا فلا يلبث أن يأخذه.

وفي الآية على الوجه الثاني من وجهي قوله)أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد(إشارة إلى أن الله لا يصدق من كذب عليه فلا يتم له أمر وهو معنى قول أئمة أصول الدين: إن دلالة المعجزة على الصدق أن تغيير الله العادة لأجل تحدي الرسول صلى الله عليه وسلم قائم مقام قوله: صدق عبدي فيما أخبر به عني.

)ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط(تذييلان للسورة وفذلكتان افتتحا بحرف التنبيه اهتماما بما تضمناه.

فأما التذييل الأول فهو جماع ما تضمنته السورة من أحوال المشركين المعاندين إذ كانت أحوالهم المذكورة فيها ناشئة عن إنكارهم البعث فكانوا في مأمن من التفكير فيما بعد هذه الحياة، فانحصرت مساعيهم في تدبير الحياة الدنيا وانكبوا على ما يعود عليهم بالنفع فيها.

وضمير)إنهم(عائد إليهم كما عاد ضمير الجمع في)سنريهم(.

وأما التذييل الثاني فهو جامع لكل ما تضمنته السورة من إبطال لأقوالهم وتقويم لاعوجاجهم، لأن ذلك كله من آثار علم الله تعالى بالغيب والشهادة.

وتأكيد الجملتين بحرف التأكيد مع أن المخاطب بهما لا يشك في ذلك لقصد الاهتمام بهما واستدعاء النظر لاستخراج ما تحويانه من المعاني والجزئيات.

والمرية بكسر الميم وهو الأشهر فيها واتفقت عليه القراءات المتواترة، وبكسر الميم وهو لغة مثل: خفية وخفية. والمرية: الشك. وحرف الظرفية مستعار لتمكن الشك بهم حتى كأنهم مظروفون فيه. و)من(ابتدائية وتعدى بها أفعال الشك إلى الأمر المشكوك فيه بتنزيل متعلق الفعل منزلة مثار الفعل بتشبيه المفعول بالمنشإ كأن الشك جاء من مكان هو المشكوك فيه.

وفي تعليقه بذات الشيء مع أن الشك إنما يتعلق بالأحكام مبالغة على طريقة إسناد الأمور إلى الأعيان والمراد أوصافها، فتقدير)في مرية من لقاء ربهم(: في مرية من وقوع لقاء ربهم وعدم وقوعه كقوله تعالى)وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا(أي في ريب من كونه منزلا.

وأطلق الشك على جزمهم بعدم وقوع البعث لأن جزمهم خلي عن الدليل الذي يقتضيه، فكان إطلاق الشك عليه تعريضا بهم بأن الأولى بهم أن يكونوا في شك على الأقل.

ووصف الله بالمحيط مجاز عقلي لأن المحيط بكل شيء هو علمه فأسندت الإحاطة إلى اسم الله لأن)المحيط(صفة من أوصافه وهو العلم.

وبهاتين الفذلكتين آذن بانتهاء الكلام فكان من براعة الختام.

صفحة : 3839

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشورى

اشتهرت تسميتها عند السلف حم عسق، وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير والترمذي في جامعه، وكذلك سميت في عدة من كتب التفسير وكثير من المصاحف.

وتسمى سورة الشورى بالألف واللام كما قالوا سورة المؤمن ، وبذلك سميت في كثير من المصاحف والتفاسير، وربما قالوا سورة شورى بدون ألف ولام حكاية للفظ القرآن.

وتسمى سورة عسق بدون لفظ حم لقصد الاختصار.

ولم يعدها في الإتقان في عداد السور ذات الاسمين فأكثر. ولم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء في تسميتها.

وهي مكية كلها عند الجمهور، وعدها في الإتقان في عداد السور المكية، وقد سبقه إلى ذلك الحسن بن الحصار في كتابه في الناسخ والمنسوخ كما عزاه إليه في الإتقان.

وعن ابن عباس وقتادة استثناء أربع آيات أولاها قوله)قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى(إلى آخر الأربع الآيات.

وعن مقاتل استثناء قوله تعالى)ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا(إلى قوله)إنه عليم بذات الصدور(. رؤي أنها نزلت في الأنصار وهي داخلة في الآيات الأربع التي ذكرها ابن عباس. وفي أحكام القرآن لابن الفرس عن مقاتل: أن قوله تعالى)ولو بسط الله الرزق لعباده(الآية نزل في أهل الصفة فتكون مدنية، وفيه عنه أن قوله تعالى)والذين أصابهم البغي هم ينتصرون(إلى قوله)ما عليهم من سبيل(نزل بالمدينة.

نزلت بعد سورة الكهف وقبل سورة إبراهيم وعدت التاسعة والستين في ترتيب نزول السور عند الجعبري المروي عن جابر بن زيد. وإذا صح أن آية)وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا(نزلت في انحباس المطر عن أهل مكة كما قال مقاتل تكون السورة نزلت في حدود سنة ثمان بعد البعثة، ولعل نزولها استمر إلى سنة تسع بعد أن آمن نقباء الأنصار ليلة العقبة فقد قيل: إن قوله)والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم(أريد به الأنصار قبل الهجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

وعدت آيها عند أهل المدينة ومكة والشام والبصرة خمسين، وعند أهل الكوفة ثلاثا وخمسين.

أغراض هذه السورة

أول أغراضها الإشارة إلى تحدي الطاعنين في أن القرآن وحي من الله بأن يأتوا بكلام مثله، فهذا التحدي لا تخلو عنه السور المفتتحة بالحروف الهجائية المقطعة، كما تقدم في سورة البقرة.

واستدل الله على المعاندين بأن الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما هو إلا كالوحي إلى الرسل من قبله لينذر أهل مكة ومن حولها بيوم الحساب.

وأن الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض لا تعارض قدرته ولا يشك في حكمته، وقد خضعت له العوالم العليا ومن فيها وهو فاطر المخلوقات فهو يجتبي من يشاء لرسالته فلا بدع أن يشرع للأمة المحمدية من الدين مثل ما شرع لمن قبله من الرسل، وما أرسل الله الرسل إلا من البشر يوحي إليهم فلم يسبق أن أرسل ملائكة لمخاطبة عموم الناس مباشرة.

وأن المشركات بالله لا حجة لهم إلا تقليد أئمة الكفر الذين شرعوا لهم الإشراك وألقوا إليهم الشبهات.

وحذرهم يوم الجزاء واقتراب الساعة وما سيلقى المشركون يوم الحساب من العذاب مع إدماج التعريض بالترغيب فيما سيلقاه المؤمنون من الكرامة، وأنهم لو تدبروا لعلموا أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يأتي عن الله من تلقاء نفسه لأن الله لا يقره على أن يقول عليه ما لم يقله.

وذكرت دلائل الوحدانية وما هو من تلك الآيات نعمة على الناس مثل دليل السير في البحر وما أوتيه الناس من نعم الدنيا.

وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله هو متولي جزاء المكذبين وما على الرسول صلى الله عليه وسلم من حسابهم من شيء فما عليه إلا الاستمرار على دعوتهم إلى الحق القويم. ونبههم إلى أنه لا يبتغي منهم جزاء على نصحه لهم وإنما يبتغي أن يراعوا أواصر القرابة بينه وبينهم.

وذكرهم نعم الله عليهم، وحذرهم من التسبب في قطعها بسوء أعمالهم، وحرضهم على السعي في أسباب الفوز في الآخرة والمبادرة إلى ذلك قبل الفوات، فقد فاز المؤمنون المتوكلون، ونوه بجلائل أعمالهم وتجنبهم التعرض لغضب الله عليهم.

صفحة : 3840

وتخلل ذلك تنبيه على آيات كثيرة من آيات انفراده تعالى بالخلق والتصرف المقتضي إنفراده بالإلهية إبطالا للشرك.

وختمها بتجدد المعجزة الأمية بأن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءهم بهدى عظيم من الدين وقد علموا أنه لم يكن ممن تصدى لذلك في سابق عمره وذلك أكبر دليل على أن ما جاء به أمر قد

أوحي إليه به فعليهم أن يهتدوا بهديه فمن اهتدى بهديه فقد وافق مراد الله.
وختم ذلك بكلمة جامعة تتضمن التفويض إلى الله وانتظار حكمه وهي كلمة)ألا إلى الله تصير الأمور(.
)حم[1] عسق[2](ابتدئت بالحروف المقطعة على نحو ما ابتدئت به أمثالها مثل أول سورة البقرة لأن ابتداءها مشير إلى التحدي بعجزهم عن معارضة القرآن وأن عجزهم عن معارضته دليل على أنه كلام منزل من الله تعالى.
وخصت بزيادة كلمة)عسق(على أوائل السور من آل حم ولعل ذلك لحال كانوا عليه من شدة الطعن في القرآن وقت نزول هذه السورة، فكان التحدي لهم بالمعارضة أشد فزيد في تحديهم من حرف التهجي.
وإنما لم توصل الميم بالعين كما وصلت الميم بالراء في طالعة سورة الرعد، وكما وصلت الميم بالصاد في مفتتح سورة الأعراف، وكما وصلت العين بالصاد في مفتتح سورة مريم، لأن ما بعد الميم في السور الثلاث حرف واحد فاتصاله بما قبله أولى بخلاف ما في هذه السورة فإنه ثلاثة حروف تشبه كلمة فكانت أولى بالانفصال.
)كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم[3] (موقع الإشارة في قوله)كذلك يوحي إليك(كموقع قوله)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(في سورة البقرة. والمعنى: مثل هذا الوحي يوحي الله إليك، فالمشار إليه: الإيحاء المأخوذ من فعل)يوحي(.
وأما)وإلى الذين من قبلك(فإدماج. والتشبيه بالنسبة إليه على أصله، أي مثل وحيه إليك وحيه إلى الذين من قبلك، فالتشبيه مستعمل في كلتا طريقتيه كما يستعمل المشترك في معنييه.
والغرض من التشبيه إثبات التسوية، أي ليس وحي الله إليك إلا على سنة وحيه إلى الرسل من قبلك، فليس وحيه إلى الرسل من قبلك بأوضح من وحيه إليك. وهذا كقوله تعالى)إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده(، أي ما جاء به من الوحي إن هو إلا مثل ما جاءت به الرسل السابقون، فما إعراض قومه عنه إلا كإعراض الأمم السالفة عما جاءت به رسلهم. فحصل هذا المعنى الثاني بغاية الإيجاز مع حسن موقع الاستطراد.
وإجراء وصفي)العزيز الحكيم(على اسم الجلالة دون غيرهما لأن لهاتين الصفتين مزيد من اختصاص بالغرض المقصود من أن الله يصطفي من يشاء لرسالته.
)فالعزيز(المتصرف بما يريد لا يصده أحد. و)الحكيم(بحمل كلامه معاني لا يبلغ إلى مثلها غيره، وهذا من متممات الغرض الذي

افتتحت به السورة وهو الإشارة إلى تحدي المعاندين بأن يأتوا بسورة مثل سور القرآن.
وجملة)كذلك يوحي إليك(إلى آخرها ابتدائية، وتقديم المجرور من قوله)كذلك(على)يوحي إليك(للاهتمام بالمشار إليه والتشويق بتنبيه الأذهان إليه، وإذ لم يتقدم في الكلام ما يحتمل أن يكون مشارا إليه ب)كذلك(علم أن المشار إليه مقدر معلوم من الفعل الذي بعد اسم الإشارة وهو المصدر المأخوذ من الفعل، أي كذلك الإيحاء يوحي إليك الله. وهذا استعمال متبع في نظائر هذا التركيب كما تقدم في قوله تعالى)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(في سورة البقرة. وأحسب أنه من مبتكرات القرآن إذ لم أقف على مثله في كلام العرب قبل القرآن.
وما ذكره الخفاجي في سورة البقرة من تنظيره بقول زهير:
كذلك خيمهم ولكل قوم إذا مستهم
الضراء خيم لا يصح لأن بيت زهير مسبوق بما يصلح أن يكون مشارا إليه، وقد فاتني التنبيه على ذلك فيما تقدم من الآيات فعليك بضم ما هنا إلى ما هنالك.
والجار والمجرور صفة لمفعول مطلق محذوف دل عليه)يوحي(أي إيحاء كذلك الإيحاء العجيب.

صفحة : 3841

والعدول عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع في قوله)يوحي(للدلالة على أن إيحاءه إليه متجدد لا ينقطع في مدة حياته الشريفة ليبأس المشركون من إقلاعه بخلاف قوله)وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا(وقوله)وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا(إذ لا غرض في إفادة معنى التجدد هناك. وأما مراعاة التجدد هنا فلأن المقصود من الآية هو ما أوحي به إلى محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن، وأن قوله)إلى الذين من قبلك(إدماج.
ولك أن تعتبر صيغة المضارع منظورا فيها إلى متعلقي الإيحاء وهو)إليك( )وإلى الذين من قبلك(، فتجعل المضارع لاستحضار الصورة من الإيحاء إلى الرسل حيث استبعد المشركون وقوعه فجعل كأنه مشاهد على طريقة قوله تعالى)الله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا(وقوله)ويصنع الفلك(.
وقرأ الجمهور)يوحي(بصيغة المضارع المبني للفاعل واسم الجلالة فاعل. وقرأه ابن كثير)يوحى(بالبناء للمفعول على أن)إليك(نائب فاعل، فيكون اسم الجلالة مرفوعا على الابتداء بجملة مستأنفة

استئنافا بيانيا كأنه لما قال: يوحى إليك، قيل: ومن يوحيه، فقيل: الله العزيز الحكيم، أي يوحيه الله على طريقة قول ضرار بن نهشل أو الحارث بن نهيك.

ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط

مما تطيح الطوائح إذ كانت رواية البيت بالبناء للنائب.

)له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم[4](جملة)له ما في السماوات وما في الأرض(مقررة لوصفه)العزيز الحكيم(لأن من كان ما في السماوات وما في الأرض ملكا له تتحقق له العزة لقوة ملكوته، وتتحقق له الحكمة لأن الحكمة تقتضي خلق ما في السماوات والأرض وإتقان ذلك النظام الذي تسير به المخلوقات.

ولكون هذه الجملة مقررة معنى التي قبلها كانت بمنزلة التأكيد فلم تعطف عليها.

وجملة)وهو العلي العظيم(عطف عليها مقررة لما قررته الجملة قبلها فإن من اتصف بالعلاء والعظمة لو لم يكن عزيزا لتخلف علاؤه وعظمته، ولا يكون إلا حكيما لأن علاءه يقتضي سموه عن سفاسف الصفات والأفعال، ولو لم يكن عظيما لتعلقت إرادته بسفاسف الأمور ولتنازل إلى عبث الفعال.

والعلو هنا علو مجازي، وهو السمو في الكمال بحيث كان أكمل من كل موجود كامل. والعظمة مجازية وهي جلالة الصفات والأفعال.

وأفادت صيغة الجملة معنى القصر، أي لا علي ولا عظيم غيره لأن من عداه لا يخلو عن افتقار إليه فلا علو له ولا عظمة. وهذا قصر قلب، أي دون آلهتكم فلا علو لها كما تزعمون. قال أبو سفيان أعل هبل .

وتقدم معنى هاتين الجملتين في خلال آية الكرسي من سورة البقرة.

)يكاد السماوات يتفطرن من فوقهن(جملة مستأنفة مقررة لمعنى جملة)وهو العلي العظيم(ولذلك لم تعطف عليها، أي يكاد السماوات على عظمتهن يتشققن من شدة تسخرهن فيما يسخرهن الله له من عمل لا يخالف ما قدره الله لهن، وأيضا قد قيل: إن المعنى: يكاد السماوات يتفطرن من كثرة ما فيهن من الملائكة والكواكب وتصاريف الأقدار، فيكون في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم أطت السماء وبحقها أن تئط. والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده ويرجحه تعقيبه بقوله تعالى)والملائكة يسبحون بحمد ربهم(كما سيأتي.

وقرأ نافع وحده والكسائي)يكاد(بتحتية في أوله. وقرأه الباقون بفوقية وهما وجهان جائزان في الفعل المسند إلى جمع غير المذكر السالم وخاصة مع عدم التأنيث الحقيقي. وتقدم في سورة مريم قوله)يكاد السماوات يتفطرن منه(.

صفحة : 3842

وقرأ الجمهور)يتفطرن(بتحتية ثم فوقية وأصله مضارع التفطر، وهو مطاوع التفطير الذي هو تكرير الشق. وقرأه أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بتحتية ثم نون وهو مضارع: انفطر، مطاوع الفطر مصدر فطر الثلاثي، إذا شق، وليس المقصود منه على القراءتين قبول أثر الفاعل إذ لا فاعل هنا للشق وإنما المقصود الخبر بحصول الفعل، وهذا كثير، كقولهم: انشق ضوء الفجر، فلا التفات هنا لما يقصد غالبا في مادة التفعل من تكرير الفعل إذ لا فاعل للشق هنا ولا لتكرره، فاستوت القراءتان في باب البلاغة، على أن استعمال صيغ المطاوعة في اللغة ذو أنحاء كثيرة واعتبارات كما نبه عليه كلام الرضي في شرح الشافية.
وقوله)من فوقهن(يجوز أن يكون ضمير)فوقهن(عائدا على) السماوات(، فيكون المجرور متعلقا بفعل)يتفطرن(بمعنى: أن انشقاقهن يحصل من أعلاهن، وذلك أبلغ الانشقاق لأنه إذا انشق أعلاهن كان انشقاق ما دونه أولى، كما قيل في قوله تعالى)وهي خاوية على عروشها(كما تقدم في سورة البقرة وفي سورة الحج. وتكون)من(ابتدائية.
ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى)الأرض(من قوله تعالى)وما في الأرض(على تأويل الأرض بأرضين باعتبار أجزاء الكرة الأرضية أو بتأويل الأرض بسكانها من باب)واسأل القرية(.
وتكون)من(زائدة زيادتها مع الظروف لتأكيد الفوقية، فيفيد الظرف استحضار حالة التفطر وحالة موقعه، وقد شبه انشقاق السماء بانشقاق الوردة في قوله تعالى)فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان(. والوردة تنشق من أعلاها حين ينفتح برعومها فيوشك إن هن تفطرن أن يخررن على الأرض، أي يكاد يقع ذلك لما فشا في الأرض من إشراك وفساد على معنى قوله تعالى)وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا(ويرجحه قوله الآتي)والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم(. وعن ابن عباس)يكاد السماوات يتفطرن(من قول المشركين)اتخذ الله ولدا(.

)والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم[5](جملة عطفت على جملة)يكاد السماوات يتفطرن(لإفادتها تقرير معنى عظمة الله تعالى وجلاله المدلول عليهما بقوله)وهو العلي العظيم(.

مرتبة واجب الوجود سبحانه وهو أهل التنزيه والحمد. ومرتبة الروحانيات وهي الملائكة وهي واسطة المتصرف القدير ومفيض الخير في تنفيذ أمره من تكوين وهدى وإفاضة خير على الناس، فهي حين تتلقى من الله أوامره تسبحه وتحمده، وحين تفيض خيرات ربها على عباده تستغفر للذين يتقبلونها تقبل العبيد المؤمنين بربهم، وتلك إشارة إلى حصول ثمرات إبلاغها، وذلك بتأثيرها في نظم أحوال العالم الإنساني.

ومرتبة البشرية المفضلة بالعقل إذ أكمله الإيمان وهي المراد ب)من في الأرض(.

)والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل[6](جملة معطوفة على جملة)له ما في السماوات وما في الأرض(بعد أن أفيد ما هو كالحجة على أن لله ما في السماوات وما في الأرض من قوله)وهو العلي العظيم يكاد السماوات(الآيتين. فالمعنى: قد نهضت حجة انفراده تعالى بالعزة والحكمة والعلو والعظمة وعلمها المؤمنون فاستغفرت لهم الملائكة. وأما الذين لم يبصروا تلك الحجة وعميت عليهم الأدلة فلا تهتم بشأنهم فإن الله حسبهم وما أنت عليهم بوكيل. فهذا تسكين لحزن الرسول صلى الله عليه وسلم من أجل عدم إيمانهم بوحدانية الله تعالى.

وهذه مقدمة لما سيؤمر به الرسول صلى الله عليه وسلم من الدعوة ابتداء من قوله)وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى(الآية، ثم قوله)شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا(الآيات، ثم قوله)فلذلك فادع واستقم(وقوله)قل لا أسألكم عليه أجرا(الآية.

وقوله)الذين اتخذوا من دونه أولياء(مبتدأ وجملة)الله حفيظ عليهم(خبر عن)الذين اتخذوا من دونه أولياء(.

والحفيظ: فعيل بمعنى فاعل، أي حافظ، وتختلف معانيه ومرجعها إلى رعاية الشيء والعناية به: ويكثر أن يستعمل كناية عن مراقبة أحوال المرقوب وأعماله، وباختلاف معانيه تختلف تعديته بنفسه أو

بحرف جر يناسب المعنى، وقد عدي هنا بحرف)على(كما يعدى الوكيل لأنه بمعناه.

والوكيل فعيل بمعنى مفعول وهو الموكول إليه عمل في شيء أو اقتضاء حق. يقال: وكله على كذا، ومنه الوكالة في التصرفات المالية والمخاصمة، ويكثر أن يستعمل كناية عن مراقبة أحوال الموكل عليه وأعماله. وقد استعمل)حفيظ(و)وكيل(هنا في استعمالهما الكنائي عن متقارب المعنى فلذلك قد يفسر أهل اللغة أحد هذين اللفظين بما يقرب من تفسير اللفظ الآخر كتفسير المرادف بمرادفه وذلك تسامح.

فعلى من يريد التفرقة بين اللفظين أن يرجع بهما إلى أصل مادتي)حفظ(و)وكل(، فمادة)حفظ(تقتضي قيام الحدث بفاعل وتعديته إلى مفعول، ومادة)وكل(تقتضي قيام الحدث بفاعل وتعديته إلى مفعول وتجاوزه من ذلك المفعول إلى شيء آخر وهو متعلق به، وبذلك كان فعل)حفظ(مفيدا بمجرد ذكر فاعله ومفعوله دون احتياج إلى متعلق آخر، بخلاف فعل)وكل(فإفادته متوقفة على ذكر أو على تقدير ما يدل على شيء آخر زائد على المفعول ومن علائقه، فلذلك أوثر وصف)حفيظ(هنا بالإسناد إلى اسم الجلالة لأن الله جل عن أن يكلفه غيره حفظ شيء فهو فاعل الحفظ، وأوثر وصف)وكيل(بالإسناد إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم لأن المقصود أن الله لم يكلفه بأكثر من التبليغ، والمعنى: الله رقيب عليهم لا أنت وما أنت بموكل من الله على جبرهم على الإيمان. وفي معناه قوله في آخر هذه السورة)فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ(.

وأيضا هي كالبيان لما في جملة)يكاد السماوات يتفطرن(لأن من أسباب مقاربة تفطرهن كثرة ما فيهن من الملائكة.

ولولا أنها أريد منها زيادة تقرير معنى جملة)وهو العلي العظيم(لكانت جديرة بأن تفصل ولكن رجح العطف لأجل الاهتمام بتقرير العلو والعظمة لله تعالى. وأما التبيين فيحصل بمجرد تعقيب جملة)يكاد السماوات يتفطرن(بها كما علمته آنفا.

فقوله)الملائكة(مبتدأ وجملة)يسبحون(خبر والمقصود الإعلام بجلال الله.

وتسبيح الملائكة بحمد الله: خضوع لعظمته وعلوه، والتسبيح التنزيه عن النقائص.

فتسبيح الملائكة قد يكون عبارة عن إدراكهم عظمة الله تعالى فهو: انفعال روحاني كقوله تعالى)واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة(، وقد يكون دلالة على التنزيه بما يناسب الملائكة من ظواهر

الانفعال بالطاعة أو من كلام مناسب للحالة الملكية وكذلك حمدهم ربهم واستغفارهم لمن في الأرض.
ومفعول)يسبحون(محذوف دل عليه مصاحبته)بحمد ربهم(تقديره: يسبحون ربهم، والباء للمصاحبة، أي يسبحون تسبيحا مصاحبا لحمدهم ربهم، أي الثناء عليه بصفاته الكمالية، ومن الثناء ما هو شكر على نعمه عليهم وعلى غيرهم، فالمعنى: يسبحون الله ويحمدونه.
وهذا تعريض بالمشركين إذ أعرضوا عن تسبيح ربهم وحمده وشغلوا بتحميد الأصنام التي لا نعمة لها عليهم ولا تنفعهم ولا تضرهم.
وتقديم التسبيح على الحمد إشارة إلى أن تنزيه الله عما لا يليق به أهم من إثبات صفة الكمال له لأن التنزيه تمهيد لإدراك كمالاته تعالى. ولذلك كانت الصفات المعبر عنها بصفات السلوب مقدمة في ترتيب علم الكلام على صفات المعاني)عندنا(والصفات المعنوية.

صفحة : 3844

والاستغفار لمن في الأرض: طلب المغفرة لهم بحصول أسبابها لأن الملائكة يعلمون مراتب المغفرة وأسبابها، وهم لكونهم من عالم الخير والهدى يحرصون على حصول الخير للمخلوقات وعلى اهتدائهم إلى الإيمان بالله والطاعات ويناجون نفوس الناس بدواعي الخير، وهي الخواطر الملكية. فالمراد ب)من في الأرض(من عليها يستحقون استغفار الملائكة كما قال تعالى)الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم(ثم قال)وقهم السيئات(في سورة المؤمن. وقد أثبت القرآن أن الملائكة يلعنون من تحق عليه اللعنة بقوله تعالى) أولئك عليهم لعنة الله والملائكة(في سورة البقرة. فعموم من في الأرض هنا مخصوص بما دلت عليه آية سورة المؤمن.
وجملة)ألا إن الله هو الغفور الرحيم(تذييل لجملة)والملائكة يسبحون بحمد ربهم(إلى آخرها لإبطال وهم المشركين أن شركائهم يشفعون لهم، ولذلك جيء في هذه الجملة بصيغة القصر بضمير الفصل، أي أن غير الله لا يغفر لأحد. وصدرت بأداة التنبيه للاهتمام بمفادها.
وقد أشارت الآية إلى مراتب الموجودات، وهي: والمقصود رفع التبعية عن النبي صلى الله عليه وسلم من عدم استجابتهم للتوحيد،

أي لا تخش أن نسألك على عدم اهتدائهم إذ ما عليك إلا البلاغ، وتقدم في قوله)وما أنت عليهم بوكيل(في سورة الأنعام.
وإذ قد كان الحفيظ الوكيل بمعنى كان إثبات كون الله حفيظا عليهم ونفي كون الرسول صلى الله عليه وسلم وكيلا عليهم مفيدا قصر الكون حفيظا عليهم على الله تعالى دون الرسول صلى الله عليه وسلم بطريق غير أحد طرق القصر المعروفة فإن هذا من صريح القصر ومنطوقه لا من مفهومه وهو الأصل في القصر وإن كان قليلا، ومنه قول السمؤال:
تسيل على حد الضبات نفوسنـا
وليست على غير الظبات تسيل وأما طرق القصر المعروفة في علم المعاني فهي من أسلوب الإيجاز، والقصر قصر قلب كما هو صريح طرفه الثاني في قوله)وما أنت عليهم بوكيل(نزل الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة من يحسب أنه وكيل على إيمانهم وحصل من هذا التنزيل تعريض بهم بأنهم لا يضرون الرسول صلى الله عليه وسلم إذا لم يصدقوه.
)وكذلك أوحينا إليك قرءانا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير[7]
(عطف على جملة)كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله(إلخ باعتبار المغايرة بين المعطوفة والمعطوف عليها بما في المعطوفة من كون الموحى به قرآنا عربيا، وما في المعطوف عليها من كونه من نوع ما أوحي به إلى الذين من قبله. والقول في) وكذلك أوحينا(كالقول في)كذلك يوحي إليك(.
وإنما أعيد)وكذلك أوحينا(ليبنى عليه)قرآنا عربيا(لما حجز بينهما من الفصل. وأصل النظم: كذلك يوحي إليك الله العزيز الحكيم قرآنا عربيا مع ما حصل بتلك الإعادة من التأكيد لتقرير ذلك المعنى أفضل تقرير.
والعدول عن ضمير الغائب إلى ضمير العظمة التفات.
وفي هذا إشارة إلى أنه لا فرق بين ما أوحي إليك وما أوحي إلى من قبلك، إلا اختلاف اللغات كما قال تعالى)وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم(.
والقرآن مصدر: قرأ، مثل: غفران وسبحان، وأطلق هنا على المقروء مبالغة في الاتصاف بالمقروئية لكثرة ما يقرأه القارئون وذلك لحسنه وفائدته، فقد تضمن هذا الاسم معنى الكمال بين المقروءات.
و)عربيا(نسبة إلى العربية، أي لغة العرب لأن كونه قرآنا يدل على أنه كلام، فوصفه بكونه)عربيا(يفيد أنه كلام عربي.
وقوله)لتنذر أم القرى ومن حولها(تعليل ل)أوحينا إليك قرءانا عربيا(لأن كونه عربيا يليق بحال المنذرين به وهم أهل مكة ومن

حولها، فأولئك هم المخاطبون بالدين ابتداء لما اقتضته الحكمة الإلهية من اختيار الأمة العربية لتكون أول من يتلقى الإسلام وينشره بين الأمم، ولو روعي فيه جميع الأمم المخاطبين بدعوة الإسلام لاقتضى أن ينزل بلغات لا تحصى، فلا جرم اختار الله له أفضل اللغات واختار إنزاله على أفضل البشر.

صفحة : 3845

)وأم القرى(مكة، وكنيت: أم القرى لأنها أقدم المدن العربية فدعاها العرب: أم القرى، لأن الأم تطلق على أصل الشيء مثل: أم الرأس، وعلى مرجعه مثل قولهم للراية: أم الحرب، وقولهم: أم الطريق، للطريق العظيم الذي حوله طرق صغار.

ثم إن إنذار أم القرى يقتضي إنذار بقية القرى بالأحرى، قال تعالى)وما كان ربك ليهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا(، وتقدم في قوله تعالى)ولتنذر أم القرى(في سورة الأنعام.

والمراد: لتنذر أهل أم القرى، فأطلق اسم البلد على سكانه كقوله تعالى)واسأل القرية(.

وأهل مكة هم قريش، وأما من حولها فهم النازلون حولها من القبائل مثل خزاعة وكنانة، ومن الذين حولها قريش الظواهر وهم الساكنون خارج مكة في جبالها.

والاقتصار على إنذار أم القرى ومن حولها لا يقتضي تخصيص إنذار الرسول صلى الله عليه وسلم بأهل مكة ومن حولها، ولا تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم بالإنذار دون التبشير للمؤمنين لأن تعليل الفعل بعلة باعثه لا يقتضي أن الفعل المعلل مخصص بتلك العلة ولا بمتعلقاتها إذ قد يكون للفعل الواحد علل باعثة فإن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث للناس كافة، كما قال تعالى) وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا(. والاقتصار هنا على إنذار أهل مكة ومن حولها لأنهم المقصود بالرد عليهم لإنكارهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

وانتصب)أم القرى(على المفعول به لفعل)تنذر(بتنزيل الفعل منزلة المعدى إلى مفعول واحد إذ لم يذكر معه المنذر منه وهو الذي يكون مفعولا ثانيا لفعل الإنذار. لأن أنذر يتعدى إلى مفعولين كقوله تعالى)فقل أنذرتكم صاعقة(، وفي حديث الدجال ما من نبي إلا أنذر قومه . فالمعنى: لتنذر أهل القرى ومن حولها ما ينذرونه من العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله)وتنذر يوم الجمع(أعيد فعل)تنذر(لزيادة تهويل أمر يوم الجمع لأن تخصيصه بالذكر بعد عموم الإنذار يقتضي تهويله، ولأن تعدية فعل)وتنذر(إلى)يوم الجمع(تعدية مخالفة لإنذار أم القرى لأن)يوم الجمع(مفعول ثان لفعل)وتنذر(، أي وتنذر الناس يوم الجمع، فمفعول)لتنذر(الثاني هو المنذر به ومفعول)لتنذر(الأول هو المنذر.

وانتصب)يوم الجمع(على أنه مفعول ثان لفعل)تنذر(وحذف مفعوله الأول لدلالة ما تقدم عليه، أي وتنذرهم أي أهل أم القرى يوم الجمع بالخصوص كقوله)وأنذرهم يوم الآزفة(.

ويوم الجمع: يوم القيامة، سمي)يوم الجمع(لأن الخلائق تجمع فيه للحساب، قال تعالى)يوم يجمعكم ليوم الجمع(.

والجمع مصدر، ويجوز أن يكون اسما للمجتمعين كقوله تعالى)هذا فوج مقتحم معكم(، أي يوم جماعة الناس كلهم.

وجملة)فريق من الجنة(مستأنفة استئنافا بيانيا، وعطفت عليها جملة)وفريق في السعير(فكان الجملتان جوابا لسؤال سائل عن شأن هذا الجمع إن كان بمعنى المصدر. فقيل: فريق في الجنة وفريق في السعير، أي فريق من المجموعين بهذا الجمع في الجنة وفريق في السعير، أو لسؤال سائل عن حال هذا الجمع إن كان الجمع بمعنى المجموعين. والتقدير: فريق منهم في الجنة وفريق منهم في السعير. وتقدم السعير عند قوله تعالى)كلما خبت زدناهم سعيرا(في سورة الإسراء. وسوغ الابتداء ب)فريق(وهو نكرة لوقوعها في معرض التفصيل كقول امرئ القيس:

فأقبلت زحفا على الركبتين فثوب

لبست وثوب أجـر وجملة)لا ريب فيه(معترضة بين البيان والمبين. ومعنى)لا ريب فيه(أن دلائله تنفي الشك في أنه سيقع فنزل ريب المرتابين فيه منزلة العدم لأن موجبات اليقين بوقوعه بينة، كقوله تعالى)ذلك الكتاب لا ريب فيه(في سورة البقرة.

وظرفية الريب المنفي في ضمير اليوم في قوله)لا ريب فيه(من باب إيقاع الفعل ونحوه على اسم الذات، والمراد: إيقاعه على بعض أحوالها التي يدل عليها المقام مثل)حرمت عليكم الميتة(، أي أكلها، أي لا ريب في وقوعه. وجملة)فريق في الجنة(إلخ معترضة و)فريق(خبر مبتدأ محذوف على طريقة الحذف المتابع فيه الاستعمال كما سماه السكاكي، أي هم فريق في الجنة إلخ.

)ولو شاء الله لجعلهم أمة وحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير[8](عطف على جملة) فريق في الجنة وفريق في السعير(. والغرض من هذا العطف إفادة أن كونهم فريقين أمر شاء الله تقديره، أي أوجد أسبابه بحكمته ولو شاء لقدر أسباب اتحادهم على عقيدة واحدة من الهدى فكانوا سواء في المصير، والمراد: لكانوا جميعا في الجنة.

وهذا مسوق لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على تمنيهم أن يكون الناس كلهم مهتدين ويكون جميعهم في الجنة، وبذلك تعلم أن ليس المراد: لو شاء الله لجعلهم أمة واحدة في الأمرين الهدى والضلال، لأن هذا الشق الثاني لا يتعلق الغرض ببيانه هنا وإن كان في نفس الأمر لو شاء الله لكان. فتأويل هذه الآية بما جاء في قوله تعالى)ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين(وقوله)ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين(.

وقد دل على ذلك الاستدراك الذي في قوله)ولكن يدخل من يشاء في رحمته(أي ولكن شاء مشيئة أخرى جرت على وفق حكمته، وهي أن خلقهم قابلين للهدى والضلال بتصاريف عقولهم وأميالهم، ومكنهم من كسب أفعالهم وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر بالتكليف فكان منهم المهتدون وهم الذين شاء الله إدخالهم في رحمته، ومنهم الظالمون الذين ما لهم من ولي ولا نصير.

فقوله)يدخل من يشاء في رحمته(أحد دليلين على المعنى المستدرك إذ التقدير: ولكنه جعلهم فريقين فريقا في الجنة وفريقا في السعير ليدخل من يشاء منهم في رحمته وهي الجنة. وأفهم ذلك أنه يدخل منهم الفريق الآخر في عقابه، فدل عليه أيضا بقوله)والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير(لأن نفي النصير كناية عن كونهم في بؤس وضر ومغلوبية بحيث يحتاجون إلى نصير لو كان لهم نصير، فيدخل في الظالمين مشركو أهل مكة دخولا أوليا لأنهم سبب ورود هذا العموم.

وأصل النظم: ويدخل من يشاء في غضبه، فعدل عنه إلى ما في الآية للدلالة على أن سبب إدخالهم في غضبه هو ظلمهم، أي شركهم)إن الشرك لظلم عظيم(مع إفادة أنهم لا يجدون وليا يدفع عنهم غضبه ولا نصيرا يثأر لهم. وضمير)جعلهم(عائد إلى فريق الجنة وفريق السعير باعتبار أفراد كل فريق.

)أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير[9]( )أم(للإضراب الانتقالي كما يقال: دع

الاهتمام بشأنهم وإنذارهم ولنعد إلى فظاعة حالهم في اتخاذهم من دون الله أولياء.
وتقدر بعد)أم(همزة استفهام إنكاري. فالمعنى: بل أأتخذوا من دونه أولياء، أي أتوا منكرا لما اتخذوا من دونه أولياء.
فضمير)اتخذوا(عائد إلى)الذين اتخذوا من دونه أولياء(في الجملة السابقة.
والفاء في قوله)فالله هو الولي(فاء جواب لشرط مقدر دل عليه مقام إنكار اتخاذهم أولياء من دون الله، لأن إنكار ذلك يقتضي أن أولياءهم ليست جديرة بالولاية، وأنهم ضلوا في ولايتهم إياها، فنشأ تقدير شرط معناه: إن أرادوا وليا بحق فالله هو الولي.
قال السكاكي في المفتاح وتقدير الشرط لقرائن الأحوال غير ممتنع قال تعالى)فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم(على تقدير إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم، وقال)فالله هو الولي(على تقدير: إن أرادوا وليا بحق فالله هو الولي بالحق لا ولي سواه .
والمراد بالولاية في قوله)أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي(ولاية المعبودية، فأفاد تعريف المسند في قوله)فالله هو الولي(قصر جنس الولي بهذا الوصف على الله، وإذ قد عبدوا غير الله تعين أن المراد قصر الولاية الحق عليه تعالى.
وأفاد ضمير الفصل في قوله)فالله هو الولي(تأكيد القصر وتحقيقه وأنه لا مبالغة فيه تذكيرا بأن الولاية الحق في هذا الشأن مختصة بالله تعالى.
وهذا كله مسوق إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين تسلية وتثبيتا وتعريضا بالمشركين فإنهم لا يخلون من أن يسمعوه.

صفحة : 3847

وعطف)وهو يحيي الموتى(على جملة)فالله هو الولي(إدماج لإعادة إثبات البعث ترسيخا لعلم المسلمين وإبلاغا لمسامع المنكرين لأنهم أنكروا ذلك في ضمن اتخاذهم أولياء من دون الله، فلما أبطل معتقدهم إلهية غير الله أردف بإبطال ما هو من علائق شركهم وهو نفي البعث، وليس ذلك استدلالا عليهم لإبطال إلهية آلهتهم لأن وقوع البعث مجحود عنهم.
فأما عطف جملة)وهو على كل شيء قدير(فهو لإثبات هذه الصفة لله تعالى تذكيرا بانفراده بتمام القدرة، ويفيد الاستدلال على إمكان البعث قال تعالى)وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه(، ويفيد الاستدلال على نفي الإلهية عن أصنامهم لأن من لا

يقدر على كل شيء لا يصلح للإلهية: قال تعالى)أفمن يخلق كمن لا يخلق(وقال)لا يخلقون شيئا وهم يخلقون(وقال)وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه(. والغرض من هذا تعريض بإبلاغه إلى مسامع المشركين.

ولما كان المقصود إثبات القدرة لله تعالى عطفت الجملة على التي قبلها لأنها مثلها في إفادة الحكم، وكانت إفادة التعليل بها حاصلة من موقعها عقبها، ولو أريد التعليل ابتداء لفصلت الجملة ولم تعطف.

)وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله(يجوز أن يكون هذا تكملة للاعتراض فيكون كلاما موجها من الله تعالى إلى الناس. ويجوز أن يكون ابتداء كلام متصلا بقوله)ذلكم الله ربي عليه توكلت(،)فحكمه إلى الله(تعين أن يكون مجموع هذا الكلام لمتكلم واحد، لأن ضمائر)ربي، وتوكلت، وأنيب(ضمائره، وتلك الضمائر لا تصلح أن تعود إلى الله تعالى. ولا حظ في سياق الوحي إلى أحد سوى النبي صلى الله عليه وسلم فتعين تقدير فعل أمر بقول يقوله النبي صلى الله عليه وسلم.

والجملة معطوفة على الجمل التي قبلها لأن الكلام موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين. والواو عاطفة فعل أمر بالقول، وحذف القول شائع في القرآن بدلالة القرائن لأن مادة الاختلاف مشعرة بأنه بين فريقين وحالة الفريقين مشعرة بأنه اختلاف في أمور الاعتقاد التي أنكرها الكافرون من التوحيد والبعث والنفع والإضرار.

و)من شيء(بيان لإبهام)ما(، أي أي شيء اختلفتم فيه، والمراد: من أشياء الدين وشؤون الله تعالى.

وضمير)فحكمه(عائد إلى)ما اختلفتم(على معنى: الحكم بينكم في شأنه إلى الله. والمعنى: أنه يتضح لهم يوم القيامة المحق من المبطل فيما اختلفوا فيه حين يرون الثواب للمؤمنين والعقاب للمشركين، فيعلم المشركون أنهم مبطلون فيما كانوا يزعمون.

و)إلى الله(خبر عن)حكمه(. و)إلى(للانتهاء وهو انتهاء مجازي تمثيلي، مثل تأخير الحكم إلى حلول الوقت المعين له عند الله تعالى بسير السائر إلى أحد ينزل عنده.

ولا علاقة لهذه الآية باختلاف علماء الأمة في أصول الدين وفروعه لأن ذلك الاختلاف حكمه منوط بالنظر في الأدلة والأقيسة صحة وفسادا فإصدار الحكم بين المصيب والمخطئ فيها يسير إن شاء الناس التداول والإنصاف. وبذلك توصل أهل الحق إلى التمييز بين المصيب والمخطئ، ومراتب الخطأ في ذلك، على أنه لا يناسب

سياق الآيات سابقها وتاليها ولا لأغراض السور المكية. وقد احتج بهذه الآية نفاة القياس، وهو احتجاج لا يرتضيه نطاس.
)ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب[10](يجوز أن تكون الجملة مقول قول محذوف يدل عليه قوله)لتنذر أم القرى(الآية، فتكون كلاما مستأنفا لأن الإنذار يقتضي كلاما منذرا به، ويجوز أن تكون متصلة بجملة)وما اختلفتم فيه من شيء(تكملة للكلام الموجه من الله ويكون في قوله)ربي(التفاتا من الخطاب إلى التكلم، والتقدير: ذلكم الله ربكم، وتكون جملتا)عليه توكلت وإليه أنيب(معترضتين.
والإشارة لتمييز المشار إليه وهو المفهوم من)فحكمه إلى الله(. وهذا التمييز لإبطال التباس ماهية الإلهية والربوبية على المشركين إذ سموا الأصنام آلهة وأربابا.
وأوثر اسم الإشارة الذي يستعمل للبعيد لقصد التعظيم بالبعد الاعتباري اللازم للسمو وشرف القدر، أي ذلكم الله العظيم. ويتوصل من ذلك إلى تعظيم حكمه، فالمعنى: الله العظيم في حكمه هو ربي الذي توكلت عليه فهو كافيني منكم.

صفحة : 3848

والتوكل: تفعل من الوكل، وهو التفويض في العمل، وتقدم عند قوله تعالى،)فإذا عزمت فتوكل على الله(في سورة آل عمران.
والإنابة: الرجوع، والمراد بها هنا الكناية عن ترك الاعتماد على الغير لأن الرجوع إلى الشيء يستلزم عدم وجود المطلوب عند غيره، وتقدمت الإنابة عند قوله تعالى)إن إبراهيم لحليم أواه منيب(في سورة هود.
وجيء في فعل)توكلت(بصيغة الماضي وفي فعل)أنيب(بصيغة المضارع للإشارة إلى أن توكله على الله كان سابقا من قبل أن يظهر له تنكر قومه له، فقد صادف تنكرهم منه عبدا متوكلا على ربه، وإذا كان توكله قد سبق تنكر قومه فاستمراره بعد ان كشروا له عن أنياب العدوان محقق.
وأما فعل)أنيب(فجيء فيه بصيغة المضارع للإشارة إلى تجدد الإنابة وطلب المغفرة. ويعلم تحققها في الماضي بمقارنتها لجملة) عليه توكلت(لأن المتوكل منيب، ويجوز أن يكون ذلك من الاحتباك. والتقدير: عليه توكلت وأتوكل وإليه أنبت وأنيب.
وتقديم المتعلقين في)عليه توكلت وإليه أنيب(لإفادة الاختصاص، أي لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه.

)فاطر السماوات والأرض(خبر ثان عن الضمير في قوله تعالى) وهو على كل شيء قدير(، وما بينهما اعتراض كما علمت آنفا أعقب به أنه على كل شيء قدير، فإن خلق السماوات والأرض من أبرز آثار صفة القدرة المنفرد بها.

والفاطر: الخالق، وتقدم في أول سورة فاطر.

)جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه(جملة في موضع الحال من ضمير)فاطر(لأن مضمونها حال من أحوال فطر السماوات والأرض فإن خلق الإنسان والأنعام من أعجب أحوال خلق الأرض.

ويجوز كونها خبرا ثالثا عن ضمير)وهو على كل شيء قدير(.

والمعنى: قدر في تكوين نوع الإنسان أزواجا لأفراده، ولما كان ذلك التقدير مقارنا لأصل تكوين النوع جيء فيه بالفعل الماضي.

والخطاب في قوله)لكم(للناس كلهم. والخطاب التفات من الغيبة. واللام للتعليل. وتقديم)لكم(على غيره من معمولات)جعل(ليعرف أنه معمول لذلك الفعل فلا يتوهم أنه صفة ل)أزواجا(، وليكون التعليل به ملاحظا في المعطوف بقوله)ومن الأنعام أزواجا(.

والأزواج: جمع زوج وهو الذي ينضم إلى فرد فيصير كلاهما زوجا للآخر والمراد هنا: الذكور والإناث من الناس، أي جعل لمجموعكم أزواجا، فللذكور أزواج من الإناث، وللنساء أزواج من الرجال، وذلك لأجل الجميع لأن بذلك الجعل حصلت لذة التأنس ونعمة النسل.

ومعنى)من أنفسكم(من نوعكم، ومن بعضكم، كقوله)فسلموا على أنفسكم(وقوله)ولا تقتلوا أنفسكم(. وكون الأزواج من أنفسهم كمال في النعمة لأنه لو جعل أحد الزوجين من نوع آخر لفات نعيم الأنس، وأما زعم العرب في الجاهلية أن الرجل قد يتزوج جنية أو غولا فذلك من التكاذيب وتخيلات بعضهم، وربما عرض لبعض الناس خبال في العقل خاص بذلك فتخيل ذلك وتحدث به فراج عن كل أبله.

وقوله)ومن الأنعام أزواجا(عطف على)أزواجا(الأول فهو كمفعول ل)جعل(والتقدير: وجعل من الأنعام أزواجا، أي جعل منها أزواجا بعضها لبعض. وفائدة ذكر أزواج الأنعام دون أزواج الوحش: أن في أنواع الأنعام فائدة لحياة الإنسان لأنها تعيش معه ولا تنفر منه، وينتفع بألبانها، وأصوافها، ولحومها، ونسلها، وعملها من حمل وحرث، فبجعلها أزواجا حصل معظم نفعها للإنسان.

والذرء: بث الخلق وتكثيره، ففيه معنى توالي الطبقات على مر الزمان إذ لا منفعة للناس من أزواج الأنعام باعتبارها أزواجا سوى ما يحصل من نسلها.

وضمير الخطاب في قوله)يذرؤكم(للمخاطبين بقوله)جعل لكم(. ومراد شموله لجعل أزواج من الأنعام المتقدم ذكره لأن ذكر أزواج الأنعام لم يكن هملا بل مرادا منه زيادة المنة فإن ذرء نسل الإنسان نعمة للناس وذرء نسل الأنعام نعمة أخرى للناس، ولذلك اكتفى بذكر الأزواج في جانب الأنعام عن ذكر الذرء إذ لا منفعة للناس في تزاوج الأنعام سوى ما يحصل من نسلها.

وإذ كان الضمير ضمير جماعة العقلاء وكان ضمير خطاب في حين أن الأنعام ليست عقلاء ولا مخاطبة، فقد جاء في ذلك الضمير تغليب العقلاء إذ لم يذكر ضمير صالح للعقلاء وغيرهم كأن يقال: يذراك بكسر الكاف على تأويل إرادة خطاب الجماعة.

صفحة : 3849

وجاء فيه تغليب الخطاب على الغيبة، فقد جاء فيه تغليبان. وهو تغليب دقيق إذ اجتمع في لفظ واحد نوعان من التغليب كما أشار إليه الكشاف والسكاكي في مبحث التغليب من المفتاح.

وضمير)فيه(عائد إلى الجعل المفهوم من قوله)جعل لكم(، أي في الجعل المذكور على حد قوله)اعدلوا هو أقرب للتقوى(.

وجيء بالمضارع في)يذرؤكم(لإفادة التجدد والتجدد أنسب بالامتنان.

وحرف)في(مستعار لمعنى السببية تشبيها للسبب بالظرف في احتوائه على مسبباته كاحتواء المنبع على مائه والمعدن على ترابه ومثله قوله تعالى)ولكم في القصاص حياة(.

)ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[11](خبر ثالث أو رابع عن الضمير في قوله)وهو على كل شيء قدير(. وموقع هذه الجملة كالنتيجة للدليل فإنه لما قدم ما هو نعم عظيمة تبين أن الله لا يماثله شيء من الأشياء في تدبيره وإنعامه.

ومعنى)ليس كمثله شيء(ليس مثله شيء، فأقحمت كاف التشبيه على)مثل(وهي بمعناه لأن معنى المثل هو التشبيه، فتعين أن الكاف مفيدة تأكيدا لمعنى المثل، وهو من التأكيد اللفظي باللفظ المرادف من غير جنسه، وحسنه أن المؤكد اسم فأشبه مدخول كاف التشبيه المخالف لمعنى الكاف فلم يكن فيه الثقل الذي في قول خطام المجاشعي:

وصاليات ككما يؤثفين وإذ قد كان المثل واقعا في حيز النفي فالكاف تأكيد لنفيه فكأنه نفي المثل عنه تعالى بجملتين تعليما للمسلمين كيف يبطلون مماثلة الأصنام لله تعالى.

وهذا الوجه هو رأي ثعلب وابن جني والزجاج والراغب وأبي البقاء وابن عطية.

وجعله في الكشاف وجها ثانيا، وقدم قبله أن تكون الكاف غير مزيدة، وأن التقدير: ليس شبيه مثله شيء. والمراد: ليس شبه ذاته شيء، فأثبت لذاته مثلا ثم نفي عن ذلك المثل أن يكون له مماثل كناية عن نفي المماثل لذات الله تعالى، أي بطريق لازم اللازم لأنه إذا نفي المثل عن مثله فقد انتفى المثل عنه إذ لو كان له مثل لما استقام قولك: ليس شيء مثل مثله. وجعله من باب قول العرب: فلان قد أيفعت لداته، أي أيفع هو فكني بإيفاع لداته عن إيفاعه.

وقول رقيقة بنت صيفي في حديث سقيا عبد المطلب ألا وفيهم الطيب الطاهر لداته اه، أي ويكون معهم الطيب الطاهر يعني النبي صلى الله عليه وسلم .

وتبعه على ذلك ابن المنير في الانتصاف، وبعض العلماء يقول: هو كقولك ليس لأخي زيد أخ، تريد نفي أن يكون لزيد أخ لأنه لو كان لزيد أخ لكان زيد أخا لأخيه فلما نفيت أن يكون لأخيه أخ فقد نفيت أن يكون لزيد أخ، ولا ينبغي التعويل على هذا لما في ذلك من التكلف والإبهام وكلاهما مما ينبو عنه المقام.

وقد شمل نفي المماثلة إبطال ما نسبوا لله البنات وهو مناسبة وقوعه عقب قوله)جعل لكم من أنفسكم أزواجا(الآية.

وحديث سقيا عبد المطلب، أي خبر استسقائه لقريش أن رقيقة بنت أبي صيفي قالت: تتابعت على قريش سنون أقحلت الضرع وأدقت العظم، فبينا أنا نائمة إذا هاتف يهتف: يامعشر قريش ان هذا النبي المبعوث منكم قد أظلتكم أيامه ألا فانظروا رجلا منكم وسيطا عظاما جساما أبيض أوطف الأهداب سهل الخدين أشم العرين فليخلص هو وولده، ألا وفيهم الطيب الطاهر لداته وليهبط إليه من كل بطن رجل فليشنوا من الماء وليمسوا من الطيب ثم ليرتقوا أبا قبيس فليستسق الرجل وليؤمنوا فعثتم ما شئتم إلخ. قالوا: وكان معهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ غلام.

واعلم أن هذه الآية نفت أن يكون الشيء من الموجودات مثلا لله تعالى. والمثل يحمل عند اطلاقه على أكمل أفراده، قال فخر الدين المثلان: هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيته ا ه. فلا يسمى مثلا حقا إلا المماثل في الحقيقة والماهية وأجزائها ولوازمها دون العوارض، فالآية نفت أن يكون شيء من الموجودات مماثلا لله تعالى في صفات ذاته لأن ذات الله تعالى لا يماثلها ذوات المخلوقات، ويلزم من ذلك أن كل ما ثبت للمخلوقات في محسوس ذواتها فهو منتف عن ذات الله تعالى.

وبذلك كانت هذه الآية أصلا في تنزيه الله تعالى عن الجوارح والحواس والأعضاء عند أهل التأويل والذين أثبتوا لله تعالى ما ورد في القرآن مما نسميه بالمتشابه فإنما أثبتوه مع التنزيه عن ظاهره إذ لا خلاف في إعمال قوله)ليس كمثله شيء(وأنه لا شبيه له ولا نظير له.

وإذ قد اتفقنا على هذا الأصل لم يبق خلاف في تأويل النصوص الموهمة التشبيه، إلا أن تأويل سلفنا كان تأويلا جمليا، وتأويل خلفهم كان تأويلا تفصيليا كتأويلهم اليد بالقدرة، والعين بالعلم، وبسط اليدين بالجود، والوجه بالذات، والنزول بتمثيل حال الإجابة والقبول بحال نزول المرتفع من مكانه الممتنع إلى حيث يكون سائلوه لينيلهم ما سألوه. ولهذا قالوا: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم.

ولما أفاد قوله)ليس كمثله شيء(صفات السلوب أعقب بإثبات صفة العلم لله تعالى وهي من الصفات المعنوية وذلك بوصفه ب)السميع البصير(الدالين على تعلق علمه بالموجودات من المسموعات والمبصرات تنبيها على أن نفي مماثلة الأشياء لله تعالى لا يتوهم منه أن الله منزه عن الاتصاف بما اتصفت به المخلوقات من أوصاف الكمال المعنوية كالحياة والعلم ولكن صفات المخلوقات لا تشبه صفاته تعالى في كمالها لأنها في المخلوقات عارضة، وهي واجبة لله تعالى في منتهى الكمال، فكونه تعالى سميعا وبصيرا من جملة الصفات الداخلة تحت ظلال التأويل بالحمل على عموم قوله تعالى)ليس كمثله شيء(فلم يقتضيا جارحتين.

ولقد كان تعقيب قوله ذلك بهما شبيها بتعقيب المسألة بمثالها.

)له مقاليد السماوات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم[12](خبر رابع أو خامس عن الضمير في قوله) وهو على كل شيء قدير(وموقع هذه الجملة كموقع التي قبلها تتنزل منزلة النتيجة لما تقدمها، لأنه إذا ثبت أن الله هو الولي وما تضمنته الجمل بعدها إلى قوله)يذرؤكم فيه(من انفراده بالخلق، ثبت أنه المنفرد بالرزق.

والمقاليد: جمع إقليد على غير قياس، أو جمع مقلاد، وهو المفتاح، وتقدم عند قوله تعالى)له مقاليد السماوات والأرض(في سورة الزمر.

وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص، أي هي ملكه لا ملك غيره.

والمقاليد هنا استعارة بالكناية لخيرات السماوات والأرض، شبهت الخيرات بالكنوز، وأثبت لها ما هو من مرادفات المشبه به وهو المفاتيح، والمعنى: أنه وحده المتصرف بما ينفع الناس من الخيرات. وأما ما يتراءى من تصرف بعض الناس في الخيرات الأرضية بالإعطاء والحرمان والتقتير والتبذير فلا اعتداد به لقلة جدواه بالنسبة لتصرف الله تعالى.

وجملة)يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر(مبينة لمضمون جملة)له مقاليد السماوات والأرض(. وبسط الرزق: توسعته، وقدره كناية عن قلته،وتقدم عند قوله)الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر(في سورة الرعد.

وجملة)إنه بكل شيء عليم(استئناف بياني هو كالعلة لقوله)لمن يشاء(، أي أن مشيئته جارية على حسب علمه بما يناسب أحوال المرزوقين من بسط أو قدر.

وبيان هذا في قوله الآتي)ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض(.

)شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه(انتقال من الامتنان بالنعم الجثمانية إلى الامتنان بالنعمة الروحية بطريق الإقبال على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للتنويه بدين الإسلام وللتعريض بالكفار الذين أعرضوا عنه. فالجملة ابتدائية.

ومعنى)شرع(أوضح وبين لكم مسالك ما كلفكم به. وأصل) شرع(جعل طريقا واسعة، وكثر إطلاقه على سن القوانين والأديان فسمي الدين شريعة. فشرع هنا مستعار للتبيين كما في قوله)أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله(، وتقدم في قوله تعالى)لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا(في سورة العقود.

والتعريف في)الدين(تعريف الجنس، وهو يعم الأديان الإلهية السابقة. و)من(للتبعيض.

والتوصية: الأمر بشيء مع تحريض على إيقاعه والعمل به.

صفحة : 3851

ومعنى كونه شرع للمسلمين من الدين ما وصى به نوحا أن الإسلام دين مثل ما أمر به نوحا وحضه عليه. فقوله)ما وصى به نوحا(مقدر فيه مضاف، أي مثل ما وصى به نوحا، أو هو بتقدير كاف التشبيه على طريقة التشبيه البليغ مبالغة في شدة المماثلة

حتى صار المثل كأنه عين مثله. وهذا تقدير شائع كقول ورقة بن نوفل هذا هو الناموس الذي أنزل على عيسى .

والمراد: المماثلة في أصول الدين مما يجب لله تعالى من الصفات، وفي أصول الشريعة من كليات التشريع، وأعظمها توحيد الله، ثم ما بعده من الكليات الخمس الضروريات، ثم الحاجيات التي لا يستقيم نظام البشر بدونها، فإن كل ما اشتملت عليه الأديان المذكورة من هذا النوع قد أودع مثله في دين الإسلام.

فالأديان السابقة كانت تأمر بالتوحيد، والإيمان بالبعث والحياة الآخرة، وتقوى الله بامتثال أمره واجتناب منهيه على العموم، وبمكارم الأخلاق بحسب المعروف، قال تعالى)قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى(. وتختلف في تفاصيل ذلك وتفاريعه.

ودين الإسلام لم يخل عن تلك الأصول وإن خالفها في التفاريع تضييقا وتوسيعا، وامتازت هذه الشريعة بتعليل الأحكام، وسد الذرائع، والأمر بالنظر في الأدلة، وبرفع الحرج، وبالسماحة، وبشدة الاتصال بالفطرة، وقد بينت ذلك في كتابي مقاصد الشريعة الإسلامية.

أو المراد المماثلة فيما وقع عقبه بقوله)أن أقيموا الدين(إلخ بناء على أن تكون)أن(تفسيرية، أي شرع لكم وجوب إقامة الدين الموحى به وعدم التفرق فيه كما سيأتي. وأيا ما كان فالمقصود أن الإسلام لا يخالف هذه الشرائع المسماة وأن اتباعه يأتي بما أتت به من خير الدنيا والآخرة.

والاقتصار على ذكر دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن نوحا أول رسول أرسله الله إلى الناس، فدينه هو أساس الديانات، قال تعالى)إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده(ولأن دين إبراهيم هو أصل الحنيفية وانتشر بين العرب بدعوة إسماعيل إليه فهو أشهر الأديان بين العرب، وكانوا على أثارة منه في الحج والختان والقرى والفتوة. ودين موسى هو أوسع الأديان السابقة في تشريع الأحكام، وأما دين عيسى فلأنه الدين الذي سبق دين الإسلام ولم يكن بينهما دين آخر، وليتضمن التهيئة إلى دعوة اليهود والنصارى إلى دين الإسلام.

وتعقيب ذكر دين نوح بما أوحي إلى محمد عليهما السلام للإشارة إلى أن دين الإسلام هو الخاتم للأديان، فعطف على أول الأديان جمعا بين طرفي الأديان، ثم ذكر بعدهما الأديان الثلاثة الأخر لأنها متوسطة بين الدينين المذكورين قبلها. وهذا نسج بديع من نظم الكلام، ولولا هذا الاعتبار لكان ذكر الإسلام مبتدأ به كما في قوله)

إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده(وقوله)وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح(الآية في سورة الأحزاب.
وذكر في الكشاف في آية الأحزاب أن تقديم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في التفصيل لبيان أفضليته لأن المقام هنالك لسرد من أخذ عليهم الميثاق، وأما آية سورة الشورى فإنما أوردت في مقام وصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة فكأن الله قال: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث به نوحا في العهد القديم وبعث به محمد صلى الله عليه وسلم في العهد الحديث، وبعث به من توسط بينهما.
فقوله)والذي أوحينا إليك(هو ما سبق نزوله قبل هذه الآية من القرآن بما فيه من أحكام، فعطفه على ما وصى به نوحا لما بينه وبين ما وصى به نوحا من المغايرة بزيادة التفصيل والتفريع. وذكره عقب ما وصى به نوحا للنكتة التي تقدمت.
وفي قوله تعالى)ما وصى به نوحا(وقوله)وما وصينا به إبراهيم(، جيء بالموصول)ما(، وفي قوله)والذي أوحينا إليك(جيء بالموصول)الذي(، وقد يظهر في بادئ الرأي أنه مجرد تفنن بتجنب تكرير الكلمة ثلاث مرات متواليات، وذلك كاف في هذا التخالف. وليس يبعد عندي أن يكون هذا الاختلاف لغرض معنوي، وأنه فرق في استعمال الكلام البليغ وهو أن)الذي(وأخوته هي الأصل في الموصولات فهي موضوعة من أصل الوضع للدلالة على من يعين بحالة معروفة هي مضمون الصلة، ف)الذي(يدل على معروف عند المخاطب بصلته.

صفحة : 3852

وأما)ما(الموصولة فأصلها اسم عام نكرة مبهمة محتاجة إلى صفة نحو قوله تعالى)إن الله نعما يعظكم به(عند الزمخشري وجماعة إذ قدروه: نعم شيئا يعظكم به. ف)ما(نكرة تمييز ب)نعم(وجملة)يعظكم به(صفة لتلك النكرة. وقال سيبويه في قوله تعالى)هذا ما لدي عتيد(المراد: هذا شيء لدي عتيد، وأنشدوا:
لما نافع يسعى اللبيب فلا تكن
لشيء بعيد نفعه الدهر ساعيا أي لشيء نافع، فقد جاءت صفتها اسما مفردا بقرينة مقابلته بقوله: لشيء بعيد نفعه، ثم يعرض ب)ما(التعريف بكثرة استعمالها نكرة موصوفة بجملة فتعرفت بصفتها وأشبهت اسم الموصول في ملازمة الجملة بعدها، ولذلك كثر استعمال)ما(موصولة في غير العقلاء، فيكون إيثار)ما وصى به

نوحا وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى(بحرف)ما(لمناسبة أنها شرائع بعد العهد بها فلم تكن معهودة عند المخاطبين إلا إجمالا فكانت نكرات لا تتميز إلا بصفاتها، وأما إيثار الموحى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم باسم)الذي(فلأنه شرع متداول فيهم معروف عندهم. فالتقدير: شرع لكم شيئا وصى به نوحا وشيئا وصى به إبراهيم وموسى وعيسى، والشيء الموحى به إليك. ولعل هذا من نكت الإعجاز المغفول عنها.

وفي العدول من الغيبة إلى التكلم في قوله)والذي أوحينا إليك(بعد قوله)شرع لكم(التفات.

وذكر في جانب الشرائع الأربع السابقة فعل)وصى(وفي جانب شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فعل الإيحاء لأن الشرائع التي سبقت شريعة الإسلام كانت شرائع مؤقتة مقدرا ورود شريعة بعدها فكان العمل بها كالعمل الذي يقوم به مؤتمن على شيء حتى يأتي صاحبه، وليقع الاتصال بين فعل)أوحينا إليك(وبين قوله في صدر السورة)كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم(.

و)أن(في قوله)أن أقيموا الدين(يجوز أن تكون مصدرية، فإنها قد تدخل على الجملة الفعلية التي فعلها متصرف، والمصدر الحاصل منها في موضع بدل الاشتمال من)ما(الموصولة الأولى أو الأخيرة. وإذا كان بدلا من إحداهما كان في معنى البدل من جميع أخواتهما لأنها سواء في المفعولية لفعل)شرع(بواسطة العطف فيكون الأمر بإقامة الدين والنهي عن التفرق فيه مما اشتملت عليه وصاية الأديان.

ويجوز أن تكون تفسيرية لمعنى)وصى(لأنه يتضمن معنى القول دون حروفه. فالمعنى: أن إقامة الدين واجتماع الكلمة عليه أوصى الله بها كل رسول من الرسل الذين سماهم. وهذا الوجه يقتضي أن ما حكي شرعه في الأديان السابقة هو هذا المعنى وهو إقامة الدين المشروع كما هو، والإقامة مجملة يفسرها ما في كل دين من الفروع.

وإقامة الشيء: جعله قائما، وهي استعارة للحرص على العمل به كقوله)ويقيمون الصلاة(، وقد تقدم في سورة البقرة.

وضمير)أقيموا(مراد به: أمم أولئك الرسل ولم يسبق لهم ذكر في اللفظ لكن دل على تقديرهم ما في فعل)وصى(من معنى التبليغ. وأعقب الأمر بإقامة الدين بالنهي عن التفرق في الدين.

والتفرق: ضد التجمع، وأصله: تباعد الذوات، أي اتساع المسافة بينها ويستعار كثيرا لقوة الاختلاف في الأحوال والآراء كما هنا، وهو يشمل التفرق بين الأمة بالإيمان بالرسول، والكفر به، أي لا تختلفوا

على أنبيائكم، ويشمل التفرق بين الذين آمنوا بأن يكونوا نحلا وأحزابا، وذلك اختلاف الأمة في أمور دينها، أي في أصوله وقواعده ومقاصده، فإن الاختلاف في الأصول يفضي إلى تعطيل بعضها فينخرم بعض أساس الدين.

والمراد: ولا تتفرقوا في إقامته بأن ينشط بعضهم لإقامته ويتخاذل البعض، إذ بدون الاتفاق على إقامة الدين يضطرب أمره. ووجه ذلك أن تأثير النفوس إذا اتفقت يتوارد على قصد واحد فيقوى ذلك التأثير ويسرع في حصول الأثر إذ يصير كل فرد من الأمة معينا للآخر فيسهل مقصدهم من إقامة دينهم. أما إذا حصل التفرق والاختلاف فذلك مفض إلى ضياع أمور الدين في خلال ذلك الاختلاف، ثم هو لا يلبث أن يلقي بالأمة إلى العداوة بينها وقد يجرهم إلى أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر، ولذلك قال الله تعالى)ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم(.

صفحة : 3853

وأما الاختلاف في فروعه بحسب استنباط أهل العلم بالدين فذلك من التفقه الوارد فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين .

)كبر على المشركين ما تدعوهم إليه(اعتراض بين جملة)شرع لكم من الدين(وجملة)وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم(. ولك أن تجعله استئنافا بيانيا جوابا عن سؤال من يتعجب من إعراض المشركين عن الإسلام مع أنه دين مؤيد بما سبق من الشرائع الإلهية، فأجيب إجمالا بأنه كبر على المشركين وتجهموه و)كبر(بمعنى صعب، وقريب منه إطلاق ثقل، أي عجزوا عن قبول ما تدعوهم إليه، فالكبر مجاز استعير للشيء الذي لا تطمئن النفس لقبوله، والكبر في الأصل الدال على ضخامة الذات لأن شأن الشيء الضخم أن يعسر حمله. ولما فيه من تضمين معنى ثقل عدي ب)على(.

وعبر عن دعوة الإسلام ب)ما(الموصولة اعتبارا بنكران المشركين لهذه الدعوة واستغرابهم إياها،وعدهم إياها من المحال الغريب، وقد كبر عليهم ذلك من ثلاث جهات: جهة الداعي لأنه بشر مثلهم قالوا)أبعث الله بشرا رسولا(، ولأنه لم يكن قبل الدعوة من عظماء القريتين)لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم(.

وجهة ما به الدعوة فإنهم حسبوا أن الله لا يخاطب الرسل إلا بكتاب ينزله إليه دفعة من السماء فقد قالوا)لن نؤمن لك حتى

تنزل علينا كتابا نقرؤه( )وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا( )وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله(والقائلون هم المشركون.

ومن جهة ما تضمنته الدعوة مما لم تساعد أهواءهم عليه قالوا) أجعل الآلهة إلها واحدا( )هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد(.

وجيء بالفعل المضارع في)تدعوهم(للدلالة على تجدد الدعوة واستمرارها.

)الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب[13](استئناف بياني جواب عن سؤال من يسأل: كيف كبرت على المشركين دعوة الإسلام، بأن الله يجتبي من يشاء. فالمشركون الذين لم يقتربوا من هدى الله غير مجتبين إلى الله إذ لم يشأ اجتباءهم، أي لم يقدر لهم الاهتداء.

ويجوز أن يكون ردا على إحدى شبههم الباعثة على إنكارهم رسالته بأن الله يجتبي من يشاء. ولا يلزمه مراعاة عوائدكم في الزعامة والاصطفاء.

والاجتباء: التقريب والاختيار قال تعالى)قالوا لولا اجتبيتها(. ومن يشاء الله اجتباءه من هداه إلى دينه ممن ينيب وهو أعلم بسرائر خلقه.

وتقديم المسند إليه وهو اسم الجلالة على الخبر الفعلي لإفادة القصر ردا على المشركين الذين أحالوا رسالة بشر من عند الله. وحين أكبروا أن يكون الضعفة من المؤمنين خيرا منهم.

)وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم(عطف على جملة) ولا تتفرقوا فيه(وما بينهما اعتراض كما علمت، وفي الكلام حذف يدل عليه قوله)وما تفرقوا(تقديره: فتفرقوا. وضمير)تفرقوا(عائد إلى ما عاد إليه ضمير)أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا(وهم أمم الرسل المذكورين، أي أوصيناهم بواسطة رسلهم بأن يقيموا الدين. دل على تقديره ما في فعل)وصى(من معنى التبليغ كما تقدم.

والعلم: إدراك العقل جزما أو ظنا.

ومجيء العلم إليهم يؤذن بأن رسلهم بينوا لهم مضار التفرق من عهد نوح كما حكى الله عنه في قوله)ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا(إلى قوله)سبلا فجاجا(في سورة نوح. وإنما تلقى ذلك العلم علماؤهم.

ويجوز أن يكون المراد بالعلم سبب العلم، أي إلا من بعد مجيء النبي صلى الله عليه وسلم بصفاته الموافقة لما في كتابهم فتفرقوا في اختلاق المطاعن والمعاذير الباطلة لينفوا مطابقة الصفات،

فيكون كقوله تعالى)وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة(على أحد تفسيرين.

صفحة : 3854

والمعنى: وما تفرقت أممهم في أديانهم إلا من بعد ما جاءهم العلم على لسان رسلهم من النهي عن التفرق في الدين مع بيانهم لهم مفاسد التفرق وأضراره، أي أنهم تفرقوا عالمين بمفاسد التفرق غير معذورين بالجهل. وهذا كقوله تعالى)وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة(على التفسير الآخر.

وذكر سبب تفرقهم بقوله)بغيا بينهم(أي تفرقوا لأجل العداوة بينهم، أي بين المتفرقين، أي لم يحافظوا على وصايا الرسل.

وهذا تعريض بالمشركين في إعراضهم عن دعوة الإسلام لعداوتهم للمؤمنين وقوله)ولولا كلمة سبقت من ربك(إلخ تحذير للمؤمنين من مثل ذلك الاختلاف. وتنكير)كلمة(للتنويع لأن لكل فريق من المتفرقين في الدين كلمة من الله في تأجيلهم فهو على حد قوله تعالى)وعلى أبصارهم غشاوة(. وتنكير)أجل(أيضا للتنويع لأن لكل أمة من المتفرقين أجلا مسمى، فهي آجال متفاوتة في الطول والقصر ومختلفة بالأزمنة والأمكنة.

والمراد بالكلمة ما أراده الله من إمهالهم وتأخير مؤاخذتهم إلى أجل لهم اقتضته حكمته في نظام هذا العالم، فربما أخرهم ثم عذبهم في الدنيا، وربما أخرهم إلى عذاب الآخرة، وكل ذلك يدخل في الأجل المسمى، ولكل ذلك كلمته. فالكلمة هنا مستعارة للإرادة والتقدير. وسبقها تقدمها من قبل وقت تفرقهم وذلك سبق علم الله بها وإرادته إياها على وقف علمه وقدره، وقد تقدم نظير هذه الكلمة في سورة هود وفي سورة طه.

)وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب[14]

(عطف على جملة)وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم(إلى قوله)لقضي بينهم(. وهذه الجملة هي المقصود من جملة)شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا(إلى قوله)ولا تتفرقوا فيه(، لأن المقصود أهل الكتاب الموجودون في زمن نزول الآية.

وإذ قد كانت من الأمم التي أوحى الله إلى رسلهم أمتان موجودتان في حين نزول هذه الآية وهما اليهود والنصارى، وكانتا قد تفرقتا فيما جاءهم به العلم، وكان الله قد أخر القضاء بين المختلفين منهم إلى أجل مسمى، وكانوا لما بلغتهم رسالة محمد

صلى الله عليه وسلم شكوا في انطباق الأوصاف التي وردت في الكتاب بوصف النبي الموعود به.
فالمعنى: أنه كما تفرق أسلافهم في الدين قبل بعثة النبي الموعود به تفرق خلفهم مثلهم وزادوا تفرقا في تطبيق صفات النبي الموعود به تفرقا ناشئا عن التردد والشك، أي دون بذل الجهد في تحصيل اليقين، فلم يزل الشك دأبهم.
فالمخبر عنهم بأنهم في شك: هم الذين أورثوا الكتاب من بعد سلفهم.
وقد جاء نظم الآية على أسلوب إيجاز يتحمل هذه المعاني الكثيرة وما يتفرع عنها، فجيء بضمير)منه(بعد تقدم ألفاظ صالحة لأن تكون معاد ذلك الضمير، وهي لفظ)الدين(في قوله)من الدين(، ولفظ)الذي(في قوله)والذي أوحينا إليك(، و)ما(الموصولة في قوله)ما تدعوهم إليه(، وهذه الثلاثة مدلولها الإسلام. وهنالك لفظ) ما وصينا(المتعدي إلى موسى وعيسى، ولفظ)الكتاب(في قوله) وإن الذين أورثوا الكتاب(. وهذان مدلولهما كتابا أهل الكتاب.
وهؤلاء الذين أوتوا الكتاب هم الموجودون في وقت نزول الآية.
والإخبار عنهم بأنهم في شك ناشئ من تلك المعادات للضمير معناه: أن مبلغ كفرهم وعنادهم لا يتجاوز حالة الشك في صدق الرسالة المحمدية، أي ليسوا مع ذلك بموقنين بأن الإسلام باطل، ولكنهم ترددوا ثم أقدموا على التكذيب به حسدا وعنادا. فمنهم من بقي حالهم في الشك. ومنهم من أيقن بأن الإسلام حق، كما قال تعالى)الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون(. ويحتمل أن المعنى لفي شك بصدق القرآن أو في شك مما في كتابهم من الأمور التي تفرقوا فيها، أو ما في كتابهم من الدلالة على مجيء النبي الموعود به وصفاته.
فهذه معان كثيرة تتحملها الآية وكلها منطبقة على أهل الكتابين وبذلك يظهر أنه لا داعي إلى صرف كلمة)شك(عن حقيقتها.
ومعنى)أورثوا الكتاب(صار إليهم علم الكتاب الذي اختلف فيه سلفهم فاستعير الإرث للخلفية في علم الكتاب.
والتعريف في)الكتاب(للجنس ليشمل كتاب اليهود وكتاب النصارى.

صفحة : 3855

فضمير)من بعدهم(عائد إلى ما عاد إليه ضمير)تفرقوا(وهم الذين خوطبوا بقوله)ولا تتفرقوا فيه(.

وظرفية قوله)في شك(ظرفية مجازية وهي استعارة تبعية، شبه تمكن الشك من نفوسهم بإحاطة الظرف بالمظروف.
و)من(في قوله)لفي شك منه(ابتدائية وهو ابتداء مجازي معناه المصاحبة والملابسة، أي شك متعلق به أو في شك بسببه. ففي حرف)من(استعارة تبعية، وقع حرف)من(موقع باء المصاحبة أو السببية.
وتأكيد الخبر ب)إن(للاهتمام ومجرد تحقيقه للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وهذا الاهتمام كناية عن التحريض للحذر من مكرهم وعدم الركون إليهم لظهور عداوتهم لئلا يركنوا إليهم، ولعل اليهود قد أخذوا يومئذ في تشكيك المسلمين واختلطوا بهم في مكة ليتطلعوا حال الدعوة المحمدية.
هذا هو الوجه في تفسير هذه الآية وهو الذي يلتئم مع ما قبله ومع قوله بعده)ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم(الآية.
والمريب: الموجب الريب وهو الاتهام. فالمعنى: لفي شك يفضي إلى الظنة والتهمة، أي شك مشوب بتكذيب، ف)مريب(اسم فاعل من أراب الذي همزته للتعدية، أي جاعل الريب، وليست همزة أراب التي هي للجعل في قولهم: أرابني بمعنى أوهمني منه ريبة وهو ليس بذي ريب، كما في قول بشار:
أخوك الذي إن ربته قال إنما أربت
وإن عاتبته لان جانبه على رواية فتح التاء من)أربت(، وتقدم قوله)وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب(في هود.
)فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير[15](الفاء للتفريع على قوله)شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا(إلى آخره، المفسر بقوله)أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه(المخلل بعضه بجمل معترضة من قوله)كبر على المشركين(إلى)من ينيب(.
واللام يجوز أن تكون للتعليل وتكون الإشارة بذلك إلى المذكور، أي جميع ما تقدم من الأمر بإقامة الدين والنهي عن التفرق فيه وتلقي المشركين للدعوة بالتجهم وتلقي المؤمنين لها بالقبول والإنابة، وتلقي أهل الكتاب لها بالشك، أي فلأجل جميع ما ذكر فادع واستقم، أي لأجل جميع ما تقدم من حصول الاهتداء لمن هداهم الله ومن تبرم المشركين ومن شك أهل الكتاب فادع.
ولم يذكر مفعول)ادع(لدلالة ما تقدم عليه، أي ادع المشركين والذين أوتوا الكتاب والذين اهتدوا وأنابوا.

وتقديم)لذلك(على متعلقه وهو فعل)ادع(للاهتمام بما احتوى عليه اسم الإشارة إذ هو مجموع أسباب للأمر بالدوام على الدعوة.
ويجوز أن تكون اللام في قوله)فلذلك(لام التقوية وتكون مع مجرورها مفعول)ادع(. والإشارة إلى)الدين(من قوله)شرع لكم من الدين(أي فادع لذلك الدين.
وتقديم المجرور على متعلقه للاهتمام بالدين.
وفعل الأمر في قوله)فادع(مستعمل في الدوام على الدعوة كقوله)يأيها الذين أمنوا بالله ورسوله(، بقرينة قوله)كما أمرت(، وفي هذا إبطال لشبهتهم في الجهة الثالثة المتقدمة عند قوله تعالى)كبر على المشركين ما تدعوهم إليه(.
والفاء في قوله)فادع(يجوز أن تكون مؤكدة لفاء التفريع التي قبلها، ويجوز أن تكون مضمنة معنى الجزاء لما في تقديم المجرور من مشابهة معنى الشرط كما في قوله تعالى)فبذلك فليفرحوا(.
والاستقامة: الاعتدال، والسين والتاء فيها للمبالغة مثل: أجاب واستجاب. والمراد هنا الاعتدال المجازي وهو اعتدال الأمور النفسانية من التقوى ومكارم الأخلاق، وإنما أمر بالاستقامة، أي الدوام عليها، للإشارة إلى أن كمال الدعوة إلى الحق لا يحصل إلا إذا كان الداعي مستقيما في نفسه.

صفحة : 3856

والكاف في)كما أمرت(لتشبيه معنى المماثلة، أي دعوة واستقامة مثل الذي أمرت به، أي على وفاقه، أي وافية بما أمرت به. وهذه الكاف مما يسمى كاف التعليل كقوله تعالى)واذكروه كما هداكم(، وليس التعليل من معاني الكاف في التحقيق ولكنه حاصل معنى يعرض في استعمال الكاف إذا أريد تشبيه عاملها بمدخولها على معنى المطابقة والموافقة.
والاتباع يطلق مجازا على المجاراة والموافقة، وعلى المحاكاة والمماثلة في العمل، والمراد هنا كلا الإطلاقين ليرجع النهي إلى النهي عن مخالفة الأمرين المأمور بهما في قوله)فادع واستقم(.
وضمير)أهواءهم(للذين ذكروا من قبل من المشركين والذين أوتوا الكتاب، والمقصود: نهي المسلمين عن ذلك من باب)لئن أشركت ليحبطن عملك(ألا ترى إلى قوله)فاستقم كما أمرت ومن تاب معك(في سورة هود.
ويجوز أن يكون معنى)ولا تتبع أهواءهم(لاتجارهم في معاملتهم، أي لا يحملك طعنهم في دعوتك على عدم ذكر فضائل رسلهم

وهدي كتبهم عدا ما بدلوه منها فأعلن بأنك مؤمن بكتبهم، ولذلك عطف على قوله)ولا تتبع أهواءهم(قوله)وقل أمنت بما أنزل الله من كتاب(الآية، فموقع واو العطف فيه بمنزلة موقع فاء التفريع. ويكون المعنى كقوله تعالى)ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى(في سورة المائدة.

والأهواء: جمع هوى وهو المحبة، وغلب على محبة ما لا نفع فيه، أي ادعهم إلى الحق وإن كرهوه، واستقم أنت ومن معك وإن عاداكم أهل الكتاب فهم يحبون أن تتبعوا ملتهم، وهذا من معنى قوله)ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير(.

وقوله)وقل أمنت بما أنزل الله من كتاب(بعد قوله)فادع(أمر بمخالفة اليهود إذ قالوا)نؤمن ببعض(يعنون التوراة،)ونكفر ببعض(يعنون الإنجيل والقرآن، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون بالإيمان بالكتب الثلاثة الموحى بها من الله كما قال تعالى)وتؤمنون بالكتاب كله(. فالمعنى: وقل لمن يهمه هذا القول وهم اليهود. وإنما أمر بأن يقول ذلك إعلانا به وإبلاغا لأسماع اليهود، فلا يقابل إنكارهم حقية كتابه بإنكاره حقية كتابهم وفي هذا إظهار لما تشتمل عليه دعوته من الإنصاف.

و)من كتاب(بيان لما أنزل الله، فالتنكير في)كتاب(للنوعية، أي بأي كتاب أنزله الله وليس يومئذ كتاب معروف غير التوراة والإنجيل والقرآن.

وضمير)بينكم(خطاب للذين أمر بأن يوجه هذا القول إليهم وهم اليهود، أي أمرت أن أقيم بينكم العدل بأن أدعوكم إلى الحق ولا أظلمكم لأجل عداواتكم ولكني أنفذ أمر الله فيكم ولا أنتمي إلى اليهود ولا إلى النصارى.

ومعنى)بينكم(أنني أقيم العدل بينكم فلا ترون بينكم جورا مني، ف)بين(هنا ظرف متحد غير موزع فهو بمعنى وسط الجمع وخلاله، بخلاف)بين(في قول القائل: قضى بين الخصمين أو قسم المال بين العفاة. فليس المعنى: لأعدل بين فرقكم إذ لا يقتضيه السياق.

وفي هذه الآية مع كونها نازلة في مكة في زمن ضعف المسلمين إعجاز بالغيب يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون له الحكم على يهود بلاد العرب مثل أهل خيبر وتيماء وقريظة والنضير وبني قينقاع، وقد عدل فيهم وأقرهم على أمرهم حتى ظاهروا عليه الأحزاب كما تقدم في سورة الأحزاب.

واللام في قوله)لأعدل(لام يكثر وقوعها بعد أفعال مادتي الأمر والإرادة، نحو قوله تعالى)يريد الله ليبين لكم(، وتقدم الكلام عليها وبعضهم يجعلها زائدة.
وجملة)الله ربنا وربكم(من المأمور بأن يقوله. فهي كلها جملة مستأنفة عن جملة)آمنت بما أنزل الله من كتاب(مقررة لمضمونها لأن المقصود من جملة)الله ربنا وربكم(بحذافرها هو قوله)لا حجة بيننا وبينكم(فهي مقررة لمضمون)آمنت بما أنزل الله من كتاب(، وإنما ابتدئت بجملتي)الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم(تمهيدا للغرض المقصود وهو لا حجة بيننا وبينكم، فلذلك كانت الجمل كلها مفصولة عن جملة)آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم(.

صفحة : 3857

والمقصود من قوله)الله ربنا وربكم(أننا متفقون على توحيد الله تعالى كقوله تعالى)قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا(الآية، أي فالله الشهيد علينا وعليكم إذ كذبتم كتابا أنزل من عنده، فالخبر مستعمل في التسجيل والإلزام.
وجملة)لنا أعمالنا ولكم أعمالكم(دعوة إنصاف، أي أن الله يجازي كلا بعمله. وهذا خبر مستعمل في التهديد والتنبيه على الخطأ.
وجملة)لا حجة بيننا وبينكم(هي الغرض المقصود بعد قوله) وأمرت لأعدل بينكم(أي أعدل بينكم ولا أخاصمكم على إنكاركم صدقي.
والحجة: الدليل الذي يدل المسوق إليه على صدق دعوى القائم به وإنما تكون الحجة بين مختلفين في دعوى. ونفي الحجة نفي جنس يجوز أن يكون كناية عن نفي المجادلة التي من شأنها وقوع الاحتجاج كناية عن عدم التصدي لخصومتهم فيكون المعنى الإمساك عن مجادلتهم لأن الحق ظهر وهم مكابرون فيه وهذا تعريض بأن الجدال معهم ليس بذي جدوى.
ويجوز أن يكون المنفي جنس الحجة المفيدة، بمعونة القرينة مثل لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب. والمعنى: أن الاستمرار على الاحتجاج عليهم بعد ما أظهر لهم من الأدلة يكون من العبث، وهذا تعريض بأنهم مكابرون.
وأياما كان فليس هذا النفي مستعملا في النهي عن التصدي للاحتجاج عليهم فقد حاجهم القرآن في آيات كثيرة نزلت بعد هذه

وحاجهم النبي صلى الله عليه وسلم في قضية الرجم وقد قال الله تعالى)ولا تجادلوا أهل الكتاب غلا بالتي هي أحسن(فالاستثناء صريح في مشروعية مجادلتهم.

و)بين(المكررة في قوله)بيننا وبينكم(ظرف موزع على جماعات أو أفراد ضمير المتكلم المشارك. وضمير المخاطبين، كما يقال: قسم بينهم، وهذا مخالف ب)بين(المتقدم آنفا.

والمراد بالجمع في قوله)الله يجمع بيننا(الحشر لفصل القضاء، فيومئذ يتبين المحق من المبطل، وهذا كلام منصف. ولما كان مثل هذا الكلام لا يصدر إلا من الواثق بحقه كان خطابهم به مستعملا في المتاركة والمحاجزة، أي سأترك جدالكم ومحاجتكم لقلة جدواها فيكم وأفوض أمري إلى الله يقضي بيننا يوم يجمعنا، فهذا تعريض بأن القضاء سيكون له عليهم.

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله)الله يجمع بيننا(للتقوي، أي تحقيق وقوع هذا الجمع وإلا فإن المخاطبين وهم اليهود يثبتون البعث. و)بين(هنا ظرف موزع مثل الذي في قوله)لا حجة بيننا وبينكم(.

وجملة)وإليه المصير(عطف على جملة)يجمع بيننا(. والتعريف في)المصير(للاستغراق، أي مصير الناس كلهم، فبذلك كانت الجملة تذييلا بما فيها من العموم، أي مصيرنا ومصيركم ومصير الخلق كلكم.

وهذه الجمل الأربع تقتضي المحاجزة بين المؤمنين وبين اليهود وهي محاجزة في المقاولة ومتاركة في المقاتلة في ذلك الوقت حتى أذن الله في قتالهم لما ظاهروا الأحزاب.

وليس في صيغ هذه الجمل ما يقتضي دوام المتاركة إذ ليس فيها ما يقتضي عموم الأزمنة فليس الأمر بقتال بعضهم بعد يوم الأحزاب ناسخا لهذه الآية.

)والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد[16](عطف على جملة) وقل آمنت بما أنزل الله(إلخ، وهو يقتضي انتقال الكلام، فلما استوفى حظ أهل الكتاب في شأن المحاجة معهم، رجع إلى المشركين في هذا الشأن بقوله)والذين يحاجون في الله(الآية.

وتغيير الأسلوب بالإتيان بالاسم الظاهر الموصول وكون صلته مادة الاحتجاج مؤذن بتغيير الغرض في المتحدث عنهم مع مناسبة ما ألحق به من قوله)يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها(وقوله)أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله(، فالمقصود ب)الذين يحاجون في الله من بعد استجيب له(: المشركون لأنهم

يحاجون في شأن الله وهو الوحدانية دون اليهود من أهل الكتاب فأنهم لا يحاجون في تفرد الله بالإلهية.
وعن مجاهد أنه قال)الذين يحاجون في الله(رجال طمعوا أن تعود الجاهلية بعد ما دخل الناس في الإسلام. ووقع في كلام ابن عباس عند الطبري: أنهم اليهود والنصارى.

صفحة : 3858

فمعنى محاجتهم في الله محاجتهم في دين الله، أي إدخالهم على الناس الشك في صحة دين الإسلام أو في كونه أفضل من اليهودية والنصرانية. ومحاجتهم هي ما يلبسوه به على المسلمين لإدخال الشك عليهم في اتباع الإسلام كقول المشركين)ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا(وقولهم في الأصنام)هؤلاء شفعاؤنا عند الله(وقولهم في إنكار البعث)أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد(وقولهم)إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا(، وكقول أهل الكتاب: نحن الذين على دين إبراهيم، وقولهم: كتابنا أسبق من كتاب المسلمين.
وإطلاق اسم الحجة على شبهاتهم مجاراة لهم بطريق التهكم، والقرينة قوله)داحضة عند ربهم(.
ومفعول)يحاجون(محذوف دل عليه قوله)من بعد ما استجيب له(، والتقدير: يحاجون المستجيبين لله من بعد ما استجابوا له، أي استجابوا لدعوته على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.
وحذف فاعل)استجيب(إيجازا لأن المقصود من بعد حصول الاستجابة المعروفة.
والداحضة: التي دحضت بفتح الحاء، يقال: دحضت رجله تدحض :بفتح الحاء دحوضا، أي زلت. استعير الدحض للبطلان بجامع عدم الثبوت كما لا تثبت القدم في المكان الدحض، ولم يبين وجه دحضها اكتفاء بما بين في تضاعيف ما نزل من القرآن من الأدلة على فساد تعدد الآلهة، وعلى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى إمكان البعث، وبما ظهر للعيان من تزايد المسلمين يوما فيوما، وأمنهم من أن يعتدى عليهم.
والغضب: غضب الله، وإنما نكر للدلالة على شدته. ولم يحتج إلى إضافته إلى اسم الجلالة أو ضميره لظهور المقصود من قوله) حجتهم داحضة عند ربهم(. فالتقدير: وعليهم غضب الله.

وإنما قدم المسند على المسند إليه بقوله)وعليهم غضب(للاهتمام بوقوع الغضب عليهم كما هو مقتضي حرف الاستعلاء المجازي.
وكذلك القول في)ولهم عذاب شديد(. ولعل المراد به عذاب السيف في الدنيا بالقتل يوم بدر.
)الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب[17](قد علمتم أن من جملة محاجة المشركين في الله ومن أشدها تشغيبا في زعمهم محاجتهم بإنكار البعث كما في قولهم)هل ندلكم على رجل ينبكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد أفترى على الله كذبا أم به جنة(، وقال شداد بن الأسود:
يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف
حياة أصداء وهام وقد دحض الله حجتهم في مواضع من كتابه بنفي استحالته، وبدليل إمكانه، وأومأ هنا إلى مقتضي إيجابه، فبين أن البعث والجزاء حق وعدل فكيف لا يقدره مدبر الكون ومنزل الكتاب والميزان. وقد أشارت إلى هذا المعنى آيات كثيرة منها قوله تعالى)أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون(وقوله)إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى(وقال)وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين(.
وأكثرها جاء نظمها على نحو الترتيب الذي في نظم هذه الآية من الابتداء بما يذكر بحكمة الإيجاد وأن تمام الحكمة بالجزاء على الأعمال.
فقوله)الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان(تمهيد لقوله)وما يدريك لعل الساعة قريب(، لأن قوله)وما يدريك لعل الساعة قريب(يؤذن بمقدر يقتضيه المعنى، تقديره: فجعل الجزاء للسائرين على الحق والناكبين عنه في يوم الساعة فلا محيص للعباد عن لقاء الجزاء وما يدريك لعل الساعة قريب، فهو ناظر إلى قوله)إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى(. وهذه الجملة موقعها من جملة)والذين يحاجون في الله(موقع الدليل، والدليل من ضروب البيان، ولذلك فصلت الجملة عن التي قبلها لشدة اتصال معناها بمعنى الأخرى.
والإخبار عن اسم الجلالة باسم الموصول الذي مضمون صلته إنزاله الكتاب والميزان، لأجل ما في الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر الآتي، وأنه من جنس الحق والعدل، مثل الموصول في قوله تعالى)إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين(.

ولام التعريف في)الكتاب(لتعريف الجنس، أي إنزال الكتب وهو ينظر إلى قوله أنفا)وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب(.
والباء في)بالحق(للملابسة، أي أنزل الكتب مقترنة بالحق بعيدة عن الباطل.
والحق: كل ما يحق، أي يجب في باب الصلاح عمله ويصح أن يفسر بالأغراض الصحيحة النافعة.
والميزان حقيقته: آلة الوزن، والوزن: تقدير ثقل جسم، والميزان آلة: ذات كفتين معتدلتين معلقتين في طرفي قضيب مستو معتدل، له عروة في وسطه، بحيث لا تتدلى إحدى الكفتين على الأخرى إذا أمسك القضيب من عروته.
والميزان هنا مستعار للعدل والهدي بقرينة قوله)أنزل(فإن الدين هو المنزل والدين يدعو إلى العدل والإنصاف في المجادلة في الدين وفي إعطاء الحقوق، فشبه بالميزان في تساوي رجحان كفتية قال تعالى)وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط(.
وجملة)وما يدريك لعل الساعة قريب(معطوفة على جملة)الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان(، والمناسبة هي ما ذكرناه من إيذان تلك الجملة بمقدر.
وكلمة)وما يدريك(جارية مجرى المثل، والكاف منها خطاب لغير معين بمعنى: قد تدري، أي قد يدري الداري، ف)ما(استفهامية والاستفهام مستعمل في التنبيه والتهيئة. و)يدريك(من الدراية بمعنى العلم وقد علق فعل)يدري(عن العمل بحرف الترجي.
وعن ابن عباس كل ما جاء فعل)ما أدراك(فقد أعلمه الله به) أي بينه له(عقب كلمة)ما أدراك(فقد أعلمه الله به)أي بينه له عقب كلمة)ما أدراك(نحو)وما أدراك ما هيه نار حامية(وكل ما جاء فيه)وما يدريك(لم يعلمه به أي لم يعقبه بما يبين إبهامه نحو) وما يدريك لعل الساعة قريب( )وما يدريك لعله يزكى(. ولعل معنى هذا الكلام أن الاستعمال خص كل صيغة من هاتين الصيغتين بهذا الاستعمال فتأمل.
والمعنى: أي شيء يعلمك أيها السامع الساعة قريبا، أي مقتضي علمك متوفر، فالخطاب لغير معين، وفي معناه قوله تعالى)وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون(في سورة الأنعام.
والإخبار عن)الساعة(ب)قريب(وهو غير مؤنث لأنه غلب لزوم كلمة قريب وبعيد للتذكير باعتبار شيء كقوله تعالى)وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا(وقوله)إن رحمة الله قريب من المحسنين(وقد تقدم في سورة الأعراف.

)يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين أمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق(يجوز أن تكون جملة)يستعجل بها(إلى آخرها حالا من)الساعة(. ويجوز أن تكون بيانا لجملة)وما يدريك لعل الساعة قريب(لما تضمنته من التنبيه والتهيئة بالنسبة إلى فريقي المؤمنين بالساعة، والذين لا يؤمنون بها، فذكر فيها حال كلا الفريقين تجاه ذلك التنبيه. فأما المشركون فيتلقونه بالاستهزاء والتصميم على الجحد بها، وهو المراد بقوله)يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها(، والذين آمنوا بها يعملون لما به الفوز عندها، ولذلك جيء عقبها بجملة)ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد(كما سيأتي.

والاستعجال: طلب التعجيل، وتقدم في قوله تعالى)استعجالهم بالخير(في سورة يونس، أي يطلب الذين لا يؤمنون بالساعة من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعجل الله بحلول الساعة ليبين صدقه، تهكما واستهزاء وكناية عن اتخاذهم تأخرها دليلا على عدم وقوعها، وهم آيسون منها كما دل عليه قوله في مقابله)والذين آمنوا مشفقون منها(. وقد تكرر منهم هذا المعنى بأساليب ذكرت في تضاعيف آي القرآن كقوله)ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين( )وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب(.

والإشفاق: رجاء وقوع ما يكره، أي مشفقون من أهوالها، وتقدم في قوله)وهم من خشيته مشفقون(. وإنما جعل الإشفاق من ذات الساعة لإفادة تعظيم أهوالها حتى كان أحوالها هي ذاتها، على طريقة إسناد الحكم ونحوه إلى الأعيان نحو)حرمت عليكم الميتة(، فهم يتوخون النجاة منها بالطاعة والتقوى، أي فهم لا يستعجلون بها وإنما يغتنمون بقاءهم في الدنيا للعمل الصالح والتوبة.

صفحة : 3860

والمراد ب)الذين لا يؤمنون(: المشركون، وعبر عنهم بالموصول لأن الصلة تدل على علة استعجالهم بها، والمراد بالذين آمنوا: المسلمون فإن هذا لقب لهم، ففي الكلام احتباك، تقديره: يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها والذين أمنوا مشفقون منها فلا يستعجلون بها.

وعطفت على)مشفقون منها(جملة)ويعلمون أنها الحق(لإفادة أن إشفاقهم منها إشفاق عن يقين وجزم لا إشفاق عن تردد وخشية أن يكشف الواقع على صدق الإخبار بها وأنه احتمال مساو عندهم.

وتعريف)الحق(في قوله)إنها الحق(تعريف الجنس وهو يفيد قصر المسند على المسند إليه قصر مبالغة لكمال الجنس في المسند إليه نحو: عنترة الشجاع، أي يوقنون بأنها الحق كل الحق، وذلك لظهور دلائل وقوعها حتى كأنه لا حق غيره.

)ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلل بعيد[18](الجملة تذييل لما قبلها بصريحها وكنايتها لأن صريحها إثبات الضلال للذين يكذبون بالساعة وكنايتها إثبات الهدى للذين يؤمنون بالساعة. وهذا التذييل فذلكة للجملة التي قبلها.

وافتتاح الجملة بحرف)ألا(الذي هو للتنبيه لقصد العناية بالكلام.

والمماراة: مفاعلة من المرية بكسر الميم وهي الشك. والمماراة: الملاحة لإدخال الشك على المجادل، وقد تقدم في قوله تعالى)فلا تمار فيهم(في سورة الكهف.

وجعل الضلال كالظرف لهم تشبيها لتلبسهم بالضلال بوقوع المظروف في ظرفه، فحرف)في(للظرفية المجازية.

ووصف الضلال بالبعيد وصف مجازي، شبه الكفر بضلال السائر في طريق وهو يكون أشد إذا كان الطريق بعيدا، وذلك كناية عن عسر إرجاعه إلى المقصود.

والمعنى: لفي ضلال شديد. وتقدم في قوله)فقد ضل ضلالا بعيدا(في سورة النساء.

)الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز[19](هذه الجملة توطئة لجملة)من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه(لأن ما سيذكر في الجملة الآتية هو أثر من آثار لطف الله بعباده ورفقه بهم وما يسر من الرزق للمؤمنين منهم والكفار في الدنيا، ثم ما خص به المؤمنين من رزق الآخرة، فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا مقدمة لاستئناف الجملة الموطإ لها، وهي جملة)من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه(الآية.

وموقع جملة)من كان يريد حرث الآخرة(إلخ فسنبينه.

واللطيف: البر القوي البر. ويدخل في هذا كثير من النعم. فسر عدد من المفسرين)اللطيف(بواهب بعضها وإنما هو تفسير تمثيل لا يخص دلالة الوصف به. وفعل لطف من باب نصر يتعدى بالباء كما هنا وباللام كما في قوله)إن ربي لطيف لما يشاء(كما تقدم في سورة يوسف. وتقدم تحقيق معنى اسمه تعالى)اللطيف(.

وعباده عام لجميع العباد، وهم نوع الإنسان لأنه جمع مضاف.

وجملة)يرزق من يشاء(في موضع الحال من اسم الجلالة، أو في موضع خبر عنه.

والرزق: إعطاء ما ينفع. وهو عندنا لا يختص بالحلال وعند المعتزلة يختص به والخلاف اصطلاح.

والظاهر: أن المراد هنا رزق الدنيا لأن الكلام توطئة لقوله)من كان يريد حرث الآخرة(.
والمشيئة: مشيئة تقدير الرزق لكل أحد من العباد ليكون عموم اللطف للعباد باقيا، فلا يكون قوله)من يشاء(في معنى التكرير، إذ يصير هكذا يرزق من يشاء من عباده الملطوف بجميعهم، وما الرزق إلا من اللطف، فيصير بعض المعنى المفاد، فلا جرم تعين أن المشيئة هنا مصروفة لمشيئة تقدير الرزق بمقاديره.
والمعنى: أنه للطفه بجميع عباده لا يترك أحدا منهم بلا رزق وأنه فضل بعضهم على بعض في الرزق جريا على مشيئته.
وهذا المعنى يثير مسألة الخلاف بين أئمة أصول الدين في نعمة الكافر، ومن فروعها رزق الكافر. وعن الشيخ أبي الحسن الأشعري أن الكافر غير منعم عليه نعمة دنيوية لأن ملاذ الكافر استدراج لما كانت مفضية إلى العذاب في الآخرة فكانت غير نعمة، ومرادهم بالدنيوية مقابل الدينية. وكأن مراد الشيخ بهذا تحقيق معنى غضب الله على الكافرين كما جاء في آيات كثيرة، فمراده: أن الكافر غير منعم عليه نعمة رضى وكرامة ولكنها نعمة رحمة لما له من انتساب المخلوقية لله تعالى.

صفحة : 3861

وقال أبو بكر الباقلاني: الكافر منعم عليه نعمة دنيوية. وقالت المعتزلة: وهو منعم عليه نعمة دنيوية ودينية: فالدنيوية ظاهرة، والدينية كالقدرة على النظر المؤدي إلى معرفة الله.
وهذه مسألة أرجع المحققون الخلاف فيها إلى اللفظ والبناء على المصطلحات والاعتبارات الموافقة لدقائق المذاهب، إذ لا ينازع أحد في نعمة المنعمين منهم وقد قال تعالى)وذرني والمكذبين أولي النعمة(.
وعطف)وهو القوي العزيز(على صفة)لطيف(أو على جملة) يرزق من يشاء(وهو تمجيد لله تعالى بهاتين الصفتين، ويفيد الاحتراس من توهم أن لطفه عن عجز أو مصانعة، فإنه قوي عزيز لا يعجز ولا يصانع، أو عن توهم أن رزقه لمن يشاء عن شح أو قلة فإنه القوي، والقوي تنتفي عنه أسباب الشح، والعزيز ينتفي عنه سبب الفقر فرزقه لمن يشاء بما يشاء منوط لحكمة علمها في أحوال خلقه عامة وخاصة، قال تعالى)ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء(الآية.

والإخبار عن اسم الجلالة بالمسند المعرف باللام يفيد معنى قصر القوة والعزة عليه تعالى، وهو قصر الجنس للمبالغة لكماله فيه تعالى حتى كأن قوة غيره وعزة غيره عدم.

)من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب[20](هذه الآية متصلة بقوله)يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها(الآية، لما تضمنته من وجود فريقين: فريق المؤمنين أكبر همهم حياة الآخرة، وفريق الذين لا يؤمنون همهم قاصرة على حياة الدنيا، فجاء في هذه الآية تفصيل معاملة الله الفريقين معاملة متفاوتة مع استوائهم في كونهم عبيده وكونهم بمحل لطف منه، فكانت جملة) الله لطيف بعباده(تمهيدا لهذه الجملة، وكانت هاته الجملة تفصيلا لحظوظ الفريقين في شأن الإيمان بالآخرة وعدم الأيمان بها.

ولأجل هذا الاتصال بينها وبين جملة)يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها(ترك عطفها عليها، وترك عطف توطئتها كذلك، ولأجل الاتصال بينها وبين جملة)الله لطيف بعباده(اتصال المقصود بالتوطئة ترك عطفها على جملة)الله لطيف بعباده(.

والحرث: أصله مصدر حرث، إذا شق الأرض ليزرع فيها حبا أو ليغرس فيها شجرا، وأطلق على الأرض التي فيها زرع أو شجر وهو إطلاق كثير كما في قوله تعالى)أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين(، أي جنتكم لقوله قبله)كما بلونا أصحاب الجنة(وقال)زين للناس حب الشهوات من النساء(إلى قوله)والأنعام والحرث(، وقد تقدم في سورة آل عمران.

والحرث في هذه الآية تمثيل للإقبال على كسب ما يعده الكاسب نفعا له يرجو منه فائدة وافرة بإقبال الفلاح على شق الأرض وزرعها ليحصل له سنابل كثيرة وثمار من شجر الحرث، ومنه قول امرئ القيس:

كلانا إذا مـا نـال شـيئا أفـاتـه ومن

يحترث حرثي وحرثك يهزل وإضافة)حرث(إلى)الآخرة(وإلى)الدنيا(على معنى اللام كقوله)ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها(، وهي لام الاختصاص وهو في مثل هذا اختصاص المعلل بعلته، وما لام التعليل إلا من تصاريف لام الاختصاص.

ومعنى)يريد حرث الآخرة(يبتغي عملا لأجل الآخرة. وذلك المريد: هو المؤمن بالآخرة لأن المؤمن بالآخرة لا يخلو عن أن يريد الآخرة ببعض أعماله كثيرا كان أو قليلا، والذي يريد حرث الدنيا مراد به: من لا يسعى إلا لعمل الدنيا بقرينة المقابلة بمن يريد حرث الآخرة، فتعين أن مريد حرث الدنيا في هذه الآية: هو الذي لا يؤمن بالآخرة. ونظيرها في هذا قوله تعالى في سورة هود)من كان يريد الحياة

الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون(، ألا ترى إلى قوله)ليس لهم في الآخرة إلا النار(وقوله في سورة الإسراء)من يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا(.
وفعل)نزد له في حرثه(يتحمل معنيين:

صفحة : 3862

أن تكون الزيادة في ثواب العمل، كقوله)ويربي الصدقات(وقوله)مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء(، وسيأتي قريبا قوله) ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا(. وعلى هذا فتعليق الزيادة بالحرث مجاز عقلي علقت الزيادة بالحرث وحقها أن تعلق بسببه وهو الثواب، فالمعنى على حذف مضاف.
وأن تكون الزيادة في العمل، أي نقدر له العون على الازدياد من الأعمال الصالحة ونيسر له ذلك فيزداد من الصالحات. وعلى هذا فتعليق الزيادة بالحرث حقيقة فيكون من استعمال المركب في حقيقته ومجازه العقليين.
ومعنى)نؤته منها(: نقدر له من متاع الدنيا من: مدة حياة، وعافية ورزق لأن الله قدر لمخلوقاته أرزاقهم وأمدادهم في الدنيا، وجعل حظ الآخرة خاصا بالمؤمنين كما قال)ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن(. وقد شملت آية سورة الإسراء فريقا آخر غير مذكور هنا، وهو الذي يؤمن بالآخرة ويبتغي النجاة فيها ولكنه لم يؤمن بالإسلام مثل أهل الكتاب، وهذا الفريق مذكور أيضا في سورة البلد بقوله تعالى)فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام(إلى قوله)ثم كان من الذين آمنوا(.
فلا يتوهمن متوهم أن هذه الآية ونحوها تحجر تناول المسلم حظوظ الدنيا إذا أدى حق الإيمان والتكليف، ولا أنها تصد عن خلط الحظوظ الدنيوية مع حظوظ الآخرة إذا وقع الإيفاء بكليهما، ولا أن الخلط بين الحظين ينافي الإخلاص كطلب التبرد مع الوضوء وطلب الصحة مع التطوع بالصوم إذا كان المقصد الأصلي الإيفاء بالحق الديني.
وقد تعرض لهذه المسألة أبو إسحاق الشاطبي في فصل أول من المسألة السادسة من النوع الرابع من كتاب المقاصد من كتاب

الموافقات. وذكر فيها نظرين مختلفين للغزالي وأبي بكر بن العربي ورجح فيها رأي أبي بكر بن العربي فانظره.
والنصيب: ما يعين لأحد من الشيء المقسوم، وهو فعيل من نصيب لأن الحظ ينصب، أي يجعل كالصبرة لصاحبه، وتقدم عند قوله تعالى)أولئك لهم نصيب مما كسبوا(في سورة البقرة.
)أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله( )أم(للإضراب الانتقالي وهو انتقال من الكلام على تفرق أهل الشرائع السالفة في شرائعهم من انقرض منهم ومن بقي كأهل الكتابين إلى الكلام على ما يشابه ذلك من الاختلاف على أصل الديانة، وتلك مخالفة المشركين للشرائع كلها وتلقيهم دين الإشراك من أئمة الكفر وقادة الضلال.
ومعنى الاستفهام الذي تقضيه)أم(التي للإضراب هو هنا للتقريع والتهكم، فالتقريع راجع إلى أنهم شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، والتهكم راجع إلى من شرعوا لهم الشرك، فسئلوا عمن شرع لهم دين الشرك: أهم شركاء آخرون اعتقدوهم شركاء لله في الإلهية وفي شرع الأديان كما شرع الله للناس الأديان؟ وهذا تهكم بهم لأن هذا النوع من الشركاء لم يدعه أهل الشرك من العرب. وهذا المعنى هو الذي يساعد تنكير)شركاء(ووصفه بجملة)شرعوا لهم من الدين(.
ويجوز أن يكون المسؤول عن الذي شرع لهم هو الأصنام التي يعبدونها، وهو الذي درج عليه المفسرون، فيكون)لهم(في موضع الحال من)شركاء(.
والمقصود: فضح فظاعة شركهم بعروه عن الانتساب إلى الله، أي إن لم يكن مشروعا من الإله الحق فهو مشروع من الآلهة الباطلة وهي الشركاء. وظاهر أن تلك الآلهة لا تصلح لتشريع دين لأنها لا تعقل ولا تتكلم، فتعين أن دين الشرك دين لا مستند له. وقريب من هذا قوله تعالى)وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم(.
وقيل المراد بالشركاء: أئمة دين الشرك أطلق عليهم اسم الشركاء مجازا بعلاقة السببية.
وضميرا)لهم(عائدان إلى)الذين لا يؤمنون بها(أو)إلى الذين يحاجون في الله(.
والتعريف في)الدين(للجنس، أي شرعوا لهم من جنس الدين ما، أي دينا لم يأذن به الله، أي لم يأذن بشرعه، أي لم يرسل به رسولا منه ولا أوحى به بواسطة ملائكته.
)ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم(هو كقوله فيما تقدم)ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم(.

وكلمة الفصل هي: ما قدره الله وأراده من إمهالهم. والفصل: الفاصل، أي الذي لا تردد فيه.

صفحة : 3863

)وإن الظالمين لهم عذاب أليم[21](عطف على جملة)ولولا كلمة الفصل(والمقصود تحقيق أن إمهالهم إلى أجل مسمى لا يفلتهم من المؤاخذة بما ظلموا. والمراد بالظالمين المشركون)إن الشرك لظلم عظيم(.

والعذاب الأليم: عذاب الآخرة لجميعهم، وعذاب الدنيا بالسيف والذل للذين أخروا إلى إبان حلوله مثل قتلهم يوم بدر.

وتوكيد الخبر بحرف التوكيد لأن هذا الخبر موجه إليهم لأنهم يسمعون هذا الكلام ويعلمون أنهم المقصودون به.

)ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير[22](جملة)ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا(بيان لجملة)وإن الظالمين لهم عذاب أليم(، بين حال هذا العذاب ببيان حال أصحابه حين توقع حلوله، وكفى بذلك منبئا عن هوله.

والخطاب ب)ترى(لغير معين فيعم كل من تمكن منه الرؤية يومئذ كقوله)وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل(. والمقصود استحضار صورة حال الظالمين يوم القيامة في ذهن المخاطب.

والإشفاق: توقع الشيء المضر وهو ضد التمني.

و)ما كسبوا(هو أعمالهم السيئة. والمراد: جزاؤها بقرينة المقام.

وجملة وهو واقع بهم في موضع الحال، أي مشفقين إشفاقا يقارب اليأس وهو أشد الإشفاق حين يعلمون أن المشفق منه لا ينجي منه حذر، لأن الإشفاق إذا حصل قبل اقتراب المشفق منه قد يحاول المشفق وسائل التخلص منه، فأما إذا وقع العذاب فقد حال دون التخلص حائله. والمعنى: مشفقين من عقاب أعمالهم في حال نزول العقاب بهم. وليس المعنى: أنهم مشفقون في الدنيا من أعمالهم السيئة لأنهم لا يدينون بذلك، فما بني على ذلك الاحتمال من التفسير ليس بينا.

والباء في قوله)واقع بهم(للاستعلاء، كقول غاوي السلمي:

أرب يبول الثعلبان برأسه وهذا الاستعمال قريب من معنى الإلصاق المجازي.

وضمير)هو واقع(عائد على)ما كسبوا(باعتبار تقدير مضاف، أي جزاء ما كسبوا، أي في حال أن الجزاء واقع عليهم.
وجملة)والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات(حال من الظالمين، والواو واو الحال، أي ترى الظالمين في إشفاق في حال أن الذين آمنوا يطمئنون في روضات الجنات، وفي هذه الحال دلالة على أن الذين آمنوا قد استقروا في الروضات من قبل عرض الظالمين على الحساب وإشفاقهم من تبعاته. وهذا من تضاد شأني الفريقين في الآخرة على عكسه بما كانوا عليه في الدنيا المقدم في قوله)يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقين منها(، أي فاليوم انقلب إشفاق المؤمنين اطمئنانا واطمئنان المشركين إشفاقا، وشتان بين الاطمئنانين والإشفاقين، وبهذه المضادة في الحالتين وأسبابهما صح اعتبار كينونة الذين آمنوا في الجنة، حالا من)الظالمين(.
والروضات: جمع روضة، وهي اسم لمجموع ماء وشجر حاف به وخضرة حوله.
وجملة)لهم ما يشاؤون عند ربهم(خبر ثان عن)الذين آمنوا(، و)عند(ظرف متعلق بالكون الذي تعلق به الجار والمجرور في)لهم ما يشاؤون(.
والعندية تشريف لمعنى الاختصاص الذي أفادته اللام في قوله)لهم(وعناية بما يعطونه من رغبة. والمعنى: ما يشاؤونه حق لهم محفوظ عند ربهم. ولا ينبغي جعل)عند(متعلقا بفعل)يشاؤون(لأن)عند(حينئذ تكون ظرفا لمشيئتهم، أي مشيئة منهم متوجهة إلى ربهم، فتؤول المشيئة إلى معنى الطلب أن يعطيهم ما يطلبون فيفوت قصد التشريف والعناية.

ولك أن تجعل عند ربهم خبرا ثالثا عن الذين آمنوا، أي هم عند ربهم، أي في ضيافته وقراه، كما قال تعالى)إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر(، ويكون ترتيب الأخبار الثلاثة جاريا على نمط الارتقاء من الحسن إلى الأحسن بأن: أخبر عنهم بأنهم نزلوا في أحسن منزل، ثم احضر لهم ما يشتهون، ثم ارتقى إلى ما هو أعظم وهو كونهم عند ربهم على حد قوله تعالى)ورضوان من الله أكبر(. ومن لطائف هذا الوجه أنه جاء على الترتيب المعهود في الحصول في الخارج فإن الضيف أو الوافد ينزل

أول قدومه في منزل إكرام ثم يحضر إليه القرى ثم يخالطه رب المنزل ويقترب منه.
وجملة)ذلك هو الفضل الكبير(تذييل. والإشارة إلى مضمون قوله) في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم(بتأويل: ذلك المذكور.
وجيء باسم إشارة البعيد استعارة لكون المشار إليه بعيد المكانة بعد ارتفاع مجازي وهو الشرف.
و)الفضل(يجوز أن يكون مصدرا بمعنى الشرف والتفوق على الغير فيكون في معنى: فضلهم، ويجوز أن يكون اسما لما يتفضل به من عطاء فيكون في معنى: ذلك فضلنا عليهم، وفي هذا الأخير دلالة على أن ثواب الأعمال فضل من الله لأن طاعة العباد واجبة عليهم فإذا أدوها فقد فعلوا ما لا يسعهم إلا فعله فلو لم يثابوا على ذلك لم يكن عدم إثابتهم ظلما.
وضمير الفصل يفيد قصرا ادعائيا للمبالغة في أعظمية الفضل،
و)الفضل(يصلح لأن يعتبر كالمضاف إلى المفعول، أي فضل الله عليهم، وأن يعتبر كالمضاف إلى الفاعل فضلهم، أي شرفهم وبركتهم فيؤول معنى القصر إلى أن الفضل الذي حصل للذين آمنوا وعملوا الصالحات أكبر فضل.
)ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات(اسم الإشارة مؤكد لنظيره الذي قبله، أي ذلك المذكور الذي هو فضل يحصل لهم في الجنة هو أيضا بشرى لهم من الحياة الدنيا.
والعائد من الصلة إلى الموصول محذوف تقديره: الذي يبشر الله به عباده. وحذفه هنا لتنزيله منزلة الضمير المنصوب باعتبار حذف الجار على طريقة حذفه في نحو قوله)واختار موسى لقومه(بتقدير: من قومه، فلما عومل معاملة المنصوب حذف كما يحذف الضمير المنصوب.
وقرأ نافع وعاصم وابن عامر ويعقوب وخلف)يبشر(بضم التحتية وفتح الموحدة وتشديد الشين المكسورة، وهو من بشره، إذا أخبره بحادث يسره. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي) يبشر(بفتح التحتية وسكون الموحدة وضم الشين مخففة، يقال: بشرت الرجل بتخفيف الشين أبشره من باب نصر إذا اغبطه بحادث يسره.
وجمع العباد المضاف إلى اسم الجلالة أو ضميره غلب إطلاقه في القرآن في معرض التقريب وترفيع الشأن، ولذلك يكون موقع)الذين آمنوا وعملوا الصالحات(هنا موقع عطف البيان على نحو قوله تعالى)ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون(إذ وقع)الذين آمنوا(موقع عطف البيان من)أولياء الله(.

)قل لا أسئلكم عليه أجرا إلا المودة في القربى(استئناف ابتدائي بمناسبة ذكر ما أعد للمشركين من عذاب وما أعد للمؤمنين من خير، وضمير جماعة المخاطبين مراد به المشركون لا محالة وليس في الكلام السابق ما يتوهم منه أن يكون)قل لا أسألكم(جوابا عنه، فتعين أن جملة)قل لا أسألكم عليه أجرا(كلام مستأنف استئنافا ابتدائيا.

ويظهر مما رواه الواحدي في أسباب النزول عن قتادة: أن المشركين اجتمعوا في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض: أترون محمدا يسأل على ما يتعاطاه أجرا. فنزلت هذه الآية، يعنون: إن كان ذلك جمعنا له مالا كما قالوه له غير مرة ، أنها لا اتصال لها بما قبلها وأنها لما عرض سبب نزولها نزلت في أثناء نزول الآيات التي قبلها والتي بعدها فتكون جملة ابتدائية. وكان موقعها هنا لمناسبة ما سبق من ذكر حجاج المشركين وعنادهم فإن مناسبتها لما معها من الآيات موجودة إذ هي من جملة ما واجه به القرآن محاجة المشركين،ونفي به أوهامهم، واستفتح بصائرهم إلى النظر في علامات صدق الرسول؛ فهي جملة ابتدائية وقعت معترضة بين جملة)والذين آمنوا وعملوا الصالحات(وجملة)ومن يقترف حسنة(.

صفحة : 3865

وابتدئت ب)قل(إما لأنها جواب عن كلام صدر منهم، وإما لأنها مما يهتم بإبلاغه إليهم كما أن نظائرها افتتحت بمثل ذلك مثل قوله تعالى)قل ما سألتكم من أجر فهو لكم(وقوله)قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين(وقوله)قل لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين(وضمير)عليه(عائد إلى القرآن المفهوم من المقام.

والأجر: الجزاء الذي يعطاه أحد على عمل يعمله، وتقدم عند قوله تعالى)إن الله عنده أجر عظيم(في سورة براءة.

والمودة: المحبة والمعاملة الحسنة المشبهة معاملة المتحابين، وتقدمت عند قوله)مودة بينكم في الحياة الدنيا(في سورة العنكبوت. والكلام على تقدير مضاف أي معاملة المودة، أي المجاملة بقرينة أن المحبة لا تسأل لأنها انبعاث وانفعال نفساني.

و)في(للظرفية المجازية لأن مجرورها وهو)القربى(لا يصلح لأن يكون مظروفا فيه.

ومعنى الظرفية المجازية هنا: التعليل، وهو معنى كثير العروض لحرف)في(كقوله)وجاهدوا في الله(.

والقربى: اسم مصدر كالرجعى والبشرى، وهي قرابة النسب، قال تعالى)وآت ذا القربى حقه(، وقال زهير:
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة...البيت وتقدم عند قوله تعالى) ولذي القربى(في سورة الأنفال.
ومعنى الآية على ما يقتضيه نظمها: لا أسألكم على القرآن جزاء إلا أن تودوني، أي أن تعاملوني معاملة الود، أي غير معاملة العداوة، لأجل القرابة التي بيننا في النسب القرشي.
وفي صحيح البخاري وجامع الترمذي سئل ابن عباس عن هذه الآية بحضرة سعيد بن جبير فابتدر سعيد فقال: قربى آل محمد، فقال ابن عباس عجلت لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة .
وذكر القرطبي عن الشعبي أنه قال: أكثر الناس علينا في هذه الآية فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها فكتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوسط الناس في قريش فليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده فقال الله له)قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى(إلا أن تودوني في قرابتي منكم، أي تراعوا ما بيني وبينكم فتصدوني، فالقربى هاهنا قرابة الرحم كأنه قال: اتبعوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوة. انتهى كلام القرطبي.
وما فسر به بعض المفسرين أن المعنى: إلا أن تودوا أقاربي تلفيق معنى عن فهم غير منظور فيه إلى الأسلوب العربي، ولا تصح فيه رواية عمن يعتد بفهمه.
أما كون محبة آل محمد النبي صلى الله عليه وسلم لأجل محبة ماله اتصال به خلقا من أخلاق المسلمين فحاصل من أدلة أخرى، وتحديد حدودها مفصل في الشفاء لعياض.
والاستثناء منقطع لأن المودة لأجل القرابة ليست من الجزاء على تبليغ الدعوة بالقرآن ولكنها مما تقتضيه المروءة فليس استثناؤها من عموم الأجر المنفي استثناء حقيقيا. والمعنى: لا أسألكم على التبليغ أجرا وأسألكم المودة لأجل القربى.
وإنما سألهم المودة لأن معاملتهم إياه معاملة المودة معينة على نشر دعوة الاسلام، إذ تلين بتلك المعاملة شكيمتهم فيتركون مقاومته فيتمكن من تبليغ دعوة الإسلام على وجه أكمل. فصارت هذه المودة غرضا دينيا لا نفع فيه لنفس النبي صلى الله عليه وسلم.
وفي بعض الأخبار الموضوعة في أسباب النزول أن سبب نزول هذه الآية: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كانت تنوبه نوائب لا يسعها ما في يديه. فقالت الأنصار: إن هذا الرجل هداكم الله به فنجمع له مالا، ففعلوا ثم أتوه به، فنزلت. وفي

رواية: أن الأنصار قالوا له يوما: أنفسنا وأموالنا لك، فنزلت. وقيل نزل)ذلك الذي يبشر الله عباده(إلى قوله)إنه عليم بذات الصدور(. ولأجل ذلك قال فريق: إن هذه الآيات مدنية كما تقدم في أول السورة وهي أخبار واهية.

صفحة : 3866

وتضمنت الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم منزه عن أن يتطلب من الناس جزاء على تبليغ الهدى إليهم فإن النبوءة أعظم مرتبة في تعليم الحق. وهي فوق مرتبة الحكمة، والحكماء تنزهوا عن أخذ الأجر على تعليم الحكمة، فإن الحكمة خير كثير والخير الكثير لا تقابله أعراض الدنيا، ولذلك أمر الله رسله بالتنزه عن طلب جزاء على التبليغ، فقال حكاية عن نوح)وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين(. وكذلك حكى عن هود وصالح ولوط وشعيب.

)ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور[23] (تذييل لجملة)ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات(والمعنى: وكلما عمل مؤمن حسنة زدناه حسنا من ذلك الفضل الكبير. وهذا في معنى قوله تعالى)والله يضاعف لمن يشاء(والواو اعتراضية.

والاقتراف:افتعال من القرف، وهو الاكتساب، فالاقتراف مبالغة في الكسب نظير الاكتساب، وليس خاصا باكتساب السوء وان كان قد غلب فيه، وأصله من قرف الشجرة، إذا قشر قرفها، بكسر القاف، وهو لحاؤها، أي قشر عودها، وتقدم عند قوله تعالى)وليقترفوا ما هم مقترفون(في سورة الأنعام، وعند قوله)وأموال اقترفتموها(في سورة براءة.

والحسنة: الفعلة ذات الحسن صفة مشبهة غلبت في استعمال القرآن والسنة على الطاعة والقربة فصارت بمنزلة الجوامد علما بالغلبة وهي مشتقة من الحسن وهو جمال الصورة. والحسن: ضد القبح وهو صفة في الذات تقتضي قبول منظرها في نفوس الرائين وميلهم إلى مداومة مشاهدتها. وتوصف المعنويات بالحسن فيراد به كون الفعل أو الصفة محمودة عند العقول مرغوبا في الاتصاف بها.

ولما كانت الحسنة مأخوذة من الحسن جعلت الزيادة فيها من الزيادة في الحسن مراعاة لأصل الاشتقاق فكان ذكر الحسن من الجناس المعبر عنه بجناس الاشتقاق نحو قوله تعالى)فأقم وجهك للدين القيم(، وصار المعنى نزد له فيها مماثلا لها.

ويتعين أن الزيادة فيها زيادة من غير عمله ولا تكون الزيادة بعمل يعمله غيره لأنها تصير عملا يستحق الزيادة أيضا فلا تنتهي الزيادة فتعين أن المراد الزيادة في جزاء أمثالها عند الله. وهذا معنى قوله تعالى)من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها(وقوله)والله يضاعف لمن يشاء(، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: من هم بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف .

وجملة)إن الله غفور شكور(تذييل وتعليل للزيادة لقصد تحقيقها بأن الله كثيرة مغفرته لمن يستحقها، كثير شكره للمتقربين إليه. والمقصود بالتعليل هو وصف الشكور، وأما وصف الغفور فقد ذكر للاشارة إلى ترغيب المقترفين السيئات في الاستغفار والتوبة ليغفر لهم فلا يقنطوا من رحمة الله.

)أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشإ الله يختم على قلبك ويمح الله البطل ويحق الحق بكلمته إنه عليم بذات الصدور[24]

(إضراب انتقالي عطفا على قوله)أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله(وهو الكلام المضرب عنه والمنتقل منه، والمراد الانتقال إلى توبيخ آخر، فالهمزة المقدرة بعد)أم(للاستفهام التوبيخي، فإنهم قالوا ذلك فاستحقوا التوبيخ عليه. والمعنى: أم قالوا افترى ويقولونه.

وجيء بفعل)يقولون(بصيغة المضارع ليتوجه التوبيخ لاستمرارهم على هذا القول الشنيع مع ظهور دلائل بطلانه. فإذا كان قولهم هذا شنعا من القول فاستمرارهم عليه أشنع.

وفرع على توبيخهم على ذلك قوله)فإن يشإ الله يختم على قلبك(وهو تفريع فيه خفاء ودقة لأن المتبادر من التفريع أن ما بعد الفاء إبطال لما نسبوه إليه من الافتراء على الله وتوكيد للتوبيخ فكيف يستفاد هذا الإبطال من الشرط وجوابه المفرعين على التوبيخ.

وللمفسرين في بيان هذا التفريع وترتبه على ما قبله أفهام عديدة لا يخلو معظمها عن تكلف وضعف اقتناع.

صفحة : 3867

والوجه في بيانه: أن هذا الشرط وجوابه المفرعين في ظاهر اللفظ على التوبيخ والإبطال هما دليل على المقصود بالتفريع المناسب لتوبيخهم وإبطال قولهم، وتقدير المفرع هكذا: فكيف يكون الافتراء منك على الله والله لا يقر أحدا أن يكذب عليه فلو شاء لختم على قلبك، أي سلبك العقل الذي يفكر في الكذب فتفحم عن

الكلام فلا تستطيع أن تتقول عليه، أي وليس ثمة حائل يحول دون مشيئة الله ذلك لو افتريت عليه، فيكون الشرط كناية عن انتفاء الافتراء لأن الله لا يقر من يكذب عليه كلاما، فحصل بهذا النظم إيجاز بديع، وتكون الآية قريبا من قوله تعالى)ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين(.

ولابن عطية كلمات قليلة يؤيد مغزاها هذا التقرير مستندة لقول قتادة محمولا على ظاهر اللفظ من كون ما بعد الفاء هو المفرع، ويكون الكلام كناية عن الإعراض عن قولهم)افترى على الله كذبا(، أي أن الله يخاطب رسوله بهذا تعريضا بالمشركين. والمعنى: أن افتراءه على الله لا يهمكم حتى تناصبوا محمدا صلى الله عليه وسلم العداء، فالله أولى منكم بأن يغار على انتهاك حرمة رسالته وبأن يذب عن جلاله فلا تجعلوا هذه الدعوى همكم فإن الله لو شاء لختم على قلبك فسلبك القدرة على أن تنسب إليه كلاما.

وهذان الوجهان هما المناسبان لموقع الآية، ولفاء التفريع، ولما في الشرط من الاستقبال، ولوقوع فعل الشرط مضارعا، فالوقف على قوله)على قلبك(وهو انتهاء كلام.

وجملة)ويمح الله الباطل(معطوفة على التفريع، وهي كلام مستأنف، مراد منه أن الله يمحو باطل المشركين وبهتانهم ويحقق ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم.

وعلى مراعاة هذا المعنى جرى جمع من أهل التفسير مثل الكسائي وابن الأنباري والزجاج والزمخشري ولم يجعلوا)ويمح(عطفا على فعل الجزاء لأن المتبادر أن هذا وعد من الله بإظهار الإسلام، ووعيد المشركين بأن دينهم زائل. وهذا هو المتبادر من رفع) ويحق(باتفاق القراء على رفعه، والمراد بالمحو على هذا: الإزالة. والمراد بالباطل: الباطل المعهود وهو دين الشرك. وبالحق: الحق المعهود، وهو الإسلام.

أو يكون المعنى أن من شأن الله تعالى أن يزيل الباطل ويفضحه بإيجاد أسباب زواله وأن يوضح الحق بإيجاد أسباب ظهوره، حتى يكون ظهوره فاضحا لبطلان الباطل فلو كان القرآن مفترى على الله لفضح الله بطلانه وأظهر الحق، فالمراد بالباطل: جنس الباطل، وبالحق جنس الحق، وتكون الجملة كالتذييل للتفريع. والمعنى الأول أنسب بالاستئناف، ولإفادته الوعيد بإزالة ما هم عليه ونصر المسلمين عليهم.

وعلى كلا المعنيين فقوله)ويمح الله الباطل(كلام مستأنف ليس معطوفا على جزاء الشرط إذ ليس المعنى على: إن يشأ الله يمح الباطل، بل هو تحقيق لمحوه للباطل كقوله تعالى)إن الباطل كان زهوقا(، كما دل عليه رفع)ويحق الحق بكلماته(، ففعل)يمح(مرفوع

وحقه ظهور الواو في آخره، ولكنها حذفت تخفيفا في النطق، وتبع حذفها في النطق حذفها في الرسم اعتبارا بحال النطق كما حذف واو)سندع الزبانية(وواو)ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير(. وذكر في الكشاف أن الواو ثبتت في بعض المصاحف ولم يعينه ولا ذكره غيره فيما رأيت.

وإظهار اسم الجلالة في قوله)ويمح الله الباطل(دون أن يقول: ويمح الباطل، لتقوية تمكن المسند إليه من الذهن ولإظهار عناية الله بمحو الباطل.

وإنما عدل على الجملة الاسمية في صوغ)ويمح الله الباطل(فلم يقل: والله يمحو الباطل، لأنه أريد أن ما في إفادة المضارع من التجدد والتكرير إيماء إلى أن هذا شأن الله وعادته لا تتخلف ولم يقصد تحقيق ذلك وتثبيته لأن إفادة التكرير تقتضي ذلك بطريق الكناية فحصل الغرضان.

والباء في)بكلماته(للسببية والكلمات هي: كلمات القرآن والوحي كقوله)يريدون أن يبدلوا كلام الله(، أو المراد: كلمات التكوين المتعلقة بالإيجاد على وفق علمه كقوله)لا مبدل لكلماته(.

صفحة : 3868

وإنما جاء هذا الرد عليهم بأسلوب الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لأن ذلك أقوى في الاعتناء بتلقينه جواب تكذيبهم لأن المقام مقام تفظيع لبهتانهم، وهذا وجه التخالف بين أسلوب هذه الآية وأسلوب قوله تعالى)قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به(لأن ذلك لم يكن مسوقا لإبطال كلام صدر منهم.

وجملة)إنه عليم بذات الصدور(تعليل لمجموع جملتي)فإن يشإ الله(إلى قوله)بكلماته(، أي لأنه لا يخفى عليه افتراء مفتر ولا صدق محق. و)ذات الصدور(: النوايا والمقاصد التي يضمرها الناس في عقولهم. والصدور: العقول، أطلق عليها الصدور على الاستعمال العربي، وقد تقدم عند قوله تعالى)إنه عليم بذات الصدور(في سورة الأنفال.

)وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما يفعلون[25] ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد[26](لما جرى وعيد الذين يحاجون في الله لتأييد باطلهم من قوله تعالى)والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد(. ثم اتبع بوصف سوء حالهم يوم الجزاء بقوله)

ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا(، وقوبل بوصف نعيم الذين آمنوا بقوله)والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات(، وكان ذلك مظنة أن يكسر نفوس أهل العناد والضلالة، أعقب بإعلامهم أن الله من شأنه قبول توبة من يتوب من عباده، وعفوه بذلك عما سلف من سيئاتهم.

وهذا الإخبار تعريض بالتحريض على مبادرة التوبة ولذلك جيء فيه بالفعل المضارع الصالح للاستقبال. وهو أيضا بشارة للمؤمنين بأنه قبل توبتهم مما كانوا فيه من الشرك والجاهلية فإن الذي من شأنه أن يقبل التوبة في المستقبل يكون قد قبل توبة التائبين من قبل، بدلالة لحن الخطاب أو فحواه، وأن من شأنه الاستجابة للذين أمنوا وعملوا الصالحات من عباده. وكل ذلك جري على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب وعكسه. وهذا كله يتضمن وعدا للمؤمنين بقبول إيمانهم وللعصاة بقبول توبتهم.

فجملة :)وهو الذي يقبل التوبة عن عباده(معطوفة على جملة) وإن الظالمين لهم عذاب أليم(وما اتصل بها مما تقدم ذكره وخاصة جملة:)ويمح الله الباطل(.

وابتناء الإخبار بهذه الجملة على أسلوب الجملة الاسمية لإفادتها ثبات حكمها ودوامه.

ومجيء المسند اسم موصول لإفادة اتصاف الله تعالى بمضمون صلته وأنها شأن من شؤون الله تعالى عرف به ثابت له لا يتخلف لأنه المناسب لحكمته وعظمة شأنه وغناه عن خلقه.

وإيثار جملة الصلة بصيغة المضارع لإفادة تجدد مضمونه وتكرره ليعلموا أن ذلك وعد لا يتخلف ولا يختلف.

وفعل)قبل(يتعدى ب)من(الابتدائية تارة كما في قوله)وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم(وقوله)فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا(، فيفيد معنى الأخذ للشيء المقبول صادرا من المأخوذ منه، ويعدى ب)عن(فيفيد معنى مجاوزة الشيء المقبول أو انفصاله عن معطيه وباذله، وهو أشد مبالغة في معنى الفعل من تعديته بحرف) من(لأن فيه كناية عن احتباس الشيء المبذول عند المبذول إليه بحيث لا يرد على باذله.

فحصلت في جملة)وهو الذي يقبل التوبة عن عباده(أربع مبالغات: بناء الجملة على الاسمية، وعلى الموصولية، وعلى المضارعية، وعلى تعدية فعل الصلة ب)عن(دون)من(.

والتوبة: الإقلاع عن فعل المعصية امتثالا لطاعة الله، وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى)فتلقى أدم من ربه كلمات فتاب عليه(في سورة البقرة. وقبول التوبة منة من الله تعالى لأنه لو شاء لما رضي عن الذي اقترف الجريمة ولكنه جعلها مقبولة لحكمته وفضله.

وفي ذكر اسم العباد دون نحو: الناس أو التائبين أو غير ذلك، إيماء إلى أن الله رفيق بعباده لمقام العبودية فإن الخالق والصانع يحب صلاح مصنوعه.

صفحة : 3869

والعفو: عدم مؤاخذة الجاني بجنايته. والسيئات: الجرائم لأنها سيئة عند الشرع. والعفو عن السيئات يكون بسبب التوبة بأن يعفو عن السيئات التي اقترفها العاصي قبل توبته، ويكون بدون ذلك مثل العفو عن السيئات عقب الحج المبرور، ومثل العفو عن السيئات لأجل الشهادة في سبيل الله، ومثل العفو عن السيئات لكثرة الحسنات بأن يمحى عن العاصي من سيئاته ما يقابل مقدارا من حسناته على وجه يعلمه الله تعالى، ومثل العفو عن الصغائر باجتناب الكبائر.
والتعريف في)السيئات(تعريف الجنس المراد به الاستغراق وهو عام مخصوص بغير الشرك قال تعالى)إن الله لا يغفر أن يشرك به(ولك أن تجعله عوضا عن المضاف إليه، أي عن سيئات عباده فيعم جميع العباد عموما مخصوصا بالأدلة لهذا الحكم كما في الوجه الأول.
وجملة)ويعلم ما يفعلون(معترضة بين المتعاطفات أو في موضع الحال، والمقصود: أنه لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده خيرها وشرها.
وقرأ الجمهور)ما يفعلون(بياء الغيبة، أي ما يفعل عباده. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بتاء الخطاب على طريقة الالتفات.
والاستجابة: مبالغة في الإجابة، وخصت الاستجابة في الاستعمال بامتثال الدعوة أو الأمر.
وظاهر النظم أن فاعل)يستجيب(ضمير يعود إلى ما عاد إليه ضمير)وهو الذي يقبل التوبة(و)أن الذين أمنوا(مفعول) يستجيب(وأن الجملة معطوفة على جملة)يقبل التوبة(.
والغالب في الاستعمال أن يقال: استجاب له، كقوله)ادعوني أستجب لكم(وقد يحذفون اللام فيعدونه بنفسه، كقول كعب بن سعد:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندا فلم

يستجبه عند ذاك مجـيب والمعنى: أن الله يستجيب لهم ما يرجونه منه من ثواب، وما يدعونه.

ويجوز أن يكون)الذين أمنوا(فاعل)يستجيب(أي يستجيبون لله فيطيعونه وتكون جملة)ويستجيب(عطفا على مجموع جملة)وهو الذي يقبل التوبة(، أي ذلك شأنه وهذا شأن عباده المؤمنين.

ومعنى)ويزيدهم من فضله(على الوجهين أنه يعطيهم ما أملوا من دعائهم وعملهم وأعظم مما أملوا حين استجابوا له ولرسوله، وأنه يعطيهم من الثواب أكثر مما عملوا من الصالحات إذ جعل لهم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف كما في الحديث، وأنه يعطيهم من خير الدنيا ما لم يسألوه إياه كل ذلك لأنه لطيف بهم ومدبر لمصالحهم.

ولما كانت الاستجابة والزيادة كرامة للمؤمنين، أظهر اسم)الذين أمنوا(وجيء به موصولا للدلالة على أن الإيمان هو وجه الاستجابة لهم والزيادة لهم.

وجملة)والكافرون لهم عذاب شديد(اعتراض عائد إلى ما سبق من قوله)ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم(توكيدا للوعيد وتحذيرا من الدوام على الكفر بعد فتح باب التوبة لهم.

)ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير[27](عطف على جملة)ويزيدهم من فضله(أو على المجموع من جملة)ويستجيب الذين آمنوا(ومن جملة)ويزيدهم من فضله(.

وموقع معناها موقع الاستدراك والاحتراس فإنها تشير إلى جواب عن سؤال مقدر في نفس السامع إذا سمع أن الله يستجيب للذين أمنوا وأنه يزيدهم من فضله أن يتساءل في نفسه: أن مما يسأل المؤمنون سعة الرزق والبسطة فيه فقد كان المؤمنون أيام صدر الإسلام في حاجة وضيق رزق إذ منعهم المشركون أرزاقهم وقاطعوا معاملتهم، فيجاب بأن الله لو بسط الرزق للناس كلهم لكان بسطه مفسدا لهم لأن الذي يستغني يتطرقه نسيان الالتجاء إلى الله، ويحمله على الاعتداء على الناس فكان من خير المؤمنين الآجل لهم أن لا يبسط لهم في الرزق، وكان ذلك منوطا بحكمة أرادها الله من تدبير هذا العالم تطرد في الناس مؤمنهم وكافرهم قال تعالى) إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى(.

وقد كان في ذلك للمؤمن فائدة أخرى، وهي أن لا يشغله غناه عن العمل الذي به يفوز في الآخرة فلا تشغله أمواله عنه، وهذا الاعتبار هو الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم حين قال للأنصار لما تعرضوا له بعد صلاة الصبح وقد جاءه مال من البحرين فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم .

وقد وردت هذه الآية موردا كليا لأن قوله)لعباده(يعم جميع العباد. ومن هذه الكلية تحصل فائدة المسؤول عليه الجزئي الخاص بالمؤمنين مع إفادة الحكمة العامة من هذا النظام التكويني، فكانت هذه الجملة بهذا الاعتبار بمنزلة التذييل لما فيها من العموم، أي أن الله أسس نظام هذا العالم على قوانين عامة وليس من حكمته أن يخص أولياءه وحزبه بنظام تكويني دنيوي ولكنه خصهم بمعاني القرب والرضى والفوز في الحياة الأبدية. وربما خصهم بما أراد تخصيصهم به مما يرجع إلى إقامة الحق.

والبغي: العدوان والظلم، أي لبغى بعضهم على بعض لأن الغنى مظنة البطر والأشر إذا صادف نفسا خبيثة، قال بعض بني جرم من طيء من شعراء الحماسة:

إذا أختصبتمو كنتم عدوا وإن أجدبتمو كنتم عيالا ولبعض العرب انشده في الكشاف:

وقد جعل الوسمي ينبت بيننـا وبين بني رومان نبعا وشوحطا فأما الفقر فقلما كان سببا للبغي إلا بغيا مشوبا بمخافة كبغي الجائع بالافتكاك بالعنف فذلك لندرته لا يلتفت إليه، على أن السياق لبيان حكمة كون الرزق بقدر لا لبيان حكمة في الفقر.

فالتلازم بين الشرط وجوابه في قوله)ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا(حاصل بهذه السببية بقطع النظر عن كون هذا السبب قد يخلفه ضده أيضا، على أن بين بسط الرزق وبين الفقر مراتب أخرى من الكفاف وضيق الرزق والخصاصة، والفقر، وهي متفاوتة فلا إشكال في التعليل.

وعن خباب بن الأرت فينا نزلت هذه الآية، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع فتمنيناها فنزلت ، وهذا مما حمل قوما على ظن هذه الآية مدنية كما تقدم في أول السورة. وهذا إن صح عن خباب فهو تأويل منه لأن الآية مكية وخباب أنصاري فلعله سمع تمثيل بعضهم لبعض بهذه الآية ولم يكن سمعها من قبل.

وروي أنها نزلت في أهل الصفة تمنوا سعة الرزق فنزلت، وهذا خبر ضعيف.

ومعنى الآية: لو جعل الله جميع الناس في بسطة من الرزق لاختل نظام حياتهم ببغي بعضهم على بعض لأن بعضهم الأغنياء تحدثه

نفسه بالبغي لتوفر أسباب العدوان كما علمت فيجد من المبغي عليه المقاومة وهكذا، وذلك مفض إلى اختلال نظامهم.
وبهذا تعلم أن بسط الرزق لبعض العباد كما هو مشاهد لا يفضي إلى مثل هذا الفساد لأن الغنى قد يصادف نفسا صالحة ونفسا لها وازع من الدين فلا يكون سببا للبغي، فإن صادف نفسا خبيثة و وازع لها فتلك حالة نادرة هي من جملة الأحوال السيئة في العالم ولها ما يقاومها في الشريعة وفصل القضاء وغيرة الجماعة فلا يفضي إلى فساد عام ولا إلى اختلال نظام.
وإطلاق فعل التنزيل على إعطاء الرزق في قوله تعالى)ولكن ينزل بقدر(استعارة لأنه عطاء من رفيع الشأن، فشبه بالنازل من علو وتكرر مثل هذا الإطلاق في القرآن.
والقدر بفتحتين: المقدار والتعيين.
ومعنى)ما يشاء(أن مشيئته تعالى جارية على وفق علمه وعلى ما ييسره له من ترتيب الأسباب على حسب مختلف مصالح مخلوقاته وتعارض بعضها ببعض، وكذلك تصرفات وتقديرات لا يحيط بها إلا علمه تعالى. وكلها تدخل تحت قوله)إنه بعباده خبير بصير(، وهي جملة واقعة موقع التعليل للتي قبلها.
وافتتحت ب)إن(التي لم يرد منها تأكيد الخبر ولكنها لمجرد الاهتمام بالخبر والإيذان بالتعليل لأن)إن(في مثل هذا المقام تقوم مقام فاء التفريع وتفيد التعليل والربط، فالجملة في تقدير المعطوفة بالفاء.
والجمع بين وصفي)خبير(و)بصير(لأن وصف)خبير(دال على العلم بمصالح العباد وأحوالهم قبل تقديرها وتقدير أسبابها، أي العلم بما سيكون. ووصف)بصير(دال على العلم المتعلق بأحوالهم التي حصلت، وفرق بين التعلقين للعلم الإلهي.
)وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد[28](عطف على جملة)ولكن ينزل بقدر ما يشاء(فإن الغيث سبب رزق عظيم وهو ما ينزله الله بقدر هو أعلم به، وفيه تذكير بهذه النعمة العظيمة على الناس التي منها معظم رزقهم الحقيقي لهم ولأنعامهم.

وخصها بالذكر دون غيرها من النعم الدنيوية لأنها نعمة لا يختلف الناس فيها لأنها أصل دوام الحياة بإيجاد الغذاء الصالح للناس

والدواب، وبهذا يظهر وقع قوله)ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة(عقب قوله هنا)وهو الذي ينزل الغيث(.
واختيار المضارع في)ينزل(لإفادة تكرر التنزيل وتجديده.
والتعبير بالماضي في قوله)من بعدما قنطوا(للإشارة إلى حصول القنوط وتقرره بمضي زمان عليه.
والغيث: المطر الآتي بعد الجفاف، سمي غيثا بالمصدر لأن به غيث الناس المضطرين، وتقدم عنه قوله)فيه يغاث الناس(في سورة يوسف.
والقنوط: اليأس، وتقدم عند قوله تعالى)فلا تكن من القانطين(في سورة الحجر. والمراد: من بعدما قنطوا من الغيث بانقطاع أمارات الغيث المعتادة وضيق الوقت عن الزرع.
وصيغة القصر في قوله)وهو الذي ينزل الغيث(تفيد قصر القلب لأن في السامعين مشركين يظنون نزول الغيث من تصرف الكواكب وفيهم المسلمون الغافلون، نزلوا منزلة من يظن نزول الغيث منوطا بالأسباب المعتادة لنزول الغيث لأنهم كانوا في الجاهلية يعتقدون أن المطر من تصرف أنواء الكواكب.
وفي حديث زيد بن خالد الجهني قال خطبنا رسول الله على إثر سماء كانت من الليل فقال: أتدرون ماذا قال ربكم؟ قال، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا ونوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب .
فهذا القصر بالنسبة للمشركين قصر قلب أصلي وهو بالنسبة للمسلمين قصر قلب تنزيلي.
والنشر: ضد الطي، وتقدم عند قوله تعالى)يلقاه منشورا(في سورة الإسراء.
واستعير هنا للتوسيع والامتداد. والرحمة هنا: رحمته بالماء، وقيل: بالشمس بعد المطر. وضمير)من بعدما قنطوا(عائد إلى)عباده(من قوله)وهو الذي يقبل التوبة عن عباده(.
وقد قيل: إن الآية نزلت بسبب رفع القحط عن قريش بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم بهم بذلك بعد أن دام عليهم القحط سبع سنين أكلوا فيها الجيف والعظام وهو المشار إليه بقوله في سورة الدخان)إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون(.
في الصحيح عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا قريشا كذبوه واستعصوا عليه فقال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف. فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد إن قومك قد هلكوا فادع الله أن يكشف عنهم فدعا. ثم قال: تعودون بعد .
وقد كان هذا في المدينة ويؤيده ما روي أن هذه الآية نزلت في

استسقاء النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله الأعرابي وهو في خطبة الجمعة.
وفي رواية أن الذي كلمه هو كعب بن مرة وفي بعض الروايات في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اللهم عليك بقريش اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف.
وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر)ينزل(بفتح النون وتشديد الزاي. وقرأه الباقون بسكون النون وتخفيف الزاي.
وذكر صفتي)الولي الحميد(دون غيرهما لمناسبتهما للإغاثة لأن الولي يحسن إلى مواليه والحميد يعطي ما يحمد عليه. ووصف حميد فعيل بمعنى مفعول.
وذكر المهدوي تفسير)ينشر رحمته(بطلوع الشمس بعد المطر.
)ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير[29](لما كان إنزال الغيث جامعا بين كونه نعمة وكونه آية دالة على بديع صنع الله تعالى وعظيم قدرته المقتضية انفراده بالإلهية، انتقل من ذكره إلى ذكر آيات دالة على انفراد الله تعالى بالإلهية وهي آية خلق العوالم العظيمة وما فيها مما هو مشاهد للناس دون قصد الامتنان. وهذا الانتقال استطراد واعتراض بين الأغراض التي سياق الآيات فيها.
والآيات: جمع آية، وهي العلامة والدليل على سيء. والسياق دال على أن المراد آيات الإلهية. والسماوات: العوالم العليا غير المشاهدة لنا والكواكب وما تجاوز الأرض من الجو. والأرض: الكرة التي عليها الحيوان والنبات. والبث: وضع الأشياء في أمكنة كثيرة.

صفحة : 3872

والدابة: ما يدب على الأرض، أي يمشي فيشمل الطير لأن الطير يمشي إذا نزل وهو مما أريد في قوله هنا)فيهما(أي في الأرض وفي السماء، أي بعض ما يسمى بالسماء وهو الجو وهو ما يلوح للناظر مثل قبة زرقاء على الأرض في النهار، قال تعالى)ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء(فإطلاق الدابة على الطير باعتبار أن الطير يدب على الأرض كثيرا لالتقاط الحب وغير ذلك.
وأما الموجودات التي في السماوات العلى من الملائكة والأرواح فلا يطلق عليها اسم دابة. ويجوز أن تكون في بعض السماوات موجودات تدب فيها فإن الكواكب من السماوات. والعلماء يترددون في إثبات سكان في الكواكب، وجوز بعض العلماء المتأخرين أن في

كوكب المريخ سكانا، وقال تعالى)ويخلق ما لا تعلمون(، على أنه قد يكون المراد من الظرفية في قوله)فيهما(ظرفية المجموع لا الجميع، أي ما بث في مجموع الأرض والسماء من دابة، فالدابة إنما هي على الأرض، ولما ذكرت الأرض والسماء مقترنتين وجاء ذكر الدواب جعلت الدواب مظروفة فيهما لأن الأرض محوطة بالسماوات ومتخيلة منها كالمظروف في ظرفه، والمظروف في ظرف مظروف في ظرف مظروفه كما قال تعالى)مرج البحرين يلتقيان(ثم قال:)يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان(واللؤلؤ والمرجان يخرجان من أحد البحرين وهو البحر الملح لا من البحر العذب.

وجملة)وهو على جمعهم إذا يشاء قدير(، معترضة في جملة الاعتراض لإدماج إمكان البعث في عرض الاستدلال على عظيم قدرة الله وعلى تفرده بالإلهية.

والمعنى: أن القادر على خلق السماوات والأرض وما فيهما عن عدم قادر على إعادة خلق بعض ما فيهما للبعث والجزاء لأن ذلك كله سواء في جواز تعلق القدرة به فكيف تعدونه محالا.

وضمير الجماعة في قوله)جمعهم(عائد إلى ما بث فيهما من دابة باعتبار أن الذي تتعلق الإرادة بجمعه في الحشر للجزاء هم العقلاء من الدواب أي الإنس.

والمراد ب)جمعهم(حشرهم للجزاء، قال تعالى)يوم يجمعكم ليوم الجمع(.

وقد ورد في أحاديث في الصحيح أن بعض الدواب تحشر للانتصاف ممن ظلمها . و)إذا(ظرف للمستقبل وهو هنا مجرد عن تضمن الشرطية، فالتقدير: حين يشاء في مستقبل الزمان، وهو متعلق ب)جمعهم(. وهذا الظرف إدماج ثان لإبطال استدلالهم بتأخر يوم البعث على أنه لا يقع كما حكي عنهم في قوله تعالى) ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا(و)يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون(.

)وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير[30] (لما تضمنت المنة بإنزال الغيث بعد القنوط أن القوم أصابهم جهد من القحط بلغ بهم مبلغ القنوط من الغيث أعقبت ذلك بتنبيههم إلى أن ما أصابهم من ذلك البؤس هو جزاء على ما اقترفوه من الشرك تنبيها يبعثهم ويبعث الأمة على أن يلاحظوا أحوالهم نحو امتثال رضى خالقهم ومحاسبة أنفسهم حتى لا يحسبوا أن الجزاء الذي أوعدوا به مقصور على الجزاء في الآخرة بل يعلموا أنه قد يصيبهم الله بما هو جزاء لهم في الدنيا، ولما كان ما أصاب قريشا من القحط والجوع استجابة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم

عليهم كما تقدم، وكانت تلك الدعوة ناشئة على ما لا قوة به من الأذى، لا جرم كان ما أصابهم مسببا على ما كسبت أيديهم.
فالجملة عطف على جملة)وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا(، وأطلق كسب الأيدي على الأفعال والأقوال المنكرة على وجه المجاز بعلاقة الإطلاق، أي بما صدر منكم من أقوال الشرك ولأذى للنبي صلى الله عليه وسلم وفعل المنكرات الناشئة عن دين الشرك.
والخطاب للمشركين ابتداء لأنهم المقصود من سياق الآيات كلها وهم أولى بهذه الموعظة لأنهم كانوا غير مؤمنين بوعيد الآخرة ويشمل المؤمنين بطريق القياس وبما دل على شمول هذا الحكم لهم من الأخبار الصحيحة ومن آيات أخرى.

صفحة : 3873

والباء للسببية، أي سبب ما أصابكم من مصيبة هو أعمالكم. وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر)بما كسبت أيديكم(على أن)ما(موصولة وهي مبتدأ. و)بما كسبت أيديكم(ظرف مستقر هو خبر المبتدأ.
وكذلك كتبت في مصحف المدينة ومصحف الشام وقرأ الباقون) فبما كسبت أيديكم(بفاء قبل الباء وكذلك كتبت في مصحف البصرة ومصحف الكوفة، على أن)ما(متضمنة معنى الشرط فاقترن خبرها بالفاء لذلك، أو هي شرطية والفاء رابطة لجواب الشرط ويكون وقوع فعل الشرط ماضيا للدلالة على التحقق.
و)من(بيانية على القراءتين لما في الموصول واسم الشرط من الإبهام.
والمصيبة: اسم للحادثة التي تصيب بضر ومكروه، وقد لزمتها هاء التأنيث للدلالة على الحادثة فلذلك تنوسيت منها الوصيفة وصارت اسما للحادثة المكروهة.
فقراءة الجمهور تعين معنى عموم التسبب لأفعالهم فيما يصيبهم من المصائب لأن)ما(في هذه القراءة إما شرطية والشرط دال على التسبب وإما موصولة مشبهة بالشرطية، فالموصولية تفيد الإيماء إلى علة الخبر، وتشبيهها بالشرطية يفيد التسبب. وقراءة نافع وابن عامر لا تعين التسبب بل تجوزه لأن الموصول قد يراد به واحد معين بالوصف بالصلة، فتحمل على العموم بالقرينة وبتأييد القراءة الأخرى لأن الأصل في اختلاف القراءات الصحيحة اتحاد المعاني.

وكلتا القراءتين سواء في احتمال أن يكون المقصود بالخطاب فريقا معينا وأن يكون المقصود به جميع الناس، وكذلك في أن يكون المراد مصائب معينة حصلت في الماضي، وأن يراد جميع المصائب التي حصلت والتي تحصل.

ومعنى الآية على كلا التقديرين يفيد: أن مما يصيب الناس من مصائب الدنيا ما هو جزاء لهم على أعمالهم التي لا يرضاها الله تعالى كمثل المصيبة أو المصائب التي أصابت المشركين لأجل تكذيبهم وأذاهم للرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم إن كانت)ما(شرطية كانت دلالتها على عموم مفهومها المبين بحرف)من(البيانية أظهر لأن شرطها الماضي يصح أن يكون بمعنى المستقبل كما هو كثير في الشروط المصوغة بفعل المضي والتعليق الشرطي يمحضها للمستقبل، وإن كانت)ما(موصولة كانت دلالتها محتملة للعموم وللخصوص لأن الموصول يكون للعهد ويكون للجنس.

وأياما كان فهو دال على أن من المصائب التي تصيب الناس في الدنيا ما سلطه الله عليهم جزاء على سواء أعمالهم وإذا كان ذلك ثابتا بالنسبة لأناس معينين كان فيه نذارة وتحذير لغيرهم ممن يفعل من جنس أفعالهم أن تحل بهم مصائب في الدنيا جزاء على أعمالهم زيادة في التنكيل بهم إلا أن هذا الجزاء لا يطرد فقد يجازي الله قوما على أعمالهم جزاء في الدنيا مع جزاء الآخرة، وقد يترك قوما إلى جزاء الآخرة، فجزاء الآخرة في الخير والشر هو المطرد الموعود به، والجزاء في الدنيا قد يحصل وقد لا يحصل كما قال تعالى)ويعفو عن كثير(كما سنبينه.

وهذا المعنى قد تكرر ذكره في آيات وأحاديث كثيرة بوجه الكلية وبوجه الجزئية، فمما جاء بطريق الكلية قوله تعالى)فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمني وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانني كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما(الآية، فقوله)بل لا تكرمون اليتيم(مرتب على قوله)كلا(المرتب على قوله)فيقول ربي أكرمني(وقوله)فيقول ربي أهانني(، فدل على أن الكرامة والإهانة إنما تسببا على عدم إكرام اليتيم والحض على طعام المسكين،وقال تعالى)ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون(.

وفي سنن الترمذي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال)لا تصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر(. وهو ينظر إلى تفسير هذه الآية، وأما جاء على وجه الجزئية فمنه قوله تعالى حكاية عن نوح)فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا(وقوله حكاية عنه)أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى(في سورة نوح. وقوله خطابا لبني إسرائيل)فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا(الآية في سورة البقرة، وقوله)إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين(وقال حكاية عن موسى)أتهلكنا بما فعل السفهاء منا( )وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب(في الأعراف، وقال في فرعون)فأخذه الله نكال الآخرة والأولى(، وقال في المنافقين)أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون(في براءة.

وفي حديث الترمذي قال النبي نقل الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكروهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، من يحافظ عليهن عاش بخير ومات بخير ، وفي باب العقوبات من آخر سنن ابن ماجه عن النبي صلى الله عليه وسلم وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه .

وفي البخاري قال خباب بن الأرت إنا آمنا بالله وجاهدنا في سبيله فوجب أجرنا على الله فمنا من ذهب لم يأخذ من أجره شيئا منهم مصعب بن عمير، مات وما ترك الا... كنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا رجليه بدا رأسه فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغطي بها رأسه ونضع على رجليه من الإذخر ومنهم من عجلت له ثمرته فهو يهدبها .

وإذا كانت المصيبة في الدنيا تكون جزاء على فعل الشر فكذلك خيرات الدنيا قد تكون جزاء على فعل الخير قال تعالى)ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة(، وقال حكاية عن إخوة يوسف)قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين(أي مذنبين، أي وأنت لم تكن خاطئا، وقال)فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة(في آل عمران وقال)وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك(في سورة الكهف، وقال)وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات

ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم(إلى قوله) وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا(في سورة النور.
وهذا كله لا ينقض الجزاء في الآخرة، فمن أنكروا ذلك وقالوا: إن الجزاء إنما يحصل يوم القيامة لقوله تعالى)ملك يوم الدين(أي يوم الجزاء وإنما الدنيا دار تكليف والآخرة دار الجزاء، فالجواب عن قولهم: هو أنه ليس كون ما يصيب من الشر والخير في الدنيا جزاء على عمل بمطرد، ولا متعين له فإن لذلك أسبابا كثيرة وتدفعه أو تدفع بعضا منه جوابر كثيرة والله يقدر ذلك استحقاقا ودفعا ولكنه مما يزيده الله به الجزاء إن شاء.
وقد تصيب الصالحين نكبات ومصائب وآلام فتكون بلوى وزيادة في الأجر ولما لا يعلمه إلا الله، وقد تصيب المسرفين خيرات ونعم إمهالا واستدراجا ولأسباب غير ذلك مما لا يحصيه إلا الله وهو أعلم بخفايا خلقه ونواياهم ومقادير أعمالهم من حسنات وسيئات، واستعداد نفوسهم وعقولهم لمختلف مصادر الخير والشر قال تعالى)ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وه معرضون(.
ومما اختبط فيه ضعفاء المعرفة وقصار الأنظار أن زعم أهل القول بالتناسخ أن هذه المصائب التي لا نرى لها أسبابا والخيرات التي تظهر في مواطن تحف بها مقتضيات الشرور إنما هي بسبب جزاء الأرواح المودعة في الأجسام التي نشاهدها على ما كانت أصابته من مقتضيات الأحوال التي عرضت لها في مرآنا قبل أن توضع في هذه الأجساد التي نراها، وقد عموا عما يرد على هذا الزعم من سؤال عن سبب إيداع الأرواح الشريرة في الأجساد الميسرة للصالحات والعكس فبئس ما يفترون.

صفحة : 3875

فقوله)ويعفو عن كثير(عطف على جملة)وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم(، وضمير)يعفو(عائد إلى ما عاد إليه ضمير)ومن آياته خلق السماوات(. وهذا يشير إلى ما يتراءى لنا من تخلف إصابة المصيبة عن بعض الذين كسبت أيديهم جرائم، ومن ضد ذلك مما تصيب المصائب بعض الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهو إجمال يبينه على الجملة أن ما يعلمه الله من أحوال عبادة وما تغلب من حسناتهم على سيئاتهم، وما تقتضيه حكمة الله من إمهال بعض عباده أو من ابتلاء بعض المقربين، وتلك مراتب كثيرة

وأحوال مختلفة تتعارض وتتساقط والموفق يبحث عن الأسباب فإن أعجزته فوض العلم إلى الله.

والمعنى: أنه تعالى يعفو، أي يصفح فلا يصيب كثيرا من عباده الذين استحقوا جزاء السوء بعقوبات دنيوية لأنه يعلم أن ذلك أليق بهم. فالمراد هنا: العفو عن المؤاخذة في الدنيا ولا علاقة لها بجزاء الآخرة فإن فيه أدلة أخرى من الكتاب والسنة.

و)كثير(صفة لمحذوف، أي عن خلق أو ناس.

)وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير[31](عطف على جملة)ويعفو عن كثير(، وهو احتراس، أي يعفو عن قدرة فإنكم لا تعجزونه ولا تغلبونه ولكن يعفو تفضلا.

والمعجز: الغالب غيره بانفلاته من قبضته.

والمعنى: ما أنتم بفالتين من قدرة الله. والخطاب للمشركين.

والمعنى: أن الله أصابكم بمصيبة القحط ثم عفا عنكم برفع القحط عنكم وما أنتم بمفلتين من قدرة الله إن شاء أن يصيبكم، فهو من معنى قوله)إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون(، وقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي سفيان حين دعا برفع القحط عنهم) تعودون بعد(وقد عادوا فأصابهم الله ببطشة بدر قال)يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون(.

وتقييد النفي بقوله)في الأرض(لإرادة التعميم، أي في أي مكان من الأرض لئلا يحسبوا أنهم في منعة بحلولهم في مكة التي أمنها الله تعالى ، وذلك أن العرب كانوا إذا خافوا سطوة ملك أو عظيم سكنوا الجهات الصعبة، كما قال النابغة ذاكرا تحذيره قومه من ترصد النعمان بن المنذر لهم وناصحا لهم؛

إما عصيت فإني غير منفلـت مني
اللصاب فجنبا حرة النـار

أو أضع البيت في صماء مضلمة من
المظالم تـدعـى أم صـار

تدافع الناس عنا حين نركبهـا تقيد

العير لا يسري بها الساري وجيء بالخبر جملة اسمية في قوله)وما أنتم بمعجزين(للدلالة على ثبات الخبر ودوامه، أي نفي إعجازهم ثابت لا يتخلف فهم في مكنة خالقهم.

ولما أفاد قوله)وما أنتم بمعجزين في الأرض(أن يكون لهم منجى من سلطة الله بنفي أن يكون لهم ملجأ يلجأون إليه لينصرهم ويقيهم من عذاب الله فقال)وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير(أي ليس لكم ولي يتولاكم فيمنعكم من سلطان الله ولا نصير ينصركم على الله إن أراد إصابتكم فتغلبونه، فجمعت الآية نفي ما هو معتاد بينهم من وجوه الوقاية.

و)من دون الله(ظرف مستقر هو خبر ثان عن)ولي(و)نصير(، والخبر الأول هو)لكم(. وتقديم الخبرين للاهتمام بالخبر ولتعجيل بأسهم من ذلك.

)ومن آياته الجواري في البحر كالأعلام[32] إن يشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور[33] أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير[34](لما جرى تذكيرهم بأن ما أصابهم من مصيبة هو مسبب عن اقتراف أعمالهم، وتذكيرهم بحلول المصائب تارة وكشفها تارة أخرى بقوله)ويعفو عن كثير(، وأعقب بأنهم في الحالتين غير خارجين عن قبضة القدرة الإلهية سيق لهم ذكر هذه الآية جامعة مثالا لإصابة المصائب وظهور مخائلها المخيفة المذكرة بما يغفلون عنه من قدرة الله والتي قد تأتي بما أنذروا به وقد تنكشف عن غير ضر، ودليلا على عظيم قدرة الله تعالى وأه لا محيص عن إصابة ما أراده، وإدماجا للتذكير بنعمة السير في البحر وتسخير البحر للناس فإن ذلك نعمة، قال تعالى)والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس(في سورة البقرة، فكانت هذه الجملة اعتراضا مثل جملة)ومن آياته خلق السماوات والأرض(.

صفحة : 3876

والآيات: الأدلة الدالة على الحق.

والجواري: جمع جارية صفة لمحذوف دل عليه ذكر البحر، أي السفن الجواري في البحر كقوله تعالى في سورة الحاقة)إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية(. وعدل عن: الفلك إلى) الجواري(إيماء إلى محل العبرة لأن العبرة في تسخير البحر لجريها وتفكير الإنسان في صنعها.

والأعلام: جمع علم وهو الجبل، والمراد: بالجواري السفن العظيمة التي تسع ناسا كثيرين، والعبرة بها أظهر والنعمة بها أكثر.

وكتبت كلمة)الجوار(في المصحف بدون ياء بعد الراء ولها نظائر كثيرة في القرآن في الرسم والقراءة، وللقراء في أمثالها اختلاف وهي التي تدعي عند علماء القراءات بالياءات الزوائد.

وقرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر)الجواري(في هذه السورة بإثبات الياء في حالة الوصل وبحذفها في حالة الوقف. وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات الياء في الحالين. وقرأ الباقون بحذفها في الحالين.

وإسكان الرياح: قطع هبوبها، فإن الريح حركة وتموج في الهواء فإذا سكن ذلك التموج فلا ريح.

وقرأ نافع)الرياح(بلفظ الجمع. وقرأه الباقون)الريح(بلفظ المفرد. وفي قراءة الجمهور ما يدل على أن الريح قد تطلق بصيغة الإفراد على ريح الخير، وما قيل: إن الرياح للخير والريح للعذاب في القرآن هو غالب لا مطرد. وقد قرئ في آيات أخرى الرياح والريح في سياق الخير دون العذاب.

وقرأ الجمهور)يشأ(بهمزة ساكنة. وقرأه ورش عن نافع من طريق الأصفهاني بألف على أنه تخفيف للهمزة.

والرواكد: جمع راكدة، والركود: الاستقرار والثبوت.

والظهر: الصلب للإنسان والحيوان، ويطلق على أعلى الشيء إطلاقا شائعا. يقال: ظهر البيت، أي سطحه، وتقدم في قوله تعالى)وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها(. وأصله: استعارة فشاعت حتى قاربت الحقيقة، فظهر البحر سطح مائه البادي للناظر، كما أطلق ظهر الأرض على ما يبدو منها، قال تعالى)ما ترك على ظهرها من دابة(.

وجعل ذلك آية لكل صبار شكور لأن في الحالتين خوفا ونجاة، والخوف يدعو إلى الصبر، والنجاة تدعو إلى الشكر. والمراد: أن في ذلك آيات لكل مؤمن متخلق بخلق الصبر على الضراء والشكر للسراء، فهو يعتبر بأحوال الفلك في البحر اعتبارا يقارنه الصبر أو الشكر.

وإنما جعل ذلك آية للمؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بتلك الآية فيعلمون أن الله منفرد بالإلهية بخلاف المشركين فإنها تمر بأعينهم فلا يعتبرون بها.

وقوله)أو يوبقهن(عطف على جزاء الشرط.

و)يوبقهن(: يهلكهن. والإيباق: الإهلاك، وفعله وبق كوعد. والمراد به هنا الغرق، فيجوز أن يكون ضمير جماعة الإناث عائدا إلى) الجواري(على أن يستعار الإيباق للإغراق لأن الإغراق إتلاف. ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى الراكبين على تأويل معاد الضمير بالجماعات بقرينة قوله)بما كسبوا(فهو كقوله)وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم(.

والباء للسببية وهو في معنى قوله)وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم(.

)ويعف عن كثير(عطف على)يوبقهن(فهو في معنى جزاء للشرط المقدر، أي وإن يشأ يعف عن كثير فلا يوبقهم مع استحقاقهم أن يوبقوا. وهذا العطف اعتراض.

)ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص[35](قرأ نافع وابن عامر ويعقوب برفع)ويعلم(على أنه كلام مستأنف. وقرأه الباقون بالنصب.

فأما الاستئناف على قراءة نافع وابن عامر ويعقوب فمعناه أنه كلام آنف لا ارتباط له بما قبله، وذلك تهديد للمشركين بأنهم لا محيص لهم من عذاب الله لأنه لما قال)ومن آياته الجواري في البحر(صار المعنى: ومن آيات انفراده بالإلهية الجواري في البحر. والمشركون يجادلون في دلائل الوحدانية بالإعراض والانصراف عن سماعها فهددهم الله بأن أعلمهم أنهم لا محيص لهم، أي من عذابه فحذف متعلق المحيص إبهاما له تهويلا للتهديد لتذهب النفس كل مذهب ممكن فيكون قوله)ويعلم الذين يجادلون(خبرا مرادا به الإنشاء والطلب فهو في قوة: وليعلم الذين يجادلون، أو اعلموا يا من يجادلون، وليس خبرا عنهم لأنهم لا يؤمنون بذلك حتى يعلموه.

صفحة : 3877

وأما قراءة النصب فهي عند سيبويه وجمهور النحاة على العطف على فعل مدخول للام التعليل، وتضمن)أن(بعده. والتقدير: لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون الخ. وسموا هذه الواو واو الصرف لأنها تصرف ما بعدها عن أن يكون معطوفا على ما قبلها، إلى أن يكون معطوفا على فعل متصيد من الكلام وهذا قول سيبويه في باب ما يرتفع بين الجزمين وينجزم بينهما، وتبعه في الكشاف، وذهب الزجاج إلى أن الواو واو المعية التي ينصب الفعل المضارع بعدها ب)أن(مضمرة.

ويجوز أن يجعل الخبر مستعملا في مقاربة المخبر به كقولهم: قد قامت الصلاة، فلما كان علمهم بذلك يوشك أن يحصل نزل منزلة الحاصل فأخبر عنهم به، وعلى هذا الوجه يكون إنذارا بعقاب يحصل لهم قريب وهو عذاب السيف والأسر يوم بدر.

وذكر فعل)يعلم(للتنويه والاعتناء بالخبر كقوله تعالى)واعلموا أنكم ملاقوه(في سورة البقرة، وقوله)واعلموا أنما غنمتم من شيء(في سورة الأنفال، وقول النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى أبا مسعود الأنصاري يضرب غلاما له فناداه: اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود، قال أبو مسعود: فالتفت فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو يقول: اعلم أبا مسعود فألقيت السوط من يدي، فقال لي: إن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام رواه مسلم أواخر كتاب الإيمان. وتقدم معنى)الذين يجادلون في آياتنا(في هذه السورة.

و)ما(نافية، وهي معلقة لفعل)يعلم(عن نصب المفعولين.

والمحيص: مصدر ميمي من حاص، إذا أخذ في الفرار ومال في سيره، وفي حديث أبي سفيان في وصف مجلس هرقل فحاصوا حيصة حمر الوحش وأغلقت الأبواب . والمعنى: ما لهم من فرار ومهرب من لقاء الله. والمراد: ما لهم من محيد ولا ملجأ. وتقدم في قوله تعالى)ولا يجدون عنها محيصا(في سورة النساء.

)فما أوتيتم من شيء فمتع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون[36](تفريع على جملة)ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا(إلى آخرها، فإنها اقتضت وجود منعم عليه ومحروم، فذكروا بأن ما أوتوه من رزق هو عرض زائل، وأن الخير في الثواب الذي ادخره الله للمؤمنين، مع المناسبة لما سبقه من قوله:)ويعف عن كثير(من سلامة الناس من كثير من أهوال الأسفار البحرية فإن تلك السلامة نعمة من نعم الدنيا، ففرعت عليه الذكرى بأن تلك النعمة الدنيوية نعمة قصيرة الزمان صائرة إلى الزوال فلا يجعلها الموفق غاية سعيه وليسع لعمل الآخرة الذي يأتي بالنعيم العظيم الدائم وهو النعيم الذي ادخره الله عنده لعباده المؤمنين الصالحين.

والخطاب في قوله)أوتيتم(للمشركين جريا على نسق الخطاب السابق في قوله)وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم(وقوله)وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير(، وينسحب الحكم على المؤمنين بلحن الخطاب، ويجوز أن يكون الخطاب لجميع الأمة، فالفاء الأولى للتفريع، و)ما(موصولة ضمنت معنى الشرط والفاء الثانية في قوله)فمتاع الحياة الدنيا(داخلة على خبر)ما(الموصولة لتضمنها معنى الشرط وإنما لم نجعل)ما(شرطية لأن المعنى على الإخبار لا على التعليق، وإنما تضمن معنى الشرط وهو مجرد ملازمة الخبر لمدلول اسم الموصول كما تقدم نظيره آنفا في قوله)وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم(في قراءة غير نافع وابن عامر.

ويتعلق قوله)للذين أمنوا خير وأبقى(على وجه التنازع، واتبعت صلة)الذين أمنوا(بما يدل على عملهم بإيمانهم في اعتقاده فعطف على الصلة أنهم يتوكلون على ربهم دون غيره. وهذا التوكل إفراد لله بالتوجه إليه في كل ما تعجز عنه قدرة العبد، فإن التوجه إلى غيره في ذلك ينافي التوحيد لأن المشركين يتوكلون على آلهتهم أكثر من توكلهم على الله، ولكون هذا متمما لمعنى)الذين أمنوا(عطف على الصلة ولم يؤت معه باسم موصول بخلاف ما ورد بعده.

)والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون[37](

أتبع الموصول السابق بموصولات معطوف بعضها على بعض كما تعطف الصفات للموصوف الواحد، فكذلك عطف هذه الصلات وموصولاتها أصحابها متحدون وهم الذين آمنوا بالله وحده وقد تقدم نظيره عند قوله تعالى)الذين يؤمنون بالغيب(ثم قوله)والذين يؤمنون بما أنزل إليك(الآية في سورة البقرة.

والمقصود من ذلك: هو الاهتمام بالصلات فيكرر الاسم الموصول لتكون صلته معتنى بها حتى كأن صاحبها المتحد منزل منزلة ذوات. فالمقصود: ما عند الله خير وأبقى للمؤمنين الذين هذه صفاتهم، أي أتبعوا إيمانهم بها. وهذه صفات للمؤمنين باختلاف الأحوال العارضة لهم فهي صفات متداخلة قد تجتمع في المؤمن الواحد إذا وجدت أسبابها وقد لا تجتمع إذا لم توجد بعض أسبابها مثل)وأمرهم شورى بينهم(.

وقرأ الجمهور)كبائر(بصيغة الجمع. وقرأه حمزة والكسائي وخلف كبير بالإفراد، فكبائر الإثم: الفعلات الكبيرة من جنس الإثم وهي الآثام العظيمة التي نهى الشرع عنها نهيا جازما، وتوعد فاعلها بعقاب الآخرة مثل القذف والاعتداء والبغي. وعلى قراءة كبيرة الإثم مراد به معنى كبائر الإثم لأن المفرد لما أضيف إلى معرف بلام الجنس من إضافة الصفة إلى الموصوف كان له حكم ما أضيف هو إليه.

والفواحش: جمع فاحشة، وهي: الفعلة الموصوفة بالشناعة والتي شدد الدين في النهي عنها وتوعد عليها بالعذاب أو وضع لها عقوبات في الدنيا للذي يظهر عليه من فاعليها. وهذه مثل قتل النفس، والزنى، والسرقة، والحرابة. وتقدم عند قوله)وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا(في سورة الأعراف.

وكبائر الإثم والفواحش قد تدعو إليها القوة الشاهية. ولما كان كثير من كبائر الإثم والفواحش متسببا على القوة الغضبية مثل القتل والجراح والشتم والضرب أعقب الثناء على الذين يجتنبونها، فذكر أن من شيمتهم المغفرة عند الغضب، أي إمساك أنفسهم عن الاندفاع مع داعية الغضب فلا يغول الغضب أحلامهم.

وجيء بكلمة)إذا(المضمنة معنى الشرط والدالة على تحقق الشرط، لأن الغضب طبيعة نفسية لا تكاد تخلو عنه نفس أحد على تفاوت. وجملة)وإذا ما غضبوا هم يغفرون(عطف على جملة الصلة.

وقدم المسند إليه على الخبر الفعلي في جملة)هم يغفرون(لإفادة التقوي.

وتقييد المسند ب)إذا(المفيدة معنى الشرط للدلالة على تكرر الغفران كلما غضبوا.
والمقصود من هذا معاملة المسلمين بعضهم مع بعض فلا يعارضه قوله الآتي)والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون(لأن ذلك في معاملتهم مع أعداء دينهم.
)والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلوة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقنهم ينفقون[38](هذا موصول آخر وصلة أخرى. ومدلولهما من أعمال الذين آمنوا التي يدعوهم إليها إيمانهم، والمقصود منها ابتداء هم الأنصار، كما روي عن عبد الرحمان ابن زيد. ومعنى ذلك أنهم من المؤمنين الذين تأصل فيهم خلق الشورى.
وأما الاستجابة لله فهي ثابتة لجميع من آمن بالله لأن الاستجابة لله هي الاستجابة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم فإنه دعاهم إلى الإسلام مبلغا عن الله فكأن الله دعاهم إليه فاستجابوا لدعوته. والسين والتاء في)استجابوا(للمبالغة في الإجابة، أي هي إجابة لا يخالطها كراهية ولا تردد.
ولام له للتقوية يقال: استجاب له كما يقال: استجابه، فالظاهر أنه أريد منه استجابة خاصة، وهي إجابة المبادرة مثل أبي بكر وخديجة وعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص ونقباء الأنصار أصحاب ليلة العقبة.
وجعلت)وأمرهم شورى بينهم(عطفا على الصلة. وقد عرف الأنصار بذلك إذ كان التشاور في الأمور عادتهم فإذا نزل بهم مهم اجتمعوا وتشاوروا وكان من تشاورهم الذي أثنى الله عليهم به هو تشاورهم حين ورد إليهم نقباؤهم وأخبروهم بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن آمنوا هم به ليلة العقبة، فلما أبلغوهم ذلك اجتمعوا في دار أبي أيوب الأنصاري فأجمع رأيهم على الإيمان به والنصر له.
وإذ قد كانت الشورى مفضية إلى الرشد والصواب وكان من أفضل آثارها أن اهتدى بسببها الأنصار إلى الإسلام أثنى الله بها على الإطلاق دون تقييد بالشورى الخاصة التي تشاور بها الأنصار في الإيمان وأي أمر أعظم من أمر الإيمان.

والأمر: اسم من أسماء الأجناس العامة مثل: شيء وحادث. وإضافة اسم الجنس قد تفيد العموم بمعونة المقام، أي جميع أمورهم متشاور فيها بينهم.

والإخبار عن الأمر بأنه شورى من قبيل الإخبار بالمصدر للمبالغة. والإسناد مجاز عقلي لأن الشورى تسند للمتشاورين، وأما الأمر فهو ظرف مجازي للشورى، ألا ترى أنه يقال: تشاورا في كذا، قال تعالى)وشاورهم في الأمر(فاجتمع في قوله)وأمرهم شورى(مجاز عقلي واستعارة تبعية ومبالغة.

والشورى مصدر كالبشرى والفتيا وهي أن قاصد عمل يطلب ممن يظن فيه صواب الرأي والتدبير أن يشير عليه بما يراه في حصول الفائدة المرجوة من عمله، وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى) وشاوروهم في الأمر(في سورة آل عمران.

وقوله)بينهم(ظرف مستقر هو صفة ب)شورى(. والتشاور لا يكون إلا بين المتشاورين فالوجه أن يكون هذا الظرف إيماء إلى أن الشورى لا ينبغي أن تتجاوز من يهمهم الأمر من أهل الرأي فلا يدخل فيها من لا يهمه الأمر، وإلى أنها سر بين المتشاورين قال بشار:

ولا تشهد الشورى أمرا غير كاتم وقد كان شيخ الإسلام محمود ابن الخوجة أشار في حديث جرى بيني وبينه إلى اعتبار هذا الإيماء إشارة بيده حين تلا هذه الآية، ولا أدري أذلك استظهار منه أم شيء تلقاه من بعض الكتب أو بعض أساتذته وكلا الأمرين ليس ببعيد عن مثله.

وأثنى الله عليهم بإقامة الصلاة، فيجوز أن يكون ذلك تنويها بمكانة الصلاة بأعمال الإيمان، ويجوز أن يكون المراد إقامة خاصة، فإذا كانت الآية نازلة في الأنصار أو كان الأنصار المقصود الأول منها فلعل المراد مبادرة الأنصار بعد إسلامهم بإقامة الجماعة إذ سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل إليهم من يقرأهم القرآن ويؤمهم في الصلاة فأرسل إليهم مصعب بن عمير وذلك قبل الهجرة.

وأثنى عليهم بأنهم ينفقون مما رزقهم الله، وللأنصار الحظ الأوفر من هذا الثناء، وهو كقوله فيهم)ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة(. وذلك أن الأنصار كانوا أصحاب أموال وعمل فلما آمنوا كانوا أول جماعة من المؤمنين لهم أموال يعينون بها ضعفاء المؤمنين منهم ومن المهاجرين الأولين قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم. فأما المؤمنون من أهل مكة فقد صادرهم المشركون أموالهم لأجل إيمانهم قال النبي صلى الله عليه وسلم)وهل ترك لنا عقيل من دار(.

وقوله)ومما رزقناهم ينفقون(إدماج للامتنان في خلال المدح وإلا فليس الإنفاق من غير ما يرزقه المنفق.

)والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون[39](هذا موصول رابع وصلته خلق أراده الله للمسلمين، والحظ الأول منه للمؤمنين الذين كانوا بمكة قبل أن يهاجروا فإنهم أصابهم بغي المشركين بأصناف الأذى من شتم وتحقير ومصادرة الأموال وتعذيب الذوات فصبروا عليه.

والبغي: الاعتداء على الحق، فمعنى أصابته إياهم أنه سلط عليهم، أي بغي غيرهم عليهم وهذه الآية مقدمة لقوله في سورة الحج) أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق(فإن سورة الحج نزلت بالمدينة. وإنما أثنى الله عليهم بأنهم ينتصرون لأنفسهم تنبيها على أن ذلك الانتصار ناشئ على ما أصابهم من البغي فكان كل من السبب والمسبب موجب الثناء لأن الانتصار محمدة دينية إذ هو لدفع البغي اللاحق بهم لأجل أنهم مؤمنون، فالانتصار لأنفسهم رادع للباغين عن التوغل في البغي على أمثالهم، وذلك الردع عون على انتشار الإسلام، إذ يقطع ما شأنه أن يخالج نفوس الراغبين في الإسلام من هواجس خوفهم من أن يبغى عليهم.

وبهذا تعلم أن ليس بين قوله هنا)والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون(وبين قوله آنفا)وإذا ما غضبوا هم يغفرون(تعارض لاختلاف المقامين كما علمت آنفا.

وعن إبراهيم النخعي: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا وكانوا إذا قدروا عفوا.

وأدخل ضمير الفصل بقوله)هم ينتصرون(الذي فصل بين الموصول وبين خبره لإفادة تقوي الخبر، أي لا ينبغي أن يترددوا في الانتصار لأنفسهم.

وأوثر الخبر الفعلي هنا دون أن يقال: منتصرون، لإفادة معنى تجدد الانتصار كلما أصابهم البغي.

وأما مجيء الفعل مضارعا فلأن المضارع هو الذي يجيء معه ضمير الفصل.

صفحة : 3880

)وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين[40](هذه جمل ثلاث معترضة الواحدة تلو الأخرى بين جملة)والذين إذا أصابهم البغي(الخ وجملة)ولمن انتصر بعد ظلمة(. وفائدة هذا الاعتراض تحديد الانتصار والترغيب في العفو ثم ذم الظلم والاعتداء، وهذا انتقال من الإذن في الانتصار من أعداء

الدين إلى تحديد أجرائه بين الأمة بقرينة تفريع)فمن عفا وأصلح(على جملة)وجزاء سيئة سيئة مثلها(إذ سمي ترك الانتصار عفوا وإصلاحا ولا عفو ولا إصلاح مع أهل الشرك.

وبقرينة الوعد بأجر من الله على ذلك العفو ولا يكون على الإصلاح مع أهل الشرك أجر.

و)سيئة(صفة لمحذوف، أي فعلة تسوء من عومل بها. ووزن) سيئة(فيعلة مبالغة في الوصف مثل: هينة، فعينها ياء ولامها همزة، لأنها من ساء، فلما صيغ منها وزن فيعلة التقت ياءان فأدغمتا، أي أن المجازي يجازي من فعل معه فعلة تسوءه بفعلة سيئة مثل فعلته في السوء، وليس المراد بالسيئة هنا المعصية التي لا يرضاها الله، فلا إشكال في إطلاق السيئة على الأذى الذي يلحق بالظالم.

ومعنى)مثلها(أنها تكون بمقدارها في متعارف الناس، فقد تكون المماثلة في الغرض والصورة وهي المماثلة التامة وتلك حقيقة المماثلة مثل القصاص من القاتل ظلما بمثل ما قتل به، ومن المعتدي بجراح عمد، وقد تتعذر المماثلة التامة فيصار إلى المشابهة في الغرض، أي مقدار الضر وتلك هي المقاربة مثل تعذر المشابهة التامة في جزاء الحروب مع عدو الدين إذ قد يلحق الضر بأشخاص لم يصيبوا أحدا بضر ويسلم أشخاص أصابوا الناس بضر، فالمماثلة في الحرب هي انتقام جماعة من جماعة بمقدار ما يشفي نفوس الغالبين حسبما اصطلح عليه الناس.

ومن ذلك أيضا إتلاف بعض الحواس بسبب ضرب على الرأس أو على العين فيصار إلى الدية إذ لا تضبط إصابة حاسة الباغي بمثل ما أصاب به حاسة المعتدى عليه. وكذلك إعطاء قيم المتلفات من المقومات إذ يتعسر أن يكلف الجاني بإعطاء مثل ما أتلفه.

ومن مشاكل المماثلة في العقوبة مسألة الجماعة يتمالؤون على قتل أحد عمدا، أو على قطع بعض أعضائه؛ فإن اقتص من واحد منهم كان ذلك إفلاتا لبقية الجناة من عقوبة جرمهم، وإن اقتص من كل واحد منهم كان ذلك زيادة في العقوبة لأنهم إنما جنوا على واحد.

فمن العلماء من لم يعتد بتلك الزيادة ونظر إلى أن كل واحد منهم جنى على المجني عليه فاستحق الجزاء بمثل ما ألحقه بالمجني عليه، وجعل التعدد ملغى وراعى في ذلك سد ذريعة أن يتحيل المجرم على التنصل من جرمه بضم جماعة إليه، وهذا قول مالك والشافعي أخذا من قضاء عمر بن الخطاب، وقوله: لو اجتمع على قتله أهل صنعاء لاقتصصت منهم.

ومنهم من عدل عن الزيادة مطلقا وهو قول داود الظاهري، ومنهم من عدل عن تلك الزيادة في القطع ولم يعدل عنها في القتل،

ولعل ذلك لأن عمر بن الخطاب قضى به في القتل ولم يؤثر عن أحد في القطع. وربما ألغى بعضهم الزيادة إذا كان طريق ثبوت الجناية ضعيفا مثل القسامة مع اللوث عند من يرى القصاص بها فإن مالكا لم ير أن يقتل بالقسامة أكثر من رجل واحد.

واعلم أن المماثلة في نحو هذا تحقق بقيمة الغرم كما اعتبرت في الديات وأورش الجنايات.

وجملة)إنه لا يحب الظالمين(في موضع العلة لكلام محذوف دل عليه السياق فيقدر: أنه يحب العافين كما قال)والعافين عن الناس والله يحب المحسنين(. ونصره على ظالمه موكول إلى الله وهو لا يحب الظالمين، أي فيؤجر الذين عفوا وينتصر لهم على الباغين لأنه لا يحب الظالمين فلا يهمل الظالم دون عقاب)ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا(. وقد استفيد حب الله العافين من قوله)إنه لا يحب الظالمين(، وعلى هذا فما صدق الظالمين: هم الذين أصابوا المؤمنين بالبغي.

ويجوز أيضا أن يكون التعليل بقوله)إنه لا يحب الظالمين(منصرفا لمفهوم جملة)وجزاء سيئة سيئة مثلها(أي دون تجاوز المماثلة في الجزاء كقوله)وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به(فيكون ما صدق)الظالمين(: الذين يتجاوزون الحد في العقوبة من المؤمنين على أن يكون تحذيرا من مجاوزة الحد، كقول النبي صلى الله عليه وسلم من حام الحمى يوشك أن يقع فيه .

صفحة : 3881

وقد شملت هذه الآية بموقعها الاعتراضي أصول الإرشاد إلى ما في الانتصار من الظالم وما في العفو عنه من صلاح الأمة، ففي تخويل حق انتصار المظلوم من ظالمه ردع للظالمين عن الإقدام على الظلم خوفا من أن يأخذ المظلوم بحقه، فالمعتدي يحسب لذلك حسابه حين ألهم بالعدوان.

وفي الترغيب في عفو المظلوم عن ظالمه حفظ آصرة الأخوة الإسلامية بين المظلوم وظالمه كيلا تنثلم في آحاد جزئياتها بل تزداد بالعفو متانة كما قال تعالى)ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم(.

على أن الله تعالى لم يهمل جانب ردع الظالم فأنبأ بتحقيق أنه بمحل من غضب الله عليه إذ قال)إنه لا يحب الظالمين(ولا ينحصر ما في طي هذا من هول الوعيد.

وتنشأ على معنى هذه الآية مسألة غراء تجاذبتها أنظار السلف بالاعتبار، وهي: تحليل المظلوم ظالمه من مظلمته. قال أبو بكر بن المعري في الأحكام: روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك وسئل عن قول سعيد بن المسيب: لا أحلل أحدا، فقال: ذلك يختلف. فقلت: الرجل يسلف الرجل فيهلك ولا وفاء له قال: أرى أن يحلله، وهو أفضل عندي لقول الله تعالى)الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه(، وإن كان له فضل يتبع فقيل له: الرجل يظلم الرجل، فقال: لا أرى ذلك، وهو عندي مخالف للأول لقول الله تعالى)إنما السبيل على الذين يظلمون الناس(، ويقول تعالى)ما على المحسنين من سبيل(فلا أرى أن تجعله من ظلمه في حل.

قال ابن العربي فصار في المسألة ثلاثة أقوال: أحدها: لا يحلله بحال قال ابن المسيب. والثاني: يحلله، قاله ابن سيرين، زاد القرطبي وسليمان بن يسار، الثالث: إن كان مالا حلله وإن كان ظلما لم يحلله وهو قول مالك.

وجه الأول: أن لا يحل ما حرم الله فيكون كالتبديل لحكم الله.

ووجه الثاني: أنه حقه فله أن يسقطه.

ووجه الثالث: أن الرجل إذا غلب على حقك فمن الرفق به أن تحلله، وإن كان ظالما فمن الحق أن لا تتركه لئلا يغتر الظلمة ويسترسلوا في أفعالهم القبيحة.

وذكر حديث مسلم عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال خرجت أنا وأبي لطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا فكان أول من لقينا أبو اليسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أبي: أرى في وجهك سنعة من غضب فقال: أجل كان لي على فلان دين، فأتيت أهله وقلت: أثم هو؟ قالوا: لا فخرج ابن له فقلت له: أين أبوك؟ فقال سمع صوتك فدخل أريكة أمي. فقلت: اخرج إلي، فخرج. فقلت: ما حملك على أن اختبأت مني؟ قال: خشيت والله أن أحدثك فأكذبك وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكنت والله معسرا. قال: فأتى بصحيفته فمحاها بيده، قال: إن وجدت قضاء فاقض وإلا فأنت في حل .

)ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل[41](يجوز أن تكون عطفا على جملة)فمن عفا واصلح(فيكون عذرا للذين لم يعفوا، ويجوز أنها عطف على جملة)هم ينتصرون(وما بين ذلك اعتراض كما علمت، فالجملة: إما مرتبطة بغرض انتصار المسلم على ظالمه من المسلمين تكملة لجملة)فمن عفا وأصلح فأجره على الله(، وإما مرتبطة بغرض انتصار المؤمنين من بغي المشركين عليهم، وهو الانتصار بالدفاع سواء كان دفاع جماعات وهو الحرب فيكون هذا تمهيدا للإذن بالقتال الذي شرع من بعد، أم دفاع الآحاد

أن تمكنوا منه فقد صار المسلمون بمكة يومئذ ذوي قوة يستطيعون بها الدفاع عن أنفسهم آحادا كما قيل في عز الإسلام بإسلام عمر بن الخطاب.

واللام في)ولمن انتصر(موطئة للقسم، و)من(شرطية، أو اللام لام ابتداء و)من(موصولة. وإضافة)ظلمه(من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي بعد كونه مظلوما.

ومعنى)بعد ظلمه(التنبيه على أن هذا الانتصار بعد ان تحقق أنهم ظلموا: فأما في غير الحروب فمن يتوقع أن أحدا سيعتدي عليه ليس له أن يبادر أحدا بأذى قبل أن يشرع في الاعتداء عليه ويقول: ظننت أنه يعتدي علي فبادرته بالأذى اتقاء لاعتدائه المتوقع، لأن مثل هذا يثير التهارج والفساد، فنبه الله المسلمين على تجنبه مع عدوهم إن لم تكن بينهم حرب.

صفحة : 3882

وأما حال المسلمين بعضهم مع بعض فليس من غرض الآية، فلو أن أحدا ساوره أحد ببادئ عمل من البغي فهو مرخص له أن يدافعه عن إيصال بغيه إليه قبل أن يتمكن منه ولا يمهله حتى يوقع به ما عسى أن لا يتداركه فاعله من بعد، وذلك مما يرجع إلى قاعدة أن ما قارب الشيء يعطى حكم حصوله، أي مع غلبة ظنه بسبب ظهور بوادره، وهو ما قال فيه الفقهاء: يجوز دفع صائل بما أمكن .

ومحل هذه الرخصة هو الحالات التي يتوقع فيها حصول الضر حصولا يتعذر أو يعسر رفعه وتداركه. ومعلوم أن محلها هو الحالة التي لم يفت فيها فعل البغي فأما إن فات فإن حق الجزاء عليه يكون بالرفع للحاكم ولا يتولى المظلوم الانتصاف بنفسه، وليس ذلك مما شملته هذه الآية ولكنه مستقرى من تصاريف الشريعة ومقاصدها ففرضناه هنا لمجرد بيان مقصد الآية لا لبيان معناها.

والمراد بالسبيل موجب المؤاخذة باللائمة بين القبائل واللمز بالعدوان والتبعة في الآخرة على الفساد في الأرض بقتل المسالمين، سمي ذلك سبيلا على وجه الاستعارة لأنه أشبه الطريق في إيصاله إلى المطلوب، وكثر إطلاق ذلك حتى ساوى الحقيقة.

والفاء في قوله:)فأولئك ما عليهم من سبيل(فاء جواب الشرط فإن جعلت لام)لمن انتصر(لام الابتداء فهو ظاهر، وإن جعلت اللام موطئة للقسم كان اقتران ما بعدها بفاء الجواب ترجيحا للشرط على القسم عند اجتماعهما، والأعرف أن يرجح الأول منهما فيعطى

جوابه ويحذف جواب الثاني، وقد يقال: إن ذلك في القسم الصريح دون القسم المدلول باللام الموطئة.

وجيء باسم الإشارة في صدر جواب الشرط لتمييز الفريق المذكور أتم تمييز، وللتنبيه على أن سبب عدم مؤاخذتهم هو أنهم انتصروا بعد أن ظلموا ولم يبدأوا الناس بالبغي.

)إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم[42](استئناف بياني فإنه لما جرى الكلام السابق كله على الإذن للذين بغي عليهم أن ينتصروا ممن بغوا عليهم ثم عقب بأن أولئك ما عليهم من سبيل كان ذلك مثار سؤال سائل عن الجانب الذي يقع عليه السبيل النفي عن هؤلاء.

والقصر المفاد ب)إنما(تأكيد لمضمون جملة)فأولئك ما عليهم من سبيل(لأنه كان يكفي لإفادة معنى القصر أن يقابل نفي السبيل عن الذين انتصروا بعد ظلمهم بإثبات أن السبيل على الظالمين، لأن إثبات الشيء لأحد ونفيه عمن سواه يفيد معنى القصر وهو الأصل في إفادة القصر بطريق المساواة أو الإطناب كقول السمؤال أو غيره:

تسيل على حد الظبات نفوسنـا

وليست على غير الظبات تسيل وأما طرق القصر المعروفة في علم المعاني فهي من الإيجاز، فلما أوردت أداة القصر هنا حصل نفي السبيل عن غيرهم مرة أخرى بمفاد القصر فتأكد حصوله الأول الذي حصل بالنفي، ونظيره قوله تعالى)ما على المحسنين من سبيل(إلى قوله)إنما السبيل على الذين يستأذنوك وهم أغنياء(في سورة براءة.

والمراد ب)السبيل(عين المراد به في قوله)فأولئك ما عليهم من سبيل(بقرينة أنه أعيد معرفا باللام بعد أن ذكر منكرا فإن إعادة اللفظ النكرة معرفا بلام التعريف يفيد أن المراد به ما ذكر أولا. وهذا السبيل الجزاء والتبعة في الدنيا والآخرة.

وشمل عموم)الذين يظلمون(، وعموم)الناس(كل ظالم، وبمقدار ظلمه يكون جزاؤه. ويدخل ابتداء فيه الظالمون المتحدث عنهم وهم مشركو أهل مكة، والناس المتحدث عنهم وهم المسلمون يومئذ.

والبغي في الأرض: الاعتداء على ما وضعه الله في الأرض من الحق الشامل لمنافع الأرض التي خلقت للناس،مثل تحجير الزرع والأنعام المحكي في قوله تعالى)وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم(، ومثل تسييب السائبة وتبحير البحيرة، والشامل لمخالفة ما سنه الله في فطرة البشر من الأحوال القويمة مثل العدل وحسن المعاشرة، فالبغي عليها بمثل الكبرياء والصلف

وتحقير الناس المؤمنين وطردهم عن مجامع القوم بغي في الأرض بغير الحق.
والأرض: أرض مكة، أو جميع الكرة الأرضية وهو الأليق بعموم الآية، كما قال تعالى)وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها(وقال:)ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها(، فكل فساد وظلم يقع في جزء من الأرض فهو بغي مظروف في الأرض.

صفحة : 3883

و)بغير الحق(متعلق ب)يبغون(وهو لكشف حالة البغي لإفادة مذمته إذ لا يكون البغي إلا بغير الحق فإن مسمى البغي هو الاعتداء على الحق، وأما الاعتداء على المبطل لأجل باطله فلا يسمى بغيا ويسمى اعتداء قال تعالى)فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم(، ويقال: استعدى فلان الحاكم على خصمه، أي طلب منه الحكم عليه.
وجملة)أولئك لهم عذاب أليم(بيان لجملة)إنما السبيل على الذين يظلمون(إن أريد ب)السبيل(في قوله)ما عليهم من سبيل(سبيل العقاب في الآخرة، أو بدل اشتمال منها إن أريد ب)السبيل(هنالك ما يشمل الملام في الدنيا، أي السبيل الذي عليهم هو أن لهم عذابا أليما جزاء ظلمهم وبغيهم.
وحكم هذه الآية يشمل ظلم المشركين للمسلمين ويشمل ظلم المسلمين بعضهم بعضا ليتناسب مضمونها مع جميع ما سبق.
وجيء باسم الإشارة للتنبيه على أنهم أحرياء بما يذكر بعد اسم الإشارة لأجل ما ذكر قبله مع تمييزهم أكمل تمييز بهذا الوعيد.
)ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور[43](عطف على جملة)ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل(، وموقع هذه الجملة موقع الاعتراض بين جملة)إنما السبيل على الذين يظلمون الناس(وجملة)ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده(.
وهذه الجملة تفيد بيان مزية المؤمنين الذين تحملوا الأذى من المشركين وصبروا عليه ولم يؤاخذوا به من آمن ممن آذوهم مثل أخت عمر بن الخطاب قبل إسلامه، ومثل صهره سعيد بن زيد فقد قال لقد رأيتني وأن عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يسلم عمر ، فكان في صبر سعيد خير دخل به عمر في الإسلام، ومزية المؤمنين الذين يصبرون على ظلم إخوانهم ويغفرون لهم فلا ينتصفون منهم ولا يستعدون عليهم على نحو ما تقدم في مسألة التحلل عند قوله تعالى)فمن عفا وأصلح فأجره على الله(.

واللام الداخلة على)من(لام ابتداء و)من(موصولة. وجملة)إن ذلك لمن عزم الأمور(خبر عن)من(الموصولة، ولام)لمن عزم الأمور(لام الابتداء التي تدخل على خبر)إن(وهي من لامات الابتداء.

وقد اشتمل هذا الخبر على أربعة مؤكدات هي: اللام، وإن، ولام الابتداء، والوصف بالمصدر في قوله)عزم الأمور(تنويها بمضمونه، وزيد تنويها باسم الإشارة في قوله)إن ذلك(فصار فيه خمسة اهتمامات.

والعزم: عقد النية على العمل والثبات على ذلك والوصف بالعزم مشعر بمدح الموصوف لأن شأن الفضائل أن يكون عملها عسيرا على النفوس لأنها تعاكس الشهوات، ومن ثم وصف أفضل الرسل بأولي العزم.

والأمور: جمع أمر. والمراد به هنا: الخلال والصفات وإضافة) عزم(إلى)الأمور(من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي من الأمور العزم.

ووصف)الأمور(ب)العزم(من الوصف بالمصدر للمبالغة في تحقق المعنى فيها، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي الأمور العازمة العازم أصحابها مجازا عقليا.

والإشارة ب)ذلك(إلى الصبر والغفران المأخوذين من)صبر وغفر(والمتحملين لضمير)من(الموصولة فيكون صوغ المصدر مناسبا لما معه من ضمير، والتقدير: إن صبره وغفره لمن عزم الأمور.

وهذا ترغيب في العفو والصبر على الأذى وذلك بين الأمة الإسلامية ظاهر، وأما مع الكافرين فتعتريه أحوال تختلف بها أحكام الغفران، وملاكها أن تترجح المصلحة في العفو أو في المؤاخذة.

)ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده(بعد أن حكي أصنافا من كفر المشركين وعنادهم وتكذيبهم، ثم ذكرهم بالآيات الدالة على انفراد الله تعالى بالإلهية وما في مطاويها من النعم وحذرهم من الغرور بمتاع لدنيا الزائل أعقبه بقوله)ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده(وهو معطوف على قوله)إنما السبيل على الذين يظلمون الناس(.

والمعنى: أن فيما سمعتم هداية لمن أراد الله له أن يهتدي، وأما من قدر الله عليه بالضلال فما له من ولي غير الله يهديه أو ينقذه، فالمراد نفي الولي الذي يصلحه ويرشده كقوله)من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا(، فالمراد هنا ابتداء معنى خاص من الولاية.

وإضلال الله المرء: خلقه غير سريع للاهتداء أو غير قابل له وحرمانه من تداركه إياه بالتوفيق كلما توغل في الضلالة، فضلاله من خلق الله وتقدير الله له، والله دعا الناس إلى الهداية بواسطة رسله وشرائعه قال تعالى)والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم(، أي يدعو كل عاقل ويهدي بعض من دعاهم.

و)من(شرطية، والفاء في)فما له من ولي(رابطة للجواب. ونفي الولي كناية عن نفي أسباب النجاة عن الضلالة وعواقب العقوبة عليها لأن الولي من خصائصه نفع مولاه بالإرشاد والانتشال، فنفي الولي يدل بالالتزام على احتياج إلى نفعه مولاه وذلك يستلزم أن مولاه في عناء وعذاب كما دل عليه قوله عقبه)وترى الظالمين لما رأوا العذاب(الآية. فهذه كناية تلويحية، وقد جاء صريح هذا المعنى في قوله)ومن يضلل الله فما له من هاد(في سورة الزمر وقوله)ومن يضلل الله فما له من سبيل(الآتي في هذه السورة.

وضمير)بعده(راجع إلى اسم الجلالة، أي من بعد الله كقوله تعالى)فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون(في سورة الجاثية.

ومعنى)بعد(هنا معنى)دون(أو)غير(، استعير لفظ)بعد(لمعنى)دون(لأن)بعد(موضوع لمن يخلف غائبا في مكانه أو في عمله، فشبه ترك الله الضال في ضلاله بغيبة الولي الذي يترك مولاه دون وصي ولا وكيل لمولاه وتقدم في قوله تعالى)فبأي حديث بعده يؤمنون(في سورة الأعراف وقوله)فماذا بعد الحق إلا الضلال(في سورة يونس.

و)من(زائدة للتوكيد. ومن مواضع زيادتها أن تزاد قبل الظروف غير المتصرفة قال الحريري وما منصوب على الظرف لا يخفضه سوى حرف .

)وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل[44](عطف على جملة)ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده(، وهذا تفصيل وبيان لما أجمل في الآيتين المعطوف عليهما وهما قوله)ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص(وقوله)ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده(.

والمعنى: أنهم لا يجدون محيصا ولا وليا، فلا يجدون إلا الندامة على ما فات فيقولوا)هل إلى مرد من سبيل(.

والاستفهام بحرف)هل(إنكاري في معنى النفي، فلذلك أدخلت) من(الزائدة على)سبيل(لأنه نكرة في سياق النفي.

والمرد: مصدر ميمي للرد، والمراد بالرد: الرجوع، يقال: رده إذا أرجعه.
ويجوز أن يكون)مرد(بمعنى الدفع، أي هل إلى رد العذاب عنا الذي يبدو لنا سبيل حتى لا نقع فيه، فهو في معنى)إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع(في سورة الطور.
والخطاب في)ترى(لغير معين، أي تناهت حالهم في الظهور فلا يختص به مخاطب، أو الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تسلية له على ما لاقاه منهم من التكذيب.
والمقصود: الإخبار بحالهم أولا، والتعجيب منه ثانيا، فلم يقل: والظالمون لما رأوا العذاب يقولون، وإنما قيل)وترى الظالمين(للاعتبار بحالهم.
ومجيء فعل)رأوا العذاب(بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه، فالمضي مستعار للاستقبال تشبيها للمستقبل بالماضي في التحقق، والقرينة فعل)ترى(الذي هو مستقبل إذ ليست الرؤية المذكورة بحاصلة في الحال فكأنه قيل: لما يرون العذاب.
وجملة)يقولون(حال من)الظالمين(أي تراهم قائلين، فالرؤية مقيدة بكونها في حال قولهم ذلك، أي في حال سماع الرائي قولهم.
)وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي (أعيد فعل)ترى(للاهتمام بهذه الرؤية وتهويلها كما أعيد فعل) تلاقوا(في قول وداك بن ثميل المازني:

رويدا بني شيبان بعض وعيدكم تلاقوا
غدا خيلي على سفـوان
تلاقوا جيادا لا تحيد عن الوغى إذا

ظهرت في المأزق المتداني والعرض: أصله إظهار الشيء وإراءته للغير، ولذلك كان قول العرب: عرضت البعير على الحوض معدودا عند علماء اللغة وعلماء المعاني من قبيل القلب في التركيب، ثم تتفرع عليه إطلاقات عديدة متقاربة دقيقة تحتاج إلى تدقيق.

صفحة : 3885

ومن إطلاقاته قولهم: عرض الجند على الأمير، وعرض الأسرى على الأمير، وهو امرارهم ليرى رأيه في حالهم ومعاملتهم، وهو إطلاقه هنا على طريق الاستعارة، استعير لفظ)يعرضون(لمعنى: يمر بهم مرا عاقبته التمكن منهم والحكم فيهم فكأن جهنم إذا عرضوا عليها تحكم بما أعد الله لهم من حريقها، ويفسره قوله في سورة

الأحقاف)ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها(الآية.

وقد تقدم إطلاق له آخر عند قوله تعالى)ثم عرضهم على الملائكة(في سورة البقرة.

وبني فعل)يعرضون(للمجهول لأن المقصود حصول الفعل لا تعيين فاعله. والذين يعرضون الكافرين على النار هم الملائكة كما دلت عليه آيات أخرى.

وضمير)عليها(عائد إلى العذاب بتأويل أنه النار أو جهنم أو عائد إلى جهنم المعلومة من المقام.

وانتصب)خاشعين(على الحال من ضمير الغيبة في)تراهم(لأنها رؤية بصرية.

والخشوع: التطامن وأثر انكسار النفس من استسلام واستكانة فيكون للمخافة، وللمهابة، وللطاعة، وللعجز عن المقاومة.

والخشوع مثل الخضوع إلا أن الخضوع لا يسند إلا إلى البدن فيقال: خضع فلان، ولا يقال: خضع بصره إلا على وجه الاستعارة، كما في قوله تعالى)فلا تخضعن بالقول(، وأما الخشوع فيسند إلى البدن كقوله تعالى)خاشعين لله(في آخر سورة آل عمران. ويسند إلى بعض أعضاء البدن كقوله تعالى)خشعا أبصارهم(في سورة القمر، وقوله)وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا(في سورة طه.

والمراد الخشوع في هذه الآية ما يبدو عليهم من أثر المذلة والمخافة.

فقوله)من الذل(متعلق ب)خاشعين(وتعلقه به يغني عن تعليقه ب)ينظرون(ويفيد ما لا يفيده تعليقه به.

و)من(للتعليل، أي خاشعين خشوعا ناشئا عن الذل، أي ليس خشوعهم لتعظيم الله والاعتراف له بالعبودية لأن ذلك الاعتقاد لم يكن من شأنهم في الدنيا.

وجملة)ينظرون من طرف خفي(في موضع الحال من ضمير)خاشعين(لأن النظر من طرف خفي حالة للخاشع الذليل، والمقصود من ذكرها تصوير حالتهم الفظيعة.

وفي قريب من هذا المعنى قول النابغة يصف سبايا:

ينظرن شزرا إلى من جاء عن عرض
بأوجه منكرات الرق أحرار وقول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا
بلغت ولا كلابا والطرف: أصله مصدر، وهو تحريك جفن العين، يقال: طرف من باب ضرب، أي حرك جفنه، وقد يطلق على العين من تسمية الشيء بفعله، ولذلك لا يثنى ولا يجمع قال تعالى)لا يرتد

إليهم طرفهم(. ووصفه في هذه الآية ب)خفي(يقتضي أنه أريد به حركة العين، أي ينظرون نظرا خفيا، أي لا حدة له فهو كمسارقة النظر، وذلك من هول ما يرونه من العذاب، فهم يحجمون عن مشاهدته للروع الذي يصيبهم منها، ويبعثهم ما في الإنسان من حب الاطلاع على أن يتطلعوا لما يساقون إليه كحال الهارب الخائف ممن يتبعه، فتراه يمعن في الجري ويلتفت وراءه الفينة بعد الفينة لينظر هل اقترب منه الذي يجري وراءه وهو في تلك الالتفاتة أفات خطوات من جريه لكن حب الاطلاع يغالبه.

و)من(في قوله)من طرف خفي(للابتداء المجازي. والمعنى: ينظرون نظرا منبعثا من حركة الجفن الخفية.

وحذف مفعول)ينظرون(للتعميم أي ينظرون العذاب، وينظرون أهوال الحشر وينظرون نعيم المؤمنين من طرف خفي.

)وقال الذين أمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيمة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم[45](يترجح أن الواو للحال لا للعطف، والجملة حال من ضمير الغيبة في)تراهم(، أي تراهم في حال الفظاعة الملتبسين بها، وتراهم في حال سماع الكلام الذام لهم الصادر من المؤمنين إليهم في ذلك المشهد. وحذفت قد مع الفعل الماضي لظهور قرينة الحال.

وهذا قول المؤمنين يوم القيامة إذ كانوا يومئذ مطمئنين من الأهوال شاكرين ما سبق من إيمانهم في الدنيا عارفين بربح تجارتهم ومقابلين بالضد حالة الذين كانوا يسخرون بهم في الدنيا إذ كانوا سببا في خسارتهم يوم القيامة.

والظاهر: أن المؤمنين يقولون هذا بمسمع من الظالمين فيزيد الظالمين تلهيبا لندامتهم ومهانتهم وخزيهم.

صفحة : 3886

فهذا الخبر مستعمل في إظهار المسرة والبهجة بالسلامة مما لحق الظالمين، أي قالوه تحدثا بالنعمة واغتباطا بالسلامة يقوله كل أحد منهم أو يقوله بعضهم لبعض.

وإنما جيء بحرف)إن(مع أن القائل لا يشك في ذلك والسامع لا يشك فيه للاهتمام بهذا الكلام إذ قد تبينت سعادتهم في الآخرة وتوفيقهم في الدنيا بمشاهدة ضد ذلك في معانديهم.

والتعريف في)الخاسرين(تعريف الجنس، أي لا غيرهم. والمعنى: أنهم الأكملون في الخسران وتسمى أل هذه دالة على معنى الكمال وهو مستفاد من تعريف الجزءين المفيد للقصر الادعائي

حيث نزل خسران غيرهم منزلة عدم الخسران. فالمعنى: لا خسران يشبه خسرانهم، فليس في قوله)إن الخاسرين(إظهار في مقام الإضمار كما توهم، وقد تقدم نظيره في قوله)قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة(في سورة الزمر.

والخسران: تلف مال التاجر، واستعير هنا لانتفاء الانتفاع بما كان صاحبه يعده للنفع، فإنهم كانوا يأملون نعيم أنفسهم والأنس بأهليهم حيثما اجتمعوا، فكشف لهم في هذا الجمع عن انتفاء الأمرين، أو لأنهم كانوا يحسبون أن لا يحيوا بعد الموت فحسبوا أنهم لا يلقون بعده ألما ولا توحشهم فرقة أهليهم فكشف لهم ما خيب ظنهم فكانوا كالتاجر الذي أمل الربح فأصابه الخسران.

وقوله)يوم القيامة(يتعلق بفعل)خسروا(لا بفعل)قال(.

وجملة)ألا إن الظالمين في عذاب مقيم(تذييل للجمل التي قبلها من قوله)وترى الظالمين لما رأوا العذاب(الآيات. لأن حالة كونهم في عذاب مقيم أعم من حالة تلهفهم على أن يردوا إلى الدنيا، وذلهم وسماعهم الذم.

وإعادة لفظ)الظالمين(إظهار في مقام الإضمار اقتضاه أن شأن التذييل أن يكون مستقل الدلالة على معناه لأنه كالمثل. وليست هذه الجملة من قول المؤمنين إذ لا قبل للمؤمنين بأن يحكموا هذا الحكم، على أن أسلوب افتتاحه يقتضي أنه كلام من بيده الحكم يوم القيامة وهو ملك يوم الدين، فهو كلام من جانب الله، أي وهم مع الندم وذلك الذل والخزي بسماع ما يكرهون في عذاب مستمر.

وافتتحت الجملة بحرف التنبيه لكثرة ذلك في التذييلات لأهميتها.

والمقيم: الذي لا يرتحل. ووصف به العذاب على وجه الاستعارة، شبه المستمر الدائم بالذي اتخذ دار إقامة لا يبرحها.

)وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله(عطف على جملة)إلا إن الظالمين في عذاب مقيم(، أي هم في عذاب دائم لا يجدون منه نصيرا. وهو رد لمزاعمهم أن آلهتهم تنفعهم عند الله.

وجملة)ينصرونهم(صفة ل)أولياء(للدلالة على أن المراد هنا ولاية خاصة، وهي ولاية النصر، كما كان قوله سابقا)ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده(مرادا به ولاية الإرشاد.

و)من(زائدة في النفي لتأكيد نفي الولي لهم.

وقوله)من دون الله(صفة ثانية ل)أولياء(وهي صفة كاشفة.

و)من(زائدة لتأكيد تعلق ظرف)دون(بالفعل.

)ومن يضلل الله فما له من سبيل[46](تذييل لجملة)وما كان لهم من أولياء ينصرونهم(، وتقدم آنفا الكلام على نظيره وهو)ومن يضلل فما له من ولي من بعده(.

و)سبيل(نكرة في سياق النفي فيعم كل سبيل مخلص من الضلال ومن آثاره والمقصود هنا ابتداء هو سبيل الفرار من العذاب المقيم كما يقتضيه السياق. وبذلك لم يكن ما هنا تأكيدا لما تقدم من قوله)ومن يضلل فما له من ولي من بعده(.
)استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجإ يومئذ وما لكم من نكير[47](بعد أن قطع خطابهم عقب قوله)فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا(بما تخلص به إلى الثناء على فرق المؤمنين، وما استتبع ذلك من التسجيل على المشركين بالضلالة والعذاب، ووصف حالهم الفظيع، عاد الكلام إلى خطابهم بالدعوة الجامعة لما تقدم طلبا لتدارك أمرهم قبل الفوات، فاستؤنف الكلام استئنافا فيه معنى النتيجة للمواعظ المتقدمة لأن ما تقدم من الزواجر يهيئ بعض النفوس لقبول دعوة الإسلام.

صفحة : 3887

والاستجابة: إجابة الداعي، والسين والتاء للتوكيد. وأطلقت الاستجابة على امتثال ما يطالبهم به النبي صلى الله عليه وسلم تبليغا عن الله تعالى على طريقة المجاز ن استجابة النداء تستلزم الامتثال للمنادي فقد كثر إطلاقها على إجابة المستنجد.
والمعنى: أطيعوا ربكم وامتثلوا أمره من قبل أن يأتي يوم العذاب وهو يوم القيامة لأن الحديث جار عليه.
واللام في)لربكم(لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول مثل: حمدت له وشكرت له. وتسمى لام التبليغ ولام التبيين. وأصله استجابة، قال كعب الغنوي:
وداع دعا يا من يجيب إلى الندا فلم
يستجبه عند ذاك مجـيب ولعل أصله استجاب دعاءه له، أي لأجله له كما في قوله تعالى)ألم نشرح لك صدرك(فاختصر لكثرة الاستعمال فقالوا: استجاب له وشكر له، وتقدم في قوله)فليستجيبوا لي(في سورة البقرة.
والمرد: مصدر بمعنى الرد، وتقدم آنفا في قوله)هل إلى مرد من سبيل(. و)لا مرد له(صفة)يوم(. والمعنى: لا مرد لإثباته بل هو واقع، و)له(خبر)لا(النافية، أي لا مرد كائنا له، ولام)له(للاختصاص.
و)من(في قوله)من الله(ابتدائية وهو ابتداء مجازي، ومعناه: حكم الله به فكأن اليوم جاء من لدنه.
ويجوز تعليق المجرور بفعل)يأتي(. ويجوز أن يتعلق بالكون الذي في خبر)لا(. والتقدير على هذا: لا مرد كائنا من الله له وليس

متعلقا ب)مرد(على أنه متمم معناه، إذ لو كان كذلك كان اسم)لا(شبيها بالمضاف فكان منونا ولم يكن مبنيا على الفتح، وما وقع في الكشاف مما يوهم هذا مؤول بما سمعت، ولذلك سماه صلة، ولم يسمعه متعلقا.

وجملة)ما لكم من ملجأ يومئذ(مستأنفة.

والملجأ: مكان الملجأ، واللجأ: المصبر والانحياز إلى الشيء، فالملجأ: المكان الذي يصير إليه المرء للتوقي فيه، ويطلق مجازا على الناصر، وهو المراد هنا، أي ما لكم من شيء يقيكم من العذاب.

والنكير: اسم مصدر أنكر، أي ما لكم إنكار لما جوزيتم به، أي لا يسعكم إلا الاعتراف دون تنصل.

)فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ(الفاء للتفريع على قوله)استجيبوا لربكم(الآية، وهو جامع لما تقدم كما علمت إذ أمر الله نبيه بدعوتهم للإيمان من قوله في أول السورة)وكذلك أوحينا إليك قرءانا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها(ثم قوله)فلذلك فادع واستقم(. وما تخلل ذلك واعترضه من تضاعيف الأمر الصريح والضمني إلى قوله)استجيبوا لربكم(. الآية. ثم فرع على ذلك كله إعلام الرسول صلى الله عليه وسلم بمقامه وعمله إن أعرض معرضون من الذين يدعوهم وبمعذرته فيما قام به وأنه غير مقصر، وهو تعريض بتسليته على ما لاقاه منهم، والمعنى: فإن أعرضوا بعد هذا كله فما أرسلناك حفيظا عليهم ومتكفلا بهم إذ ما عليك إلا البلاغ.

وإذ قد كان ما سبق من الأمر بالتبليغ والدعوة مصدرا بقوله أوائل السورة)والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل(، لا جرم ناسب أن يفرع على تلك الأوامر بعد تمامها مثل ما قدم لها فقال)فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ(.

وهذا الارتباط هو نكتة الالتفات من الخطاب الذي في قوله) استجيبوا لربكم(الآية، إلى الغيبة في قوله هنا)فإن أعرضوا(وإلا لقيل: فإن أعرضتم.

والحفيظ تقدم في صدر السورة وقوله)فما أرسلناك عليهم حفيظا(ليس هو جواب الشرط في المعنى ولكنه دليل عليه، وقائم مقامه، إذ المعنى: فإن أعرضوا فلست مقصرا في دعوتهم، ولا عليك تبعة صدهم إذ ما أرسلناك حفيظا عليهم، بقرينة قوله)إن عليك إلا البلاغ(.

وجملة)إن عليك إلا البلاغ(بيان لجملة)فما أرسلناك عليهم حفيظا(باعتبار أنها دالة على جواب الشرط المقدر.

و)إن(الثانية نافية. والجمع بينها وبين)إن(الشرطية في هذه الجملة جناس تام.
والبلاغ: التبليغ، وهو اسم مصدر، وقد فهم من الكلام أنه قد أدى ما عليه من البلاغ لأن قوله)فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا(دل على نفي التبعة عن النبي صلى الله عليه وسلم من إعراضهم، وأن الإعراض هو الإعراض عن دعوته، فاستفيد أنه قد بلغ الدعوة ولولا ذلك ما أثبت لهم الإعراض.

صفحة : 3888

)وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور[48](تتصل هذه الجملة بقوله)فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ(لما تضمنته هذه من التعريض بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على ما لاقاه من قومه كما علمت، ويؤذن بهذا الاتصال أن هاتين الجملتين جعلتا آية واحدة هي ثامنة وأربعون في هذه السورة، فالمعنى: لا يحزنك إعراضهم عن دعوتك فقد أعرضوا عن نعمتي وعن إنذاري بزيادة الكفر، فالجملة معطوفة على جملة)فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا(وابتداء الكلام بضمير الجلالة المنفصل مسندا إليه فعل دون أن يقال: وإذا أذقنا الإنسان إلخ، مع أن المقصود وصف هذا الإنسان بالبطر بالنعمة وبالكفر عند الشدة، لأن المقصود من موقع هذه الجملة هنا تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن جفاء قومه وإعراضهم، فالمعنى: أن معاملتهم ربهم هذه المعاملة تسليك عن معاملتهم إياك على نحو قوله تعالى)يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك(، ولهذا لا تجد نظائر هذه الجملة في معناها مفتتحا بمثل هذا الضمير لأن موقع تلك النظائر لا تماثل موقع هذه وإن كان معناهما متماثلا، فهذه الخصوصية خاصة بهذه الجملة.
ولكن نظم هذه الآية جاء صالحا لإفادة هذا المعنى ولإفادة معنى آخر مقارب له وهو أن يكون هذا حكاية خلق للناس كلهم مرتكز في الجبلة لكن مظاهره متفاوتة بتفاوت أفراده في التخلق بالآداب الدينية، فيحمل)الإنسان(في الموضعين على جنس بني آدم ويحمل الفرح على مطلقه المقول عليه بالتشكيك حتى يبلغ مبلغ البطر، وتحمل السيئة التي قدمتها أيديهم على مراتب السيئات إلى أن تبلغ مبلغ الإشراك، ويحمل وصف)كفور(على ما يشمل اشتقاقه من الكفر بتوحيد الله، والكفر بنعمة الله.

ولهذا اختلفت محامل المفسرين للآية. فمنهم من حملها على خصوص الإنسان الكافر بالله مثل الزمخشري والقرطبي والطيبي، ومنهم من حملها على ما يعم أصناف الناس مثل الطبري والبغوي والنسفي وابن كثير. ومنهم من حملها على إرادة المعنيين على أن أولهما هو المقصود والثاني مندرج بالتبع وهذه طريقة البيضاوي وصاحب الكشف ومنهم من عكس وهي طريقة الكواشي في تلخيصه.

وعلى الوجهين فالمراد ب)الإنسان(في الموضع الأول والموضع الثاني معنى واحد وهو تعريف الجنس المراد به الاستغراق، أي إذا أذقنا الناس، وأن الناس كفورون، ويكون استغراقا عرفيا أريد به أكثر جنس الإنسان في ذلك الزمان والمكان لأن أكثر نوع الإنسان يومئذ مشركون، وهذ هو المناسب لقوله)فإن الإنسان كفور(أي شديد الكفر قويه، ولقوله)بما قدمت أيديهم(أي من الكفر.

وإنما عدل عن التعبير بالناس إلى التعبير بالإنسان للإيماء إلى أن هذا الخلق المخبر به عنهم هو من أخلاق النوع لا يزيله إلا التخلق بأخلاق الإسلام فالذين لم يسلموا باقون عليه، وذلك أدخل في التسلية لأن اسم الإنسان اسم جنس يتضمن أوصاف الجنس المسمى به على تفاوت في ذلك وذلك لغلبة الهوى. وقد تكرر ذلك في القرآن مرارا كقوله)إن الإنسان خلق هلوعا(وقوله)إن الإنسان لربه لكنود(وقوله)وكان الإنسان أكثر شيء جدلا(. وتأكيد الخبر بحرف التأكيد لمناسبة التسلية بأن نزل السامع الذي لا يشك في وقوع هذا الخبر منزلة المتردد في ذلك لاستعظامه إعراضهم عن دعوة الخير فشبه بالمتردد على طريقة المكنية، وحرف التأكيد من روادف المشبه به المحذوف.

والإذاقة: مجاز في الإصابة.

والمراد بالرحمة: أثر الرحمة، وهو النعمة، فالتقدير: وإنا إذا رحمنا الإنسان فأصبناه بنعمة، بقرينة مقابلة الرحمة بالسيئة كما قوبلت بالضراء في قوله)ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته(في سورة فصلت.

والمراد بالفرح: ما يشمل الفرح المجاوز حد المسرة إلى حد البطر والتجبر، على نحو ما استعمل في آيات كثيرة مثل قوله تعالى)إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين(لا الفرح الذي في مثل قوله تعالى)فرحين بما آتاهم الله من فضله(.

وتوحيد الضمير في)فرح(لمراعاة لفظ الإنسان وإن كان معناه جمعا، كقوله)فقاتلوا التي تبغي(أي الطائفة التي تبغي، فاعتد بلفظ طائفة دون معناه مع أنه قال قبله)اقتتلوا(. ولذلك جاء بعده)وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم(بضميري الجماعة ثم عاد فقال)فإن الإنسان كفور(.

واجتلاب)إذا(في هذا الشرط لأن شأن)إذا(أن تدل على تحقق كثرة وقوع شرطها، وشأن)إن(أن تدل على ندرة وقوعه، ولذلك اجتلب)إن(في قوله)وإن تصبهم سيئة(لأن إصابتهم بالسيئة نادرة بالنسبة لإصابتهم بالنعمة على حد قوله تعالى)فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه(.

ومعنى قوله)وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم(تقدم بسطه عند قوله آنفا)وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم(.

والحكم الذي تضمنته جملة)فإن الإنسان كفور(هو المقصود من جملة الشرط كلها، ولذلك أعيد حرف التأكيد فيها بعد أن صدرت به الجملة المشتملة على الشرط ليحيط التأكيد بكلتا الجملتين، وقد أفاد ذلك أن من عوارض صفة الإنسانية عروض الكفر بالله لها، لأن في طبع الإنسان تطلب مسالك النفع وسد منافذ الضر مما ينجر إليه من أحوال لا تدخل بعض أسبابها في مقدوره، ومن طبعه النظر في الوسائل الواقية له بدلائل العقل الصحيح، ولكن من طبعه تحريك خياله في تصوير قوي تخوله تلك الأسباب فإذا أملي عليه خياله وجود قوى متصرفة في النواميس الخارجة عن مقدوره خالها ضالته المنشودة، فركن إليها وآمن بها وغاب عنه دليل الحق، إما لقصور تفكيره عن دركه وانعدام المرشد إليه، أو لغلبة هواه الذي يملي عليه عصيان المرشدين من الأنبياء والرسل والحكماء الصالحين إذ لا يتبعهم إلا القليل من الناس ولا يهتدي بالعقل من تلقاء نفسه إلا الأقل مثل الحكماء، فغلب على نوع الإنسان الكفر بالله على الإيمان به كما بيناه آنفا في قوله)وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها(.

ولذلك عقب هذا الحكم على النوع بقوله)لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء(. ولم يخرج عن هذا العموم إلا الصالحون من نوع الإنسان على تفاوت بينهم في كمال الخلق وقد استفيد خروجهم من آيات كثيرة كقوله)لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات(.

وقد شمل وصف)كفور(ما يشمل كفران النعمة وهما متلازمان في الأكثر.

)لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء(استئناف بياني لأن ما سبقه من عجيب خلق الإنسان الذي لم يهذبه الهدي الإلهي يثير في

نفس السامع سؤالا عن فطر الإنسان على هاذين الخلقين اللذين يتلقى بهما نعمة ربه وبلاءه وكيف لم يفطر على الخلق الأكمل ليتلقى النعمة بالشكر، والضر بالصبر والضراعة، وسؤالا أيضا عن سبب إذاقة الإنسان النعمة مرة والبؤس مرة فيبطر ويكفر وكيف لم يجعل حاله كفافا لا لذات له ولا بلايا كحال العجماوات فكان جوابه: أن الله المتصرف في السماوات والأرض يخلق فيهما ما يشاء من الذوات وأحوالها. وهو جواب إجمالي إقناعي يناسب حضرة الترفع عن الدخول في المجادلة عن الشؤون الإلهية.

وفي قوله)يخلق ما يشاء(من الإجمال ما يبعث المتأمل المنصف على تطلب الحكمة في ذلك فإن تطلبها انقادت له كما أومأ إلى ذلك تذييل هذه الجملة بقوله)إنه عليم قدير(، فكأنه يقول: عليكم بالنظر في الحكمة في مراتب الكائنات وتصرف مبدعها، فكما خلق الملائكة على أكمل الأخلاق في جميع الأحوال، وفطر الدواب على حد لا يقبل كمال الخلق، كذلك خلق الإنسان على أساس الخير والشر وجعله قابلا للزيادة منهما على اختلاف مراتب عقول أفراده وما يحيط بها من الاقتداء والتقليد، وخلقه كامل التمييز بين النعمة وضدها ليرتفع درجات وينحط دركات مما يختاره لنفسه، ولا يلائم فطر الإنسان على فطرة الملائكة حالة عالمه المادي إذ لا تأهل لهذا العالم لأن يكون سكانه كالملائكة لعدم الملاءمة بين عالم المادة وعالم الروح. ولذلك لما تم خلق الفرد الأول من الإنسان وآن أوان تصرفه مع قرينته بحسب ما بزغ فيهما من القوى، لم يلبث أن نقل من عالم الملائكة إلى عالم المادة كما أشار إليه قوله تعالى)قال اهبطا منها جميعا(.

صفحة : 3890

ولكن الله لم يسد على النوع منافذ الكمال فخلقه خلقا وسطا بين الملكية والبهيمية إذ ركبه من المادة وأودع فيه الروح ولم يخله عن الإرشاد بواسطة وسطاء وتعاقبهم في العصور وتناقل إرشادهم بين الأجيال، فإن اتبع إرشادهم التحق بأخلاق الملائكة حتى يبلغ المقامات التي أقامته في مقام الموازنة بين بعض أفراده وبين الملائكة في التفاضل.

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى)قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى(، وقوله)وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم(.

)يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور[49] أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما(بدل من جملة)يخلق ما يشاء(بدل اشتمال لأن خلقه ما يشاء يشتمل على هبته لمن يشاء ما يشاء.

وهذا الإبدال إدماج مثل جامع لصور إصابة المحبوب وإصابة المكروه فإن قوله)ويجعل من يشاء عقيما(هو من المكروه عند غالب البشر ويتضمن ضربا من ضروب الكفران وهو اعتقاد بعض النعمة سيئة في عادة المشركين من تطيرهم بولادة البنات لهم، وقد أشير إلى التعريض بهم في ذلك بتقديم الإناث على الذكور في ابتداء تعداد النعم الموهوبة على عكس العادة في تقديم الذكور على الإناث حيثما ذكرا في القرآن في نحو)إنا خلقناكم من ذكر وأنثى(وقوله)فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى(فهذا من دقائق هذه الآية.

والمراد: يهب لمن يشاء إناثا فقط ويهب لمن يشاء الذكور فقط بقرينة قوله:)أو يزوجهم ذكرانا وإناثا(.

وتنكير)إناثا(لأن التنكير هو الأصل في أسماء الأجناس وتعريف)الذكور(باللام لأنهم الصنف المعهود للمخاطبين، فاللام لتعريف الجنس وإنما يصار إلى تعريف الجنس لمقصد، أي يهب ذلك الصنف الذي تعهدونه وتتحدثون به وترغبون فيه على حد قول العرب: أرسلها العراك، وتقدم في أول الفاتحة. و)أو(للتقسيم.

والتزويج قرن الشيء بشيء آخر فيصيران زوجا. ومن مجازه إطلاقه على إنكاح لرجل امرأة لأنهما يصيران كالزوج، والمراد هنا: جعلهم زوجا في الهبة، أي يجمع لمن يشاء فيهب له ذكرانا مشفعين بإناث فالمراد التزويج بصنف آخر لا مقابلة كل فرد من الصنف بفرد من الصنف الآخر.

والضمير في)يزوجهم(عائد إلى كلا من الإناث والذكور. وانتصب)ذكرانا وإناثا(على الحال من ضمير الجمع في)يزوجهم(.

والعقيم: الذي لا يولد له من رجل أو امرأة، وفعله عقم من باب فرح وعقم من باب كرم. وأصل فعله أن يتعدى إلى المفعول بقال عقمها الله من باب ضرب، ويقال عقمت المرأة بالبناء للمجهول، أي عقمها عاقم لأن سبب العقم مجهول عندهم. فهو مما جاء متعديا وقاصرا، فالقاصر بضم القاف وكسرها والمتعدي بفتحها، والعقيم: فعيل بمعنى مفعول، فلذلك استوى فيه المذكر والمؤنث غالبا، وربما ظهرت التاء نادرا قالوا: رحم عقيمة.

)إنه عليم قدير[50](جملة في موضع العلة للمبدل منه وهو)يخلق ما يشاء(فموقع)إن(هنا موقع فاء التفريع.

والمعنى: أن خلقه ما يشاء ليس خلقا مهملا عريا عن الحكمة لأنه واسع العلم لا يفوته شيء من المعلومات فخلقه الأشياء يجري على وفق علمه وحكمته.
وهو)قدير(نافذ القدرة، فإذا علم الحكمة في خلق شيء أراده، فجرى على قدره. ولما جمع بين وصفي العلم والقدرة تعين أن هنالك صفة مطوية وهي الإرادة لأنه إنما تتعلق قدرته بعد تعلق إرادته بالكائن.
وتفصيل المعنى: أنه عليم بالأسباب والقوى والمؤثرات التي وضعها في العوالم، وبتوافق آثار بعضها وتخالف بعض، وكيف تتكون الكائنات على نحو ما قدر لها من الأوضاع، وكيف تتظاهر فتأتي الآثار على نسق واحد، وتتمانع فينقص تأثير بعضها في آثاره بسبب ممانعة مؤثرات أخرى، وكل ذلك من مظاهر علمه تعالى في أصل التكوين العالمي ومظاهر قدرته في الجري على وفاق علمه.
)وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم[51](

صفحة : 3891

عطف على ما سبق من حكاية ترهاتهم عطف القصة على القصة وهو عود إلى إبطال شبه المشركين التي أشار إليها قوله تعالى)كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم(، وقوله تعالى)كبر على المشركين ما تدعوهم إليه(، وقد أشرنا إلى تفصيل ذلك فيما تقدم، ويزيده وضوحا قوله عقبه)وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا(. وهذه الآية تبطل الشبهة الثانية فيما عددناه من شبهاتهم في كون القرآن وحيا من الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم إذ زعموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم لو كان مرسلا من الله لكانت معه ملائكة تصدق قوله أو لأنزل عليه كتاب جاهز من السماء يشاهدون نزوله قال تعالى)وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا(وقال)وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا(إلى أن قال)ولن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه(.
وإذ قد كان أهم غرض هذه السورة إثبات كون القرآن وحيا من الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحي من قبله للرسل كان العود إلى ذلك من قبيل رد العجز على الصدر.
فبين الله للمكذبين أن سنة الله في خطاب رسله لا تعدو ثلاثة أنحاء من الخطاب، منها ما جاء به القرآن فلم يكن ذلك بدعا مما

جاءت به الرسل الأولون وما كان الله ليخاطب رسله على الأنحاء التي اقترحها المشركون على النبي صلى الله عليه وسلم فجيء بصيغة حصر مفتتحة بصيغة الجحود المفيدة مبالغة النفي وهي)وما كان لبشر أن يكلمه الله(أي لم يتهيأ لأحد من الرسل أن يأتيه خطاب من الله بنوع من هذه الثلاثة.

ودل ذلك على انتفاء أن يكون إبلاغ مراد الله تعالى لأمم الرسل بغير أحد هذه الأنواع الثلاثة أعني خصوص نوع إرسال رسول، بدلالة فحوى الخطاب فإنه إذا كان الرسل لا يخاطبهم الله إلا بأحد هذه الأنحاء الثلاثة فالأمم أولى بأن لا يخاطبوا بغير ذلك من نحو ما سأله المشركون من رؤية الله يخاطبهم، أو مجيء الملائكة إليهم بل لا يتوجه إليهم خطاب الله إلا بواسطة رسول منهم يتلقى كلام الله بنحو من الأنحاء الثلاثة وهو مما يدخل في قوله)أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء(فإن الرسول يكون ملكا وهو الذي يبلغ الوحي إلى الرسل والأنبياء.

وخطاب الله الرسل والأنبياء قد يكون لقصد إبلاغهم أمرا يصلحهم نحو قوله تعالى)يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا(، وقد يكون لإبلاغهم شرائع للأمم مثل معظم القرآن والتوراة، أو إبلاغهم مواعظ لهم مثل الزبور ومجلة لقمان.

والاستثناء في قوله)إلا وحيا(استثناء من عموم أنواع المتكلم التي دل عليها الفعل الواقع في سياق النفي وهو)ما كان لبشر أن يكلمه الله(.

فانتصاب)وحيا(على الصفة لمصدر محذوف دل عليه الاستثناء، والتقدير: إلا كلاما وحيا أي موحى به كما تقول: لا أكلمه إلا جهرا، أو إلا إخفاتا، لأن الجهر والإخفات صفتان للكلام.

والمراد بالتكلم بلوغ مراد الله إلى النبي سواء كان ذلك البلوغ بكلام يسمعه ولا يرى مصدره أو بكلام يبلغه إليه الملك عن الله تعالى، أو بعلم يلقى في نفس النبي يوقن بأنه مراد الله بعلم ضروري يجعله الله في نفسه.

وإطلاق الكلام على هذه الثلاثة الأنواع: بعضه حقيقة مثل ما يسمعه النبي كما سمع موسى، وبعضه مجاز قريب من الحقيقة وهو ما يبلغه إلى النبي فإنه رسالة بكلام، وبعضه مجاز محض وهو ما يلقى في قلب النبي مع العلم، فإطلاق فعل)يكلمه(على جميعها من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه على طريقة استعمال المشترك في معانيه.

وإسناد فعل)يكلمه(إلى الله إسناد مجازي عقلي.

وبهذا الاعتبار صار استثناء الكلام الموصوف بأنه وحي استثناء متصلا.

وأصل الوحي: الإشارة الخفية، ومنه)فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا(. ويطلق على ما يجده المرء في نفسه دفعة كحصول معنى الكلام في نفس السامع قال عبيد بن الأبرص:

وأوحى إلي الله أن قد تـآمـروا بإبل أبي أوفى فقمت على رجل

صفحة : 3892

وهذا الإطلاق هو المراد هنا بقرينة المقابلة بالنوعين الآخرين. ومن هنا أطلق الوحي على ما فطر الله عليه الحيوان من الإلهام المتقن الدقيق كقوله)وأوحى ربك إلى النحل(. فالوحي بهذا المعنى نوع من أنواع إلقاء كلام الله إلى الأنبياء وهو النوع الأول في العد، فأطلق الوحي على الكلام الذي يسمعه النبي بكيفية غير معتادة وهذا الإطلاق من مصطلح القرآن وهو الغالب في إطلاقات الكتاب والسنة ومنه قول زيد بن ثابت فعلمت أنه يوحى إليه ثم سري عنه فقرأ)غير أولي الضرر(، ولم يقل فنزل عليه جبريل.

والوحي بهذا المعنى غير الوحي الذي سيجيء في قوله)أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء(. والمراد بالوحي هنا: إيقاع مراد الله في نفس النبي يحصل له به العلم بأنه من عند الله فهو حجة للنبي لمكان العلم الضروري، وحجة للأمة لمكان العصمة من وسوسة الشيطان، وقد يحصل لغير الأنبياء ولكنه غير مطرد ولا منضبط مع أنه واقع وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر بن الخطاب قال ابن وهب محدثون: ملهمون .

ومن هذا الوحي مرائي الأنبياء فإنها وحي، وهي ليست بكلام يلقى إليهم، ففي الحديث إني أريت دار هجرتكم وهي في حرة ذات نخل فوقع في وهلي أنها اليمامة أو هجر فإذا هي طابة .

وقد تشتمل الرؤيا على إلهام وكلام مثل حديث رأيت بقرا تذبح ورأيت والله خير(. في رواية رفع اسم الجلالة، أي رأيت هذه الكلمة، وقد أول النبي صلى الله عليه وسلم رؤياه البقر التي تذبح بما أصاب المسلمين يوم أحد، وأما والله خير فهو ما أتى الله به بعد ذلك من الخير.

ومن الإلهام مرائي الصالحين فإنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوءة.

وليس الإلهام بحجة في الدين لأن غير المعصوم لا يوثق بصحة خواطره إذ ليس معصوما من وسوسة الشيطان. وبعض أهل التصوف وحكماء الإشراق يأخذون به في خاصتهم ويدعون أن

أمارات تميز لهم بين صادق الخواطر وكاذبها ومنه قول قطب الدين الشيرازي في ديباجة شرحه على المفتاح إني قد ألقي إلي على سبيل الإنذار من حضرة الملك الجبار بلسان الإلهام لا كوهم من الأوهام إلى أن قال ما أورثني التجافي عن دار الغرور . ومنه ما ورد في قول النبي صلى الله عليه وسلم إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستوفي أجلها ورزقها على أحد تفسيرين فيه، ولا ريب في أنه المراد هنا لأن ألفاظ هذا الحديث جرت على غير الألفاظ التي يحكى بها نزول الوحي بواسطة كلام جبريل عليه السلام.

والنوع الثاني: أن يكون الكلام من وراء حجاب يسمعه سامعه ولا يرى مصدره بأن يخلق الله كلاما في شيء محجوب عن سامعه وهو ما وصف الله هنا بقوله)أو من وراء حجاب(.

والمعنى: أو محجوبا المخاطب بالفتح عن رؤية مصدر الكلام، فالكلام كأنه من وراء حجاب، وهذا مثل تكليم الله تعالى موسى في البقعة المباركة من الشجرة، ويحصل علم المخاطب بأن ذلك الكلام من عند الله أول مرة بآية يريه الله إياها يعلم أنها لا تكون إلا بتسخير الله كما علم موسى ذلك بانقلاب عصاه حية ثم عودها إلى حالتها الأولى، وبخروج يده من جيبه بيضاء، كما قال تعالى)آية أخرى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب إلى فرعون إنه طغى(. ثم يصير بعد ذلك عادة يعرف بها كلام الله.

واختص بهذا النوع من الكلام في الرسل السابقين موسى عليه السلام وهو المراد من قوله تعالى)قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي(وليس الوحي إلى موسى منحصرا في هذا النوع فإنه كان يوحى إليه الوحي الغالب لجميع الأنبياء والرسل وقد حصل هذا النوع من الكلام لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، فقد جاء في حديث الإسراء: أن الله فرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة ثم خفف الله منها حتى بلغت خمس صلوات وأنه سمع قوله تعالى)أتممت فريضتي وخففت عن عبادي(.

صفحة : 3893

وأشارت إليه سورة النجم بقوله تعالى)فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى(. والقول بأنه سمع كلام الله ليلة أسري به إلى السماء مروي عن علي ابن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وجعفر بن محمد الصادق

والأشعري والواسطي، وهو الظاهر لأن فضل محمد صلى الله عليه وسلم على جميع المرسلين يستلزم أن يعطيه الله من أفضل ما أعطاه رسله عليهم السلام جميعا.

النوع الثالث: أن يرسل الله الملك إلى النبي فيبلغ إليه كلاما يسمعه النبي ويعيه، وهذا هو غالب ما يوجه إلى الأنبياء من كلام الله تعالى، قال تعالى في ذكر زكريا)فنادى الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى(، وقال في إبراهيم) وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا(وهذا الكلام يأتي بكيفية وصفها النبي صلى الله عليه وسلم للحارث ابن هشام وقد سأل رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عبي فيفصم عني وقد وعيت عنه أي عن جبريل ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول .

فالرسول في قوله تعالى)أو يرسل رسولا(: هو الملك جبريل أو غيره، وقوله)فيوحي بإذنه ما يشاء(سمى هذا الكلام وحيا على مراعاة الإطلاق القرآني الغالب كما تقدم نحو قوله وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى وهو غير المراد من قوله)إلا وحيا(بقرينة التقسيم والمقابلة.

ومن لطائف نسج هذه الآية ترتيب ما دل على تكليم الله الرسل بدلالات فجيء بالمصدر أولا في قوله)إلا وحيا(وجيء بما يشبه الجملة ثانيا وهو قوله)من وراء حجاب(، وجيء بالجملة الفعلية ثالثا بقوله)ويرسل رسولا(.

وقرأ نافع)أو يرسل(برفع)يرسل(على الخبرية، والتقدير: أو هو مرسل رسولا. وقرأ)فيوحي(بسكون الياء بعد كسرة الحاء.

وقرأ الباقون)أو يرسل(بنصب الفعل على تقدير)أن(محذوفة دل عليها العطف على المصدر فصار الفعل المعطوف في معنى المصدر، فاحتاج إلى تقدير حرف السبك. وقرأوا)فيوحي(بفتحة على الياء عطفا على)يرسل(.

وما صدق)ما يشاء(كلام، أي فيوحي كلاما يشاؤه الله فكانت هذه الجملة في معنى الصفة ل)كلاما(المستثنى المحذوف، والرابط هو) ما يشاء(لأنه في معنى: كلاما، فهو كربط الجملة بإعادة لفظ ما هي له أو بمرادفه نحو)الحاقة ما الحاقة(. والتقدير: أو إلا كلاما موصوفا بأن الله يرسل رسولا فيوحي بإذنه كلاما يشاؤه فإن الإرسال نوع من الكلام المراد في هذه الآية.

والآية صريحة في أن هذه الأنواع الثلاثة أنواع لكلام الله الذي يخاطب به عباده. وذكر النوعين: الأول والثالث صريح في أن إضافة الكلام المنوع إليها إلى الله أو إسناده إليه حيثما وقع في ألفاظ

الشريعة نحو قوله تعالى)حتى يسمع كلام الله(وقوله)قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي(وقوله)وكلم الله موسى تكليما(يدل على أنه كلام له خصوصية هي أنه أوجده الله إيجادا بخرق العادة ليكون بذلك دليلا على أن مدلول ألفاظه مراد لله تعالى ومقصود له كما سمي الروح الذي تكون به عيسى روح الله لأنه تكون على سبيل خرق العادة، فالله خلق الكلام الذي يدل على مراده خلقا غير جار على سنة الله في تكوين الكلام ليعلم الناس أن الله أراد إعلامهم بأنه أراد مدلولات ذلك الكلام بآية أنه خرق فيه عادة إيجاد الكلام فكان إيجادا غير متولد من علل وأسباب عادية فهو كإيجاد السماوات والأرض وإيجاد آدم في أنه غير متولد من علل وأسباب فطرية.

صفحة : 3894

واعلم أن حقيقة الإلهية لا تقتضي لذاتها أن يكون الله متكلما كما تقتضي أنه واحد حي عالم قدير مريد، ومن حاول جعل صفة الكلام من مقتضى الإلهية على تنظير الإله بالملك بناء على أن الملك يقتضي مخاطبة الرعايا بما يريد الملك منهم، فقد جاء بحجة خطابية، بل الحق أن الذي اقتضى إثبات كلام الله هو وضع الشرائع الإلهية، أي تعلق إرادة الله بإرشاد الناس إلى اجتناب ما يخل باستقامة شؤونهم بأمرهم ونهيهم وموعظتهم ووعدهم ووعيدهم، من يوم نهي آدم عن الأكل من الشجرة وتوعده بالشقاء إن أكل منها ثم من إرسال الرسل إلى الناس وتبليغهم إياهم أمر الله ونهيه بوضع الشرائع وذلك من عهد نوح بلا شك أو من عهد آدم إن قلنا إن آدم بلغ أهله أمر الله ونهيه.

فتعين الإيمان بأن الله آمر وناه وواعد وموعد، ومخبر بواسطة رسله وأنبيائه، وأن مراده ذلك أبلغه إلى الأنبياء بكلام يلقى إليهم ويفهمونه وهو غير متعارف لهم قبل النبوءة وهو متفاوت الأنواع في مشابهة الكلام المتعارف.

ولما لم يرد في الكتاب والسنة وصف الله بأنه متكلم ولا إثبات صفة له تسمى الكلام، ولم تقتض ذلك حقيقة الإلهية ما كان ثمة داع إلى إثبات ذلك عند أهل التأويل من الخلف من أشعرية وماتريدية إذ قالوا: إن الله متكلم وان له صفة تسمى الكلام وبخاصة المعتزلة إذ قالوا إنه متكلم ونفوا صفة الكلام وأمر المعتزلة أعجب إذ أثبتوا الصفات المعنوية لأجل القواطع من آيات القرآن وأنكروا صفات المعاني تورعا وتخلصا من مشابهة القول بتعدد

القدماء بلا داع، وقد كان لهم في عدم إثبات صفة المتكلم مندوحة لانتفاء الداعي إلى إثباتها، خلافا لما دعا إلى إثبات غيرها من الصفات المعنوية، وقد حكى فخر الدين في تفسير هذه السورة إجماع الأمة على أن الله تعالى متكلم.

وقصارى ما ورد في القرآن إسناد فعل الكلام إلى الله أو إضافة مصدره إلى اسمه، وذلك لا يوجب أن يشتق منه صفة لله تعالى، فإنهم لم يقولوا لله صفة نافخ الأرواح لأجل قوله تعالى)ونفخت فيه من روحي(، فالذي حدا مثبتي صفة الكلام لله هو قوة تعلق هذا الوصف بصفة العلم فخصوا هذا التعلق باسم خاص وجعلوه صفة مستقلة مثل ما فعلوا في صفة السمع والبصر.

هذا، واعلم أن مثبتي صفة الكلام قد اختلفوا في حقيقتها، فذهب السلف إلى أنها صفة قديمة كسائر صفات الله. فإذا سئلوا عن الألفاظ التي هي الكلام: أقديمة هي أم حادثة؟ قالوا: قديمة، وتعجب منهم فخر الدين الرازي ونبزهم ولا أحسبهم إلا أنهم تحاشوا عن التصريح بأنها حادثة لئلا يؤدي ذلك دهماء الأمة إلى اعتقاد حدوث صفات الله، أو يؤدي إلى إبطال أن القرآن كلام الله، لأن تبيان حقيقة معنى الإضافة في قولهم: كلام الله، دقيق جدا يحتاج مدركه إلى شحذ ذهنه بقواعد العلوم، والعامة على بون من ذلك.

واشتهر من أهل هذه الطريقة أحمد بن حنبل رحمه الله زمن فتنة خلق القرآن. وكان فقهاء المالكية في زمن العبيديين ملتزمين هذه الطريقة. وقال الشيخ أبو محمد ابن أبي زيد في الرسالة وإن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة لمخلوق فينفد . وقد نقشوا على إسطوانة من أساطين الجامع بمدينة سوسة هذه العبارة القرآن كلام الله وليس بمخلوق وهي ماثلة إلى الآن.

قال فخر الدين: واتفق أني قلت يوما لبعض الحنابلة: لو تكلم الله بهذه الحروف؛ إما أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب، والأول باطل لأن التكلم بها دفعة واحدة لا يفيد هذا النظم المركب على التعاقب والتوالي، والثاني باطل لأنه لو تكلم الله بها على التوالي كانت محدثة، فلما سمع مني هذا الكلام قال الواجب علينا أن نقر ونمر يعني نقر بأن القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ما سمعناه قال: فتعجبت من سلامة قلب ذلك القائل.

صفحة : 3895

ومن الغريب جدا ما يعزى إلى محمد بن كرام وأصحابه الكرامية من القول بأن كلام الله حروف وأصوات قائمة بذاته تعالى، وقالوا:

لا يلزم أن كل صفة لله قديمة، ونسب مثل هذا إلى الحشوية، وأما المعتزلة فأثبتوا لله أنه متكلم ومنعوا أن تكون له صفة تسمى الكلام، والذي دعاهم إلى ذلك هو الجمع بين ما شاع في القرآن والسنة وعند السلف من إسناد الكلام إلى الله وإضافته إليه وقالوا: إن اشتقاق الوصف لا يستلزم قيام المصدر بالموصوف، وتلك طريقتهم في صفات المعاني كلها، وزادوا فقالوا: معنى كونه متكلما أنه خالق الكلام.

وأما الأشعري وأصحابه فلم يختلفوا في أن الكلام الذي نقول: إنه كلام الله المركب من حروف وأصوات، المتلو بألسنتنا، المكتوب في مصاحفنا، إنه حادث وليس هو صفة الله تعالى وإنما صفة الله مدلول ذلك الكلام المركب من الحروف والأصوات من المعاني من أمر ونهي ووعد ووعيد. وتقريب ذلك عندي أن الكلام الحادث الذي خلقه الله دال على مراد الله تعالى وأن مراد الله صفة لله.

قال أبو بكر الباقلاني عن الشيخ: ان كلام الله الأزلي مقروء بألسنتنا، محفوظ في قلوبنا، مسموع بآذاننا، مكتوب في مصاحفنا غير حال في شيء من ذلك، كما أن الله معلوم بقلوبنا مذكور بألسنتنا معبود في محاريبنا وهو غير حال في شيء من ذلك. والقراءة والقارئ مخلوقان، كما أن العلم والمعرفة مخلوقان، والمعلوم والمعروف قديمان ا ه.يعني أن الألفاظ المقروءة والمكتوبة دوال وهي مخلوقة والمدلول وهو كون الله مريدا لمدلولات تلك التراكيب هو وصف الله تعالى ليصح أن الله أراد من الناس العمل بالمدلولات التي دلت عليها تلك التراكيب. وقد اصطلح الأشعري على تسمية ذلك المدلول كلاما نفسيا وهو إرادة المعاني التي دل عليها الكلام اللفظي، وقد استأنس لذلك بقول الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنـما جعل

اللسان على الفؤاد دليلا وأما أبو منصور الماتريدي فنقل الفخر عنه كلاما مزيجا من كلام الأشعري وكلام المعتزلة، والبعض نقل عنه مثل قول السلف. وسبب اختلاف النقل عنه هو أن الماتريدي تابع في أصول الدين أبا حنيفة. وقد اضطرب أتباعه في فهم عبارته الواقعة في العقيدة المنسوبة إليه المسماة: الفقه الأكبر)إن صح عزوها إليه(إذ كانت عبارة يلوح عليها التضارب ولعله مقصود. وتأويلها بما يوافق كلام الأشعري هو التحقيق.

وتحقيق هذا المقام بوجه واضح قريب أن نقول: إن ثبوت صفة الكلام لله هو مثل ثبوت صفة الإرادة وصفة القدرة له تعالى، في الأزل وهو أشبه باتصافه بالإرادة فكما أن معنى ثبوت صفة الإرادة لله انه تعالى متى تعلق علمه بإيجاد شيء لم يكن موجودا، أو بإعدام شيء كان موجودا، أنه لا يحول دون تنفيذ ما تعلق علمه

بإيجاده أو إعدامه حائل ولا يمنعه منه مانع، ومتى تعلق علمه بإبقاء المعدوم في حالة العدم أو الموجود في حالة الوجود، لا يكرهه على ضد ذلك مكره. فكذلك ثبوت الكلام لله معناه أنه كلما تعلق علمه بأن يأمر أو ينهي أحدا لم يحل حائل دون إيجاد ما يبلغ مراده إلى المأمورين أو المنهيين، وكلما تعلق علمه بأن يترك توجيه أمر أو نهي إلى الناس لم يكرهه مكره على أن يأمرهم أو ينهاهم.

وكما أن للإرادة تعلقا صلاحيا أزليا وتعلقا تنجيزيا حادثا حين تتوجه الإرادة إلى إيجاد بواسطة القدرة. كذلك نجد لكلام الله تعلقا صلاحيا أزليا وتعلقا تنجيزيا حين اقتضاء علم الله توجيه أمره أو نهيه أو نحوهما إلى بعض عباده.

فالكلام الذي ينطق به الرسول وينسبه إلى الله تعالى هو حادث وهو أثر التعلق التنجيزي الحادث، والكلام الذي نعتقد أن الله أراده وأراد من الناس العمل به هو الصفة الأزلية القديمة ولها التعلق الصلاحي القديم. وفي الرسالة الخاقانية للعلامة عبد الحكيم السلكوتي نقل عن بعض العلماء بأن لكلام الله تعلقا تنجيزيا حادثا، وهذا من التحقيق بمكان.

والتحقيق: أن ذلك الكلام الأزلي يتنوع إلى أنواع المدلولات من أمر ونهي وخبر ووعد ووعيد ونحو ذلك.

صفحة : 3896

وخلاصة معنى الآية أن الله قد يخلق في نفس جبريل أو غيره من الملائكة علما بمراد الله على كيفية لا نعلمها، وعلما بأن الله سخره إبلاغ مراده إلى النبي، والملك يبلغ إلى النبي ما أمر بتبليغه للآمر التسخيري ، بألفاظ معينة ألقاها الله في نفس الملك مثل ألفاظ القرآن، أو بألفاظ من صنعة الملك كالتي حكى الله عن زكريا بقوله)فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى(.

أو يخلق في سمع النبي كلاما يعلم علم اليقين أنه غير صادر إليه من متكلم، فيوقن أنه من عند الله بدلالة المعجزة أول مرة وبدلالة تعوده بعد ذلك. وهذا مثل الكلام الذي كلم الله به موسى ألا ترى إلى قوله تعالى)أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك(الآية، فقرن خطابه الخارق للعادة بالمعجزة الخارقة للعادة ليوقن موسى أن ذلك كلام من عند الله.

أو يخلق في نفس النبي علما قطعيا بأن الله أراد منه كذا كما يخلق في نفس الملك في الحالة المذكورة أولا.

فعلى هذه الكيفيات يأتي الوحي للأنبياء ويختص القرآن بمزية أن الله تعالى يخلق كلاما يعيه الملك ويؤمر بإبلاغه بنصه دون تغيير إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

والقول في موقع جملة)إنه علي حكيم(كالقول في جملة)إنه عليم قدير(السابقة، وإنما أؤثر هنا صفة)العلي الحكيم(لمناسبتهما للغرض لأن العلو في صفة)العلي(علو عظمة فائقة لا تناسبها النفوس البشرية التي لم تحظ من جانب القدس بالتصفية فما كان لها أن تتلقى من الله مراده مباشرة فاقتضى علوه أن يكون توجيه خطابه إلى البشر بوسائط يفضي بعضها إلى بعض لأن ذلك كما يقول الحكماء: استفادة القابل من المبدإ تتوقف عن المناسبة بينهما.

وأما وصف)الحكيم(فلأن معناه المتقن للصنع العالم بدقائقه وما خطابه البشر إلا لحكمة إصلاحهم ونظام عالمهم، وما وقوعه على تلك الكيفيات الثلاث إلا من أثر الحكمة لتيسير تلقي خطابه، ووعيه دون اختلال فيه ولا خروج عن طاقة المتلقين.

وانظر ما تقدم عند قوله تعالى)ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه(في سورة الأعراف، وعند قوله)فأجره حتى يسمع كلام الله(في سورة براءة.

)وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا(عطف على جملة)وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا(الآية، وهذا دليل عليهم أن القرآن أنزل من عند الله أعقب به إبطال شبهتهم التي تقدم لإبطالها قوله)وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا(الآية، أي كان وحينا إليك مثل كلامنا الذي كلمنا به من قبلك على ما صرح به في قوله تعالى)إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده(. والمقصود من هذا هو قوله)ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان(.

والإشارة إلى سابق في الكلام وهو المذكور آنفا في قوله)وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا(الآية، أي ومثل الذي ذكر من تكليم الله وحينا إليك روحا من أمرنا، فيكون على حد قول الحارث بن حلزة:

مثلها تخرج النصيحة للقوم فلاة من دونها أفلاء أي مثل نصيحتنا التي نصحناها للملك عمرو بن هند تكون نصيحة الأقوام بعضهم لبعض لأنها نصيحة قرابة ذوي أرحام.

ويجوز أن تكون الإشارة إلى ما يأتي من بعد وهو الإيحاء المأخوذ من)أوحينا إليك(، أي مثل إيحائنا إليك أوحينا إليك، أي لو أريد تشبيه إيحائنا إليك في رفعة القدر والهدى ما وجد له شبيه إلا نفسه على طريقة قوله تعالى)وكذلك جعلناكم أمة وسطا(كما

تقدم في سورة البقرة. والمعنى: إن ما أوحينا إليك هو أعز وأشرف وحي بحيث لا يماثله غيره.
وكلا المعنيين صالح هنا فينبغي أن يكون كلاهما محملا للآية على نحو ما ابتكرناه في المقدمة التاسعة من هذا التفسير. ويؤخذ من هذه الآية أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد أعطي أنواع الوحي الثلاثة، وهو أيضا مقتضى الغرض من مساق هذه الآيات.

صفحة : 3897

والروح: ما به حياة الإنسان، وقد تقدم عند قوله تعالى)ويسألونك عن الروح(في سورة الإسراء. وأطلق الروح هنا مجازا على الشريعة التي بها اهتداء النفوس إلى ما يعود عليهم بالخير في حياتهم الأولى وحياتهم الثانية، شبهت هداية عقولهم بعد الضلالة بحلول الروح في الجسد فيصير حيا بعد أن كان جثة.
ومعنى)من أمرنا(مما استأثرنا بخلقه وحجبناه عن الناس فالأمر المضاف إلى الله بمعنى الشأن العظيم، كقولهم: أمر أمر فلان، أي شأنه، وقوله تعالى)بإذن ربهم من كل أمر(.
والمراد بالروح من أمر الله: ما أوحي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الإرشاد والهداية سواء كان بتلقين كلام معين مأمور بإبلاغه إلى الناس بلفظه دون تغير وهو الوحي القرآني المقصود منه أمران: الهداية والإعجاز، أم كان غير مقيد بذلك بل الرسول مأمور بتبليغ المعنى دون اللفظ وهو ما يكون بكلام غير مقصود به الإعجاز، أو بإلقاء المعنى إلى الرسول بمشافهة الملك، وللرسول في هذا أن يتصرف من ألفاظ ما أوحي إليه بما يريد التعبير به أو برؤيا المنام أو بالإلقاء في النفس كما تقدم.
واختتام هذه السورة بهذه الآية مع افتتاحها بقوله)كذلك يوحي إليك(الآية فيه محسن رد العجز على الصدر.
وجملة)ما كنت تدري ما الكتاب(في موضع الحال من ضمير) أوحينا(أي أوحينا إليك في حال انتفاء علمك بالكتاب والإيمان، اي أفضنا عليك موهبة الوحي في حال خلوك عن علم الكتاب وعلم الإيمان. وهذا تحد للمعاندين ليتأملوا في حال الرسول صلى الله عليه وسلم فيعلموا أن ما أوتيه من الشريعة والآداب الخلقية هو من مواهب الله تعالى التي لم تسبق له مزاولتها، ويتضمن امتنانا عليه وعلى أمته المسلمين.
ومعنى عدم دراية الكتاب: عدم تعلق علمه بقراءة كتاب أو فهمه.

ومعنى انتفاء دراية الإيمان: عدم تعلق علمه بما تحتوي عليه حقيقة الإيمان الشرعي من صفات الله وأصول الدين وقد يطلق الإيمان على ما يرادف الإسلام كقوله تعالى)وما كان الله ليضيع إيمانكم(وهو الإيمان الذي يزيد وينقص كما في قوله تعالى)ويزداد الذين أمنوا إيمانا(، فيزاد في معنى عدم دراية الإيمان انتفاء تعلق علم الرسول صلى الله عليه وسلم بشرائع الاسلام. فانتفاء درايته بالإيمان مثل انتفاء درايته بالكتاب، أي انتفاء العلم بحقائقه ولذلك قال)ما كنت تدري(ولم يقل: ما كنت مؤمنا.

وكلا الاحتمالين لا يقتضي أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن مؤمنا بوجود الله ووحدانية إلهيته قبل نزول الوحي عليه إذ الأنبياء والرسل معصومون من الشرك قبل النبوءة فهم موحدون لله ونابذون لعبادة الأصنام، ولكنهم لا يعلمون تفاصيل الإيمان، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم في عهد جاهلية قومه يعلم بطلان عبادة الأصنام، وإذ قد كان قومه يشركون مع الله غيره في الإلهية فبطلان إلهية الأصنام عنده تمحضه لإفراد الله بالإلهية لا محالة.

وقد أخبر بذلك عن نفسه فيما رواه أبو نعيم في دلائل النبوءة عن شداد بن أوس وذكره عياض في الشفاء غير معزو: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نشأت أي عقلت بغضت إلي الأوثان وبغض إلي الشعر، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمني الله منهما ثم لم أعد .

وعلى شدة منازعة قريش إياه في أمر التوحيد فإنهم لم يحاجوه بأنه كان يعبد الأصنام معهم.

وفي هذه الآية حجة للقائلين بأن رسول صلى الله عليه وسلم لم يكن متعبدا قبل نبوءته بشرع.

وإدخال)لا(النافية في قوله)ولا الإيمان(تأكيد لنفي درايته إياه، أي ما كنت تدري الكتاب ولا الإيمان، للتنصيص على أن المنفي دراية كل واحد منهما.

وقوله)ولكن جعلناه نورا(عطف على جملة)ما كنت تدري ما الكتاب(. وضمير)جعلناه(عائد إلى الكتاب في قوله)ما كنت تدري ما الكتاب(. والتقدير: وجعلنا الكتاب نورا. وأقحم في الجملة المعطوفة حرف الاستدراك للتنبيه على أن مضمون هذه الجملة عكس مضمون جملة)ما كنت تدري ما الكتاب(.

والاستدراك ناشئ على ما تضمنته جملة)ما كنت تدري ما الكتاب(لأن ظاهر نفي دراية الكتاب أن اتنفاءها مستمر فاستدرك بأن الله هداه، بالكتاب وهدى به أمته، فالاستدراك واقع في المحز.
والتقدير: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ثم هديناك بالكتاب ابتداء وعرفناك به الإيمان وهديت به الناس ثانيا فاهتدى به من شئنا هدايته، أي وبقي على الضلال من لم نشأ له الاهتداء، كقوله تعالى)يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا(.
وشبه الكتاب بالنور لمناسبة الهدي به لأن الإيمان والهدى والعلم تشبه بالنور، والضلال والجهل والكفر تشبه بالظلمة، قال تعالى) يخرجهم من الظلمات إلى النور(. وإذا كان السائر في الطريق في ظلمة ظل عن الطريق فإذا استنار له اهتدى إلى الطريق، فالنور وسيلة الاهتداء ولكن إنما يهتدي به من لا يكون له حائل دون الاهتداء وإلا لم تنفعه وسيلة الاهتداء ولذلك قال تعالى)نهدي به من نشاء من عبادنا(، أي نخلق بسببه الهداية في نفوس الذين أعددناهم للهدى من عبادنا.
فالهداية هنا هداية خاصة وهي خلق الإيمان في القلب.
)وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم[52] صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض(أي نهدي به من نشاء بدعوتك وواسطتك فلما أثبت الهدي إلى الله وجعل الكتاب سببا لتحصيل الهداية عطف وساطة الرسول في إيصال ذلك الهدي تنويها بشأن الرسول صلى الله عليه وسلم.
فجملة)وإنك لتهدي(عطف على جملة)نهدي به من نشاء من عبادنا(. وفي الكلام تعريض بالمشركين إذ لم يهتدوا به وإذ كبر عليهم ما يدعوهم إليه مع أنه يهديهم إلى صراط مستقيم.
والهداية في قوله)وإنك لتهدي(هداية عامة. وهي: إرشاد الناس إلى طريق الخير فهي تخالف الهداية في قوله)نهدي به من نشاء(.
وحذف مفعول)لتهدي(للعموم، أي لتهدي جميع الناس، أي ترشدهم إلى صراط مستقيم، وهذا كقوله)وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة(.
وتأكيد الخبر ب)إن(للاهتمام به لأن الخبر مستعمل في تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم بالشهادة له بهذا المقام العظيم فالخبر مستعمل في لازم معناه، على أنه مستعمل أيضا للتعريض بالمنكرين لهديه فيكون في التأكيد ملاحظة تحقيقه وإبطال إنكارهم.
فكما أن الخبر مستعمل في لازمين من لوازم معناه فكذلك التأكيد ب)إن(مستعمل في غرضين من أغراضه، وكلا الأمرين مما ألحق باستعمال المشترك في معنييه.
وتنكير)صراط(للتعظيم مثل تنكير عظم في قول أبي خراش:

فلا وأبي الطير المربة في الضحى
على خالد لقد وقعن على عـظـم ولأن التنكير أنسب بمقام التعريض بالذين لم يأبهوا بهدايته.
وعدل عن إضافة)صراط(إلى اسم الجلالة ابتداء لقصد الإجمال الذي يعقبه التفصيل بأن يبدل منه بعد ذلك)صراط الله(ليتمكن بهذا الأسلوب المعنى المقصود فضل تمكن على نحو قوله)اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم(.
وإجراء وصف اسم الجلالة باسم الموصول وصلته للإيماء إن سبب استقامة الصراط الذي يهدي إليه النبي بأنه صراط الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض فلا يعزب عنه شيء مما يليق بعباده، فلما أرسل إليهم رسولا بكتاب لا يرتاب في أن ما أرسل لهم فيه صلاحهم.
)ألا إلى الله تصير الأمور[53](تذييل وتنهية للسورة بختام ما احتوت عليه من المجادلة والاحتجاج بكلام قاطع جامع منذر بوعيد للمعرضين فاجع ومبشر بالوعد لكل خاشع.
وافتتحت الجملة بحرف التنبيه لاسترعاء أسماع الناس.
وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص، أي إلى الله لا إلى غيره.
والمصير: الرجوع والانتهاء، واستعير هنا لظهور الحقائق كما هي يوم القيامة فيذهب تلبيس الملبسين، ويهن جبروت المتجبرين، ويقر بالحق من كان فيه من المعاندين، وهذا كقوله تعالى)وإلى الله عاقبة الأمور(وقوله)وإليه يرجع الأمر كله(. والأمور: الشؤون والأحوال والحقائق وكل موجود من الذوات والمعاني.
وقد أخذ هذا المعنى الكميت في قوله:
فالآن صرت إلى أمية والأمور إلى مصائر وفي تنهية السورة بهذه الآية محسن حسن الختام.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الزخرف

سميت في المصاحف العتيقة والحديثة)سورة الزخرف(وكذلك وجدتها في جوء عتيق من مصحف كوفي الخط مما كتب في أواخر القرن الخامس، وبذلك ترجم لها الترمذي في كتاب التفسير من جامعة، وسميت كذلك في كتب التفسير.
وسماها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه)سورة حم الزخرف(وإضافة كلمة حم إلى الزخرف على نحو ما بيناه في

تسمية سورة)حم المؤمن(روى الطبرسي عن الباقر أنه سماها كذلك.
ووجه التسمية أن كلمة)وزخرفا(وقعت فيها ولم تقع في غيرها من سور القرآن فعرفوها بهذه الكلمة.
وهي مكية: وحكى ابن عطية الاتفاق على أنها مكية، وأما ما روى عن قتادة وعبد الرحمان بن زيد بن أسلم أن آية)واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون(نزلت بالمسجد الأقصى فإذا صح لم يكن منافيا لهذا لأن المراد بالمكي ما أنزل قبل الهجرة.
وهي معدودة السور الثانية والستين في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة فصلت وقبل سورة الدخان.
وعدت آيها عند العادين من معظم الأمصار تسعا وثمانين، وعدها أهل الشام ثمانيا وثمانين.

أغراضها
أعظم ما اشتملت عليه هذه السورة من الأغراض: التحدي بإعجاز القرآن لأنه آية صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به والتنويه به عدة مرات وأنه أوحى الله به لتذكيرهم وتكرير تذكيرهم وإن أعرضوا كما أعرض من قبلهم عن رسلهم.
وإذ قد كان باعثهم على الطعن في القرآن تعلقهم بعبادة الأصنام التي نهاهم القرآن عنها كان من أهم أغراض السورة، التعجيب من حالهم إذ جمعوا بين الاعتراف بأن الله خالقهم والمنعم عليهم وخالق المخلوقات كلها. وبين اتخاذهم آلهة يعبدونها شركاء لله، حتى إذا انتقض أساس عنادهم اتضح لهم ولغيرهم باطلهم.
وجعلوا بنات لله مع اعتقادهم أن البنات أحط قدرا من الذكور فجمعوا بذلك بين الإشراك والتنقيص.
وإبطال عبادة كل ما دون الله على تفاوت درجات المعبودين في الشرف فإنهم سواء في عدم الإلهية للألوهية ولبنوة الله تعالى.
وعرج على إبطال حججهم ومعاذيرهم، وسفه تخييلاتهم وترهاتهم.
وذكرهم بأحوال الأمم السابقين مع رسلهم، وأنذرهم بمثل عواقبهم، وحذرهم من الاغترار بإمهال الله وخص بالذكر رسالة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. وخص إبراهيم بأنه جعل كلمة التوحيد باقية في جمع من عقبه وتوعد المشركين وأنذرهم بعذاب الآخرة بعد البعث الذي كان إنكارهم وقوعه من مغذيات كفرهم وإعراضهم لاعتقادهم أنهم في مأمن بعد الموت.
وقد رتبت هذه الأغراض وتفاريعها على نسخ بديع وأسلوب رائع في التقديم والتأخير والأصالة والاستطراد على حسب دواعي

المناسبات التي اقتضتها البلاغة، وتجديد نشاط السامع لقبول ما يلقى إليه. وتخلل في خلاله من الحجج والأمثال والمثل والقوارع والترغيب والترهيب، شيء عجيب، مع دحض شبه المعاندين بأفانين الإقناع بانحطاط ملة كفرهم وعسف معوج سلوكهم.

وأدمج في خلال ذلك ما في دلائل الوحدانية من النعم على الناس والإنذار والتبشير.

وقد جرت آيات هذه السورة على أسلوب نسبة الكلام إلى الله تعالى عدا ما قامت القرينة على الإسناد إلى غيره.

)حم[1](تقدم القول في نظائره ومواقعها قبل ذكر القرآن وتنزيله.

)والكتاب المبين[2] إنا جعلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون[3](أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن على أن القرآن جعله الله عربيا واضح الدلالة فهو حقيق بأن يصدقوا به لو كانوا غير مكابرين، ولكنهم بمكابرتهم كانوا كمن لا يعقلون. فالقسم بالقرآن تنويه بشأنه وهو توكيد لما تضمنه جواب القسم إذ ليس القسم هنا برافع لتكذيب المنكرين إذ لا يصدقون بأن المقسم هو الله تعالى فإن المخاطب بالقسم هم المنكرون بدليل قوله)لعلكم تعقلون(. وتفريع)أفنضرب عنكم الذكر صفحا(عليه. وتوكيد الجواب ب)إن(زيادة توكيد للخبر أن القرآن من جعل الله.

صفحة : 3900

وفي جعل المقسم به القرآن بوصف كونه مبينا، وجعل جواب القسم أن الله جعله مبينا، تنويه خاص بالقرآن إذ جعل المقسم به هو المقسم عليه، وهذا ضرب عزيز بديع لأنه يومئ إلى أن المقسم على شأنه بلغ غاية الشرف فإذا أراد المقسم أن يقسم على ثبوت شرف له لم يجد ما هو أولى بالقسم به للتناسب بين القسم والمقسم عليه. وجعل صاحب الكشاف من قبيله قول أبي تمام:

وثناياك إنهـا اغـريض ولآل تؤم وبرق وميض إذ قدر الزمخشري جملة إنها اغريض جواب القسم وهو الذي تبعه عليه الطيبي والقزويني في شرحيهما للكشاف، وهو ما فسر به التبريزي في شرحه لديوان أبي تمام، ولكن التفتزاني أبطل ذلك في شرح الكشاف وجعل جملة إنها اغريض استئنافا أي اعتراضا لبيان استحقاق ثناياها أن يقسم بها، وجعل جواب القسم قوله بعد أبيات ثلاثة:

لتكادني غمار مـن الأح داث لم أدر
أيهن أخوض والنكت والخصوصيات الأدبية يكفي فيها الاحتمال المقبول فإن قوله قبله:
وارتكاض الكرى بعينيك في الن وم
فنونا وما بعيني غـمـوض يجوز أن يكون قسما ثانيا فيكون البيت جوابا له.
وإطلاق اسم الكتاب على القرآن باعتبار أن الله أنزله ليكتب وأن الأمة مأمورون بكتابته وإن كان نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم لفظا غير مكتوب.
وفي هذا إشارة إلى أنه سيكتب في المصاحف، والمراد ب)الكتاب(ما نزل من القرآن قبل هذه السورة وقد كتبه كتاب الوحي.
وضمير)جعلناه(عائد إلى الكتاب، أي إنا جعلنا الكتاب المبين قرآنا والجعل: الإيجاد والتكوين، وهو يتعدى إلى مفعول واحد.
والمعنى: أنه مقروء دون حضور كتاب فيقتضي أنه محفوظ في الصدور ولولا ذلك لما كانت فائدة للإخبار بأنه مقروء لأن كل كتاب صالح لأن يقرأ. والإخبار عن الكتاب بأنه قرآن مبالغة في كون هذا الكتاب مقروءا، أي ميسرا لأن يقرأ لقوله)ولقد يسرنا القرآن للذكر(وقوله)إن علينا جمعه وقرآنه(. وقوله)إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون(.
فحصل بهذا الوصف أن الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم جامع لوصفين: كونه كتابا، وكونه مقروءا على السنة الأمة. وهذا مما اختص به كتاب الإسلام.
و)عربيا(نسبة إلى العرب، وإذ قد كان المنسوب كتابا ومقروءا فقد اقتضى أن نسبته إلى العرب نسبة الكلام واللغة إلى أهلها، أي هو مما ينطق العرب بمثل ألفاظه، وبأنواع تراكيبه.
وانتصب)قرآنا(على الحال من مفعول)جعلناه(.
ومعنى جعله)قرآنا عربيا(تكوينه على ما كونت عليه لغة العرب، وأن الله بباهر حكمته جعل هذا الكتاب قرآنا بلغة العرب لأنها أشرف اللغات وأوسعها دلالة على عديد المعاني، وأنزله بين أهل تلك اللغة لأنهم أفهم لدقائقها، ولذلك اصطفى رسوله من أهل تلك اللغة لتتظاهر وسائل الدلالة والفهم فيكونوا المبلغين مراد الله إلى الأمم. وإذا كان هذا القرآن بهاته المثابة فلا يأبى من قبوله إلا قوم مسرفون في الباطل بعداء عن الإنصاف والرشد، ولكن الله أراد هديهم فلا يقطع عنهم ذكره حتى يتم مراده ويكمل انتشار دينه فعليهم أن يراجعوا عقولهم ويتدبروا إخلاصهم فإن الله غير مؤاخذهم بما سلف من إسرافهم إن هم ثابوا إلى رشدهم.

والمقصود بوصف الكتاب بأنه عربي غرضان: أحدهما التنويه بالقرآن، ومدحه بأنه منسوج على منوال أفصح لغة، وثانيهما التورك على المعاندين من العرب حين لم يتأثروا بمعانيه بأنهم كمن يسمع كلاما بلغة غير لغته، وهذا تأكيد لما تضمنه الحرفان المقطعان المفتتحة بهما السورة من معنى التحدي بأن هذا كتاب بلغتكم وقد عجزتم عن الإتيان بمثله.

وحرف)لعل(مستعار لمعنى الإرادة وتقدم نظيره في قوله)لعلكم تتقون(في أوائل سورة البقرة.

والعقل: الفهم.

والغرض: التعريض بأنهم أهملوا التدبر في هذا الكتاب وأن كماله في البيان والإفصاح نستأهل العناية به لا الإعراض عنه فقوله) لعلكم تتقون(مشعر بأنهم لم يعقلوا.

والمعنى: أنا يسرنا فهمه عليكم لعلكم تعقلون فأعرضتم ولم تعقلوا معانيه، لأنه قد نزل مقدار عظيم لو تدبروه لعقلوا، فهذا الخبر مستعمل في التعريض على طريقة الكناية.

)وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم[4](

صفحة : 3900

وفي جعل المقسم به القرآن بوصف كونه مبينا، وجعل جواب القسم أن الله جعله مبينا، تنويه خاص بالقرآن إذ جعل المقسم به هو المقسم عليه، وهذا ضرب عزيز بديع لأنه يومئ إلى أن المقسم على شأنه بلغ غاية الشرف فإذا أراد المقسم أن يقسم على ثبوت شرف له لم يجد ما هو أولى بالقسم به للتناسب بين القسم والمقسم عليه. وجعل صاحب الكشاف من قبيله قول أبي تمام:

وثناياك إنهـا اغـريض ولآل تؤم وبرق وميض إذ قدر الزمخشري جملة إنها اغريض جواب القسم وهو الذي تبعه عليه الطيبي والقزويني في شرحيهما للكشاف، وهو ما فسر به التبريزي في شرحه لديوان أبي تمام، ولكن التفتزاني أبطل ذلك في شرح الكشاف وجعل جملة إنها اغريض استئنافا أي اعتراضا لبيان استحقاق ثناياها أن يقسم بها، وجعل جواب القسم قوله بعد أبيات ثلاثة:

لتكادني غمار مـن الأح داث لم أدر أيهن أخوض والنكت والخصوصيات الأدبية يكفي فيها الاحتمال المقبول فإن قوله قبله:

وارتكاض الكرى بعينيك في الن وم
فنونا وما بعيني غـمـوض يجوز أن يكون قسما ثانيا فيكون البيت جوابا له.
وإطلاق اسم الكتاب على القرآن باعتبار أن الله أنزله ليكتب وأن الأمة مأمورون بكتابته وإن كان نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم لفظا غير مكتوب.
وفي هذا إشارة إلى أنه سيكتب في المصاحف، والمراد ب)الكتاب(ما نزل من القرآن قبل هذه السورة وقد كتبه كتاب الوحي.
وضمير)جعلناه(عائد إلى الكتاب، أي إنا جعلنا الكتاب المبين قرآنا والجعل: الإيجاد والتكوين، وهو يتعدى إلى مفعول واحد.
والمعنى: أنه مقروء دون حضور كتاب فيقتضي أنه محفوظ في الصدور ولولا ذلك لما كانت فائدة للإخبار بأنه مقروء لأن كل كتاب صالح لأن يقرأ. والإخبار عن الكتاب بأنه قرآن مبالغة في كون هذا الكتاب مقروءا، أي ميسرا لأن يقرأ لقوله)ولقد يسرنا القرآن للذكر(وقوله)إن علينا جمعه وقرآنه(. وقوله)إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون(.
فحصل بهذا الوصف أن الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم جامع لوصفين: كونه كتابا، وكونه مقروءا على السنة الأمة. وهذا مما اختص به كتاب الإسلام.
و)عربيا(نسبة إلى العرب، وإذ قد كان المنسوب كتابا ومقروءا فقد اقتضى أن نسبته إلى العرب نسبة الكلام واللغة إلى أهلها، أي هو مما ينطق العرب بمثل ألفاظه، وبأنواع تراكيبه.
وانتصب)قرآنا(على الحال من مفعول)جعلناه(.
ومعنى جعله)قرآنا عربيا(تكوينه على ما كونت عليه لغة العرب، وأن الله بباهر حكمته جعل هذا الكتاب قرآنا بلغة العرب لأنها أشرف اللغات وأوسعها دلالة على عديد المعاني، وأنزله بين أهل تلك اللغة لأنهم أفهم لدقائقها، ولذلك اصطفى رسوله من أهل تلك اللغة لتتظاهر وسائل الدلالة والفهم فيكونوا المبلغين مراد الله إلى الأمم. وإذا كان هذا القرآن بهاته المثابة فلا يأبى من قبوله إلا قوم مسرفون في الباطل بعداء عن الإنصاف والرشد، ولكن الله أراد هديهم فلا يقطع عنهم ذكره حتى يتم مراده ويكمل انتشار دينه فعليهم أن يراجعوا عقولهم ويتدبروا إخلاصهم فإن الله غير مؤاخذهم بما سلف من إسرافهم إن هم ثابوا إلى رشدهم.
والمقصود بوصف الكتاب بأنه عربي غرضان: أحدهما التنويه بالقرآن، ومدحه بأنه منسوج على منوال أفصح لغة، وثانيهما التورك على المعاندين من العرب حين لم يتأثروا بمعانيه بأنهم كمن يسمع كلاما بلغة غير لغته، وهذا تأكيد لما تضمنه الحرفان المقطعان

المفتتحة بهما السورة من معنى التحدي بأن هذا كتاب بلغتكم وقد عجزتم عن الإتيان بمثله.
وحرف)لعل(مستعار لمعنى الإرادة وتقدم نظيره في قوله)لعلكم تتقون(في أوائل سورة البقرة.
والعقل: الفهم.
والغرض: التعريض بأنهم أهملوا التدبر في هذا الكتاب وأن كماله في البيان والإفصاح نستأهل العناية به لا الإعراض عنه فقوله) لعلكم تتقون(مشعر بأنهم لم يعقلوا.
والمعنى: أنا يسرنا فهمه عليكم لعلكم تعقلون فأعرضتم ولم تعقلوا معانيه، لأنه قد نزل مقدار عظيم لو تدبروه لعقلوا، فهذا الخبر مستعمل في التعريض على طريقة الكناية.
)وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم[4](

صفحة : 3901

عطف على جملة)إنا جعلناه قرأنا عربيا(فهو زيادة في الثناء على هذا الكتاب ثناء ثانيا للتنويه بشأنه رفعة وإرشادا.
وأم الكتاب: أصل الكتاب. والمراد ب)أم الكتاب(علم الله تعالى كما في قوله)وعنده أم الكتاب(في سورة الرعد، لأن الأم بمعنى الأصل والكتاب هنا بمعنى المكتوب، أي المحقق الموثق وهذا كناية عن الحق الذي لا يقبل التغيير لأنهم كانوا إذا أرادوا أن يحققوا عهدا على طول مدة كتبوه في صحيفة، قال الحارث بن حلزة:
حذر الجور والتطاخي وهل ين قض
ما في المهارق الأهواء و)علي(أصله المرتفع، وهو هنا مستعار لشرف الصفة وهي استعارة شائعة.
وحكيم: أصله الذي الحكمة من صفات رأيه، فهو هنا مجاز لما يحوي الحكمة بما فيه من صلاح أحوال النفوس والقوانين المقيمة لنظام الأمة.
ومعنى كون ذلك في علم الله: أن الله علمه كذلك وما علمه الله لا يقبل الشك. ومعناه: أن ما اشتمل عليه القرآن من المعاني هو من مراد الله وصدر عن علمه.
ويجوز أيضا أن يفيد هذا شهادة بعلو القرآن وحكمته على حد قولهم في اليمين)الله يعلم(، و)علم الله(.
وتأكيد الكلام ب)إن(لرد إنكار المخاطبين إذ كذبوا أن يكون القرآن موحى به من الله.
و)لدينا(ظرف مستقر هو حال من ضمير)إنه(أو من)أم الكتاب(والمقصود: زيادة تحقيق الخبر وتشريف المخبر عنه.

وقرأ الجمهور في)أم الكتاب(بضم همزة)أم(. وقرأه حمزة والكسائي بكسر همزة)أم الكتاب(في الوصل اتباعا لكسرة)في(، فلو وقف على)في(لم يكسر الهمزة.

)أفنضرب عنكم الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين[5](الفاء لتفريع الاستفهام الإنكاري على جملة)إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون(، أي أتحسبون أن إعراضكم عما نزل من هذا الكتاب يبعثنا على أن نقطع عنكم تجدد التذكير بإنزال شيء آخر من القرآن. فلما أريدت إعادة تذكيرهم وكانوا قد قدم إليهم من التذكير ما فيه هديهم لو تأملوا وتدبروا، وكانت إعادة التذكير لهم موسومة في نظرهم بقلة الجدوى بين لهم أن استمرار إعراضهم لا يكون سببا في قطع الإرشاد عنهم لأن الله رحيم بهم مريد لصلاحهم لا يصده إسرافهم في الإنكار عن زيادة التقدم إليهم بالمواعظ والهدي.

والاستفهام إنكاري، أي لا يجوز أن نضرب عنكم الذكر صفحا من جراء إسرافكم.

والضرب حقيقته قرع جسم بآخر، وله إطلاقات أشهرها: قرع البعير بعصا، وهو هنا مستعار لمعنى القطع والصرف أخذا من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض، أي أطردها وصرفها لأنها ليست لأهل الماء، فاستعاروا الضرب للصرف والطرد، وقال طرفة:

أضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس والذكر: التذكير، والمراد به القرآن.

والصفح: الإعراض بصفح الوجه وهو جانبه وهو أشد الإعراض عن الكلام لأنه يجمع ترك استماعه وترك النظر إلى المتكلم.

وانتصب)صفحا(على النيابة عن الظرف، أي في مكان صفح، كما يقال: ضعه جانبا، ويجوز أن يكون)صفحا(مصدر صفح عن كذا، إذا أعرض، فينتصب على المفعول المطلق لبيان نوع الضرب بمعنى الصرف والإعراض.

والإسراف: الإفراط والإكثار، وأغلب إطلاقه على الإكثار من الفعل الضائر. ولذلك قيل لا سرف في الخير والمقام دال على أنهم أسرفوا في الإعراض عن القرآن.

وقرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف)إن كنتم(بكسر همزة)إن(فتكون)إن(شرطية، ولما كان الغالب في استعمال)إن(الشرطية أن تقع في الشرط الذي ليس متوقعا وقوعه بخلاف إذا التي هي للشرط المتيقن وقوعه، فالإتيان ب)إن(في قوله)إن كنتم قوما مسرفين(لقصد تنزيل المخاطبين المعلوم إسرافهم منزلة من يشك في إسرافه لأن توفر الأدلة على صدق القرآن من شأنه أن يزيل إسرافهم وفي هذا ثقة بحقية القرآن وضرب من التوبيخ على إمعانهم في الإعراض عنه.

وقرأه ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بفتح الهمزة على جعل)أن(مصدرية وتقدير لام التعليل محذوفا، أي لأجل إسرافكم، أي لا نترك تذكيركم بسبب كونكم مسرفين بل لا نزال نعيد التذكير رحمة بكم.

صفحة : 3902

وإقحام)قوما(قبل)مسرفين(للدلالة على أن هذا الإسراف صار طبعا لهم وبه قوام قوميتهم، كما قدمناه عند قوله تعالى)لآيات لقوم يعقلون(في سورة البقرة.
)وكم أرسلنا من نبي في الأولين[6] وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزءون[7] فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين[8](لما ذكر إسرافهم في الإعراض عن الإصغاء لدعوة القرآن وأعقبه بكلام موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تسلية عما يلاقيه منهم، في خلال الإعراض من الأذى والاستهزاء، بتذكيره بأن حاله في ذلك حال الرسل من قبله وسنة الله في الأمم، ووعد للرسول صلى الله عليه وسلم بالنصر على قومه بتذكيره بسنة الله في الأمم المكذبة رسلهم.
وجعل للتسلية المقام الأول من هذا الكلام بقرينة العدل عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة في قوله)فأهلكنا أشد منهم(كما سيأتي، ويتضمن ذلك تعريضا بزجرهم عن إسرافهم في الإعراض عن النظر في القرآن.
فجملة)وكم أرسلنا من نبي(معطوفة على جملة)إنا جعلناه قرآنا عربيا(وما بعدها إلى هنا عطف القصة على القصة.
و)كم(اسم دال على عدد كثير مبهم، وموقع)كم(نصب بالمفعولية ل)أرسلنا(، وهو ملتزم تقديمه لأن أصله اسم استفهام فنقل من الاستفهام إلى الإخبار على سبيل الكناية.
وشاع استعماله في ذلك حتى صار الإخبار بالكثرة معنى من معاني)كم(. والداعي إلى اجتلاب اسم العدد الكثير أن كثرة وقوع هذا الحكم أدخل في زجرهم عن مثله وأدخل في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتحصيل صبره، لأن كثرة وقوعه تؤذن بأنه سنة لا تتخلف، وذلك أزجر وأسلى.
و)الأولين(جمع الأول، وهو هنا مستعمل في معنى الماضين السابقين كقوله تعالى)ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين(فإن الذين أهلكوا قد انقرضوا بقطع النظر عمن عسى أن يكون خلفهم من الأمم.

والاستثناء في قوله)إلا كانوا به يستهزئون(استثناء من أحوال، أي ما يأتيهم نبي في حال من أحوالهم إلا يقارن استهزاؤهم إتيان ذلك النبي إليهم.
وجملة)وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون(في موضع الحال من)الأولين(، وهذا الحال هو المقصود من الإخبار.
وجملة)فأهلكنا أشد منهم بطشا(تفريع وتسبب عن جملة)وكم أرسلنا من نبي في الأولين(.
وضمير)أشد منهم(عائد إلى قوم مسرفين الذين تقدم خطابهم فعدل عن استرسال خطابهم إلى توجيهه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الغرض الأهم من هذا الكلام هو تسلية الرسول ووعده بالنصر. ويستتبع ذلك التعريض بالذين كذبوه فإنهم يبلغهم هذا الكلام كما تقدم.
ويظهر أن تغيير أسلوب الإضمار تبعا لتغيير المواجهة بالكلام لا ينافي اعتبار الالتفات في الضمير لأن مناط الالتفات هو اتحاد مرجع الضميرين مع تأتي الاقتصار على طريقة الإضمار الأولى، وهل تغيير توجيه الكلام إلا تقوية لمقتضى نقل الإضمار، ولا تفوت النكتة التي تحصل من الالتفات وهي تجديد نشاط السامع بل تزداد قوة بازدياد مقتضياتها.
وكلام الكشاف ظاهر في أن نقل الضمير هنا التفات وعلى ذلك قرره شارحوه، ولكن العلامة التفتزاني قال ومثل هذا ليس من الالتفات في شيء ه. ولعله يرى أن اختلاف المواجهة بالكلام الواقع فيه الضميران طريقة أخرى غير طريقة الالتفات، وكلام الكشاف فيه احتمال، وخصوصيات البلاغة واسعة الأطراف.
والذين هم أشد بطشا من كفار مكة: هم الذين عبر عنهم ب)الأولين(ووصفوا بأنهم يستهزئون بمن يأتيهم من نبي.
وهذا تركيب بديع في الإيجاز لأن قوله)فأهلكنا أشد منهم بطشا(يقتضي كلاما مطويا تقديره: فلا نعجز عن إهلاك المسرفين وهم أقل بطشا.
وهذا في معنى قوله تعالى)وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم(.
والبطش: الإضرار القوي.
وانتصب)بطشا(على التمييز لنسبة الأشدية.
و)مثل الأولين(حالهم العجيبة. ومعنى مضى: انقرض، أي ذهبوا عن بكرة أبيهم، فمضي المثل كناية عن استئصالهم لأن مضي الأحوال يكون بمضي أصحابها، فهو في معنى قوله تعالى)فقطع دابر القوم الذين ظلموا(. وذكر)الأولين(إظهار في مقام الإضمار لتقدم قوله) في الأولين(.

ووجه إظهاره أن يكون الإخبار عنهم صريحا وجاريا مجرى المثل.

صفحة : 3903

)ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم[9](لما كان قوله)وكم أرسلنا من نبي في الأولين(موجها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم للتسلية والوعد بالنصر، عطف عليه خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم صريحا بقوله)ولئن سألتهم(الآية، لقصد التعجيب من حال الذين كذبوه فإنهم إنما كذبوه لأنه دعاهم إلى عبادة إله واحد ونبذ عبادة الأصنام، ورأوا ذلك عجبا مع أنهم يقرون لله تعالى بأنه خالق العوالم وما فيها. وهل يستحق العبادة غير خالق العابدين، ولأن الأصنام من جملة ما خلق الله في الأرض من حجارة، فلو سألهم الرسول صلى الله عليه وسلم في محاجته إياهم عن خالق الخلق لما استطاعوا غير الإقرار بأنه الله تعالى.

فجملة)ولئن سألتهم(معطوفة على جملة)وكم أرسلنا من نبي في الأولين(عطف الغرض، وهو انتقال إلى الاحتجاج على بطلان الإشراك بإقرارهم الضمني: أن أصنامهم خالية عن صفة استحقاق أن تعبد.

وتأكيد الكلام باللام الموطئة للقسم ولام الجواب ونون التوكيد لتحقيق أنهم يجيبون بذلك تنزيلا لغير المتردد في الخبر منزلة المتردد، وهذا التنزيل كناية عن جدارة حالتهم بالتعجيب من اختلال تفكيرهم وتناقض عقائدهم وإنما فرض الكشف عن عقيدتهم في صورة سؤالهم عن خالقهم للإشارة إلى أنهم غافلون عن ذلك في مجرى أحوالهم وأعمالهم ودعائهم حتى إذا سألهم السائل عن خالقهم لم يتريثوا أن يجيبوا بأنه الله ثم يرجعون إلى شركهم.

وتاء الخطاب في)سألتهم(للنبي صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر سياق التسلية، أو يكون الخطاب لغير معين ليعم كل مخاطب يتصور منه أن يسألهم.

و)العزيز العليم(هو الله تعالى. وليس ذكر الصفتين العليتين من مقول جوابهم وإنما حكي قولهم بالمعنى، أي ليقولن خلقهن الذي الصفتان من صفاته، وإنما هم يقولون: خلقهن الله، كما حكي عنهم في سورة لقمان.)ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله(. وذلك هو المستقرئ من كلامهم نثرا وشعرا في الجاهلية.

وإنما عدل عن الاسم العلي إلى الصفتين زيادة في إفحاهم بأن الذي انصرفوا عن توحيده بالعبادة عزيز عليم، فهو الذي يجب أن

يرجوه الناس للشدائد لعزته، وأن يخلصوا له باطنهم لأنه لا يخفى عليه سرهم، بخلاف شركائهم فإنها أذلة لا تعلم، وإنهم لا ينازعون وصفه ب)العزيز والعليم(.

وتخصيص هاتين الصفتين بالذكر من بين بقية الصفات الإلهية لأنها مضادة لصفات الأصنام فإن الأصنام عاجزة عن دفع الأيدي.

والتقدير: ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله، وإن سألتهم: أهو العزيز العليم.

)الذي جعل لكم الأرض مهادا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون[10](هذا كلام موجه من الله تعالى، هو تخلص من الاستدلال على تفرده بالإلهية بأنه المنفرد بخلق السماوات والأرض إلى الاستدلال بأنه المنفرد بإسداء النعم التي بها قوام أود حياة الناس. فالجملة استئناف حذف منها المبتدأ، والتقدير: هو الذي جعل لكم الأرض مهادا. وهذا الاستئناف معترض بين جملة)ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض(الآية وجملة)وجعلوا له من عباده جزءا(الآية.

واسم الموصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو الذي جعل لكم وهو من حذف المسند إليه الوارد على متابعة الاستعمال في تسمية السكاكي حيث تقدم الحديث عن الله تعالى فيما قبل هذه الجملة. واجتلاب الموصول للاشتهار بمضمون الصلة فساوى الاسم العلم في الدلالة.

وذكرت صلتان فيهما دلالة عللا الانفراد بالقدرة العظيمة. وعلى النعمة عليهم، ولذلك أقحم لفظ)لكم(في الموضعين ولم يقل: الذي جعل الأرض مهادا وجعل فيها سبلا كما في قوله)ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا(لأن ذلك مقام الاستدلال على منكري البعث، فسيق لهم الاستدلال بإنشاء المخلوقات العظيمة التي لا تعد إعادة خلق الإنسان بالنسبة إليها شيئا عجيبا.

ولم يكرر اسم الموصول في قوله)وجعل لكم فيها سبلا(لأن الصلتين تجتمعان في الجامع الخيالي إذ كلتاهما من أحوال الأرض فجعلهما كجعل واحد. وضمائر الخطاب الأحد عشر الواقعة في الآيات الأربع من قوله)الذي جعل لكم الأرض مهادا(إلى قوله) مقرنين(ليست من قبيل الالتفات بل هي جارية على مقتضى الظاهر.

والمهاد: اسم لشيء يمهد، أي يوطأ ويسهل لما يحل فيه، وتقدم في قوله)لهم من جهنم مهاد(في سورة الأعراف. ووجه الامتنان

أنه جعل ظاهر الأرض منبسطا وذلك الانبساط لنفع البشر الساكنين عليها. وهذا لا ينافي أن جسم الأرض كروي كما هو ظاهر لأن كرويتها ليست منفعة للناس.

وقرأ عاصم)مهدا(بدون ألف بعد الهاء وهو مراد به المهاد.

والسبل: جمع سبيل، وهو الطريق، ويطلق السبيل على وسيلة الشيء كقوله)يقولون هل إلى مرد من سبيل(. ويصح إرادة المعنيين هنا لأن في الأرض طرقا يمكن سلوكها، وهي السهول وسفوح الجبال وشعابها، أي لم يجعل الأرض كلها جبالا فيعسر على الماشين سلوكها، بل جعل فيها سبلا سهلة وجعل جبالا لحكمة أخرى ولأن الأرض صالحة لاتخاذ طرق مطروقة سابلة.

ومعنى جعل الله تلك الطرق بهذا المعنى: أنه جعل للناس معرفة السير في الأرض واتباع بعضهم آثار بعض حتى تتعبد الطرق لهم وتتسهل ويعلم السائر، أي تلك السبل يوصله إلى مقصده.

وفي تيسير وسائل السير في الأرض لطف عظيم لأن به تيسير التجمع والتعارف واجتلاب المنافع والاستعانة على دفع الغوائل والأضرار والسير في الأرض قريبا أو بعيدا من أكبر مظاهر المدنية الإنسانية، ولأن الله جعل في الأرض معايش الناس من النبات والثمر وورق الشجر والكمأة والفقع وهي وسائل العيش فهي سبل مجازية. وتقدم نظير هذه الآية في سورة طه.

والاهتداء: مطاوع هداه فاهتدى. والهداية حقيقتها: الدلالة على المكان المقصود، ومنه سمي الدال على الطرائق هاديا، وتطلق على تعريف الحقائق المطلوبة ومنه)إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور(. والمقصود هنا المعنى الثاني، أي رجاء حصول علمكم بوحدانية الله وبما يجب له، وتقدم في)اهدنا الصراط المستقيم(.

ومعنى الرجاء المستفاد من)لعل(استعارة تمثيلية تبعية، مثل حال من كانت وسائل الشيء حاضرة لديه بحال من يرجى لحصول المتوسل إليه.

)والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون[11](انتقل من الاستدلال والامتنان بخلق الأرض إلى الاستدلال والامتنان بخلق وسائل العيش فيها، وهو ماء المطر الذي به تنبت الأرض ما يصلح لاقتيات الناس.

وأعيد اسم الموصول للاهتمام بهذه الصلة اهتماما يجعلها مستقلة فلا يخطر حضورها بالبال عند حظور الصلتين اللتين قبلها فلا جامع بينها وبينهما في الجامع الخيالي. وتقدم الكلام على نظيره في سورة الرعد وغيرها فاعيد اسم الموصول لأن مصداقه هو فاعل جميعها.

والإنشاء: الإحياء كما في قوله)ثم إذا شاء أنشره(.

وعن ابن عباس أنه أنكر على من قرأ)كيف ننشرها(بفتح النون وضم الشين وتلا)ثم إذا شاء أنشره(فأصل الهمزة فيه للتعدية وفعله المجرد نشر بمعنى حيي، يقال: نشر الميت، برفع الميت قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجبا

للميت النـاشـر وأصل النشر بسط ما كان مطويا وتفرعت من ذلك معاني الإعادة والانتشار.

والنشر هنا مجاز لأن الإحياء للأرض مجاز، وزاده حسنا هنا أن يكون مقدمة لقوله)كذلك تخرجون(.

وضمير)فأنشرنا(التفات من الغيبة إلى التكلم. والميت ضد الحي.

ووصف البلدة به مجاز شائع قال تعالى)وآية لهم الأرض الميتة أحييناها(.

وإنما وصفت البلدة وهي مؤنث بالميت وهو مذكر لكونه على زنة الوصف الذي أصله مصدر نحو: عدل وزور فحسن تجريده من علامة التأنيث على أن الموصوف مجازي التأنيث.

وجملة)كذلك تخرجون(معترضة بين المتعاطفين وهو استطراد بالاستدلال على ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من إثبات البعث، بمناسبة الاستدلال على تفرد الله بالإلهية بدلائل في بعضها دلالة على إمكان البعث وإبطال إحالتهم إياه.

صفحة : 3905

والإشارة بذلك إلى الانتشار المأخوذ من)فأنشرنا(، أي مثل ذلك الانتشار تخرجون من الأرض بعد فنائكم، ووجه الشبه هو إحداث الحي بعد موته.

والمقصود من التشبيه إظهار إمكان المشبه كقول أبي الطيب:

فإن تفق الأنام وأنت منـهـم فإن

المسك بعض دم الغزال وقرأ الجمهور)تخرجون(بالبناء للنائب. وقرأه حمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر)تخرجون(بالبناء للفاعل والمعنى واحد.

)والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون[12] لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين[13] وإنا إلى ربنا لمنقلبون[14](هذا الانتقال من الاستدلال والامتنان بخلق وسائل الحياة إلى الاستدلال بخلق وسائل الاكتساب لصلاح المعاش، وذكر منها وسائل الإنتاج وأتبعها بوسائل الاكتساب بالأسفار للتجارة.

وإعادة اسم الموصول لما تقدم في نظيره آنفا.
والأزواج: جمع زوج، وهو كل ما يصير به الواحد ثانيا، فيطلق على كل منهما أنه زوج للآخر مثل الشفع. وغلب الزوج على الذكر وأنثاه من الحيوان، ومنه)ثمانية أزواج(في سورة الأنعام، وتوسع فيه فأطلق الزوج على الصنف ومنه قوله)ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين(. وكلا الإطلاقين يصح أن يراد هنا، وفي أزواج الأنعام منافع بألبانها وأصوافها وأشعارها ولحومها ونتاجها.
ولما كان المتبادر من الأزواج بادئ النظر أزواج الأنعام وكان من أهمها عندهم الرواحل عطف عليها ما هو منها وسائل للتنقل برا وأدمج معها وسائل السفر بحرا.
فقال)وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون(فالمراد ب)ما تركبون(بالنسبة إلى الأنعام هو الإبل لأنها وسيلة الأسفار قال تعالى)وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون(وقد قالوا: الإبل سفائن البر.
وجيء بفعل)جعل(مراعاة لأن الفلك مصنوعة وليست مخلوقة، والأنعام قد عرف أنها مخلوقة لشمول قوله)خلق الأزواج(إياها.
ومعنى جعل الله الفلك والأنعام مركوبة: أنه خلق في الإنسان قوة التفكير التي ينساق بها إلى استعمال الموجودات في نفعه فاحتال كيف يصنع الفلك ويركب فيها واحتال كيف يروض الأنعام ويركبها.
وقدم الفلك على الأنعام لأنها لم يشملها لفظ الأزواج فذكرها ذكر نعمة أخرى ولو ذكر الأنعام لكان ذكره عقب الأزواج بمنزلة الإعادة. فلما ذكر الفلك بعنوان كونها مركوبا عطف عليها الأنعام فصار ذكر الأنعام مترقبا للنفس لمناسبة جديدة، وهذا كقول امرئ القيس:
كأني لم أركب جوادا لـلـذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الراح الكميت ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجفـال إذ أعقب ذكر ركوب الجواد بذكر تبطن الكاعب للمناسبة، ولم يعقبه بقوله: ولم أقل لخيلي كري كرة، لاختلاف حال الركوبين ركوب اللذة وركوب الحرب.
والركوب حقيقته: اعتلاء الدابة للسير، وأطلق على الحصول في الفلك لتشبيههم الفلك بالدابة بجامع السير فركوب الدابة يتعدى بنفسه وركوب الفلك يتعدى ب)في(للفرق بين الأصيل والاحق، وتقدم عند قوله تعالى)وقال اركبوا فيها(في سورة هود.
)ومن الفلك والأنعام(بيان لإبهام)ما(الموصولة في قوله)ما تركبون(. وحذف عائد الصلة لأنه متصل منصوب، وحذف مثله كثير في الكلام. وإذ قد كان مفعول)تركبون(هنا مبينا بالفلك والأنعام كان حق الفعل أن يعدى إلى أحدهما بنفسه وإلى الآخر

ب)في(فغلبت التعدية المباشرة على التعدية بواسطة الحرف لظهور المراد، وحذف العائد بناء على ذلك التغليب.
واستعمال فعل)تركبون(هنا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه.
والاستواء: الاعتلاء. والظهور: جمع ظهر، والظهر من علائق الأنعام لا من علائق الفلك، فهذا أيضا من التغليب. والمعنى: على ظهوره وفي بطونه. فضمير)ظهوره(عائد إلى)ما(الموصولة الصادق بالفلك والأنعام كما هو قضية البيان.

صفحة : 3906

على أن السفائن العظيمة تكون لها ظهور، وهي أعاليها المجعولة كالسطوح لتقي الراكبين المطر وشدة الحر والقر. ولذلك فجمع الظهور من جمع المشترك والتعدية بحرف)على(بنيت على أن للسفينة ظهرا قال تعالى)فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك(.
وقد جعل قوله)لتستووا على ظهوره(توطئة وتمهيدا للإشارة إلى ذكر نعمة الله في قوله)ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه(أي حينئذ، فإن ذكر النعمة في حال التلبس بمنافعها أوقع في النفس وأدعى للشكر عليها. وأجدر بعدم الذهول عنها، أي جعل لكم ذلك نعمة لتشعروا بها فتشكروه عليها، فالذكر هنا هو التذكر بالفكر لا الذكر باللسان.
وهذا تعريض بالمشركين إذ تقلبوا في نعم الله وشكروا غيره إذ اتخذوا له شركاء في الإلهية وهم لم يشاركوه في الأنعام.
وذكر النعمة كناية عن شكرها لأن شكر المنعم لازم للإنعام عرفا فلا يصرف عنه إلا نسيانه فإذا ذكره شكر النعمة.
وعطف على)تذكروا نعمة ربكم(قوله)وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا(، أي لتشكروا الله في نفوسكم وتعلنوا بالشكر بألسنتكم، فلقنهم صيغة شكر عناية به كما لقنهم صيغة الحمد في سورة الفاتحة وصيغة الدعاء في آخر سورة البقرة.
وافتتح هذا الشكر اللساني بالتسبيح لأنه جامع للثناء إذ التسبيح تنزيه الله عما لا يليق، فهو يدل على التنزيه عن النقائص بالصريح ويدل ضمنا على إثبات الكمالات لله في المقام الخطابي.
واستحضار الجلالة بطريق الموصولية لما يؤذن به الموصول من علة التسبيح حتى يصير الحمد الذي أفاده التسبيح شكرا لتعليله بأنه في مقابلة التسخير لنا.

واسم الإشارة موجه إلى المركوب حينما يقول الراكب هذه المقالة من دابة أو سفينة.
والتسخير: التذييل والتطويع. وتسخير الله الدواب هو خلقه إياها قابلة للترويض فاهمة لمراد الراكب، وتسخير الفلك حاصل بمجموع خلق البحر صالحا لسبح السفن على مائه، وخلق الرياح تهب فتدفع السفن على الماء، وخلق حيلة الإنسان لصنع الفلك، ورصد مهاب الرياح، ووضع القلوع والمجاذيف، ولولا ذلك لكانت قوة الإنسان دون أن تبلغ استخدام هذه الأشياء القوية.
ولهذا عقب بقوله)وما كنا له مقرنين(أي مطيعين، أي بمجرد القوة الجسدية، أي لولا التسخير المذكور، فجملة)وما كنا له مقرنين(في موضع الحال من ضمير)لنا(أي سخرها لنا في حال ضعفنا بأن كان تسخيره قائما مقام القوة.
والمقرن المطيق، يقال: أقرن، إذا أطاق، قال عمرو بن معد يكرب:
لقد علم القبائل ما عقيل لنا في النائبات بمقرنينا وختم هذا الشكر والثناء بالاعتراف بأن مرجعنا إلى الله، أي بعد الموت بالبعث للحساب والجزاء، وهذا إدماج لتلقينهم الإقرار بالبعث. وفيه تعريض بسؤال إرجاع المسافر إلى أهله فإن الذي يقدر على إرجاع الأموات إلى الحياة بعد الموت يرجى لإرجاع المسافر سالما إلى أهله.
والانقلاب: الرجوع إلى المكان الذي يفارقه.
والجملة معطوفة على جملة التنزيه عطف الخبر على الإنشاء. وفي هذا تعريض بتوبيخ المشركين على كفران نعمة الله بالإشراك وبنسبة العجز عن الإحياء بعد الموت. لأن المعنى: وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتشكروا بالقلب واللسان فلم تفعلوا، ولملاحظة هذا المعنى أكد الخبر.
وفيه تعريض بالمؤمنين بأن يقولوا هذه المقالة كما شكروا لله ما سخر لهم من الفلك والأنعام.
وفيه إشارة إلى أن حق المؤمن أن يكون في أحواله كلها ملاحظا للحقائق العالية ناظرا لتقلبات الحياة نظر الحكماء الذين يستدلون ببسائط الأمور على عظيمها.
)وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين[15](هذا متصل بقوله)ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض(أي ولئن سألتهم عن خالق الأشياء ليعترفن به وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف جزءا.

فالواو للعطف على جملة)ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض(. ويجوز كونها للحال على معنى: وقد جعلوا له من عباده جزءا، ومعنى الحال تفيد تعجيبا منهم في تناقض آرائهم وأقوالهم وقلبهم الحقائق، وهي غبارة في الرأي تعرض للمقلدين في العقائد الضالة لأنهم يلفقون عقائدهم من مختلف آراء الدعاة فيجتمع للمقلد من آراء المختلفين في النظر ما لو اطلع كل واحد من المقتدين بهم على رأي غيره منهم لأبطله أو رجع عن الرأي المضاد له.

فالمشركون مقرون بأن الله خالق الأشياء كلها ومع ذلك جعلوا له شركاء في الإلهية، وكيف يستقيم أن يكون المخلوق إلها، وجعلوا لله بنات، والبنوة تقتضي المماثلة في الماهية، وكيف يستقيم أن يكون لخالق الأشياء كلها بنات فهن لا محالة مخلوقات له فإن لم يكن مخلوقات لزم أن يكن موجودات بوجوده فكيف تكن بناته. وإلى هذا التناقض الإشارة بقوله)من عباده(أي من مخلوقاته، أو ليست العبودية الحقة إلا عبودية المخلوق جزءا، أي قطعة.

والجزء: بعض من كل، والقطعة منه. والولد كجزء من الوالد لأنه منفصل منه، ولذلك يقال للولد: بضعة. فهم جمعوا بين اعتقاد حدوث الملائكة وهو مقتضى أنها عباد الله وبين اعتقاد إلهيتها وهو مقتضى أنها بنات الله لأن البنوة تقتضي المشاركة في الماهية.

ولما كانت عقيدة المشركين معروفة لهم ومعروفة للمسلمين كان المراد من الجزء: البنات، لقول المشركين: ان الملائكة بنات الله من سروات الجن، أي أمهاتهم سروات الجن، أي شريفات الجن فسروات جمع سرية.

وحكى القرطبي أن المبرد قال: الجزء هاهنا البنات، يقال: أجزأت المرأة، إذا ولدت أنثى.

وفي اللسان عن الزجاج: أنه قال: أنشدت بيتا في أن معنى جزء معنى الإناث ولا أدري البيت أقديم أم مصنوع، وهو:

إن أجزأت حرة يوما فلا عجب قد

تجزيء الحرة المذكار أحيانا وفي تاج العروس: أن هذا البيت أنشده ثعلب، وفي اللسان أنشد أبو حنيفة:

زوجتها من بنات الأوس مجزئة

للعوسج الرطب في أبياتها زجل ونسبة الماوردي في تفسيره إلى أهل اللغة. وجزم صاحب الكشاف بأن هذا المعنى كذب على العرب وأن البيتين مصنوعان.

والجعل هنا معناه: الحكم على الشيء بوصف حكما لا مستند له فكأنه صنع باليد والصنع باليد يطلق عليه الجعل.

وجملة)إن الإنسان لكفور مبين(تذييل يدل على استنكار ما زعموه بأنه كفر شديد. والمراد ب)الإنسان(هؤلاء الناس خاصة.
والمبين: الموضح كفره في أقواله الصريحة في كفر نعمة الله.
)أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين[16] وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم[17]( )أم(للإضراب وهو هنا انتقالي لانتقال الكلام من إبطال معتقدهم بنوة الملائكة لله تعالى بما لزمه من انتقاض حقيقة الإلهية، إلى إبطاله بما يقتضيه من انتقاص ينافي الكمال الذي تقتضيه الإلهية. والكلام بعد)أم(استفهام، وهو استفهام إنكاري كما اقتضاه قوله)وأصفاكم بالبنين(. ومحل الاستدلال أن الإناث مكروهة عندهم فكيف يجعلون لله أبناء إناثا وهلا جعلوها ذكورا. وليست لهم معذرة عن الفساد المنجر إلى معتقدهم بالطريقتين لأن الإبطال الأول نظري يقيني. والإبطال الثاني جدلي بديهي قال تعالى)ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى(. فهذه حجة ناهضة عليهم لاشتهارها بينهم.
ولما ادعت سجاح بنت الحارث النبوءة في بني تميم أيام الردة وكان قد ادعى النبوءة قبلها مسيلمة الحنفي، والأسود العنسي، وطليحة بن خويلد الأسدي، قال عطارد بن حاجب التميمي.

أضحت نبيئتنا أنثى نطيف بها
وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

صفحة : 3908

وأوثر فعل)اتخذ(هنا لأنه يشمل الاتخاذ بالولادة، أي بتكوين الانفصال عن ذات الله تعالى بالمزاوجة مع سروات الجن، ويشمل ما هو دون ذلك وهو التبني فعلى كلا الفرضين يتوجه إنكار أن يكون ما هو لله أدون مما هو لهم كما قال تعالى)ويجعلون لله ما يكرهون(. وقد أشار إلى هذا قوله)وأصفاكم بالبنين(، فهذا ارتقاء في إبطال معتقدهم بإبطال فرض أن يكون الله تبنى الملائكة، سدا على المشركين باب التأول والتنصل من فساد نسبتهم البنات إلى الله، فلعلهم يقولون: ما أردنا إلا التبني، كما تنصلوا حين دمغتهم براهين بطلان إلهية الأصنام فقالوا)ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى(، وقالوا)هؤلاء شفعاؤنا عند الله(.
واعلم أن ما تؤذن به)أم(حيثما وقعت من تقدير استفهام بعدها هو هنا استفهام في معنى الإنكار وتسلط الإنكار على اتخاذ البنات مع عدم تقدم ذكر البنات لكون المعلوم من جعل المشركين لله

جزءا أن المجعول جزءا له هو الملائكة وأنهم يجعلون الملائكة إناثا، فذلك معلوم من كلامهم.

وجملة)وأصفاكم بالبنين(في موضع الحال.

والنفي الحاصل من الاستفهام الإنكاري منصب إلى قيد الحال، فحصل إبطال اتخاذ الله البنات بدليلين، لأن إعطاءهم البنين واقع فنفي اقترانه باتخاذه لنفسه البنات يقتضي انتفاء اتخاذه البنات فالمقصود اقتران الإنكار بهذا القيد.

وبهذا يتضح أن الواو في جملة)وأصفاكم(ليست واو العطف لأن إنكار أن يكون أصفاهم بالبنين لا يقتضي نفي الأولاد الذكور عن الله تعالى.

والخطاب في)وأصفاكم(موجه إلى الذين جعلوا له من عباده جزءا، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ليكون الإنكار والتوبيخ أوقع عليهم لمواجهتهم به.

وتنكير)بنات(لأن التنكير هو الأصل في أسماء الأجناس. وأما تعريف)البنين(باللام فهو تعريف الجنس المتقدم في قوله)الحمد لله(في سورة الفاتحة. والمقصود منه هنا الإشارة إلى المعروف عندهم المتنافس في وجوده لديهم وتقدم عند قوله)يهب لمن يشاء أناثا ويهب لمن يشاء الذكور(في سورة الشورى.

وتقديم)البنات(في الذكر على)البنين(لأن ذكرهن أهم هنا إذ هو الغرض المسوق له الكلام بخلاف مقام قوله)أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا(في سورة الإسراء. ولما في التقديم من الرد على المشركين في تحقيرهم البنات وتطيرهم منهن مثل ما تقدم في سورة الشورى.

والإصفاء: إعطاء الصفوة، وهي الخيار من شيء.

وجملة)وإذا بشر أحدهم(يجوز ان تكون في موضع الحال من ضمير النصب في)أفأصفاكم ربكم بالبنين(، ومقتضى الظاهر أن يؤتى بضمير الخطاب في قوله)أحدهم(فعدل عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة على طريق الالتفات ليكونوا محكيا حالهم إلى غيرهم تعجيبا من فساد مقالتهم وتشنيعا بها إذ نسبوا لله بنات دون الذكور وهو نقص، وكانوا ممن يكره البنات ويحقرهن فنسبتها إلى الله مفض إلى الاستخفاف بجانب الإلهية.

والمعنى: أأتخذ مما يخلق بنات الله وأصفاكم بالبنين في حال أنكم إذا بشر أحدكم بما ضربه للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا.

ويجوز أن تكون اعتراضا بين جملة)أم اتخذ مما يخلق بنات(وجملة)أو من ينشأ في الحلية(.

واستعمال البشارة هنا تهكم بهم كقوله)فبشرهم بعذاب أليم(لأن البشارة إعلام بحصول أمر مسر.

و)ما(في قوله)بما ضرب للرحمن مثلا(موصولة، أي بشر بالجنس الذي ضربه، أي جعله مثلا وشبها لله في الإلهية، وإذ جعلوا جنس الأنثى جزءا لله، أي منفصلا منه فالمبشر به جنس الأنثى، والجنس لا يتعين. فلا حاجة إلى تقدير بشر بمثل ما ضربه للرحمن مثلا.
والمثل: الشبيه.
والضرب: الجعل والصنع، ومنه ضرب الدينار، وقولهم: ضربة لازب، فما صدق)ما ضرب للرحمن مثلا(هو الإناث.
ومعنى)ظل(هنا: صار، فإن الأفعال الناقصة الخمسة المفتتح بها باب الأفعال الناقصة، تستعمل بمعنى صار.
واسوداد الوجه من شدة الغضب والغيظ إذ يصعد الدم إلى الوجه فتصير حمرته إلى سواد، والمعنى: تغيظ.
والكظيم: الممسك، أي عن الكلام كربا وحزنا.
)أو من ينشؤا في الحلية وهو في الخصام غير مبين[18](

صفحة : 3909

عطف إنكار على إنكار، والواو عاطفة الجملة على الجملة وهي مؤخرة عن همزة الاستفهام لأن الاستفهام الصدر وأصل الترتيب: وأمن ينشأ. وجملة الاستفهام معطوفة على الإنكار المقدر بعد) أم(في قوله)أم اتخذ مما يخلق بنات(، ولذلك يكون)من ينشأ في الحلية(في محل نصب بفعل محذوف دل عليه فعل)اتخذ(في قوله)أم اتخذ مما يخلق بنات(. والتقدير: أاتخذ من ينشأ في الحلية إلخ. ولك أن تجعل)من ينشأ في الحلية(بدلا من قوله)بنات(بدلا مطابقا وأبرز العامل في البدل لتأكيد معنى الإنكار لا سيما وهو قد حذف من المبدل منه.
وإذ كان الإنكار إنما يتسلط على حكم الخبر كان موجب الإنكار الثاني مغايرا لموجب الإنكار الأول وإن كان الموصوف بما لوصفين اللذين تعلق بهما الإنكار موصوفا واحدا وهو الأنثى.
ونشء الشيء في حالة أن يكون ابتداء وجوده مقارنا لتلك الحالة فتكون للشيء بمنزلة الظرف. ولذلك اجتلب حرف)في(الدالة على الظرفية وإنما هي مستعارة لمعنى المصاحبة والملابسة فمعنى)من ينشأ في الحلية(من تجعل له الحلية من أول أوقات كونه ولا تفارقه، فإن البنت تتخذ لها الحلية من أول عمرها وتستصحب في سائر أطوارها، وحسبك أنها شقت طرفا أذنيها لتجعل لها فيهما الأقراط بخلاف الصبي فلا يحلى بمثل ذلك وما يستدام له.
والنشء في الحلية كناية عن الضعف عن مزاولة الصعاب بحسب الملازمة العرفية فيه. والمعنى: أن لا فائدة في اتخاذ الله بنات لا

غناء لهن فلا يحصل له باتخاذها زيادة عزة، بناء على متعارفهم، فهذا احتجاج إقناعي خطابي.

والخصام ظاهرة: المجادلة والمنازعة بالكلام والمحاجة، فيكون المعنى: أن المرأة لا تبلغ المقدرة على إبانة حجتها. وعن قتادة: ما تكلمت امرأة ولها حجة إلا جعلتها على نفسها، وعنه:)من ينشأ في الحلية(هن الجواري يسفههن بذلك، وعلى هذا التفسير درج جميع المفسرين.

والمعنى عليه: أنهن غير قوادر على الانتصار بالقول فبلأولى لا يقدرن على ما هو أشد من ذلك في الحرب، أي فلا جدوى لاتخاذهن أولادا.

ويجوز عندي: أن يحمل الخصام على التقاتل والدفاع باليد فإن الخصم يطلق على المحارب، قال تعالى)هذان خصمان اختصموا في ربهم(فسر بأنهم نفر من المسلمين مع نفر من المشركين تقاتلوا يوم بدر.

فمعنى)غير مبين(غير محقق النصر. قال بعض العرب وقد بشر بولادة بنت)والله ما هي بنعم الوالد بزها بكاء ونصرها سرقة(.

والمقصود من هذا فضح معتقدهم الباطل وأنهم لا يحسنون إعمال الفكر في معتقداتهم وإلا لكانوا حين جعلوا لله بنوة أن لا يجعلوا له بنوة الإناث وهم يعدون الإناث مكروهات مستضعفات.

وتذكير ضمير وهو في الخصام مراعاة للفظ)من(الموصولة.

والحلية: اسم لما يتحلى به، أي يتزين به، قال تعالى)وتستخرجون منه حلية تلبسونها(.

وقرأ الجمهور)ينشأ(بفتح الياء وسكون النون. وقرأه حفص وحمزة والكسائي)ينشأ(بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين ومعناه: يعوده على النشأة في الحلية ويربى.

)وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمان إناثا أأشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون[19](عطف على)وجعلوا له من عباده جزءا(، أعيد ذلك مع تقدم ما يغني عنه من قوله)أم اتخذ مما يخلق بنات(ليبنى عليه الإنكار عليهم بقوله)أأشهدوا خلقهم(استقراء لإبطال مقالهم إذ أبطل ابتداء بمخالفته لدليل العقل وبمخالفته لما يجب لله من الكمال، فكمل هنا إبطاله بأنه غير مستند لدليل الحس.

وجملة)الذين هم عند الرحمان(صفة الملائكة.

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب)عند(بعين فنون ودال مفتوحة والعندية عندية تشريف، أي الذين هم معدودون في حضرة القدس المقدسة بتقديس الله فهم يتلقون الأمر من الله بدون وساطة وهم دائبون على عبادته، فكأنهم في حضرة الله، وهذا

كقوله)وله ما في السماوات والأرض ومن عنده(وقوله)إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته(ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم تحاج آدم وموسى عند الله عز وجل الحديث، فالعندية مجاز والقرينة هي شأن من أضيفت إليه)عند(.

صفحة : 3910

وقرأ الباقون)عباد الرحمان(بعين وموحدة بعدها ألف ثم دال مضمومة على معنى: الذين هم عباد مكرمون، فالإضافة إلى اسم الرحمان تفيد تشريفهم قال تعالى)بل عباد مكرمون(والعبودية عبودية خاصة وهي عبودية القرب كقوله تعالى)فكذبوا عبدنا(.
وجملة)أاشهدوا خلقهم(معترضة بين جملة)وجعلوا الملائكة(وجملة)وقالوا لو شاء الرحمان ما عبدناهم(.
وقرأ نافع وأبو جعفر بهمزتين أولاهما مفتوحة والأخرى مضمومة وسكون شين)اشهدوا(مبنيا للنائب وكيفية أداء الهمزتين يجري على حكم الهمزتين في قراءة نافع، وعلى هذه القراءة فالهمزة للاستفهام وهو للإنكار والتوبيخ. وجيء بصيغة النائب عن الفاعل دون صيغة الفاعل لأن الفاعل معلوم أنه الله تعالى لأن العالم العلوي الذي كان فيه خلق الملائكة لا يحضره إلا من أمر الله بحضوره، ألا ترى إلى ما ورد في حديث الإسراء من قول كل ملك موكل بباب من أبواب السماوات لجبريل حين يستفتح من أنت؟ قال: جبريل، قال: ومن معك؟ قال: محمد قال: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبا ونعم المجيء جاء وفتح له .
والمعنى: أأشهدهم الله خلق الملائكة وكقوله تعالى)ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض(.
وقرأه الباقون بهمزة مفتوحة فشين مفتوحة بصيغة الفعل، فالهمزة لاستفهام الإنكار دخلت على فعل)شهد(، أي ما حضروا خلق الملائكة على نحو قوله تعالى)أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون(.
وجملة)ستكتب شهادتهم(بدل اشتمال من جملة)أأشهدوا خلقهم(لأن ذلك الإنكار يشتمل على الوعيد. وهذا خبر مستعمل في التوعد. وكتابة الشهادة كناية عن تحقق العذاب على كذبهم كما تقدم آنفا في قوله)وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم(ومنه قوله تعالى) سنكتب ما قالوا(. والسين في)سنكتب(لتأكيد الوعيد.
والمراد بشهادتهم: ادعاؤهم أن الملائكة إناثا، وأطلق عليها شهادة تهكما بهم.

والسؤال سؤال تهديد وإنذار بالعقاب وليس مما يتطلب عنه جواب كقوله تعالى)ثم لتسألن يومئذ عن النعيم(، ومنه قول كعب بن زهير:

لذاك أهيب عندي إذ أكلمـه وقيل

إنك منسوب ومسؤول أي مسؤول عما سبق منك من التكذيب الذي هو معلوم للسائل.

)وقالوا لو شاء الرحمان ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون[20](عطف على جملة)ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم(، فإنها استدلال على وحدانية الله تعالى وعلى أن معبوداتهم غير أهل لأن تعبد. فحكي هنا ما استظهروه من معاذيرهم عند نهوض الحجة عليهم يرومون بها إفحام النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين فيقولون: لو شاء الله ما عبدنا الأصنام، أي لو أن الله لا يحب أن نعبدها لكان الله صرفنا عن أن نعبدها، وتوهموا أن هذا قاطع لجدال النبي صلى الله عليه وسلم لهم لأنهم سمعوا من دينه أن الله هو المتصرف في الحوادث فتأولوه على غير المراد منه. فضمير الغيبة في)ما عبدناهم(عائد إلى معلوم من المقام ومن ذكر فعل العبادة لأنهم كانوا يعبدون الأصنام وهم الغالب، وأقوام منهم يعبدون الجن قال تعالى)بل كانوا يعبدون الجن(.

قال ابن مسعود كان نفر من العرب يعبدون الجن، وأقوام يعبدون الملائكة مثل بني مليح بضم الميم وفتح اللام وبحاء مهملة وهم حي من خزاعة. فضمير جمع المذكر تغليب وليس عائدا إلى الملائكة لأنهم كانوا يزعمون الملائكة إناثا فلو أرادوا الملائكة لقالوا ما عبدناها أو ما عبدناهن.

وهذا هو الوجه في معنى الآية. ومثله مروي عن مجاهد وابن جريج واقتصر عليه الطبري وابن عطية، ومن المفسرين من جعل معاد الضمير)الملائكة(ولعلهم حملهم على ذلك وقوع هذا الكلام عقب حكاية قولهم في الملائكة: إنهم إناث وليس اقتران كلام بكلام بموجب اتحاد محمليهما.وعلى هذا التفسير درج صاحب الكشاف وهو بعيد عن اللفظ لتذكير الضمير كما علمت، ومن الواقع لأن العرب لم يعبد منهم الملائكة إلا طوائف قليلة عبدوا الجن والملائكة مع الأصنام وليست هي الديانة العامة للعرب. وهذه المقالة مثارها تخليط العامة والدهماء من عهد الجاهلية بين المشيئة والإرادة. وبين الرضى والمحبة، فالعرب كانوا يقولون: شاء الله وإن شاء الله، وقال طرفة:

فلو شاء ربي كنت قيس بن عاصم
ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد فبنوا على ذلك تخليطا بين مشيئة الله بمعنى تعلق إرادته بوقوع شيء،وبين مشيئته التي قدرها في نظام العالم من إناطة المسببات بأسبابها، واتصال الآثار بمؤثراتها، التي رتبها الله بقدر حين كون العالم ونظمه وأقام له سننا ونواميس لا تخرج عن مدارها إلا إذا أراد الله قلب نظمها لحكمة أخرى.

فمشيئة الله بالمعنى الأول يدل عليها ما أقامه من نظام أحوال العالم وأهله. ومشيئته بالمعنى الثاني تدل عليها شرائعه المبعوثة بها رسله.

وهذا التخليط بين المشيئتين وهو مثار خبط أهل الضلالات من الأمم، ومثار حيرة أهل الجهالة والقصور من المسلمين في معنى القضاء والقدر ومعنى التكليف والخطاب. وقد بينا ذلك عند قوله تعالى)سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا(في سورة الأنعام.

وهذا القول الصادر منهم ينتظر منه قياس استثنائي أن يقال: لو شاء الله ما عبدنا الأصنام، بدليل أن الله هو المتصرف في شؤوننا وشؤون الخلائق لكنا عبدنا الأصنام بدليل المشاهدة فقد شاء الله أن نعبد الأصنام.

وقد أجيبوا عن قولهم بقوله تعالى)ما لهم بذلك من علم(أي ليس لهم مستند ولا حجة على قياسهم لأن مقدم القياس الاستثنائي وهو)لو شاء الرحمان ما عبدناهم(مبني على التباس المشيئة التكوينية بالمشيئة التكليفية فكان قياسهم خليا عن العلم وهو اليقين، فلذلك قال الله)ما لهم بذلك(أي بقولهم ذلك)من علم(بل هو من جهالة السفسطة واللبس.

والإشارة إلى الكلام المحكي بقوله)وقالوا لو شاء الرحمان(.

وجملة)إن هم إلا يخرصون(بيان لجملة)ما لهم بذلك من علم(.

والخرص: التوهم والظن الذي لا حجة فيه قال تعالى)قتل الخراصون( )أم إتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون[21] (إضراب انتقالي، عطف على جملة)ما لهم بذلك من علم(فبعد أن نفى أن يكون قولهم)لو شاء الرحمان ما عبدناهم(مستندا إلى حجة العقل، انتقل إلى نفي أن يكون مستندا إلى حجة النقل عن إخبار العالم بحقائق الأشياء التي هي من شؤونه.

واجتلب للإضراب حرف)أم(دون)بل(لما تؤذن به)أم(من استفهام بعدها، وهو إنكاري. والمعنى: وما آتيناهم كتابا من قبله. وضمير)من قبله(عائد إلى القرآن المذكور في أول السورة. وفي قوله)وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم(. وفي هذا ثناء ثالث على القرآن ضمني لاقتضائه أن القرآن لا يأتي إلا بالحق الذي يستمسك به.

وهذا تمهيد للتخلص إلى قوله تعالى)بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة(.

و)من(مزيدة لتوكيد معنى)قبل(. والضمير المضاف إليه)قبل(ضمير القرآن ولم يتقدم له معاد في اللفظ ولكنه ظاهر من دلالة قوله) كتابا(.

و)مستمسكون(مبالغة في)ممسكون(يقال: أمسك بالشيء، إذا شد عليه يده، وهو مستعمل مجازا في معنى الثبات على الشيء كقوله تعالى)فأستمسك بالذي أوحي إليك(.

)بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون[22] (هذا إضراب إبطال عن الكلام السابق من قوله تعالى)فهم به مستمسكون(فهو إبطال للمنفي لا للنفي، أي ليس لهم علم فيما قالوه ولا نقل. فكان هذا الكلام مسوقا مساق الذم لهم إذ لم يقارنوا بين ما جاءهم به الرسول وبين ما تلقوه من آبائهم فإن شأن العاقل أن يميز ما يلقى إليه من الاختلاف ويعرضه على معيار الحق.

والأمة هنا بمعنى الملة والدين، كما في قوله تعالى في سورة الأنبياء)إن هذه أمتكم أمة واحدة(، وقول النابغة:

وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع أي ذو دين.

و)على(استعارة تبعية للملابسة والتمكن.

وقوله)على آثارهم(خبر)إن(. و)مهتدون(خبر ثان. ويجوز أن يكون)على آثارهم(متعلقا ب)مهتدون(بتضمين)مهتدون(معنى سائرون ، أي أنهم لا حجة لهم في عبادتهم الأصنام إلا تقليد آبائهم، وذلك ما يقولونه عند المحاجة إذ لا حجة لهم غير ذلك.

وجعلوا اتباعهم إياهم اهتداء لشدة غرورهم بأحوال آبائهم بحيث لا يتأملون في مصادفة أحوالهم للحق.

)وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون[23](جملة

معترضة لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم على تمسك المشركين بدين آبائهم والإشارة إلى المذكور من قولهم)إنا وجدنا إباءنا على أمة(، أي ومثل قولهم ذلك، قال المترفون من أهل القرى المرسل إليهم الرسل من قبلك.

والواو للعطف أو للاعتراض)وما الواو الاعتراضية في الحقيقة إلا تعطف الجملة المعترضة على الجملة التي قبلها عطفا لفظيا(.

والمقصود أن هذه شنشنة أهل الضلال من السابقين واللاحقين، قد استووا فيه كما استووا في مثاره وهو النظر القاصر المخطئ، كما قال تعالى)أتواصوا به بل هم قوم طاغون(، أي بل هم اشتركوا في سببه الباعث عليه وهو الطغيان.

ويتضمن هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم على ما لقيه من قومه، بأن الرسل من قبله لقوا مثل ما لقي.

وكاف التشبيه متعلق بقوله)قال مترفوها(. وقدم على متعلقه للاهتمام بهذه المشابهة والتشويق لما يرد بعد اسم الإشارة.

وجملة)إلا قال مترفوها(في وضع الحال لأن الاستثناء هنا من أحوال مقدرة أي ما أرسلنا إلى أهل قرية في حال من أحوالهم إلا في حال قول قاله مترفوها: إنا وجدنا آباءنا إلخ.

والمترفون: جمع المترف وهو الذي أعطي الترف، أي النعمة، وتقدم في قوله تعالى)وارجعوا إلى ما أترفتم فيه(في سورة الأنبياء.

والمعنى: أنهم مثل قريش في الازدهاء بالنعمة التي هم فيها، أي في بطر نعمة الله عليهم. فالتشبيه يقتضي أنهم مثل الأمم السالفة في سبب الازدهاء وهو ما هم فيه من نعمة حتى نسوا احتياجهم إلى الله تعالى، قال تعالى)وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا(.

وقد جاء في حكاية قول المشركين الحاضرين وصفهم أنفسهم بأنهم مهتدون بآثار آبائهم، وجاء في حكاية أقوال السابقين وصفهم أنفسهم بأنهم بآبائهم مقتدون، لأن أقوال السابقين كثيرة مختلفة يجمع مختلفها أنها اقتداء بآبائهم، فحكاية أقوالهم من قبيل حكاية القول بالمعنى، وحكاية القول بالمعنى طريقة في حكاية الأقوال كثر ورودها في القرآن وكلام العرب.

)قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم(قرأ الجمهور) قل(بصيغة فعل الأمر لمفرد فيكون أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله جوابا عن قول المشركين)إنا وجدنا إباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون(.

وقرأ ابن عامر وحفص)قال(بصيغة فعل المضي المسند إلى المفرد الغائب فيكون الضمير عائدا إلى نذير الذين قالوا)إنا وجدنا

آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون(. فحصل من القراءتين أن جميع الرسل أجابوا أقوامهم بهذا الجواب، وعلى كلتا القراءتين جاء فعل)قل(أو)قال(مفصولا غير معطوف لأنه واقع في مجال المحاورة كما تقدم غير مرة، منها قوله تعالى)قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها(في سورة البقرة.

وقرأ الجمهور)جئتكم(بضمير تاء المتكلم. وقرأ أبو جعفر جئناكم بنون ضمير المتكلم المشارك وأبو جعفر من الذين قرأوا) قل(بصيغة الأمر فيكون ضمير)جئناكم(عائدا للنبي صلى الله عليه وسلم المخاطب بفعل)قل(لتعظيمه صلى الله عليه وسلم من جانب ربه تعالى الذي خاطبه بقوله)قل(.

والواو في قوله)أو لو(عاطفة الكلام المأمور به على كلامهم، وهذا العطف مما يسمى عطف التلقين، ومنه قوله تعالى عن إبراهيم)قال ومن ذريتي(. والهمزة للاستفهام التقريري المشوب بالإنكار. وقدمت على الواو لأجل التصدير.

و)لو(وصلية، و)لو(الوصلية تقتضي المبالغة بنهاية مدلول شرطها كما تقدم عند قوله تعالى)ولو افتدى به(في آل عمران، أي لو جئتكم بأهدى من دين آبائكم تبقون على دين آبائكم وتتركون ما هو أهدى.

والمقصود من الاستفهام تقريرهم على ذلك لاستدعائهم إلى النظر فيما اتبعوا فيه آباءهم لعل ما دعاهم إليه الرسول أهدى منهم.

وصوغ اسم التفضيل من الهدي إرخاء للعنان لهم ليتدبروا، نزل ما كان عليهم آباؤهم منزلة ما فيه شيء من الهدى استنزالا لطائر المخاطبين ليتصدوا للنظر كقوله)وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين(.

صفحة : 3913

)قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون[24](بدل من جملة)إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على أثارهم مقتدون(، لأن ذلك يشتمل على معنى: لا نتبعكم ونترك ما وجدنا عليه آباءنا، وضمير)قالوا(راجع إلى)مترفوها(لأن موقع جملة)فانتقمنا منهم(يعين أن هؤلاء القائلين وقع الانتقام منهم فلا يكون منهم المشركون الذين وقع تهديدهم بأولئك.

وقولهم)ما أرسلتم به(يجوز أن يكون حكاية لقولهم، فإطلاقهم اسم الإرسال على دعوة رسلهم تهكم مثل قوله)ما لهذا الرسول

يأكل الطعام(ويجوز أن يكون حكاية بالمعنى وإنما قالوا إنا بما زعمتم أنكم مرسلون به، وما أرسلوا به توحيد الإله.
)فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عقبة المكذبين[25](تفريع على جملة)قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون(،أي انتقمنا منهم عقب تصريحهم بتكذيب الرسل. وهذا تهديد بالانتقام من الذين شابهوهم في مقالهم، وهم كفار قريش.
والانتقام افتعال من النقم وهو المكافأة بالسوء، وصيغة الافتعال لمجرد المبالغة، يقال: نقم كعلم وضرب، إذا كافأ على السوء بسوء، وفي مثل هو كالأرقم إن يترك يلقم وإن يقتل ينقم . الأرقم: ضرب من الحيات يعتقد العرب أنه من الجن فإن تركه المرء يتسور عليه فيلسعه ويقتله وإن قتله المرء انتقم بتأثيره فأمات قاتله وهذا من أوهام العرب.
والمراد بالانتقام استئصالهم وانقراضهم. وتقدم في قوله تعالى) فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم(في سورة الأعراف.
ولذلك فالنظر في قوله)فانظر كيف كان عاقبة المكذبين(نظر التفكر والتأمل فيما قص الله على رسوله من أخبارهم كقوله تعالى)قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين(في سورة النمل، وليس نظر البصر إذ لم ير النبي حالة الانتقام فيهم.
ويجوز أن يكون الخطاب لغير معين، أي لكل من يتأتى منه التأمل.
و)كيف(استفهام عن الحالة وهو قد علق فعل النظر عن مفعوله.
)وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني بريء مما تعبدون[26] إلا الذي فطرني فإنه سيهدين[27](لما ذكرهم الله بالأمم الماضية وشبه حالهم بحالهم ساق لهم أمثالا في ذلك من مواقف الرسل مع أممهم منها قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه.
وابتدأ بذكر إبراهيم وقومه إبطالا لقول المشركين: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون، بأن أولى آبائهم بأن يقتدوا به هو أبوهم الذي يفتخرون بنسبته إبراهيم.
وجملة)وإذ قال إبراهيم(عطف على عموم الكلام السابق من قوله)وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير(إلى قوله)وإذ قال إبراهيم(، وهو عطف الغرض على الغرض.
و)إذ(ظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر إذ قال إبراهيم، ونظائر هذا كثيرة في القرآن كما تقدم في قوله تعالى)وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة(في سورة البقرة.
والمعنى: واذكر زمان قول إبراهيم لأبيه وقومه قولا صريحا في التبرئ من عبادة الأصنام.

وخص أبو إبراهيم بالذكر قبل ذكر قومه وما هو إلا واحد منهم اهتماما بذكره لأن براءة إبراهيم مما يعبد أبوه أدل على تجنب عبادة الأصنام بحيث لا يتسامح فيها ولو كان الذي يعبدها أقرب الناس إلى موحد الله بالعبادة مثل الأب، ولتكون حكاية كلام إبراهيم قدوة لإبطال قول المشركين)وإنا على أثارهم مهتدون(قال تعالى) قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله(أي فما كان لكم أن تقتدوا بآبائكم المشركين وهلا اقتديتم بأفضل آبائكم وهو إبراهيم.

والبراء بفتح الباء مصدر بوزن الفعال مثل الظماء والسماع يخبر به ويوصف به في لغة أهل العالية وهي ما فوق نجد إلى أرض تهامة مما وراء مكة وأما أهل نجد فيقولون بريء.

والاستثناء في قوله)إلا الذي فطرني(استثناء من)ما تعبدون(، و)ما(موصولة أي من الذين تعبدونهم فإن قوم إبراهيم كانوا مشركين مثل مشركي العرب. وقد بسطنا ذلك فيما تقدم عند قوله)وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة(.

وفرع على هذا قوله)فإنه سيهدين(لأن قوله)إنني براء مما تعبدون(يتضمن معنى: إنني اهتديت إلى بطلان عبادتكم الأصنام بهدي من الله.

صفحة : 3914

وسين الاستقبال مؤذنة بأنه أخبرهم بأن هداية الله إياه قد تمكنت وتستمر في المستقبل، ويفهم أنها حاصلة الآن بفحوى الخطاب.

وتوكيد الخبر ب)إن(منظور فيه إلى حال أبيه وقومه لأنهم ينكرون أنه الآن على هدى فهم ينكرون أنه سيكون على هدى في المستقبل.

)وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون[28](عطف على)إذ قال إبراهيم(أي أعلن تلك المقالة في قومه معاصريه وجعلها كلمة باقية في عقبه ينقلونها إلى معاصريهم من الأمم. إذ أوصى بها بنيه وأن يوصوا بنيهم بها، قال تعالى في سورة البقرة)إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون(، فبتلك الوصية أبقى إبراهيم توحيد الله بالإلهية والعبادة في عقبه يبثونه في الناس. ولذلك قال يوسف لصاحبيه في السجن)يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار(وقال لهما)إني

تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء(إلى قوله)ولكن أكثر الناس لا يعلمون(.

فضمير الرفع في)جعلها(عائد إلى إبراهيم وهو الظاهر من السياق والمناسب لقوله)لعلهم يرجعون(ولأنه لم يتقدم اسم الجلالة ليعود عليه ضمير)جعلها(.

وحكى في الكشاف انه قيل: الضمير عائد إلى الله وجزم به القرطبي وهو ظاهر كلام أبي بكر بن العربي.

والضمير المنصوب في قوله)وجعلها(عائد إلى الكلام المتقدم. وأنث الضمير لتأويل الكلام بالكلمة نظرا لوقوع مفعوله الثاني لفظ)كلمة(لأن الكلام يطلق عليه)كلمة(كقوله تعالى في سورة المؤمنين)إنها كلمة هو قائلها(، أي قول الكافر)رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت(. وقال تعالى)كبرت كلمة تخرج من أفواههم(وهي قولهم)اتخذ الله ولدا(وقد قال تعالى)وأوصى بها إبراهيم بنيه(، أي بقوله)أسلمت لرب العالمين(فأعاد عليها ضمير التأنيث على تأويل)الكلمة(.

واعلم أنه إنما يقال للكلام كلمة إذا كان كلاما سائرا على الألسنة متمثلا به، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل ، أو كان الكلام مجعولا شعارا كقولهم لا إله إلا الله كلمة الإسلام وقال تعالى)ولقد قالوا كلمة الكفر(.

فالمعنى: جعل إبراهيم قوله)إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني(شعارا لعقبه، أي جعلها هي وما يرادفها قولا باقيا في عقبه على مر الزمان فلا يخلو عقب إبراهيم من موحدين لله نابذين للأصنام.

وأشعر حرف الظرفية بأن هاته الكلمة لم تنقطع بين عقب إبراهيم دون أن تعم العقب، فإن أريد بالعقب مجموع أعقابه فإن كلمة التوحيد لم تنقطع من اليهود وانقطعت من العرب بعد أن تقلدوا عبادة الأصنام إلا من تهود منهم أو تنصر، وإن أريد من كل عقب فإن العرب لم يخلوا من قائم بكلمة التوحيد مثل المتنصرين منهم كالقبائل المتنصرة وورقة بن نوفل، ومثل المتحنفين كزيد بن عمرو بن نفيل، وأمية بن أبي الصلت. وذلك أن)في(ترد للتبعيض كما ذكرناه في قوله تعالى)وارزقوهم فيها واكسوهم(في سورة النساء وقال سبرة بن عمرو الفقعسي من الحماسة:

ونشرب في أثمانها ونقامر والعقب: الذرية الذين لا ينفصلون من أصلهم بأنثى، أي جعل إبراهيم كلمة التوحيد باقية في عقبه بالوصاية عليها راجيا أنهم يرجعون، أي يتذكرون بها التوحيد إذا ران رين على

قلوبهم، أو استحسنوا عبادة الأصنام كما قال قوم موسى)اجعل لنا إلها كما لهم آلهة(فيهتدون بتلك الكلمة حين يضيق الزمان عن بسط الحجة. وهذا شأن الكلام الذي يجعل شعارا لشيء فإنه يكون أصلا موضوعا قد تبين صدقه وإصابته، فاستحضاره يغني عن إعادة بسط الحجة له.

صفحة : 3915

وجملة)لعلهم يرجعون(بدل اشتمال من جملة)وجعلها كلمة باقية في عقبه(لأن جعله كلمة)إنني براء مما تعبدون(باقية في عقبه، أراد منها مصالح لعقبه منها أنه رجا بذلك أن يرجعوا غلى نبذ عبادة الأصنام إن فتنوا بعبادتها أو يتذكروا بها الإقلاع عن عبادة الأصنام إن عبدوها، فمعنى الرجوع، العود إلى ما تدل عليه تلك الكلمة. ونظيره قوله تعالى)وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون(، أي لعلهم يرجعون عن كفرهم.

فحرف)لعل(لإنشاء الرجاء، والرجاء هنا رجاء إبراهيم لا محالة، فتعين أن يقدر معنى قول صادر من إبراهيم بإنشاء رجائه، بأن يقدر: قال: لعلهم يرجعون، أو قائلا: لعلهم يرجعون.

والرجوع مستعار إلى تغيير اعتقاد طارئ باعتقاد سابق، شبه ترك الاعتقاد الطارئ والأخذ بالاعتقاد السابق برجوع المسافر إلى وطنه أو رجوع الساعي إلى بيته.

والمعنى: يرجع كل من حاد عنها إليها، وهذا رجاؤه قد تحقق في بعض عقبه ولم يتحقق في بعض كما قال تعالى)قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين(أي المشركين. ولعل ممن تحقق فيه رجاء إبراهيم عمود نسب النبي صلى الله عليه وسلم وإنما كانوا يكتمون دينهم تقية من قومهم، وقد بسطت القول في هذا المعنى وفي أحوال أهل الفترة في هذه الآية في رسالة طهارة النسب النبوي من النقائص.

وفي قوله)وجعلها كلمة باقية في عقبه(إشعار بأن وحدانية الله كانت غير مجهولة للمشركين، فيتجه أن الدعوة إلى العلم بوجود الله ووحدانيته كانت بالغة لأكثر الأمم بما تناقلوه من أقوال الرسل السابقين، ومن تلك الأمم العرب، فيتجه مؤاخذة المشركين على الإشراك قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم أهملوا النظر فيما هو شائع بينهم أو تغافلوا عنه أو أعرضوا. فيكون أهل الفترة مؤاخذين على نبذ التوحيد في الدنيا ومعاقبين عليه في الآخرة وعليه يحمل ما ورد في صحاح الآثار من تعذيب عمرو بن لحي

الذي سن عبادة الأصنام وما روي أن أمرأ القيس حامل لواء الشعراء إلى النار يوم القيامة وغير ذلك. وهذا الذي يناسب أن يكون نظر إليه أهل السنة الذين يقولون: إن معرفة الله واجبة بالشرع لا بالعقل وهو المشهور عن الأشعري، والذين يقولون منهم إن المشركين من أهل الفترة مخلدون في النار على الشرك.

وأما الذين قالوا بأن معرفة الله واجبة عقلا وهو قول جميع الماتريدية وبعض الشافعية فلا إشكال على قولهم.

)بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين[29] (إضراب عن قوله)لعلهم يرجعون(، وهو إضراب إبطال، أي لم يحصل ما رجاه إبراهيم من رجوع بعض عقبه إلى الكلمة التي أوصاهم برعيها. فإن أقدم أمة من عقبه لم يرجعوا إلى كلمته، وهؤلاء هم العرب الذين أشركوا وعبدوا الأصنام.

وبعد)بل(كلام محذوف دل عليه الإبطال وما بعد الإبطال، وتقدير المحذوف: بل لم يرجع هؤلاء وآباؤهم الأولون إلى التوحيد ولم يتبرأوا من عبادة الأصنام ولا أخذوا بوصاية إبراهيم.

وجملة)متعت هؤلاء وآباءهم(مستأنفة استئنافا بيانيا لسائل يسأل عما عاملهم الله به جزاء على تفريطهم في وصاية إبراهيم وهلا استأصلهم. كما قال)وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير(إلى قوله)فانتقمنا منهم(، فأجيب بأن الله متعهم بالبقاء إلى أن يجيئهم رسول بالحق وذلك لحكمة علمها الله يرتبط بها وجود العرب زمنا طويلا بدون رسول، وتأخر مجيء الرسول إلى الإبان الذي ظهر فيه.

وبهذا الاستئناف حصل التخلص إلى ما بدا من المشركين بعد مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم من فظيع توغلهم في الإعراض عن التوحيد الذي كان عليه أبوهم فكان موقع)بل(في هذه الآية أبلغ من موقعها في قول لبيد:

بل ما تذكر من نوار وقد نأت

وتقطعت أسبابها ورمامها إذ كان انتقاله اقتضابا وكان هنا تخلصا حسنا.

و)هؤلاء(إشارة إلى غير مذكور في الكلام، وقد استقريت أن مصطلح القرآن أن يريد بمثله مشركي العرب، ولم أر من اهتدى للتنبيه عليه، وقد قدمته عند قوله تعالى)وجئنا بك على هؤلاء شهيدا(في سورة النساء وفي مواضع أخرى.

والمراد بآبائهم آباؤهم الذين سنوا عبادة الأصنام مثل عمرو بن لحي والذين عبدوها من بعده. وتمتيع آبائهم تمهيد لتمتيع هؤلاء، ولذلك كانت غاية التمتيع مجيء الرسول فإن مجيئه لهؤلاء.

والتمتيع هنا التمتيع بالإمهال وعدم الاستئصال كما تدل عليه الغاية في قوله)حتى جاءهم الحق ورسول مبين(.

والمراد ب)الحق(القرآن كما يدل عليه قوله تعالى)ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر(وقوله)وقالوا لولا نزل هذا القرءان على رجل من القريتين عظيم(وهذه الآية ثناء راجع على القرآن متصل بالثناء عليه الذي افتتحت به السورة.

فإنه لما جاء القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم انتهى التمتيع وأخذوا بالعذاب تدريجا إلى أن كان عذاب يوم بدر ويوم حنين، وهدى الله للإسلام من بقي يوم فتح مكة وأيام الوفود. وهذا في معنى قوله تعالى)وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم(في سورة هود.

والحق الذي جاءهم هو: القرآن، والرسول المبين: محمد صلى الله عليه وسلم. ووصفه ب)مبين(لأنه أوضح الهدى ونصب الأدلة وجاء بأفصح كلام. فالإبانة راجعة إلى معاني دينه وألفاظ كتابه.

والحكمة في ذلك أن الله أراد أن يشرف هذا الفريق من عقب إبراهيم بالانتشال من أوحال الشرك والضلال إلى مناهج الإيمان والإسلام واتباع أفضل الرسل وأفضل الشرائع، فيجبر لأمة من عقب إبراهيم ما فرطوا فيه من الاقتداء بأبيهم حتى يكمل لدعوته شرف الاستجابة.

والمقصود من هذا زيادة الإمهال لهم لعلهم يتذكرون كما قال تعالى)وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون(.

ويستروح من قوله تعالى)وجعلها كلمة باقية في عقبه(إلى قوله)وءآباءهم(أن آباء النبي صلى الله عليه وسلم في عمود نسبه لم يكونوا مضمرين الشرك وأنهم بعض من عقب إبراهيم الذين بقيت كلمته فيهم ولم يجهروا بمخالفة قومهم اتقاء الفتنة. ولا عجب في ذلك فإن تغيير المنكر إنما وجب بالشرع ولم يكن لديهم شرع.

)ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون[30](تعجيب من حال تغافلهم، أي قد كان لهم بعض العذر قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن لأن للغفلات المتقادمة غشاوة تصير الغفلة

جهالة، فكان الشأن أن يستقيظوا لما جاءهم الحق ورسول مبين فيتذكروا كلمة أبيهم إبراهيم، ولكنهم لما جاءهم الحق قالوا: هذا سحر، أي قالوا للرسول: هذا ساحر، فازدادوا رينا على رين.
فالخبر مستعمل في التعجيب لا في إفادة صدور هذا القول منهم لأن ذلك معلوم لهم وللمسلمين.
وفي تعقيب الغاية بهذا الكلام إيذان بأن تمتيعهم أصبح على وشك الانتهاء.
فجملة)ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر(معطوفة على جملة) حتى جاءهم الحق(فإن)لما(توقيتية فهي في قوة)حتى(الغائية كأنه قيل: متعت هؤلاء وآباءهم، فلما جاءهم الحق عقب ذلك التمتيع لم يستفيقوا من غفلتهم وقالوا: هذا سحر، أي كانوا قبل مجيء الحق مشركين عن غفلة وتساهل، فلما جاءهم الحق صاروا مشركين عن عناد ومكابرة.
وجملة)وإنا به كافرون(مقول ثان، أي قالوا: هذا سحر فلا نلتفت إليه وقالوا إنا به، أي بالقرآن، كافرون، أي سواء كان سحرا أم غيره، أي فرضوا أنه سحر ثم ارتقوا فقالوا إنا به كافرون، أي كافرون بأنه من عند الله سواء كان سحرا، أم شعرا، أم أساطير الأولين. ولهذا المعنى أكدوا الخبر بحرف التأكيد ليؤيسوا الرسول صلى الله عليه وسلم من إيمانهم به.
)وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم[31] (عطف على جملة)قالوا هذا سحر(فهو في حيز جواب) لما(التوقيتية واقع موقع التعجيب أيضا، أي بعد أن أخذوا يتعللون بالعلل لإنكار الحق إذ قالوا للقرآن: هذا سحر، وإذ كان قولهم ذلك يقتضي أن الذي جاء بالقرآن ساحر انتقل إلى ذكر طعن آخر منهم في الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لم يكن من عظماء أهل القريتين.

صفحة : 3917

و)لولا(أصله حرف تحضيض، استعمل هنا في معنى إبطال كونه رسولا على طريقة المجاز المرسل بعلاقة الملازمة لأن التحضيض على تحصيل ما هو مقطوع بانتفاء حصوله يستلزم الجزم بانتفائه.
والقريتان هما: مكة والطائف لأنهما أكبر قرى تهامة بلد القائلين وأما يثرب وتيماء ونحوهما فهي من بلد الحجاز.
فالتعريف في)القريتين(للعهد، جعلوا عماد التأهل لسيادة الأقوام أمرين: عظمة المسود، وعظمة قريته، فهم لا يدينون إلا من هو من

أشهر القبائل في أشهر القرى لأن القرى هي مأوى شؤون القبائل وتموينهم وتجارتهم، والعظيم: مستعار لصاحب السؤود في قومه، فكأنه عظيم الذات.

روي عن ابن عباس أنهم عنوا بعظيم مكة الوليد بن المغيرة المخزومي، وبعظيم الطائف حبيب بن عمرو الثقفي. وعن مجاهد أنهم عنوا بعظيم مكة عتبة بن ربيعة وبعظيم الطائف كنانة بن عبد ياليل. وعن قتادة عنوا الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي.

ثم يحتمل أنهم قالوا هذا اللفظ المحكي عنهم في القرآن ولم يسمعوا شخصين معينين، ويحتمل أنهم سموا شخصين ووصفوهما بهذين الوصفين، فاقتصر القرآن على ذكر الوصفين إيجازا مع التنبيه على ما كانوا يؤهلون به الاختيار للرسالة تحميقا لرأيهم.

وكان الرجلان اللذان عنوهما ذوي مال لأن سعة المال كانت من مقومات وصف السؤود كما حكي عن بني إسرائيل قولهم ولم يؤت سعة من المال .

)أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون[32](إنكار عليهم قولهم)لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم(، فإنهم لما نصبوا أنفسهم منصب من يتخير أصناف الناس للرسالة عن الله، فقد جعلوا لأنفسهم ذلك لا لله، فكان من مقتضى قولهم أن الاصطفاء للرسالة بيدهم، فلذلك قدم ضمير)هم(المجعول مسندا إليه، على مسند فعلي ليفيد معنى الاختصاص فسلط الإنكار. على هذا الحصر إبطالا لقولهم وتخطئة لهم في تحكمهم.

ولما كان الاصطفاء للرسالة رحمة لمن يصطفى لها ورحمة للناس المرسل إليهم، جعل تحكمهم في ذلك قسمة منهم لرحمة الله باختيارهم من يختار لها وتعيين المتأهل لإبلاغها إلى المرحومين.

ووجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأضيف لفظ) الرب(إلى ضميره إيماء إلى أن الله مؤيده تأنيسا له، لأن قولهم) لولا نزل هذا القرءان على رجل من القريتين عظيم(قصدوا منه الاستخفاف به، فرفع الله شأنه بإبلاغ الإنكار عليهم بالإقبال عليه بالخطاب وبإظهار أن الله ربه، أي متولي أمره وتدبيره.

وجملة)نحن قسمنا بينهم معيشتهم(تعليل للإنكار والنفي المستفاد منه، واستدلال عليه، أي لما قسمنا بين الناس معيشتهم فكانوا مسيرين في أمورهم على نحو ما هيأنا لهم من نظام الحياة وكان تدبير ذلك لله تعالى ببالغ حكمته، فجعل منهم أقوياء وضعفاء، وأغنياء ومحاويج، فسخر بعضهم لبعض في أشغالهم على حساب

دواعي حاجة الحياة، ورفع بذلك بعضهم فوق بعض، وجعل بعضهم محتاجا إلى بعض ومسخرا له.
فإذا كانوا بهذه المثابة في تدبير المعيشة الدنيا، فكذلك الحال في إقامة بعضهم دون بعض للتبليغ فإن ذلك أعظم شؤون البشر. فهذا وجه الاستدلال.

صفحة : 3918

والسخري بضم السين وبكسرها وهما لغتان ولم يقرأ في القراءات المشهورة إلا بضم السين. وقرأ ابن محيصن في الشاذ بكسر السين : اسم للشيء المسخر، أي المجبور على عمل بدون اختياره، واسم لمن يسخر به، أي يستهزأ به كما في مفردات الراغب والأساس والقاموس. وقد فسر هنا بالمعنيين كما قال القرطبي. وقال ابن عطية: هما لغتان في معنى التسخير ولا تدخل لمعنى الهزء في هذه الآية. ولم يقل ذلك غيره وكلام الراغب محتمل. واقتصر الطبري على معنى التسخير. فالوجه في ذلك أن المعنيين معتبران في هذه الآية. وإثار لفظ)سخريا(في الآية دون غيره لتحمله للمعنيين وهو اختيار من وجوه الإعجاز فيجوز أن يكون المعنى ليتعمل بعضهم بعضا في شؤون حياتهم فإن الإنسان مدني، أي محتاج إلى إعانة بعضه بعضا، وعليه فسر الزمخشري، وابن عطية وقاله السدي وقتادة والضحاك وابن زيد، فلام)ليتخذ(لام التعليل تعليلا لفعل)قسمنا(، أي قسمنا بينهم معيشتهم، أي أسباب معيشتهم ليستعين بعضهم ببعض فيتعارفوا ويتجمعوا لأجل حاجة بعضهم إلى بعض فتتكون من ذلك القبائل والمدن.
وعلى هذا يكون قوله)بعضهم بعضا(عاما في كل بعض من الناس إذ ما من أحد إلا وهو مستعمل لغيره وهو مستعمل لغير آخر.
ويجوز أن تكون اسما من السخرية وهي الاستهزاء. وحكاه القرطبي ولم يعين قائله وبذلك تكون اللام للعاقبة مثل)فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا(وهو على هذا تعريض بالمشركين الذين استهزؤوا بالمؤمنين كقوله تعالى)فاتخذتموهم سخريا(في سورة قد أفلح المؤمنون. وقد جاء لفظ السخري بمعنى الاستهزاء في آيات أخرى كقوله تعالى)فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون(وقوله)اتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار(.
ولعل الذي عدل ببعض المفسرين عن تفسير آية سورة الزخرف بهذا المعنى استنكارهم أن يكون اتخاذ بعضهم لبعض مسخرة علة

لفعل الله تعالى في رفعه بعضهم فوق بعض درجات، ولكن تأويل اللفظ واسع في نظائره وأشباهه. وتأويل معنى اللام ظاهر.

وجملة)ورحمة ربك خير ما يجمعون(تذييل للرد عليهم، وفي هذا التذييل رد ثان عليهم بأن المال الذي جعلوه عماد الاصطفاء للرسالة هو أقل من رحمة الله فهي خير مما يجمعون من المال الذي جعلوه سبب التفضيل حين قالوا)لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم(فإن المال شيء جمعه صاحبه لنفسه فلا يكون مثل اصطفاء الله البعد ليرسله إلى الناس.

ورحمة الله: هي اصطفاؤه عبده للرسالة عنه إلى الناس، وهي التي في قوله)أهم يقسمون رحمة ربك(، والمعنى: إذا كانوا غير قاسمين أقل أحوالهم فكيف يقسمون ما هو خير من أهم أمورهم.

)ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون[33] ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون[34] وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا وللآخرة عند ربك للمتقين[35]( )لولا(حرف امتناع لوجود، أي حرف شرط دل امتناع وقوع جوابها لأجل وقوع شرطها، فيقتضي أن الله أراد امتناع وقوع أن يكون الناس أمة واحدة، أي أراد الاحتراز من مضمون شرطها.

لما تقرر أن من خلقهم تعظيم المال وأهل الثراء وحسبانهم ذلك أصل الفضائل ولم يهتموا بزكاء النفوس، وكان الله قد أبطل جعلهم المال سبب الفضل بإبطالين، بقوله)أهم يقسمون رحمة ربك(وقوله)ورحمة ربك خير مما يجمعون(، أعقب ذلك بتعريفهم أن المال والغنى لاحظ لهما عند الله تعالى فإن الله أعطى كل شيء خلقه وجعل للأشياء حقائقها ومقاديرها فكثيرا ما يكون المال للكافرين ومن لا خلاق لهم من الخير، فتعين أن المال قسمة من الله على الناس جعل له أسبابا نظمها في سلك النظم الاجتماعية وجعل لها آثارا مناسبة لها، وشتان بينها وبين مواهب النفوس الزكية والسرائر الطيبة، فالمال في الغالب مصدر لإرضاء الشهوات ومرصد للتفاخر والتطاول. وأما مواهب النفوس الطيبة فمصادر لنفع أصحابها ونفع الأمة، ففي أهل الشر أغنياء وفقراء وفي أهل الخير أمثال ذلك، فظهر التباين بين آثار كسب المال وأثار الفضائل النفسانية.

ويحصل من هذا التحقير للمال إبطال ثالث لما أسسوا عليه قولهم)لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم(، فهذه الجملة عطف على جملة)ورحمة ربك خير مما يجمعون(.
والناس يحتمل أن يراد به جميع الناس، فيكون التعريف للاستغراق، أي جميع البشر، والأمة: الجماعة من البشر المتميزة عن غيرها باتحاد في نسب أو دين أو حالة معرف بها فمعنى أن يكون الناس أمة واحدة يحتمل أن لولا أن يصير البشر على دين واحد وهو الغالب عليهم يومئذ، أي الكفر ونبذ الفكرة في الآخرة وعلى هذا تفسير ابن عباس والحسن وقتادة والسدي.
فالمعنى عليه: لولا أن يصير الناس كلهم كفارا لخصصنا الكافرين بالمال والرفاهية وتركنا المسلمين لما ادخرنا لهم من خيرات الآخرة، فيحسب ضعفاء العقول أن للكفر أثرا في حصول المال جعله الله جزاء لمن سماهم بالكافرين فيتبعوا دين الكفر لتخيلهم الملازمة بين سعادة العيش وبين الكفر، وقد كان الناس في الأجيال الأولى أصحاب أوهام وأغلاط يجعلون للمقارنة حكم التسبب فيؤول المعنى إلى: لولا تجنب ما يفضي إلى عموم الكفر وانقراض الإيمان، لجعلنا المال لأهل الكفر خاصة، أي والله لا يحب انقراض الإيمان من الناس ولم يقدر اتحاد الناس على ملة واحدة بقوله)ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم(أي أن الله لطف بالعباد فعطل ما يفضي بهم إلى اضمحلال الهدى من بينهم، أي أبقى بينهم بصيصا من نور الهدى.
ويحتمل وهو الأولى عندي: أن يكون التعريف في)الناس(للعهد مرادا به بعض طوائف البشر وهم أهل مكة وجمهورهم على طريقة الاستغراق العرفي وعلى وزان قوله تعالى)إن الناس قد جمعوا لكم(ويكون المراد بكونهم أمة واحدة اتحادهم في الثراء.
والمعنى: لولا أن تصير أمة من الأمم أهل ثروة كلهم أي وذلك مخالف لما قدره الله من اشتمال كل بلد وكل قبيلة وكل أمة على أغنياء ومحاويج لإقامة نظام العمران واحتياج بعضهم لبعض، هذا لماله، وهذا لصناعته، وآخر لمقدرة بدنه لجعلنا من يكفر بالرحمن وهم أهل مكة سواء في الثراء والرفاهية. وعلى كلا الاحتمالين يتلخص من المعنى أن الثراء والرفاهية لا يقيم المدبر الحكيم لهما وزنا فلا يمسكهما عن الناكبين عن طريق الحق والكمال، فصار الكلام يقتضي مقدرا محذوفا تقديره لكن لا يكون الناس سواء في الغنى لأنا لم نجعل ذلك لأنا قدرنا في نظام الكون البشري أن لا تكون أمة من الأمم أو قبيلة أو أهل بلدة أغنياء ليس فيهم محاويج لأنه يفضي إلى انحرام نظام الاجتماع وارتفاع احتياج بعضهم لبعض فيهلك مجتمعهم، والله أراد بقاءهم إلى أجل هم بالغوه.

ويرجح هذا جعل متعلق فعل)يكفر(خصوص وصف الرحمان فإن مشركي مكة أنكروا وصف الرحمان)وقالوا وما الرحمان(وقد تكرر التورك عليهم بذلك في آي كثيرة.

ومعنى)لجعلنا لمن يكفر(لقدرنا في نظام المجتمع البشري أسباب الثراء متصلة بالكفر بالله بحيث يكون الكفر سببا ومجلبة للغنى، ولو أراد الله ذلك لهيأ له أسبابه في عقول الناس وأساليب معاملاتهم المالية فدل هذا على أن الله منع أسباب تعميم الكفر في الأرض لطفا منه بالإيمان وأهله وإن كان لم يمنع وقوع كفر جزئي قليل أو كثير حفظا منه تعالى لناموس ترتيب المسببات على أسبابها.

وهذا من تفاريع التفرقة بين الرضى والإرادة فلا يرضى لعباده الكفر ولو شاء ربك ما فعلوه.

واللام في قوله)لبيوتهم(مثل اللام في قوله)لمن يكفر بالرحمن(، أي لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن فيكون قوله)لبيوتهم(بدل اشتمال ممن يكفر بالرحمن. وإنما صرح بتكرير العامل للتوكيد كما فعلوا في البدل من المستفهم عنه في نحو: من ذا أسعيد أم علي؟ فقرنوا البدل بأداة استفهام ولم يقولوا: من ذا سعيد أم علي؟ وتقدم عند قوله تعالى)ومن النخل من طلعها قنوان دانية(في سورة الأنعام.

ونكتة هذا الإبدال تعليق المجرور ابتداء بفعل الجعل ثم الاهتمام بذكر من يكفر بالرحمن في هذا المقام المقصود منه قرنه مع مظاهر الغنى في قرن التحقير، ثم يذكر ما يعز وجود أمثاله من الفضة والذهب، وإذ قد كان الخبر كله مستغربا كان حقيقا بأن ينظم في أسلوب الإجمال ثم التفصيل.

صفحة : 3920

وقرأ الجمهور)سقفا(بضم السين وضم القاف جمع سقف بفتح السين وسكون القاف وهو: البناء الممتد على جدران البيت المغطي فضاء البيت، وتقدم عند قوله تعالى)فخر عليهم السقف من فوقهم(في سورة النحل. وهذا الجمع لا نظير له إلا رهن ورهن ولا ثالث لهما.

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر)سقفا(بفتح السين وإسكان القاف على الإفراد. والمراد من المفرد الجنس بقرينة قوله)لبيوتهم(كأنه قيل: لكل بيت سقف.

والزخرف الزينة قال تعالى)زخرف القول غرورا(في سورة الأنعام، فيكون هنا عطفا على)سقفا(جمعا لعديد المحاسن، ويطلق

على الذهب لأن الذهب يتزين به، كقوله)أو يكون لك بيت من زخرف(، فيكون)وزخرفا(عطفا على)سقفا(بتأويل: لجعلنا لهم ذهبا، أي لكانت سقفهم ومعارجهم وأبوابهم من فضة وذهب منوعة لأن ذلك أبهج في تلوينها.

وابتدئ بالفضة لأنها أكثر في التحليات وأجمل في اللون، وأخر الذهب، لأنه أندر في الحلي، ولأن لفظه أسعد بالوقف لكون آخره تنوينا ينقلب في الوقف ألفا فيناسب امتداد الصوت وهو أفصح في الوقف.

ويجوز أن يكون لفظ)زخرفا(مستعملا في معنييه استعمال المشترك، فلا يرد سؤال عن تخصيص السقف والمعارج بالفضة.

و)معارج(اسم جمع معراج، وهو الدرج الذي يعرج به إلى العلالي.

ومعنى)يظهرون(: يعلون كما في قوله تعالى)فما اسطاعوا أن يظهروه(، أي أن يتسوروه.

وسرر بضمتين: جمع سرير، وتقدم عند قوله تعالى)على سرر متقابلين(في سورة الصافات، وفائدة وصفها بجملة)عليها يتكئون(الإشارة إلى أنهم يعطون هذه البهرجة مع استعمالها في دعة العيش والخلو عن التعب.

والمراد أن المعارج والأبواب والسرر من فضة، فحذف الوصف من المعطوفات لدلالة ما وصف المعطوف عليه.

وذيل بقوله)وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا(أي كل ما ذكر من السقف والمعارج والأبواب والسرر من الفضة والذهب متاع الدنيا لا يعود على من أعطيه بالسعادة الأبدية وأما السعادة الأبدية فقد ادخرها الله للمتقين وليست كمثل البهارج والزينة الزائدة التي تصادف مختلف النفوس وتكثر لأهل النفوس الضئيلة الخسيسة وهذا كقوله تعالى)زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب(.

وقرأ الجمهور)لما(بتخفيف الميم فتكون)إن(التي قبلها مخففة من)إن(المشددة للتوكيد وتكون اللام الداخلة على)لما(اللام الفارقة بين)إن(النافية و)إن(المخففة و)ما(زائدة للتوكيد بين المضاف والمضاف إليه.

وقرأ عاصم وحمزة وهشام عن ابن عامر)لما(بتشديد الميم فهي)لما(أخت إلا المختصة بالوقوع في سياق النفي فتكون) إن(نافية، والتقدير: وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا.

)ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطنا فهو له قرين[36] (ابتدئت السورة بالتنويه بالقرآن ووصفه بأنه ذكر وبيان للناس،

ووصف عناد المشركين في الصد عنه والإعراض، وأعلموا بأن الله لا يترك تذكيرهم ومحاجتهم لأن الله يدعو بالحق ويعد به.

صفحة : 3921

وأطنب في وصف تناقض عقائدهم لعلهم يستيقظون من غشاوتهم، وفي تنبيههم إلى دلائل حقية ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن، وفضحت شبهاتهم بأنهم لا تعويل لهم إلا على ما كان عليه آباؤهم الأولون الضالون، وأنذروا باقتراب انتهاء تمتيعهم وإمهالهم، وتقضى ذلك بمزيد البيان، وأفضى الكلام إلى ما قالوه في القرآن ومن جاء به بقوله)ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر(إلى قوله)عظيم(، وما ألحق به من التكملات، عاد الكلام هنا إلى عواقب صرفهم عقولهم عن التدبر في الدعوة القرآنية فكان انصرافهم سببا لأن يسخر الله شياطين لهم تلازمهم فلا تزال تصرفهم عن النظر في الحق وأدلة الرشد. وهو تسخير اقتضاه نظام تولد الفروع من أصولها، فلا يتعجب من عمى بصائرهم عن إدراك الحق البين، وهذا من سنة الوجود في تولد الأشياء من عناصرها فالضلال ينمي ويتولد في النفوس ويتمكن منها مرة بعد مرة حتى يصير طبعا على القلب وأكنة فيه وختما عليه ولا يضعف عمل الشيطان إلا بتكرر الدعوة إلى الحق وبالزجر والإنذار، فمن زناد التذكير تنقدح شرارات نور فربما أضاءت فصادفت قوة نور الحق حالة وهن الشيطان فتتغلب القوة الملكية على القوة الشيطانية فيفيق صاحبها من نومة ضلاله.

وقد أشار إلى ذلك قوله)أفنضرب عنكم الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين(كما تقدم هنالك، ولولا ذلك لما ارعوى ضال عن ضلاله ولما نفع إرشاد المرشدين في نفوس المخاطبين.

فجملة)ومن يعش عن ذكر الرحمان(عطف على جملة)ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر(الآية.

وقوله)ومن يعش عن ذكر الرحمان(تمثيل لحالهم في إظهارهم عدم فهم القرآن كقولهم)قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر(بحال من يعشو عن الشيء الظاهر للبصر.

و)يعش(: مضارع عشا كغزا عشوا بالواو، إذا نظر إلى الشيء نظرا غير ثابت يشبه نظر الأعشى، وإما العشا بفتح العين والشين فهو اسم ضعف العين عن رؤية الأشياء، يقال: عشي بالياء مثل عرج إذا كانت في بصره آفة العشا ومصدره عشى بفتح العين والقصر مثل العرج.

والفعل واوي عشا يعشو، ويقال عشي يعشى إذا صار العشا له آفة لأن أفعال الأدواء تأتي كثيرا على فعل بكسر العين مثل مرض. وعشي ياؤه منقلبة عن واو لأجل كسرة صيغة الأدواء.

فمعنى)ومن يعش(من ينظر نظرا غير متمكن في القرآن، أي من لا حظ له إلا سماع كلمات القرآن دون تدبر وقصد للانتفاع بمعانيه، فشبه سماع القرآن مع عدم الانتفاع به بنظر الناظر دون تأمل.

وعدي)يعش(ب)عن(المفيدة للمجاوزة لأنه ضمن معنى الإعراض عن ذكر الرحمان وإلا فإن حق عشا أن يعدى ب)إلى(كما قال الحطيئة:

متى تأنه تعشه إلى ضوء ناره تجد

خير نار عندها خير موقد ولا يقال: عشوت عن النار إلا بمثل التضمين الذي في هاته الآية. فتفسير من فسر)يعش عن ذكر الرحمان(بمعنى يعرض: أراد تحصيل المعنى باعتبار التعدية ب)عن(، وإنكار من أنكر وجود)عشا(بمعنى أعرض أراد إنكار أن يكون معنى أصليا لفعل)عشا(وظن أن تفسيره بالإعراض تفسير لمعنى الفعل وليس تفسيرا للتعدية ب)عن(فالخلاف بين الفريقين لفظي.

و)ذكر الرحمان(هو القرآن المعبر عنه بالذكر في قوله)أفنضرب عنكم الذكر صفحا(. وإضافته إلى)الرحمان(إضافة تشريف وهذا ثناء خامس على القرآن.

والتقييض: الإتاحة وتهيئة شيء لملازمة شيء لعمل حتى يتمه، وهو مشتق من اسم جامد وهو قيض البيضة، أي القشر المحيط بما في داخل البيضة من المح لأن القيض يلازم البيضة فلا يفارقها حتى يخرج منها الفرخ فيتم ما أتيح له القيض.

فصيغة التفعيل للجعل مثل طين الجدار: ومثل أزره، أي ألبسه الإزار، ودرعوا الجارية، أي ألبسوها الدرع. وأصله هنا تشبيه أي نجعله كالقيض له، ثم شاع حتى صار معنى مستقلا، وقد تقدم في قوله تعالى)وقيضنا لهم قرناء(في سورة فصلت فضم إليه ما هنا.

وأتى الضمير في)له(مفردا لأن لكل واحد ممن تحقق فيهم الشرط شيطانا وليس لجميعهم شيطان واحد ولذلك سيجيء في قوله)قال ياليت بيني وبينك(بالإفراد، أي قال كل من له قرين لقرينه.

ولم يذكر متعلق فعل)نقيض(اكتفاء بدلالة مفعوله وهو)شيطانا(فعلم منه أنه مقيض لإضلاله، أي هم أعرضوا عن القرآن لوسوسة الشيطان لهم.

وفرع عن)نقيض(قوله)فهو له قرين(لأن النقيض كان لأجل مقارنته.
ومن الفوائد التي جرت في تفسير هذه الآية ما ذكره صاحب نيل الابتهاج بتطريز الديباج في ترجمة الحفيد محمد بن أحمد بن محمد الشهير بابن مرزوق قال قال صاحب الترجمة: حضرت مجلس شيخنا ابن عرفة أول مجلس حضرته فقرأ)ومن يعش عن ذكر الرحمان(فقال: قرئ)يعشو(بالرفع و)نقيض(بالجزم. ووجهها أبو حيان بكلام ما فهمته. وذكر أن في النسخة خللا وذكر بعض ذلك الكلام. فاهتديت إلى تمامه وقلت: يا سيدي معنى ما ذكر أن جزم كانوا يعاملون الموصول الذي لا يشبه لفظ الشرط بذلك فما يشبه لفظه لفظ الشرط أولى بتلك المعاملة. فوافق وفرح لما أن الإنصاف كان طبعه. وعند ذلك أنكر علي جماعة من أهل المجلس وطالبوني بإثبات معاملة الموصول معاملة الشرط فقلت: نصهم على دخول الفاء في خبر الموصول في نحو: الذي يأتيني فله درهم، فنازعوني في ذلك وكنت حديث عهد بحفظ التسهيل فقلت: قال ابن مالك فيما يشبه المسألة)وقد يجزمه مسبب عن صلة الذي تشبيها بجواب الشرط وأنشدت من شواهد المسألة قول الشاعر:

كذاك الذي يبغي على الناس ظالما

تصبه على رغم عواقب ما صنع فجاء الشاهد موافقا للحال. قال: وكنت في طرف الحلقة، فصاح ابن عرفة وقال: يا أخي ما بغينا، لعلك ابن مرزوق؟ فقلت: عبدكم انتهى من اغتنام الفرصة. اه.
وجيء بالجملة المفرعة جملة اسمية للدلالة على الدوام، أي فكان قرينا مقارنة ثابتة دائمة، ولذلك لم يقل: نقيض له شيطانا قرينا له. وقدم الجار والمجرور على متعلقه في قوله)له قرين(للاهتمام بضمير)من يعشو عن ذكر الرحمن(أي قرين له مقارنة تامة.
وقرأ الجمهور نقيض بنون العظمة. وقرأ يعقوب ياء الغائب عائدا ضميره على)الرحمان(.
)وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون[37](في موضع الحال من الضمير في قوله)فهو له قرين(أي مقارنة صد عن السبيل.
وضميرا)إنهم(و)يصدون(عائدان إلى)شيطانا(لأنه لما وقع من متعلقات الفعل الواقع جواب شرط اكتسب العموم تبعا لعموم)من(في سياق الشرط فإنها من صيغ العموم مثل النكرة الواقعة في سياق الشرط على خلاف بين أئمة أصول الفقه في عموم النكرة الواقعة في سياق الشرط ولكنه لا يجري هنا لأن عموم)

شيطانا(تابع لعموم)من(إذ أجزاء جواب الشرط تجري على حكم أجزاء جملة الشرط، فقرينة عموم النكرة هنا لا تترك مجالا للتردد فيه لأجل القرينة لا لمطلق وقوع النكرة في سياق الشرط.
وضمير النصب في)يصدونهم(عائد إلى)من(لأن)من(الشرطية عامة فكأنه قيل: كل من يعشو عن ذكر الرحمان نقيض لهم شياطين لكل واحد شيطان.
وضميرا)يحسبون أنهم مهتدون(عائدان إلى ما عاد إليه ضمير النصب من)يصدونهم(، أي ويحسب المصدودون عن السبيل أنفسهم مهتدين.
وقد تتشابه الضمائر فترد القرينة كل ضمير إلى معاده كما في قول عباس بن مرداس:
عدنا ولو لا نحن أحدق جمعهم
بالمسلمين وأحرزوا ما جمعوا فضمير: أحرزوا، لجمع المشركين، وضمير: جمعوا، للمسلمين. وضمير الجمع في قوله تعالى)وعمروها أكثر مما عمروها(في سورة الروم.
والتعريف في)السبيل(تعريف الجنس. والسبيل: الطريق السابلة الممتدة الموصلة إلى المطلوب.
وقد مثلت حالة الذين يعشون عن ذكر الرحمان وحال مقارنة الشياطين لهم بحال من استهدى قوما ليدلوه على طريق موصل لبغيته فضللوه وصرفوه عن السبيل وأسلكوه في فيافي التيه غشا وخديعة، وهو يحسب أنه سائر إلى حيث يبلغ طلبته.
فجملة)ويحسبون أنهم مهتدون(معطوفة على جملة)وإنهم(، فهي في معنى الحال من الضمير في قوله)فهو(والرابط واو الحال، والتقدير: ويحسب المصدودون أنهم مهتدون بهم إلى السبيل.
والاهتداء: العلم بالطريق الموصل إلى المقصود.
)حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين[38]( )حتى(ابتدائية، وهي تفيد التسبب الذي هو غاية مجازية. فاستعمال)حتى(فيه استعارة تبعية.

وليست في الآية دلالة على دوام الصد عن السبيل وحسبان الآخرين الاهتداء إلى فناء القرينين، إذ قد يؤمن الكافر فينقطع الصد والحسبان فلا تغتر بتوهم من يزعمون أن الغاية الحقيقية لا تفارق) حتى(في جميع استعمالاتها.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر)جاءنا(بألف ضمير المثنى عائدا على من يعش عن ذكر الرحمان وقرينه، أي شيطانه، وأفرد ضمير)قال(لرجوعه إلى من يعش عن ذكر الرحمان خاصة، أي قال الكافر متندما على ما فرط من اتباعه إياه وائتماره بأمره.

وقرأ الجمهور)جاءنا(بصيغة المفرد والضمير المستتر في) قال(عائد إلى)من يعش عن ذكر الرحمان(، أي قال أحدهما وهو الذي يعشو. فالمعنى على القراءتين واحد لأن قراءة التثنية صريحة في مجيء الشيطان مع قرينه الكافر وأن المتندم هو الكافر، والقراءة بالإفراد متضمنة مجيء الشيطان من قوله)يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين(إذ علم أن شيطانه القرين حاضر من خطاب الآخر إياه بقوله)وبينك(.

وحرف)يا(أصله للنداء، ويستعمل للتلهف كثيرا كما في قوله)يا حسرة(وهو هنا للتلهف والتندم.

والمشرقان: المشرق والمغرب، غلب اسم المشرق لأنه أكثر خطورا بالأذهان لتشوف النفوس إلى إشراق الشمس بعد الإظلام.

والمراد بالمشرق والمغرب: إما مكان شروق الشمس وغروبها في الأفق، وإما الجهة من الأرض التي تبدو الشمس منها عند شروقها وتغيب منها عند غروبها فيما يلوح لطائفة من سكان الأرض. وعلى الاحتمالين فهو مثل لشدة البعد.

وأضيف)بعد(إلى)المشرقين(بالتثنية بتقدير: بعد لهما، أي مختص بهما بتأويل البعد بالتباعد وهو إيجاز بديع حصل من صيغة التغليب ومن الإضافة. ومساواته أن يقال بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق فنابت كلمة)المشرقين(عن ست كلمات.

وقوله)فبئس القرين(بعد أن تمنى مفارقته فرع عليه ذما فالكافر يذم شيطانه الذي كان قرينا، ويعرض بذلك للتفصي من المؤاخذة، وإلقاء التبعة على الشيطان الذي أضله.

والمقصود من حكاية هذا تفظيع عواقب هذه المقارنة التي كانت شغف المتقارنين، وكذلك شأن كل مقارنة على عمل سيء العاقبة، وهذا من قبل قوله تعالى)الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين(.

والمقصود تحذير الناس من قرين السوء وذم الشياطين ليعافهم الناس كقوله)إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا(.

)ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون[39]

(الظاهر أن هذه الجملة معطوفة على جملة)قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين(وأن قولا محذوفا دل عليه فعل)جاءنا(الدال على أن الفريقين حضرا للحساب وتلك الحضرة تؤذن بالمقاولة فإن

الفريقين لما حضرا وتبرأ أحدهما من الآخر قصدا للتفصي من المؤاخذة كما تقدمت الإشارة إليه آنفا فيقول الله ولن ينفعكم اليوم أنكم في العذاب مشتركون.

والخطاب موجه للذين عشوا عن ذكر الرحمان ولشياطينهم.

وفي هذا الكلام إشارة إلى كلام مطوي، والتقدير: لا تلقوا التبعة على القرناء فأنتم مؤاخذون بطاعتهم وهم مؤاخذون بإضلالكم وأنتم مشتركون في العذاب ولن ينفعكم أنكم في العذاب مشتركون لأن عذاب فريق لا يخفف عن فريق كما قال تعالى)قالوا ربنا هؤلاء أضلونا فأتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون(.

ووقوع فعل)ينفعكم(في سياق النفي يدل على نفي أن يكون الاشتراك في العذاب نافعا بحال لأنه لا يخفف عن الشريك من عذابه. وأما ما يتعارفه الناس من تسلي أحد برؤية مثله ممن مني بمصيبة فذلك من أوهام البشر في الحياة الدنيا، ولعل الله جعل لهم ذلك رحمة بهم في الدنيا، وأما الآخرة فعالم الحقائق دون الأوهام. وفي هذا التوهم جاء قول الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي على

إخوانهم لقتلت نفسي وقرأ الجمهور)أنكم(بفتح همزة)أن(على جعل المصدر فاعلا. وقرأ ابن عامر)إنكم(بكسر الهمزة على الاستئناف ويكون الوقف عند قوله)إذ ظلمتم(وفاعل)ينفعكم(ضمير عائد على التمني بقولهم)يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين(، أي لن ينفعكم تمنيكم ولا تفصيكم.

و)إذ(أصله ظرف مبهم للزمن الماضي تفسره الجملة التي يضاف هو إليها ويخرج عن الظرفية إلى ما يقاربها بتوسع أو إلى ما يشابهها بالمجاز. وهو التعليل، وهي هنا مجاز في معنى التعليل، شبهت علة الشيء وسببه بالظرف في اللزوم له. وقد ذكر في مغني اللبيب معنى التعليل من معاني)إذ(ولم ينسبه لأحد من أئمة النحو واللغة.

وجوز الزمخشري أن تكون)إذ(بدلا من)اليوم(، وتأول الكلام على جعل فعل)ظلمتم(بمعنى: تبين أنكم ظلمتم، أي واستعمل الإخبار بمعنى التبين، كقول زائد بن صعصعة الفقعسي:

إذا ما انتسبنا لم تلدنـي لـئيمة ولم

تجدي من أن تقري به بدا أي تبين أن لم تلدني لئيمة، وتبعه ابن

الحاجب في أماليه وقال ابن جني: راجعت أبا علي مرارا في قوله تعالى)ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم(الآية مستشكلا إبدال)إذ(من) اليوم(فآخر ما تحصل منه أن الدنيا والآخرة سواء في حكم الله وعلمه فكأن)اليوم(ماض أو كان)إذ(مستقبلة اه. وهو جواب وهن مدخول.

وأقول: اجتمع في هذه الآية دوال على ثلاثة أزمنة وهي)لن(لنفي المستقبل، و)اليوم(اسم لزمن الحال، و)إذ(اسم لزمن المضي، وثلاثتها منوطة بفعل)ينفعكم(ومقتضياتها ينافي بعضها بعضا، فالنفي في المستقبل ينافي التقييد ب)اليوم(الذي هو للحال، و)إذ(ينافي نفي النفع في المستقبل وينافي التقييد ب)اليوم(فتصدى الزمخشري وغيره لدفع التنافي بين مقتضى)إذ(ومقتضى)اليوم(بتأويل معنى) إذ(كما علمت، ولم يتصد هو ولا غيره لدفع التنافي بين مقتضى) اليوم(الدال على زمن الحال وبين مقتضى)لن(وهو حصول النفي في الاستقبال. وأنا أرى لدفعه أن يكون)اليوم(ظرفا للحكم والإخبار، أي تقرر اليوم انتفاء انتفاعكم بالاشتراك في العذاب انتفاء مؤبدا من الآن، كقول مقدام الدبيري:

لن يخلص العام خليل عشرا ذاق

الضماد أو يزور القبرا وقد حصل من اجتماع هذه الدوال الثلاث في الآية طباق عزيز بين ثلاثة معان متضادة في الجملة.

)أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين[40] (تفريع على جملة)ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا(لأن ذلك أفاد توغلهم في الضلالة وعسر انفكاكهم عنها، لأن مقارنة الشياطين لهم تقتضي ذلك، فانتقل منه إلى التهوين على النبي صلى الله عليه وسلم ما يلاقيه من الكد والتحرق عليهم في تصميمهم على الكفر والغي وفيه إيماء إلى تأييس من اهتداء أكثرهم.

والاستفهام لإنكار أن يكون حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على هداهم ناجعا فيهم إذا كان الله قدر ضلالهم فأوجد أسبابه، قال تعالى)إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل(، ولما كان حال الرسول صلى الله عليه وسلم في معاودة دعوتهم كحال من يظن أنه قادر على إيصال التذكير إلى قلوبهم نزل منزلة من يظن ذلك فخوطب باستفهام الإنكار وسلط الاستفهام على كلام فيه طريق قصر بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي مع إيلاء الضمير حرف الإنكار وهو قصر مؤكد وقصر قلب، أي أنت لا تسمعهم ولا تهديهم بل الله يسمعهم ويهديهم إن شاء، وهو نظير)أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين(.

ومن بديع معنى الآية أن الله وصف حال إعراضهم عن الذكر بالعشاء وهو النظر الذي لا يتبين شبح الشيء المنظور إليه ثم وصفهم هنا بالصم العمي إشارة إن التمحل للضلال ومحاولة تأييده ينقلب بصاحبه إلى أشد الضلال لا أن التخلق يأتي دونه الخلق والأحوال تنقلب ملكات. وهو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا أي حتى يحق عليه أن الكذب ملكة له، وإذ قد كان إعراضهم انصرافا عن استماع القرآن وعن النظر في الآيات كان حالهم يشبه حال الصم العمي كما مهد لذلك بقوله)ومن يعش عن ذكر الرحمان(كما ذكرناه هنالك، فظهرت المناسبة بين وصفهم بالعشا وبين ما في هذا الانتقال لوصفهم بالصم العمي.

صفحة : 3925

وعطف)ومن كان في ضلال مبين(فيه معنى التذييل لأنه أعم من كل من الصم والعمي باعتبار انفرادهما، وباعتبار أن الصمم والعمى لما كانا مجازين قد يكون تعلقهما بالمسموع والمبصر جزئيا في حالة خاصة فكان الوصف بالكون في الضلال المبين تنبيها على عموم الأحوال وهو مع ذلك ترشيح للاستعارة لأن اجتماع الصمم والعمى أبين ضلالا.
)فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون[41] أو نرينك الذي وعدنهم فإنا عليهم مقتدرون[42](تفريع على جملة)أفأنت تسمع الصم(إلى آخرها المتضمنة إيماء إلى التأسيس من اهتدائهم، والصريحة في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم من شدة الحرص في دعوتهم، فجاء هنا تحقيق وعد بالانتقام منهم، ومعناه: الوعد بإظهار الدين إن كان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته، ووعيدهم بالعقاب في الدنيا قبل عقاب الآخرة، فلأجل الوفاء بهذين الغرضين ذكر في هذه الجملة أمران: الانتقام منهم لا محالة، وكون ذلك واقعا في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته. والمفرع هو) فإنا منهم منتقمون(وما ذكر معه، فمراد منه تحقق ذلك على كل تقدير.
و)إما(كلمتان متصلتان أصلهما)إن(الشرطية و)ما(زائدة بعد)إن(، وأدغمت نون)إن(في الميم من حرف)ما(، وزيادة)ما(للتأكيد، ويكثر اتصال فعل الشرط بعد)إن(المزيدة بعدها)ما(بنون التوكيد زيادة في التأكيد، ويكتبونها بهمزة وميم وألف تبعا لحالة النطق بها.

والذهاب به هنا مستعمل للتوفي بقرينة قوله)أو نرينك الذي وعدناهم(لأن الموت مفارقة للأحياء فالإماتة كالانتقال به، أي تغييبه ولذلك يعبر عن الموت بالانتقال. والمعنى: فإما نتوفينك فإنا منهم منتقمون بعد وفاتك.

وقد استعمل)منتقمون(للزمان المستقبل استعمال اسم الفاعل في الاستقبال، وهو مجاز شائع مساو للحقيقة والقرينة قوله)فإما نذهبن بك(.

والمراد ب)الذي وعدناهم(الانتقام المأخوذ من قوله)فإنا منهم منتقمون(. وقد أراه الله تعالى الانتقام منهم بقتل صناديدهم يوم بدر، قال تعالى)يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون(والبطشة هي بطشة بدر.

وجملة)فإنا منهم منتقمون(جواب الشرط، واقترن بالفاء لأنه جملة اسمية، وإنما صيغ كذلك للدلالة على ثبات الانتقام ودوامه، وأما جملة)فإنا عليهم مقتدرون(فهي دليل جواب جملة)أو نرينك الذي وعدناهم(المعطوفة على جملة الشرط لأن اقتدار الله عليهم لا يناسب أن يكون معلقا على إراءته الرسول صلى الله عليه وسلم الانتقام منهم، فالجواب محذوف لا محالة لقصد التهويل. وتقديره: أو إما نرينك الذي وعدناهم، وهو الانتقام تر انتقاما لا يفلتون منه فإنا عليهم مقتدرون، أي متقدرون الآن فاسم الفاعل مستعمل في زمان الحال وهو حقيقته.

ولا يستقيم أن تكون جملة)فإنا منهم منتقمون(دليلا على الجواب المحذوف لأنه يصير: أو إما نرينك الانتقام منهم فإنا منهم منتقمون.

وتقديم المجرورين)منهم(و)عليهم(على متعلقيهما للاهتمام بهم في التمكن بالانتقام والاقتدار عليهم.

والوعد هنا بمعنى الوعيد بقرينة قوله قبله)فإنا منهم منتقمون(فإن الوعد إذا ذكر مفعوله صح إطلاقه على الخير والشر، وإذا لم يذكر مفعوله انصرف للخير وأما الوعيد فهو للشر دائما.

والاقتدار: شدة القدرة، واقتدر أبلغ من قدر. وقد غفل صاحب القاموس عن التنبيه عليه.

وقد اشتمل هذان الشرطان وجواباهما على خمسة مؤكدات وهي) ما(الزائدة، ونون التوكيد، وحرف)إن(للتوكيد، والجملة الاسمية، وتقديم المعمول على)منتقمون(.

وفائدة الترديد في هذا الشرط تعميم الحالين حال حياة النبي صلى الله عليه وسلم وحال وفاته. والمقصود: وقت ذينك الحالين لأن المقصود توقيت الانتقام منهم.

والمعنى: أننا منتقمون منهم في الدنيا سواء كنت حيا أو بعد موتك، أي فالانتقام منهم من شأننا وليس من شأنك لأنه من أجل إعراضهم عن أمرنا وديننا، ولعله لدفع استبطاء النبي صلى الله عليه وسلم أو المسلمين تأخير الانتقام من المشركين ولأن المشركين كانوا يتربصون بالنبي الموت فيستريحوا من دعوته فأعلمه الله أنه لا يفلتهم من الانتقام على تقدير موته وقد حكى الله عنهم قولهم)نتربص به ريب المنون(ففي هذا الوعيد إلقاء الرعب في قلوبهم لما يسمعونه.

)فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم[43](لما هون الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ما يلاقيه من شدة الحرص على إيمانهم ووعده النصر عليهم فرع على ذلك أن أمره بالثبات على دينه وكتابه وأن لا يخور عزمه في الدعوة ضجرا من تصلبهم في كفرهم ونفورهم من الحق.

والاستمساك: شدة المسك، فالسين والتاء فيه للتأكيد.

والأمر به مستعمل في طلب الدوام، لأن الأمر بفعل لمن هو متلبس به لا يكون لطلب الفعل بل لمعنى آخر وهو هنا طلب الثبات على التمسك بما أوحي إليه كما دل عليه قوله)إنك على صراط مستقيم(وهذا كما يدعى للعزيز المكرم، فيقال: أعزك الله وأكرمك، أي أدام ذلك وقوله: أحياك الله، أي أطال حياتك، ومنه قوله تعالى في تعليم الدعاء)اهدنا الصراط المستقيم(.

والذي أوحي إليه هو القرآن.

وجملة)إنك على صراط مستقيم(تأييد لطلب الاستمساك بالذي أوحي إليه وتعليل له.

والصراط المستقيم: هو العمل بالذي أوحي إليه، فكأنه قيل: إنه صراط مستقيم، ولكن عدل عن ذلك إلى)إنك على صراط مستقيم(ليفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم راسخ في الاهتداء إلى مراد الله تعالى كما يتمكن السائر من طريق مستقيم لا يشوبه في سيره تردد في سلوكه ولا خشية الضلال في بنياته. ومثله قوله تعالى)إنك على الحق المبين(في سورة النمل.

وحرف)على(للاستعلاء المجازي المراد به التمكن كقوله)أولئك على هدى من ربهم(.

وهذا تثبيت للرسول صلى الله عليه وسلم وثناء عليه بأنه ما زاغ قيد أنملة عما بعثه الله به، كقوله)إنك على الحق المبين(ويتبعه تثبيت المؤمنين على إيمانهم. وهذا أيضا ثناء سادس على القرآن.

)وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون[44](ذكر حظ الرسول صلى الله عليه وسلم من الثناء والتأييد في قوله)على صراط مستقيم(المجعول علة للأمر بالثبات عليه، ثم عطف عليه تعليل آخر اشتمل على ذكر حظ القرآن من المدح، والنفع بقوله)وإنه لذكر(، وتشريفه به بقوله)لك(، وأتبع بحظ التابعين له ولكتابه من الاهتداء، والانتفاع، بقوله)ولقومك(. ثم عرض بالمعرضين عنه والمجازفين له بقوله)وسوف تسألون(، مع التوجيه في معنى كلمة ذكر من إرادة أن هذا الدين يكسبه قومه حسن السمعة في الأمم فمن اتبعه نال حظه من ذلك ومن أعرض عنه عد عداد الحمقى كما سيأتي، مع الإشارة إلى انتفاع المتبعين به في الآخرة، واستضرار المعرضين عنه فيها، وتحقيق ذلك بحرف الاستقبال.

فهذه الآية اشتملت على عشرة معان، وبذلك كانت أوفر معاني من قول امريء القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل المعدود أبلغ كلام من كلامهم في الإيجاز إذ وقف، واستوقف، وبكى واستبكى. وذكر الحبيب، والمنزل في مصراع. وهذه الآية لا تتجاوز مقدار ذلك المصراع وعدة معانيها عشرة في حين كانت معاني مصراع امرئ القيس ستة مع ما تزيد به هذه الآية من الخصوصيات، وهي التأكيد ب)إن(واللام والكناية ومحسن التوجيه.

والذكر يحتمل أن يكون ذكر العقل، أي اهتداءه لما كان غير عالم به، فشبه بتذكر الشيء المنسي وهو ما فسر به كثير الذكر بالتذكير، أي الموعظة.

ويحتمل ذكر اللسان، أي أنه يكسبك وقومك ذكرا، والذكر بهذا المعنى غالب في الذكر بخبره.

والمعنى: أن القرآن سبب الذكر لأنه يكسب قومه شرفا يذكرون بسببه. وقد روي هذا التفسير عن علي وابن عباس في رواية ابن عدي وابن مردويه قال القرطبي ونظيره قوله تعالى)وإنه لذكر لك ولقومك(يعني القرآن شرف لك ولقومك من قريش، فالقرآن نزل بلسان قريش فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم كل من آمن بذلك فشرفوا بذلك على سائر أهل اللغات . وقال ابن عطية قال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل فإذا قالوا له: فلمن يكون الأمر بعدك؟ سكت حتى إذا نزلت هذه الآية فكان إذا سئل عن ذلك قال: لقريش .

ودرج عليه كلام الكشاف.
ففي لفظ)ذكر(محسن التوجيه فإذا ضم إليه أن ذكره وقومه بالثناء يستلزم ذم من خالفهم كان فيه تعريض بالمعرضين عنه.
و)قومه(هم قريش لأنهم المقصود بالكلام أو جميع العرب لأنهم شرفوا بكون الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم منهم ونزول القرآن بلغتهم، وقد ظهر ذلك الشرف لهم في سائر الأعصر إلى اليوم، ولولاه ما كان للعرب من يشعر بهم من الأمم العظيمة الغالبة على الأرض.
وهذا ثناء سابع على القرآن.
والسؤال في قوله)وسوف تسألون(سؤال تقرير. فسؤال المؤمنين عن مقدار العمل بما كلفوا به، وسؤال المشركين سؤال توبيخ وتهديد قال تعالى)ستكتب شهادتهم ويسألون(وقال تعالى)ألم يأتكم نذير(إلى قوله)فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير(.
)وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن إلهة يعبدون[45](الأمر بالسؤال هنا تمثيل لشهرة الخبر وتحققه كما في قول السمؤال أو الحارثي:
سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم وقول زيد الخيل:
سائل فوارس يربوع بشدتنا وقوله)فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك(إذ لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم في شك حتى يسأل، وإلا فإن سؤاله الرسل الذين من قبله متعذر على الحقيقة. والمعنى استقر شرائع الرسل وكتبهم وأخبارهم هل تجد فيها عبادة آلهة. وفي الحديث واستفت قلبك أي تثبت في معرفة الحلال والحرام.
وجملة)أجعلنا(بدل من جملة)واسأل(، والهمزة للاستفهام وهو إنكاري وهو المقصود من الخبر، وهو رد على المشركين في قولهم)إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون(أي ليس آباؤكم بأهدى من الرسل الأولين إن كنتم تزعمون تكذيب رسولنا لأنه أمركم بإفراد الله بالعبادة.
ويجوز أن يجعل السؤال عن شهرة الخبر.
ومعنى الكلام: وإنا ما أمرنا بعبادة آلهة دوننا على لسان أحد من رسلنا. وهذا رد لقول المشركين)لو شاء الرحمان ما عبدناهم(.
و)من(في قوله)من قبلك(لتأكيد اتصال الظرف بعامله.
و)من(في قوله)من رسلنا(بيان ل)قبلك(.
فمعنى)أجعلنا(ما جعلنا ذلك، أي جعل التشريع والأمر، أي ما أمرنا بأن تعبد آلهة دوننا.
فوصف آلهة ب)يعبدون(لنفي أن يكون الله يرضى بعبادة غيره فضلا عن أن يكون غيره إلها مثله وذلك أن المشركين كانوا يعبدون

الأصنام وكانوا في عقائدهم أشتاتا فمنهم من يجعل الأصنام آلهة شركاء لله، ومنهم من يزعم أنه يعبدهم ليقربوه من الله زلفى، ومنهم من يزعمهم شفعاء لهم عند الله. فلما نفي بهذه الآية أن يكون جعل آلهة يعبدون أبطل جميع هذه التمحلات.
وأجري)آلهة(مجرى العقلاء فوصفوا بصيغة جمع العقلاء بقوله) يعبدون(. ومثله كثير في القرآن جريا على ما غلب في لسان العرب إذ اعتقدوهم عقلاء عالمين.
وقرأ ابن كثير والكسائي)وسل(بتخفيف الهمزة.
)ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إ ني رسول رب العالمين[46] فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون[47](

صفحة : 3928

قد ذكر الله في أول السورة قوله)وكم أرسلنا من نبي في الأولين وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين(. وساق بعد ذلك تذكرة بإبراهيم عليه السلام مع قومه، وما تفرع على ذلك من أحوال أهل الشرك فلما تقضى أتبع بتنظير حال الرسول صلى الله عليه وسلم مع طغاة قومه واستهزائهم بحال موسى مع فرعون وملئه، فإن للمثل والنظائر شأنا في إبراز الحقائق وتصوير الحالين تصويرا يفضي إلى ترقب ما كان لإحدى الحالتين من عواقب أن تلحق أهل الحالة الأخرى، فإن فرعون وملئه تلقوا موسى بالإسراف في الكفر وبالاستهزاء به وباستضعافه إذ لم يكن ذا بذخة ولا محلى بحلية الثراء وكانت مناسبة قوله)واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا(الآية هيأت المقام لضرب المثل بحال بعض الرسل الذين جاءوا بشريعة عظمى قبل الإسلام.
والمقصود من هذه القصة هو قوله فيها)فلما أسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين(، فإن المراد بالآخرين المكذبون صناديد قريش.
ومن المقصود منها بالخصوص هنا: قوله)وملئه(أي عظماء قومه فإن ذلك شبيه بحال أبي جهل وأضرابه، وقوله)فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون(لأن حالهم في ذلك مشابه لحال قريش الذي أشار إليه قوله)وكم أرسلنا من نبي في الأولين وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون(، وقوله بعد ذلك)أم أنا خير من هذا الذي هو مهين(لأنهم أشبهوا بذلك حال أبي جهل ونحوه في قولهم)لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم(إلا أن كلمة سادة قريش كانت أقرب إلى الأدب من كلمة فرعون لأن هؤلاء كان

رسولهم من قومهم فلم يتركوا جانب الحياء بالمرة وفرعون كان رسوله غريبا عنهم. وقوله)فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب(لأنه مشابه لما تضمنه قول صناديد قريش)على رجل من القريتين عظيم(فإن عظمة ذينك الرجلين كانت بوفرة المال، ولذلك لم يذكر مثله في غير هذه القصة من قصص بعثة موسى عليه السلام، وقولهم)يا أيها الساحر ادع لنا ربك(وهو مضاه لقوله في قريش) هذا سحر وإنا به كافرون(، وقوله)فأغرقناهم أجمعين(الدال على أن الله أهلكهم كلهم، وذلك إنذار بما حصل من استئصال صناديد قريش يوم بدر.

فحصل من العبرة هذه القصة أمران: أحدهما: أن الكفار والجهلة يتمسكون بمثل هذه الشبهة في رد فضل الفضلاء فيتمسكون بخيوط العنكبوت من الأمور العرضية التي لا أثر لها في قيمة النفوس الزكية.

وثانيهما: أن فرعون صاحب العظمة الدنيوية المحضة صار مقهورا مغلوبا انتصر عليه الذي استضعفه، وتقدم نظير هذه الآية غير مرة.

و)إذا(حرف مفاجأة، أي يدل على أن ما بعده حصل من غير ترقب فتفتتح به الجملة التي يفاد منها حصول حادث على وجه المفاجأة.

ووقعت الجملة التي فيها)إذا(جوابا لحرف)لما(، وهي جملة اسمية و)لما(تقتضي أن يكون جوابها جملة فعلية، لأن ما في) إذا(من معنى المفاجأة يقوم مقام الجملة الفعلية.

والضحك: كناية عن الاستخفاف بالآيات والتكذيب فلا يتعين أن يكون كل الحاضرين صدر منهم ضحك، ولا أن ذلك وقع عند رؤية آية إذ لعل بعضها لا يقتضي الضحك.

)وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون[48](الأظهر أن جملة)وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها(في موضع الحال، وأن الواو واو الحال وأن الاستثناء من أحوال، وما بعد)إلا(في موضع الحال، واستغنت عن الواو لأن) إلا(كافية في الربط.

والمعنى: أنهم يستخفون بالآيات التي جاء بها موسى في حال أنها آيات كبيرة وعظيمة فإنما يستخفون بها لمكابرتهم وعنادهم.

وصوغ)نريهم(بصيغة المضارع لاستحضار الحالة.

ومعنى)هي أكبر من أختها(يحتمل أن يراد به أن كل آية تأتي تكون أعظم من التي قبلها، فيكون هنالك صفة محذوفة لدلالة المقام، أي من أختها السابقة، كقوله تعالى)يأخذ كل سفينة غصبا(، أي كل سفينة صحيحة، وهذا يستلزم أن تكون الآيات مترتبة في

العظم بحسب تأخر أوقات ظهورها لأن الإتيان بآية بعد أخرى ناشئ عن عدم الارتداع من الآية السابقة.

صفحة : 3929

ويحتمل ما قال صاحب الكشاف أن الآيات موصوفات بالكبر لا بكونها متفاوتة فيه وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير، أي تختلف آراء الناس في تفضيلها، فعلى ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا: رأيت رجالا بعضهم أفضل من بعض، وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك، ومنه بيت الحماسة:

من تلق منهم تقل لاقيت سـيدهـم

مثل النجوم التي يسري بها الساري وقد فاضلت الأنمارية بين الكملة من بنيها ثم قالت: لما أبصرت مراتبهم متقاربة قليلة التفاوت ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

فالمعنى: وما نريهم من آية إلا وهي آية جليلة الدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم تكاد تنسيهم الآية الأخرى. والأخت مستعارة للمماثلة في كونها آية.

وعطف)وأخذناهم بالعذاب(على جملة)وما نريهم من آية(لأن العذاب كان من الآيات.

والعذاب: عذاب الدنيا، وهو ما يؤلم ويشق، وذلك القحط، والقمل، والطوفان، والضفادع، والدم في الماء.

والأخذ بمعنى: الإصابة. والباء في)بالعذاب(للاستعانة كما تقول: خذ الكتاب بقوة، أي ابتدأناهم بالعذاب قبل الاستئصال لعل ذلك يفيقهم من غفلتهم، وفي هذا تعريض بأهل مكة إذ أصيبوا بسني القحط.

والرجوع: مستعار للإذعان والاعتراف، وليس هو كالرجوع في قوله آنفا)وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون(.

وضمائر الغيبة في)نريهم وأخذناهم، ولعلهم(عائدة إلى فرعون وملئه.

)وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون[49](عطف على)وأخذناهم بالعذاب(. والمعنى: ولما أخذناهم بالعذاب على يد موسى سألوه أن يدعو الله بكشف العذاب عنهم.

ومخاطبتهم موسى بوصف الساحر مخاطبة تعظيم تزلفا إليه لأن الساحر عندهم كان هو العالم وكانت علوم علمائهم سحرية، أي ذات أسباب خفية لا يعرفها غيرهم وغير أتباعهم، ألا ترى إلى قول

ملأ فرعون له)وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم(.
وكان الساحر بأيدي الكهنة ومن مظاهره تحنيط الموتى الذي بقي به جثث الأموات سالمة من البلى ولم يطلع أحد بعدهم على كيفية صنعه.
وفي آية الأعراف)قالوا يا موسى ادع لنا ربك(، ولا تنافي ما هنا لأن الخطاب خطاب إلحاح فهو يتكرر ويعاد بطرق مختلفة.
وقرأ الجمهور)يا أيها الساحر(بدون ألف بعد الهاء في الوصل وهو ظاهر، وفي الوقف أي بفتحة دون ألف وهو غير قياسي لكن القراءة رواية. وعلله أبو شامة بأنهم اتبعوا الرسم وفيه نظر. وقرأه أبو عمرو والكسائي ويعقوب بإثبات الألف في الوقف. وقرأه ابن عامر بضم الهاء في الوصل خاصة وهو لغة بني أسد، وكتبت في المصحف كلمة)أيه(بدون ألف بعد الهاء، والأصل أن تكون بألف بعد الهاء لأنها)ها(حرف تنبيه يفصل بين)أي(وبين نعتها في النداء فحذفت الألف في رسم المصحف رعيا لقراءة الجمهور والأصل أن يراعى في الرسم حالة الوقف.
وعنوا)بربك(الرب الذي دعاهم موسى إلى عبادته. والقبط كانوا يحسبون أن لكل أمة ربا ولا يحيلون تعدد الآلهة، وكانت لهم أرباب كثيرون مختلفة أعمالهم وقدرهم. ومثل ذلك كانت عقائد اليونان.
وأرادوا)بما عهد عندك(ما خصك بعلمه دون غيرك مما استطعت به أن تأتي بخوارق العادة.
وكانوا يحسبون أن تلك الآيات معلولة لعلل خفية قياسا على معارفهم بخصائص بعض الأشياء التي لا تعرفها العامة، وكان الكهنة يعهدون بها إلى تلامذتهم ويوصونهم بالكتمان.
والعهد: هو الائتمان على أمر مهم، وليس مرادهم به النبوءة لأنهم لم يؤمنوا به وإذ لم يعرفوا كنه العهد عبروا عنه بالموصول وصلته. والباء في قوله)بما عهد عندك(متعلقة ب)ادع(وهي للاستعانة. ولما رأوا الآيات علموا أن رب موسى قادر، وأن بينه وبين عهدا يقتضي استجابة سؤله.
وجملة)إننا لمهتدون(جواب لكلام مقدر دل عليه)ادع لنا ربك(أي دعوت لنا وكشفت عنا العذاب لنؤمنن لك كما في آية الأعراف)لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك(الآية.

ف)مهتدون(اسم فاعل مستعمل في معنى الوعد وهو منصرف للمستقبل بالقرينة كما دل قوله)ينكثون(ونظيره قوله في سورة الدخان حكاية عن المشركين)ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون أنى لهم الذكرى(الآية. وسموا تصديقهم إياه اهتداء لأن موسى سمى ما دعاهم إليه هديا كما في آية النازعات)وأهديك إلى ربك فتخشى(.

)فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون[50](أي تفرع على تضرعهم ووعدهم بالاهتداء إذا كشف عنهم العذاب أنهم نكثوا الوعد.

والنكث: نقض الحبل المبرم، وتقدم في قوله)فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون(في سورة الأعراف، وهو مجاز في الخيس بالعهد.

والكلام على تركيب هذه الجملة مثل الكلام على قوله آنفا)فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون(.

)ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون[51](لما كشف عنهم العذاب بدعوة موسى، وأضمر فرعون وملؤه نكث الوعد الذي وعدوه موسى بأنهم يهتدون، خشي فرعون أن يتبع قومه دعوة موسى ويؤمنوا برسالته فأعلن في قومه تذكيرهم بعظمة نفسه ليثبتهم على طاعته، ولئلا ينقل إليهم ما سأله من موسى وما حصل من دعوته بكشف العذاب وليحسبوا أن ارتفاع العذاب أمر اتفاقي إذ قومه لم يطلعوا على ما دار بينه وبين موسى من سؤال كشف العذاب.

والنداء:رفع الصوت، وإسناده إلى فرعون مجاز عقلي، لأنه الذي أمر بالنداء في قومه. وكان يتولى النداء بالأمور المهمة الصادرة عن الملوك والأمراء منادون يعينون لذلك وربما نادوا في الأمور التي يراد علم الناس بها. ومن ذلك ما حكي في قوله تعالى في سورة يوسف)ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون(وقوله تعالى) فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون(.

ووقع في المقامة الثلاثين للحريري فلما جلس كأنه ابن ماء السماء، نادى مناد من قبل الأحماء، وحرمة ساسان أستاذ الأستاذين، وقدوة الشحاذين، لا عقد هذا العقد المبجل، في هذا اليوم الأغر المحجل، إلا الذي جال وجاب، وشب في الكدية وشاب ، فذلك نداء لإعلان العقد.

وجملة)قال(إلخ مبينة لجملة)نادى(، والمجاز العقلي في) قال(مثل الذي في)ونادى فرعون(.

وفرعون المحكي عنه في هذه القصة هو منفطاح الثاني .

فالأنهار: فروع النيل وترعه، لأنها لعظمها جعل كل واحد منها مثل نهر فجمعت على أنهار وإنما هي لنهر واحد هو النيل. فإن كان مقر ملك فرعون هذا في مدينة منفيس فاسم الإشارة في قوله) وهذه الأنهار(إشارة إلى تفاريع النيل التي تبتدئ قرب القاهرة فيتفرع النيل بها إلى فرعين عظيمين فرع دمياط وفرع رشيد ، وتعرف بالدلتا. وأحسب أنه الذي كان يدعى فرع تنيس لأن تنيس كانت في تلك الجهة وغمرها البحر، وله تفاريع أخرى صغيرة يسمى كل واحد منها ترعة، مثل ترعة الإسماعيلية، وهنالك تفاريع أخرى تدعى الرياح. وإن كان مقر ملكه طيبة التي هي بقرب مدينة آبو اليوم فالإشارة إلى جداول النيل وفروعه المشهورة بين أهل المدينة كأنها مشاهدة لعيونهم.

ومعنى قوله)تجري من تحتي(يحتمل أن يكون ادعى أن النيل يجري بأمره، فيكون)من تحتي(كناية عن التسخير كقوله تعالى) كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين(أي كانتا في عصمتهما. ويقول الناس: دخلت البلدة الفلانية تحت الملك فلان، ويحتمل أنه أراد أن النيل يجري في مملكته من بلاد أصوان إلى البحر فيكون في) تحتي(استعارة للتمكن من تصاريف النيل كالاستعارة في قوله تعالى)قد جعل ربك تحتك سريا(على تفسير)سريا(بنهر، وكان مثل هذا الكلام يروج على الدهماء لسذاجة عقولهم.

ويجوز أن يكون المراد بالأنهار مصب المياه التي كانت تسقي المدينة والبساتين التي حولها وأن توزيع المياه كان بأمره في سداد وخزانات، فهو يهول بأنه إذا شاء قطع عنهم الماء على نحو قول يوسف)ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين(فيكون معنى) من تحتي(من تحت أمري أي لا تجري إلا بأمري، وقد قيل: كانت الأنهار تجري تحت قصره.

صفحة : 3931

والاستفهام في)أفلا تبصرون(تقريري جاء التقرير على النفي تحقيقا لإقرارهم حتى أن المقرر يفرض لهم الإنكار فلا ينكرون.)أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين[52]( ) أم(منقطعة بمعنى)بل(للإضراب الانتقالي. والتقدير: بل أأنا خير، والاستفهام اللازم تقديره بعدها تقريري. ومقصوده: تصغير شأن موسى في نفوسهم بأشياء هي عوارض ليست مؤثرة انتقل من تعظيم شأن نفسه إلى إظهار البون بينه وبين موسى الذي جاء يحقر دينه وعبادة قومه إياه، فقال: أنا خير من هذا. والإشارة هنا

للتحقير. وجاء بالموصول لادعاء أن مضمون الصلة شيء عرف به موسى.
والمهين بفتح الميم: الذليل الضعيف، أراد أنه غريب ليس من أهل بيوت الشرف في مصر وليس له أهل يعتز بهم، وهذا سفسطة وتشغيب إذ ليس المقام مقام انتصار حتى يحقر القائم فيه بقلة النصير، ولا مقام مباهاة حتى ينتقص صاحبه بضعف الحال.
وأشار بقوله)ولا يكاد يبين(إلى ما كان في منطق موسى من الحبسة والفهاهة كما حكى الله في الآية عن موسى)وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردا يصدقني(وفي الأخرى)واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي(، وليس مقام موسى يومئذ مقام خطابة ولا تعليم وتذكير حتى تكون قلة الفصاحة نقصا في عمله، ولكنه مقام استدلال وحجة فيكفي أن يكون قادرا على إبلاغ مراده ولو بصعوبة وقد أزال الله عنه ذلك حين تفرغ لدعوة بني إسرائيل كما قال)قد أوتيت سؤلك يا موسى(.
ولعل فرعون قال ذلك لما يعلم من حال موسى قبل أن يرسله الله حين كان في بيت فرعون فذكر ذلك من حاله ليذكر الناس بأمر قديم فإن فرعون الذي بعث موسى في زمنه هو منفطاح الثاني وهو ابن رعمسيس الثاني الذي ولد موسى في أيامه وربي عنده، وهذا يقتضي أن منفطاح كان يعرف موسى ولذلك قال له)ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين(.
وأما رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فلما أرسل إلى أمة ذات فصاحة وبلاغة وكانت معجزته القرآن المعجز في بلاغته وفصاحته وكانت صفة الرسول الفصاحة لتكون له المكانة الجليلة في نفوس قومه.
ومعنى)ولا يكاد يبين(ويكاد أن لا يبين، وقد تقدم القول في مثله عند قوله تعالى)فذبحوها وما كادوا يفعلون(في سورة البقرة.
)فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين[53](لما تضمن وصفه موسى بمهين ولا يكاد يبين أنه مكذب له دعواه الرسالة عن الله فرع عليه قوله)فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب(ترقيا في إحالة كونه رسولا من الله، وفرعون لجهله أو تجاهله يخيل لقومه أن للرسالة شعارا كشعار الملوك.
و)لولا(حرف تحضيض مستعمل في التعجيز مثل ما في قوله) وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم(.
والإلقاء: الرمي وهو مستعمل هنا في الإنزال، أي هلا ألقي عليه من السماء أساورة من ذهب، أي سوره الرب بها ليجعله ملكا على الأمة.
وقرأ الجمهور)أساورة(، وقرأ حفص عن عاصم ويعقوب)أسورة(.

والأساورة: جمع أسوار لغة في سوار. وأصل الجمع أساوير مخفف بحذف إشباع الكسرة ثم عوض الهاء عن الحروف كما عوضت في زنادقة جمع زنديق إذ حقه زناديق. وأما سوار فيجمع على أسورة.
والسوار: حلقة عريضة من ذهب أو فضة تحيط بالرسغ، وهو عند معظم الأمم من حلية النساء الحرائر ولذلك جاء في المثل لو ذات سوار لطمتني أي لو حرة لطمتني، قاله أحد الأسرى لطمته أمة لقوم هو أسيرهم. وكان السوار من شعار الملوك بفارس ومصر يلبس الملك سوارين. وقد كان من شعار الفراعنة لبس سوارين أو أسورة من ذهب وربما جعلوا سوارين على الرسغين وآخرين على العضدين. فلما تخيل فرعون أن رتبة الرسالة مثل الملك حسب افتقادها هو من شعار الملوك عندهم أمارة على انتفاء الرسالة.
و)أو(للترديد، أي إن لم تلق عليه أساورة من ذهب فلتجئ معه طوائف من الملائكة شاهدين له بالرسالة.
ولم أقف على أنهم كانوا يثبتون وجود الملائكة بالمعنى المعروف عند أهل الدين الإلهي فلعل فرعون ذكر الملائكة مجاراة لموسى إذ لعله سمع منه أن لله ملائكة أو نحو ذلك في مقام الدعوة فأراد إفحامه بأن يأتي معه بالملائكة الذين يظهرون له.

صفحة : 3932

و)مقترنين(حال من)الملائكة(، أي مقترنين معه فهذه الحال مؤكدة لمعنى)معه(لئلا يحمل معنى المعية على إرادة أن الملائكة تؤيده بالقول من قولهم: قرنته به فاقترن، أي مقترنين بموسى وهو اقتران النصير لنصيره.
)فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين[54](أي فتفرع عن نداء فرعون قومه أن أثر بتمويهه في نفوس ملئه فعجلوا بطاعته بعد أن كانوا متهيئين لاتباع موسى لما رأوا الآيات. فالخفة مستعارة للانتقال من حالة التأمل في خلع طاعة فرعون والتثاقل في اتباعه إلى التعجيل بالامتثال له كما يخف الشيء بعد التثاقل.
والمعنى يرجع إلى أنه استخف عقولهم فأسرعوا إلى التصديق بما قاله بعد أن صدقوا موسى في نفوسهم لما رأوا آياته نزولا ورفعا.
والمراد ب)قومه(هنا بعض القوم، وهم الذين حضروا مجلس دعوة موسى هؤلاء هم الملأ الذين كانوا في صحبة فرعون.
والسين والتاء في)استخف(للمبالغة في أخف مثل قوله تعالى) إنما استزلهم الشيطان(وقولهم: هذا فعل يستفز غضب الحليم.

وجملة)إنهم كانوا قوما فاسقين(في موضع العلة لجملة فأطاعوه كما هو شأن)إن(إذا جاءت في غير مقام التأكيد فإن كونهم قد كانوا فاسقين أمر بين ضرورة أن موسى جاءهم فدعاهم إلى ترك ما كانوا عليه من عبادة الأصنام فلا يقتضي في المقام تأكيد كونهم فاسقين، أي كافرين. والمعنى: أنهم إنما خفوا لطاعة رأس الكفر لقرب عهدهم بالكفر لأنهم كانوا يؤلهون فرعون فلما حصل لهم تردد في شأنه ببعثة موسى عليه السلام لم يلبثوا أن رجعوا إلى طاعة فرعون بأدنى سبب.

والمراد بالفسق هنا: الكفر، كما قال في شأنهم في آية الأعراف) سأوريكم دار الفاسقين(.

)فلما أسفونا انتقمنا منهم فأغرقنهم أجمعين[55] فجعلنهم سلفا ومثلا للآخرين[56](عقب ما مضى من القصة بالمقصود وهو هذه الأمور الثلاثة المترتبة المتفرع بعضها على بعض وهي: الانتقام، فالإغراق، فالاعتبار بهم في الأمم بعدهم.

والأسف: الغضب المشوب بحزن وكدر، وأطلق على صنيع فرعون وقومه فعل)أسفونا(لأنه فعل يترتب عليه انتقام الله منهم انتقاما كانتقام الآسف لأنهم عصوا رسوله وصمموا على شركهم بعد ظهور آيات الصدق لموسى عليه السلام.

فاستعير)أسفونا(لمعنى عصونا للمشابهة، والمعنى: فلما عصونا عصيان العبد ربه المنعم عليه بكفران النعمة، والله يستحيل عليه أن يتصف بالآسف كما يستحيل عليه أن يتصف بالغضب على الحقيقة، فيؤول المعنى إلى أن الله عاملهم كما يعامل السيد المأسوف عبدا أسفه فلم يترك لرحمة سيده مسلكا.

وفعل أسف قاصر فعدي إلى المفعول بالهمزة.

وفي قوله)فلما أسفونا(إيجاز لأن كونهم مؤسفين لم يتقدم له ذكر حتى يبنى أنه كان سببا للانتقام منهم فدل إناطة أداة التوقيت به على أنه قد حصل، والتقدير: فأسفونا فلما أسفونا انتقمنا منهم.

والانتقام تقدم معناه قريبا عند قوله تعالى)فإنا منهم منتقمون(.

وإنما عطف)فأغرقناهم(بالفاء على)انتقمنا منهم(مع أن إغراقهم هو عين الانتقام منهم، إما لان فعل)انتقمنا(مؤول بقدرنا الانتقام منهم فيكون عطف)فأغرقناهم(بالفاء كالعطف في قوله)أن يقول له كن فيكون(، وإما أن تجعل الفاء زائدة لتأكيد تسبب)أسفونا(في الإغراق، وأصل التركيب: انتقمنا منهم أغرقناهم، على أن جملة) فأغرقناهم(مبينة لجملة)انتقمنا منهم(فزيدت الفاء لتأكيد معنى التبيين، وإما أن تجعل الفاء عاطفة جملة)انتقمنا(على جملة) فاستخف قومه(فأغرقناهم أجمعين وتكون جملة)انتقمنا(منهم

معترضة بين الجملة المفرعة والمفرعة عنها، وتقدم نظير هذا عند قوله تعالى)فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم(.
وفرع على إغراقهم أن الله جعلهم سلفا لقوم آخرين، أي يأتون بعدهم.
والسلف بفتح السين وفتح اللام في قراءة الجمهور: جمع سالف مثل: خدم لخادم، وحرس لحارس. والسالف الذي يسبق غيره في الوجود أو في عمل أو مكان، ولما ذكر الانتقام كان المراد بالسلف هنا السالف في الانتقام، أي أن من بعدهم سيلقون مثل ما لقوا.
وقرأ حمزة وحده والكسائي)سلفا(بضم السين وضم اللام وهو جمع سليف اسم للفريق الذي سلف ومضى.

صفحة : 3933

والمثل: النظير والمشابه، يقال: مثل بفتحتين كما يقال شبه، أي مماثل. قال أبو علي الفارسي: المثل واحد يراد به الجمع. وأطلق المثل على لازمه على سبيل الكناية، أي جعلناهم عبرة للآخرين يعلمون أنهم إن عملوا مثل عملهم أصابهم مثل ما أصابهم.
ويجوز أن يكون المثل هنا بمعنى الحديث العجيب الشأن الذي يسير بين الناس مسير الأمثال، أي جعلناهم للآخرين حديثا يتحدثون به ويعظهم به محدثهم.
ومعنى الآخرين الناس الذين هم آخر مماثل لهم في حين هذا الكلام فتعين أنهم المشركون المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم فإن هؤلاء هم آخر الأمم المشابهة لقوم فرعون في عبادة الأصنام وتكذيب الرسول. ومعنى الكلام: فجعلناهم سلفا لكم ومثلا لكم فاتعظوا بذلك.
ويتعلق)للآخرين(ب)سلفا ومثلا(على وجه التنازع.
)ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون[57] وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون[58](عطف قصة من أقاصيص كفرهم وعنادهم على ما مضى من حكاية أقاويلهم، جرت في مجادلة منهم مع النبي صلى الله عليه وسلم.
وهذا تصدير وتمهيد بين يدي قوله)ولما جاء عيسى بالبينات(الآيات الذي هو المقصود من عطف هذا الكلام على ذكر رسالة موسى عليه السلام.
واقتران الكلام ب)لما(المفيدة وجود جوابها عند وجود شرطها، أو توقيته، يقتضي أن مضمون شرط)لما(معلوم الحصول ومعلوم الزمان فهو إشارة إلى حديث جرى بسبب مثل ضربه ضارب لحال

من أحوال عيسى، على أن قولهم)ألهتنا خير أم هو(يحتمل أن يكون جرى في أثناء المجادلة في شأن عيسى، ويحتمل أن يكون مجرد حكاية شبهة أخرى من شبه عقائدهم، ففي هذه الآية إجمال يبينه ما بعرفه النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون من جدل جرى مع المشركين، ويزيده بيانا قوله)إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل(وهذه الآية من أخفى آي القرآن معنى مرادا.

وقد اختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية وما يبين إجمالها على ثلاثة أقوال ذكرها في الكشاف وزاد من عنده احتمالا رابعا. وأظهر الأقوال ما ذكره ابن عطية عن ابن عباس وما ذكره في الكشاف وجها ثانيا ووجها ثالثا أن المشركين لما سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم بيان إن مثل عيسى عند الله كمثل أدم وليس خلقه من دون أب بأعجب من خلق آدم من دون أب ولا أم أو ذلك قبل أن تنزل سورة آل عمران لأن تلك السورة مدنية وسورة الزخرف مكية قالوا: نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميا ونحن عبدنا الملائكة أي يدفعون ما سفههم به النبي صلى الله عليه وسلم بأن حقه أن يسفه النصارى فنزل قوله تعالى)ولما ضرب ابن مريم مثلا(الآية ولعلهم قالوا ذلك عن تجاهل بما جاء في القرآن من رد على النصارى .

والذي جرى عليه أكثر المفسرين أن سبب نزولها الإشارة إلى ما تقدم في سورة الأنبياء عند قوله تعالى)إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم(إذ قال عبد الله بن الزبعرى قبل إسلامه للنبي صلى الله عليه وسلم أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ، قال: خصمتك ورب الكعبة ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبي وقد عبدته النصارى فإن كان عيسى في النار فقد رضينا أن نكون نحن وألهتنا معه ففرح بكلامه من حضر من المشركين وضج أهل مكة بذلك فأنزل الله تعالى)إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون(في سورة الأنبياء ونزلت هذه الآية تشير إلى لجاجهم.

وبعض المفسرين يزيد في رواية كلام ابن الزبعرى وقد عبدت بنو مليح الملائكة فإن كان عيسى والملائكة في النار فقد رضينا . وهذا يتلاءم مع بناء فعل)ضرب(للمجهول لأن الذي جعل عيسى مثلا لمجادلته هو عبد الله بن الزبعرى، وليس من عادة القرآن تسمية أمثاله، ولو كان المثل مضروبا في القرآن لقال: ولما ضربنا ابن مريم مثلا، كما قال بعده)وجعلناه مثلا لبني إسرائيل(. ويتلاءم مع تعدية فعل)يصدون(بحرف)من(الابتدائية دون حرف)عن(ومع

قوله)ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون(لأن الظاهر أن ضمير النصب في)ضربوه(عائد إلى ابن مريم.

صفحة : 3934

والمراد بالمثل على هذا المثل به والمشبه به، لأن ابن الزبعري نظر آلهتهم بعيسى في أنها عبدت من دون الله مثله فإذا كانوا في النار كان عيسى كذلك.
ولا يناكد هذا الوجه إلا ما جرى عليه عد السور في ترتيب النزول من عد سورة الأنبياء التي كانت آيتها سبب المجادلة متأخرة في النزول عن سورة الزخرف، ولعل تصحيح هذا الوجه عندهم بكر بالإبطال على من جعل سورة الأنبياء متأخرة في النزول عن سورة الزخرف بل يجب أن تكون سابقة حتى تكون هذه الآية مذكرة بالقصة التي كانت سبب نزول سورة الأنبياء، وليس ترتيب النزول بمتفق عليه ولا بمحقق السند فهو يقبل منه ما لا معارض له. على أنه قد تنزل الآية ثم تلحق بسورة نزلت قبلها.
فإذا رجح أن تكون سورة الأنبياء نزلت قبل سورة الزخرف كان الجواب القاطع لابن الزبعري في قوله تعالى فيها)إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون(لأنه يعني أن عدم شمول قوله)إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم(لعيسى معلوم لكل من له نظر وإنصاف لأن الحكم فيها إنما أسند إلى معبودات المشركين لا إلى معبود النصارى وقليل من قبائل العرب التي لم تقصد بالخطاب القرآني أيامئذ، ولما أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن الآية لجميع الأمم إنما عنى المعبودات التي هي من جنس أصنامهم لا تفقه ولا تتصف بزكاء، بخلاف الصالحين الذين شهد لهم القرآن برفعة الدرجة قبل تلك الآية وبعدها، إذ لا لبس في ذلك، ويكون الجواب المذكور هنا في سورة الزخرف بقوله)ما ضربوه لك إلا جدلا(جوابا إجماليا، أي ما أرادوا به إلا التمويه لأنهم لا يخفى عليهم أن آية سورة الأنبياء تفيد أن عيسى ليس حصب جهنم، والمقام هنا مقام إجمال لأن هذه الآية إشارة وتذكير إلى ما سبق من الحادثة حين نزول آية سورة الأنبياء.
وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر وخلف)يصدون(بضم الصاد من الصدود إما بمعنى الإعراض والمعرض عنه محذوف لظهوره من المقام، أي يعرضون عن القرآن لأنهم أوهموا بجدلهم أن في القرآن تناقضا، وإما على أن الضم لغة

في مضارع صد بمعنى ضج مثل لغة كسر الصاد وهو قول الفراء والكسائي.
وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب بكسر الصاد وهو الصد بمعنى الضجيج والصخب.
والمعنى: إذا قريش قومك يصخبون ويضجون من احتجاج ابن الزبعرى بالمثل بعيسى في قوله، معجبين بفلجه وظهور حجته لضعف إدراكهم لمراتب الاحتجاج.
والتعبير عن قريش بعنوان)قومك(. للتعجيب منهم كيف فرحوا من تغلب ابن الزبعرى على النبي صلى الله عليه وسلم)بزعمهم(في أمر عيسى عليه السلام، أي مع أنهم قومك وليسوا قوم عيسى ولا أتباع دينه فكان فرحهم ظلما من ذوي القربى، قال زهير:
وظلم ذوي القربى أشد مضـاضة
على المرء من وقع الحسام المهند و)من(في قوله)منه(على الاحتمالين ليست لتعدية)يصدون(إلى ما في معنى المفعول، لأن الفعل إنما يتعدى إليه بحرف)عن(، ولا أن الضمير المجرور بها عائد إلى القرآن ولكنها متعلقة ب)يصدون(تعلقا على معنى الابتداء، أي يصدون صدا ناشئا منه، أي من المثل، أي ضرب لهم مثل فجعلوا ذلك المثل سببا للصد.
وقالوا جميعا: آلهتنا خير أم هو، تلقفوها من فم ابن الزبعرى حين قالها للنبي صلى الله عليه وسلم فأعادوها. فهذا حكاية لقول ابن الزبعرى: إنك تزعم أن عيسى نبي وقد عبدته النصارى فإن كان عيسى في النار قد رضينا أن نكون وآلهتنا في النار.
والاستفهام في قوله)أآلهتنا خير أم هو(تقريري للعلم بأن النبي يفضل عيسى على آلهتهم، أي فقد لزمك أنك جعلت أهلا للنار من كنت تفضله فأمر آلهتنا هين.
وضمير الرفع في)ما ضربوه(عائد إلى ابن الزبعرى وقومه الذين أعجبوا بكلامه وقالوا بموجبه.
وضمير النصب الغائب يجوز أن يكون عائدا إلى المثل في قوله) ولما ضرب ابن مريم مثلا(، أي ما ضربوا لك ذلك المثل إلا جدلا منهم، أي محاجة وإفحاما لك وليسوا بمعتقدين هون أمر آلهتهم عندهم، ولا بطالبين الميز بين الحق والباطل، فإنهم لا يعتقدون أن عيسى خير من آلهتهم ولكنهم أرادوا مجاراة النبي في قوله ليفضوا إلى إلزامه بما أرادوه من المناقضة.

ويجوز أن يكون ضمير النصب في)ضربوه(عائدا إلى مصدر مأخوذ من فعل)وقالوا(، أي ما ضربوا ذلك القول، أي ما قالوه إلا جدلا. فالضرب بمعنى الإيجاد كما يقال: ضرب بيتا، وقول الفرزدق:

ضربت عليك العنكبوت بنسجها والاستثناء في)إلا جدلا(مفرغ للمفعول لأجله أو للحال، فيجوز أن ينتصب)جدلا(على المفعول لأجله، أي ما ضربوه لشيء إلا للجدل، ويجوز أن ينصب على الحال بتأويله بمجادلين أي ما ضربوه في حال من أحوالهم إلا في حال أنهم مجادلون لا مؤمنون بذلك.

وقوله)بل هم قوم خصمون(إضراب انتقالي إلى وصفهم بحب الخصام وإظهارهم من الحجج ما لا يعتقدونه تمويها على عامتهم.

والخصم بكسر الصاد: شديد التمسك بالخصومة واللجاج مع ظهور الحق عنده، فهو يظهر أن ذلك ليس بحق.

وقرأ الجمهور)أآلهتنا(بتسهيل الهمزة الثانية. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي بتخفيفها.

)إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل[59](لما ذكر ما يشير إلى قصة جدال ابن الزبعرى في قوله تعالى)إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم(، وكان سبب جداله هو أن عيسى قد عبد من دون الله لم يترك الكلام ينقضي دون أن يردف بتقرير عبودية عيسى لهذه المناسبة، إظهارا لخطل رأي الذين ادعوا إلهيته وعبدوه وهم النصارى حرصا على الاستدلال للحق.

وقد قصر عيسى على العبودية على طريقة قصر القلب للرد على الذين زعموه إلها، أي ما هو إلا عبد لا إله لأن الإلهية تنافي العبودية. ثم كان قوله)أنعمنا عليه(إشارة إلى أنه قد فضل بنعمة الرسالة، أي فليست له خصوصية مزية على بقية الرسل، وليس تكوينه بدون أب إلا إرهاصا.

وأما قوله)وجعلناه مثلا لبني إسرائيل(فهو إبطال لشبهة الذين ألهوه بتوهمهم أن كونه خلق بكلمة من الله يفيد أنه جزء من الله فهو حقيق بالإلهية، أي كان خلقه في بطن أمه دون أن يقربها ذكر ليكون عبرة عجيبة في بني إسرائيل لأنهم كانوا قد ضعف إيمانهم بالغيب وبعد عهدهم بإرسال الرسل فبعث الله عيسى مجددا للإيمان بينهم، ومبرهنا بمعجزاته على عظم قدرة الله، ومعيدا لتشريف الله بني إسرائيل إذ جعل فيهم أنبياء ليكون ذلك سببا لقوة الإيمان فيهم، ومظهرا لفضيلة أهل الفضل الذين آمنوا به ولعناد الذين منعهم الدفع عن حرمتهم من الاعتراف بمعجزاته فناصبوه العداء وسعوا للتنكيل به وقتله فعصمه الله منهم ورفعه من بينهم فاهتدى به أقوام وافتتن به آخرون.

فالمثل هنا بمعنى العبرة كالذي في قوله آنفا)فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين(.
وفي قوله)لبني إسرائيل(إشارة إلى أن عيسى لم يبعث إلا إلى بني إسرائيل وأنه لم يدع غير بني إسرائيل إلى اتباع دينه، ومن اتبعوه من غير بني إسرائيل في عصور الكفر والشرك فإنما تقلدوا دعوته لأنها تنقذهم من ظلمات الشرك والوثينة والتعطيل.
)ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون[60](لما أشارت الآية السابقة إلى إبطال ضلالة الذين زعموا عيسى عليه السلام ابنا لله تعالى، من قصره على كونه عبدا لله أنعم الله عليه بالرسالة وأنه عبرة لبني إسرائيل عقب ذلك بإبطال ما يماثل تلك الضلالة، وهي ضلالة بعض المشركين في ادعاء بنوة الملائكة لله تعالى المتقدم حكايتها في قوله)وجعلوا له من عباده جزءا(الآيات فأشير إلى أن الملائكة عباد لله تعالى جعل مكانهم العوالم العليا، وأنه لو شاء لجعلهم من سكان الأرض بدلا عن الناس، أي أن كونهم من أهل العوالم العليا لم يكن واجبا لهم بالذات وما هو إلا وضع بجعل من الله تعالى كما جعل للأرض سكانا، ولو شاء الله لعكس فجعل الملائكة في الأرض بدلا عن الناس، فليس تشريف الله إياهم بسكني العوالم العليا بموجب بنوتهم لله ولا بمقتض لهم إلهية، كما لم يكن تشريف عيسى بنعمة الرسالة ولا تمييزه بالتكون من دون أب مقتضيا له إلهية وإنما هو بجعل الله وخلقه.
وجعل شرط)لو(فعلا مستقبلا للدلالة على أن هذه المشيئة لم تزل ممكنة بأن يعوض للملائكة سكنى الأرض.
ومعنى)من(في قوله)منكم(البدلية والعوض كالتي في قوله تعالى)أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة(.

صفحة : 3936

والمجرور متعلق ب)جعلنا(، وقدم على مفعول الفعل للاهتمام بمعنى هذه البدلية لتتعمق أفهام السامعين في تدبرها.
وجملة)في الأرض يخلفون(بيان لمضمون شبه الجملة إلى قوله) منكم(وحذف مفعول)يخلفون(لدلالة)منكم(عليه، وتقديم هذا المجرور للاهتمام بما هو أدل على كون الجملة بيانا لمضمون) منكم(.
وهذا هو الوجه في معنى الآية وعليه درج المحققون. ومحاولة صاحب الكشاف حمل)منكم(على معنى الابتدائية والاتصال لا يلاقي سياق الآيات.

)وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها(الأظهر أن هذا عطف على جملة)وإنه لذكر لك ولقومك(ويكون ما بينهما مستطردات واعتراضا اقتضته المناسبة.

لما أشبع مقام إبطال إلهية غير الله بدلائل الوحدانية ثني العنان إلى إثبات أن القرآن حق، عودا على بدء.

وهذا كلام موجه من جانب الله تعالى إلى المنكرين يوم البعث، ويجوز أن يكون من كلام النبي صلى الله عليه وسلم.

وضمير المذكر الغائب في قوله)وإنه لعلم للساعة(مراد به القرآن وبذلك فسره الحسن وقتادة وسعيد بن جبير فيكون هذا ثناء ثامنا على القرآن، فالثناء على القرآن استمر متصلا من أول السورة آخذا بعضه بحجز بعض متخللا بالمعترضات والمستطردات ومتخلصا إلى هذا الثناء الأخير بأن القرآن أعلم الناس بوقوع الساعة.

ويفسره ما تقدم من قوله)بالذي أوحي إليك(ويبينه قوله بعده) هذا صراط مستقيم(، على أن ورود مثل هذا الضمير في القرآن مرادا به القرآن كثير معلوم من غير معاد فضلا على وجود معاده.

ومعنى تحقيق أن القرآن علم للساعة أنه جاء بالدين الخاتم للشرائع فلم يبق بعد مجيء القرآن إلا انتظار انتهاء العالم. وهذا معنى ما روي من قول الرسول صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين السبابة والوسطى مشيرا إليهما ، والمشابهة في عدم الفصل بينهما.

وإسناد)علم للساعة(إلى ضمير القرآن إسناد مجازي لأن القرآن سبب العلم بوقوع الساعة إذ فيه الدلائل المتنوعة على إمكان البعث ووقوعه.

ويجوز أن يكون إطلاق العلم بمعنى المعلم، من استعمال المصدر بمعنى اسم الفاعل مبالغة في كونه محصلا للعلم بالساعة إذ لم يقاربه في ذلك كتاب من كتب الأنبياء.

وقد ناسب هذا المجاز أو المبالغة التفريع في قوله)فلا تمترن بها(لأن القرآن لم يبق لأحد مرية في أن البعث واقع.

وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة أن الضمير لعيسى، وتأولوه بأن نزول عيسى علامة الساعة، أي سبب علم بالساعة، أي بقربها، وهو تأويل بعيد فإن تقدير مضاف وهو نزول لا دليل عليه ويناكده إظهار اسم عيسى في قوله)ولما جاء عيسى(إلخ.

ويجوز عندي أن يكون ضمير)إنه(ضمير شأن، أي أن الأمر المهم لعلم الناس بوقوع الساعة.

وعدي فعل)فلا تمترن بها(بالباء لتضمينه معنى: لا تكذبن بها، أو الباء بمعنى)في(الظرفية.

)واتبعون هذا صراط مستقيم[61](يجوز أن يكون ضمير المتكلم عائدا إلى الله تعالى، أي اتبعوا ما أرسلت إليكم من كلامي ورسولي، جريا على غالب الضمائر من أول السورة كما تقدم، فالمراد باتباع الله: اتباع أمره ونهيه وإرشاده الوارد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاتباع الله تمثيل لامتثالهم ما دعاهم إليه بأن شبه حال الممتثلين أمر الله بحال السالكين صراطا دلهم عليه دليل. ويكون هذا كقوله في سورة الشورى)وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض(.

ويجوز أن يكون عائدا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتقدير: وقل اتبعون، ومثله في القرآن كثير.

والإشارة في)هذا صراط مستقيم(للقرآن المتقدم ذكره في قوله)وإنه لعلم للساعة(أو الإشارة إلى ما هو حاضر في الأذهان مما نزل من القرآن أو الإشارة إلى دين الإسلام المعلوم من المقام كقوله تعالى)وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه(.

وحذفت ياء المتكلم تخفيفا مع بقاء نون الوقاية دليلا عليها.

)ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين[62](

صفحة : 3937

لما أبلغت أسماعهم أفانين المواعظ والأوامر والنواهي، وجرى في خلال ذلك تحذيرهم من الإصرار على الإعراض عن القرآن، وإعلامهم بأن ذلك يفضي بهم إلى مقارنة الشيطان، وأخذ ذلك حظه من البيان انتقل الكلام إلى نهيهم عن أن يحصل صد الشيطان إياهم عن هذا الدين والقرآن الذي دعوا إلى اتباعه بقوله)واتبعون هذا صراط مستقيم(تنبيها على أن الصدود عن هذا الدين من وسوسة الشيطان، وتذكيرا بعداوة الشيطان للإنسان عداوة قوية لا يفارقها الدفع بالناس إلى مساوي الأعمال ليوقعهم في العذاب تشفيا لعداوته.

وقد صيغ النهي عن اتباع الشيطان في صده إياهم بصيغة نهي الشيطان عن أن يصدهم، للإشارة إلى أن في مكنتهم الاحتفاظ من الارتباق في شباك الشيطان، فكني بنهي الشيطان عن صدهم عن نهيهم عن الطاعة له بأبلغ من توجيه النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، على طريقة قول العرب: لا أعرفنك تفعل كذا، ولا ألفينك في موضع كذا.

وجملة)إنه لكم عدو مبين(تعليل للنهي عن أن يصدهم الشيطان فإن شأن العاقل أن يحذر من مكائد عدوه.

وعداوة الشيطان للبشر ناشئة من خبث كينونته مع ما أنضم إلى ذلك الخبث من تنافي العنصرين فإذا التقى التنافي مع خبث الطبع نشأ من مجموعهما القصد بالأذى، وقد أذكى تلك العداوة حدث قارن نشأة نوع الإنسان عند تكوينه، في قصته مع آدم كما قصه القرآن غير مرة.

وحرف)إن(هنا موقعة موقع فاء التسبب في إفادة التعليل.

)ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون[63] إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم[64](قد علمت آنفا أن هذا هو المقصود من ذكر عيسى عليه السلام فهو عطف على قصة إرسال موسى.

ولم يذكر جواب)لما(فهو محذوف لدلالة بقية الكلام عليه.

وموقع حرف)لما(هنا أن مجيء عيسى بالبينات صار معلوما للسامع مما تقدم في قوله)إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل(الآية، أي لما جاءهم عيسى اختلف الأحزاب فيما جاء به، فحذف جواب)لما(لأن المقصود هو قوله)فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم(لأنه يفيد أن سنن الأمم المبعوث إليهم الرسل لم يختلف فإنه لم يخل رسول عن قوم آمنوا به وقوم كذبوه ثم كانوا سواء في نسبة الشركاء في الإلهية بمزاعم النصارى أن عيسى ابن لله تعالى كما أشار إليه قوله)فويل للذين ظلموا(أي أشركوا كما هو اصطلاح القرآن غالبا. فتم التشابه بين الرسل السابقين وبين محمد صلى الله عليهم أجمعين، فحصل في الكلام إيجاز تدل عليه فاء التفريع.

وفي قصة عيسى مع قومه تنبيه على أن الإشراك من عوارض أهل الضلالة لا يلبث أن يخامر نفوسهم وإن لم يكن عالقا بها من قبل، فإن عيسى بعث إلى قوم لم يكونوا يدينون بالشرك إذ هو قد بعث لبني إسرائيل وكلهم موحدون فلما اختلف أتباعه بينهم وكذبت به فرق وصدقه فريق ثم لن يتبعوا ما أمرهم به لم يلبثوا أن حدثت فيهم نحلة الإشراك.

وجملة)قال قد جئتكم بالحكمة(مبينة لجملة)جاء عيسى بالبينات(وليست جوابا لشرط)لما(الذي جعل التفريع في قوله) فاختلف الأحزاب من بينهم(دليلا عليه.

وفي إيقاع جملة)قد جئتكم بالحكمة(بيانا لجملة)جاء عيسى بالبينات(إيماء إلى أنه بادأهم بهذا القول، لأن شأن أهل الضلالة أن يسرعوا إلى غاياتها ولو كانت مبادئ الدعوة تنافي عقائدهم، أي لم يدعهم عيسى إلى أكثر من اتباع الحكمة وبيان المختلف فيه ولم

يدعهم إلى ما ينافي أصول شريعة التوراة ومع ذلك لم يخل حاله من صدود مريع عنه وتكذيب.
وابتداؤه بإعلامهم أنه جاءهم بالحكمة والبيان وهو إجمال حال رسالته ترغيب لهم في وعي ما سيلقيه إليهم من تفاصيل الدعوة المفرع بعضها على هذه المقدمة بقوله)فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه(.
والحكمة هي معرفة ما يؤدي إلى الحسن ويكف عن القبيح وهي هنا النبوة، وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى)يؤتي الحكمة من يشاء(في سورة البقرة.
وقد جاء عيسى بتعليمهم حقائق من الأخلاق الفاضلة والمواعظ.

صفحة : 3938

وقوله)ولأبين لكم(، عطف على)بالحكمة(لأن كليهما متعلق بفعل)جئتكم(. واللام للتعليل. والتبيين: تجلية المعاني الخفية لغموض أو سوء تأويل، والمراد ما بينه عيسى في الإنجيل وغيره مما اختلفت فيه أفهام اليهود من الأحكام المتعلقة بفهم التوراة أو بتعيين الأحكام للحوادث الطارئة.
ولم يذكر في هذه الآية قوله المحكي في آية سورة النساء) ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم(لأن ذلك قد قاله في مقام آخر.
والمقصود حكاية ما قاله لهم مما ليس شأنه أن يثير عليه قومه بالتكذيب فهم كذبوه في وقت لم يذكر لهم فيه أنه جاء بنسخ بعض الأحكام من التوراة، أي كذبوه في حال ظهور آيات صدقه بالمعجزات وفي حال انتفاء ما من شأنه أن يثير عليه شكا.
وإنما قال)بعض الذي تختلفون فيه(، إما لأن الله أعلمه بأن المصلحة لم تتعلق ببيان كل ما اختلفوا فيه بل يقتصر على البعض ثم يكمل بيان الباقي على لسان رسول يأتي من بعده يبين جميع ما يحتاج إلى البيان.
وإما لأن ما أوحي إليه من البيان غير شامل لجميع ما هم مختلفون في حكمه وهو ينتظر بيانه من بعد تدريجا في التشريع كما وقع في تدريج تحريم الخمر في الإسلام.
وقيل: المراد ب)بعض الذي تختلفون فيه(ما كان الاختلاف فيه راجعا إلى أحكام الدين دون ما كان من الاختلاف في أمور الدنيا.
وفي قوله)بعض الذي تختلفون فيه(تهيئة لهم لقبول ما سيبين لهم حينئذ أو من بعد.

وهذه الآية تدل على جواز تأخير البيان فيما له ظاهر وفي ما يرجع إلى البيان بالنسخ، والمسألة من أصول الفقه.
وفرع على إجمال فاتحة كلامه قوله)فاتقوا الله وأطيعون(. وهذا كلام جامع لتفاصيل الحكمة وبيان ما يختلفون فيه، فإن التقوى مخافة الله. وقد جاء في الأثر رأي الحكمة مخافة الله ، وطاعة الرسول تشمل معنى)ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه(فإذا أطاعوه عملوا بما يبين لهم فيحصل المقصود من البيان وهو العمل. وأجمع منه قول النبي صلى الله عليه وسلم لسفيان الثقفي وقد سأله أن يقول له في الإسلام قولا لا يسأل عنه أحدا غيره)قل آمنت بالله ثم استقم(، لأنه أليق بكلمة جامعة في شريعة لا يترقب بعدها مجيء شريعة أخرى، بخلاف قول عيسى عليه السلام) وأطيعون(فإنه محدود بمدة وجوده بينهم.
وجملة)إن الله هو ربي وربكم(تعليل لجملة)فاتقوا الله وأطيعون(لأنه إذا ثبت تفرده بالربوبية توجه الأمر بعبادته إذ لا يخاف الله إلا من اعترف بربوبيته وانفراده بها.
وضمير الفصل أفاد القصر، أي الله ربي لا غيره. وهذا إعلان بالوحدانية وإن كان القوم الذين أرسل إليهم عيسى موحدين، لكن قد ظهرت بدعة في بعض فرقهم الذين قالوا: عزير ابن الله.
وتأكيد الجملة ب)إن(لمزيد الاهتمام بالخبر فإن المخاطبين غير منكرين ذلك.
وتقديم نفسه على قومه في قوله)ربي وربكم(لقصد سد ذرائع الغلو في تقديس عيسى، وذلك من معجزاته لأن الله علم أنه ستغلو فيه فرق من أتباعه فيزعمون بنوته من الله على الحقيقة، ويضلون بكلمات الإنجيل التي يقول فيها عيسى: أبي، مريدا به الله تعالى.
وفرع على إثبات التوحيد لله الأمر بعبادته بقوله)فاعبدوه(فإن المنفرد بالإلهية حقيق بأن يعبد.
والإشارة ب)هذا صراط مستقيم(إلى مضمون قوله)فاتقوا الله وأطيعون(، أي هذا طريق الوصول إلى الفوز عن بصيرة ودون تردد، كما أن الصراط المستقيم لا ينبهم السير فيه على السائر.
)فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم[65](هذا التفريع هو المقصود من سوق القصة مساق التنظير بين أحوال الرسل، أي عقب دعوته اختلاف الأحزاب من بين الأمة الذين بعث إليهم والذين تقلدوا ملته طلبا للاهتداء.
وهذا التفريع دليل على جواب)لما(المحذوف.

وضمير)بينهم(مراد به الذين جاءهم عيسى لأنهم معلومون من سياق القصة من قوله)جاء عيسى(فإن المجيء يقتضي مجيئا إليه وهم اليهود.

صفحة : 3939

و)من(يجوز أن تكون مزيدة لتأكيد مدلول)بينهم(أي اختلفوا اختلاف أمة واحدة، أي فمنهم من صدق عيسى وهم: يحيى بن زكريا ومريم أم عيسى والحواريون الاثنا عشر وبعض نساء مثل مريم المجدلية ونفر قليل، وكفر به جمهور اليهود وأحبارهم، وكان ما كان من تألب اليهود عليه حتى رفعه الله.

ثم انتشر الحواريون يدعون إلى شريعة عيسى فاتبعهم أقوام في بلاد رومية وبلاد اليونان ولم يلبثوا أن اختلفوا من بينهم في أصول الديانة فتفرقوا ثلاث فرق: نسطورية، ويعاقبة، وملكانية. فقالت النسطورية: عيسى ابن الله، وقالت اليعاقبة: عيسى هو الله، أي بطريق الحلول، وقالت الملكانية وهم الكاثوليك : عيسى ثالث ثلاثة مجموعها هو الإله، وتلك هي: الأب الله ، والابن عيسى ، وروح القدس جبريل فالإله عندهم أقانيم ثلاثة.

وقد شملت الآية كلا الاختلافين فتكون الفاء مستعملة في حقيقة التعقيب ومجازه. بأن يكون شمولها للاختلاف الأخير مجازا علاقته المشابهة لتشبيه مفاجأة طرو الاختلاف بين أتباعه مع وجود الشريعة المانعة من مثله كأنه حدث عقب بعثة عيسى وإن كان بينه وبينها زمان طويل دبت فيه بدعتهم، واستعمال اللفظ في حقيقته ومجازه شائع لأن المدار على أن تكون قرينة المجاز مانعة من إرادة المعنى الحقيقي وحده على التحقيق.

وهذا الاختلاف أجمل هنا ووقع تفصيله في آيات كثيرة تتعلق بما تلقى به اليهود دعوة عيسى، وآيات تتعلق بما أحدثه النصارى في دين عيسى من زعم بنوته من الله وإلهيته.

ويجوز أن تكون)من(في قوله)من بينهم(ابتدائية متعلقة ب)اختلف(أي نشأ الاختلاف من بينهم دون أن يدخله عليهم غيرهم، أي كان دينهم سالما فنشأ فيهم الاختلاف.

وعلى هذا الوجه يختص الخلاف بأتباع عيسى عليه السلام من النصارى إذ اختلفوا فرقا وابتدعوا قضية بنوة عيسى من الله فتكون الفاء خالصة للتعقيب المجازي.

وفرع على ذكر الاختلاف تهديد بوعيد للذين ظلموا بالعذاب يوم القيامة تفريع التذييل على المذيل، فالذين ظلموا يشمل جميع الذين

أشركوا مع الله غيره في الإلهية)إن الشرك لظلم عظيم(، وهذا إطلاق الظلم غالبا في القرآن، فعلم أن الاختلاف بين الأحزاب أفضى بهم أن صار أكثرهم مشركين بقرينة ما هو معروف في الاستعمال من لزوم مناسبة التذييل للمذيل، بأن يكون التذييل يعم المذيل وغيره فيشمل عموم هذا التذييل مشركي العرب المقصودين من هذه الأمثال والعبر، ألا ترى أنه وقع في سورة مريم قوله) فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم(فجعلت الصلة فعل)كفروا(لأن المقصود من آية سورة مريم الذين كفروا من النصارى ولذلك أردف بقوله)لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين(لما أريد التخلص إلى إنذار المشركين بعد إنذار النصارى.

)هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون[66] (استئناف بياني بتنزيل سامع قوله)فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم(منزلة من يطلب البيان فيسأل: متى يحل هذا اليوم الأليم؟ وما هو هذا الويل؟ فوردت جملة)هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة(جوابا عن الشق الأول من السؤال، وسيجيء الجواب عن الشق الثاني في قوله)الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو(وفي قوله)إن المجرمين في عذاب جهنم(الآيات.

وقد جرى الجواب على طريقة الأسلوب الحكيم، والمعنى: أن هذا العذاب واقع لا محالة سواء قرب زمان وقوعه أم بعد، فلا يريبكم عدم تعجيله قال تعالى)قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون(، وقد أشعر بهذا المعنى تقييد إتيان الساعة بقيد)بغتة(فإن الشيء الذي لا تسبقه أمارة لا يدرى وقت حلوله.

و)ينظرون(بمعنى ينتظرون، والاستفهام إنكاري، أي لا ينتظرون بعد أن أشركوا لحصول العذاب إلا حلول الساعة. وعبر عن اليوم بالساعة تلميحا لسرعة ما يحصل فيه.

والتعريف في)الساعة(تعريف العهد.

والبغتة: الفجأة، وهي: حصول الشيء عن غير ترقب.

و)أن تأتيهم(بدل من)الساعة(بدلا مطابقا فإن إتيان الساعة هو عين الساعة لأن مسمى الساعة حلول الوقت المعين، والحلول هو المجيء المجازي المراد هنا.

وجملة)وهم لا يشعرون(في موضع الحال من ضمير النصب في) تأتيهم(. والشعور: العلم بحصول الشيء الحاصل.

ولما كان مدلول)بغتة(يقتضي عدم الشعور بوقوع الساعة حين تقع عليهم كانت جملة الحال مؤكدة للجملة التي قبلها.
)الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين[67] يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون[68] الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين[69] ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون[70] يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون[71] وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون[72] لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون[73](استئناف يفيد أمرين.
أحدهما: بيان بعض الأهوال التي أشار إليها إجمال التهديد في قوله)فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم(.
وثانيهما: موعظة المشركية بما يحصل يوم القيامة من الأهوال لأمثالهم والحبرة للمؤمنين.
وقد أوثر بالذكر هنا من الأهوال ما له مزيد تناسب لحال المشركين في تألبهم على مناواة الرسول صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام، فإنهم ما ألبهم إلا تناصرهم وتوادهم في الكفر والتباهي بذلك بينهم في نواديهم وأسمارهم، قال تعالى حكاية عن إبراهيم)وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا(وتلك شنشنة أهل الشرك من قبل.
وفي معنى هذه الآية قوله المتقدم آنفا)حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين(.
والأخلاء: جمع خليل، وهو الصاحب الملازم، قيل: إنه مشتق من التخلل لأنه كالمتخلل لصاحبه والممتزج به، وتقدم في قوله)واتخذ الله إبراهيم خليلا(في سورة النساء. والمضاف إليه)إذ(من قوله) يومئذ(هو المعوض عنه التنوين دل عليه المذكور قبله في قوله) من عذاب يوم أليم(.
والعدو: المبغض، ووزنه فعول بمعنى فاعل، أي عاد، ولذلك استوى جريانه على الواحد وغيره، والمذكر وغيره، وتقدم عند قوله تعالى) وإن كان من قوم عدو لكم(في سورة النساء.
وتعريف)الأخلاء(تعريف الجنس وهو مفيد استغراقا عرفيا، أي الأخلاء من فريقي المشركين والمؤمنين أو الأخلاء من قريش المتحدث عنهم، وإلا فإن من الأخلاء غير المؤمنين من لا عداوة بينهم يوم القيامة وهم الذين لم يستخدموا خلتهم في إغراء بعضهم بعضا على الشرك والكفر والمعاصي وإن افترقوا في المنازل والدرجات يوم القيامة.
و)يومئذ(ظرف متعلق بعدو، وجملة)يا عبادي(مقولة لقول محذوف دلت عليه صيغة الخطاب، أي نقول لهم أو يقول الله لهم.

وقرأ الجمهور)يا عبادي(بإثبات الياء على الأصل. وقرأه حفص والكسائي بحذف ياء المتكلم تخفيفا. قال ابن عطية قال أبو علي: وحذفها حسن لأنها في موضع تنوين وهي قد عاقبته فكما يحذف التنوين في الاسم المفرد المنادى كذلك تحذف الياء هنا.

ومفاتحة خطابهم بنفي الخوف عنهم تأنيس لهم، ومنة بإنجائهم من مثله، وتذكير لهم بسبب مخالفة حالهم لحال أهل الضلالة فإنهم يشاهدون ما يعامل به أهل الضلالة والفساد.

و)لا خوف(مرفوع منون في جميع القراءات المشهورة، وإنما لم يفتح لأن الفتح على تضمين)من(الزائدة المؤكدة للعموم وإذ قد كان التأكيد مفيدا التنصيص على عدم إرادة نفي الواحد، وكان المقام غير مقام التردد في نفي جنس الخوف عنهم لأنه لم يكن واقعا بهم حينئذ مع وقوعه على غيرهم، فأمارة نجاتهم منه واضحة، لم يحتج إلى نصب اسم)لا(، ونظيره قول الرابعة من نساء حديث أم زرع زوجي كليل تهامة، لا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة روايته برفع الأسماء الأربعة لأن انتفاء تلك الأحوال عن ليل تهامة مشهور، وإنما أرادت بيان وجوه الشبه من قولها كليل تهامة.

صفحة : 3941

وجيء في قوله)ولا أنتم تحزنون(بالمسند إليه مخبرا عنه بالمسند الفعلي لإفادة التقوي في نفي الحزن عنهم، فالتقوي أفاد تقوي النفي لا نفي قوة الحزن الصادق بحزن غير قوي. هذا هو طريق الاستعمال في نفس صيغ المبالغة كما في قوله تعالى)وما ربك بظلام للبعيد(تطمينا لأنفسهم بانتفاء الحزن عنهم في أزمنة المستقبل، إذ قد يهجس بخواطرهم هل يدوم لهم الأمن الذي هم فيه.

وجملة)الذين آمنوا بآياتنا(نعت للمنادى من قوله)يا عبادي(، جيء فيها بالموصول لدلالة الصلة على علة انتفاء الخوف والحزن عنهم، وعطف على الصلة قوله)وكانوا مسلمين(.

والمخالفة بين الصلتين إذ كانت أولاهما فعلا ماضيا والثانية فعل كون مخبرا عنه باسم فاعل لأن الإيمان: عقد القلب يحصل دفعة واحدة وأما الإسلام فهو الإتيان بقواعد الإسلام الخمس كما جاء تفسيره في حديث سؤال جبريل، فهو معروض للتمكن من النفس فلذلك أوثر بفعل)كان(الدال على اتحاد خبره باسمه حتى كأنه من قوام كيانه.

وعطف أزواجهم عليهم في الإذن بدخول الجنة من تمام نعمة التمتع بالخلة التي كانت بينهم وبين أزواجهم في الدنيا.
و)تحبرون(مبني للمجهول مضارع حبر بالبناء للمجهول، وفعله حبره، إذا سره، ومصدره الحبر بفتح فسكون، والاسم الحبور والحبرة، وتقدم في قوله تعالى)فهم في روضة يحبرون(في سورة الروم.
وجملة)يطاف عليهم بصحاف(إلخ معترضة بين أجزاء القول فليس في ضمير)عليهم(التفات بل المقام لضمير الغيبة.
والصحاف: جمع صفحة، إناء مستدير واسع الفم ينتهي أسفله بما يقارب التكوير. والصفحة: إناء لوضع الطعام أو الفاكهة مثل صحاف الفغفوري الصيني تسع شبع خمسة، وهي دون القصعة التي تسع شبع عشرة. وقد ورد أن عمر بن الخطاب اتخذ صحافا على عدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فلا يؤتى إليه بفاكهة أو طرفة إلا أرسل إليهن منها في تلك الصحاف.
والأكواب: جمع كوب بضم الكاف وهو إناء للشراب من ماء أو خمر مستطيل الشكل له عنق قصير في أعلى ذلك العنق فمه وهو مصب ما فيه، وفمه أضيق من جوفه، والأكثر أن لا تكون له عروة يمسك منها فيمسك بوضع اليد على عنقه، وقد تكون له عروة قصيرة، وهو أصغر من الإبريق إلا أنه لا خرطوم له ولا عروة في الغالب. وأما الإبريق فله عروة وخرطوم.
وحذف وصف الأكواب لدلالة وصف صحاف عليه، أي وأكواب من ذهب.
وهذه الأكواب تكون للماء وتكون للخمر.
وجملة)وفيها ما تشتهيه الأنفس(إلخ حال من)الجنة(، وهي من بقية القول.
وضمير)فيها(عائد إلى الجنة، وقد عم قوله)ما تشتهيه الأنفس(كل ما تتعلق الشهوات النفسية بنواله وتحصيله، والله يخلق في أهل الجنة الشهوات اللائقة بعالم الخلود والسمو.
)وتلذ(مضارع لذ بوزن علم: إذا أحس لذة، وحق فعله أن يكون قاصرا فيعدى إلى الشيء الذي به اللذة بالباء فيقال: لذ به، وكثر حذف الباء وإيصال الفعل إلى المجرور بنفسه فينتصب على نزع الخافض، وكثر ذلك في الكلام حتى صار الفعل بمنزلة المتعدي فقالوا: لذه. ومنه قوله هنا)وتلذ الأعين(التقدير، وتلذه الأعين. والضمير المحذوف هو رابط الصلة بالموصول.
ولذة الأعين في رؤية الأشكال الحسنة والألوان التي تنشرح لها النفس، فلذة الأعين وسيلة للذة النفوس فعطف)وتلذ الأعين(على)ما تشتهيه الأنفس(عطف ما بينه وبين المعطوف عليه عموم وخصوص، فقد تشتهي الأنفس نا لا تراه الأعين كالمحادثة مع

الأصحاب وسماع الأصوات الحسنة والموسيقى. وقد تبصر الأعين ما لم تسبق للنفس شهوة رؤيته أو ما اشتهت النفس طعمه أو سمعه فيؤتى به في صور جميلة إكمالا للنعمة.
و)الأنفس(فاعل)تلذ(وحذف المفعول لظهوره من المقام.
وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر)ما تشتهيه(بهاء ضمير عائد إلى)ما(الموصولة وكذلك هو مرسوم في مصحف المدينة ومصحف الشام، وقرأه الباقون)ما تشتهي(بحذف هاء الضمير، وكذلك رسم في مصحف مكة ومصحف البصرة ومصحف الكوفة. والمروي عن عاصم قارئ الكوفة روايتان: إحداهما أخذ بها حفص والأخرى أخذ بها أبو بكر. وحذف العائد المتصل المنصوب بفعل أو وصف من صلة الموصول كثير في الكلام.

صفحة : 3942

وقوله)وأنتم فيها خالدون(بشارة لهم بعدم انقطاع الحبرة وسعة الرزق ونيل الشهوات، وجيء فيه بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات تأكيدا لحقيقة الخلود لدفع توهم أن يراد به طول المدة فحسب.
وتقديم المجرور للاهتمام، وعطف على بعض ما يقال لهم مقول آخر قصد منه التنويه بالجنة وبالمؤمنين إذ أعطوها بسبب أعمالهم الصالحة، فأشير إلى الجنة باسم إشارة البعيد تعظيما لشأنها وإلا فإنها حاضرة نصب أعينهم.
وجملة)وتلك الجنة التي أورثتموها(الآية تذييل للقول.
واسم الإشارة مبتدأ و)الجنة(خبره، أي تلك التي ترونها هي الجنة التي سمعتم بها ووعدتم بدخولها.
وجملة)التي أورثتموها بما كنتم تعملون(صفة للجنة.
واستعير)أورثتموها(لمعنى: أعطيتموها دون غيركم، بتشبيه إعطاء الله المؤمنين دون غيرهم نعيم الجنة بإعطاء الحاكم مال الميت لوارثه دون غيره من القرابة لأنه أولى به وآثر بنيله.
والباء في)بما كنتم تعملون(للسببية وهي سببية بجعل الله ووعده، ودل قوله)كنتم تعملون(على أن عملهم الذي استحقوا به الجنة أمر كائن متقرر، وأن عملهم ذلك متكرر متجدد، أي غير منقطع إلى وفاتهم.
وجملة)لكم فيها فاكهة كثيرة(صفة ثانية للجنة. والفاكهة: الثمار رطبها ويابسها، وهي من أحسن ما يستلذ من المآكل، وطعومها معروفة لكل سامع.

ووجه تكرير الامتنان بنعيم المأكل والمشرب في الجنة: أن ذلك من النعيم الذي لا تختلف الطباع البشرية في استلذاذه، ولذلك قال)منها تأكلون(كقوله تعالى)كلوا من ثمره إذا أثمر(.

)إن المجرمين في عذاب جهنم خلدون[74] لا يفتر عنهم وهم مبلسون[75](لهذه الجملة موقعان: أحدهما إتمام التفصيل لما أجمله الوعيد الذي في قوله تعالى)فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم(عقب تفصيل بعضه بقوله)هل ينظرون إلا الساعة(إلخ. وبقوله)الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو(حيث قطع إتمام تفصيله بالاعتناء بذكر وعد المؤمنين المتقين فهي في هذا الموقع بيان لجملة الوعيد وتفصيل لإجمالها.

الموقع الثاني: أنها كالاستئناف البياني يثيره ما يسمع من وصف أحوال المؤمنين المتقين من التساؤل: كيف يكون حال أضدادهم المشركين الظالمين.

والموقعان سواء في كون الجملة لا محل لها من الإعراب.

وافتتاح الخبر ب)إن(للاهتمام به، أو لتنزيل السائل المتلهف للخبر منزلة المتردد في مضمونه لشدة شوقه إليه، أو نظرا إلى ما في الخبر من التعريض بإسماعه المشركين وهم ينكرون مضمونه فكأنه قيل: إنكم أيها المجرمون في عذاب جهنم خالدون.

والمجرمون: الذين يفعلون الإجرام، وهو الذنب العظيم. والمراد بهم هنا: المشركون المكذبون للنبي صلى الله عليه وسلم لأن السياق لهم، ولأن الجملة بيان لإجمال وعيدهم في قوله)فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم(، ولأن جواب الملائكة نداءهم بقولهم)لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون(لا ينطبق على غير المكذبين، أي كارهون للإسلام والقرآن، فذكر المجرمين إظهار في مقام الإضمار للتنبيه على أن شركهم إجرام.

وجملة)لا يفتر عنهم(في موضع الحال من)عذاب جهنم(.

و)يفتر(مضاعف فتر، إذا سكن، وهو بالتضعيف يتعدى إلى مفعول. والمعنى: لا يفتره أحد.

وجملة)وهم فيه مبلسون(عطف على جملة)إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون(.

والإبلاس: اليأس والذل، وتقدم في سورة الأنعام: وزاد الزمخشري في معنى الإبلاس قيد السكوت ولم يذكره غيره، والحق أن السكوت من لوازم معنى الإبلاس وليس قيدا في المعنى.

)وما ظلمناهم ولكن كانوا الظالمين[76](جملة معترضة ي حكاية أحوال المجرمين قصد منها نفي استعظام ما جوزوا به من الخلود في العذاب ونفي الرقة لحالهم المحكية بقوله)وهم فيه مبلسون(.

والظلم هنا: الاعتداء، وهو الإصابة بضر بغير موجب مشروع أو معقول، فنفيه عن الله في معاملته إياهم بتلك المعاملة لأنها كانت جزاء على ظلمهم فلذلك عقب بقوله)ولكن كانوا هم الظالمين(أي المعتدين إذ اعتدوا على ما أمر الله من الاعتراف له بالإلهية، وعلى رسوا الله صلى الله عليه وسلم إذ كذبوه ولمزوه، كما تقدم في قوله)إن الشرك لظلم عظيم(في سورة لقمان.

صفحة : 3943

و)هم(ضمير منفصل لا يطلب معادا لأنه لم يجتلب للدلالة على معاد لوجود ضمير)كانوا(دالا على المعاد فضمير الفصل مجتلب لإفادة قصر صفة الظلم على اسم)كان(، وإذ قد كان حرف الاستدراك بعد النفي كافيا في إفادة القصر كان اجتلاب ضمير الفصل تأكيدا للقصر بإعادة صيغة أخرى من صيغ القصر.
وجمهور العرب يجعلون ضمير الفصل في الكلام غير واقع في موقع إعراب فهو بمنزلة الحرف، وهو عند جمهور النحاة حرف لا محل له من الإعراب ويسميه نحاة البصرة فصلا، ويسميه نحاة الكوفة عمادا.
واتفق القراء على نصب)الظالمين(على أنه خبر)كانوا(وبنو تميم يجعلونه ضميرا طالبا معادا وصدرا لجملته مبتدأ ويجعلون جملته في محل الإعراب الذي يقتضيه ما قبله، وعلى ذلك قرأ عبد الله بن مسعود وأبو زيد النحوي)ولكن كانوا هم الظالمون(على أن هم مبتدأ والجملة منه ومن خبره خبر)كانوا(.
وحكى سيبوية أن رؤية بن العجاج كان يقول أظن زيدا هو خير منك برفع خير.
)ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون[77] لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون[78](جملة)ونادوا(حال من ضمير)وهم فيه مبلسون(، أو عطف على جملة)وهم فيه مبلسون(.
وحكي نداؤهم بصيغة الماضي مع أنه مما سيقع يوم القيامة، إما لأن إبلاسهم في عذاب جهنم وهو اليأس يكون بعد أن نادوا يا مالك وأجابهم بما أجاب به، وذلك إذا جعلت جملة)ونادوا(حالية، وإما لتنزيل الفعل المستقبل منزلة الماضي في تحقيق وقوعه تخريجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر نحو قوله تعالى)ويوم ينفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض(وهذا إن كانت جملة)ونادوا(إلخ معطوفة.

و)مالك(المنادى اسم الملك الموكل بجهنم خاطبوه ليرفع دعوتهم إلى الله تعالى شفاعة.
واللام في)ليقض علينا ربك(لام الأمر بمعنى الدعاء.
وتوجيه الأمر إلى الغائب لا يكون إلا على معنى التبليغ كما هنا، أو تنزيل الحاضر منزلة الغائب لاعتبار ما مثل التعظيم في نحو قول الوزير للخليفة لير الخليفة رأيه .
والقضاء بمعنى: الإماتة كقوله)فوكزه موسى فقضى عليه(، سألوا الله أن يزيل عنهم الحياة ليستريحوا من إحساس العذاب.
وهم إنما سألوا الله أن يميتهم فأجيبوا بأنهم ماكثون جوابا جامعا لنفي الإماتة ونفي الخروج فهو جواب قاطع لما قد يسألونه من بعد.
ومن النوادر المتعلقة بهذه الآية ما روي أن ابن مسعود قرأ ونادوا يا مال بحذف الكاف على الترخيم، فذكرت قراءته لابن عباس فقال ما كان أشغل أهل النار عن الترخيم ، قال في الكشاف: وعن بعضهم: حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وعظم ما هم فيه اه. وأراد ببعضهم ابن جني فيما ذكره الطيبي أن ابن جني قال: وللترخيم في هذا الموضع سر وذلك أنهم لعظم ما هم عليه ضعفت وذلت أنفسهم وصغر كلامهم فكان هذا من مواضع الاختصار.
وفي صحيح البخاري عن يعلى بن أمية سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر)ونادوا يا مالك(بإثبات الكاف. قال ابن عطية: وقراءة)ونادوا يا مال(رواها أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم فيكون النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بالوجهين وتواترت قراءة إثبات الكاف وبقيت الأخرى مروية بالآحاد فلم تكن قرآنا.
وجملة)لقد جئناكم بالحق(إلى آخرها في موضع العلة لجملة)إنكم ماكثون(باعتبار تمام الجملة وهو الاستدراك بقوله)ولكن أكثرهم للحق كارهون(.
وضمير)جئناكم(للملائكة، والحق: الوحي الذي نزل به جبريل فنسب مالك المجيء بالحق إلى جمع الملائكة على طريقة اعتزاز الفريق والقبيلة بمزايا بعضها، وهي طريقة معروفة في كلام العرب كقول الحارث بن حلزة:

وفككنا غل امرئ القيس عنه بعد ما طال حبسه والعنـاء

وإنما نسبت كراهة الحق إلى أكثرهم دون جميعهم لأن المشركين فريقان أحدهما سادة كبراء لملة الكفر وهم الذين يصدون الناس عن الإيمان بالإرهاب والترغيب مثل أبي جهل حين صد أبا طالب عند احتضاره عن قول لا إله إلا الله وقال أترغب عن ملة عبد المطلب ، وثانيهما دهماء وعامة وهم تبع لأئمة الكفر. وقد أشارت إلى ذلك آيات كثيرة منها قوله في سورة البقرة)إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا(الآيات فالفريق الأول هم المراد. من قوله) ولكن أكثركم للحق كارهون(وأولئك إنما كرهوا الحق لأنه يرمي إلى زوال سلطانهم وتعطيل منافعهم.

وتقديم)للحق(على)كارهون(للاهتمام بالحق تنويها به، وفيه إقامة الفاصلة أيضا.

)أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون[79]( )أم(منقطعة للإضراب الانتقالي من حديث إلى حديث مع اتحاد الغرض، انتقل من حديث ما أعد لهم من العذاب يوم القيامة إلى ما أعد لهم من الخزي في الدنيا.

فالجملة عطف على جملة)هل ينظرون إلا الساعة(إلخ.

والكلام بعد)أم(استفهام حذفت منه أداة استفهام وهو استفهام تقريري وتهديد، أي أأبرموا أمرا.

وضمير)أبرموا(مراد به المشركون الذين ناووا النبي صلى الله عليه وسلم. وضمير)إنا(ضمير الجلالة.

والفاء في قوله)فإنا مبرمون(للتفريع على ما اقتضاه الاستفهام من تقدير حصول المستفهم عنه فيؤول الكلام إلى معنى الشرط، أي أن أبرموا أمرا من الكيد فإن الله مبرم لهم أمرا من نقض الكيد وإلحاق الأذى بهم، ونظيره وفي معناه قوله)أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون(.

وعن مقاتل نزلت هذه الآية في تدبير قريش بالمكر بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتل النبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يستطيع بنو هاشم المطالبة بدمه، وقتل الله جميعهم في بدر.

والإبرام حقيقته: القتل المحكم، وهو هنا مستعار لإحكام التدبير والعزم على ما دبروه.

والمخالفة بين)أبرموا(و)مبرمون(لأن إبرامهم واقع، وأما إبرام الله جزاء لهم فهو توعد بأن الله قدر نقض ما أبرموه فإن اسم الفاعل حقيقة في زمن الحال، أي نحن نقدر لهم الآن أمرا عظيما، وذلك إيجاد أسباب وقعة بدر التي استؤصلوا فيها.

والأمر: العمل العظيم الخطير، وحذف مفعول)مبرمون(لدلالة ما قبله عليه.

)أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون[80]( )أم(والاستفهام المقدر بعدها في قوله)أم يحسبون(هما مثل ما تقدم في قوله)أم أبرموا أمرا(.

وحرف)بلى(جواب للنفي من قوله)أنا لا نسمع(، أي بلى نحن نسمع سرهم ونجواهم.

والسمع هو: العلم بالأصوات.

والمراد بالسر: ما يسرونه في أنفسهم من وسائل المكر للنبي صلى الله عليه وسلم، وبالنجوى ما يتناجون به بينهم في ذلك بحديث خفي.

وعطف)ورسلنا لديهم يكتبون(ليعلموا أن علم الله بما يسرون علم يترتب عليه أثر فيهم وهو مؤاخذتهم بما يسرون لأن كتابة الأعمال تؤذن بأنها ستحسب لهم يوم الجزاء.

والكتابة يجوز أن تكون حقيقة، وأن تكون مجازا، أو كناية عن الإحصاء والاحتفاظ.

والرسل: هم الحفظة من الملائكة لأنهم مرسلون لتقصي أعمال الناس ولذلك قال)لديهم يكتبون(كقوله)ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد(، أي رقيب يرقب قوله.

)قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين[81] سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون[82](لما جرى ذكر الذين ظلموا بادعاء بنوة الملائكة في قوله)فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم(عقب قوله)ولما ضرب ابن مريم مثلا(، وعقب قوله قبله)وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمان إناثا(.

وأعقب بما ينتظرهم من أهوال القيامة وما أعد للذين انخلعوا عن الإشراك بالإيمان، أمر الله رسوله أن ينتقل من مقام التحذير والتهديد إلى مقام الاحتجاج على انتفاء أن يكون لله ولد، جمعا بين الرد على بعض المشركين الذين عبدوا الملائكة، والذين زعموا أن بعض أصنامهم بنات الله مثل اللات والعزى، فأمره بقوله)قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين(أي قل لهم جدلا وإفحاما، ولقنه كلاما يدل على أنه ما كان يعزب عنه أن الله ليس له ولد ولا يخطر بباله أن لله ابنا.

والذين يقول لهم هذا القول هم المشركون الزاعمون ذلك فهذا غرض الآية على الإجمال لأنها افتتحت بقوله)قل إن كان للرحمن

ولد(مع علم السامعين أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يروج عنده ذلك.

ونظم الآية دقيق ومعضل، وتحته معان جمة: وأولها وأولاها: أنه لو يعلم أن لله أبناء لكان أول من يعبدهم، أي أحق منكم بأن أعبدهم، أي لأنه ليس أقل فهما من أن يعلم شيئا ابنا لله ولا يعترف لذلك بالإلهية لأن ابن الله يكون منسلا من ذات إلهية فلا يكون إلا إلها وأنا أعلم أن الإله يستحق العبادة، فالدليل مركب من ملازمة شرطية، والشرط فرضي، والملازمة بين الجواب والشرط مبنية على أن المتكلم عاقل داع إلى الحق والنجاة فلا يرضى لنفسه ما يورطه، وأيضا لا يرضى لهم إلا ما رضيه لنفسه، وهذا منتهى النصح لهم، وبه يتم الاستدلال ويفيد أنه ثابت القدم في توحيد الإله.

ونفي التعدد بنفي أخص أحوال التعدد وهو التعدد بالأبوة والبنوة كتعدد العائلة، وهو أصل التعدد فينتفي أيضا تعدد الآلهة الأجانب بدلالة الفحوى. ونظيره قول سعيد بن جبير للحجاج. وقد قال له الحجاج حين أراد أن يقتله: لابدلنك بالدنيا نارا تلظى فقال سعيد: لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلها غيرك، فنبهه إلى خطئه بأن إدخال النار من خصائص الله تعالى .

والحاصل أن هذا الاستدلال مركب من قضية شرطية أول جزأيها وهو المقدم باطل، وثانيهما وهو التالي باطل أيضا، لأن بطلان التالي لازم لبطلان المقدم، كقولك: إن كانت الخمسة زوجا فهي منقسمة بمتساويين، والاستدلال هنا ببطلان التالي على بطلان المقدم لأن كون النبي صلى الله عليه وسلم عابدا لمزعوم بنوته لله أمر منتف بالمشاهدة فإنه لم يزل ناهيا إياهم عن ذلك. وهذا على وزان الاستدلال في قوله تعالى)لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا(، إلا أن تلك جعل شرطها بأداة صريحة في الامتناع، وهذه جعل شرطها بأداة غير صريحة في الامتناع.

والنكتة في العدول عن الأداة الصريحة في الامتناع هنا، إيهامهم في بادئ الأمر أن فرض الولد لله محل نظر، وليتأتى أن يكون نظم الكلام موجها حتى إذا تأملوه وجدوه ينفي أن يكون لله ولد بطريق المذهب الكلامي. ويدل لهذا ما رواه في الكشاف أن النضر بن عبد الدار بن قصي قال: إن الملائكة بنات الله فنزل قوله تعالى)قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين(. فقال النضر: ألا ترون أنه قد صدقني، فقال له الوليد بن المغيرة ما صدقك ولكن قال: ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة. وروي مجمل هذا المعنى عن السدي فكان في نظم الآية على هذا النظم إيجاز بديع، وإطماع للخصوم بما إن تأملوه استبان وجه الحق فإن أعرضوا بعد ذلك عد إعراضهم نكوصا.

وتحتمل الآية وجوها أخر من المعاني. منها: أن يكون المعنى إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين لله، أي فأنا أول المؤمنين بتكذيبهم، قاله مجاهد، أي بقرينة تذييله بجملة)سبحان رب السماوات والأرض(الآية.

ومنها، أن يكون حرف)إن(للنفي دون الشرط، والمعنى: ما كان للرحمن ولد فتفرع عليه: أنا أول العابدين لله، أي أتنزه عن إثبات الشريك له، وهذا عن ابن عباس وقتادة وزيد بن أسلم وابنه.

ومنها: تأويل)العابدين(أنه اسم فاعل من عبد يعبد من باب فرح، أي أنف وغضب، قاله الكسائي، وطعن فيه نفطويه بأنه إنما يقال في اسم فاعل عبد يعبد عبد وقلما يقولون: عابد والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة.

وقرأ الجمهور)ولد(بفتح الواو وفتح اللام. وقرأه حمزة والكسائي) ولد(بضم الواو وسكون اللام جمع ولد.

صفحة : 3946

وجملة)سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون(، يجوز أن تكون تكملة لما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله، أي قل: إن كان للرحمن ولد على الفرض، والتقدير: مع تنزيه عن تحقق ذلك في نفس الأمر. فيكون لهذه الجملة حكم التالي في جزأي القياس الشرطي الاستثنائي.

وليس في ضمير)يصفون(التفات لأن تقدير الكلام: قل لهم إن كان للرحمن ولد.

ويجوز أن تكون كلاما مستأنفا من جانب الله تعالى لإنشاء تنزيهه عما يقولون فتكون معترضة بين جملة)قل إن كان للرحمن ولد(وجملة)وهو الذي في السماء إله(. ولهذه الجملة معنى التذييل لأنها نزهت الله عن جميع ما يصفونه به من نسبة الولد وغير ذلك.

ووصفه بربوبية أقوى الموجودات وأعمها وأعظمها، لأنه يفيد انتفاء أن يكون له ولد لانتفاء فائدة الولادة، فقد تم خلق العوالم ونظام نمائها ودوامها، وعلم من كونه خالقها أنه غير مسبوق بعدم وإلا لاحتاج إلى خالق يخلقه، واقتضى عدم السبق بعدم أنه لا يلحقه فناء فوجود الولد له يكون عبثا.

)فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون[83] (اعتراض بتفريع عن تنزيه الله عما ينسبونه إليه من الولد والشركاء، وهذا تأييس من إجداء الحجة فيهم وأن الأولى به متاركتهم في ضلالهم إلى أن يحين يوم يلقون فيه العذاب الموعود.

وهذا متحقق في أئمة الكفر الذين ماتوا عليه، وهم الذين كانوا متصدين لمحاجة النبي صلى الله عليه وسلم ومجادلته والتشغيب عليه مثل أبي جهل، وأمية بن خلف، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، والوليد بن المغيرة، والنضر بن عبد الدار، ممن قتلوا يوم بدر.

)واليوم(هنا محتمل ليوم بدر وليوم القيامة وكلاهما قد وعدوه، والوعد هنا بمعنى الوعيد كما دل عليه السياق.

والخوض حقيقته: الدخول في لجة الماء ماشيا، ويطلق مجازا على كثرة الحديث، والأخبار والاقتصار على الاشتغال بها، وتقدم في قوله)وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم(في سورة الأنعام.

والمعنى: فأعرض عنهم في حال خوضهم في الأحاديث ولعبهم في مواقع الجد حين يهزأون بالإسلام. واللعب: المزح والهزم.

وجزم فعل)يخوضوا ويلعبوا(بلام الأمر محذوفة وهو أولى من جعله جزما في جواب الأمر، وقد تكرر مثله في القرآن فالأمر هنا مستعمل في التهديد من قبيل)اعملوا ما شئتم(.

وقرأ الجمهور)يلاقوا(بضم الياء وبألف بعد اللام، وصيغة المفاعلة مجاز في أنه لقاء محقق. وقرأه أبو جعفر)يلقوا(بفتح الياء وسكون اللام على أنه مضارع المجرد.

)وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله(عطف على جملة)قل إن كان للرحمن ولد(والجملتان اللتان بينهما اعتراضان، قصد من العطف إفادة نفي الشريك في الإلهية مطلقا بعد نفي الشريك فيها بالبنوة، وقصد بذكر السماء والأرض الإحاطة بعوالم التدبير والخلق لأن المشركين جعلوا لله شركاء في الأرض وهم أصنامهم المنصوبة، وجعلوا له شركاء في السماء وهم الملائكة إذ جعلوهم بنات لله تعالى فكان قوله)في السماء إله وفي الأرض إله(إبطالا للفريقين مما زعمت إلهيتهم.

وكان مقتضى الظاهر بهذه الجملة أن يكون أولها)الذي في السماء إله(على أنه وصف للرحمن من قوله)إن كان للرحمن ولد(، فعدل عن مقتضى الظاهر بإيراد الجملة معطوفة لتكون مستقلة غير صفة، وبإيراد مبتدأ فيها لإفادة قصر صفة الإلهية في السماء وفي الأرض على الله تعالى لا يشاركه في ذلك غيره، لأن إيراد المسند إليه معرفة والمسند معرفة طريق من طرق القصر. فالمعنى وهو لا غيره الذي في السماء إله وفي الأرض إله، وصلة) الذي(جملة اسمية حذف صدرها، وصدرها ضمير يعود إلى معاد ضمير)وهو(وحذف صدر الصلة استعمال حسن إذا طالت الصلة كما هنا. والتقدير الذي هو في السماء إله.

والمجروران يتعلقان ب)إله(باعتبار ما يتضمنه من معنى المعبود لأنه مشتق من أله، إذا عبد فشابه المشتق. وصح تعلق المجرور به فتعلقه بلفظ إله كتعلق الظرف بغربال وأقوى من تعلق المجرور بكانون في قول الحطيئة يهجو أمه من أبيات:

أغربالا إذا استودعت سرا وكانونا

على المتحدثينا)وهو الحكيم العليم[84](

صفحة : 3947

بعد أن وصف الله بالتفرد بالإلهية أتبع بوصفه ب)الحكيم العليم(تدقيقا للدليل الذي في قوله)وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله(، حيث دل على نفي إلهية غيره في السماء والأرض واختصاصه بالإلهية فيهما لما في صيغة القصر من إثبات الوصف له ونفيه عمن سواه، فكان قوله)وهو الحكيم العليم(تتميما للدليل واستدلالا عليه، ولذلك سميناه تدقيقا إذ التدقيق في الاصطلاح هو ذكر الشيء بدليل دليله، وأما التحقيق فذكر الشيء بدليله. لأن الموصوف بتمام الحكمة وكمال العلم مستغن عما سواه فلا يحتاج إلى ولد ولا إلى بنت ولا إلى شريك.

)وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون[85](عطف على)سبحان رب السماوات والأرض(، قصد منه إتباع إنشاء التنزيه بإنشاء الثناء والتمجيد.

)وتبارك(خبر مستعمل في إنشاء المدح لأن معنى)تبارك(كان متصفا بالبركة اتصافا قويا لما يدل عليه صيغة تفاعل من قوة حصول المشتق منه لأن أصلها أن تدل على صدور فعل من فاعلين مثل: تقاتل وتمارى، فاستعملت في مجرد تكرر الفعل، وذلك مثل: تسامى وتعالى.

والبركة: الزيادة في الخير.

وقد ذكر مع التنزيه أنه رب السماوات والأرض لاقتضاء الربوبية التنزيه عن الولد المسوق الكلام لنفيه، وعن الشريك المشمول لقوله)عما يصفون(، وذكر مع التبريك والتعظيم أن له ملك السماوات والأرض لمناسبة الملك للعظمة وفيض الخير، فلا يربيك أن)رب السماوات والأرض(مغن عن)الذي له ملك السماوات والأرض(، لأن غرض القرآن التذكير وأغراض التذكير تخالف أغراض الاستدلال والجدل، فإن التذكير يلائم التنبيه على مختلف الصفات باختلاف الاعتبارات والتعرض للاستمداد من الفضل. ثم إن صيغة)تبارك(تدل على أن البركة ذاتية لله تعالى فيقتضي استغناءه عن الزيادة باتخاذ الولد واتخاذ الشريك، فبهذا الاعتبار كانت هذه الجملة

استدلالا آخر تابعا لدليل قوله)سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون(.
وقد تأكد انفراده بربوبية أعظم الموجدات ثلاث مرات بقوله)رب العرش(وقوله)وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله(وقوله) الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما(.
فكم من خصائص ونكت تنهال على المتدبر من آيات القرآن التي لا يحيط بها إلا الحكيم العليم.
ولما كان قوله)الذي له ملك السماوات والأرض(مفيدا التصرف في هذه العوالم مدة وجودها ووجود ما بينها أردفه بقوله)وعنده علم الساعة وإليه ترجعون(للدلالة على أن له مع ملك العوالم الفانية ملك العوالم الباقية، وأنه المتصرف في تلك العوالم بما فيها بالتنعيم والتعذيب، فكان قوله)وعنده علم الساعة(توطئة لقوله) وإليه ترجعون(وإدماجا لإثبات البعث.
وتقديم المجرور في)إليه ترجعون(لقصد التقوي إذ ليس المخاطبون بمثبتين رجعى إلى غيره فإنهم لا يؤمنون بالبعث أصلا.
وأما قولهم للأصنام)هؤلاء شفعاؤنا عند الله(فمرادهم أنهم شفعاء لهم في الدنيا أو هو على سبيل الجدل ولذلك أتبع بقوله)ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة(.
وقرأ الجمهور)ترجعون(بالفوقية على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمباشرة بالتهديد. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالتحتية تبعا لأسلوب الضمائر التي قبله، وهم متفقون على أنه مبني للمجهول.
)ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون[86](لما أنبأهم أن لله ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة أعلمهم أن ما يعبدونه من دون الله لا يقدر على أن يشفع لهم في الدنيا إبطالا لزعمهم أنهم شفعاؤهم عند الله.
ولما كان من جملة من عبدوا دون الله الملائكة استثناهم بقوله) إلا من شهد بالحق وهم يعلمون(أي فهم يشفعون، وهذا في معنى قوله)وقالوا اتخذ الرحمان ولدا سبحانه بل عباد مكرمون(ثم قال) ولا يشفعون إلا لمن ارتضى(، وقد مضى في سورة الأنبياء.
ووصف الشفعاء بأنهم شهدوا بالحق وهم يعلمون أي وهم يعلمون حال من يستحق الشفاعة. فقد علم أنهم لا يشفعون للذين خالف حالهم حال من يشهد لله بالحق.
)ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون[87](

بعد أن أمعن في إبطال أن يكون إله غير الله بما سيق من التفصيلات، جاء هنا بكلمة جامعة لإبطال زعمهم إلهية غير الله بقوله)ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله(أي سألتهم سؤال تقرير عمن خلقهم فإنهم يقرون بأن الله خلقهم، وهذا معلوم من حال المشركين كقول ضمام بن ثعلبة للنبي صلى الله عليه وسلم أسألك بربك ورب من قبلك الله أرسلك(، ولأجل ذلك أكد إنهم يقرون لله بأنه الخالق فقال)ليقولن الله(، وذلك كاف في سفاهة رأيهم إذ كيف يكون إلها من لم يخلق، قال تعالى)أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون(.

والخطاب في قوله)سألتهم(للنبي صلى الله عليه وسلم. ويجوز أن يكون لغير معين، أي إن سألهم من يتأتى منه أن يسأل.

وفرع على هذا التقرير والإقرار الانكار والتعجيب من انصرافهم من عبادة الله إلى عبادة آلهة أخرى بقوله)فأنى يؤفكون(.

و)أنى(اسم استفهام عن المكان فمحله نصب على الظرفية، أي إلى أي مكان يصرفون.

و)يؤفكون(يصرفون: يقال: أفكه عن كذا، يأفكه من باب ضرب، إذا صرفه عنه، وبني للمجهول إذ لم يصرفهم صارف ولكن صرفوا أنفسهم عن عبادة خالقهم، فقوله)فأنى يؤفكون(هو كقول العرب: أين يذهب بك، أي أين تذهب بنفسك إذ لا يريدون أن ذاهبا ذهب به يسألونه عنه ولكن المراد: أنه لم يذهب به أحد وإنما ذهب بنفسه.

)وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون[88](القيل مصدر قال، والأظهر أنه اسم مراد به المفعول، أي المقول مثل الذبح وأصله: قول، بكسر القاف وسكون الواو. والمعنى: ومقوله.

والضمير المضاف إليه)قيل(ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم بقرينة سياق الاستدلال والحجاج من قوله)قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين(، وبقرينة قوله)يا رب(وبقرينة أنه قال)إن هؤلاء قوم لا يؤمنون(وبقرينة إجابته بقوله)فاصفح عنهم وقل سلام(، والأولى أن يكون ضمير الغائب التفاتا عن الخطاب في قوله)ولئن سألتهم من خلقهم(، فإنه بعد ما مضى من المحاجة ومن حكاية إقرارهم بأن الله الذي خلقهم، ثم إنهم لم يتزحزحوا عن الكفر قيد أنملة، حصل اليأس للرسول من إيمانهم فقال)يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون(التجاء إلى الله فيهم وتفويضا إليه ليجري حكمه عليهم.

وهذا من استعمال الخبر في التحسر أو الشكاية وهو خبر بمعنى الإنشاء مثل قوله تعالى)وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا

القرآن مهجورا(، أي لم يعملوا به فلم يؤمنوا، ويؤيد هذا تفريع) فاصفح عنهم(، ففي ضمير الغيبة التفات لأن الكلام كان جاريا على أسلوب الخطاب من قوله)ولئن سألتهم من خلقهم(فمقتضى الظاهر: وقولك: يا رب إلخ. ويحسن هذا الالتفات أنه حكاية لشيء في نفس الرسول فجعل الرسول بمنزلة الغائب لإظهار أن الله لا يهمل نداءه وشكواه على حد قوله تعالى)عبس وتولى(. وإضافة القيل إلى ضمير الرسول مشعرة بأنه تكرر منه وعرف به عند ربه، أي عرف بهذا وبما في معناه من نحو)يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرءان مهجورا(وقوله)حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله(.

وقرأ الجمهور)وقيله(بنصب اللام على اعتبار أنه مصدر نصب على أنه مفعول مطلق بدل من فعله.

والتقدير: وقال: الرسول قيله، والجملة معطوفة على جملة)ولئن سألتهم من خلقهم(أو على جملة)فأنى يؤفكون(، أي وقال الرسول حينئذ يا رب إلخ. ونظيره قول كعب بن زهير:

تمشي الوشاة جنابيها وقيلهم إنك يا

بن أبي سلمى لمقتول على رواية)قيلهم(ونصبه، أي ويقولون: قيلهم وهي رواية الأصمعي.

ويجوز أن يكون النصب على المفعول به لقوله)لا نسمع(، والتقدير: بلى ونعلم قيله وهذا اختيار الفراء والأخفش، وقال المبرد والزجاج: هو منصوب بفعل مقدر دل عليه قوله)وعنده علم الساعة(أي ويعلم قيله.

وقرأ عاصم وحمزة بجر لام)قيله(ويجوز في جره وجهان: أحدهما: أن يكون عطفا على)الساعة(في قوله)وعنده علم الساعة(أي وعلم قيل الرسول: يا رب، وهو على هذا وعد للرسول بالنصر وتهديد لهم بالانتقام.

وثانيهما: أن تكون الواو للقسم ويكون جواب القسم جملة)إن هؤلاء قوم لا يؤمنون(على أن الله أقسم بقول الرسول: يا رب، تعظيما للرسول ولقيله الذي هو تفويض للرب وثقة به.

صفحة : 3949

ومقول)قيله(هو)يا رب(فقط، أي أقسم بنداء الرسول ربه نداء مضطر.

وذكر ابن هشام في شرح الكعبية عن أبي حاتم السجستاني: أن من جر فقوله بظن وتخليط، وأنكره عليه ابن هشام لإمكان تخريج الجر على وجه صحيح.

وقد حذف بعد النداء ما نودي لأجله مما دل عليه مقام من أعيته الحيلة فيهم ففوض أمره إلى ربه فأقسم الله بتلك الكلمة على أنهم لا يؤمنون ولكن الله سينتقم منهم فلذلك قال)فسوف تعلمون(.

والإشارة ب)هؤلاء(إلى المشركين من أهل مكة كما هي عادة القرآن غالبا ووصفهم بأنهم قوم لا يؤمنون، أدل على تمكن عدم الإيمان منهم من أن يقول: هؤلاء لا يؤمنون.

)فاصفح عنهم وقل سلام فسوف تعلمون[89](الفاء فصيحة لأنها أفصحت عن مقدر، أي إذ قلت ذلك القيل وفوضت الأمر إلينا فسأتولى الانتصاف منهم فاصفح عنهم، أي أعرض عنهم ولا تحزن لهم وقل لهم إن جادلوك: سلام، أي سلمنا في المجادلة وتركناها.

وأصل)سلام(مصدر جاء بدلا من فعله. فأصله النصب، وعدل إلى رفعه لقصد الدلالة على الثبات كما تقدم في قوله)الحمد لله رب العالمين(.

يقال: صفح يصفح من باب منع بمعنى: أعرض وترك، وتقدم في أول السورة)أفنضرب عنكم الذكر صفحا(ولكن الصفح المأمور به هنا غير الصفح المنكر وقوعه في قوله)أفنضرب عنكم الذكر صفحا(.

وفرع عليه)فسوف تعلمون(تهديدا لهم ووعيدا. وحذف مفعول) تعلمون(للتهويل لتذهب نفوسهم كل مذهب ممكن.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وروح عن يعقوب)تعلمون(بالمثناة الفوقية على أن)فسوف تعلمون(مما أمر الرسول بأن يقوله لهم، أي وقل سوف تعلمون. وقرأه الجمهور بياء تحتية على أنه وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه منتقم من المكذبين.

وما في هذه الآية من الأمر بالإعراض والتسليم في الجدال والوعيد ما يؤذن بانتهاء الكلام في هذه السورة وهو من براعة المقطع.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الدخان

سميت هذه السورة)حم الدخان(. روى الترمذي بسندين ضعيفين يعضد بعضهما بعضا: عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم)من قرأ حم الدخان في ليلة أو في ليلة الجمعة(الحديث.

واللفظان بمنزلة اسم واحد لأن كلمة)حم(غير خاصة بهذه السورة فلا تعد علما لها، ولذلك لم يعدها صاحب الإتقان في عداد السور ذوات أكثر من اسم.

وسميت في المصاحف وفي كتب السنة)سورة الدخان(.

ووجه تسميتها بالدخان وقوع لفظ الدخان فيها المراد به آية من آيات الله أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم فلذلك سميت به اهتماما بشأنه، وإن كان لفظ)الدخان(بمعنى آخر قد وقع في سورة)حم تنزيل(في قوله)ثم استوى إلى السماء وهي دخان(وهي نزلت قبل هذه السورة على المعروف من ترتيب تنزيل سور القرآن عن رواية جابر بن زيد التي اعتمدها الجعبري وصاحب الإتقان على أن وجه التسمية لا يوجبها.

وهي مكية كلها في قول الجمهور. قال ابن عطية: هي مكية لا أحفظ خلافا في شيء منها. ووقع في الكشاف استثناء قوله)إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون(ولم يعزه إلى قائل، ومثله القرطبي، وذكره الكواشي قولا وما عزاه إلى معين.

وأحسب أنه قول نشأ عما فهمه القائل، وسنبينه في موضعه.

وهي السورة الثالثة والستون في عد نزول السور في قول جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الزخرف وقبل سورة الجاثية في مكانها هذا.

وعدت آيها ستا وخمسين عند أهل المدينة ومكة والشام، وعدت عند أهل البصرة سبعا وخمسين، وعند أهل الكوفة تسعا وخمسين.

أغراضها

أشبه افتتاح هذه السورة فاتحة سورة الزخرف من التنويه بشأن القرآن وشرفه وشرف وقت ابتداء نزوله ليكون ذلك مؤذنا أنه من عند الله ودالا على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وليتخلص منه إلى أن المعرضين عن تدبر القرآن ألهاهم الاستهزاء واللمز عن التدبر فحق عليهم دعاء الرسول بعذاب الجوع، إيقاظا لبصائرهم بالأدلة الحسية حين لم تنجع فيهم الدلائل العقلية، ليعلموا أن إجابة الله دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم دليل على أنه أرسله ليبلغ عنه مراده.

فأنذرهم بعذاب يحل بهم علاوة على ما دعا به الرسول صلى الله عليه وسلم تأييدا من الله له بما هو زائد على مطلبه.

وضرب لهم مثلا بأمم أمثالهم عصوا رسل الله إليهم فحل بهم من العقاب من شأنه أن يكون عظة لهؤلاء، تفصيلا بقوم فرعون مع موسى ومؤمني قومه، ودون التفصيل بقوم تبه، وإجمالا وتعميما بالذين من قبل هؤلاء.

وإذ كان إنكار البعث وإحالته من أكبر الأسباب التي أغرتهم على إهمال التدبر في مراد الله تعالى انتقل الكلام إلى إثباته والتعريف بما يعقبه من عقوبة المعاندين ومثوبة المؤمنين ترهيبا وترغيبا.

وأدمج فيها فضل الليلة التي أنزل فيها القرآن، أي ابتدئ إنزاله وهي ليلة القدر.

وأدمج في خلال ذلك ما جرت إليه المناسبات من دلائل الوحدانية وتأييد الله من آمنوا بالرسل، ومن إثبات البعث.

وختمت بالشد على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بانتظار النصر وانتظار الكافرين القهر.

)حم[1](القول في نظائره تقدم.

)والكتب المبين[2] إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين[3] فيها يفرق كل أمر حكيم[4] أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين[5] رحمة من ربك إنه هو السميع العليم[6](القول في نظير هذا القسم وجوابه تقدم في أول سورة الزخرف.

ونوه بشأن القرآن بطريقة الكناية عنه بذكر فضل الوقت الذي ابتدىء إنزاله فيه.

فتعريف)الكتاب(تعريف العهد، والمراد بالكتاب: القرآن.

ومعنى الفعل في)أنزلناه(ابتداء إنزاله فإن كل آية أو آيات تنزل من القرآن فهي منضمة إليه انضمام الجزء للكل، ومجموع ما يبلغ إليه الإنزال في كل ساعة هو مسمى القرآن إلى أن تم نزول آخر آية من القرآن.

وتنكير)ليلة(للتعظيم، ووصفها ب)مباركة(تنويه بها وتشويق لمعرفتها. فهذه الليلة هي الليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في الغار من جبل حراء في رمضان قال تعالى)شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن(.

والليلة التي ابتدئ نزول القرآن فيها هي ليلة القدر قال تعالى)أنا أنزلناه في ليلة القدر(. والأصح أنها في العشر الأواخر من رمضان وأنها في ليلة الوتر. وثبت أن الله جعل لنظيرتها من كل سنة فضلا عظيما لكثرة ثواب العبادة فيها في كل رمضان كرامة لذكرى نزول القرآن وابتداء رسالة أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة. قال تعالى)تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر(.

وذلك من معاني بركتها وكم لها من بركات للمسلمين في دينهم، ولعل تلك البركة تسري إلى شؤونهم الصالحة من أمور دنياهم.
فبركة الليلة التي أنزل فيها القرآن بركة قدرها الله لها قبل نزول القرآن ليكون القرآن بابتداء نزوله فيها ملابسا لوقت مبارك فيزداد بذلك فضلا وشرفا، وهذا من المناسبات الإلهية الدقيقة التي أنبأنا الله ببعضها.
والظاهر أن الله أمدها بتلك البركة في كل عام كما أومأ إلى ذلك قوله)شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن(إذ قاله بعد أن مضى على ابتداء نزول القرآن بضع عشرة سنة. وقوله)ليلة القدر خير من ألف شهر(وقوله)تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر(وقوله)فيها يفرق كل أمر حكيم(.
وعن عكرمة: أن الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان وهو قول ضعيف.
واختلف في الليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم من ليالي رمضان، فقيل: هي ليلة سبع عشرة منه ذكره ابن إسحاق عن الباقر أخذا من قوله تعالى)إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان(فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم التقى هو والمشركون ببدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة ليلة من رمضان اه. أي تأول قوله)وما أنزلنا على عبدنا(أنه ابتداء نزول القرآن. وفي المراد ب)ما أنزلنا(احتمالات ترفع الاحتجاج بهذا التأويل بأن ابتداء نزول القرآن كان في مثل ليلة يوم بدر.
والذي يجب الجزم به أن ليلة نزول القرآن كانت في شهر رمضان وأنه كان في ليلة القدر.

صفحة : 3951

ولما تضافرت الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في ليلة القدر اطلبوها في العشر الأواخر من رمضان في ثالثة تبقى في خامسة تبقى في سابعة تبقى في تاسعة تبقى . فالذي نعتمده أن القرآن ابتدئ نزوله في العشر الأواخر من رمضان، إلا إذا حمل قول النبي صلى الله عليه وسلم اطلبوها في العشر الأواخر على خصوص الليلة من ذلك العام.
وقد اشتهر عند كثير من المسلمين أن ليلة القدر ليلة سبع وعشرين باستمرار وهو مناف لحديث اطلبوها في العشر الأواخر على كل احتمال.

وجملة)إنا كنا منذرين(معترضة. وحرف)إن(يجوز أن يكون للتأكيد ردا لإنكارهم أن يكون الله أرسل رسلا للناس لأن المشركين أنكروا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بزعمهم أن الله لا يرسل رسولا من البشر قال تعالى)إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء(، فكان رد إنكارهم ذلك ردا لإنكارهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فتكون جملة)إنا كنا منذرين(مستأنفة.

ويجوز أن تكون)إن(لمجرد الاهتمام بالخبر فتكون مغنية غناء فاء التسبب فتفيد تعليلا، فتكون جملة)إنا كنا منذرين(تعليلا لجملة) أنزلناه(أي أنزلناه للإنذار لأن الإنذار شأننا، فمضمون الجملة علة العلة وهو إيجاز وإنما اقتصر على وصف)منذرين(مع أن القرآن منذر ومبشر اهتماما بالإنذار لأنه مقتضى حال جمهور الناس يومئذ، والإنذار يقتضي التبشير لمن انتذر. وحذف مفعول)منذرين(لدلالة قوله)إنا أنزلناه في ليلة مباركة(عليه، أي منذرين المخاطبين بالقرآن.

وجملة)فيها يفرق كل أمر حكيم(مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن تنكير)ليلة(. ووصفها ب)مباركة(كما علمت آنفا فدل على عظم شأن هاته الليلة عند الله تعالى فإنها ظهر فيها إنزال القرآن، وفيها يفرق عند الله كل أمر حكيم.

وفي هذه الجمل الأربع محسن اللف والنشر، ففي قوله)إنا أنزلناه في ليلة مباركة(لف بين معنيين أولهما: تعيين إنزال القرأن، وثانيهما: اختصاص تنزيله في ليلة مباركة ثم علل المعنى الأول بجملة)إنا كنا منذرين(، وعلل المعنى الثاني بجملة)فيها يفرق كل أمر حكيم(.

والمنذر: الذي ينذر، أي يخبر بأمر فيه ضر لقصد أن يتقيه المخبر به، وتقدم في قوله تعالى)إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا(في سورة البقرة.

والفرق: الفصل والقضاء، أي فيها يفصل كل ما يراد قضاؤه في الناس ولهذا يسمى القرآن فرقانا، وتقدم قوله تعالى)فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين(في سورة المائدة، أي جعل الله الليلة التي أنزل فيها القرآن وقتا لإنفاذ وقوع أمور هامة مثل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم تشريفا لتلك المقضيات وتشريفا لتلك الليلة.

وكلمة)كل(يجوز أن تكون مستعملة في حقيقة معناها من الشمول وقد علم الله ما هي الأمور الحكيمة فجمعها للقضاء بها في تلك الليلة وأعظمها ابتداء نزول الكتاب الذي فيه صلاح الناس كافة.

ويجوز أن تكون)كل(مستعملة في معنى الكثرة، وهو استعمال في كلام الله تعالى وكلام العرب، وقد تقدم في قوله تعالى في سورة النمل)وأوتيت من كل شيء(أي فيها تفرق أمور عظيمة.
والظاهر أن هذا مستمر في كل ليلة توافق عد تلك الليلة من كل عام كما يؤذن به المضارع في قوله)يفرق(. ويحتمل أن يكون استعمال المضارع في)يفرق(لاستحضار تلك الحالة العظيمة كقوله تعالى)فتثير سحابا(.
والأمر الحكيم: المشتمل على حكمة من حكمة الله تعالى أو الأمر الذي أحكمه الله تعالى وأتقنه بما ينطوي عليه من النظم المدبرة الدالة على سعة العلم وعمومه.
وبعض تلك الأمور الحكيمة ينفذ الأمر به إلى الملائكة الموكلين بأنواع الشؤون، وبعضها ينفذ الأمر به على لسان الرسول مدة حياته الدنيوية، وبعضا يلهم إليه من ألهمه الله أفعالا حكيمة، والله هو العالم بتفاصيل ذلك.

وانتصب)أمرا من عندنا(على الحال من)أمر حكيم(.

صفحة : 3952

وإعادة كلمة)أمرا(لتفخيم شأنه، وإلا فإن المقصود الأصلي هو قوله)من عندنا(، فكان مقتضى الظاهر أن يقع)من عندنا(صفة ل)أمر حكيم(فخولف ذلك لهذه النكتة، أي أمرا عظيما فخما إذا وصف ب)حكيم(. ثم بكونه من عند الله تشريفا له بهذه العندية، وينصرف هذا التشريف والتعظيم ابتداء وبالتعيين إلى القرآن إذ كان بنزوله في تلك الليلة تشريفها وجعلها وقتا لقضاء الأمور الشريفة الحكيمة.
وجملة)إنا كنا مرسلين(معترضة وحرف)إن(فيها مثل ما وقع في)إنا كنا منذرين(.
واعلم أن مفتتح السورة يجوز أن يكون كلاما موجها إلى المشركين ابتداء لفتح بصائرهم إلى شرف القرآن وما فيه من النفع للناس ليكفوا عن الصد عنه ولهذا وردت الحروف المقطعة في أولها المقصود منها التحدي بالإعجاز، واشتملت تلك الجمل الثلاث على حرف التأكيد، ويكون إعلام الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المزايا حاصلا تبعا إن كان لم يسبق إعلامه بذلك بما سبق من آي القرآن أو بوحي غير القرآن.

ويجوز أن يكون موجها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أصالة ويكون علم المشركين بما يحتوي عليه حاصلا تبعا بطريق التعريض، ويكون التوكيد منظورا فيه إلى الغرض التعريضي.

ومفعول)مرسلين(محذوف دل عليه مادة اسم الفاعل، أي مرسلين الرسل.

و)رحمة من ربك(مفعول له من)إنا كنا مرسلين(أي كنا مرسلين لأجل رحمتنا، أي بالعباد المرسل إليهم لأن الإرسال بالإنذار رحمة بالناس ليتجنبوا مهاوي العذاب ويكتسبوا مكاسب الثواب، قال تعالى)وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين(. ويجوز أن يكون)رحمة(حالا من الضمير المنصوب في)أنزلناه(.

وإيراد لفظ الرب في قوله)من ربك(إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقول: رحمة منا. وفائدة هذا الإظهار الإشعار بأن معنى الربوبية يستدعي الرحمة بالمربوبين ثم إضافة)رب(إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم صرف للكلام عن مواجهة المشركين إلى مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم بالخطاب لأنه الذي جرى خطابهم هذا بواسطته فهو كحاضر معهم عند توجيه الخطاب إليهم فيصرف وجه الكلام تارة إليه كما في قوله)يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك(وهذا لقصد التنويه بشأنه بعد التنويه بشأن الكتاب الذي جاء به.

وإضافة الرب إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم ليتوصل إلى حظ له في خلال هذه التشريعات بأن ذلك كله من ربه، أي بواسطته فإنه إذا كان الإرسال رحمة كان الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة قال تعالى)وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين(، ويعلم من كونه رب الرسول صلى الله عليه وسلم أنه رب الناس كلهم إذ لا يكون الرب رب بعض الناس دون بعض فأغنى عن أن يقول: رحمة من ربك وربهم، لأن غرض إضافة رب إلى ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم يأبى ذلك، ثم سيصرح بأنه ربهم في قوله)ربكم ورب آبائكم الأولين(وهو مقام آخر سيأتي بيانه.

وجملة)إنه هو السميع العليم(تعليل لجملة)إنا كنا مرسلين رحمة من ربك(أي كنا مرسلين رحمة بالناس لأنه علم عبادة المشركين للأصنام، وعلم إغواء أئمة الكفر للأمم، وعلم ضجيج الناس من ظلم قويهم ضعيفهم، وعلم ما سوى ذلك من أقوالهم، فأرسل الرسل لتقويمهم وإصلاحهم، وعلم أيضا نوايا الناس وأفعالهم وإفسادهم في الأرض فأرسل الرسل بالشرائع لكف الناس عن الفساد وإصلاح عقائدهم وأعمالهم، فأشير إلى علم النوع الأول بوصف)السميع(لأن السميع هو الذي يعلم الأقوال فلا يخفى عليه منها شيء. وأشير إلى علم النوع الثاني بوصف)العليم(الشامل لجميع المعلومات. وقدم)

السميع(للاهتمام بالمسموعات لأن أصل الكفر هو دعاء المشركين أصنامهم.
واعلم أن السميع والعليم تعليلان لجملة)إنا كنا مرسلين(بطريق الكناية الرمزية لأن علة الإرسال في الحقيقة هي إرادة الصلاح ورحمة الخلق. وأما العلم فهو الصفة التي تجري الإرادة على وفقه، فالتعليل بصفة العلم بناء على مقدمة أخرى وهي أن الله تعالى حكيم لا يحب الفساد، فإذا كان لا يحب ذلك وكان عليما بتصرفات الخلق كان علمه وحكمته مقتضيين أن يرسل للناس رسلا رحمة بهم.
وضمير الفصل أفاد الحصر، أي هو السميع العليم لا أصنامكم التي تدعونها.
وفي هذا إيماء إلى الحاجة إلى إرسال الرسول إليهم بإبطال عبادة الأصنام.

صفحة : 3953

وفي وصف)السميع العليم(تعريض بالتهديد.
)رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين[7](هذا عود إلى مواجهة المشركين بالتذكير على نحو ما ابتدئت به السورة.
وهو تخلص للاستدلال على تفرد الله بالإلهية إلزاما لهم بما يقرون به من أنه رب السماوات والأرض وما بينهما، ويقرون بأن الأصنام لا تخلق شيئا، غير أنهم معرضون عن نتيجة الدليل ببطلان إلهية الأصنام ألا ترى القرآن يكرر تذكيرهم بأمثال هذا مثل قوله تعالى)أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون(وقوله)والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء(، ولأجل ذلك ذكر الربوبية إجمالا في قوله)رحمة من ربك(ثم تفصيلا بذكر صفة عموم العلم التي هي صفة المعبود بحق بصيغة قصر القلب المشير إلى أن الأصنام لا تسمع ولا تعلم. وبذكر صفة التكوين المختصة به تعالى بإقرارهم ارتقاء في الاستدلال. فلما لم يكن مجال للريب في أنه تعالى هو الإله الحق أعقب هذا الاستدلال بجملة)إن كنتم موقنين(بطريقة إثارة التيقظ لعقولهم إذ نزلهم منزلة المشكوك إيقانهم لعدم جريهم على موجب الإيقان لله بالخالقية حين عبدوا غيره بأن أتي في جانب فرض إيقانهم بطريقة الشرط، وأتي بحرف الشرط الذي أصله عدم الجزم بوقوع الشرط على نحو قوله تعالى)أفنضرب عنكم الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين(.

وقرأ الجمهور)رب السماوات(برفع)رب(على أنه خبر مبتدأ محذوف، وهو من حذف المسند إليه لمتابعة الاستعمال في مثله بعد إجراء أخبار أو صفات عن ذات ثم يردف بخبر آخر، ومن ذلك قولهم بعد ذكر شخص: فتى يفعل ويفعل. وهو من الاستئناف البياني إذ التقدير: إن اردت أن تعرفه فهو كذا. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بجر)رب(على أنه بدل من قوله)ربك(.

وحذف متعلق)موقنين(للعلم به من قوله)رب السماوات والأرض وما بينهما(. وجواب الشرط محذوف دل عليه المقام. والتقدير: إن كنتم موقنين فلا تعبدوا غيره، ولذلك أعقبه بجملة)لا إله إلا هو(.

)لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين[8](جملة)لا إله إلا هو(نتيجة للدليل المتقدم لأن انفراده بربوبية السماوات والأرض وما بينهما دليل على انفراده بالإلهية، أي على بطلان إلهية أصنامهم فكانت هذه الجملة نتيجة لذلك فلذلك فصلت لشدة اقتضاء الجملة التي قبلها إياها.

وجملة)يحيي ويميت(مستأنفة للاستدلال على أنه لا إله إلا هو بتفرده بالإحياء والإماتة، والمشركون لا ينازعون في أن الله هو المحيي والمميت فكما استدل عليهم بتفرده بإيجاد العوالم وما فيها استدل عليهم بخلق أعظم أحوال الموجودات وهي حالة الحياة التي شرف بها الإنسان عن موجودات العالم الأرضي وكرم أيضا بإعطائها للحيوان لتسخيره لانتفاع الإنسان به بسببها، وبتفرده بالإماتة وهي سلب الحياة عن الحي للدلالة على أن الحياة ليست ذاتية للحي.

ولما كان تفرده بالإحياء والإماتة دليلا واضحا في أحوال المخاطبين وفيما حولهم من ظهور الأحياء بالولادة والأموات بالوفاة يوما فيوما من شأنه أن لا يجهلوا دلالته بله جحودهم إياها ومع ذلك قد عبدوا الأصنام التي لا تحيي ولا تميت، أعقب بإثبات ربوبيته للمخاطبين تسجيلا عليهم بجحد الأدلة وبكفران النعمة.

وعطف)ورب آبائكم الأولين(ليسجل عليهم الإلزام بقولهم)وإنا على أثارهم مهتدون(. ووصفهم ب)الأولين(لأنهم جعلوا أقدم الآباء حجة أعظم من الآباء الأقربين كما قال تعالى حكاية عنهم)ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين(.

)بل هم في شك يلعبون[9]( )بل(للإضراب الإبطالي رد به أن يكونوا موقنين ومقرين بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما فإن إقرارهم غير صادر عن علم ويقين ثابت بل هو كالعدم لأنهم خلطوه بالشك واللعب فارتفعت عنه خاصية اليقين والإقرار التي هي الجري على موجب العلم، فإن العلم إذا لم يجر صاحبه على العمل به وتجديد ملاحظته تطرق إليه الذهول ثم النسيان فضعف حتى صار

شكا لانحجاب الأدلة التي يرسخ بها في النفس، أي هم شاكون في وحدانية الله تعالى.

صفحة : 3954

والإتيان بحرف الظرفية للدلالة على شدة تمكن الشك من نفوسهم حتى كأنه ظرف محيط بهم لا يجدون عنه مخرجا، أي لا يفارقهم الشك، فالظرفية استعارة تبعية مثل الاستعلاء في قوله) أولئك على هدى من ربهم(.

وجملة)يلعبون(حال من ضمير)هم(أي اشتغلوا عن النظر في الأدلة التي تزيل الشك عنهم وتجعلهم مهتدين، بالهزء واللعب في تلقي دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فكأن انغماسهم في الشك مقارنا لحالهم من اللعب، ولهذه الجملة الحالية موقع عظيم إذ بها أفيد أن الشك حامل لهم على الهزء واللعب، وأن الشغل باللعب يزيد الشك فيهم رسوخا بخلاف ما لو قيل: بل هم في شك ولعب، فتفطن.

)فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين[10] يغشى الناس هذا عذاب أليم[11](تفريع على جملة)بل هم في شك يلعبون(قصد منه وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بانتقام الله من مكذبيه، ووعيد المشركين على جحودهم بدلائل الوحدانية وصدق الرسول وعكوفهم على اللعب، أي الاستهزاء بالقرآن والرسول، وذكر له مخوفات للمشركين لإعدادهم للإيمان وبطشة انتقام من أيمتهم تستأصلهم.

فالخطاب في)ارتقب(للنبي صلى الله عليه وسلم والأمر مستعمل في التثبيت. والارتقاب: افتعال من رقبه، إذا انتظره، وإنما يكون الانتظار عند قرب حصول الشيء المنتظر. وفعل)ارتقب(يقتضي بصريحه أن إتيان السماء بدخان لم يكن حاصلا في نزول هذه الآية،ويقتضي كناية عن اقتراب وقوعه كما يرتقب الجائي من مكان قريب.

و)يوم(اسم زمان منصوب على أنه مفعول به ل)ارتقب(وليس ظرفا وذلك كقوله تعالى)يخافون يوما(، وهو مضاف إلى الجملة بعده لتمييز اليوم المراد عن بقية الأيام بأنه الذي تأتي فيه السماء بدخان مبين فنصب)يوم(نصب إعراب ولم ينون لأجل الإضافة.

والجملة التي يضاف إليها اسم الزمان تستغني عن الرابط لأن الإضافة مغنية عنه، ولأن الجملة في قوة المصدر. والتقدير: فارتقب يوم إتيان السماء بدخان.

وأطلق اليوم على الزمان فإن ظهور الدخان كان في أيام وشهور كثيرة.
والدخان: ما يتصاعد عند إيقاد الحطب، وهو تشبيه بليغ، أي بمثل دخان.
والمبين: البين الظاهر، وهو اسم فاعل من أبان الذي هو بمعنى بان. والمعنى: أنه ظاهر لكل أحد لا يشك في رؤيته.
وقال أبو عبيدة وابن قتيبة: الدخان في الآية هو: الغبار الذي يتصاعد من الأرض من جراء الجفاف وأن الغبار يسميه العرب دخانا وهو الغبار الذي تثيره الرياح من الأرض الشديدة الجفاف.
وعن الأعرج: أنه الغبار الذي أثارته سنابك الخيل يوم فتح مكة فقد حجبت الغبرة السماء، وإسناد الإتيان به إلى السماء مجاز عقلي لأن السماء مكانه حين يتصاعد في جو السماء أو حين يلوح للأنظار منها.
والكلام يؤذن بأن هذا الدخان المرتقب حادث قريب الحصول، فالظاهر أنه حدث يكون في الحياة الدنيا، وأنه عقاب للمشركين.
فالمراد بالناس من قوله)يغشى الناس(هم المشركون كما هو الغالب في إطلاق لفظ الناس في القرآن، وأنه يكشف زمنا قليلا عنهم إعذارا لهم لعلهم يؤمنون وأنهم يعودون بعد كشفه إلى ما كانوا عليه، وأن الله يعيده عليهم كما يؤذن بذلك قوله)إنا كاشفوا العذاب قليلا(. وأما قوله)يوم نبطش البطشة(فهو عذاب آخر. وكل ذلك يؤذن بأن العذاب بالدخان يقع في الدنيا وأنه مستقبل قريب، وإذ قد كانت الآية مكية تعين أن هذا الدخان الذي هو عذاب للمشركين لا يصيب المؤمنين لقوله تعالى)وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون(فتعين أن المؤمنين يوم هذا الدخان غير قاطنين بدار الشرك، فهذا الدخان قد حصل بعد الهجرة لا محالة وتعين أنه قد حصل قبل أن يسلم المشركون الذين بمكة وما حولها فيتعين أنه حصل قبل فتح مكة أو يوم فتح مكة على اختلاف الأقوال.

صفحة : 3955

والأصح أن هذا الدخان عني به ما أصاب المشركين من سني القحط بمكة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.
والأصح في ذلك حديث عبد الله بن مسعود في صحيح البخاري عن مسلم وأبي الضحى عن مسروق قال: دخلت على عبد الله بن مسعود فقال: إن قريشا لما غلبوا على النبي صلى الله عليه وسلم

واستعصوا عليه قال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتم سنة أكلوا فيها العظام والميتة من الجهد حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له: استسق لمضر أن يكشف عنهم العذاب، فدعا فكشف عنهم وقال الله له: إن كشفنا عنهم العذاب عادوا، فعادوا: فانتقم الله منهم يوم بدر فذلك قوله تعالى)فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين(إلى قوله)يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون(والبطشة الكبرى يوم بدر. وإن عبد الله فال: مضى خمس: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام.

في حديث أبي هريرة في صحيح البخاري في أبواب الاستسقاء أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة من الصبح يقول: اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة. اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف. وهؤلاء الذين دعا لهم بالنجاة كانوا ممن حبسهم المشركون بعد الهجرة، وكل هذه الروايات يؤذن بأن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين بالسنين كان بعد الهجرة لئلا يعذب المسلمون بالجوع وأنه كان قبل وقعة بدر، وفي بعض روايات القنوت أنه دعا في القنوت على بني لحيان وعصية.

والذي يستخلص من الروايات أن هذا الجوع حل بقريش بعيد الهجرة، وذلك هو الجوع الذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف ، وفي رواية اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف فأتي النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له: استسق لمضر وفي رواية عن مسروق عن ابن مسعود في صحيح البخاري أن الذي أتى النبي هو أبو سفيان. وقال المفسرون: أن أبا سفيان أتاه في ناس من أهل مكة يعني أتوا المدينة لما علموا أن النبي كان دعا عليهم بالقحط، فقالوا: إن قومك قد هلكوا فادع الله أن يسقيهم فدعا.

وعلى هذه الرواية يكون قوله تعالى)يوم تأتي السماء بدخان مبين(تمثيلا لهيئة ما يراه الجائعون من شبه الغشاوة على أبصارهم حين ينظرون في الجو بهيئة الدخان النازل من الأفق، فالمجاز في التركيب. وأما مفردات التركيب فهي مستعملة في حقائقها لأن من معاني السماء في كلام العرب قبة الجو، وتكون جملة)يغشى الناس(ترشيحا للتمثيلية لأن الذي يغشاهم هو الظلمة التي في أبصارهم من الجوع، وليس الدخان هو الذي يغشاهم.

وبعض الروايات ركب على هذه الآية حديث الاستسقاء الذي في الصحيح أن رجلا جاء يوم الجمعة والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقال: يا رسول الله هلك الزرع والضرع فادع الله أن يسقينا فرفع يديه وقال: اللهم اسقنا ثلاثا، وما يرى في السماء قزعة سحاب، فتلبدت السماء بالسحاب وأمطروا من الجمعة إلى الجمعة حتى سالت الأدوية وسال وادي قناة شهرا، فأتاه آت الجمعة القابلة هو الأول أو غيره، فقال: يا رسول الله تقطعت السبل فادع الله أن يمسك المطر عنا، فقال اللهم حوالينا ولا علينا، فتفرقت السحب حتى صارت المدينة في شبه الإكليل بن السحاب.

والجمع بين الروايتين ظاهر. ويظهر أن هذا القحط وقع بعد يوم بدر فهو قحط آخر غير قحط قريش الذي ذكر في هذه الآية.

ومعنى)يغشى الناس(أنه يحيط بهم ويعمهم كما تحيط الغاشية بالجسد، أي لا ينجو منه أحد من أولئك الناس وهم المشركون. فإن كان المراد من الدخان ما أصاب أبصارهم من رؤية مثل الغبرة من الجوع فالغشيان مجاز، وإن كان المراد منه غبار الحرب يوم الفتح فالغشيان حقيقة أو مجاز مشهور. ويجوز أن يكون غبارا متصاعدا في الجو من شدة الجفاف.

صفحة : 3956

وقوله)هذا عذاب أليم(قال ابن عطية يجوز أن يكون إخبارا من جانب الله تعالى تعجيبا منه كما في قوله تعالى في قصة الذبيح) إن هذا لهو البلاء المبين(. ويحتمل أن يكون ذلك من قول الناس الذين يغشاهم العذاب بتقدير: يقولون: هذا عذاب أليم.

والإشارة في)هذا عذاب أليم(إلى الدخان المذكور آنفا، عدل عن استحضاره بالإضمار وأن يقال: هو عذاب أليم، إلى استحضاره بالإشارة، لتنزيله منزلة الحاضر المشاهد تهويلا لأمره كما تقول: هذا الشتاء قادم فأعد له.

وقريب منه الأمر بالنظر في قوله تعالى)انظر كيف كذبوا علة أنفسهم(فإن المحكي مما يحصل في الآخرة.

)ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون[12](هذه جملة معترضة بين جملة)هذا عذاب أليم(وجملة)أنى لهم الذكرى(فهي مقول قول محذوف.

وحملها جميع المفسرين على أنها حكاية قول الذين يغشاهم العذاب بتقدير يقولون: ربنا اكشف عنا العذاب، أي هو وعد صادر من الناس الذين يغشاهم العذاب بأنهم يؤمنون أن كشف عنهم

العذاب)أي فيكون مثل قوله تعالى في سورة الزخرف)وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون(، أي إن دعوت ربك اتبعناك(ويكون بمعنى قوله في سورة الأعراف)ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك(إلى قوله)لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك(.

ومما تسمح به تراكيب الآية وسياقها أن يكون القول المحذوف مقدرا بفعل أمر)أي قولوا(لتلقين المسلمين أن يستعيذوا بالله من أن يصيبهم ذلك العذاب إذ كانوا والمشركين في بلد واحد كما استعاذ موسى عليه السلام بقوله)أتهلكنا بما فعل السفهاء منا(. وفيه إيماء إلى أن الله سيخرج المؤمنين من مكة قبل أن يحل بأهلها هذا العذاب، فهذا التلقين كالذي في قوله تعالى)ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا(الآيات.

وعليه فجملة)إنا مؤمنون(تعليل لطلب دفع العذاب عنهم، أي إنا متلبسون بما يدفع عنا عذاب الكافرين، وفي تلقينهم بذلك تنويه بشرف الإيمان، وأسلوب الكلام جار على أن جملة)إنا مؤمنون(تعليل لطلب كشف العذاب عنهم لما يقتضيه ظاهر استعمال حرف)إن(من معنى الإخبار دون الوعد، ومن التعليل دون التأكيد، ولما يقتضيه اسم الفاعل من زمن الحال دون الاستقبال، ولأن سياقه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بترقب إعانة الله إياه على المشركين، كما كان يدعو أعني عليهم بسبع كسني يوسف فمقتضى المقام تأمينه من أن يصيب العذاب المسلمين وفيهم النبي صلى الله عليه وسلم، وظاهر مادة الكشف تقتضي إزالة شيء كان حاصلا في شيء إلا أن الكشف هنا لما لم يكن مستعملا في معناه الحقيقي كان مجازه محتملا أن يكون مستعملا في منع حصول يخشى حصوله كما في قوله تعالى)إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا(فإن قوم يونس لم يحل بهم عذاب فزال عنهم ولكنهم توعدوا به فبادروا بالإيمان فنجاهم الله منه، وقول جعفر بن علبة الحارثي:

لا يكشف الغماء إلا ابـن حـرة يرى

غمرات الموت ثم يزورها أراد أنه يمنع العدو من أن ينالهم بسوء، ومحتملا للاستعمال في زوال شيء كان حصل.

ولم يذكر أحد من رواة السير والآثار أن المشركين وعدوا النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم يسلمون إن أزال الله عنهم القحط.

)أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين[13] ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون[14](هذه الجملة جعلها جميع المفسرين جوابا عن قول القائلين)ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون(تكذيبا لوعدهم، أي هم لا يتذكرون، وكيف يتذكرون وقد جاءهم ما هو أقوى دلالة

من العذاب وهي دلائل صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وأما على التأويل الذي انتزعناه من تركيب الآية فهي جملة مستأنفة ناشئة عن قوله)بل هم في شك يلعبون(وهي كالنتيجة لها لأنهم إذا كانوا في شك يلعبون فقد صاروا بعداء عن الذكرى.

صفحة : 3957

و)أنى(اسم استفهام أصله استفهام عن أمكنة حصول الشيء ويتوسعون فيها فيجعلونها استفهاما عن الأحوال بمعنى)كيف(بتنزيل الأحوال منزلة ظروف في مكان كما هنا بقرينة قوله)وقد جاءهم رسول مبين(. والمعنى: من أين تحصل لهم الذكرى والمخافة عند ظهور الدخان المبين وقد سدت عليهم طرقها بطعنهم في الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أتاهم بالتذكير.

والاستفهام مستعمل في الإنكار والإحالة، أي كيف يتذكرون وهم في شك يلعبون وقد جاءهم رسول مبين فتولوا عنه وطعنوا فيه. فجملة)وقد جاءهم(في موضع الحال.

و)مبين(اسم فاعل إما من أبان المتعدي، وحذف مفعوله لدلالة) الذكرى(عليه، أي مبين لهم ما به يتذكرون، ويجوز أن يكون من أبان القاصر الذي هو بمعنى بان، أي رسول ظاهر، أي ظاهرة رسالته عن الله بما توفر معها من دلائل صدقه.

وإيثار)مبين(بتخفيف الياء على)مبين(بالتشديد من نكت الإعجاز ليفيد المعنيين.

و)ثم(للتراخي الرتبي وهو ترق من مفاد قوله)بل هم في شك يلعبون(الذي اتصلت به جملة كانت جملة)وقد جاءهم رسول مبين(من متعلقاتها، فالمعنى: وقد جاءهم رسول فشكوا في رسالته ثم تولوا عنه وطعنوا فيه، فالتولي والطعن حصلا عند حصول الشك واللعب، ولذلك كانت)ثم(للتراخي الرتبي لا لتراخي الزمان. ومعنى التراخي الرتبي هنا أن التولي والبهتان أفظع من الشك واللعب.

والمعلم الذي يعلمه غيره، وقد تقدم عند قوله تعالى)ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر(في سورة النحل.

والمعنى: أنهم وصفوه مرة بأنه يعلمه غيره، ووصفوه مرة بالجنون، تنقلا في البهتان، أو وصفه فريق بهذا وفريق بذلك، فالقول موزع بين أصحاب ضمير)قالوا(أو بين أوقات القائلين. ولا يصح أن يكون قولا واحدا في وقت واحد لأن المجنون لا يكون معلما ولا يتأثر بالتعليم.

)إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون[15](يجيء على ما فسر به جميع المفسرين قوله)ربنا اكشف عنا العذاب(، أن هذه الجملة جواب لسؤالهم، ويجيء على ما درجنا عليه أن تكون هذه الجملة إعلاما للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يكشف العذاب المتوعد به المشركون مدة، فيعودون إلى ما كانوا فيه، وعليه فضمير)إنكم عائدون(التفات إلى خطاب المشركين ، أي يمسكون عن ذلك مدة وهي المدة التي أرسلوا فيها وفدهم إلى المدينة ليسأل الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله بكشف القحط عنهم فإنهم أيامئذ يمسكون عن الطعن والذم رجاء أن يدعو لهم ثم يعودون لما كانوا فيه، كما قال تعالى)وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله(كما اقتضى أن العذاب عائد إليهم بعد عودتهم إلى ما كانوا فيه من أسباب إصابتهم بالعذاب.

فمعنى)إنا كاشفوا العذاب(: إنا كاشفوه في المستقبل بقرينة قوله قبله)فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين(المقتضي أنه يحصل في المستقبل، والآية متصل بعضها ببعض وكذلك معنى)إنكم عائدون(، أي في المستقبل. واسم الفاعل يكون مرادا به الحصول في المستقبل بالقرينة.

روي أنهم كشف عنهم القحط بعد استسقاء النبي صلى الله عليه وسلم، فحيوا وحييت أنعامهم ثم عادوا فعادوهم القحط كمال سبع سنين، ولعلها عقبها فتح مكة.

وجملة)إنكم عائدون(مستأنفة استئنافا بيانيا لأنهم إذا سمعوا)إنا كاشفوا العذاب قليلا(تطلعوا إلى ما سيكون بعد كشفه، وتطلع المؤمنون إلى ما تصير إليه حال المشركين بعد كشف العذاب هل يقلعون عن الطعن فكان قوله)إنكم عائدون(مبينا لما يتساءلون عنه.

)يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون[16](هذا هو الانتقام الذي وعد به الرسول صلى الله عليه وسلم وتوعد به أيمة الكفر.

والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن قوله)إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون(فإن السامع يثار في نفسه سؤال عن جزائهم حيث يعودون إلى التولي والطعن فأجيب بأن الانتقام منهم هو البطشة الكبرى، وهي الانتقام التام، ولأجل هذا التطلع والتساؤل أكدا بخبر بحرف التأكيد دفعا للتردد.

وأصل تركيب الجملة: إنا منتقمون يوم نبطش البطشة الكبرى، ف)يوم(منصوب على المفعول فيه لاسم الفاعل وهو)منتقمون(.

وتقدم على عامله للاهتمام به لتهويله ولا يمنع من هذا التعليق أن العامل في الظرف خبر عن)إن(بناء على الشائع من كلام النحاة أن ما بعد)إن(لا يعمل فيما قبلها فإن الظروف ونحوها يتوسع فيها.

والبطشة الكبرى: هي بطشة يوم بدر فإن ما أصاب صناديد المشركين يومئذ كان بطشة بالشرك وأهله لأنهم فقدوا سادتهم وذوي الرأي منهم الذين كانوا يسيرون أهل مكة كما يريدون.

والبطشة: واحدة البطش وهو: الأخذ الشديد بعنف، وتقدم في قوله تعالى)أم لهم أيد يبطشون بها(في سورة الأعراف.

)ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم[17] أن أدوا إلي عباد الله إني لكم رسول أمين[18] وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين[19] وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون[20] وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون[21](جعل الله قصة قوم فرعون مع موسى عليه السلام وبني إسرائيل مثلا لحال المشركين مع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به، وجعل ما حل بهم إنذارا بما سيحل بالمشركين من القحط والبطشة مع تقريب حصول ذلك وإمكانه ويسره وإن كانوا في حالة قوة فإن الله قادر عليهم، كما قال تعالى)فأهلكنا أشد منهم بطشا(فذكرها هنا تأييد للنبي ووعد له بالنصر وحسن العاقبة، وتهديد للمشركين.

وهذا المثل وإن كان تشبيها لمجموع الحالة بالحالة فهو قابل للتوزيع بأن يشبه أبو جهل بفرعون، ويشبه أتباعه بملأ فرعون وقومه أو يشبه محمد صلى الله عليه وسلم بموسى عليه السلام، ويشبه المسلمون ببني إسرائيل. وقبول المثل لتوزيع التشبيه من محاسنه.

وموقع جملة)ولقد فتنا(يجوز أن يكون موقع الحال فتكون الواو للحال وهي حال من ضمير)إنا منتقمون(.

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة)إنا منتقمون(، أي منتقمون منهم في المستقبل وانتقمنا من قوم فرعون فيما مضى.

وأشعر قوله قبلهم أن أهل مكة سيفتنون كما فتن قوم فرعون، فكان هذا الظرف مؤذنا بجملة محذوفة على طريقة الإيجاز، والتقدير: إنا منتقمون ففاتنوهم فقد فتنا قبلهم قوم فرعون، ومؤذنا بأن المذكور كالدليل على توقع ذلك وإمكانه وهو إيجاز آخر.

والمقصود تشبيه الحالة بالحالة ولكن عدل عن صوغ الكلام بصيغة التشبيه والتمثيل إلى صوغه بصيغة الإخبار اهتماما بالقصة وإظهارا

بأنها في ذاتها مما يهم العلم به، وأنها تذكير مستقل وأنها غير تابعة غيرها.
ولأن جملة)وجاءهم رسول كريم(عطفت على جملة)فتنا(أي ولقد جاءهم رسول كريم، عطف مفصل على مجمل، وإنما جاء معطوفا إذ المذكور فيه أكثر من معنى الفتنة، فلا تكون جملة) وجاءهم رسول كريم(بيانا لجملة)فتنا(بل هي تفصيل لقصة بعثة موسى عليه السلام.
والفتن: الإيقاع في اختلال الأحوال، وتقدم في قوله تعالى)والفتنة أشد من القتل(في سورة البقرة.
والرسول الكريم: موسى، والكريم: النفيس الفائق في صنفه، وتقدم عند قوله تعالى)إني ألقي إلي كتاب كريم(في سورة النمل، أي رسول من خيرة الرسل أو من خيرة الناس.
و)أن أدوا إلي عباد الله(تفسير لما تضمنه وصف)رسول(وفعل) جاءهم(من معنى الرسالة والتبليغ ففيهما معنى القول.
ومعنى)أدوا إلي(أرجعوا إلي وأعطوا قال تعالى)ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك(، يقال: أدى الشيء أوصله وأبلغه. وهمزة الفعل أصلية وهو مضاعف العين ولم يسمع منه فعل سالم غير مضاعف، جعل بني إسرائيل كالأمانة عند فرعون على طريقة الاستعارة المكنية.
وخطاب الجمع لقوم فرعون. والمراد: فرعون ومن حضر من ملئه لعلهم يشيرون على فرعون بالحق، ولعله إنما خاطب مجموع الملإ لما رأى من فرعون صلفا وتكبرا من الامتثال، فخاطب أهل مشورته لعل فيهم من يتبصر الحق.
و)عباد الله(يجوز أن يكون مفعول)أدوا(مرادا به بنو إسرائيل، أجري وصفهم)عباد الله(تذكيرا لفرعون بموجب رفع الاستعباد عنهم، وجاء في سورة الشعراء)أن أرسل معنا بني إسرائيل(فحصل أنه وصفهم بالوصفتين، فوصف)عباد الله(مبطل لحسبان القبط إياهم عبيدا كما قال)وقومهما لنا عابدون(وإنما هم عباد الله، أي أحرار فعباد الله كناية عن الحرية كقول بشار يخاطب نفسه:

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم
مولى العبيد فلذ بفضلك وافخر ويجوز أن يكون مفعول فعل) أدوا(محذوفا يدل عليه المقام، أي أدوا إلي الطاعة ويكون)عباد

الله(منادى بحذف حرف النداء. قال ابن عطية: الظاهر من شرع موسى أنه بعث إلى دعاء فرعون للإيمان وأن يرسل بني إسرائيل، فلما أبى فرعون أن يؤمن ثبتت المكافحة في أن يرسل بني إسرائيل، قال: ويدل عليه قوله بعد)وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون(.
وقوله)إني لكم رسول أمين(علة للأمر بتسليم بني إسرائيل إليه، أي لأني مرسل إليكم بهذا، وأنا أمين، أي مؤتمن على أني رسول لكم.
وتقديم)لكم(على)رسول(للاهتمام بتعلق الإرسال بأنه لهم ابتداء بأن يعطوه بني إسرائيل لأن ذلك وسيلة للمقصود من إرساله لتحرير أمة إسرائيل والتشريع لها، وليس قوله)لكم(خطابا لبني إسرائيل فإن موسى قد أبلغ إلى بني إسرائيل رسالته مع التبليغ إلى فرعون قال تعالى)فما أمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم(، وليكون امتناع فرعون من تسريح بني إسرائيل مبررا لانسلاخ بني إسرائيل عن طاعة فرعون وفرارهم من بلاده.
وعطف على طلب تسليم بني إسرائيل نهيا عن الاستكبار عن إجابة أمر الله أنفة من الحط من عظمته في أنظار قومهم فقال) وأن لا تعلو على الله(أي لا تعلوا على أمره أو على رسوله فلما كان الاعتلاء على أمر الله وأمر رسوله ترفيعا لأنفسهم على واجب امتثال ربهم جعلوا في ذلك كأنهم يتعالون على الله.
و)أن لا تعلوا(عطف على)أن أدوا إلي(. وأعيد حرف) أن(التفسيرية لزيادة تأكيد التفسير لمدلول الرسالة. و)لا(ناهية، وفعل)تعلوا(مجزوم ب)لا(الناهية.
وجملة)إني أتيكم بسلطان مبين(علة جديرة بالعود إلى الجمل الثلاثة المتقدمة وهي)أدوا إلي عباد الله(،)إني لكم رسول أمين(،)وأن لا تعلوا على الله(لأن المعجزة تدل على تحقق مضامين تلك الجمل معلولها وعلتها.
والسلطان من أسماء الحجة قال تعالى)إن عندكم من سلطان بهذا(فالحجة تلجئ المحجوج على الإقرار لمن يحاجه فهي كالمتسلط على نفسه.
والمعجزة: حجة عظيمة ولذلك وصف السلطان ب)مبين(، أي واضح الدلالة لا ريب فيه. وهذه المعجزة هي انقلاب عصاه ثعبانا مبينا.
و)أتيكم(مضارع أو اسم فاعل أتى . وعلى الاحتمالين فهو مقتض للإتيان بالحجة في الحال.
وجملة)وإني عذت بربي(عطف على جملة)أدوا إلي عباد الله(فإن مضمون هذه الجملة مما شمله كلامه حين تبليغ رسالته

فكان داخلا في مجمل معنى)وجاءهم رسول كريم(المفسر بما بعد)أن(التفسيرية.
ومعناه: تحذيرهم من أن يرجموه لأن معنى)عذت بربي(جعلت ربي عوذا، أي ملجأ. والكلام على الاستعارة بتشبيه التذكير بخوف الله الذي يمنعهم من الاعتداء عليه بالالتجاء إلى حصن أو معقل بجامع السلامة من الاعتداء. ومثل هذا التركيب مما جرى مجرى المثل، ومنه قوله في سورة مريم)قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا(، وقال أحد رجاز العرب:

قالت وفيها حيدة وذعر عوذ بربي

منكم وحجر والتعبير عن الله تعالى بوصف)ربي وربكم(لأنه أدخل في ارعوائهم من رجمه حين يتذكرون أنه استعصم بالله الذي يشتركون في مربوبيته وأنهم لا يخرجون عن قدرته.
والرجم: الرمي بالحجارة تباعا حتى يموت المرمي أو يثخنه الجراح. والقصد منه تحقير المقتول لأنهم كانوا يرمون بالحجارة من يطردونه، قال)فاخرج منها فإنك رجيم(.
وإنما استعاذ موسى منه لأنه علم أن عادتهم عقاب من يخالف دينهم بالقتل رميا بالحجارة. وجاء في سورة القصص)فأخاف أن يقتلون(. ومعنى ذلك إن لم تؤمنوا بما جئت به فلا تقتلوني، كما دل عليه تعقيبه بقوله)وإن لم تؤمنوا لي(.
والمعنى: إن لم تؤمنوا بالمعجزة التي آتيكم بها فلا ترجموني فإني أعوذ بالله من أن ترجموني ولكن اعتزلوني فكونوا غير موالين لي وأكون مع قومي بني إسرائيل، فالتقدير: فاعتزلوني وأعتزلكم لأن الاعتزال لا يتحقق إلا من جانبين.

صفحة : 3960

وجيء في شرط)إن لم تؤمنوا لي(بحرف)إن(التي شأنها أن تستعمل في الشرط غير المتيقن لأن عدم الإيمان به بعد دلالة المعجزة على صدقه من شأنه أن يكون غير واقع فيفرض عدمه كما يفرض المحال. ولعله قال ذلك قبل أن يعلمه الله بإخراج بني إسرائيل من مصر، أو أراد: فاعتزلوني زمنا، يعني إلى أن يعين له الله زمن الخروج.
وعدي)تؤمنوا(باللام لأنه يقال: آمن به وآمن له، قال تعالى) فآمن له لوط(، وأصل هذه اللام لام العلة على تضمين فعل الإيمان معنى الركون.

وقد جاء ترتيب فواصل هذا الخطاب على مراعاة ما يبدو من فرعون وقومه عند إلقاء موسى دعوته عليهم إذ ابتدأ بإبلاغ ما أرسل به إليهم فآنس منهم التعجب والتردد فقال)إني لكم رسول أمين(فرأى منهم الصلف والأنفة فقال)وأن لا تعلوا على الله(فلم يرعوا فقال)إني أتيكم بسلطان مبين(، فلاحت عليهم علامات إضمار السوء له فقال)وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون(، فكان هذا الترتيب بين الجمل مغنيا عن ذكر ما أجابوا به على أبدع إيجاز.

)فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون[22](التعقيب المفاد بالفاء تعقيب على محذوف يقتضي هذا الدعاء إذ ليس في المذكور قبل الفاء ما يناسبه التعقيب بهذا الدعاء إذ المذكور قبله كلام من موسى إليهم، فالتقدير: فلم يستجيبوا له فيما أمرهم، أو فأصروا على أذاه وعدم متاركته فدعا ربه، وهذا التقرير الثاني أليق بقوله) إن هؤلاء قوم مجرمون(. وهذا كالتعقيب الذي في قوله تعالى) فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق(، وقوله)إن هؤلاء قوم مجرمون(اتفق القراء العشرة على قراءته بفتح الهمزة وشد النون فما بعدها في قوة المصدر، فلذلك تقدر الباء التي يتعدى بها فعل)دعا(، أي دعا ربه بما يجمعه هذا التركيب المستعمل في التعريض بأنهم استوجبوا تسليط العقاب الذي يدعو به الداعي، فالإخبار عن كونهم قوما مجرمين مستعمل في طلب المجازاة على الإجرام أو في الشكاية من اعتدائهم، أو في التخوف من شرهم إذا استمروا على عدم تسريح بني إسرائيل، وكل ذلك يقتضي الدعاء لكف شرهم، فلذلك أطلق على هذا الخبر فعل) دعا(.

)فاسر بعبادي ليلا إنكم متبعون[23](تفريع على جملة)إن هؤلاء قوم مجرمون(. والمفرع قول محذوف دلت عليه صيغة الكلام، أي فدعا فقلنا: اسر بعبادي.

وقرأه نافع وابن كثير وأبو جعفر)فاسر(بهمزة وصل على أنه أمر من)سرى(، وقرأه الباقون بهمزة قطع من)أسرى(يقال: سرى وأسرى. وقد تقدم عند قوله تعالى)سبحان الذي أسرى بعبده(فتقييده بزمان الليل هنا نظير تقييده في سورة الإسراء، والمقصود منه تأكيد معنى الإسراء بأنه حقيقة وليس مستعملا مجازا في التبكير بناء على أن المتعارف في الرحيل أن يكون فجرا.

وفائدة التأكيد أن يكون له من سعة الوقت ما يبلغون به إلى شاطئ البحر الأحمر قبل أن يدركهم فرعون بجنوده.

وجملة)إنكم متبعون(تقيد تعليلا للأمر بالإسراء ليلا لأنه مما يستغرب، أي أنكم متبعون فأردنا أن تقطعوا مسافة يتعذر على فرعون لحاقكم.
وتأكيد الخبر ب)إن(لتنزيل غير السائل منزلة السائل إذا قدم إليه ما يلوح له بالخبر فيستشرف له استشراف المتردد السائل، على حد قوله تعالى)ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون(.
وأسند الاتباع إلى غير مذكور لأنه من المعلوم أن الذي سيتبعهم هو فرعون وجنوده.
)واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون[24](عطف على جملة) فاسر بعبادي ليلا(فيجوز أن تكون الجملتان صدرتا متصلتين بأن أعلم الله موسى حين أمره بالإسراء بأنه يضرب البحر بعصاه فينفلق عن قعره اليابس حتى يمر منه بنو إسرائيل كما ورد في آيات أخرى مثل آية سورة الشعراء. ولما أمره بذلك طمنه بأن لا يخشى بقاءه منفلقا فيتوقع أن يلحق به فرعون بل يجتاز البحر ويتركه فإنه سيطغى على فرعون وجنده فيغرقون، ففي الكلام إيجاز تقديره: فإذا سريت بعبادي فسنفتح لكم البحر فتسلكونه فإذا سلكته فلا تخش أن يلحقكم فرعون وجنده واتركه فإنهم مغرقون فيه.

صفحة : 3961

ويجوز أن تكون الجملة الثانية صدرت وقت دخول موسى ومن معه في طرائق البحر فيقدر قول محذوف، أي وقلنا له: اترك البحر رهوا، أي سيدخله فرعون وجنده ولا يخرجون منه لأن في بقائه مفروقا حكمة أخرى وهي دخول فرعون وجنده في طرائقه طمعا منهم أن يلحقوا موسى وقومه، حتى إذا توسطوه انضم عليهم، فتحصل فائدة إنجاء بني إسرائيل وفائدة إهلاك عدوهم، فتكون الواو عاطفة قولا محذوفا على القول المحذوف قبله.
وعلى الوجهين فالترك مستعمل مجازا في عدم المبالاة بالشيء كما يقال: دعه يفعل كذا، وذره، كقوله تعالى)فذرهم في خوضهم يلعبون(، وقالت كبشة بنت معد يكرب:
ودع عنك عمرا إن عمرا مسالـم
وهل بطن عمرو غير شبر المطعم والبحر هو بحر القلزم المسمى اليوم البحر الأحمر.

والرهو: الفجوة الواسعة. وأصله مصدر رها، إذا فتح بين رجليه، فسميت الفجوة رهوا تسمية بالمصدر، وانتصب)رهوا(على الحال من البحر على التشبيه البليغ، أي مثل رهو.

وجملة)إنهم جند مغرقون(استئناف بياني جوابا عن سؤال ناشئ عن الأمر بترك البحر مفتوحا، وضمير)إنهم(عائد إلى اسم الإشارة في قوله)إن هؤلاء قوم مجرمون(والجند: القوم والأمة وعسكر الملك.

وإقحام لفظ)جند(دون الاقتصار على)مغرقون(لإفادة أن إغراقهم قد لزمهم حتى صار كأنه من مقومات عنديتهم كما قدمناه عند قوله تعالى)لآيات لقوم يعقلون(في سورة البقرة.

)كم تركوا من جنت وعيون[25] وزروع ومقام كريم[26] ونعمة كانوا فيها فكهين[27] كذلك(استئناف ابتدائي مسوق للعبرة بعواقب الظالمين المغرورين بما هم فيه من النعمة والقوة، غرورا أنساهم مراقبة الله فيما يرضيه، فموقع هذا الاستئناف موقع النتيجة من الدليل أو البيان من الإجمال لما في قوله)ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون(من التنظير الإجمالي.

وضمير)تركوا(عائد إلى ما عاد إليه ضمير)إنهم جند مغرقون(.

والترك حقيقته: إلقاء شيء في مكان متنقل عنه إبقاء اختياريا، ويطلق مجازا على مفارقة المكان والشيء الذي في مكان غلبة دون اختيار وهو مجاز مشهور يقال: ترك الميت مالا، ومنه سمي مخلف الميت تركة وهو هنا من هذا القبيل.

وفعل)تركوا(مؤذن بأنهم أغرقوا وأعدموا، وذلك مقتضى أن ما أمر الله به موسى من الإسراء ببني إسرائيل وما معه من اتباع فرعون إياهم وانفلاق البحر وإزلاف بني إسرائيل واقتحام فرعون بجنوده البحر، وانضمام البحر عليهم قد تم، ففي الكلام إيجاز حذف جمل كثيرة يدل عليها)كم تركوا(.

و)كم(اسم لعدد كثير مبهم يفسر نوعه مميز بعد)كم(مجرور ب)من(مذكورة أو محذوفة.

وحكم)كم(كالأسماء تكون على حسب العوامل. وإذ كان لها صدر الكلام لأنها في الأصل استفهام فلا تكون خبر مبتدأ ولا خبر) كان(ولا)إن(وإذا كانت معمولة للأفعال وجب تقديمها على عاملها.

وانتصب)كم(هنا على المفعول به ل)تركوا(أي تركوا كثيرا من جنات. و)من(مميزة لمبهم العدد في)كم(.

والمقام بفتح الميم: مكان القيام، والقيام هنا مجاز في معنى التمكن من المكان.

والكريم من كل نوع أنفسه وخيره، والمراد به: المساكن والديار والأسواق ونحوها مما كان لهم في مدينة منفسين .

والنعمة بفتح النون: اسم للتنعم مصوغ على وزنة المرة. وليس المراد به المرة بل مطلق المصدر باعتبار أن مجموع أحوال النعيم صار كالشيء الواحد وهو أبلغ وأجمع في تصوير معنى المصدر، وهذا هو المناسب لفعل)تركوا(لأن المتروك هو أشخاص الأمور التي ينعم بها وليس المتروك وهو المعنى المصدري.

و)فاكهين(متصفين بالفكاهة بضم الفاء وهي اللعب والمزح، أي كانوا مغمورين في النعمة لاعبين في تلك النعمة.

وقرأ الجمهور)فاكهين(بصيغة اسم الفاعل. وقرأه حفص وأبو جعفر)فكهين(بدون ألف على أنه صفة مشبهة.

وقوله)كذلك(راجع لفعل)تركوا(. والتقدير: تركا مثل ذلك الترك.

والإشارة إلى مقدر دل عليه الكلام ومعنى الكاف، وهذا التركيب تقدم الكلام عليه عند قوله)كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا(في سورة الكهف.

)وأورثنها قوما آخرين[28](

صفحة : 3962

عطف على)تركوا(أي تركوها وأورثناها غيرهم، أي لفرعون الذي ولي بعد موت منفطا وسمي صفطا منفطا وهو أحد أمراء فرعون منفطا تزوج ابنة منفطا المسماة طوسير التي خلفت أباها منفطا على عرش مصر، ولكونه من غير نسل فرعون وصف هو وجنده بقوم آخرين، وليس المراد بقوله)قوما آخرين(قوما من بني إسرائيل، ألا ترى أنه أعيد الاسم الظاهر في قوله عقبه)ولقد نجينا بني إسرائيل(، ولم يقل ولقد نجيناهم.

ووقع في آية الشعراء)فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأرثناها بني إسرائيل(والمراد هنالك أن أنواعا مما أخرجنا منه قوم فرعون أورثناها بني إسرائيل، ولم يقصد أنواع تلك الأشياء في خصوص أرض فرعون. ومناسبة ذلك هنالك أن القومين أخرجا مما كانا فيه، فسلب أحد الفريقين ما كان له دون إعادة لأنهم هلكوا، وأعطي الفريق الآخر أمثال ذلك في أرض فلسطين، ففي قوله)وأورثناها(تشبيه بليغ وانظر آية سورة الشعراء.

)فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين[29](تفريع على قوله)كم تركوا من جنات(إلى قوله)قوما آخرين(، فإن ذلك كله يتضمن أنهم هلكوا وانقرضوا، أي فما كان مهلكهم إلا كمهلك غيرهم ولم يكن حدثا عظيما كما كانوا يحسبون ويحسب قومهم، وكان من كلام العرب إذا هلك عظيم أن يهولوا أمر موته بنحو:

بكت عليه السماء، وبكته الريح، وتزلزلت الجبال، قال النابغة في توقع موت النعمان بن المنذر من مرضه:

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع

الناس والبلد الحرام وقال في رثاء النعمان بن الحارث الغساني:

بكى حارث الجولان من فقد ربه

وحوران منه موحش متضائل والكلام مسوق مساق التحقير لهم، وقريب من قوله تعالى)وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال(، وهو طريقة مسلوكة وكثر ذلك في كلام الشعراء المحدثين، قال أبو بكر بن اللبانة الأندلسي في رثاء المعتمد بن عباد ملك أشبيلية:

تبكي السماء بمزن رائج غاد على

البهاليل من أبناء عباد والمعنى: فما كان هلاكهم إلا كهلاك غيرهم ولا انظروا بتأخير هلاكهم بل عجل لهم الاستئصال.

)ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين[30] من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين[31](معطوف على الكلام المحذوف الذي دل عليه قوله)إنهم جند مغرقون(الذي تقديره: فأغرقناهم ونجينا بني إسرائيل كما قال في سورة الشعراء)وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين(.

والمعنى: ونجينا بني إسرائيل من عذاب فرعون وقساوته، أي فكانت آية البحر هلاكا لقوم وإنجاء لآخرين.

والمقصود من ذكر هذا الإشارة إلى أن الله تعالى ينجي الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم من عذاب أهل الشرك بمكة، كما نجى الذين اتبعوا موسى من عذاب فرعون.

وجعل طغيان فرعون وإسرافه في الشر مثلا لطغيان أبي جهل وملئه ولأجل هذه الإشارة أكد الخبر باللام. وقد يفيد تحقيق إنجاء المؤمنين من العذاب المقدر للمشركين إجابة لدعوة)ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون(.

والعذاب المهين: هو ما كان يعاملهم به فرعون وقومه من الاستعباد والإشقاق عليهم في السخرة، وكان يكلفهم أن يصنعوا له اللبن كل يوم لبناء مدينتي فيثوم و رعمسيس وكان اللبن يصنع من الطوب والتبن فكان يكلفهم استحضار التبن اللازم لصنع اللبن ويلتقطون متناثره ويذلونهم ولا يتركون لهم راحة، فذلك العذاب المهين لأنه عذاب فيه إذلال.

وقوله)من فرعون(الأظهر أن يكون بدلا مطابقا للعذاب المهين فتكون)من(مؤكدة ل)من(الأولى المعدية ل)نجينا(لأن الحرف الداخل على المبدل منه يجوز أن يدخل على البدل للتأكيد. ويحسن ذلك في نكت يقتضيها المقام وحسنه هنا، فأظهرت)من(لخفاء كون اسم فرعون بدلا من العذاب تنبيها على قصد التهويل لأمر فرعون

في جعل اسمه نفس العذاب المهين، أي في حال كونه صادرا من فرعون.
وجملة)إنه كان عاليا(مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان التهويل الذي أفاده جعل اسم فرعون بدلا من العذاب المهين. والعالي: المتكبر العظيم في النسا، قال تعالى)إن فرعون علا في الأرض(.

صفحة : 3963

و)من المسرفين(خبر ثان عن فرعون، والإسراف: الإفراط والإكثار. والمراد هنا الإكثار في التعالي، يراد الإكثار في أعمال الشر بقرينة مقام الذم.
و)من المسرفين(أشد مبالغة في اتصافه بالإسراف من أن يقال: مسرفا، كما تقدم في قوله تعالى)قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين(في سورة البقرة.
)ولقد اخترنهم على علم على العالمين[32](إشارة إلى أن الله تعالى قد اختار الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم على أمم عصرهم كما اختار الذين آمنوا بموسى عليه السلام على أمم عصرهم وأنه عالم بأن أمثالهم أهل لأن يختارهم الله. والمقصود: التنويه بالمؤمنين بالرسل وأن ذلك يقتضي أن ينصرهم الله على أعدائهم ولأجل هذه الإشارة أكد الخبر باللام و)قد(، كما أكد في قوله آنفا)ولقد نجينا بني إسرائيل(. و)على(في قوله)على علم(بمعنى)مع(، كقول الأحوص:
إني على ما قد علمت محسد أنمي
على البغضاء والشنآن وموضع المجرور بها موضع الحال.
والمراد ب)العالمين(الأمم المعاصرة لهم. ثم بدلوا بعد ذلك فضربت عليهم الذلة، وقد اختار الله أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على الأمم فقال)كنتم خير أمة أخرجت للناس(أي أخرجها الله للناس.
واختار المسلمين بعدهم اختيارا نسبيا على حسب استقامتهم واستقامة غيرهم من الأمم على أن التوحيد لا يعدله شيء.
)وأتينهم من الآيات ما فيه بلاؤا مبين[33](إيتاء الآيات من آثار الاختيار لأنه من عناية الله بالأمة لأنه يزيدهم يقينا بإيمانهم.
والمراد بالآيات المعجزات التي ظهرت على يد موسى عليه السلام أيد الله به بني إسرائيل في مواقع حروبهم بنصر الفئة القليلة منهم على الجيوش الكثيرة من عدوهم.

وهذا تعريض بالإنذار للمشركين بأن المسلمين سيغلبون جمعهم مع قلتلهم في بدر وغيرها.
والبلاء: الاختبار يكون بالخير والشر. فالأول اختبار لمقابلة النعمة بالشكر أو غيره، والثاني اختبار لمقدار الصبر، قال تعالى)ونبلوكم بالشر والخير فتنة(أي ما فيه اختبار لهم في نظر الناس ليعلم بعضهم أنهم قابلوا نعمة إيتاء الآيات بالشكر، ويحذروا قومهم من مقابلة النعمة بالكفران.
)إن هؤلاء ليقولون[34] إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين[35] فأتوا بئابائنا إن كنتم صادقين[36](اعتراض بين جملة)يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون(وجملة)أهم خير أم قوم تبع(فإنه لما هددهم بعذاب الدخان ثم بالبطشة الكبرى وضرب لهم المثل بقوم فرعون أعقب ذلك بالإشارة إلى أن إنكار البعث هو الذي صرفهم عن توقع جزاء السوء على إعراضهم.
وافتتاح الكلام بحرف)إن(الذي ليس هو للتأكيد لأن هذا القول إلى المشركين لا تردد فيه حتى يحتاج إلى التأكيد فتعين كون حرف)إن(لمجرد الاهتمام بالخبر، وهو إذا وقع مثل هذا الموقع أفاد التسبب وأغنى عن الفاء. فالمعنى: إنا منتقمون منهم بالبطشة الكبرى لأنهم لا يرتدعون بوعيد الآخرة لإنكارهم الحياة الآخرة فلم ينظروا إلا لما هم عليه في الحياة الدنيا من النعمة والقوة فلذلك قدر الله لهم الجزاء على سوء كفرهم جزاء في الحياة الدنيا.
وضمير)هي(ضمير الشأن ويقال له: ضمير القصة لأنه يستعمل بصيغة المؤنث بتأويل القصة، أي لا قصة في هذا الغرض إلا الموتة المعروفة فهي موتة دائمة لا نشور لنا بعدها.
وهذا كلام من كلماتهم في إنكار البعث فإن لهم كلمات في ذلك، فتارة ينفون أن تكون بعد الموت حياة كما حكى عنهم في آيات أخرى مثل قوله تعالى)وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا(، وتارة ينفون أن يطرأ عليهم بعد الموتة المعروفة شيء غيرها يعنون بذلك شيئا ضد الموتة وهو الحياة بعد الموتة.
فلهم في نفي الحياة بعد الموت أفانين من أقوال الجحود، وهذا القصر قصر حقيقي في اعتقادهم لأنهم لا يؤمنون باعتراء أحوال لهم بعد الموت.
وكلمة)هؤلاء(حيثما ذكر في القرآن غير مسبوق بما يصلح أن يشار إليه: مراد به المشركون من أهل مكة كما استنبطناه، وقدمنا الكلام عليه عند قوله تعالى)فإن يكفر بها هؤلاء(في سورة الأنعام.

ووصف)الأولى(مراد به السابقة مثل قوله)وأنه أهلك عادا الأولى(ومنه قوله تعالى)ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين(. ونظيرها قوله تعالى)أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين(.

وأعقبوا قصر ما ينتابهم بعد الحياة على الموتة التي يموتونها، بقولهم)وما نحن بمنشرين(تصريحا بمفهوم القصر. وجيء به معطوفا للاهتمام به لأنه غرض مقصود مع إفادته تأكيد القصر وجعلوا قولهم)فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين(حجة على نفي البعث بأن الأموات السابقين لم يرجع أحد منهم إلى الحياة وهو سفسطة لأن البعث الموعود به لا يحصل في الحياة الدنيا، وهذا من توركهم واستهزائهم.

وضمير جمع المخاطبين أرادوا به النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين الذين كانوا يقولون لهم)إنكم مبعوثون(كما جاء في حديث خباب بن الأرت مع العاصي بن وائل الذي نزل بسببه قوله تعالى)أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا(الآية، وتقدم في سورة مريم.

)أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكنهم إنهم كانوا مجرمين[37](استئناف ناشئ عن قوله)ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون(فضمير)هم(راجع إلى اسم الإشارة في قوله)إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى(فبعد أن ضرب لهم المثل بمهلك قوم فرعون زادهم مثلا آخر هو أقرب إلى اعتبارهم به وهو مهلك قوم أقرب إلى بلادهم من قوم فرعون وأولئك قوم تبع فإن العرب يتسامعون بعظمة ملك تبع وقومه أهل اليمن وكثير من العرب شاهدوا آثار قوتهم وعظمتهم في مراحل أسفارهم وتحادثوا بما أصابهم من الهلك بسيل العرم.

وافتتح الكلام بالاستفهام التقريري لاسترعاء الأسماع لمضمونه لأن كل أحد يعلم أن تبعا ومن قبله من الملوك خير من هؤلاء المشركين.

والمعنى: أنهم ليسوا خيرا من قوم تبع ومن قبلهم من الأمم الذين استأصلهم الله لأجل إجرامهم فلما ماثلوهم في الإجرام فلا مزية لهم تدفع عنهم استئصال الذي أهلك الله به أمما قبلهم.

والاستفهام في)أهم خير أم قوم تبع(تقريري إذ لا يسعهم إلا أن يعترفوا بأن قوم تبع والذين من قبلهم خير منهم لأنهم كانوا يضربون بهم الأمثال في القوة والمنعة. والمراد بالخيرية التفضيل في القوة والمنعة، كما قال تعالى بعد ذكر قوم فرعون)أكفاركم خير من أولئكم(في سورة القمر.

وقوم تبع هم حمير وهم سكان اليمن وحضرموت من حمير وسبأ وقد ذكرهم الله تعالى في سورة ق.
وتبع بضم الميم وتشديد الموحدة لقب لمن يملك جميع بلاد اليمن حميرا وسبأ وحضرموت، فلا يطلق على الملك لقب تبع إلا إذا ملك هذه المواطن الثلاثة. قيل سموه تبعا باسم الظل لأنه يتبع الشمس كما يتبع الظل الشمس، ومعنى ذلك: أنه يسير بغزواته إلى كل مكان تطلع عليه الشمس، كما قال تعالى في ذي القرنين)فاتبع سببا حتى إذا بلغ مغرب الشمس(إلى قوله)لم نجعل لهم من دونها سترا(، وقيل لأنه تتبعه ملوك مخاليف اليمن، وتخضع له جميع الأقيال والأذواء من ملوك مخاليف اليمن وأذوائه، فلذلك لقب تبعا لأنه تتبعه الملوك.
وتبع المراد هنا المسمى أسعد والمكنى أبا كرب، كان قد عظم سلطانه وغزا بلاد العرب ودخل مكة ويثرب وبلغ العراق. ويقال: إنه الذي بنى مدينة الحيرة في العراق، وكانت دولة تبع في سنة ألف قبل البعثة المحمدية، وقيل كان في حدود السبعمائة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.
وتعليق الإهلاك بقوم تبع دونه يقتضي أن تبعا نجا من هذا الإهلاك وأن الإهلاك سلط على قومه، قالت عائشة: ألا ترى أن الله ذم قومه ولم يذمه.
والمروي عن النبي صلى الله عليه وسلم في مسند أحمد وغيره أنه قال لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم وفي رواية كان مؤمنا ، وفسره بعض العلماء بأنه كان على دين إبراهيم عليه السلام وأنه اهتدى إلى ذلك بصحبة حبرين من أحبار اليهود لقيهما بيثرب حين غزاها وذلك يقتضي نجاته من الإهلاك. ولعل الله أهلك قومه بعد موته أو في مغيبه.
وجملة)أهلكناهم(مستأنفة استئنافا بيانيا لما أثاره الاستفهام التقريري من السؤال عن إبهامه ماذا أريد به.
وجملة)إنهم كانوا مجرمين(تعليل لمضمون جملة)أهلكناهم(، أي أهلكناهم عن بكرة أبيهم بسبب إجرامهم، أي شركهم.

صفحة : 3965

)وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين[38] ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون[39](عطف على جملة)إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى(ردا عليهم كما علمته آنفا.
والمعنى: أنه لو لم يكن بعث وجزاء لكان خلق السماوات والأرض

وما بينهما عبثا، ونحن خلقنا ذلك كله بالحق، أي بالحكمة كما دل عليه إتقان نظام الموجودات، فلا جرم اقتضى خلق ذلك أن يجازى كل فاعل على فعله وأن لا يضاع ذلك، ولما كان المشاهد أن كثيرا من الناس يقضي حياته ولا يرى لنفسه جزاء على أعماله تعين أن الله أخر جزاءهم إلى حياة أخرى وإلا لكان خلقهم في بعض أحواله من قبيل اللعب.

وذكر اللعب توبيخ للذين أحالوا البعث والجزاء بأنهم اعتقدوا ما يفضي بهم إلى جعل أفعال الحكيم لعبا، وقد تقدم وجه الملازمة عند تفسير قوله تعالى)أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون(في سورة المؤمنون وعند قوله تعالى)وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا(في سورة ص.

و)لاعبين(حال من ضمير)خلقنا(، والنفي متوجه إلى هذا الحال فاقتضى نفي أن يكون شيء من خلق ذلك في حالة عبث فمن ذلك حالة إهمال الجزاء.

وجملة)ما خلقناهما إلا بالحق(بدل اشتمال من جملة)وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين(.

والباء في)بالحق(للملابسة، أي خلقنا ذلك ملابسا ومقارنا للحق، أو الباء للسببية، أي بسبب الحق، أي لإيجاد الحق من خلقهما.

والحق: ما يحق وقوعه من عمل أو قول، أي يجب ويتعين لسببية أو تفرع أو مجازاة، فمن الحق الذي خلقت السماوات والأرض وما بينهما لأجله مكافأة كل عامل بما يناسب عمله ويجازيه، وتقدم عند قوله تعالى)أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق(في سورة الروم.

والاستدراك في قوله)ولكن أكثرهم لا يعلمون(ناشئ عما أفاده نفي أن يكون خلق المخلوقات لعبا وإثبات أنه للحق لا غير من كون شأن ذلك أن لا يخفى ولكن جهل المشركين هو الذي سول لهم أن يقولوا)ما نحن بمنشرين(.

وجملة الاستدراك تذييل، وقريب من معنى الآية قوله)وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية(في آخر سورة الحجر.

)إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين[40] يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون[41] إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم[42](هذه الجملة تتنزل من التي قبلها منزلة النتيجة من الاستدلال ولذلك لم تعطف، والمعنى: فيوم الفصل ميقاتهم إعلاما لهم بأن يوم القضاء هو أجل الجزاء، فهذا وعيد لهم وتأكيد الخبر لرد إنكارهم.

ويوم الفصل: هو يوم الحكم، لأنه يفصل فيه الحق من الباطل وهو من أسماء يوم القيامة قال تعالى)لأي يوم أجلت ليوم الفصل(.

والميقات: اسم زمان التوقيت، أي التأجيل، قال تعالى)إن يوم الفصل كان ميقاتا(، وتقدم عند قوله تعالى)قل هي مواقيت للناس والحج(في سورة البقرة وحذف متعلق الميقات لظهوره من المقام، أي ميقات جزائهم.

وأضيف الميقات إلى ضمير المخبر عنهم لأنهم المقصود من هذا الوعيد وإلا فإن يوم الفصل ميقات جميع الخلق مؤمنيهم وكفارهم.

والتأكيد ب)أجمعين(للتنصيص على الإحاطة والشمول، أي ميقات لجزائهم كلهم لا يفلت منه أحد منهم تقوية في الوعيد وتأييسا من الاستثناء.

و)يوم لا يغنى مولى(بدل من)يوم الفصل(أو عطف بيان. وفتحة)يوم لا يغني(فتحة إعراب لأن)يوم(أضيف إلى جملة ذات فعل معرب.

والمولى: القريب والحليف،وتقدم عند قوله تعالى)وإني خفت الموالي من ورائي(في سورة مريم. وتنكير)مولى(في سياق النفي لإفادة العموم، أي لا يغني أحد من الموالي كائنا من كان عن أحد من مواليه كائنا من كان.

و)شيئا(مفعول مطلق لأن المراد)شيئا(من إغناء. وتنكير)شيئا(للتقليل وهو الغالب في تنكير لفظ شيء، كما قال تعالى)وشيء من سدر قليل(. ووقوعه في سياق النفي للعموم أيضا، يعني أي إغناء كان في القلة بله الإغناء الكثير. والمعنى: يوم لا تغني عنهم مواليهم، فعدل عن ذلك إلى التعميم لأنه أوسع فائدة إذ هو بمنزلة التذييل.

صفحة : 3966

والإغناء: الإفادة والنفع بالكثير أو القليل، وضميرا)ولا هم ينصرون(راجعان إلى ما رجع إليه ضمير)أهم خير(، وهو اسم الإشارة من قوله)إن هؤلاء ليقولون(. والمعنى: أنهم لا يغني عنهم أولياؤهم المظنون بهم ذلك ولا ينصرهم مقيضون آخرون ليسوا من مواليهم تأخذهم الحمية أو الغيرة أو الشفقة فينصرونهم.

والنصر: الإعانة على العدو وعلى الغالب، وهو أشد الإغناء.

فعطف)ولا هم ينصرون(على)لا يغني مولى عن مولى شيئا(زيادة في نفي عدم الإغناء.

فمحصل المعنى أنه لا يغني موال عن مواليه بشيء من الإغناء حسب مستطاعه ولا ينصرهم ناصر شديد الاستطاعة هو أقوى منهم يدفع عنهم غلب القوي عليهم، فالله هو الغالب لا يدفعه غالب.

وبني فعل)ينصرون(إلى المجهول ليعم نفي كل ناصر مع إيجاز العبارة.
والاستثناء بقوله)إلا من رحم الله(وقع عقب جملتي)لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون(فحق بأن يرجع إلى ما يصلح للاستثناء منه في تينك الجملتين. ولنا في الجملتين ثلاثة ألفاظ تصلح لأن يستثنى منها وهي)مولى(الأول المرفوع بفعل)يغني(، و)مولى(الثاني المجرور بحرف)عن(، وضمير)ولا هم ينصرون(، فالاستثناء بالنسبة إلى الثلاثة استثناء متصل، أي إلا من رحمه الله من الموالي، أي فإنه يأذن أن يشفع فيه، ويأذن للشافع بأن يشفع كما قال تعالى)ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له(وقال)ولا يشفعون إلا لمن ارتضى(. وفي حديث الشفاعة أنه يقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم سل تعطه واشفع تشفع . والشفاعة: إغناء عن المشفوع فيه. والشفعاء يومئذ أولياء للمؤمنين فإن من الشفعاء الملائكة وقد حكى الله عنهم قولهم للمؤمنين)نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة(.
وقيل هو استثناء منقطع لأن من رحمه الله ليس داخلا في شيء قبله مما يدل على أهل المحشر، والمعنى: لكن من رحمه الله لا يحتاج إلى من يغني عنه أو ينصره وهذا قول الكسائي والفراء.
وأسباب رحمة الله كثيرة مرجعها إلى رضاه عن عبده وذلك سر يعلمه الله.
وجملة)إنه هو العزيز الرحيم(استئناف بياني هو جواب مجمل عن سؤال سائل عن تعيين من رحمه الله، أي أن الله عزيز لا يكرهه أحد على العدول عن مراده، فهو يرحم من يرحمه بمحض مشيئته وهو رحيم، أي واسع الرحمة لمن يشاء من عباده على وفق ما جرى به علمه وحكمته ووعده. وفي الحديث ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء .
)إن شجرت الزقوم[43] طعام الأثيم[44] كالمهل تغلي في البطون[45] كغلي الحميم[46] خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم[47] ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم[48] ذق إنك أنت العزيز الكريم[49] إن هذا ما كنتم به تمترون[50](لما ذكر الله فريقا مرحومين على وجه الأجمال قابله هنا بفريق معذبون وهم المشركون، ووصف بعض أصناف عذابهم وهو مأكلهم وإهانتهم وتحريقهم، فكان مقتضى الظاهر أن يبتدأ الكلام بالإخبار عنهم بأنهم يأكلون شجرة الزقوم كما قال في سورة الواقعة)ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم(الآية، فعدل عن ذلك إلى الإخبار عن شجرة الزقوم بأنها طعام الأثيم اهتماما بالإعلام بحال هذه الشجرة. وقد جعلت شجرة الزقوم شيئا معلوما للسامعين فأخبر عنها بطريق

تعريف الإضافة لأنها سبق ذكرها في سورة الواقعة التي نزلت قبل سورة الدخان فإن الواقعة عدت السادسة والأربعين في عداد نزول السور وسورة الدخان ثالثة وستين.
ومعنى كون الشجرة طعاما أن ثمرها طعام، كما قال تعالى) طلعها كأنه رءوس الشياطين فإنهم لآكلون منها(.
وكتبت كلمة)شجرت(في المصاحف بتاء مفتوحة مراعاة لحالة الوصل وكان الشائع في رسم أواخر الكلم أن تراعي فيه حالة الوقف، فهذا مما جاء على خلاف الأصل.
والأثيم: الكثير الآثام كما دلت عليه زنة فعيل. والمراد به: المشركون المذكورون في قوله)إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى(، فهذا من الإظهار في مقام الإضمار لقصد الإيماء إلى أن المهم بالشرك مع سبب معاملتهم هذه وتقدم الكلام على شجرة الزقوم في سورة الصافات عند قوله تعالى)أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم(.

صفحة : 3967

والمهل بضم الميم دردي الزيت. والتشبيه به في سواد لونه وقيل في ذوبانه.
والحميم: الماء الشديد الحرارة الذي انتهى غليانه، وتقدم عند قوله تعالى)لهم شراب من حميم(في سورة الأنعام. ووجه الشبه هو هيئة غليانه.
وقرأ الجمهور)تغلي(بالتاء الفوقية على أن الضمير ل)شجرة الزقوم(.
وإسناد الغليان إلى الشجرة مجاز وإنما الذي يغلي ثمرها. وقرأه ابن كثير وحفص بالتحتية على رجوع الضمير إلى الطعام لا إلى المهل.
والغليان: شدة تأثر الشيء بحرارة النار يقال: غلي الماء وغلت القدر، قال النابغة.

يسير بها النعمان تغلي قدوره وجملة)خذوه(إلخ مقول لقول محذوف دل عليه السياق، أي يقال لملائكة العذاب: خذوه، والضمير المفرد عائد إلى الأثيم باعتبار آحاد جنسه.
والعتل: القود بعنف وهو أن يؤخذ بتلبيب أحد فيقاد إلى سجن أو عذاب، وماضيه جاء بضم العين وكسرها.
وقرأه بالضم نافع وابن كثير وابن عامر. وقرأه الباقون بكسر التاء.

وسواء الشيء: وسطه وهو أشد المكان حرارة.
وقوله)إلى سواء الجحيم(يتنازعه في التعلق كل من فعلي)خذوه فاعتلوه(لتضمنهما: سوقوه سوقا عنيفا.
و)ثم(للتراخي الرتبي أن صب الحميم على رأسه أشد عليه من أخذه وعتله.
والصب: إفراغ الشيء المظروف من الظرف وفعل الصب لا يتعدى إلى العذاب لأن العذاب أمر معنوي لا يصب. فالصب مستعار للتقوية والإسراع فهو تمثيلية اقتضاها ترويع الأثيم حين سمعها، فلما كان المحكي هنا القول الذي يسمعه الأثيم صيغ بطريقة التمثيلية تهويلا، بخلاف قوله)يصب من فوق رءوسهم الحميم(الذي هو إخبار عنهم في زمن هم غير سامعيه فلم يؤت بمثل هذه الاستعارة إذ لا مقتضى لها.
وجملة)ذق إنك أنت العزيز الكريم(مقول قول آخر محذوف تقديره: قولوا له أو يقال له.
والذوق مستعار للإحساس وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة.
وقوله)إنك أنت العزيز الكريم(خبر مستعمل في التهكم بعلاقة الضدية.
والمقصود عكس مدلوله، أي أنت الذليل المهان، والتأكيد للمعنى التهكمي.
وقرأه الجمهور بكسر همزة)إنك(. وقرأه الكسائي بفتحها على تقدير لام التعليل وضمير المخاطب المنفصل في قوله)أنت(تأكيد للضمير المتصل في)إنك(ولا يؤكد ضمير النصب المتصل إلا بضمير رفع منفصل.
وجملة)إن هذا ما كنتم به تمترون(بقية القول المحذوف، أي ويقال للآثيمين جميعا: إن هذا ما كنتم به تمترون في الدنيا. والخبر مستعمل في التنديم والتوبيخ واسم الإشارة مشار به إلى الحالة الحاضرة لديهم، أي هذا العذاب والجزاء هو ما كنتم تكذبون به في الدنيا.
والامتراء: الشك، وأطلق الامتراء على جزمهم بنفي يقينهم بانتفاء البعث لأن يقينهم لما كان خليا عن دلائل العلم كان بمنزلة الشك، أي أن البعث هو بحيث لا ينبغي أن يوقن بنفيه على نحو ما قرر في قوله تعالى)ذلك الكتاب لا ريب فيه(.
)إن المتقين في مقام أمين[51] في جنات وعيون[52] يلبسون من سندس وإستبرق متقبلين[53](استئناف ابتدائي انتقل به الكلام من وصف عذاب الأثيم إلى وصف نعيم المتقين لمناسبة التضاد على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والعكس.

والمقام بضم الميم: مكان الإقامة. والمقام بفتح الميم: مكان القيام ويتناول المسكن وما يتبعه.
وقرأه نافع وابن عامر وأبو جعفر بضم الميم. وقرأه الباقون بفتح الميم.
والمراد بالمقام المكان فهو مجاز بعلاقة الخصوص والعموم.
والأمين بمعنى الآمن والمراد: الآمن ساكنه، فوصفه ب)أمين(مجاز عقلي كما قال تعالى)وهذا البلد الأمين(. والأمن أكبر شروط حسن المكان لأن الساكن أول ما يتطلب الأمن وهو السلامة من المكاره والمخاوف فإذا كان آمنا في منزلة كان مطمئن البال شاعرا بالنعيم الذي يناله. وأبدل منه بأنهم)في جنات وعيون(وذلك من وسائل النزهة والطيب. وأعيد حرف)في(مع البدل للتأكيد.
والجنات: جمع جنة، وتقدم في أول البقرة. والعيون: جمع عين، وتقدم في قوله)فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا(في سورة البقرة، فهذا نعيم مكانهم. ووصف نعيم أجسادهم بذكر لباسهم وهو لباس الترف والنعيم وفيه كناية عن توفر أسباب نعيم الأجساد لأنه لا يلبس هذا اللباس إلا من استكمل ما قبله من ملائمات الجسد باطنه وظاهره.

صفحة : 3968

والسندس: الديباج الرقيق النفيس، والأكثر على أنه معرب من الفارسية وقيل عربي. أصله: سندي، منسوب إلى السند على غير قياس. والسندس يلبس مما يلي الجسد.
والإستبرق الديباج القوي يلبس فوق الثياب وهو معرب استبره فارسية، وهو الغليظ مطلقا ثم خص بغليظ الديباج، ثم عرب.
وتقدما في قوله)ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق(في سورة الكهف فارجع إليه.
و)من(لبيان الجنس، والمبين محذوف دل عليه)يلبسون(. والتقدير: ثيابا من سندس وإستبرق.
ثم وصف نعيم نفوسهم بعضهم مع بعض في مجالسهم ومحادثاتهم بقوله)متقابلين(? لأن الحديث مع الأصحاب والأحبة نعيم للنفس فأغنى قوله)متقابلين(عن ذكر اجتماعهم وتحابهم وحديث بعضهم مع بعض وأن ذلك شأنهم أجمعين بأن ذكر ما يستلزم ذلك وهو صيغة متقابلين ومادته على وجه الإيجاز البديع.

)كذلك(اعتراض وقد تقدم بيان معناه عن قوله تعالى)كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا(في سورة الكهف. وتقدم نظيره آنفا في هذه السورة.

)وزوجناهم بحور عين[54] يدعون فيها بكل فاكهة آمنين[55] لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى(معنى)زوجناهم(جعلناهم أزواجا جمع زوج ضد الفرد، أي جعلنا كل فرد من المتقين زوجا بسبب نساء حور العيون.

والزوج هنا كناية عن القرين، أي قرنا بكل واحد نساء حورا عينا، وليس فعل)زوجناهم(هنا مشتقا من الزوج الشائع إطلاقه على امرأة الرجل وعلى رجل المرأة لأن ذلك الفعل يتعدى بنفسه يقال: زوجه ابنته وتزوج بنت فلان، قال تعالى)زوجناكم(، وليس ذلك بمراد هنا إذ لا طائل تحته، إذ ليس في الجنة عقود نكاح، وإنما المراد أنهم مأنوسون بصحبة حبائب من النساء كما أنسوا بصحبة الأصحاب والأحبة من الرجال استكمالا لمتعارف الأنس بين الناس. وفي كلا الأنسين نعيم نفساني منجر للنفس من النعيم الجثماني، وهذا معنى سام من معاني الانبساط الروحي وإنما أفسد بعضه في الدنيا ما يخالط بعضه من أحوال تجر إلى فساد منهي عنه مثل ارتكاب المحرم شرعا ومثل الاعتداء على المرأة قسرا، ومن مصطلحات متكلفة، وقد سمى الله سكونا فقال)ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة(.

والحور: جمع الحوراء، وهي البيضاء، أي بنساء بضيضات الجلد.

والعين: جمع العيناء، وهي واسعة العين، وتقدم في سورة الصافات. وشمل الحور العين النساء اللاء كن أزواجهم في الدنيا، ونساء يخلقهن الله لأجل الجنة قال تعالى)إنا أنشأناهن إنشاء(وقال تعالى)هم وأزواجهم في ظلال(.

ومعنى)يدعون فيها بكل فاكهة(أي هم يأمرون بأن تحضر لهم الفاكهة، أي فيجابون.

والدعاء نوع من الأمر أي يأذنون بكل فاكهة، أي بإحضار كل فاكهة.

و)كل(هنا مستعملة في الكثرة الشديدة لكل واحد منهم. ويجوز أن تكون بمعنى الإحاطة، أي بكل صنف من أصناف الفاكهة.

والفاكهة: ما يتفكه به، أي يتلذذ بطعمه من الثمار ونحوها.

وجملة)يدعون(حال من)المتقين(، و)آمنين(حال من ضمير)يدعون(. والمراد هنا أمن خاص غير الذي في قوله)في مقام أمين(وهو الأمن من الغوائل والآلام من تلك الفواكه على خلاف حال الإكثار من الطعام في الدنيا كقوله في خمر الجنة)لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون(، أو آمنين من نفاد ذلك وانقطاعه.

وجملة)لا يذوقون فيها الموتة إلا الموتة الأولى(حال أخرى. وهذه بشارة بخلود النعمة لأن الموت يقطع ما كان في الحياة من النعيم لأصحاب النعيم كما كان الإعلام بأن أهل الشرك لا يموتون نذارة بدوام العذاب.
والاستثناء في قوله)إلا الموتة الأولى(من تأكيد الشيء بما يشبه ضده لزيادة تحقيق انتفاء ذوق الموت عن أجل الجنة فكأنه قيل لا يذوقون الموت البتة وقرينة ذلك وصفها ب)الأولى(. والمراد ب)الأولى(السالفة، كما تقدم آنفا في قوله)إن هي إلا موتتنا الأولى(.
)ووقايهم عذاب الجحيم[56] فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم[57](عطف على)وزوجناهم بحور عين(. وهذا تذكير بنعمة السلامة مما ارتبك فيه غيرهم. وذلك مما يحمد الله عليه كما ورد أن من آداب من يرى غيره في شدة أو بأس أن يقول: الحمد لله الذي عافاني مما هو فيه.

صفحة : 3969

وضمير)وقاهم(عائد إلى ضمير المتكلم في)وزوجناهم(على طريقة الالتفات.
و)فضلا(حال من المذكورات. والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم.
وذكر الرب إظهار في مقام الإضمار ومقتضى الظاهر أن يقال: فضلا منه أو منا. ونكتة هذا الإظهار تشريف مقام النبي صلى الله عليه وسلم والإيماء إلى أن ذلك إكرام له لإيمانهم به.
وجملة)ذلك هو الفوز العظيم(تذييل، والإشارة في)ذلك هو الفوز العظيم(لتعظيم الفضل ببعد المرتبة.
وأتي بضمير الفصل لتخصيص الفوز بالفضل المشار إليه وهو قصر لإفادة معنى الكمال كأنه لا فوز غيره.
)فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون[58] فارتقب إنهم مرتقبون[59](الفاء للتفريع إشارة إلى أن ما بعدها متفرع عما قبلها حيث كان المذكور بعد الفاء فذلكة للسورة، أي إجمال لأغراضها بعد تفصيلها فيما مضى إحضارا لتلك الأغراض وضبطا لترتب علتها.
وضمير)يسرناه(عائد إلى الكتاب المفهوم من المقام والمذكور في قوله)والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة(إلخ، والذي كان جل غرض السورة في إثبات إنزاله من الله كما أشار إليه افتتاحها بالحروف المقطعة، وقوله)والكتاب المبين(، فهذا التفريع مرتبط

بذلك الافتتاح وهو من رد العجز على الصدر. فهذا التفريع تفريع لمعنى الحصر الذي في قوله)فإنما يسرناه بلسانك(لبيان الحكمة في إنزال القرآن باللسان العربي فيكون تفريعا على ما تقدم في السورة وما تخلله وتبعه من المواعظ.

ويجوز أن يكون المفرع قوله)لعلهم يتذكرون(. وقدم عليه ما هو توطئة له اهتماما بالمقدم وتقدير النظم فلعلهم يتذكرون بهذا لما يسرناه لهم بلسانهم.

والقصر المستفاد من)إنما(قصر قلب وهو رد على المشركين إذ قد سهل لهم طريق فهمه بفصاحته وبلاغته فقابلوه بالشك والهزء كما قصه الله في أول السورة بقوله)بل هم في شك يلعبون(أي أنا جعلنا فهمه يسيرا بسبب اللغة العربية الفصحى وهي لغتهم إلا ليتذكروا فلم يتذكروا.

فمفعول)يسرناه(مضاف مقدر دل عليه السياق تقديره: فهمه.

والباء في)بلسانك(للسببية، أي بسبب لغتك، أي العربية وفي إضافة اللسان إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم عناية بجانبه وتعظيم له، وإلا فاللسان لسان العرب كما قال تعالى)وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه(.

وإطلاق اللسان وهو اسم الجارحة المعروفة في الفم على اللغة مجاز شائع لأن أهم ما يستعمل فيه اللسان الكلام قال تعالى) بلسان عربي مبين(.

وأفصح قوله)لعلهم يتذكرون(عن الأمر بالتذكير بالقرآن. والتقدير: فذكرهم به ولا تسأم لعنادهم فيه ودم على ذلك حتى يحصل التذكر، فالتيسير هنا تسهيل الفهم، وتقدم عند قوله تعالى)فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين(إلخ في سورة مريم.

و)لعل(مستعملة في التعليل، أي لأجل أن يتذكروا به، وهذا كقوله)وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لتنذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين(.

وفي هذا الكلام الموجز إخبار بتيسير القرآن للفهم لأن الغرض منه التذكر، قال تعالى)ولقد يسرنا القرءان للذكر فهل من مدكر(، وبأن سبب ذلك التيسير كونه بأفصح اللغات وكونه على لسان أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم فلذلك كان تسببه في حصول تذكرهم تسببا قريبا لو لم يكونوا في شك يلعبون.

وباعتبار هذه المعاني المتوافرة حسن أن يفرع على هذه الجملة تأييد النبي صلى الله عليه وسلم وتهديد معانديه بقوله)فارتقب إنهم مرتقبون(أي فارتقب النصر الذي سألته بأن تعان عليهم بسنين كسنين يوسف فإنهم مرتقبون ذلك وأشد منه وهو البطشة الكبرى.

وإطلاق الارتقاب على حال المعاندين استعارة تهكمية لأن المعنى أنهم لاقون ذلك لا محالة وقد حسنها اعتبار المشاكلة بين)ارتقب(و)مرتقبون(.

وجملة)إنهم مرتقبون(تعليل للأمر في قول)فارتقب(أي ارتقب النصر بأنهم لاقوا العذاب بالقحط وقد أغنت)إن(التسبب والتعليل.

وفي هذه الخاتمة رد العجز على الصدر إذ كان صدر السورة فيه ذكر إنزال الكتاب المبين وأنه رحمة من الله بواسطة رسالة محمد صلى اله عليه وسلم وكان في صدرها الإنذار بارتقاب يوم تأتي السماء بدخان مبين وذكر البطشة الكبرى.

صفحة : 3970

فكانت خاتمة هذه السورة خاتمة عزيزة المنال اشتملت على حسن براعة المقطع وبديع الإيجاز.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجاثية

سميت هذه السورة في كثير من المصاحف العتيقة بتونس وكتب التفسير وفي صحيح البخاري)سورة الجاثية(معرفا باللام.

وتسمى)حم الجاثية(لوقوع لفظ)جاثية(فيها ولم يقع في موضع آخر من القرآن، واقتران لفظ)الجاثية(بلام التعريف في اسم السورة مع أن اللفظ المذكور فيها خلي عن لام التعريف لقصد تحسين الإضافة، والتقدير: سورة هذه الكلمة، أي السورة التي تذكر فيها هذه الكلمة، وليس لهذا التعريف فائدة غير هذه. وذلك تسمية حم غافر، وحم الزخرف.

وتسمى)سورة شريعة(لوقوع لفظ)شريعة(فيها ولم يقع في موضع آخر من القرآن.

وتسمى)سورة الدهر(لوقوع)وما يهلكنا إلا الدهر(فيها ولم يقع لفظ الدهر في ذوات حم الأخر.

وهي مكية قال ابن عطية: بلا خلاف، وفي القرطبي عن ابن عباس وقتادة استثناء قوله تعالى)قل للذين آمنوا يغفروا(إلى)بما كانوا يكسبون(نزلت بالمدينة. وعن ابن عباس أنها نزلت عن عمر بن الخطاب شتمه رجل من المشركين بمكة فأراد أن يبطش به فنزلت.

وهي السورة الرابعة والستون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الدخان وقبل الأحقاف.

وعدد آيها في عد المدينة ومكة والشام والبصرة ست وثلاثون. وفي عد الكوفة سبع وثلاثون لاختلافهم في عد لفظ)حم(آية مستقلة.

أغراضها

الابتداء بالتحدي بإعجاز القرآن وأنه جاء بالحق توطئة لما سيذكر بأنه حق كما اقتضاه قوله)تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق(.

وإثبات انفراد الله تعالى بالإلهية بدلائل ما في السماوات والأرض من آثار خلقه وقدرته في جواهر الموجودات وأعراضها وإدماج ما فيها مع ذلك من نعم يحق على الناس شكرها لا كفرها.

ووعيد الذين كذبوا على الله والتزموا الآثام بالإصرار على الكفر والإعراض عن النظر في آيات القرآن والاستهزاء بها.

والتنديد على المشركين إذ اتخذوا آلهة على حسب أهوائهم وإذ جحدوا البعث، وتهديدهم بالخسران يوم البعث، ووصف أهوال ذلك، وما أعد فيه من العذاب للمشركين ومن رحمة للمؤمنين.

ودعاء المسلمين للإعراض عن إساءة الكفار لهم والوعد بأن الله سيخزي المشركين.

ووصف بعض أحوال يوم الجزاء. ونظر الذين أهملوا النظر في آيات الله مع تبيانها وخالفوا على رسولهم صلى الله عليه وسلم فيما فيه صلاحهم بحال بني إسرائيل في اختلافهم في كتابهم بعد أن جاءهم العلم وبعد أن اتبعوه فما ظنك بمن خالف آيات الله من أول وهلة تحذيرا لهم من أن يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل من تسليط الأمم عليهم وذلك تحذير بليغ.

وذلك تثبيت للرسول صلى الله عليه وسلم بأن شأن شرعه مع قومه كشأن شريعة موسى لا تسلم من مخالف، وأن ذلك لا يقدح فيها ولا في الذي جاء بها، وأن لا يعبأ بالمعاندين ولا بكثرتهم إذ لا وزن لهم عند الله.

حم~[1](تقدم القول في نظائره، وهذه جملة مستقلة.

)تنزيل الكتب من الله العزيز الحكيم[2](استئناف ابتدائي وهو جملة مركبة من مبتدأ وخبر.

)الكتاب(هو المعهود وهو ما نزل من القرآن إلى تلك الساعة.

والمقصود: إثبات أن القرآن موحى به من الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فكان مقتضى الظاهر أن يجعل القرآن مسندا إليه ويخبر عنه فيقال القرآن منزل من الله العزيز الحكيم لأن كونه منزلا من الله هو محل الجدال فيقتضي أن يكون هو الخبر ولو أذعنوا لكونه تنزيلا لما كان منهم نزاع في أن تنزيله من الله ولكن خولف مقتضى الظاهر لغرضين: أحدهما: التشويق إلى تلقي الخبر

لأنهم إذا سمعوا الابتداء بتنزيل الكتاب استشرفوا إلى ما سيخبر عنه؛ فأما الكافرون فيترقبون أنه سيلقى إليهم وصف جديد لأحوال تنزيل الكتاب فيتهيأون لخوض جديد من جدالهم وعنادهم، والمؤمنون يترقبون لما يزيدهم يقينا بهذا التنزيل.

صفحة : 3971

والغرض الثاني: أن يدعى أن كون القرآن تنزيلا أمر لا يختلف فيه فالذين خالفوا فيه كأنهم خالفوا في كونه منزلا من عند الله وهل يكون التنزيل إلا من عند الله فيؤول إلى تأكيد الإخبار بأنه منزل من عند الله إذ لا فرق بين مدلول كونه تنزيلا وكونه من عند الله إلا باختلاف مفهوم المعنيين دون ما صدقيهما على طريقة قوله:)لا ريب فيه(.

وإيثار وصفي)العزيز الحكيم(بالذكر دون غيرهما من الأسماء الحسنى لإشعار وصف)العزيز(بأن ما نزل منه مناسب لعزته فهو كتاب عزيز كما وصفه تعالى بقوله)وإنه لكتاب عزيز(، أي هو غالب لمعانديه، وذلك لأنه أعجزهم عن معارضته، ولإشعار وصف) الحكيم(بأن ما نزل من عنده مناسب لحكمته، فهو مشتمل على دلائل اليقين والحقيقة، ففي ذلك إيماء إلى أن إعجازه، من جانب بلاغته إذ غلبت بلاغة بلغائهم،ومن جانب معانيه إذ أعجزت حكمته حكمة الحكماء، وقد تقدم مثيل هذا في طالعة سورة الزمر وقريب منه في طالعة سورة غافر.

)إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين[3] وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون[4] واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الريح آيات لقوم يعقلون[5](موقع هذا الكلام موقع تفصيل المجمل لما جمعته جملة)تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم(باعتبار أن آيات السماوات والأرض وما عطف عليها إنما كانت آيات للمؤمنين الموقنين، وللذين حصل لهم العلم بسبب ما ذكرهم به القرآن، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى)تلك آيات الله نتلوها عليك(.

وأكد ب)إن(وإن كان المخاطبون غير منكريه لتنزيلهم منزلة المنكر لذلك بسبب عدم انتفاعهم بما في هذه الكائنات من دلالة على وحدانية الله تعالى وإلا فقد قال الله تعالى)ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم(في سورة الزخرف.

والخطاب موجه إلى المشركين ولذلك قال)لآيات للمؤمنين(وقال)لآيات لقوم يوقنون(دون أن يقال: لآيات لكم أو آيات لكم، أي هي

آيات لمن يعلمون دلالتها من المؤمنين. ومن الذين يوقنون إشارة إلى أن تلك الآيات لا أثر لها في نفوس من هم بخلاف ذلك.
والمراد بكون الآيات في السماوات والأرض أن ذات السماوات والأرض وعداد صفاتها دلائل على الوحدانية فجعلت السماوات والأرض بمنزلة الظرف لما أودعته من الآيات لأنها ملازمة لها بأدنى نظر وجعلت الآيات للمؤمنين لأنهم الذين انتفعوا بدلالتها وعلموا منها أن موجدها ومقدر نظامها واحد لا شريك له.
وعطف جملة)وفي خلقكم(الخ على جملة)إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين(عطف خاص على عام لما في هذا الخاص من التذكير بنعمة إيجاد النوع استدعاء للشكر عليه.
والبث: التوزيع والإكثار وهو يقتضي الخلق والإيجاد فكأنه قيل وفي خلق الله ما يبث من دابة. وتقدم البث في قوله تعالى)وبث فيها من كل دابة(في سورة البقرة.
وعبر بالمضارع في)يبث(ليفيد تجدد البث وتكرره باعتبار اختلاف أجناس الدواب وأنواعها وأصنافها.
والدابة تطلق على كل ما يدب على الأرض غير الإنسان وهذا أصل إطلاقها وقد تطلق على ما يدب بالأرجل دون الطائر كقوله) وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه(.
والرزق أطلق هنا على المطر على طريقة المجاز المرسل لأن المطر سبب وجود الأقوات. والرزق: القوت. وقد ذكر في آية سورة البقرة)وما أنزل الله من السماء من ماء(.
وتقدمت نظائر هذه الآية في أواسط سورة البقرة وفي مواضع عدة.
والمراد ب)المؤمنين، وبقوم يوقنون، وبقوم يعقلون(واحد، وهم المؤمنون بتوحيد الله فحصل لهم اليقين وكانوا يعقلون، أي يعلمون دلالة الآيات.

صفحة : 3972

والمعنى: أن المؤمنين والذين يوقنون، أي يعلمون ولا يكابرون، والذين يعقلون دلالة الآثار على المؤثر ونظروا النظر الصحيح في شواهد السماوات والأرض فعلموا أن لا بد لها من صانع وأنه واحد فأيقن بذلك العاقل منهم الذي كان مترددا، وازداد إيمانا من كان مؤمنا فصار موقنا. فالمعنى: أن الذين انتفعوا بالآيات هم المؤمنون العاقلون، فوزعت هذه الأوصاف على فواصل هذه الآي لأن ذلك أوقع في نفس السامع من إتلاء بعضها لبعض.

وقدم المتصفون بالإيمان لشرفه وجعل خلق الناس والدواب آية للموصوفين بالإيقان لأن دلالة الخلق كائنة في نفس الإنسان وما يحيط به من الدواب،وجعل اختلاف الليل والنهار واختلاف حوادث الجو آية للذين اتصفوا بالعقل لأن دلالتها على الوحدانية بواسطة لوازم مترتبة بإدراك العقل.

وقد أومأ ذكر هذه الصفات إلى أن الذين لم يهتدوا بهذه الآيات ليسوا من أصحاب هذه الصفات ولذلك أعقبه بقوله)فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون(استفهاما إنكاريا بمعنى النفي.

واعلم أن هذا الكلام وإن كان موجها إلى قوم لا ينكرون وجود الإله وإنما يزعمون له شركاء، وكان مقصودا منه ابتداء إثبات الوحدانية، فهو أيضا صالح لإقامة الحجة على المعطلين الذين ينفون وجود الصانع المختار وفي العرب فريق منهم.

فإن أحوال السماوات كلها متغيرة دالة على تغير ما اتصفت بها، والتغير دليل الحدوث وهو الحاجة إلى الفاعل المختار الذي يوجدها بعد العدم ثم يعدمها.

وقرأ الجمهور قوله)آيات لقوم يوقنون(وقوله)آيات لقوم يعقلون(برفع)آيات(فيهما على أنهما مبتدآن وخبراهما المجروران. وتقدر في محذوفة في قوله)واختلاف الليل والنهار(لدلالة أختها عليها التي في قوله)وفي خلقكم(.

والعطف في كلتا الجملتين عطف جملة لا عطف مفرد.

وقرأها حمزة والكسائي وخلف)آيات(في الموضعين بكسرة نائبة عن الفتحة ف)آيات(الأول عطف على اسم)إن(و)في خلقكم(عطف على خبر)إن(فهو عطف على معمولي عامل واحد ولا إشكال في جوازه، وأما)آيات لقوم يعقلون(فكذلك، إلا انه عطف على معمولي عاملين مختلفين، أي ليسا مترادفين هما) إن(و)في(على اعتبار أن الواو عاطفة)آيات(وليست عاطفة جملة)في خلقكم(الآية، وهو جائز عند أكثر نحاة الكوفة وممنوع عند اكثر نحاة البصرة، ولذلك تأول سيبويه هذه القراءة بتقدير)في(عند قوله)واختلاف الليل والنهار(لدلالة أختها عليها وتبقى الواو عاطفة) آيات(على اسم)إن(فلا يكون من العطف على معمولي عاملين.

والحق ما ذهب إليه جمهور الكوفيين وهو كثير كثرة تنبو عن التأويل. وجعل ابن الحاجب في أماليه قراءة الجمهور برفع) آيات(في الموضعين أيضا من العطف على معمولي عاملين لأن الرفع يحتاج إلى عامل كما أن النصب يحتاج إلى عامل قال: وأكثر الناس يفرض الإشكال في قراءة النصب لكون العامل لفظيا وهما سواء. وقرأ يعقوب)آيات(الثانية فقط بكسر التاء على أنه حال

متعدد من اختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق وتصريف الرياح، والسحاب.
)تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون[6](يجوز أن تكون الإشارة وبيانها بآيات الله إشارة إلى الآيات المذكورة في قوله)لآيات للمؤمنين(وقوله)آيات لقوم يؤمنون(وقوله)آيات لقوم يعقلون(.
وإضافتها إلى اسم الجلالة لأن خالقها على تلك الصفات التي كانت لها آيات للمستنصرين.
وجملة)نتلوها عليك بالحق(في موضع الحال من)آيات الله(.
والعامل في اسم الإشارة من معنى الفعل على نحو قوله تعالى) وهذا بعلي شيخا(.
والتلاوة: القراءة. ومعنى كون الآيات متلوة أن في ألفاظ القرآن المتلوة دلالة عليها فاستعمال فعل)نتلو(مجاز عقلي لأن المتلو ما يدل عليها.
ويجوز أن تكون الإشارة إلى حاضر في الذهن غير مذكور لما دل عليه قوله)الكتاب(أي تلك آيات الله المنزلة في القرآن، فيكون استعمال فعل)نتلوها(في حقيقته.
وإسناد التلاوة إلى الله مجاز عقلي أيضا لأن الله موجد القرآن المتلو الدال على تلك الآيات.

صفحة : 3973

وقوله)فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون(، و)بعد(هنا بمعنى) دون(. فالمعنى: فبأي حديث دون الله وآياته، وتقدم قوله تعالى)ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده(في سورة الشورى، وفي الأعراف)فبأي حديث بعده يؤمنون(. والاستفهام في قوله)فبأي حديث(مستعمل في التأييس والتعجيب كقول الأعشى:
فمن أي ما تأتي الحوادث أفرق وإضافة)بعد(إلى اسم الجلالة على تقدير مضاف دل عليه ما تقدم من قوله)فبأي حديث(، والتقدير: بعد حديث الله، أي بعد سماعه، كقول النابغة:
وقد خفت حتى ما تزيد مخافتـي
على وعل في ذي المطارة عاقل أي على مخافة وعل.
واسم)بعد(مستعمل في حقيقته.
والمراد بالحديث: الكلام، يعني القرآن كقوله)الله نزل أحسن الحديث(وكما وقع إضافة حديث إلى ضمير القرآن في قوله في

الأعراف)فبأي حديث بعده يؤمنون(وفي آخر المرسلات)فبأي حديث بعده يؤمنون(.
وعطف و)آياته(على)حديث(لأن المراد بها الآيات غير القرآن من دلائل السماوات والأرض مما تقدم في قوله)إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين(.
وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر وروح عن يعقوب)يؤمنون(بالتحتية. وقرأه أبو عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ورويس عن يعقوب بالتاء الفوقية فهو التفات.
)ويل لكل أفاك أثيم[7] يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم[8] وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزؤا(أعقب ذكر المؤمنين الموقنين العاقلين المنتفعين بدلالة آيات الله وما يفيده مفهوم تلك الصفات التي أجريت عليهم من تعريض بالذين لم ينتفعوا بها، بصريح ذكر أولئك الذين لم يؤمنوا ولم يعقلوها كما وصف لذلك قوله)فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون(.
وافتتح ذكره بالويل له تعجيلا لإنذاره وتهديده قبل ذكر حاله. و)ويل له(كلمة دعاء بالشكر وأصل الويل الشر وحلوله.
و)الأفاك(القوي الإفك، أي الكذب.
والأثيم مبالغة أو صفة مشبهة وهو يدل على المبالغ في اقتراف الآثام، أي الخطايا. وفسره الفيروز آبادي في القاموس بالكذاب وهو تسامح وإنما الكذب جزئي من جزئيات الأثيم.
وجعلت حالته أنه يسمع آيات الله ثم يصر مستكبرا لأن تلك الحالة وهي حالة تكرر سماعه آيات الله وتكرر إصراره مستكبرا عنها تحمله على تكرير تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وتكرير الإثم، فلا جرم أن يكون أفاكا أثيما بله ما تلبس به من الشرك الذي كله كذب وإثم.
والمراد ب)كل أفاك أثيم(جميع المشركين الذين كذبوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وعاندوا في معجزة القرآن وقالوا) لن نؤمن بهذا القرءان ولا بالذي بين يديه(وبخاصة زعماء أهل الشرك وأيمة الكفر مثل النضر بن الحارث، وأبي جهل وقرنائهم.
و)آيات الله(أي القرآن فإنها المتلوة.
و)ثم(للتراخي الرتبي لأن ذلك الإصرار بعد سماع مثل تلك الآيات أعظم وأعجب، فهو يصر عند سماع آيات الله وليس إصراره متأخرا عن سماع الآيات.
والإصرار: ملازمة الشيء وعدم الانفكاك عنه، وحذف متعلق) يصر(لدلالة المقام عليه، أي يصرون على كفرهم كما دل على ذلك قوله)فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون(.

وشبه حالهم في عدم انتفاعهم بالآيات بحالهم في انتفاء سماع الآيات، وهذا التشبيه كناية عن وضوح دلالة آيات القرآن بحيث أن من يسمعها يصدق بما دلت عليه فلولا إصرارهم واستكبارهم لانتفعوا بها.

و)كأن(أصلها)كأن(المشددة فخففت فقدر اسمها وهو ضمير الشأن.وفرع على حالتهم هذه إنذارهم بالعذاب الأليم وأطلق على الإنذار اسم البشارة التي هي الأخبار بما يسر على طريقة التهكم.

والمراد بالعلم في قوله)وإذا علم من آياتنا شيئا(السمع، أي إذا ألقى سمعه إلى شيء من القرآن اتخذه هزؤا، أي لا يتلقى شيئا من القرآن إلا ليجعله ذريعة للهزء به، ففعل)علم(هنا متعد إلى واحد لأنه بمعنى عرف.

وضمير التأنيث في)اتخذها(عائد إلى)آياتنا(، أي اتخذ الآيات هزؤا لأنه يستهزئ بما علمه منها وبغيره، فهو إذا علم شيئا منها استهزئ بما علمه وبغيره.

صفحة : 3974

ومعنى اتخاذهم الآيات هزؤا: أنهم يلوكونها بأفواههم لوك المستهزئ بالكلام، وإلا فإن مطلق الاستهزاء بالآيات لا يتوقف على العلم بشيء منها. ومن الاستهزاء ببعض الآيات تحريفها على مواضعها وتحميلها غير المراد منها عمدا للاستهزاء، كقول أبي جهل لما سمع)إن شجرة الزقوم طعام الأثيم(تجاهل بإظهار أن الزقوم اسم لمجموع الزبد والتمر فقال زقمونا ، وقوله: لما سمع قوله تعالى)عليها تسعة عشر(: أنا ألقاهم وحدي.

)أولئك لهم عذاب مهين[9] من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم[10](جيء باسم الإشارة للتنبيه على أن ما ذكر من الأوصاف من قوله تعالى)لكل أفاك أثيم(إلى قوله)هزؤا(على أن المشار إليهم أحرياء به لأجل ما قبل اسم الإشارة من الأوصاف.

وجملة)من ورائهم(بيان لجملة)ولهم عذاب مهين(. وفي قوله) من ورائهم(تحقيق لحصول العذاب وكونه قريبا منهم وأنهم غافلون عن اقترابه كغفلة المرء عن عدو يتبعه من ورائه ليأخذه فإذا نظر إلى أمامه حسب نفسه آمنا.

ففي الوراء استعارة تمثيلية للاقتراب والغفلة، ومنه قوله تعالى) وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا(، وقول لبيد:

أليس ورائي إن تراخت منـيتـي لزوم العصا? تحنى عليها الأصابع ومن فسر وراء بقدام، فما رعى حق الكلام.

وعطف جملة)ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا(على جملة)من ورائهم جهنم(لأن ذلك من جملة العذاب المهين فإن فقدان الفداء وفقدان الولي مما يزيد العذاب شدة ويكسب المعاقب إهانة.

ومعنى الإغناء في قوله)ولا يغني عنهم(الكفاية والنفع، أي لا ينفعهم.

وعدي بحرف)عن(لتضمينه معنى يدفع فكأنه عبر بفعلين لا يغنيهم وبالدفع عنهم، وتقدم في قوله)لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا(في سورة آل عمران.

و)ما كسبوا(: أموالهم.

و)شيئا(منصوب على المفعولية، أي شيئا من الإغناء لأن)شيئا(من أسماء الأجناس العالية فهو مفسر بما وقع قبله أو بعده، وتنكيره للتقليل، أي لا يدفع عنهم ولو قليلا من جهنم، أي عذابها.

)ولا ما اتخذوا(عطف على)ما كسبوا(وأعيد حرف النفي للتأكيد، و)أولياء(مفعول ثان ل)اتخذوا(. وحذف مفعوله الأول وهو ضميرهم لوقوعه في حيز الصلة فإن حذف مثله في الصلة كثير.

وأردف)عذاب مهين(بعطف)ولهم عذاب عظيم(لإفادة أن لهم عذابا غير ذلك وهو عذاب الدنيا بالقتل والأسر، فالعذاب الذي في قوله)ولهم عذاب عظيم(غير العذاب الذي في قوله)أولئك لهم عذاب مهين(.

)هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم[11](جملة)هذا هدى(استئناف ابتدائي انتقل به من وصف القرآن في ذاته بأنه منزل من الله وأنه من آيات الله إلى وصفه بأفضل صفاته بأنه هدى، فالإشارة بقوله)هذا(إلى القرآن الذي هو في حال النزول والتلاوة فهو كالشيء المشاهد، ولأنه قد سبق من أوصافه من قوله)تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم(وقوله)تلك آيات الله(إلى آخره ما صيره متميزا شخصا بحسن الإشارة إليه.

ووصف القرآن بأنه)هدى(من الوصف بالمصدر للمبالغة، أي: هاد للناس، فمن آمن فقد اهتدى ومن كفر به فله عذاب لأنه حرم نفسه من الهدى فكان في الضلال وارتبق في المفاسد والآثام.

فجملة)والذين كفروا(عطف على جملة)هذا هدى(والمناسبة أن القرآن من جملة آيات الله وأنه مذكر بها، فالذين كفروا بآيات الله كفروا بالقرآن في عموم الآيات، وهذا واقع موقع التذييل لما تقدمه ابتداء من قوله)ويل لكل أفاك أثيم(.

وجيء بالموصول وصلته لما تشعر به الصلة من أنهم حقيقون بالعقاب.
واستحضروا في هذا المقام بعنوان الكفر دون عنواني الإصرار والاستكبار اللذين استحضروا بهما في قوله)ثم يصر مستكبرا(لأن الغرض هنا النعي عليهم إهمالهم الانتفاع بالقرآن وهو النعمة العظمى التي جاءتهم من الله فقابلوها بالكفران عوضا عن الشكر، كما جاء في قوله تعالى)وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون(.
والرجز: أشد العذاب، قال تعالى)فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون(.

صفحة : 3975

ويجوز أن يكون حرف)من(للبيان فالعذاب هو الرجز ويجوز أن يكون للتبعيض، أي عذاب مما يسمى بالرجز وهو أشده.
و)أليم(يجوز أن يكون وصفا ل)عذاب(فيكون مرفوعا وكذلك قرأه الجمهور. ويجوز أن يكون وصفا ل)رجز(فيكون مجرورا كما قرأه ابن كثير وحفص عن عاصم.
)الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون[12](استئناف ابتدائي للانتقال من التذكير بما خلق الله من العوالم وتصاريف أحوالها من حيث إنها دلالات على الوحدانية، إلى التذكير بما سخر الله للناس من المخلوقات وتصاريفها من حيث كانت منافع الناس تقتضي أن يشكروا مقدرها فجحدوا بها إذ توجهوا بالعبادة إلى غير المنعم عليهم، ولذلك علق بفعلي)سخر(في الموضعين مجرور بلام العلة بقوله)لكم(؛ على أن هذه التصاريف آيات أيضا مثل اختلاف الليل والنهار، وما انزل الله من السماء من ماء، وتصريف الرياح، ولكن لوحظ هنا ما فيها من النعم كما لوحظ هنالك ما فيها من الدلالة، والفطن يستخلص من المقامين كلا الأمرين على ما يشبه الاحتباك. ومناسبة هذا الانتقال واضحة.
واسم الجلالة مسند إليه والموصول مسند، وتعريف الجزأين مفيد الحصر وهو قصر قلب بتنزيل المشركين منزلة من يحسب أن تسخير البحر وتسخير ما في السماوات والأرض إنعام من شركائهم كقوله تعالى)هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء(، فكان هذا القصر إبطالا لهذا الزعم الذي اقتضاه هذا التنزيل.
وقوله)لتجري الفلك فيه(بدل اشتمال من)لكم(لأن في قوله) لكم(إجمالا أريد تفصيله.

فتعريف)الفلك(تعريف الجنس، وليس جري الفلك في البحر بنعمة على الناس إلا باعتبار أنهما يجرونهما للسفر في البحر فلا حاجة إلى جعل الألف واللام عوضا عن المضاف إليه من باب)فإن الجنة هي المأوى(.

وعطف عليه)ولتبتغوا من فضله(باعتبار ما فيه من عموم الاشتمال، فحصل من مجموع ذلك أن تسخير البحر لجري الفلك فيه للسفر لقضاء مختلف الحاجات حتى التنزه وزيارة الأهل.

وعطف)ولعلكم تشكرون(على قوله)لتجري الفلك فيه(لا باعتبار ما اشتمل عليه إجمالا، بل باعتبار لفظه في التعليق بفعله. وهذا مناط سوق هذا الكلام، أي لعلكم تشكرون فكفرتم، وتقدم نظير مفردات هذه الآية غير مرة ما أغنى عن أعادته.

)وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه(هذا تعميم بعد تخصيص اقتضاه الاهتمام أولا ثم التعميم ثانيا. و)ما في السماوات وما في الأرض(عام مخصوص بما تحصل للناس فائدة من وجوده: كالشمس للضياء، والمطر للشراب، أو من بعض أحواله: كالكواكب للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، والشجر للاستظلال، والأنعام للركوب والحرث ونحو ذلك. وأما ما في السماوات والأرض مما لا يفيد الناس فغير مراد مثل الملائكة في السماء والأهوية المنحبسة في باطن الأرض التي يأتي منها الزلزال.

وانتصب)جميعا(على الحال من)ما في السماوات وما في الأرض(. وتنوينه تنوين عوض عن المضاف إليه، أي جميع ذلك مثل تنوين)كل(في قوله)كلا هدينا(.

و)من(ابتدائية، أي جميع ذلك من عند الله ليس لغيره فيه أدنى شركة. وموقع قوله)منه(موقع الحال من المضاف إليه المحذوف المعوض عنه التنوين أو من ضمير)جميعا(لأنه في معنى مجموعا.

)إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون[13](أي في ذلك المذكور من تسخير البحر وتسخير ما في السماوات والأرض دلائل على تفرد الله بالإلهية فهي وإن كانت مننا يحق أن يشكرها الناس فأنها أيضا دلائل إذا تفكر فيها المنعم عليهم اهتدوا بها، فحصلت لهم منها ملائمات جسمانية ومعارف نفسانية، وبهذا الاعتبار كانت في عداد الآيات المذكورة قبلها من قوله)إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين(، وإنما أخرت عنها لأنها ذكرت في معرض الامتنان بأنها نعم، ثم عقبت بالتنبيه على أنها أيضا دلائل على تفرد الله بالخلق.

وأوثر التفكر بالذكر في آخر صفات المستدلين بالآيات، لأن الفكر هو منبع الإيمان والإيقان والعلم المتقدمة في قوله)لآيات للمؤمنين( )آيات لقوم يؤمنون( )آيات لقوم يعقلون(.

)قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون[14] من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون[15](إن كانت هذه متصلة بالآي التي قبلها في النزول ولم يصح ما روي عن ابن عباس في سبب نزولها فمناسبة وقعها هنا أن قوله)ويل لكل أفاك أثيم(إلى قوله)لهم عذاب من رجز أليم(يثير غضب المسلمين على المستهزئين بالقرآن.

وقد أخذ المسلمون يعتزون بكثرتهم فكان ما ذكر من استهزاء المشركين بالقرآن واستكبارهم عن سماعه يتوقع منه أن يبطش بعض المسلمين ببعض المشركين، ويحتمل أن يكون بدر من بعض المسلمين غضب أو توعد وان الله علم ذلك من بعضهم.

قال القرطبي والسدي: نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة أصابهم أذى شديد من المشركين فشكوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأمرهم الله بالتجاوز عن ذلك لمصلحة في استبقاء الهدوء بمكة والمتاركة بين المسلمين والمشركين ففي ذلك مصالح جمة من شيوع القرآن بين أهل مكة وبين القبائل النازلين حولها فإن شيوعه لا يخلو من أن يأخذ بمجامع قلوبهم بالرغم على ما يبدونه من إعراض واستكبار واستهزاء فتتهيأ نفوسهم إلى الدخول في الدين عند زوال ممانعة سادتهم بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبعد استئصال صناديد قريش يوم بدر. وقد تكرر في القرآن مثل هذا من الأمر بالصفح عن المشركين والعفو عنهم والإعراض عن أذاهم، ولكن كان أكثر الآيات أمرا للنبي صلى الله عليه وسلم في نفسه وكانت هذه أمرا له بأن يبلغ للمؤمنين ذلك، وذلك يشعر بأن الآية نزلت في وقت كان المسلمون قد كثروا فيه وأحسوا بعزتهم. فأمروا بالعفو وأن يكلوا أمر نصرهم إلى الله تعالى، وإن كانت نزلت على سبب خاص عرض في أثناء نزول السورة فمناسبتها لأغراض السورة واضحة لأنها تعليم لما يصلح به مقام المسلمين بمكة بين المضادين لهم واحتمال ما يلاقونه من صلفهم وتجبرهم إلى أن يقضي الله بينهم.

وقد روي في سبب نزولها أخبار متفاوتة الضعف، فروى مكي ابن أبي طالب أن رجلا من المشركين شتم عمر بن الخطاب فهم أن يبطش به قال ابن العربي وهذا لم يصح . وفي الكشاف أن عمر شتمه رجل من غفار فهم أن يبطش به فنزلت. وعن سعيد بن

المسيب كنا بين يدي عمر بن الخطاب فقرأ قارئ هذه الآية فقال عمر: ليجزي عمر بما صنع يعني أنه سبب نزول الآية .
وروى الواحدي والقشيري عن ابن عباس: أنها نزلت في غزوة بني المصطلق: نزلوا على بئر يقال لها: المريسع فأرسل عبد الله بن أبي غلامه ليستقي من البئر فأبطأ، فلما أتاه قال: ما حسبك. قال غلام عمر: قعد على فم البئر فما ترك أحدا يسقي حتى ملأ قرب المنبي صلى الله عليه وسلم وقرب أبي بكر وملأ لمولاه، فقال عبد الله بن أبي: ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك فهم عمر بن الخطاب بقتله، فنزلت.
وروى بن مهران عن ابن عباس لما نزل قوله تعالى)من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا(الآية قال فنحاص اليهودي: احتاج رب محمد، فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه فنزلت الآية، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه فلما جاء قال: ضع سيفك. وهاتان روايتان ضعيفتان ومن أجلهما روي عن عطاء وقتادة وابن عباس أن هذه الآية مدنية.
وأقرب هذه الأخبار ما قاله مكي بن أبي طالب. ولو صحت ما كان فيه ما يفكك انتظام الآيات سواء صادف نزولها تلك الحادثة أو أمر الله بوضعها في هذا الموضع.
وجزم)يغفروا(على تقدير لام الأمر محذوفا، أي قل لهم ليغفروا، أو هو مجزوم في جواب)قل(، والمقول محذوف دل عليه الجواب. والتقدير: قل للذين آمنوا اغفروا يغفروا. وهذا ثقة بالمؤمنين أنهم إذا قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم امتثلوا. والوجهان يتأتيان في مثل هذا التركيب كلما وقع في الكلام، وقد تقدم عند قوله تعالى) قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة(في سورة إبراهيم.
والذين لا يرجون أيام الله يراد بهم المشركون من أهل مكة.
والرجاء: ترقب وتطلب الأمر المحبوب، وهذا أشهر اطلاقاته وهو الظاهر في هذه الآية.

والأيام: جمع يوم، وهذا الجمع أو مفرده إذا أضيف إلى اسم أحد أو قوم أو قبيلة كان المراد به اليوم الذي حصل فيه لمن أضيف هو إليه نصر وغلب على معاند أو مقاتل، ومنه أطلق على أيام القتال المشهورة بين قبائل العرب: أيام العرب، أي التي كان فيها قتال بين قبائل منهم فانتصر بعضهم على بعض، كما يقال أيام عبس، وأيام داحس والغبراء، وأيام البسوس، قال عمرو بن كلثوم:

وأيام لـنـا غـر طـوال عصينا الملك فيها إن ندينا فإذا قالوا: أيام يني فلان، أرادوا الأيام التي انتصر فيها من أضيفت الأيام إلى اسمه، ويقولون: أيام بني فلان على بني فلان فيريدون أن المجرور بحرف الاستعلاء مغلوب لتضمن لفظ) أيام(أو)يوم(معنى الانتصار والغلب. وبذلك التضمن كان المجرور متعلقا بلفظ)أيام(أو)يوم(وإن كان جامدا، فمعنى)أيام الله(على هذا هو من قبيل قولهم: أيام بني فلان، فيحصل من محمل الرجاء على ظاهر استعماله.

ومحمل)أيام الله(على محمل أمثاله أن معنى الآية للذين لا تترقب نفوسهم أيام نصر الله، أي نصر الله لهم: إما لأنهم لا يتوكلون على الله ولا يستنصرونه بل توجههم إلى الأصنام، وإما لأنهم لا يخطر ببالهم إلا أنهم منصورون بحولهم وقوتهم فلا يخطر ببالهم سؤال نصر الله أو رجاؤه وهم معروفون بهذه الصلة بين المسلمين فلذلك أجريت عليهم هنا وعرفوا بها.

وأوثر تعريفهم بهذه الصلة ليكون في ذلك تعريض بأن الله ينصر الذين يرجون أيام نصره وهم المؤمنون. والغرض من هذا التعريض الإيماء بالموصول إلى وجه أمر المؤمنين أن يغفروا للمشركين ويصفحوا عن أذى المشركين ولا يتكلفوا الانتصار لأنفسهم لأن الله ضمن لهم النصر.

وقد يطلق)أيام الله(في القرآن على الأيام التي حصل فيها فضله ونعمته على قوم، وهو أحد تفسيرين لقوله تعالى)وذكرهم بأيام الله(.

ومعنى)لا يرجون أيام الله(على هذا التأويل أنهم في شغل عن ترقب نعم الله بما هم فيه من إسناد فعل الخير إلى أصنامهم بانكبابهم على عبادة الأصنام دون عبادة الله ويأتي في هذا الوجه من التعريض والتحريض مثل ما ذكر في الوجه الأول لأن المؤمنين هم الذين يرجون نعمة الله. وفسر به قوله تعالى)وقال الذين لا يرجون لقاءنا(وقوله)ما لكم لا ترجون لله وقارا(، فيكون المراد ب)أيام الله(: أيام جزائه في الآخرة لأنها أيام ظهور حكمه وعزته فهي تقارب الأيام بالمعنى الأول، ومنه قوله تعالى)ذلك اليوم الحق(، أي ذلك يوم النصر الذي يحق أن يطلق عليه)يوم(فيكون معنى هذه الآية: أنهم لا يخافون تمكن الله من عقابهم لأنهم لا يؤمنون بالبعث.

ومعنى الآية أن المؤمنين أمروا بالعفو عن أذى المشركين وقد تكرر ذلك في القرآن قال تعالى)ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور(. وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد في

هذه الآية)وكان التبيء صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى(.
وقوله)ليجزي قوما بما كانوا يكسبون(تعليل للأمر المستفاد من قوله)يغفروا(أي ليغفروا ويصفحوا عن أذى المشركين فلا ينتصروا لأنفسهم ليجزيهم الله على إيمانهم وعلى ما أوذوا في سبيله فإن الانتصار للنفس توفية للحق وماذا عساهم يبلغون من شفاء أنفسهم بالتصدي للانتقام من المشركين على قلتهم وكثرة أولئك فإذا توكلوا على نصر ربهم كان نصره لهم أتم وأخضد لشوكة المشركين كما قال نوح)أني مغلوب فانتصر(وهذا من معنى قوله تعالى)وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل(. وكان مقتضى الظاهر أن يقال ليجزيهم بما كانوا يكسبون. فعدل إلى الإظهار في مقام الإضمار ليكون لفظ)قوما(مشعرا بأنهم ليسوا بمضيعة عند الله فإن لفظ)قوم(مشعر بفريق له قوامه وعزته)ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا(.
وتنكير)قوما(للتعظيم، فكأنه قيل: ليجزي أيما قوم، أي قوما مخصوصين. وهذا مدح لهم وثناء عليهم. ونحوه ما ذكر الطيبي عن ابن جني عن أبي علي الفارسي في قوله الشاعر:
أفآت بنو مروان ظلما دماءنـا وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل

صفحة : 3978

قال: أبو علي: هو تعالى أعرف المعارف وسماه الشاعر: حكما عدلا وأخرج اللفظ مخرج التنكير، ألا ترى كيف آل الكلام من لفظ التنكير إلى معنى التعريف ا ه. والأظهر أن)قوما(مراد به الإبهام وتنوينه للتنكير فقط.
والمعنى: ليجزي الله كل قوم بما كانوا يكسبون من خير أو شر بما يناسب كسبهم فيكون وعيدا للمشركين المعتدين على المؤمنين ووعدا للمؤمنين المأمورين بالصفح والتجاوز عن أذى المشركين، وهذا وجه عدم تعليق الجزاء بضمير الموقنين لأنه أريد العموم فليس ثمة إظهار في مقام الإضمار ويؤيد هذا قوله)من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها(. وهذا كالتفصيل للإجمال الذي في قوله)ليجزي قوما بما كانوا يكسبون(. ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف على سابقتها، وتقدم نظيره في سورة فصلت.
وقرأ الجمهور)ليجزي قوما(بتحتية في أوله، والضمير المستتر عائد إلى اسم الجلالة في قوله)أيام الله(. وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف بنون العظمة في أوله على الالتفات. وقرأه أبو

جعفر بتحية في أوله مضمومة وبفتح الزاي على البناء للجمهول ونصب)قوما(. وتأويلها أن نائب الفاعل مصدر مأخوذ من فعل) يجزي(. والتقدير: ليجزي الجزاء. و)قوما(مفعول ثان لفعل)يجزى(من باب كسا وأعطى. وليس هذا من إنابة المصدر الذي هو مفعول مطلق وقد منعه نحاة البصرة بل جعل المصدر مفعولا أول من باب أعطى وهو في المعنى مفعول ثان لفعل جزى، وإنابة المفعول الثاني في باب كسا وأعطى متفق على جوازه وإن كان الغالب إنابة المفعول الأول كقوله تعالى)ثم يجزاه الجزاء الوفي(.

وقوله)ثم إلى ربكم ترجعون(أي بعد الأعمال في الدنيا تصيرون إلى حكم الله تعالى فيجازيكم على أعمالكم الصالحة والسيئة بما يناسب أعمالكم.

وأطلق على المصير إلى حكم الله أنه رجوع إلى الله على طريقة التمثيل بحال من كان بعيدا عن سيده أو أميره فعمل ما شاء ثم رجع إلى سيده أو أميره فإنه يلاقي جزاء ما عمله، وقد تقدمت نظائره.

)ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين[16] وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون[17](الوجه أن يكون سوق خبر بني إسرائيل هنا توطئة وتمهيدا لقوله بعده)ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها(أثار ذلك ما تقدم من قوله)ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه(إلى قوله)اتخذها هزؤا(ثم قوله)قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله(فكان المقصد قوله) ثم جعلناك على شريعة من الأمر(ولذلك عطفت الجملة بحرف)ثم(الدال على التراخي الرتبي، أي على أهمية ما عطف بها.

ومقتضى ظاهر النظم أن يقع قوله)ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب(الآيتين بعد قوله)جعلناك على شريعة من الأمر(فيكون دليلا وحجة له فأخرج النظم على خلاف مقتضى الظاهر فجعلت الحجة تمهيدا قصدا للتشويق لما بعده، وليقع ما بعده معطوفا ب)ثم(الدالة على أهمية ما بعدها.

وقد عرف من تورك المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم في شأن القرآن ما حكاه الله عنهم في قوله)فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى(وقولهم)لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة(، فمن أجل ذلك وقع هذا بعد قوله)ويل لكل أفاك أثيم(إلى قوله)وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزؤا(وقوله)قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله(، فالجملة معطوفة على تلك الجمل.

وأدمج في خلالها ما اختلف فيه بنو إسرائيل على ما دعتهم إليه شريعتهم، لما فيه من تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على مخالفة قومه دعوته تنظيرا في أصل الاختلاف دون أسبابه وعوارضه.
ولما كان في الكلام ما القصد منه التسلية والاعتبار بأحوال الأمم حسن تأكيد الخبر بلام القسم وحرف التحقيق، فمصب هذا التحقيق هو التفريع الذي في قوله)فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم(تأكيدا للمؤمنين بأن الله يقضي بينهم وبين المشركين كشأنه فيما حدث بين بني إسرائيل.

صفحة : 3979

وقد بسط في ذكر النظير من بني إسرائيل من وصف حالهم حينما حدث الاختلاف بينهم، ومن التصريح بالداعي للاختلاف بينهم ما طوي من مثل بعضه من حال المشركين حين جاءهم الإسلام فاختلفوا مع أهله إيجازا في الكلام للاعتماد على ما يفهمه السامعون بطريق المقايسة على أن أكثره قد وقع تفصيله في الآيات السابقة مثل قوله)تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق(وقوله هذا)هدى(، فإن ذلك يقابل قوله هنا)ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة(ومثل قوله)وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض(فإنه يقابل قوله هنا)ورزقناهم من الطيبات(، ومثل قوله)يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا(إلى)لهم عذاب مهين(فإنه يقابل قوله هنا)وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم(، ومثل قوله)ليجزي قوما بما كانوا يكسبون(فإنه مقابل قوله هنا)إن ربك يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون(.
والكتاب: التوراة.
والحكم يصح أن يكون بمعنى الحكمة، أي الفهم في الدين وعلم محاسن الأخلاق كقوله تعالى)وآتيناه الحكم صبيا(، يعني يحيى، ويصح أن يكون بمعنى السيادة، أي أنهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم ولا تحكمهم أمة أخرى كقوله تعالى)وجعلكم ملوكا(، والنبوة أن يقوم فيهم أنبياء.
ومعنى إيتائهم هذه الأمور الثلاثة: إيجادها في الأمة وإيجاد القائمين بها لأن نفع ذلك عائد على الأمة جمعاء فكان كل فرد من الأمة كمن أوتي تلك الأمور.

وأما رزقهم من الطيبات فبأن يسر لهم امتلاك بلاد الشام التي تفيض لبنا وعسلا كما في التوراة في وعد إبراهيم والتي تجبى إليها ثمرات الأرضين المجاورة لها وترد عليها سلع الأمم المقابلة لها على سواحل البحر فتزخر مراسيها بمختلف الطعام واللباس والفواكه والثمار والزخارف، وذلك بحسن موقع البلاد من بين المشرق برا والمغرب بحرا. والطيبات: هي التي تطيب عند الناس وتحسن طعما ومنظرا ونفعا وزينة.

وأما تفضيلهم على العالمين فبأن جمع الله لهم بين استقامة الدين والخلق، وبين حكم أنفسهم بأنفسهم، وبث أصول العدل فيهم، وبين حسن العيش والأمن والرخاء، فإن أمما أخرى كانوا في بحبوحة من العيش ولكن ينقص بعضها استقامة الدين والخلق، وبعضها عزة حكم النفس وبعضها الأمن بسبب كثرة الفتن.

والمراد ب)العالمين(: أمم زمانهم وكل ذلك إخبار عما مضى من شأن بني إسرائيل في عنفوان أمرهم لا عما آل إليه أمرهم بعد أن اختلفوا واضمحل ملكهم ونسخت شريعتهم.

و)بينات(صفة نزلت منزلة الجامد، فالبينة: الحجة الظاهرة، أي آتيناهم حججا، أي علمناهم بواسطة كتبهم وبواسطة علمائهم حجج الحق والهدى التي من شأنها أن لا تترك للشك والخطأ إلى نفوسهم سبلا إلا سدتها.

والأمر: الشأن كما في قوله)وما أمر فرعون برشيد(والتعريف في)الأمر(للتعظيم، أي من شؤون عظيمة، أي شأن الأمة وما به قوام نظامها إذ لم يترك موسى والأنبياء من بعده شيئا مهما من مصالحهم إلا وقد وضحوه وبينوه وحذروا من الالتباس فيه.

و)من(في قوله)من الأمر(بمعنى)في(الظرفية فيحصل من هذا أن معنى)وآتيناهم بينات(من الأمر: علمناهم حججا وعلوما في أمر دينهم ونظامهم بحيث يكونون على بصيرة في تدبير مجتمعهم وعلى سلامة من مخاطر الخطأ والخطل.

وفرع على ذلك قوله)فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم(تفريع إدماج لمناسبته للحالة التي أريد تنظيرها. وتقدير الكلام: فاختلفوا وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم، فحذف المفرع لدلالة ما بعده عليه على طريقة الإيجاز إذ المقصود هو التعجيب من حالهم كيف اختلفوا حين لا مظنة للاختلاف إذ كان الاختلاف بينهم بعدما جاءهم العلم المعهود بالذكر آنفا من الكتاب والحكم والنبوة والبينات من الأمر، ولو اختلفوا قبل ذلك لكان لهم عذر في الاختلاف وهذا كقوله تعالى)وأضله الله على علم(.

وهذا الكلام كناية عن عدم التعجيب من اختلاف المشركين مع المؤمنين حيث أن المشركين ليسوا على علم ولا هدى ليعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ملطوف به في رسالته.

صفحة : 3980

والبغي: الظلم. والمراد: أن اختلافهم عن عمد ومكابرة بعضهم لبعض وليس عن غفلة أو تأويل، وهذا الظلم هو ظلم الحسد فإن الحسد من أعظم الظلم، أي فكذلك حال نظرائهم من المشركين ما اختلفوا على النبي صلى الله عليه وسلم إلا بغيا منهم عليه مع علمهم بصدقه بدلالة إعجاز القرآن لفظا ومعاني.
وانتصب)بغيا(أما على المفعول لأجله، وإما على الحال بتأويل المصدر باسم الفاعل، وعلى كلا الوجهين فالعامل فيه فعل) اختلفوا(، وإن كان منفيا في اللفظ لأن الاستثناء أبطل النفي إذ ما أريد إلا نفي أن يكون الاختلاف في وقت قبل أن يحثهم العلم فلما استفيد ذلك بالاستثناء صار الاختلاف ثابتا وما عدا ذلك غير منفي.
وجملة)إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون(مستأنفة استئنافا بيانيا لأن خبرهم العجيب يثير سؤالا في نفس سامعه عن جزاء الله إياهم على فعلهم، وهذا جواب فيه إجمال لتهويل ما سيقضى به بينهم في الخير والشر لأن الخلاف يقتضي محقا ومبطلا.
ونظير هذه الآية قوله تعالى)ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون(في سورة يونس.
)ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون[18] إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين[19]( )ثم(للتراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل، ولولا إرادة التراخي الرتبي لكانت الجملة معطوفة بالواو. وهذا التراخي يفيد أن مضمون الجملة المعطوفة بحرف)ثم(أهم من مضمون الجملة المعطوف عليها أهمية الغرض على المقدمة والنتيجة على الدليل.
وفي هذا التراخي تنويه بهذا الجعل وإشارة إلى أنه أفضل من إيتاء بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة والبينات من الأمر، فنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه وحكمه وبيناته أفضل وأهدى مما أوتيه بنو إسرائيل من مثل ذلك.

و)على(للاستعلاء المجازي، أي التمكن والثبات على حد قوله تعالى)أولئك على هدى من ربهم(.
وتنوين)شريعة(للتعظيم بقرينة حرف التراخي الرتبي.
والشريعة: الدين والملة المتبعة، مشتقة من الشرع وهو: جعل طريق للسير، وسمي النهج شرعا تسمية بالمصدر. وسميت شريعة الماء الذي يرده الناس شريعة لذلك، قال الراغب: استعير اسم الشريعة للطريقة الإلهية تشبيها بشريعة الماء قلت: ووجه الشبه ما في الماء من المنافع وهي الري والتطهير.
والأمر: الشأن، وهو شأن الدين وهو شأن من شؤون الله تعالى، قال تعالى)وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا(، فتكون) من(تبعيضية وليست كالتي في قوله آنفا)وآتيناهم بينات من الآمر(لأن إضافة)شريعة(إلى)الأمر(تمنع من ذلك.
وقد بلغت هذه الجملة من الإيجاز مبلغا عظيما إذ أفادت أن شريعة الإسلام أفضل من شريعة موسى، وأنها شريعة عظيمة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم متمكن منها لا يزعزعه شيء عن الدأب في بيانها والدعوة إليها.
ولذلك فرع عليه أمره باتباعها بقوله)فاتبعها(أي دم على اتباعها، فالأمر لطلب الدوام مثل)يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله(.
وبين قوله)فاتبعها(وقوله)ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون(محسن المطابقة بين الأمر بالاتباع والنهي عن اتباع آخر.
و)الذين لا يعلمون(هم المشركون وأهواؤهم دين الشرك قال تعالى)أفرأيت من اتخذ إلهه هواه(.
والأهواء: جمع هوى، وهو المحبة والميل. والمعنى: أن دينهم أعمال أحبوها لم يأمر الله بها ولا اقتضتها البراهين.
والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. والمقصود منه: إسماع المشركين لئلا يطمعوا بصانعة الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم حين يرون منه الإغضاء عن هفواتهم وأذاهم وحين يسمعون في القرآن بالصفح عنهم كما في الآية السالفة)قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله(.
وفيه أيضا تعريض للمسلمين بأن يحذروا من أهواء الذين لا يعلمون. وعن ابن عباس أنها نزلت لما دعته قريش إلى دين آبائه قال البغوي: كانوا يقولون له: ارجع إلى دين آبائك فإنهم أفضل منك.

وجملة)إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا(تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، ويتضمن تعليل الأمر باتباع شريعة الله فإن كونهم لا يغنون عنه من الله شيئا يستلزم أن في مخالفة ما أمر الله من اتباع شريعته ما يوقع في غضب الله وعقابه فلا يغني عنه اتباع أهوائهم من عقابه.

والإغناء: جعل الغير غنيا، أي غير محتاج، فالآثم المهدد من قدير غير غني عنه الذي يعاقبه ولو حماه من هو كفء لمهدده أو أقدر منه لأغناه عنه وضمن فعل الإغناء معنى الدفع فعدي ب)عن(.

وانتصب)شيئا(على المفعول المطلقن و)من الله(صفة ل)شيئا(.

و)من(بمعنى بدل، أي لن يغنوا عنك بدلا من عذاب الله، أي قليلا من الإغناء البديل من عقاب الله فالكلام على حذف مضاف، وتقدم عند قوله تعالى)إن الذين كفروا لن نغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا(في آل عمران.

وعطف على هذا التعليل تعليل آخر وهو)وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض(أي إنهم ظالمون وأنت لست من الظالمين في شيء فلا يجوز أن تتبعهم في شيء وإنما يتبعهم من هم أولياؤهم. وذيل ذلك بقوله)والله ولي المتقين(وهو يفيد أن التبيء صلى الله عليه وسلم الله وليه لأن النبي صلى الله عليه وسلم أول المتقين.

)هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون[20](إن كانت الإشارة إلى الكلام المتقدم وما فيه من ضرب المثل بموسى وقومه ومن تفضيل شريعة محمد على شريعة موسى عليهما الصلاة والسلام والأمر بملازمة اتباعها والتحذير من اتباع رغائب الذين لا يعلمون، فهذه الجملة بمنزلة التذييل لما قبلها والتهيئة لأغراضها تنبيها لما في طيها من عواصم عن الشك والباطل بمنزلة قوله تعالى بعد عدة آيات في آخر سورة الأحقاف)بلاغ(، وقوله في سورة الأنبياء)ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين(.

وإن كانت الإشارة إلى القرآن إذ هو حاضر في الأذهان كانت الجملة استئنافا أعيد بها التنويه بشأن القرآن ومتبعيه والتعريض بتحميق الذين أعرضوا عنه، وتكون مفيدة تأكيد قوله آنفا)هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم(، وتكون الجملة المتقدمة صريحة في وعيد الذين كفروا بآياته وهذه تعريضا بأنهم لم يحظوا بهذه البصائر، وكلا الاحتمالين رشيق، وكل بأن يكون مقصودا حقيق.

و)بصائر(: جمع بصيرة وهي إدراك العقل الأمور على حقائقها، شبهت ببصر العين، وفرق بينهما بصيغة فعلية للمبالغة قال تعالى) أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني(في سورة يوسف. وقال

)قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر(في سورة الإسراء وقوله)ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس(في سورة القصص.
ووصف الآيات السابقة أو القرآن بالبصائر مجاز عقلي لأن ذلك سبب البصائر. وجمع البصائر: إن كانت الإشارة إلى القرآن باعتبار المتبصرين بسببه كما اقتضاه قوله)للناس(لأن لكل أحد بصيرته الخاصة فهي أمر جزئي بالتبع لكون صاحب كل بصيرة جزئيا مشخصا فناسب أن تورد جمعا، فالبصيرة: الحاسة من الحواس الباطنة، وهذا بخلاف إفراد)هدى ورحمة(لأن الهدى والرحمة معنيان كليان يصلحان للعدد الكثير قال تعالى)هدى للناس(وقال)وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين(. وإنما كان هدى لأنه طريق نفع لمن اتبع إرشاده فاتباعه كالاهتداء للطريق الموصلة إلى المقصود. وإنما كان رحمة لأن في اتباع هديه نجاح الناس أفرادا وجماعات في الدنيا لأنه نظام مجتمعهم ومناط أمنهم، وفي الآخرة لأنه سبب نوالهم درجات النعيم الأبدي. وكان بصائر لأنه يبين للناس الخير والشر ويحرضهم على الخير ويحذرهم من الشر ويعدهم على فعل الخير ويوعدهم على فعل الشرور فعمله عمل البصيرة.
وجعل البصائر للناس لأنه بيان للناس عامة وجعل الهدى والرحمة لقوم يوقنون لأنه لا يهتدي ببيانه إلا الموقن بحقيقته ولا يرحم به إلا من اتبعه المؤمن بحقيته.
وذكر لفظ)قوم(للإيماء إلى أن الإيقان متمكن من نفوسهم كأنه من مقومات قوميتهم التي تميزهم عن أقوام آخرين.
والإيقان: العلم الذي لا يتردد فيه صاحبه. وحذف متعلقه لأنه معلوم بما جاءت به آيات الله.

صفحة : 3982

)أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون[21](انتقال من وصف تكذيبهم بالآيات واستهزائهم بها ثم من أمر المؤمنين بالصفح عنهم وإيكال جزاء صنائعهم إلى الله ثم من التثبيت على ملازمة الشريعة الإسلامية إلى وصف صنف آخر من ضلالهم واستهزائهم بالوعد والوعيد وإحالتهم الحياة بعد الموت والجزاء على الأعمال وتخييلهم للناس أنهم يصيرون في الآخرة، على الحال التي كانوا عليها في الدنيا، عظيمهم في الدنيا عظيمهم في الاخرة، وضعيفهم

في الدنيا ضعيفهم في الآخرة، وهذا الانتقال رجوع إلى بيان قوله) من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون(.
فحرف)أم(للإضراب الانتقالي، والاستفهام الذي يلزم تقديره بعد) أم(استفهام إنكاري، والتقدير: لا يحسب الذين اجترحوا السيئات أنهم كالذين آمنوا لا في الحياة ولا في الممات.
و)الذين اجترحوا السيئات(في نقل عن ابن عباس: أنهم المشركون كما يؤذن به الانتقال من الغرض السابق إلى هذا الغرض وإنما عبر عنهم بهذا العنوان لما في الصلة من تعليل إنكار المشابهة والمساواة بينهم وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند الله في عالم الخلد ولأن اكتساب السيئات من شعار أهل الشرك إذ ليس لهم دين وازع يزعهم عن السيئات ولا هم مؤمنون بالبعث والجزاء، فيكون إيمانهم به مرغبا في الجزاء، ولذلك كثر في القرآن الكناية عن المشركين بالتلبس بالسيئات كقوله)ويل للمطففين(إلى قوله) ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم(وكقوله)ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين(وقوله)أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين(ونظيره)أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون(، فإن ذلك حال الكفار، وأما المؤمن العاصي فلا تبلغ به حاله أن يحسب أنه مفلت من قدرة الله. قيل: نزلت في قوم من المشركين. قال البغوي: نزلت في نفر من مشركي مكة قالوا للمؤمنين: لئن كان ما تقولون حقا لنفضلن عليكم في الآخرة كما فضلنا عليكم في الدنيا.
وعن الكلبي: أن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة قالوا لعلي وحمزة وبعض المسلمين: والله ما أنتم على شيء ولئن كان ما تقولون حقا أي إن كان البعث حقا لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما أنا أفضل حالا منكم في الدنيا. وتأويل نزول هذه الآية على هذا السبب أن حدوث قول هؤلاء النفر صادف وقت نزول هذه الآيات من السورة أو أن قولهم هذا متكرر فناسب تعرض الآية له حقه.
ونزول الآية على هذا السبب لإبطال كلامهم في ظاهر حاله وإن كانوا لم يقولوه عن اعتقاد وإنما قالوه استهزاء، لئلا يروج كلامهم على دهمائهم والحديثين في الإسلام لأن شأن التصدي للإرشاد أن لا يغادر مغمزا لرواج الباطل إلا سده، كما في قوله تعالى)أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمان عهدا(وله نظائر في القرآن.

وزاد القرطبي في حكاية كلام الكلبي أنهم قالوه حين برزوا لهم يوم بدر، وهو لا يستقيم لأن السورة مكية ولم ينقل عن أحد استثناء هذه الآية منها.
والاجتراح: الاكتساب، وصيغة الافتعال فيه للمبالغة، وهو مشتق من الجرح فأطلق على اكتساب السباع ونحوها، ولذلك سميت كلاب الصيد جوارح وسمي به اكتساب الناس لأن غالب كسبهم في الجاهلية كان من الإغارة على إبل القوم وهي بالرماح، قالت أم رزع: فنكحت بعده رجلا سريا، ركب شريا، وأخذ خطبا وأراح علي نعما ثريا ، ولذلك غلب إطلاق الاجتراح على اكتساب الإثم والخبيث.

صفحة : 3983

وظاهر تركيب الآية أن قوله)سواء محياهم ومماتهم(داخل في الحسبان المنكور فيكون المعنى: إنكار أن يستوي المشركون مع المؤمنين لا في الحياة ولا بعد الممات، فكما خالف الله بين حاليهم في الحياة الدنيا فجعل فريقا كفرة مسيئين وفريقا مؤمنين محسنين، فكذلك سيخالف بين حاليهم في الممات فيموت المشركون على اليأس من رحمة الله إذ لا يوقنون بالبعث ويلاقون بعد الممات هول ما توعدهم الله به، ويموت المؤمنون رجاء رحمة الله والبشرى بما وعدوا به ويلاقون بعد الممات ثواب الله ورضوانه.
وقرأ الجمهور)سواء(مرفوعا فيكون موقع جملة)سواء محياهم(موقع البدل من كاف التشبيه التي هي بمعنى مثل على ما ذهب إليه صاحب الكشاف يريد أنه بدل مطابق لأن الجملة تبدل من المفرد على الأصح، والبدل المطابق هو عطف البيان عند التحقيق، فيكون جملة)سواء محياهم ومماتهم(بيان ما حسبه المشركون. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف منصوبا، فلفظ)سواء(وحده بدل من كاف المماثلة، بدل مفرد من مفرد أو حال من ضمير النصب في)نجعلهم(.
وهذا لأن المشركين قالوا للمسلمين: سنكون بعد الموت خيرا منكم كما كنا في الحياة خيرا منكم.
فضمير)محياهم(وضمير)مماتهم(عائدان لكل من الذين اجترحوا السيئات والذين أمنوا على التوزيع، أي محيا كل مساو لمماته، أي لا يتبدل حال الفريقين بعد الممات بل يكونون بعد الممات كما كانوا في الحياة غير أن موقع كاف التمثيل في قوله)كالذين آمنوا(ليس واضح الملاقاة لحسبان المشركين المسلط عليه الإنكار لأنهم

إنما حسبوا أن يكونوا بعد الممات على تقدير وقوع البعث أحسن حالا من المؤمنين لا أن يكونوا مثل المؤمنين لأنهم قالوا ذلك في مقام التطاول على المؤمنين، وإرادة إفحامهم بسفسطتهم. فبنا أن نبين موقع هذا الكاف في الآية.

والذي أرى: أن موقعه الإيماء إلى أن الله قدر للمؤمنين حسن الحال بعد الممات حتى صار ذلك المقدر مضرب الأمثال ومناط التشبيه، وإلى أن حسبان المشركين أنفسهم في الآخرة على حالة حسنة باطل، فعبر عن حسبانهم الباطل بأنهم أثبتوا لأنفسهم في الآخرة الحال التي هي حال المؤمنين، أي حسب المشركون بزعمهم أن يكونوا بعد الموت في حالة إذا أراد الواصف أن يصفها وصفها بمشابهة حال المؤمنين في عند الله وفي نفس الأمر، وليس المراد أن المشركين مثلوا حالهم بحال المؤمنين فيؤول قوله)كالذين آمنوا(إلى حكاية الكلام المحكي بعبارة تساويه لا بعبارة قائلة، وذلك مما يتوسع فيه في حكاية الأقوال كقوله تعالى حكاية عن عيسى) ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم(فإن ما أمره الله به: أن اعبدوا الله ربك وربهم، وذلك من خلاف مقتضى الظاهر دعا الله هنا قصد التنويه بالمؤمنين والعناية بزلفاهم عند الله، فكأنه قيل: احسبوا أن نجعلهم في حالة حسنة ولكن هذا المأمول في حسبانهم هو في نفس الأمر حال المؤمنين لا حالهم. فأوجز الكلام، وفهم السامع يبسطه.

والمواجه بهذا الكلام هم النبي والمؤمنون تكملة للغرض المبدأ به في قوله)قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله(.

على أن لك أن تجعل قوله تعالى)كالذين آمنوا(معترضا بين مفعولي)نجعل(وهما ضميرا الغائبين وجملة)سواء محياهم(أو ولفظ)سواء(في قراءة نصبه فلا يكون مرادا إدخاله في حسبان المشركين.

ويجوز على هذا أن يكون قوله)كالذين آمنوا(تهكما على المشركين في حسبانهم تأكيدا للإنكار عليهم.

ومن خلاف ظاهر التركيب ما قيل: إن مدلول)سواء محياهم ومماتهم(ليس من حسبان المشركين المنكور ولكنه كلام مستأنف، والمعنى: أنه لما أنكر حسبان استواء الكافرين والمؤمنين خطر ببال السامع أن يسأل كيف واقع حال الفريقين فأجيب بأن حال محياهم وهو مقياس حال مماتهم، أي حالهم في الآخرة مختلف كما هو في الدنيا مختلف، فالمؤمنون يحيون في الإقبال على ربهم ورجاء فضله، والكافرون يعيشون معرضين عن عبادة ربهم آيسين من البعث والجزاء. وهذا ليس عين الجواب ولكنه من الاكتفاء بعلة الجواب عن

ذكره. والتقدير: حال الفريقين مختلف في الآخرة كما كان مختلفا في الحياة.
وجملة)ساء ما يحكمون(تذييل لما قبلها من إنكار حسبانهم وما اتصل بذلك الإنكار من المعاني.

صفحة : 3984

واعلم أن هذه الآية وإن كان موردها في تخالف حالي المشركين والمؤمنين فإن نوط الحكم فيها بصلة)الذين اجترحوا السيئات(يجعل منها إيماء إلى تفاوت حالي المسيئين والمحسنين من أهل الإيمان وإن لم يحسب أحد من المؤمنين ذلك وعن تميم الداري أنه بات ليلة يقرأ هذه الآية ويركع ويسجد ويبكي إلى الصباح. وروي مثل ذلك عن الربيع بن خيثم وعن الفضيل بن عياض: أنه كان كثيرا ما يردد من أول الليل هذه الآية ثم يقول: ليت شعري من أي الفريقين أنت. يخاطب نفسه فكانت هذه الآية تسمى مبكاة العابدين.
والمحيا والممات: مصدران ميميان أو اسما زمان، أي حياتهم وموتهم، وهو على كلا الاعتبارين بتقدير مضاف، أي حالة محياهم وحالات مماتهم.
)وخلق الله السماوات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون[22](الجملة معترضة والواو اعتراضية وهو اعتراض بين الكلام المتقدم وبين ما فرع عليه من قوله)أفرأيت من اتخذ إلهه هواه(هو كالدليل على انتفاء أن يكون الذين اجترحوا السيئات الذين هم في بحبوحة عيش مدة حياتهم أن يكونوا في نعيم بعد مماتهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات مدة حياتهم فكان جزاؤهم النعيم بعد مماتهم، أي بعد حياتهم الثانية بأن خلق السماوات والأرض بالعدل يستدعي التفاوت بين المسيء والمحسن، والانتصاف للمعتدى عليه من المعتدي.
ووجه الاستدلال أن خلق السماوات والأرض تبين كونه في تمام الإتقان والنظام بحيث إن دلائل إرادة العدل في تصاريفها قائمة، وما أودعه الخالق في المخلوقات من القوى مناسب لتحصيل ذلك النظام الذي فيه صلاحهم فإذا استعملوها في الإفساد والإساءة كان من إتمام إقامة النظام أن يعاقبوا على تلك الإساءة والمشاهد أن المسيء كثير ما عكف على إساءته حتى الممات، فلو لم يكن الجزاء بعد الموت حصل اختلال في نظام خلق المخلوقات وخلق القوى الصادر عنها الإحسان والإساءة، وهذا المعنى تكرر في آيات

كثيرة وكلما ذكر شيء منه أتبع بذكر الجزاء، وقد تقدم في سورة آل عمران قوله)ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار(وقوله في سورة الدخان)وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين(.

والباء في قوله)بالحق(للسببية أو للملابسة، أي خلقا للسبب الحق أو ملابسا للحق لا يتخلف الحق عن حال من أحواله.

والحق: اسم جامع لما شأنه أن يحق ويثبت، ومن شأن الحكمة والحكيم أن يقيمه، ولذلك أشير بقوله)وخلق الله(فإن اسم الجلالة جامع لصفات الكمال وتصرفات الحكمة.

وعطف)ولتجزى كل نفس بما كسبت(على)بالحق(لأن المعطوف عليه المجرور بالياء فيه معنى التعليل، وهذا تفصيل بعد إجمال فإن الجزاء على الفعل بما يناسبه هو من الحق، ولأن تعليل الخلق بعلة الجزاء من تفصيل معنى الحق وآثار كون الحق سببا لخلق السماوات والأرض أو ملابسا لأحوال خلقهما، فظهرت المناسبة بين الباء في المعطوف عليه واللام في المعطوف.

والباء في)بما كسبت(للتعويض. وما كسبته النفس لا تجزى به بل تجازى بمثله وما يناسبه، فالكلام على حذف مضاف، أي بمثل ما كسبته. وهذه المماثلة مماثلة في النوع، وأما تقدير تلك المماثلة فذلك موكول إلى الله تعالى ومراعى فيه عظمة عالم الجزاء في الخير والشر ومقدار تمرد المسيء وامتثال المحسن، بخلاف الحدود والزواجر فإنها مقدرة بما يناسب عالم الدنيا من الضعف.

ولهذا أعقبه بقوله)ولا هم يظلمون(فضمير)وهم(عائد إلى)كل نفس(، فإن ذلك الجزاء مما اقتضاه العدل الذي جعل سببا أو ملابسا لخلق السماوات والأرض وما فيهما، فهو عدل، فليس من الظلم في شيء فالمجازى غير مظلوم، وبالجزاء أيضا ينتفي أثر ظلم الظالم عن المظلوم إذ لو ترك الجزاء لاستمر المظلوم مظلوما.

)أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون[23](

صفحة : 3985

لما كان الذين حسبوا أن يكونوا في الآخرة في نعمة وعزة كما كانوا في الدنيا قالوا ذلك عن غير دليل ولا نظر ولكن عن اتباع ما يشتهون لأنفسهم من دوام الحال الحسن تفرع على حسبانهم

التعجيب من حالهم، فعطف بالفاء الاستفهام المستعمل في التعجيب، وجعل استفهاما عن رؤية حالهم، للإشارة إلى بلوغ حالهم من الظهور إلى حد أن تكون مرئية.

وأصل التركيب:)أفرأيت من اتخذ إلهه هواه(الخ، فقدمت همزة الاستفهام، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمقصود من معه من المسلمين، أو الخطاب لغير معين، أي تناهت حالهم في الظهور فلا يختص بها مخاطب.

و)من(الموصولة صادقة على فريق المستهزئين الذين حسبوا أن يكون محياهم ومماتهم سواء بقرينة ضمير الجمع في الجملة المعطوفة بقوله)وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا(الخ.

والمعنى: أن حجاجهم المسلمين مركز على اتباع الهوى والمغالطة، فلا نهوض لحجتهم لا في النفس الأمر ولا فيما أرادوه، على فرض وقوع البعث من أن يكونوا آمنين من أهوال البعث، وأنهم لا يرجى لهم اهتداء لأن الله خلقهم غير قابلين للهدى فلا يستطيع غيره هداهم.

و)إلهه(يجوز أن يكون أطلق على ما يلازم طاعته حتى كأنه معبود فيكون هذا الإطلاق بطريقة التشبيه البليغ، أي اتخذ هواه كإله له لا يخالف له أمرا.

ويجوز أن يبقى)إلهه(على الحقيقة ويكون)هواه(بمعنى مهويه، أي عبد إلها لأنه يحب أن يعبده، يعني الذين اتخذوا الأصنام آلهة لا يقلعون عن عبادتهم لأنهم أحبوها، أي ألفوها وتعلقت قلوبهم بعبادتها، كقوله تعالى)وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم(.

ومعنى)أضله الله(أنه حفهم بأسباب الضلالة من عقول مكابرة ونفوس ضعيفة، اعتادت اتباع ما تشتهيه لا تستطيع حمل المصابرة والرضى بما فيه كراهية لها. فصارت أسماعهم كالمختوم عليها في عدم الانتفاع فالمواعظ والبراهين، وقلوبهم كالمختوم عليها في عدم نفوذ النصائح ودلائل الأدلة إليها، وأبصارهم كالمغطاة بغشاوات فلا تنتفع بمشاهدة المصنوعات الإلهية الدالة على انفراد الله بالإلهية وعلى أن بعد هذا العالم بعثا وجزاء.

ومعنى)على علم(أنهم أحاطت بهم أسباب الضلالة مع أنهم أهل علم، أي عقول سليمة أو مع أنهم بلغهم العلم بما يهديهم وذلك بالقرآن ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام.

فحرف)على(هنا معناه المصاحبة بمعنى)مع(وأصل هذا المعنى استعارة معنى الاستعلاء للاستعلاء المجازي وهو التمكن بين الوصف والموصوف. وشاع ذلك حتى صار معنى من معاني)على(كما في قول الحارث بن حلزة:

فيقينا على الشناءة تنمينا حصون

وعزة قعساء والمعنى: أنه ضال مع ما له من صفة العلم، فالعلم هنا من وصف من اتخذ إلهه هواه وهو متمكن من العلم لو خلع عن نفسه المكابرة والميل إلى الهوى.

وقرأ الجمهور)غشاوة(بكسر الغين وفتح الشين بعدها ألف. وقرأه حمزة والكسائي وخلف)غشوة(بفتح الغين وسكون الشين وهو من التسمية بالمصدر وهي لغة.

وتقدم معنى الختم والغشاوة في أول سورة البقرة.

وفرع على هذه الصلة استفهام إنكاري أن يكون غير الله يستطيع أن يهديهم، والمراد به تسلية النبي صلى الله عليه وسلم لشدة أسفه لأغراضهم وبقائهم في الضلالة.

و)من بعد الله(بمعنى: دون الله، وتقدم عند قوله تعالى)فبأي حديث بعده يؤمنون(آخر سورة الأعراف.

وفرع على ذلك استفهام عن عدم تذكر المخاطبين لهذه الحقيقة، أي كيف نسوها حتى ألحوا في الطمع بهداية أولئك الضالين وأسفوا لعدم جدوى الحجة لديهم وهو استفهام إنكاري.

صفحة : 3986

ومن المفسرين من حمل)من(الموصولة في قوله)أفرأيت من اتخذ إلهه هواه(على معين فقال مقاتل: هو أبو جهل بسبب حديث جرى بينه وبين الوليد بن المغيرة كانا يطوفان ليلة فتحدثا في شأن النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو جهل: والله إني لأعلم إنه لصادق فقال له المغيرة: مه، وما دلك على ذلك، قال: كنا نسميه في صباه الصادق الأمين فلما تم عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن قال: فما يمنعك أن تؤمن به قال: تتحدث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعزى إن اتبعته أبدا فنزلت هذه الآية. وإذا صح هذا فإن مطابقة القصة لقوله تعالى)وأضله الله على علم(ظاهرة. وعن مقاتل أيضا: أنها نزلت في الحارث بن قيس السهمي أحد المستهزئين كان يعبد من الأصنام ما تهواه نفسه.

وهذه الآية أصل في التحذير من أن يكون الهوى الباعث للمؤمنين على أعمالهم ويتركوا اتباع أدلة الحق، فإذا كان الحق محبوبا لأحد فذلك من التخلق بمحبة الحق تبعا للدليل مثل ما يهوى المؤمن الصلاة والجماعة وقيام رمضان وتلاوة القرآن وفي الحديث أرحنا بها يا بلال يعني الإقامة للصلاة. وعن عبد الله بن عمرو بن

العاصي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به وعن أبي الدرداء إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء وإن كان عمله تبعا لعلمه فيومه يوم صالح .

وأما اتباع الأمر المحبوب لإرضاء النفس دون نظر في صلاحه أو فساده فذلك سبب الضلال وسوء السيرة.

قال عمرو بن العاصي:

إذا المرء لم يترك طعاما يحبه ولم ينه قلبا غاويا حيث يمما

فيوشك أن تلقى له الدهر سبة اذا ذكرت أمثالها تملأ الفمـا

ومن الكلمات المأثورة ثلاث من المهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه ويروى حديثا ضعيف السند.

وقدم السمع على القلب هنا بخلاف آية سورة البقرة)ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة(لأن المخبر عنهم هنا لما أخبر عنهم بأنهم اتخذوا إلههم هواهم، فقد تقرر أنهم عقدوا قلوبهم على الهوى فكان ذلك العقد صارفا السمع عن تلقي الآيات فقدم لإفادة أنهم كالمختوم على سمعهم، ثم عطف عليه و)قلبه(تكميلا وتذكيرا بذلك العقد الصارف للسمع ثم ذكر ما)على بصره(من شبه الغشاوة لأن ما عقد عليه قلبه بصره عن النظر في أدلة الكائنات.

وأما آية سورة البقرة فإن المتحدث عنهم هم هؤلاء أنفسهم ولكن الحديث عنهم ابتدئ بتساوي الإنذار وعدمه في جانبهم بقوله)سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون(فلما أريد تفصيله قدم الختم على قلوبهم لأنه الأصل كما كان اتخاذ الهوى كالإله أصلا في وصف حالهم في آية سورة الجاثية. فحالة القلوب هي الأصل في الانصراف عن التلقي والنظر في الآيتين ولكن نظم هذه الآية كان على حسب ما يقتضيه الذكر من الترتيب ونظم آية البقرة كان على حسب ما يقتضيه الطبع.

وقرأ الجمهور)أفلا تذكرون(بتشديد الذال. وقرأه عاصم بتخفيف الذال وأصله عند الجميع)تتذكرون(. فأما الجمهور فقراءتهم بقلب التاء الثانية ذالا لتقارب مخرجيهما قصدا للتخفيف، وأما عاصم فقراءته على حذف إحدى التاءين.

)وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون[24](هذا عطف على جملة) أم حسب الذين اجترحوا السيئات(أي بعد أن جادلوا المسلمين بأنه إن كان يبعث بعد الموت فستكون عقباهم خيرا من عقبى

المسلمين، يقولون ذلك لقصد التورك وهم لا يوقنون بالبعث والجزاء بل ضربوه جدلا وإنما يقينهم قولهم)ما هي إلا حياتنا الدنيا(.
وتقدم في سورة الأنعام)وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين(وضمير)هي(ضمير القصة والشأن، أي قصة الخوض في البعث تنحصر في أن لا حياة بعد الممات، أي القصة هي انتفاء البعث كما أفاده حصر الأمر في الحياة الدنيا، أي الحاضرة القريبة منا، أي فلا تطيلوا الجدال معنا في إثبات البعث، ويجوز أن يكون) هي(ضمير الحياة باعتبار دلالة الاستثناء على تقدير لفظ الحياة فيكون حصرا لجنس الحياة في الحياة الدنيا.

صفحة : 3987

وجملة)نموت ونحيا(مبينة لجملة)ما هي إلا حياتنا الدنيا(أي ليس بعد هذا العالم عالم آخر فالحياة هي حياة هذا العالم لا غير فإذا مات من كان حيا خلفه من يوجد بعده. فمعنى)نموت ونحيا(يموت بعضنا ويحيا بعض أي يبقى حيا إلى أمد أو يولد بعد من ماتوا. وللدلالة على هذا التطور عبر بالفعل المضارع، أي تتجدد فينا الحياة والموت. فالمعنى: نموت ونحيا في هذه الحياة الدنيا وليس ثمة حياة أخرى.
ثم إن كانت هذه الجملة محكية بلفظ كلامهم فلعلها مما جرى مجرى المثل بينهم، وإن كانت حكاية لمعنى كلامهم فهي من إيجاز القرآن وهم إنما قالوا: يموت بعضنا ويحيا بعضنا ثم يموت فصار كالمثل.
ولا يخطر بالبال أن حكاية قولهم)نموت ونحيا(تقتضي إرادة نحيا بعد أن نموت لأن قولهم)ما هي إلا حياتنا الدنيا(يصرف عن خطور هذا بالبال. والعطف بالواو لا يقتضي ترتيبا بين المتعاطفين في الحصول.
وإنما قدم)نموت(في الذكر على)ونحيا(في البيان مع أن المبين قولهم ما هي)إلا حياتنا الدنيا(فكان الظاهر أن يبدأ في البيان بذكر اللفظ المبين فيقال: نحيا ونموت، فقيل قدم)نموت(لتتأتى الفاصلة بلفظ)نحيا(مع لفظ)الدنيا(. وعندي أن تقديم فعل)نموت(على) نحيا(للاهتمام بالموت في هذا المقام لأنهم بصدد تقرير أن الموت لا حياة بعده ويتبع ذلك الاهتمام تأتي طباقين بين حياتنا الدنيا ونموت ثم بين نموت ونحيا. وحصلت الفاصلة تبعا، وذلك أدخل في بلاغة الإعجاز ولذلك أعقبه بقوله تعالى)وما لهم بذلك من

علم(فالإشارة ب)ذلك(إلى قولهم)وما يهلكنا إلا الدهر(، أي لا علم لهم بأن الدهر هو المميت إذ لا دليل.
وأما زيادة)وما يهلكنا إلا الدهر(فقصدوا تأكيد معنى انحصار الحياة والموت في هذا العالم المعبر عنه عندهم بالدهر. فالحياة بتكوين الخلقة والممات بفعل الدهر. فكيف يرجى لمن أهلكه الدهر أن يعود حيا فالدهر هو الزمان المستمر المتعاقب ليله ونهاره.
والمعنى: أحياؤنا يصيرون إلى الموت بتأثير الزمان، أي حدثانه من طول مدة يعقبها الموت بالشيخوخة، أو من أسباب تفضي إلى الهلاك، وأقوالهم في هذا كثيرة ومن الشعر القديم قول عمرو بن قميئة:
رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى
فما بال من يرمـى ولـيس بـرام ولعلهم يريدون أنه لو تأثر الزمان لبقي الناس أحياء كما قال أسقف نجران:
منع البقاء تقلب الشـمـس وطلوعها
من حيث لا تمسي فلما كان الموت بفعل الدهر فكيف يرجى أن يعودوا أحياء.
وهذه كلمات كانت تجري على ألسنتهم لقلة التدبر في الأمور وإن كانوا يعلمون أن الله هو الخالق للعوالم، وأما ما يجري في العالم من التصرفات فلم يكن لهم فيه رأي وكيف وحالتهم الأمية لا تساعد على ذلك، وكانوا يخطئون في التفاصيل حتى يأتوا بما يناقض ما يعتقدونه، ولذلك أعقبه بقوله تعالى)وما لهم بذلك من علم(فإشارة ب)ذلك(إلى قولهم)وما يهلكنا إلا الدهر(أي لا علم لهم بأن الدهر هو المميت إذ لا دليل على ذلك فإن الدليل النظري بين أن الدهر وهو الزمان ليس بمميت مباشرة وهو ظاهر ولا بواسطة في الإماتة إذ الزمان أمر اعتباري لا يفعل ولا يؤثر وإنما هو مقادير يقدر بها الناس الأبعاد بين الحوادث مرجعه إلى تقدير حصة النهار والليل وحصص الفصول الأربعة، وإنما توهم عامة الناس أن الزمان متصرف، وهي توهمات شاعت حتى استقرت في الأذهان الساذجة.
والمراد بالظن في قوله)إن هم إلا يظنون(ما ليس بعلم فهو هنا التخيل والتوهم. وجملة)إن هم إلا يظنون(مبينة بجملة)وما لهم بذلك من علم(أو استئناف بياني كأن سائلا حين سمع قوله)وما لهم بذلك من علم(سأل عن مستندهم في قولهم ذلك فأجيب بأنه الظن المبني على التخيل.
وجيء بالمضارع في)يظنون(لأنهم يحددون هذا الظن ويتلقاه صغيرهم عن كبيرهم في أجيالهم وما هم بمقلعين عنه.

)وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين[25](

صفحة : 3988

عطف على)وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون(، أي عقدوا على عقيدة أن لا حياة بعد الممات استنادا للأوهام والأقيسة الخيالية. وإذا تليت عليهم آيات القرآن الواضحة الدلالة على إمكان البعث وعلى لزومه لم يعارضوها بما يبطلها بل يهرعون إلى المباهتة فيقولون إن كان البعث حقا فأتوا بآبائنا إن صدقتم. فالمراد بالآيات آيات القرآن المتعلقة بالبعث بدليل ما قبل الكلام وما بعده.
وفي قوله)ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا(تسجيل عليهم بالتلجلج عن الحجة البينة، والمصير إلى سلاح العاجز من المكابرة والخروج عن دائرة البحث.
والخطاب بفعل)ائتوا(موجه للمؤمنين بدخول الرسول صلى الله عليه وسلم. و)إلا أن قالوا(استثناء من حجتهم وهو يقتضي تسمية كلامهم هذا حجة وهو ليس بحجة إذ هو بالبهتان أشبه فإما أن يكون إطلاق اسم الحجة عليه على سبيل التهكم بهم كقول عمرو بن كلثوم:

قريناكم فعجلنا قـراكـم قبيل الصبح مرداة طحونا فسمى القتل قرى، وعلى هذا يكون الاستثناء في قوله)إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا(استثناء متصلا تهكما، وإما أن يكون إطلاق اسم الحجة على كلامهم جرى على اعتقادهم وتقديرهم دون قصد تهكم بهم، أي أتوا بما توهموه حجة فيكون الإطلاق استعارة صورية والاستثناء على هذا متصل أيضا.
وإما أن يكون الإطلاق استعارة بعلاقة الضدية فيكون مجازا مرسلا بتنزيل التضاد منزلة التناسب على قصد التهكم فيكون المعنى أن لا حجة لهم البتة إذ لا حجة لهم إلا هذه، وهذه ليست بحجة بل هي عناد فيحصل أن لا حجة لهم بطريق التمليح والكناية كقول جران العود:

وبلدة ليس بهـا أنـيس إلا اليعافير

وإلا العيس أي لا أنس بها البتة.
ويقدر قوله)أن قالوا ائتوا بآبائنا(في محل رفع بالاستثناء المفرغ على الاعتبارات الثلاثة فهو اسم)كان(و)حجتهم(خبرها أن حجتهم منصوب في قراءة جميع القراءات المشهورة.
وتقديم خبر)كان(على اسمها لأن اسمها محصور ب)إلا(فحقه التأخير عن الخبر.

)قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيمة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون[26](تلقين لإبطال قولهم)وما يهلكنا إلا الدهر(يتضمن إبطال قولهم)ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا(.

والمقصود منه قوله)ثم يميتكم(وإنما قدم عليه)يحييكم(توطئة له، أي كما هو أوجدكم هو يميتكم لا الدهر، فتقديم اسم الله على المسند الفعلي وهو)يحييكم ثم يميتكم(يفيد تخصيص الإحياء والإماتة به لإبطال قولهم، إن الدهر هو الذي يميتهم.

وقوله)ثم يجمعكم إلى يوم القيامة(إبطال لقولهم)ما هي إلا حياتنا الدنيا(وليس هو إبطالا بطريق الاستدلال لأن أدلة هذا تكررت فيما نزل من القرآن فاستغني عن تفصيلها ولكنه إبطال بطريق الإجمال والمعارضة.

وقوله)لا ريب فيه(حال من)يوم القيامة(، أي لا ريب في وجوده بما يقتضيه من إحياء الأموات، ومعنى نفي الريب فيه أنه حقيقة الريب وهي التي تتقوم من دلائل تفضي إلى الشك منتفية عن قضية وقوع يوم القيامة بكثرة الدلائل الدالة على إمكانه وعلى أنه بالنسبة لقدرة الله ليس أعجب من بدء الخلق، وأن الله أخبر عن وقوعه فوجب القطع بوقوعه. فكان الشك فيه جديرا بالاقتلاع فكأنه معدوم. وهذا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الكهان ليسوا بشيء مع أنهم موجودون فأراد أنهم ليسوا بشيء حقيق، وقد تقدم عند قوله تعالى)ذلك الكتاب لا ريب فيه(في سورة البقرة.

وعطف)ولكن أكثر الناس لا يعلمون(على قوله)لا ريب فيه(أي ولكن ارتياب كثير من الناس فيه لأنهم لا يعلمون دلائل وقوعه.

)ولله ملك السماوات والأرض(اعتراض تذييل لقوله)قل الله يحييكم ثم يميتكم(أي لله لا لغيره ملك السماوات والارض، أي فهو المتصرف في أحوال ما حوته السماوات والأرض من إحياء وإماتة، وغير ذلك بما أوجد من أصولها وما قدر من أسبابها ووسائلها فليس للدهر تصرف ولا لما سوى الله تعالى.

وتقديم المجرور على المسند إليه لإفادة التخصيص لرد معتقدهم من خروج تصرف غيره في بعض ما في السماوات والأرض كقولهم في الدهر.

)ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون[27] وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون[28] هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون[29] (لما جرى ذكر يوم القيامة أعقب بإنذار الذين أنكروه من سوء عاقبتهم فيه. والمبطلون: الآتون بالباطل في معتقداتهم وأقوالهم وأعمالهم إذ الباطل ما ضاد الحق. والمقصود منه ابتداء هنا هو الشرك بالله فإنه أعظم الباطل ثم تجيء درجات الباطل متنازلة وما من درجة منها إلا وهي خسارة على فاعلها بقدر فعلته وقد أنذر الله الناس وهو العليم بمقادير تلك الخسارة.

)ويوم تقوم الساعة(ظرف متعلق ب)يخسر(، وقدم عليه للاهتمام به واسترعاء الأسماع لما يرد من وصف أحواله.

و)يومئذ(توكيد ل)يوم تقوم الساعة(وتنوينه عوض عن المضاف إليه المحذوف لدلالة ما أضيف إليه يوم عليه، أي يوم إذ تقوم الساعة يخسر المبطلون فالتأكيد بتحقيق مضمون الخبر ولتهويل ذلك اليوم.

والخطاب في)ترى(لكل من يصلح له الخطاب بالقرآن فلا يقصد مخاطب معين، ويجوز أن يكون خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم.

والمضارع في)ترى(مراد به الاستقبال فالمعنى: وترى يومئذ.

والأمة: الجماعة العظيمة من الناس الذين يجمعهم دين جاء به رسول إليهم.

و)جاثية(اسم فاعل من مصدر الجثو بضمتين وهو البروك على الركبتين باستئفاز، أي بغير مباشرة المقعدة للأرض، فالجاثي هو البارك المستوفز وهو هيئة الخضوع.

وظاهر كون)كتابها(مفردا غير معرف باللام أنه كتاب واحد لكل أمة فيقتضي أن يراد كتاب الشريعة مثل القرآن، والتوراة، والإنجيل، وصحف إبراهيم وغير ذلك لا صحائف الأعمال، فمعنى)تدعى إلى كتابها(تدعى لتعرض أعمالها على ما أمرت به في كتابها كما في الحديث القرآن حجة لك أو عليك وقيل: أريد بقوله)كتابها(كتاب تسجيل الأعمال لكل واحد، أو مراد به الجنس وتكون إضافته إلى ضمير الأمة على إرادة التوزيع على الأفراد لأن لكل واحد من كل أمة صحيفة عمله خاصة به كما قال تعالى)أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا(، وقال)ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه(أي كل مجرم مشفق مما في كتابه، إلا أن هذه الآية الأخيرة وقع فيها الكتاب معرفا باللام فقبل العموم. وأما آية الجاثية فعمومها بدلي بالقرينة. فالمراد: خصوص الأمم التي أرسلت إليها الرسل ولها كتب وشرائع لقوله تعالى)وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا(.

ومسألة مؤاخذة الأمم التي لم تجئها الرسل بخصوص جحد الإله أو الإشراك به مقررة في أصول الدين، وتقدمت عند قوله تعالى)وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا(في سورة الإسراء.

وقرأ الجمهور)كل أمة تدعى إلى كتابها(برفع)كل(على أنه مبتدأ وتدعى خبر عنه والجملة استئناف بياني لأن جثو الأمة يثير سؤال سائل عما بعد ذلك الجثو.

وقرأه يعقوب بنصب)كل(على البدل من قوله)وترى كل أمة(. وجملة)تدعى(حال من)كل أمة(فأعيدت كلمة)كل أمة(دون اكتفاء بقوله)تدعى(أو يدعون للتهويل والدعاء إلى الكتاب بالأمم تجثو ثم تدعى كل أمة إلى كتابها فتذهب إليه للحساب، أي يذهب أفرادها للحساب ولو قيل: وترى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها لأوهم أن الجثو والدعاء إلى الكتاب يحصلان معا مع ما في إعادة الخبر مرة ثانية من التهويل.

وجملة)اليوم تجزون ما كنتم تعملون(بدل اشتمال من جملة) تدعى إلى كتابها(بتقدير قول محذوف، أي يقال لهم اليوم تجزون، أي يكون جزاؤكم على وفق أعمالكم وجريها على وفق ما يوافق كتاب دينكم من أفعالكم في الحسنات والسيئات، وهذا البدل وقع اعتراضا بين جملة)وترى كل أمة جاثية(وجملة)فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات(الآيات.

وجملة)هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق(من مقول القول المقدر، وهي مستأنفة استئنافا بيانيا لتوقع سؤال من يقول منهم: ما هو طريق ثبوت أعمالها.

والإشارة إما إلى كتاب شريعة الأمة المدعوة، وإما إلى كتب أفرادها على تأويل الكتاب بالجنس على الوجهتين المتقدمتين.

وإفراد ضمير)ينطق(على هذا الوجه مراعاة للفظ)كتابنا(فالمعنى هذه كتبنا تنطق عليكم بالحق.

صفحة : 3990

وإضافة)كتاب(إلى ضمير الله تعالى بعد أن أضيف إلى)كل أمة(لاختلاف الملابسة، فالكتاب يلابس الأمة لأنه جعل لإحصاء أعمالهم أو لأن ما كلفوا به مثبت فيه، وإضافته إلى ضمير الله لأنه الآمر به.

وإسناد النطق إلى الكتاب مجاز عقلي وإنما تنطق بما في الكتاب ملائكة الحساب، أو استعير النطق للدلالة نحو قولهم: نطقت الحال.

والمعنى: أن فيه شهادة عليهم بأن أعمالهم مخالفة لوصايا الكتاب أو بأنها مكتوبة في صحائف أعمالهم على التأويلين في المراد بالكتاب.

ولتضمن)ينطق(معنى)يشهد(عدي بحرف)على(.

ولما كان المقام للتهديد اقتصر فيه على تعدية)ينطق(بحرف)على(دون زيادة: ولكم، إيثارا لجانب التهديد.

وجملة)إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون(استئناف بياني لأنهم إذا سمعوا)هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق(خطر ببالهم السؤال: كيف شهد عليهم الكتاب اليوم وهم قد عملوا الأعمال في الدنيا، فأجيبوا بأن الله كان يأمر بنسخ ما يعملونه في الصحف في وقت عمله.

وإن حمل الكتاب على كتب الشريعة كانت جملة)إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون(تعليلا للجملة قبلها باعتبار تقييد النطق بأنه الحق، أي لأن أعمالكم كانت محصاة مبين ما هو منها مخالف لما أمر به كتابهم.

والاستنساخ: استفعال من النسخ.

والنسخ: يطلق على كتابه ما يكتب على مثال مكتوب آخر قبله. ويسمى بالمعارضة أيضا. وظاهر الأساس أن هذا حقيقة معنى النسخ وأن قولهم: نسخت الشمس الظل مجاز. وكلام جمهور العلماء بخلافه كما يقوله علماء أصول الفقه في باب النسخ. وكلام الراغب يحتمل الإطلاقين، فإذا درجت على كلام الجمهور فقد جعلت كتابة مكتوب على مثال مكتوب قبله كإزالة للمكتوب الأول لأن ذلك في الغالب يكون لقصد التعويض عن المكتوب الأول لمن ليس عنده أو لخشية ضياع الأصل. وعن ابن عباس أنه كان يقول: ألستم عربا وهل يكون النسخ إلا من كتاب.

وأما إطلاق النسخ على كتابة أنف ليست على مثال كتابة أخرى سبقتها فكلام الزمخشري في الأساس صريح في أنه من معاني النسخ حقيقة، وهو ظاهر كلامه في الكشاف، فيكون لفظ النسخ مشتركا في المعنيين بل ربما كان معنى مطلق الكتابة هو الأصل وكانت تسمية كتابة على مثل كتابة سابقة نسخا لأن ذلك كتابة وكلام صاحب اللسان وصاحب القاموس أن نقل الكتابة لا يسمى نسخا إلا إذا كان على مثال كتابة سابقة.

وهذا اختلاف معضل، والأظهر ما ذهب إليه صاحب اللسان وصاحب القاموس فيجوز أن يكون السين والتاء في)نستنسخ(للمبالغة في الفعل مثل استجاب. ويجوز أن يكون السين والتاء للطلب والتكليف، أي نكلف الملائكة نسخ أعمالكم، وعلى هذا المحمل حمل المفسرون السين والتاء هنا أي للطلب، ثم يجوز أن يكون النسخ على معنى نقل كتابة عن كتابة سابقة وبه فسر ابن عباس قال: إن

الله وكل ملائكة ينسخون من أم الكتاب في رمضان كل ما سيكون من أعمال بني آدم، ويجوز أن يكون النسخ بمعنى كتابة ما تعلمه الناس دون نقل عن أصل.
والمعنى: إنا كنا نكتب أعمالكم. وعن علي بن أبي طالب أنه قال: إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم ومثله عن الحسن والسدي.
والنسخ هنا: الكتابة، وإسناد فعل الاستنتاج إلى ضمير الله على هذا إسناد مجازي لأن الله أمر الحفظة بكتابة الأعمال.
)فأما الذين أمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين[30] وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين[31] وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين[32](الفاء لعطف المفصل على المجمل، وهو تفصيل لما أجمل في قوله)وترى كل أمة جاثية(وما بينهما اعتراض.
فالكلام هنا هو متصل بقوله)وترى كل أمة جاثية(كما دل عليه قوله)وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم(.

صفحة : 3991

وابتديء في التفصيل بوصف حال المؤمنين مع أن المقام للحديث عن المبطلين في قوله)يومئذ يخسر المبطلون(تنويها بالمؤمنين وتعجيلا لمسرتهم وتعجيلا لمساءة المبطلين لأن وصف حال المؤمنين يؤذن بمخالفة حال الآخرين لحالهم.
والتعبير ب)يدخلهم في رحمته(شامل لما تتصوره النفس من أنواع الكرامة والنعيم إذ جعلت رحمة الله بمنزلة المكان يدخلونه.
وافتتح بيان حال الذين كفروا بما يقال لهم من التوبيخ والتقرير من قبل الله تعالى، فقوله)أفلم تكن آياتي(مقول قول محذوف لظهور أن ذلك خطاب صادر من متكلم من جانب الله تعالى فيقدر فيقال لهم على طريقة قوله بعد)وقيل اليوم ننساكم(. والفاء جواب)أما(، أو فيقال لهم)ألم تكن آياتي تتلى عليكم(فلما حذف فعل القول قدم حرف الاستفهام على فاء الجواب اعتدادا باستحقاقه التصدير كما يقدم الاستفهام على حروف العطف. ولم يتعد بالمحذوف لأن التقديم لدفع الكراهة اللفظية من تأخر الاستفهام عن الحرف وهي موجودة بعد حذف ما حذف.

والاستفهام توبيخ وتقرير. والمراد بالآيات القرآن، أي فاستكبرتم على الأخذ بها ولم تقتصروا على الاستكبار بل كنتم قوما مجرمين، أي لم تفدكم مواعظ القرآن صلاحا لأنفسكم بما سمعتم منه.

وإقحام)قوما(دون الاقتصار على: وكنتم مجرمين، للدلالة على أن الإجرام صار خلقا لهم وخالط نفوسهم حتى صار من مقومات قوميتهم وقد قدمناه غير مرة.

وجملة)وإذا قيل إن وعد الله حق(إلخ عطف على جملة) فاستكبرتم(. والتقدير: وقلتم ما ندري ما الساعة إذا قيل لكم إن الساعة لا ريب فيها.

وهذان القولان مما تكرر في القرآن بلفظه وبمعناه، فهو تخصيص لبعض آيات القرآن بالذكر بعد التعميم في قوله)أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم(.

والتعريف في)الساعة(للعهد وهي ساعة البعث، أي زمان البعث كما عبر عنه باليوم.

وقرأ الجمهور)والساعة لا ريب فيها(برفع)والساعة(عطف على جملة)إن وعد الله حق(. وقرأه حمزة وحده بنصب)والساعة(عطفا على)إن وعد الله(من العطف على معمولي عامل واحد. ومعنى) ما ندري ما الساعة(ما نعلم حقيقة الساعة ونفي العلم بحقيقتها كناية عن جحد وقوع الساعة، أي علمنا أنها لا وقوع لها، استنادا للتخيلات التي ظنوها أدلة كقولهم)أإذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا(.

وقولهم)إن نظن إلا ظنا(ظاهر في أنه متصل بما قبله من قولهم)ما ندري ما الساعة(، ومبين بما بعده من قوله)وما نحن بمستيقنين(وموقعه ومعناه مشكل، وفي نظمه إشكال أيضا.

فأما الإشكال من جهة موقعه ومعناه فلأن القائلين موقنون بانتفاء وقوع الساعة لما حكي عنهم آنفا من قولهم)إن هي إلا حياتنا الدنيا(إلخ فلا يحق عليهم أنهم يظنون وقوع الساعة بوجه من الوجوه ولو احتمالا.

ولا يستقيم أن يطلق الظن هنا على الإيقان بعدم حصوله فيعضل معنى قولهم)إن نظن إلا ظنا(، فتأوله الفخر فقال: إن القوم كانوا فريقين، وأن الذين قالوا)إن نظن إلا ظنا(فريق كانوا قاطعين بنفي البعث والقيامة وهم الذين ذكرهم الله في الآية المتقدمة بقوله) وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا(. ومنهم من كان شاكا متحيرا فيه وهم الذين أراد الله بهذه الآية اه.

وأقول: هذا لا يستقيم لأنه لو سلم أن فريقا من المشركين كانوا يشكون في وقوع الساعة ولا يجزمون بانتفائه فإن جمهرة المشركين نافون لوقوعها فلا يناسب مقام التوبيخ تخصيصه بالذين

كانوا مترددين في ذلك. والوجه عندي في تأويله: إما يكون هذا حكاية لاستهزائهم بخبر البعث فإذا قيل لهم)الساعة لا ريب فيها(قالوا استهزاء)ما نظن إلا ظنا(، ويدل عليه قوله عقبه)وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون(.

وتأوله ابن عطية بأن معناه)إن نظن بعد قبول خبركم إلا ظنا وليس يعطينا يقينا(اه، أي فهو أبطالهم لخصوص قول المسلمين: الساعة لا ريب فيها.

وأما إشكاله من جهة النظم فمرجع الإشكال إلى استثناء الظن من نفسه في قوله)إن نظن إلا ظنا(فإن الاستثناء المفرغ لا يصح أن يكون مفرغا للمفعول المطلق لانتفاء فائدة التفريع. والخلاص من هذا ما ذهب إليه ابن هشام في مغني اللبيب أن مصحح الاستثناء الظن من نفسه أن المستثنى هو الظن الموصوف بما دل عليه تنكيره من التحقير المشعر به التنوين على حد قول الأعشى:

أحل به الـشـيب أثـقـالـه وما اغتره الشيب إلا اغترارا أي، إلا ظنا ضعيفا.

ومفعولا)نظن(محذوفان لدليل الكلام عليهما. والتقدير: إن نظن الساعة واقعة.

وقولهم)وما نحن بمستيقنين(يفيد تأكيد قولهم)ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا(، وعطفه عطف مرادف، أي للتشريك في اللفظ. والسين والتاء في)مستيقنين(للمبالغة في حصول الفعل.

)وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون[33] (عطف على جملة)أفلم تكن آياتي تتلى عليكم(باعتبار تقدير: فيقال لهم، أي فيقال لهم ذلك)وبدا لهم سيئات ما عملوا(، أي جمع لهم بين التوبيخ والإزعاج فوبخوا بقوله)أفلم تكن آياتي تتلى عليكم(إلى آخره، وأزعجوا بظهور سيئات أعمالهم، أي ظهور جزاء سيئاتهم حين رأوا دار العذاب وآلاته رؤية من يوقن بأنها معدة له وذلك بعلم يحصل لهم عند رؤية الأهوال.

وعبر بالسيئات عن جزائها إشارة إلى تمام المعادلة بين العمل وجزائه حتى جعل الجزاء نفس العمل على حد قوله)فذوقوا ما كنتم تكنزون(.

ومعنى)حاق(أحاط.

و)ما كانوا به يستهزئون(يعم كل ما كان طريق استهزاء بالإسلام من أقوالهم الصادرة عن استهزاء مثل قولهم)إن نظن إلا ظنا وما

نحن بمستيقنين(. وقول العاصي بن وائل الخباب بن الأرث: لأوتين مالا وولدا في الآخرة فأقضي منه دينك. ومن الأشياء التي جعلوها هزؤا مثل عذاب جهنم وشجرة الزقوم وهو ما عبر عنه آنفا ب)سيئات ما عملوا(. وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصولية لأن في الصلة تغليطا لهم وتنديما على ما فرطوا من أخذ العدة ليوم الجزاء على طريقة قول عبدة بن الطيب:

إن الذين ترونـهـم إخـوانـكـم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا والمعنى: أنهم قد أودعوا جهنم فأحاط بهم سرادقها.

والباء في)به يستهزئون(يجوز حملها على السببية وعلى تعدية فعل)يستهزئون(إلى ما لا يتعدى إليه أي العذاب.

)وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين[34] ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزؤا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون[35](لما أودعوا جهنم وأحاطت بهم نودوا)اليوم ننساكم(إلى آخره تأييسا لهم من العفو عنهم.

وبني فعل)قيل(للنائب حطا لهم عن رتبة أن يصرح باسم الله في حكاية الكلام الذي واجههم به كما أشرنا إليه عند قوله آنفا) وإذا قيل إن وعد الله حق(بناء على أن ضمير)ننساكم(ضمير الجلالة وليس من قول الملائكة، فإن كان من قول خزنة جهنم ببناء فعل)وقيل(للنائب للعلم بالفاعل.

وأطلق النسيان على الترك المؤبد على سبيل المجاز المرسل لأن النسيان يستلزم ترك الشيء المنسي في محله أو تركه على حالته، ويجوز أن يكون النسيان مستعارا للإهمال وعدم المبالاة، أي فلا تتعلق الإرادة بالتخفيف عنهم وعلى هذين الاعتبارين يفسر معنى النسيان الثاني.

والكاف في)كما نسيتم لقاء يومكم(للتعليل كما في قوله تعالى) واذكروه كما هداكم(، أي جزاء نسيانكم هذا اليوم، أي إعراضكم عن الإيمان به.

واللقاء: وجدان شيء شيئا في مكان، وهو المصادفة يقال: لقي زيد عمرا، ولقي العصفور حبة.

ولقاء اليوم، أطلق اليوم على ما فيه من الأحداث على سبيل المجاز المرسل لأنه أوجز من تعداد الأهوال الحاصلة منذ البعث إلى قضاء الجزاء على الأعمال.

وإضافة يوم إلى ضمير المخاطبين)في يومكم(باعتبار أن ذلك اليوم ظرف لأحوال تتعلق بهم فإن الإضافة تكون لأدنى ملابسة، إلا

ترى أنه أضيف إلى ضمير المؤمنين في قوله تعالى)وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون(.
ووصف اليوم باسم الإشارة تمييزه أكمل تمييز تكميلا لتعريفه بالإضافة لئلا يلتبس عليهم بيوم آخر.
وعطف)ومأواكم النار(على)اليوم ننساكم(ليعلموا أن تركهم في النار ترك مؤبد فأن المأوى هو مسكن الشخص الذي يأوي إليه بعد أعماله، فالمعنى أنكم قد أويتم إلى النار فأنتم باقون فيها، وتقدم نظير قوله)وما لكم من ناصرين(قريبا، والمقصود تخطئة زعمهم السابق أن الأصنام تنفعهم في الشدائد.

صفحة : 3993

و)ذلكم(إشارة إلى)مأواكم(والباء للسببية، أي ذلكم المأوى بسبب اتخاذكم آيات الله، وهي آيات القرآن هزؤا، أي مستهزأ بها،)هزؤا(مصدر مراد به اسم المفعول مثل خلق.
وتغرير الحياة الدنيا إياهم سبب أيضا لجعل النار مأواهم.
والتغرير: الإطماع الباطل. ومعنى تغرير الحياة الدنيا إياهم: أنهم قاسوا أحوال الآخرة على أحوال الدنيا فظنوا أن الله لا يحيي الموتى وتطرقوا من ذلك إلى إنكار الجزاء في الآخرة على ما يعمل في الدنيا وغرهم أيضا ما كانوا عليه من العزة والمنعة فخالوه منتهى الكمال فلم يصيخوا إلى داعي الرشد وعظة النصح وأعرضوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن القرآن المرشد ولولا ذلك لأقبلوا على التأمل فيما دعوا إليه فاهتدوا فسلموا من عواقب الكفر ولكون هذه المغررات حاصلة في الحياة الدنيا أسند التغرير إلى الحياة على سبيل المجاز العقلي لأن ذلك أجمع لأسباب الغرور.
وفرع على ذلك)فاليوم لا يخرجون منها(بالفاء وهذا من تمام الكلام الذي قيل لهم لأن وقوع كلمة)اليوم(في أثنائه يعين أنه من القيل الذي يقال لهم يومئذ. واتفق القراء على قراءة)لا يخرجون(بياء الغيبة. وكان مقتضى الظاهر أن يقال: لا تخرجون، بأسلوب الخطاب مثل سابقه ولكن عدل عن طريقة الخطاب إلى الغيبة على وجه الالتفات. ويحسنه هنا أنه تخييل للإعراض عنهم بعد توبيخهم وتأييسهم وصرف بقية الإخبار عنهم إلى مخاطب آخر ينبأ ببقية أمرهم تحقيرا لهم.
وقرأ الجمهور)يخرجون(بضم الياء وفتح الراء، فالمعنى: أنهم يسألون من يخرجهم فلا يخرجهم أحد كما في قوله تعالى)ربنا

أخرجنا منها(وقوله)فهل إلى خروج من سبيل(. وقرأه حمزة والكسائي)يخرجون(بفتح الياء وضم الراء. فالمعنى: أنهم يفزعون إلى الخروج فلا يستطيعون لقوله تعالى)كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها(.

والاستعتاب بمعنى: الإعتاب، فالسين والتاء للمبالغة كما يقال: أجاب واستجاب. ومعنى الإعتاب: إعطاء العتبى وهي الرضا. وهو هنا مبني للمجهول. أي لا يستعتبهم أحد، أي ولا يرضون بما يسألون، وتقدم نظيره في قوله تعالى)فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون(في سورة الروم.

وتقديم)هم(على)يستعتبون(وهو مسند فعلي بعد حرف النفي هنا تعريض بأن الله يعتب غيرهم، أي يرضي المؤمنين، أي يغفر لهم .

)فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين[36] وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم[37](الفاء لتفريع التحميد والثناء على الله تفريعا على ما احتوت عليه السورة من ألطاف الله فيما خلق وأرشد وسخر وأقام من نظم العدالة، والإنعام على المسلمين في الدنيا والآخرة، ومن وعيد للمعرضين واحتجاج عليهم، فلما كان ذلك كله من الله كان دالا على اتصافه بصفات العظمة والجلال وعلى إفضاله على الناس بدين الإسلام كان حقيقا بإنشاء قصر الحمد عليه فيجوز أن يكون هذا الكلام مرادا منه ظاهر الإخبار، ويجوز أن يكون مع ذلك مستعملا في معناه الكنائي وهو أمر الناس بأن يقصروا الحمد عليه. ويجوز أن يكون إنشاء حمد لله تعالى وثناء عليه. وكل ما سبقه من آيات هذه السورة مقتض للوجوه الثلاثة، ونظيره قوله تعالى)فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين(في سورة الأنعام.

وتقديم)لله(لإفادة الاختصاص، أي الحمد مختص به الله تعالى يعني الحمد الحق الكامل مختص به تعالى كما تقدم في سورة الفاتحة.

وإجراء وصف)رب السماوات(على اسمه تعالى إيماء إلى علة قصر الحمد على الله إخبارا وإنشاءا تأكيدا لما اقتضته الفاء في قوله)فلله الحمد(. وعطف)ورب الأرض(بتكرير لفظ)رب(للتنويه بشأن الربوبية لأن رب السماوات والأرض يحق حمده على أهل السماء والأرض، فأما أهل السماء فقد حمدوه كما أخبر الله عنهم بقوله)والملائكة يسبحون بحمد ربهم(. وأما أهل الأرض فمن حمده منهم فقد أدى حق الربوبية ومن حمد غيره وأعرض عنه فقد سجل على نفسه سمة الإباق، وكان بمأوى النار محل استحقاق.

ثم أتبع بوصف)رب العالمين(وهم سكان السماوات والأرض تأكيدا لكونهم محقوقين بأن يحمدوه لأنه خالق العوالم التي هم منتفعون بها وخالق ذواتهم فيها كذلك.

صفحة : 3994

وعقب ذلك بجملة)وله الكبرياء في السماوات والأرض(للإشارة إلى أن استدعاءه خلقه لحمده إنما هو لنفعهم وتزكية نفوسهم فإنه غني عنهم كما قال)وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون(.
وتقديم المجرور في)وله الكبرياء(مثله في)فلله الحمد(. والكبرياء: الكبر الحق الذي هو كمال الصفات وكمال الوجود.
ثم أتبع ذلك بصفتي)العزيز الحكيم(لأن العزة تشمل معاني القدرة والاختيار، والحكمة تجمع معاني تمام العلم وعمومه.
وبهذه الخاتمة آذن الكلام بانتهاء السورة فهو من براعة خواتم السور.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الأحقاف
سميت هذه السورة)سورة الأحقاف(في جميع المصاحف وكتب السنة، ووردت تسميتها بهذا الاسم في كلام عبد الله بن عباس.
روى أحمد بن حنبل بسند جيد عن ابن عباس قال أقرأني رسول الله سورة من آل حم وهي الأحقاف ، وكانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت ثلاثين.
وكذلك وردت تسميتها في كلام عبد الله بن مسعود أخرج الحاكم بسند صححه عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله سورة الأحقاف الحديث.
وحديث ابن عباس السابق يقتضي أنها تسمى ثلاثين إلا أن ذلك لا يختص بها قلا يعد من أسمائها. ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم.
ووجه تسميتها)الأحقاف(ورود لفظ الأحقاف فيها ولم يرد في غيرها من سور القرآن.
وهي مكية قال القرطبي: باتفاق جميعهم، وفي إطلاق كثير من المفسرين. وبعض المفسرين نسبوا استثناء آيات منها الى بعض القائلين، فحكى ابن عطية استثناء آيتين هما قوله تعالى)قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به(إلى)الظالمين(فإنها أشارت إلى إسلام عبد الله بن سلام وهو إنما أسلم بعد الهجرة، وقوله)فاصبر

كما صبر أولو العزم من الرسل(. وفي الإتقان ثلاثة أقوال باستثناء آيات ثلاث منها الاثنتان اللتان ذكرهما ابن عطية والثالثة)ووصينا الإنسان بوالديه(إلى قوله)خاسرين(. وسيأتي ما يقتضي أنها نزلت بعد مضي عامين من البعثة وأسانيد جميعها متفاوتة. وأقواها ما روي في الآية الأولى منها، وسنبين ذلك عند الكلام عليها في مواضعها.

وهذه السورة معدودة الخامسة والستين في عداد نزول السور، نزلت بعد الجاثية وقبل الذاريات.

وعدت آيها عند جمهور أهل الأمصار أربعا وثلاثين، وعدها أهل الكوفة خمسا وثلاثين والاختلاف في ذلك مبني على أن)حم(تعتبر آية مستقلة أو لا.

أغراضها

من الأغراض التي اشتملت عليها أنها افتتحت مثل سورة الجاثية بما يشير إلى إعجاز القرآن للاستدلال على أنه منزل من عند الله.

والاستدلال بإتقان خلق السماوات والأرض على التفرد بالإلهية، وعلى إثبات جزاء الأعمال.

والإشارة إلى وقوع الجزاء بعد البعث وأن هذا العالم صائر إلى فناء.

وإبطال الشركاء في الإلهية. والتدليل على خلوهم عن صفات الإلهية.

وإبطال أن يكون القرآن من صنع غير الله.

وإثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم واستشهاد الله تعالى على صدق رسالته واستشهاد شاهد بني إسرائيل وهو عبد الله بن سلام.

والثناء على الذين آمنوا بالقرآن وذكر بعض خصالهم الحميدة وما يضادها من خصال أهل الكفر وحسدهم الذي بعثهم على تكذيبه.

وذكرت معجزة إيمان الجن بالقرآن.

وختمت السورة بتثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأقحم في ذلك معاملة الوالدين والذرية مما هو من خلق المؤمنين، وما هو من خلق أهل الضلالة.

والعبرة بضلالهم مع ما كانوا عليه من القوة، وأن الله أخذهم بكفرهم وأهلك أمما أخرى فجعلهم عظة للمكذبين وأن جميعهم لم تغن عنهم أربابهم المكذوبة.

وقد أشبهت كثيرا من أغراض سورة الجاثية مع تفنن.

)حم[1](تقدم القول في نظيره في أول سورة غافر.

وهذه جملة مستقلة مثل نظائرها من الحروف المقطعة في أوائل من سور القرآن.

)تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم[2](تقدم القول في نظيره في أول الجاثية.
)ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون[3](

صفحة : 3995

لما كان من أهم ما جاء به القرآن إثبات وحدانية الله تعالى، وإثبات البعث والجزاء، لتوقف حصول فائدة الإنذار على إثباتهما، جعل قوله)تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم(تمهيدا للاستدلال على إثبات الوحدانية والبعث والجزاء، فجعل خلق السماوات والأرض محل اتفاق،ورتب عليه أنه ما كان ذلك الخلق إلا ملابسا للحق، وتقتضي ملابسته للحق أنه لا يكون خلقا عبثا بل هو دال على أنه يعقبه جزاء على ما يفعله المخلوقون.
واستثناء)بالحق(من أحوال عامة، أي ما خلقناهما إلا في حالة المصاحبة للحق.
وقوله)والذين كفروا عما أنذروا معرضون(في موضع الحال من الضمير المقدر في متعلق الجار والمجرور من قوله)بالحق(، فيكون المقصود من الحال التعجيب منهم وليس ذلك عطفا لأن الإخبار عن الذين كفروا بالإعراض مستغنى عنه إذ هو معلوم، والتقدير: إلا خلقا كائنا بملابسة الحق في حال إعراض الذين كفروا عما أنذروا به مما دل عليه الخلق بالحق.
وصاحب الحال هو)السماوات والأرض(، والمعنى: ما خلقناهما إلا في حالة ملابسة الحق لهما وتعيين أجل لهما. وإعراض الذين كفروا عما انذروا به من آيات القرآن التي تذكرهم بما في خلق السماوات والأرض من ملابسة الحق.
وعطف)وأجل مسمى(على)بالحق(، عطف الخاص على العام للاهتمام به كعطف جبريل وميكائيل على ملائكته في قوله تعالى) وملائكته وجبريل وميكائيل(في سورة البقرة لأن دلالة الحدوث على قبول الفناء دلالة عقلية فهي مما يقتضيه الحق، وأن تعرض السماوات والأرض للفناء دليل على وقوع البعث لأن انعدام هذا العالم يقتضي بمقتضى الحكمة أن يخلفه عالم آخر أعظم منه، على سنة تدرج المخلوقات في الكمال، وقد كان ظن الدهريين قدم هذا العالم وبقاءه أكبر شبهة لهم في إنكارهم البعث)وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر(. فالدهر عندهم متصرف وهو باق غير فان، فلو جوزوا فناء هذا العالم لأمكن نزولهم إلى النظر في الأدلة التي تقتضي حياة ثانية. فجملة)والذين

كفروا عما أنذروا معرضون(مرتبطة بالاستثناء في قوله)إلا بالحق(، أي هم معرضون عما أنذروا به من وعيد يوم البعث.
وحذف العائد من الصلة لأنه ضمير منصوب ب)أنذروا(. والتقدير: عما أنذروه معرضون.
ويجوز أن تكون)ما(مصدرية فلا يقدر بعدها ضمير. والتقدير عن إنذارهم معرضون فشمل كل إنذار أنذروه.
وتقديم)عما أنذروا(على متعلقه وهو)معرضون(للاهتمام بما أنذروا ويتبع ذلك رعاية الفاصلة.
)قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين[4](انتقل إلى الاستدلال على بطلان صفة الإلهية عن أصنامهم.
فجملة)قل أرأيتم ما تدعون(أمر بإلقاء الدليل على إبطال الإشراك وهو أصل ضلالهم.
وجاء هذا الاستدلال بأسلوب المناظرة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم مواجها لهم بالاحتجاج ليكون إلجاء لهم إلى الاعتراف بالعجز عن معارضة حجته، وكذلك جرى الاحتجاج بعده ثلاث مرات بطريقة أمر التعجيز بقوله)أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب(الآية.)وأرأيتم(استفهام تقريري فهو كناية عن معنى: أخبروني، وقد تقدم في سورة الأنعام قوله)قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون(.
وقوله)أروني(تصريح بما كنى عنه طريق التقرير لقوله)أرأيتم ما تدعون(وموقع جملة)أروني(في موقع المفعول الثاني لفعل) أرأيتم(.
والأمر في)أروني ماذا خلقوا من الأرض(مستعمل في التسخير والتعجيز كناية عن النفي إن لم يخلقوا من الأرض شيئا فلا تستطيعوا أن تروني شيئا خلقوه في الأرض، وهذا من رؤوس مسائل المناظرة، وهو مطالبة المدعي بالدليل على إثبات دعواه.
و)ماذا(بمعنى ما الذي خلقوه، ف)ما(استفهامية و)ذا(بمعنى الذي. وأصله اسم إشارة ناب عن الموصول. وأصل التركيب: ما ذا الذي خلقوا، فاقتصر على اسم الإشارة وحذف اسم الموصول غالبا في الكلام وقد يظهر كما في قوله تعالى)من ذا الذي يشفع عنده(. ولهذا قال النحاة: إن)ذا(بعد)ما(أو)من(الاستفهاميتين بمنزلة) ما(الموصولة.

والاستفهام في)ما ذا خلقوا(إنكاري. وجملة)ما ذا خلقوا(بدل من جملة)أروني(وفعل الرؤية معلق عن العمل بورود) ما(الاستفهامية بعده، وإذا لم يكن شيء من الأرض مخلوقا لهم بطل أن يكونوا آلهة لخروج المخلوقات عن خلقهم، وإذا بطل أن يكون لها خلق بطل أن يكون لها تصرف في المخلوقات كما قال تعالى)أيشركون ما لا يخلق شيئا وهو يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون(في سورة الأعراف.

و)أم(حرف إضراب انتقالي. والاستفهام المقدر بعد)أم(المنقطعة استفهام إنكاري أي ليس لهم شرك مع الله في السماوات.

وإنما أوثر انتفاء الشركة بالنسبة للشركة في السماوات دون انتفاء الخلق كما أوثر انتفاء الخلق بالنسبة إلى الأرض لأن مخلوقات الأرض مشاهدة للناس ظاهر تطورها وحدوثها وأن ليس لما يدعونهم دون الله أدنى عمل في إيجادها، وأما الموجودات السماوية فهي محجوبة عن العيون لا عهد للناس بظهور وجودها ولا تطورها فلا يحسن الاستدلال بعدم تأثير الأصنام في إيجاد شيء منها ولكن لما لم يدع المشركون تصرفا للأصنام إلا في أحوال الناس في الأرض من جلب نفع أو دفع ضر اقتصر في نفي تصرفهم في السماوات على الاستدلال بنفي أن يكون للأصنام شركة في أمور السماوات لأن انتفاء ذلك لا ينازعون فيه. وتقدم نظير هذه الآية في سورة فاطر)قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله(الآية فانظر ذلك.

ثم انتقل من الاستدلال بالمشاهدة وبالإقرار إلى الاستدلال بالأخبار الصادقة بقوله)ائتوني بكتاب من قبل هذا(الخ.

فجملة)ائتوني بكتاب(في موقع مفعول ثان لفعل)أرأيتم(، كرر كما يتعدد خبر المبتدأ. ومناط الاستدلال أنه استدلال على إبطال دعوى المدعي بانعدام الحجة على دعواه ويسمى الإقحام كما تقدم. والمعنى: نفي أن يكون لهم حجة على إلهية الأصنام لا بتأثيرها في المخلوقات، ولا بأقوال الكتب، فهذا قريب من قوله في سورة فاطر)أم آتيناهم كتابا فهم على بينات منه(.

والمراد ب)كتاب(أي كتاب من الكتب المقروءة. وهذا قاطع لهم فإنهم لا يستطيعون ادعاء أن لأصنامهم في الكتب السابقة ذكرا غير الإبطال والتحذير من عبادتها، فلا يوجد في الكتب إلا أحد أمرين: إما إبطال عبادة الأصنام كما في الكتب السماوية، وإما عدم ذكرها البتة ويدل على أن المراد ذلك قوله بعده)أو أثارة من علم(.

والإتيان مستعار للإحضار ولو كان في مجلسهم على ما تقدم في قوله تعالى)فأتوا بسورة من مثله(في سورة البقرة.

والإشارة في قوله)من قبل هذا(إلى القرآن لأنه حاضر في أذهان أصحاب المحاجة فإنه يقرأ عليهم معاودة.
ووجه تخصيص الكتاب بوصف أن يكون من قبل القرآن ليسد عليهم باب المعارضة بأن يأتوا بكتاب يصنع لهم، كما قالوا)لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين(.
و)أثارة(بفتح الهمزة: البقية من الشيء. والمعنى: أو بقية بقيت عندكم تروونها عن أهل العلم السابقين غير مسطورة في الكتب. وهذا توسيع عليهم في أنواع الحجة ليكون عجزهم عن الإتيان بشيء من ذلك أقطع لدعواهم.
وفي قوله)إن كنتم صادقين(إلهاب وإفحام لهم بأنهم غير آتين بحجة لا من جانب العقل ولا من جانب النقل المسطور أو المأثور، وقد قال تعالى في سورة القصص)فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم(.
)ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون[5] وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين[6](اعتراض في أثناء تلقين الاحتجاج، فلما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يحاجهم بالدليل وجه الخطاب إليه تعجيبا من حالهم وضلالهم لأن قوله)وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء(الخ لا يناسب إلا أن يكون من جانب الله.
و)من(استفهامية، والاستفهام إنكار وتعجيب.
والمعنى: لا أحد أشد ضلالا وأعجب حالا ممن يدعون من دون الله من لا يستجيب له دعاءه فهو أقصى حد من الضلالة.

صفحة : 3997

ووجه ذلك أنهم ضلوا عن دلائل الوحدانية وادعوا لله شركاء بلا دليل واختاروا الشركاء من حجارة وهي أبعد الموجودات عن قبول صفات الخلق والتكوين والتصرف ثم يدعونها في نوائبهم وهم يشاهدون أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تجيب ثم سمعوا آيات القرآن توضح لهم الذكرى بنقائص آلهتهم، فلم يعتبروا بها وزعموا أنها سحر ظاهر فكان ضلالهم أقصى حد في الضلال.
و)من لا يستجيب(الأصنام عبر عن الأصنام باسم الموصول المختص بالعقلاء معاملة للجماد معاملة العقلاء إذ أسند إليها ما يسند إلى أولي العلم من الغفلة، ولأنه شاع في كلام العرب إجراؤها مجرى العقلاء فكثرت في القرآن مجاراة استعمالهم في

ذلك، ومثل هذا جعل ضمائر جمع العقلاء في قوله)وهم(وقوله) غافلون(وهي عائدة إلى)من لا يستجيب(.

وجعل يوم القيامة غاية لانتفاء الاستجابة. كناية عن استغراق مدة بقاء الدنيا. وعبر عن نهاية الحياة الدنيا ب)يوم القيامة(لأن المواجه بالخبر هو الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون كما علمت وهم يثبتون يوم القيامة.

وضميرا)أكانوا(في الموضعين يجوز أن يعودا إلى)من يدعو من دون الله(فإن المشركين يعادون أصنامهم يوم القيامة إذ يجدونها من أسباب شقائهم. ويجوز أن يعودا إلى)من لا يستجيب له(فإن الأصنام يجوز أن تعطى حياة يومئذ فتنطق بالتبري من عبادها ومن عبادتهم إياها، قال تعالى)ويوم القيامة يكفرون بشرككم(وقال) ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون(.

ويجوز أن يكون قوله)كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين(جاريا على التشبيه البليغ لمشابهتها للأعداء والمنكرين للعبادة في دلالتها على ما يفضي الى شقائهم وكذبهم كقوله تعالى)وما زادوهم غير تتبيب(.

وعطف جملة)وإذا حشر الناس(الخ على ما قبلها لمناسبة ذكر يوم القيامة.

ومن بديع تفنن القرآن توزيع معاد الضمائر في هذه الآية مع تماثلها في اللفظ وهذا يتدرج في محسن الجمع مع التفريق وأدق.

)وإذا تتلى عليهم آيتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين[7](عطف على جملة)ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له(، وقد علمت أن هذا مسوق مساق العد لوجود فرط ضلالهم فإن آيات القرآن تتلى عليهم صباح مساء تبين لهم دلائل خلو الأصنام عن مقومات الإلهية فلا يتدبرونها وتحدوا بهم إلى الحق فيغالطون أنفسهم بأن ما فهموه منها تأثر سحري، وأنها سحر، ولم يكتفوا بذلك بل زادوا بهتانا فزعموا أنه مبين، أي واضح كونه سحرا.

وهذا انتقال إلى إبطال ضلال آخر من ضلالهم وهو ضلال التكذيب بالقرآن فهو مرتبط بقوله)حم تنزيل الكتاب من الله(الخ.

وقوله)الذين كفروا(إظهار في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالكفر وبأنه سبب قولهم ذلك.

واللام في قوله)للحق(لام العلة وليست لام تعدية فعل القول إلى المقول له أي قال بعض الكافرين لبعض في شأن الذين آمنوا ومن أجل إيمانهم.
والحق: هو الآيات، فعدل عن ضمير الآيات إلى إظهار لفظ الحق للتنبيه على أنها حق وأن رميها بالسحر بهتان عظيم.)ولما جاءهم(توقيت لمقالتهم، أي يقولون ذلك بفور سماع الآيات وكلما جاءتهم، أي دون تدبر ولا إجالة فكر.
)أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم[8](إضراب انتقال إلى نوع آخر من ضلال أقوالهم.
وسلك في الانتقال مسلك الإضراب دون أن يكون بالعطف بالواو لأن الإضراب يفيد أن الغرض الذي سينتقل إليه له مزيد اتصال بما قبله، وأن المعنى: دع قولهم)هذا سحر مبين(، واستمع لما هو أعجب وهو قولهم)افتراه(، أي افترى نسبته إلى الله ولم يرد به السحر.
والاستفهام الذي يقدر بعد)أم(للإنكار على مقالتهم.

صفحة : 3998

والنفي الذي يقتضيه الاستفهام الإنكاري يتسلط على سبب الإنكار، أي كون القرآن مفترى وليس متسلطا على نسبة القول إليهم لأنه صادر منهم وإنما المنفي الافتراء المزعوم.
والضمير المنصوب في)افتراه(عائد إلى الحق في قوله)قال الذين كفروا للحق(، أو الى القرآن لعلمه من المقام، أي افترى القرآن فزعم أنه وحي من عند الله.
وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بجواب مقالتهم بما يقلعها من جذرها، فكان قوله تعالى)قل(جملة جارية مجرى جواب المقاولة لوقوعها في مقابلة حكاية قولهم. وقد تقدم ذلك في قوله)قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها(في أوائل سورة البقرة.
وجعل الافتراء مفروضا بحرف)إن(الذي شأنه أن يكون شرطه نادر الوقوع إشارة إلى أنه مفروض في مقام مشتمل على دلائل تقلع الشرط من أصله.
وانتصب)شيئا(على المفعولية لفعل)تملكون(، أي شيئا يملك، أي يستطاع، والمراد: شيء من الدفع فلا تقدرون على أن تردوا عني شيئا يرد علي من الله. وتقدم معنى)لا أملك شيئا(عند قوله تعالى

)قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم(في سورة العقود.
والتقدير: إن افتريته عاقبني الله معاقبة لا تملكون ردها. فقوله)فلا تملكون لي من الله شيئا(دليل على الجواب المقدر في الكلام بطريق الالتزام، لأن معنى)لا تملكون لي(لا تقدرون على دفع ضر الله عني، فاقتضى أن المعنى: إن افتريته عاقبني الله ولا تستطيعون دفع عقابه.
واعلم أن الشائع في استعمال)لا أملك له شيئا(ونحوه أن يسند فعل الملك إلى الذي هو مظنة للدفع عن مدخول اللام المتعلقة بفعل الملك كقوله تعالى)لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا(وقوله)وما أملك لك من الله من شيء(، أو أن يسند الى عام نحو)قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم(، فإسناد فعل الملك في هذه الآية إلى المخاطبين وهم أعداء النبي صلى الله عليه وسلم وليسوا بمظنة أن يدفعوا عنه، لأنهم نصبوا أنفسهم في منصب الحكم على النبي صلى الله عليه وسلم فجزموا بأنه افترى القرآن فحالهم حال من يزعم أنه يستطيع أن يرد مراد الله تعالى على طريقة التهكم.
واعلم أن وجه الملازمة بين الشرط وجوابه في قوله)إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا(أن الله لا يقر أحدا على أن يبلغ إلى الناس شيئا عن الله لم يأمره بتبليغه، وقد دل القرآن على هذا في قوله تعالى)ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين(. ولعل حكمة ذلك أن التقول على الله يفضي إلى فساد عظيم يختل به نظام الخلق، والله يغار على مخلوقاته وليس ذلك كغيره من المعاصي التي تجلبها المظالم والعبث في الأرض لأن ذلك إقدام على ما هو معلوم الفساد لا يخفى على الناس فهم يدفعونه بما يستطيعون من حول وقوة، أو حيلة ومصانعة. وأما التقول على الله فيوقع الناس في حيرة بماذا يتلقونه فلذلك لا يقره الله ويزيله.
وجملة)هو أعلم بما تفيضون فيه(بدل اشتمال من جملة)فلا تملكون لي من الله شيئا(لأن جملة)فلا تملكون لي(تشتمل على معنى أن الله لا يرضى أن يفتري عليه أحد، وذلك يقتضي أنه أعلم منهم بحال من يخبر عن الله بأنه أرسله وما يبلغه عن الله. وذلك هو ما يخوضون فيه من الطعن والقدح والوصف بالسحر أو بالافتراء أو بالجنون، فما صدق)ما(الموصولة القرآن الذي دل عليه الضمير الظاهر في)افتراه(أو الرسول صلى الله عليه وسلم الذي دل عليه الضمير المستتر في)افتراه(أو مجموع أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم التي دل عليها مختلف خوضهم. ومتعلق اسم التفضيل

محذوف، أي هو أعلم منكم. والإفاضة في الحديث: الخوض فيه والإكثار منه وهي منقولة من: فاض الماء؛ إذا سال. ومنه حديث مستفيض مشتهر شائع، والمعنى: هو أعلم بحال ما تفيضون فيه.
وجملة)كفى به شهيدا بيني وبينكم(بدل اشتمال من جملة)هو أعلم بما تفيضون فيه(لأن الإخبار بكونه أعلم منهم بكنه ما يفيضون فيه يشتمل على معنى تفويض الحكم بينه وبينهم إلى الله تعالى. وهذا تهديد لهم وتحذير من الخوض في الباطل ووعيد.

صفحة : 3999

والشهيد: الشاهد، أي المخبر بالواقع. والمراد به هنا الحاكم بما يعلمه من حالنا كما دل عليه قوله)بيني وبينكم(لأن الحكم يكون بين خصمين ولا تكون الشهادة بينهما بل لأحدهما قال تعالى)وجئنا بك على هؤلاء شهيدا(.
وإجراء وصفي)الغفور الرحيم(عليه تعالى اقتضاه ما تضمنه قوله)كفى به شهيدا بيني وبينكم(من التهديد والوعيد، وهو تعريض بطلب الإقلاع عما هم فيه من الخوض بالباطل.
)قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين[9](أعيد الأمر بأن يقول ما هو حجة عليهم لما علمت آنفا في تفسير قوله)قل أرأيتم ما تدعون من دون الله(الآيات.
وهذا جواب عما تضمنه قولهم)افتراه(من إحالتهم صدقه فيما جاء به من الرسالة عن الله إحالة دعتهم إلى نسبة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الافتراء على الله. وإنما لم يعطف على جملة)قل إن افتريته(لأن المقصود الارتقاء في الرد عليهم من رد إلى أقوى منه فكان هذا كالتعدد والتكرير، وسيأتي بعده قوله)قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به(. ونظير ذلك ما في سورة المؤمنين)بل قالوا مثل ما قال الأولون(إلى)قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون(وقوله)قل من رب السماوات السبع(وقوله) قل من بيده ملكوت كل شيء(الخ.
والبدع بكسر الباء وسيكون الدال، معناه البديع مثل: الخف يعني الحفيف قال امرؤ القيس:
يزل الغلام الخف عن صواته ومنه: الخل بمعنى الخليل. فالبدع: صفة مشبهة بمعنى البادع، ومن أسمائه تعالى)البديع(خالق الأشياء ومخترعها. فالمعنى: ما كنت محدثا شيئا لم يكن بين الرسل.

و)من(ابتدائية، أي ما كنت آتيا منهم بديعا غير مماثل لهم فكما سمعتم بالرسل الأولين أخبروا عن رسالة الله إياهم فكذلك أنا فلماذا يعجبون من دعوتي.

وهذه الآية صالحة للرد على نصارى زماننا الذين طعنوا في نبوته بمطاعن لا منشأ لها إلا تضليل وتمويه على عامتهم لأن الطاعنين ليسوا من الغباوة بالذين يخفى عليهم بهتانهم كقولهم إنه تزوج النساء، أو أنه قاتل الذين كفروا، أو أنه أحب زينب بنت جحش.

وقوله)وما أدري ما يفعل بي ولا بكم(تتميم لقوله)قل ما كنت بدعا من الرسل(وهو بمنزلة الاعتراض فإن المشركين كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن مغيبات استهزاء فيقول أحدهم إذا ضلت ناقته: أين ناقتي؟ ويقول أحدهم: من أبي، أو نحو ذلك فأمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم بأنه لا يدري ما يفعل به ولا بهم، أي في الدنيا، وهذا معنى قوله تعالى)قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء(.

ولذلك كان قوله)إن أتبع إلا ما يوحى(استئنافا بيانيا وإتماما لما في قوله)وما أدري ما يفعل بي ولا بكم(بأن قصارى ما يدريه هو اتباع ما يعلمه الله به فهو تخصيص لعمومه، ومثل علمه بأنه رسول من الله وأن المشركين في النار وأن وراء الموت بعثا. ومثل أنه سيهاجر إلى أرض ذات نخل بين حرتين، ومثل قوله تعالى)إنا فتحنا لك فتحا مبينا(، ونحو ذلك مما يرجع إلى ما أطلعه الله عليه، فدع ما أطال به بعض المفسرين هنا من المراد بقوله)وما أدري ما يفعل بي ولا بكم(ومن كونها منسوخة أو محكمة ومن حكم نسخ الخبر.

صفحة : 4000

ووجه عطف)ولا بكم(على)بي(بإقحام)لا(النافية مع أنهما متعلقان بفعل صلة)ما(الموصولة وليس في الصلة نفي، فلماذا لم يقل: ما يفعل بي وبكم لأن الموصول وصلته لما وقعا مفعولا للمنفي في قوله)وما أدري(تناول النفي ما هو في حيز ذلك الفعل المنفي فصار النفي شاملا للجميع فحسن إدخال حرف النفي على المعطوف، كما حسن دخول الباء التي شأنها أن تزاد فيجر بها الاسم المنفي المعطوف على اسم)إن(وهو مثبت في قوله تعالى)أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى(لوقوع)أن(العاملة فيه في خبر النفي

وهو)أو لم يروا(، وكذلك زيادة)من(في قوله تعالى)ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير(فإن)خير(وقع معمولا لفعل)ينزل(وهو فعل مثبت ولكنه لما انتفت ودادتهم التنزيل صار التنزيل كالمنفي لديهم.

وعطف)وما أنا إلا نذير مبين(على جملة)ما كنت بدعا من الرسل(لأنه الغرض المسوق له الكلام بخلاف قوله)وما أدري ما يفعل بي ولا بكم(.

والمعنى: وما أنا نذير مبين لا مفتر، فالقصر قصر إضافي، وهو قصر قلب لرد قولهم)افتراه(.

)قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فأمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين[10](أعيد الأمر بأن يقول لهم حجة أخرى لعلها تردهم إلى الحق بعد ما تقدم من قوله)قل أرأيتم ما تدعون من دون الله(الآية وقوله)قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا(وقوله)قل ما كنت بدعا من الرسل(الآية.

وهذا استدراج لهم للوصول إلى الحق في درجات النظر فقد بادأهم بأن ما أحالوه من أن يكون رسولا من عند الله ليس بمحال إذ لم يكن أول الناس جاء برسالة من الله. ثم أعقبه بأن القرآن إذا فرضنا أنه من عند الله وقد كفرتم بذلك كيف يكون حالكم عند الله تعالى.

وأقحم في هذا أنه لو شهد شاهد من أهل الكتاب بوقوع الرسالات ونزول الكتب على الرسل، وآمن برسالتي كيف يكون انحطاطكم عن درجته، وقد جاءكم كتاب فأعرضتم عنه، فهذا كقوله)أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم(، وهذا تحريك للهمم. ونظير هذه الآية آية سورة فصلت)قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد(سوى أن هذه أقحم فيها قوله)وشهد شاهد من بني إسرائيل(فإن المشركين كانت له مخالطة مع بعض اليهودي في مكة ولهم صلة بكثير منهم في التجارة بالمدينة وخيبر فلما ظهرت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يسألون من لقوه من اليهود عن أمر الأديان والرسل فكان اليهود لا محالة يخبرون المشركين ببعض الأخبار عن رسالة موسى وكتابه وكيف أظهره الله على فرعون.

فاليهود وإن كانوا لا يقرون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فهم يتحدثون عن رسالة موسى عليه السلام بما هو مماثل لحال النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه وفيه ما يكفي لدفع إنكارهم رسالته.

فالاستفهام في)أرأيتم(تقريري للتوبيخ ومفعولا)أرأيتم(محذوفان.

والتقدير: أرأيتم أنفسكم ظالمين: والضمير المستتر في)إن كان(عائد إلى القرآن المعلوم من السياق أو إلى ما يوحى إلي في قوله آنفا)إن أتبع إلا ما يوحى إلي(. وجملة)وكفرتم به(في موضع الحال من ضمير)أرأيتم(. ويجوز أن يكون عطفا على فعل الشرط. وكذلك جملة)وشهد شاهد من بني إسرائيل(. لأن مضمون كلتا الجملتين واقع فلا يدخل في حيز الشرط، وجواب الشرط محذوف دل عليه سياق الجدل. والتقدير: أفترون أنفسكم في ضلال.

وجملة)إن الله لا يهدي القوم الظالمين(تذييل لجملة جواب الشرط المقدرة وهي تعليل أيضا. والمعنى: أتظنون إن تبين أن القرآن وحي من الله وقد كفرتم بذلك فشهد شاهد على حقية ذلك توقنوا أن الله لم يهدكم لأنكم ظالمون وأن الله لا يهدي الظالمين.

وضميرا)كان(و)مثله(عائدان إلى القرآن الذي سبق ذكره مرات من قوله)تنزيل الكتاب من الله(وقوله)ائتوني بكتاب من قبل هذا(.

وجملة)واستكبرتم(عطف على جملة)وشهد شاهد(الخ وجملة) وشهد شاهد(عطف على جملة)إن كان من عند الله(.